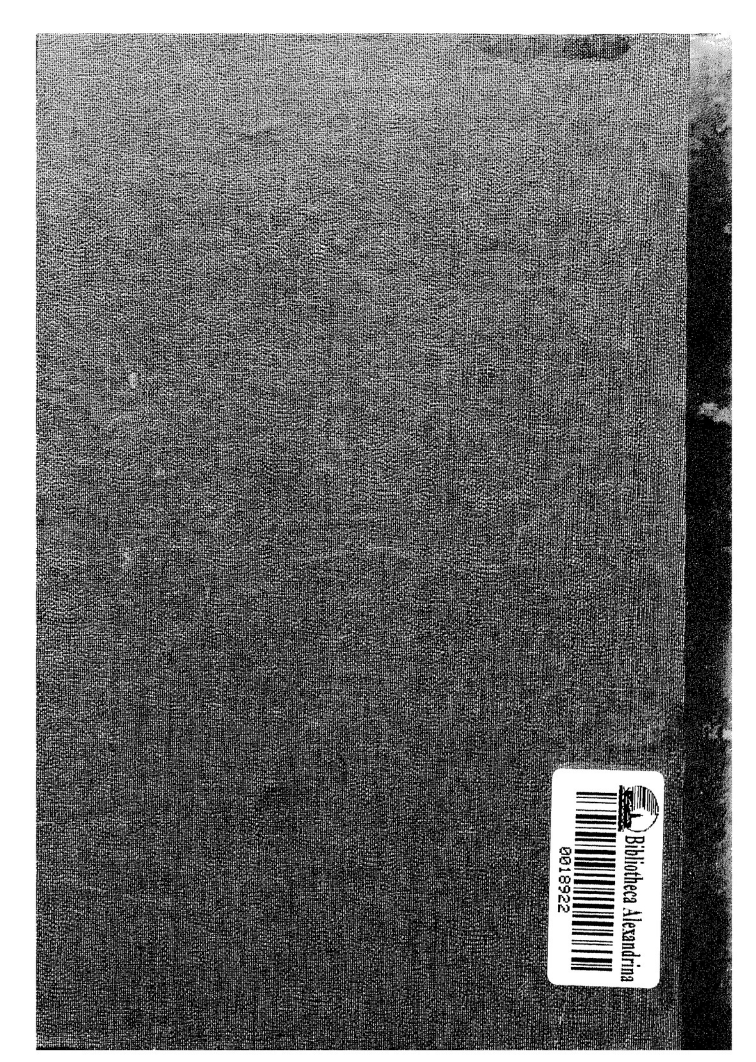


تفسير أبي السعود

أو

إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم

لقاضي القضاة أبي السعود بن محمد العمادي الحنفي

٩٠٠هـ — ٩٨٢هـ

تحقيق

عبد القادر أحمد عطا



بطلب من الناشر

مكتبة الرياض الحديثة

بالرياض


مطبعة السعادة

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الحج

مكية إلا ست آيات من (هذان خصمان) إلى (صراط الحميد)
وهي ثمان وسبعون آية

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم ﴾ خطاب يعم حكمه المكلفين عند النزول ومن سينتظم في سلكهم بعد من الموجودين القاصرين عن رتبة التكليف والحادثين بعد ذلك إلى يوم القيامة وإن كان خطاب المشافهة مختصا بالفريق الأول على الوجه الذي مر تقريره في مطلع سورة النساء ولفظ الناس ينتظم الذكور والإناث حقيقة وأما صيغة جمع المذكور فواردة على نهج التغليب لعدم تناولها للإناث حقيقة إلا عند الحنابلة والمأمور به مطلق التقوى الذي هو التجنب عن كل ما يؤثم من فعل وترك ويندرج فيه الإيمان بالله واليوم الآخر حسبما ورد به الشرع اندراجا أوليا والتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن المالكية والتربية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين لتأييد الأمر وتأكيد إيجاب الامتثال به ترهيبا وترغيبا أي احذروا عقوبة مالك أموركم ومربيكم وقوله تعالى : ﴿ إن زلزلة الساعة شيء عظيم ﴾ تعليل لموجب الأمر بذكر بعض عقوباته الهائلة فإن ملاحظة عظمها وهولها وفظاعة ما هي من مباديه ومقدماته من الأحوال والأهوال التي لا ملجأ منها سوى التدرع بلباس التقوى مما يوجب مزيد الاعتناء بملابسته وملازمته لا محالة والزلزلة التحريك الشديد والإزعاج العنيف بطريق التكرير بحيث يزيل الأشياء من مقارها ويخرجها عن مراكزها وإضافتها إلى الساعة إما إضافة المصدر إلى فاعله على المجاز الحكمي كأنها هي التي تزلزل الأشياء أو إضافته إلى الظرف إما بإجرائه مجرى المفعول به اتساعا

أو بتقدير فى كما فى قوله تعالى : (بل مكر الليل والنهار) وهى الزلزلة المذكورة فى قوله تعالى : (إذا زلزلت الأرض زلزالها) عن الحسن : أنها تكون يوم القيامة وعن ابن عباس رضى الله عنهما زلزلة الساعة قيامها ، وعن علقمة والشعبى : أنها قبل طلوع الشمس من مغربها ، فإضافتها إلى الساعة حينئذ لكونها من أشراطها ، وفى التعبير عنها بالشيء إيذان بأن العقول قاصرة عن إدراك كنهها والعبارة ضيقة لا تحيط بها إلا على وجه الإبهام وقوله تعالى :

﴿ يوم ترونها ﴾ منتصب بما بعده قدم عليه اهتماما به والضمير للزلزلة أى وقت رؤيتكم إياها ومشاهدتكم لهول مطلعها ﴿ تذهل كل مرضعة ﴾ أى مباشرة للإرضاع ﴿ عما أرضعت ﴾ أى تغفل وتذهل مع دهشة عما هى بصدد إرضاعه من طفلها الذى ألقمته[1] ثديها والتعبير عنه بما دون من لتأكيد الذهول وكونه بحيث لا يخطر ببالها أنه ماذا لا أنها تعرف شيئيته لكن لا تدرى من هو بخصوصه وقيل ما مصدرية أى تذهل عن إرضاعها والأول أدل على شدة الهول وكمال الانزعاج . وقرىء تذهل من الإذهال مبنياً للمفعول أو مبنيا للفاعل مع نصب كل ، أى تذهلها الزلزلة ﴿ وتضع كل ذات حمل حملها ﴾ أى تلقى جنينها لغير تمام كما أن المرضعة تذهل عن ولدها لغير فطام وهذا ظاهر على قول علقمة والشعبى وأما على ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما فقد قيل إنه تمثيل لتهويل الأمر وفيه أن الأمر حينئذ أشد من ذلك وأعظم وأهول مما وصف وأطم وقيل : إن ذلك يكون عند النفخة الثانية ، فإنهم يقومون على ما صعقوا فى النفخة الأولى فتقوم المرضعة على إرضاعها والحامل على حملها ولا ريب فى أن قيام الناس من قبورهم بعد النفخة الثانية لا قبلها حتى يتصور ما ذكر ﴿ وترى الناس ﴾ بفتح التاء والراء على خطاب كل أحد من المخاطبين برؤية الزلزلة والاختلاف بالجمعية والإفراد لما أن المرئى فى الأول هى الزلزلة

---

(١) فى ١١١ .... أرضعته

التي يشاهدها الجميع وفي الثاني حال من عدا المخاطب منهم فلابد من إفراد المخاطب على وجه يعم كل واحد منهم لكل من غير اعتبار اتصافه بتلك الحالة فإن المراد بيان تأثير الزلزلة في المرئي لا في الرائي باختلاف مشاعره لأن مداره حيثية رؤيته للزلزلة لا لغيرها كأنه قيل ويصير الناس سكارى إلخ وإنما أوثر عليه ما في التنزيل للإيذان بكمال ظهور تلك الحالة فيهم وبلوغها من الجلاء إلى حد لا يكاد يخفى على أحد أي يراهم كل أحد ﴿ سكارى ﴾ أي كأنهم سكارى ﴿ وما هم بسكارى ﴾ حقيقة ﴿ ولكن عذاب الله شديد ﴾ فيرهقهم هوله ويطير عقولهم ويسلب تمييزهم فهو الذي جعلهم كما وصفوا وقرىء ترى بضم التاء وفتح الراء مسندا إلى المخاطب من رأيتك قائماً أو رؤيتك قائما والناس منصوب أي تظنهم سكارى وقرىء برفع الناس على إسناد الفعل المجهول إليه والتأنيث على تأويل الجماعة وقرىء ترى بضم التاء وكسر الراء أي ترى الزلزلة الخلق جميع الناس سكارى وقرىء سكرى وسكرى كعطشى وجوعى إجراء للسكر مجرى العلل .

﴿ ومن الناس ﴾ كلام مبتدأ جيء به إثر بيان عظم شأن الساعة المنبئة عن البعث بيانا لحال بعض المنكرين لها ومحل الجار الرفع على الابتداء إما بحمله على المعنى أو بتقدير ما يتعلق به كما مر مرارا أي وبعض الناس أو وبعض كائن من الناس ﴿ من يجادل في الله ﴾ أي في شأنه تعالى ويقول فيه ما لا خير فيه من الأباطيل وقوله تعالى ﴿ بغير علم ﴾ حال من ضمير يجادل موضحة لما يشعر بها المجادلة من الجهل أي ملابسا بغير علم . روى أنها نزلت في النضر بن الحرث وكان جدلا يقول الملائكة بنات الله والقرآن أساطير الأولين ولا بعث بعد الموت وهي عامة له ولأضرابه من العتاة المتمردين ﴿ ويتبع ﴾ أي فيما يتعاطاه من المجادلة أو في كل ما يأتي وما يذر من الأمور الباطلة التي من جملتها ذلك ﴿ كل شيطان مريد ﴾ عات متمرد متجرد للفساد وأصله العرى المنبىء عن التمحض له كالتشمر ولعله مأخوذ من تجرد المصارعين عند المصارعة قال الزجاج المريد والمارد المرتفع الأملس والمراد إما رؤساء الكفرة الذين يدعون من

دونهم إلى الكفر وإما إبليس وجنوده وقوله تعالى ﴿ كتب عليه ﴾ أى على الشيطان صفة أخرى له وقوله تعالى ﴿ أنه ﴾ فاعل كتب والضمير للشأن أى رقم به لظهور ذلك من حاله أن الشأن ﴿ من تولاه ﴾ أى اتخذه وليا وتبعه ﴿ فإنه يضله ﴾ بالفتح على أنه خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره محذوف والجملة جواب الشرط إن جعلت من شرطية وخبر لها إن جعلت موصولة متضمنة لمعنى الشرط أى من تولاه فشأنه أن يضله عن طريق الجنة أو طريق الحق أو فحق أنه يضله قطعا وقيل فإنه معطوف على أنه وفيه من التعسف ما لا يخفى وقيل وقيل مما لا يخلو عن التمحل والتأويل وقرىء فإنه بالكسر على أنه خبر لمن أو جواب لها وقرىء بالكسر فيهما على حكاية المكتوب كما هو مثل ما فى قولك كتبت إن الله يأمر بالعدل والإحسان أو على إضمار القول أو تضمين الكتب معناه على رأى من يراه ﴿ ويهديه إلى عذاب السعير ﴾ بحمله على مباشرة ما يؤدى إليه من السيئات .

الرد على منكرى البعث

﴿ يا أيها الناس ﴾ إثر ما حكى أحوال المجادلين بغير علم وأشير إلى ما يؤول إليه أمرهم أقيمت الحجة الدالة على تحقق ما جادلوا فيه من البعث ﴿ إن كنتم فى ريب من البعث ﴾ من إمكانه وكونه مقدورا له تعالى أو من وقوعه وقرىء من البعث بالتحريك كالجلب فى الجلب والتعبير عن اعتقادهم فى حقه بالريب مع التنكير المنبىء عن القلة مع أنهم جازمون باستحالته وإيراد كلمة الشك مع تقرر حالهم فى ذلك وإيثار ما عليه النظم الكريم على أن يقال إن ارتبتم فى البعث فقد مر تحقيقه فى تفسير قوله تعالى (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا) ﴿ فإنا خلقناكم ﴾ أى فانظروا إلى مبدأ خلقكم ليزول ريبكم ، فإنا خلقناكم أى خلقنا كل فرد منكم ﴿ من تراب ﴾ [فى][1] ضمن خلق آدم منه خلقا إجماليا

---

(١) سقطت من ب .

فإن خلق كل فرد من أفراد البشر له حظ من خلقه عليه السلام إذ لم تكن فطرته الشريفة مقصورة على نفسه بل كانت أنموذجا منطويا على فطرة سائر أفراد الجنس انطواء إجماليا مستتبعا لجريان آثارها على الكل فكان خلقه عليه السلام من التراب خلقا للكل منه كما مر تحقيقه مرارا ﴿ثم من نطفة﴾ أى ثم خلقناكم خلقا تفصيليا من نطفة أى من منى من النطف الذى هو الصب ﴿ثم من علقة﴾ أى قطعة من الدم جامدة متكونة من المنى ﴿ثم من مضغة﴾ أى قطعة من اللحم متكونة[1] من العلقة وهى فى الأصل مقدار ما يمضغ ﴿مخلقة﴾ بالجر صفة مضغة أى مستبينة الخلق مصورة ﴿وغير مخلقة﴾ أى لم يستبن خلقها وصورتها بعد والمراد تفصيل حال المضغة وكونها أولا قطعة لم يظهر فيها شىء من الأعضاء ثم ظهرت بعد ذلك شيئاً فشيئاً وكان مقتضى الترتيب السابق المبنى على التدرج من المبادىء البعيدة إلى القريبة أن يقدم غير المخلقة على المخلقة وإنما أخرت عنها لأنها عدم الملكة هذا وقد فسرتا بالمسواة وغير المسواة وبالتامة والساقطة وليس بذاك وفى جعل كل واحدة من هذه المراتب مبدأ لخلقهم لا لخلق ما بعدها من المراتب كما فى قوله تعالى (ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة) الآية مزيد دلالة على عظيم قدرته تعالى وكسر لسورة استبعادهم .

﴿لنبين لكم﴾ متعلق بخلقنا وترك المفعول لتفخيمه كما وكيفا أى خلقناكم على هذا النمط البديع ليبين لكم بذلك ما لا تحصره العبارة من الحقائق والدقائق التى من جملتها سر البعث فإن من تأمل فيما ذكر من الخلق التدريجى تأملا حقيقيا جزم جزما ضروريا بأن من قدر على خلق البشر أولا من تراب لم يشم رائحة الحياة قط وإنشائه على وجه مصحح لتوليد مثله مرة بعد أخرى بتصريفه فى أطوار الخلقة وتحويله من حال إلى حال مع ما بين تلك الأطوار والأحوال من المخالفة والتباين فهو قادر على إعادته بل هو أهون فى القياس نظرا إلى الفاعل والقابل وقرىء ليبين بطريق الالتفات وقوله تعالى ﴿ونقر فى الأرحام ما نشاء﴾

---

(١) فى ١٠ : تكونت من العلقة .

استئناف مسوق لبيان حالهم بعد تمام خلقهم وعدم نظم هذا وما عطف عليه فى سلك الخلق المعلل بالتبيين مع كونهما من متمماته ومن مبادى التبيين أيضا لما أن دلالة الأول على كمال قدرته تعالى على جميع المقدورات التى من جملتها البعث المبحوث عنه أجلى وأظهر أى ونحن نقر فى الأرحام بعد ذلك ما نشاء أن نقره فيها .

﴿ إلى أجل مسمى ﴾ هو وقت الوضع وأدناه ستة أشهر وأقصاه سنتان وقيل أربع سنين وفيه إشارة إلى أن بعض ما فى الأرحام لا يشاء الله تعالى إقراره فيها بعد تكامل خلقه فتسقطه والتعرض للإزلاق لا يناسب المقام لأن الكلام فيما جرى عليه أطوار الخلق وهذا صريح فى أن المراد بغير المخلقة ليس من ولد ناقصا أو معيبا وأن ما فصل إلى هنا هى الأطوار المتواردة على المولود قبل الولادة وقرىء يقر بالياء ونقر ويقر بضم القاف من قررت الماء إذا صببته ﴿ ثم نخرجكم ﴾ أى من بطون أمهاتكم بعد إقراركم فيها عند تمام الأجل المسمى ﴿ طفلا ﴾ أى حال كونكم أطفالا والإفراد باعتبار كل واحد منهم أو بإرادة الجنس المنتظم للواحد والمتعدد وقرىء يخرجكم بالياء وقوله تعالى :

﴿ ثم لتبلغوا أشدكم ﴾ علة لنخرجكم معطوفة على علة أخرى له مناسبة لها كأنه قيل ثم نخرجكم لتكبروا شيئاً فشيئاً ثم لتبلغوا كمالكم فى القوة والعقل والتمييز وقيل التقدير ثم نمهلكم لتبلغوا إلخ وما قيل إنه معطوف على نبين مخل بجزالة النظم الكريم هذا وقد قرىء ما قبله من الفعلين بالنصب حكاية وغيبة فهو حينئذ عطف على نبين مثلهما والمعنى خلقناكم على التدريج المذكور لغايتين مترتبتين عليه إحداهما أن نبين شئوننا والثانية أن نقركم فى الأرحام ثم نخرجكم صغارا ثم لتبلغوا أشدكم وتقديم التبيين على ما بعده مع أن حصوله بالفعل بعد الكل للإيذان بأنه غاية الغايات ومقصود بالذات وإعادة اللام ههنا مع تجريد الأولين عنها للإشعار بأصالته فى الغرضية بالنسبة إليهما إذ عليه يدور التكليف المؤدى إلى السعادة والشقاوة وإيثار البلوغ مسندا إلى المخاطبين على التبليغ مسندا إليه تعالى كالأفعال السابقة لأنه المناسب لبيان حال اتصافهم بالكمال

واستقلالهم بمبدئية الآثار والأفعال والأشد من ألفاظ الجموع التي لم يستعمل لها واحد كالأسدة والقتود وكأنها حين كانت شدة في غير شيء بنيت على لفظ الجمع ﴿ ومنكم من يتوفى ﴾ أي بعد بلوغ الأشد أو قبله وقرىء يتوفى مبنيا للفاعل أي يتوفاه الله تعالى ﴿ ومنكم من يرد إلى أرذل العمر ﴾ وهو الهرم والخرف وقرىء بسكون الميم وإيراد الرد والتوفى على صيغة المبنى للمفعول للجرى على سنن الكبرياء لتعين الفاعل ﴿ لكيلا يعلم من بعد علم ﴾ أي علم كثير ﴿ شيئا ﴾ أي شيئاً من الأشياء أو شيئا من العلم مبالغة في انتقاص علمه وينكر ما عرفه ويعجز عما قدر عليه وفيه من التنبيه على صحة البعث ما لا يخفى .

﴿ وترى الأرض هامدة ﴾ حجة أخرى على صحة البعث والخطاب لكل أحد ممن يتأتى منه الرؤية وصيغة المضارع للدلالة على التجدد والاستمرار وهي بصرية وهامدة حال من الأرض أي ميتة يابسة من همدت النار إذا صارت رمادا ﴿ فإذا أنزلنا عليها الماء ﴾ أي المطر ﴿ اهتزت ﴾ تحركت بالنبات ﴿ وربت ﴾ انتفخت وازدادت ، وقرىء ربأت أي ارتفعت ﴿ وأنبتت من كل زوج ﴾ أي صنف ﴿ بهيج ﴾ حسن رائق يسر ناظره ﴿ ذلك بأن الله هو الحق ﴾ كلام مستأنف جيء به إثر تحقيق حقية البعث وإقامة البرهان عليه من العالمين الإنساني والنباتي لبيان أن ذلك من آثار ألوهيته تعالى وأحكام شئونه الذاتية والوصفية والفعلية وأن ما ينكرون وجوده بل إمكانه من إتيان الساعة والبعث من أسباب تلك الآثار العجيبة التي يشاهدونها في الأنفس والآفاق ومبادي صدورها عنه تعالى وفيه من الإيذان بقوة الدليل وأصالة المدلول في التحقق وإظهار بطلان إنكاره ما لا يخفى فإن إنكار تحقق السبب مع الجزم بتحقق المسبب مما يقضي ببطلانه بديهة العقول والمراد بالحق هو الثابت الذي يحق ثبوته لا محالة لكونه لذاته لا الثابت مطلقا وذلك إشارة إلى ما ذكر من خلق الإنسان على أطوار مختلفة وتصريفه في أحوال متباينة وإحياء الأرض بعد موتها وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلته في الكمال وهو مبتدأ خبره

الجار والمجرور أى ذلك الصنع البديع حاصل بسبب أنه تعالى هو الحق وحده في ذاته وصفاته وأفعاله المحقق لما سواه من الأشياء ﴿ وأنه يحيي الموتى ﴾ أى شأنه وعادته إحياؤها وحاصله أنه تعالى قادر على إحيائها بدءاً وإعادة وإلا لما أحيا النطفة والأرض الميتة مرارا بعد مرار وما تفيده صيغة المضارع من التجدد إنما هو باعتبار تعلق القدرة ومتعلقها لا باعتبار نفسها ﴿ وأنه على كل شيء قدير ﴾ أي مبالغ في القدرة وإلا لما أوجد هذه الموجودات الفائتة للحصر التي من جملتها ما ذكر وأما الاستدلال على ذلك بأن قدرته تعالى لذاته الذى نسبته إلى الكل سواء فلما دلت المشاهدة على قدرته على إحياء بعض الأموات لزم اقتداره على إحياء كلها فمنشؤه الغفول عما سيق له النظم الكريم من بيان كون الآثار الخاصة المذكورة من فروع القدرة العامة التامة ومسبباتها وتخصيص إحياء الموتى بالذكر مع كونه من جملة الأشياء المقدور عليها للتصريح بما فيه النزاع والدفع في نحو المنكرين وتقديمه لإبراز الاعتناء به .

﴿ وأن الساعة آتية ﴾ أى فيما سيأتى وإيثار صيغة الفاعل على الفعل للدلالة على تحقق إتيانها وتقرره البتة لاقتضاء الحكمة إياه لا محاله وتعليله بأن التغير من مقدمات الانصرام وطلائعه مبنى على ما ذكر من الغفول وقوله تعالى ﴿ لا ريب فيها ﴾ إما خبر ثان لأن أو حال من ضمير الساعة في الخبر ومعنى نفى الريب عنها أنها في ظهور أمرها ووضوح دلائلها التكوينية والتنزيلية بحيث ليس فيها مظنة أن يرتاب في إتيانها حسبما مر في مطلع سورة البقرة والجملة عطف على المجرور بالباء كما قبلها من الجملتين داخلة مثلهما في حيز السببية وكذا قوله عز وجل ﴿ وأن الله يبعث من في القبور ﴾ لكن لا من حيث أن إتيان الساعة وبعث الموتى مؤثران فيما ذكر من أفاعيله تعالى تأثير القدرة فيها بل من حيث إن كلا منهما سبب داع له عز وجل بموجب رأفته بالعباد المبنية على الحكم البالغة إلى ماذكر من خلقهم ومن إحياء الأرض الميتة على نمط بديع صالح للاستشهاد به على مكانهما ليتأملوا في ذلك ويستدلوا به على وقوعهما لا محالة ويصدقوا بما

ينطق بهما من الوحى المبين وينالوا به السعادة الأبدية ولولا ذلك لما فعل تعالى ما فعل بل لما خلق العالم رأسا وهذا كما ترى من أحكام حقيته تعالى فى صفاته وكونها فى غاية الكمال وقد جعل إتيان الساعة وبعث من فى القبور لكونهما من روادف الحكمة كناية عن كونه تعالى حكيما كأنه قيل ذلك بسبب أنه تعالى قادر على إحياء الموتى وعلى كل مقدور وأنه حكيم لا يخلف ميعاده وقد وعد بالساعة والبعث فلا بد أن يفى بما وعد وأنت خبير بأن مآله الاستدلال بحكمته تعالى على إتيان الساعة والبعث وليس الكلام فى ذلك بل إنما هو فى سببيتهما لما مر من خلق الإنسان وإحياء الأرض فتأمل وكن على الحق المبين وقيل قوله تعالى (وأن الساعة آتية) ليس معطوفا على المجرور بالباء ، ولا داخلا فى حيز السببية بل هو خبر والمبتدأ محذوف لفهم المعنى والتقدير والأمر أن الساعة آتية وأن الثانية معطوفة على الأولى وقيل المعنى ذلك لتعلموا بأن الله هو الحق الآيتين .

الراسخون فى الكفر والمذبذبون فيه

﴿ ومن الناس من يجادل فى الله ﴾ هو أبو جهل بن هشام حسبما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما وقيل هو من يتصدى لإضلال الناس وإغوائهم كائنا من كان كما أن الأول من يقلدهم على أن الشيطان عبارة عن المضل المغوى على الإطلاق ﴿ بغير علم ﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا من ضمير يجادل أى كائنا بغير علم والمراد العلم الضرورى كما أن المراد بالهدى فى قوله تعالى ﴿ ولا هدى ﴾ هو الاستدلال والنظر الصحيح الهادى إلى المعرفة ﴿ ولا كتاب منير ﴾ وحى مظهر للحق أى يجادل فى شأنه تعالى من غير تمسك بمقدمة ضرورية ولا بحجة نظرية ولا ببرهان سمعى كما فى قوله تعالى (ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطانا وما ليس لهم به علم) وأما ما قيل من أن المراد به المجادل الأول والتكرير للتأكيد والتمهيد لما بعده من بيان أنه لا سند له من استدلال أو وحى فلا يساعده النظم الكريم ، كيف لا وإن وصفه باتباع كل شيطان موصوف

بما ذكر يغنى عن وصفه بالعراء عن الدليل العقلى والسمعى ﴿ ثانى عطفه ﴾ حال أخرى من فاعل يجادل أى عاطفا لجانبه وطاويا كشحه معرضا متكبرا فإن ثنى العطف كناية عن التكبر وقرىء بفتح العين أى مانعا لتعطفه .

﴿ ليضل عن سبيل الله ﴾ متعلق بيجادل فإن غرضه الإضلال عنه وإن لم يعترف بأنه إضلال والمراد به إما الإخراج من الهدى إلى الضلال فالمفعول من يجادله من المؤمنين أو الناس جميعاً بتغليب المؤمنين على غيرهم وإما التثبيت على الضلال أو الزيادة عليه مجازاً فالمفعول هم الكفرة خاصة وقرىء بفتح الياء وجعل ضلاله غاية لجداله من حيث أن المراد به الضلال المبين الذى لا هداية له بعده مع تمكنه منها قبل ذلك ﴿ له فى الدنيا خزى ﴾ جملة مستأنفة مسوقة لبيان نتيجة ما سلكه من الطريقة أى يثبت له فى الدنيا بسبب ما فعله خزى وهو ما أصابه يوم بدر من القتل والصغار ﴿ ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ﴾ أى النار المحرقة .

﴿ ذلك ﴾ أى ما ذكر من العذاب الدنيوى والأخروى وما فيه من معنى البعد للإيذان بكونه فى الغاية القاصية من الهول والفظاعة وهو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿ بما قدمت يداك ﴾ أى بسبب ما اقترفته من الكفر والمعاصى وإسناده إلى يديه لما أن الاكتساب عادة يكون بالأيدى والالتفات لتأكيد الوعيد وتشديد التهديد ومحل أن فى قوله عز وعلا ﴿ وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ الرفع على أنه خبر مبتدأ أى والأمر أنه تعالى ليس بمعذب لعبيده بغير ذنب من قبلهم والتعبير عن ذلك بنفى الظلم مع أن تعذيبهم بغير ذنب ليس بظلم قطعا على ما تقرر من قاعدة أهل السنة فضلا عن كونه ظلما بالغاً قد مر تحقيقه فى سورة آل عمران والجملة اعتراض تذييلى[1] مقرر لمضمون ما قبلها وأما ما قيل من أن محل أن هو الجر بالعطف على ما قدمت فقد عرفت حاله فى سورة الأنفال ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف ﴾ شروع فى بيان حال المذبذبين إثر بيان حال المجاهرين

---

(١) فى ١٠٠: التذييل .

أى ومنهم من يعبده [سبحانه](١) وتعالى على طرف من الدين لا ثبات له فيه كالذى ينحرف إلى طرف الجيش فإن أحس بظفر قر وإلا فر ﴿ فإن أصابه خير ﴾ أى دنيوى من الصحة والسعة ﴿ اطمأن به ﴾ أى ثبت على ما كان عليه ظاهراً لا أنه اطمأن به اطمئنان المؤمنين الذين لا يلويهم عنه صارف ولا يثنيهم عاطف ﴿ وإن أصابته فتنة ﴾ أى شىء يفتتن به من مكروه يعتريه فى نفسه أو أهله أو ماله ﴿ انقلب على وجهه ﴾ روى أنها نزلت فى أعاريب قدموا المدينة وكان أحدهم إذا صح بدنه ونتجت فرسه مهراً سريا وولدت امرأته ولدا سويا وكثر ماله وماشيته قال ما أصبت منذ دخلت فى دينى هذا إلا خيرا واطمأن وإن كان الأمر بخلافه قال ما أصبت إلا شراً وانقلب وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن يهوديا أسلم فأصابته مصائب فتشاءم بالإسلام فأتى النبى عليه الصلاة والسلام فقال أقلنى فقال عليه السلام إن الإسلام لا يقال فنزلت وقيل نزلت فى المؤلفة قلوبهم .

﴿ خسر الدنيا والآخرة ﴾ فقدهما وضيعهما بذهاب عصمته وحبوط عمله بالارتداد وقرىء خاسر بالنصب على الحال والرفع على الفاعلية ووضع الظاهر موضع الضمير تنصيصا على خسرانه أو على أنه خبر مبتدأ محذوف ﴿ ذلك ﴾ أى ما ذكر من الخسران وما فيه من معنى البعد للإيذان بكونه فى غاية ما يكون ﴿ هو الخسران المبين ﴾ الواضح كونه خسرانا إذ لا خسران مثله ﴿ يدعو من دون الله ﴾ استئناف مبين لعظم الخسران أى يعبد متجاوزا عبادة الله تعالى ﴿ ما يضره ﴾ إذا لم يعبده ﴿ وما لا ينفعه ﴾ إن عبده أى جمادا ليس من شأنه النفع كما يلوح به تكرير كلمة ما ﴿ ذلك ﴾ الدعاء ﴿ هو الضلال البعيد ﴾ عن الحق والهدى مستعار من ضلال من أبعد فى التيه ضالا عن الطريق ﴿ يدعو لمن ضره أقرب من نفعه ﴾ استئناف مسوق لبيان مآل دعائه المذكور وتقرير كونه ضلالا بعيدا مع إزاحة ما عسى يتوهم من نفى الضرر عن معبوده بطريق

---

(١) سقطت من ط .

المباشرة نفيه عنه بطريق التصبيب أيضا فالدعاء بمعنى القول واللام داخلة على الجملة الواقعة مقولا له ومن مبتدأ وضره مبتدأ ثان خبره أقرب والجملة صلة للمبتدأ الأول وقوله تعالى ﴿ لبئس المولى ولبئس العشير ﴾ جواب لقسم مقدر هو جوابه خبر للمبتدأ الأول وإيثار من على ما مع كون معبوده جمادا وإيراد صيغة التفضيل مع خلوه عن النفع بالمرة للمبالغة فى تقبيح حاله والإمعان فى ذمه أى يقول ذلك الكافر يوم القيامة بدعاء وصراخ حين يرى تضرره بمعبوده ودخوله النار بسببه ولا يرى منه أثر النفع أصلا لمن ضره أقرب من نفعه والله لبئس الناصر هو ولبئس الصاحب هو فكيف بما هو ضرر محض عار عن النفع بالكلية ويجوز أن يكون يدعو الثانى إعادة للأول لا تأكيدا له فقط بل وتمهيدا لما بعده من بيان سوء حال معبوده إثر بيان سوء حال عبادته بقوله تعالى (ذلك هو الضلال البعيد) كأنه قيل من جهته تعالى بعد ذكر عبادته لما لا يضره ولا ينفعه يدعو ذلك ثم قيل لمن ضره أقرب من نفعه والله لبئس المولى ولبئس العشير فكلمة من وصيغة التفضيل للتهكم به وقيل اللام زائدة ومن مفعول يدعو، ويؤيده القراءة بغير لام أى يعبد من ضره أقرب من نفعه وإيراد كلمة من وصيغة التفضيل تهكم به أيضا والجملة القسمية مستأنفة .

﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات ﴾ استئناف جيء به لبيان كمال حسن حال المؤمنين العابدين له تعالى وأن الله عز وجل يتفضل عليهم بما لا غاية وراءه من أجل المنافع وأعظم الخيرات إثر بيان غاية سوء حال الكفرة ومآلهم من فريق المجاهرين والمذبذبين وأن معبودهم لا يجديهم شيئا من النفع بل يضرهم مضرة عظيمة وأنهم يعترفون بسوء ولايته وعشرته ويذمونه مذمة تامة وقوله تعالى ﴿ تجرى من تحتها الأنهار ﴾ صفة لجنات فإن أريد بها الأشجار المتكاثفة الساترة لما تحتها فجريان الأنهار من تحتها ظاهر ، وإن أريد بها الأرض فلا بد من تقدير مضاف أى من تحت أشجارها ، وإن جعلت عبارة عن مجموع الأرض والأشجار فاعتبار التحتية بالنظر إلى الجزء الظاهر المصحح لإطلاق اسم الجنة على الكل كما مر تفصيله فى أوئل سورة

البقرة وقوله تعالى ﴿ إن الله يفعل ما يريد ﴾ تعليل لما قبله وتقرير له بطريق التحقيق أى يفعل البتة كل ما يريده من الأفعال المتقنة اللائقة المبنية على الحكم الرائقة التى من جملتها إثابة من آمن به وصدق رسوله صلى الله عليه وسلم وعقاب من أشرك به وكذب برسوله عليه السلام ولما كان هذا من آثار نصرته تعالى له عليه السلام عقب بقوله عز وعلا :

﴿ من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة ﴾ تحقيقا لها وتقريرا لثبوتها على أبلغ وجه وآكده وفيه إيجاز بارع واختصار رائع والمعنى أنه تعالى ناصر لرسوله فى الدنيا والآخرة لا محالة من غير صارف يلويه ولا عاطف يثنيه فمن كان يغيظه ذلك من أعاديه وحساده ويظن أن لن يفعله تعالى بسبب مدافعته ببعض الأمور ومباشرة ما يرده من المكايد فليبالغ فى استفراغ المجهود وليجاوز فى الجد كل حد معهود فقصارى أمره وعاقبة مكره أن يختنق حنقا مما يرى من ضلال مساعيه وعدم إنتاج مقدماته ومباديه ﴿ فليمدد بسبب إلى السماء ﴾ فليمدد حبلا إلى سقف بيته ﴿ ثم ليقطع ﴾ أى ليختنق من قطع إذا اختنق لأنه يقطع نفسه بحبس مجاريه وقيل ليقطع الحبل بعد الاختناق على أن المراد به فرض القطع وتقديره كما أن المراد بالنظر فى قوله تعالى : ﴿ فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ ﴾ تقدير النظر وتصويره أى فليصور فى نفسه النظر هل يذهبن كيده ذلك الذى هو أقصى ما انتهت إليه قدرته فى باب المضادة والمضارة ما يغيظه من النصرة كلا ويجوز أن يراد فلينظر الآن أنه إن فعل ذلك هل يذهب ما يغيظه ، وقيل المعنى فليمدد حبلا إلى السماء المظلة وليصعد عليه ثم ليقطع الوحى وقيل ليقطع المسافة حتى يبلغ عنانها فيجتهد فى دفع نصره ويأباه أن مساق النظم الكريم بيان أن الأمور المفروضة على تقدير وقوعها وتحققها بمعزل من إذهاب ما يغيظ ومن البين أن لا معنى لفرض وقوع الأمور الممتنعة وترتيب الأمر بالنظر عليه لاسيما قطع الوحى فإن فرض وقوعه مخل بالمرام قطعا وقيل كان قوم من المسلمين لشدة غيظهم وحنقهم على المشركين يستبطئون ما وعد الله رسوله عليه الصلاة والسلام من النصر وآخرون من المشركين

يريدون اتباعه عليه السلام ويخشون أن لا يثبت أمره فنزلت وقد فسر النصر بالرزق فالمعنى أن الأرزاق بيد الله تعالى لا تنال إلا بمشيئته تعالى فلا بد للعبد من الرضا بقسمته فمن ظن أن الله تعالى غير رازقه ولم يصبر ولم يستسلم فليبلغ غاية الجزع وهو الاختناق فإن ذلك لا يغلب القسمة ولا يرده مرزوقا ﴿ وكذلك ﴾ أى مثل ذلك الإنزال البديع المنطوى على الحكم البالغة ﴿ أنزلناه ﴾ أى القرآن الكريم كله وقوله تعالى : ﴿ آيات بينات ﴾ أى واضحات الدلالة على معانيها الرائقة حال من الضمير المنصوب مبينة لما أشير إليه بذلك ﴿ وأن الله يهدى ﴾ به ابتداء أو يثبت على الهدى أو يزيد فيه ﴿ من يريد ﴾ هدايته أو تثبيته أو زيادته فيها ومحل الجملة إما الجر على حذف الجار أو متعلق بمحذوف مؤخر أى ولأن الله يهدى من يريد أنزله كذلك أو الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أى والأمر أن الله يهدى من يريد هدايته .

الله يفصل بين الناس فى الآخرة

﴿ إن الذين آمنوا ﴾ أى بما ذكر من الآيات البينات بهداية الله تعالى أو بكل ما يجب أن يؤمن به فيدخل فيه ما ذكر دخولا أوليا ﴿ والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس ﴾ قيل هم قوم يعبدون النار وقيل الشمس والقمر وقيل هم قوم من النصارى اعتزلوا عنهم ولبسوا المسوح وقيل أخذوا من دين النصارى شيئا ومن دين اليهود شيئا وهم القائلون بأن للعالم أصلين نورا وظلمة ﴿ والذين أشركوا ﴾ هم عبدة الأصنام وقوله تعالى ﴿ ان الله يفصل بينهم يوم القيامة ﴾ فى حيز الرفع على أنه خبر لإن السابقة وتصدير طرفى الجملتين بحرف التحقيق لزيادة التقدير والتأكيد أى يقضى بين المؤمنين وبين الفرق الخمس المتفقة على ملة الكفر بإظهار المحق من المبطل وتوفية كل منهما حقه من الجزاء بإثابة الأول وعقاب الثانى بحسب[1] استحقاق أفراد كل منهما وقوله تعالى ﴿ إن الله

---

(١) فى ١٠ : حسب

على كل شيء شهيد ﴾ تعليل لما قبله من الفصل أى عالم بكل شيء من الأشياء ومراقب لأحواله ومن قضيته الإحاطة بتفاصيل ما صدر عن كل فرد من أفراد الفرق المذكورة وإجراء جزائه اللائق به عليه وقوله تعالى ﴿ ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض ﴾ الخ بيان لما يوجب الفصل المذكور من أعمال الفرق المذكورة مع الإشارة إلى كيفيته وكونه بطريق التعذيب والإثابة والإكرام والإهانة إثر بيان ما يوجبه من كونه تعالى شهيدا على جميع الأشياء التى من جملتها أحوالهم وأفعالهم والمراد بالرؤية العلم عبر عنه بها إشعارا بظهور المعلوم والخطاب لكل أحد ممن يتأتى منه الرؤية بناء على أنه من الجلاء بحيث لا يخفى على أحد والمراد بالسجود هو الانقياد التام لتدبيره تعالى بطريق الاستعارة المبنية على تشبيهه بأكمل أفعال المكلف فى باب الطاعة إيذانا بكونه فى أقصى مراتب التسخر والتذلل لا سجود الطاعة الخاصة بالعقلاء سواء جعلت كلمة عامة لغيرهم أيضا وهو الأنسب بالمقام لإفادته شمول الحكم لكل ما فيهما بطريق القرار فيهما أو بطريق الجزئية منهما فيكون قوله تعالى :

﴿ والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب ﴾ إفرادا لها بالذكر لشهرتها واستبعاد ذلك منها عادة أو جعلت خاصة بالعقلاء لعدم شمول سجود الطاعة لكلهم حسبما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿ وكثير من الناس ﴾ فإنه مرتفع بفعل مضمر يدل عليه المذكور أى ويسجد له كثير من الناس سجود طاعة وعبادة ومن قضيته انتفاء ذلك عن بعضهم وقيل هو مرفوع على الابتداء حذف خبره ثقة بدلالة خبر قسيمه عليه نحو حق له الثواب والأول هو الأولى لما فيه من الترغيب فى السجود والطاعة وقد جوز أن يكون من الناس خبرا له أى من الناس الذين هم الناس على الحقيقة وهم الصالحون والمتقون وأن يكون قوله تعالى ﴿ وكثير ﴾ معطوفا على كثير الأول للإيذان بغاية الكثرة ثم يخبر عنهم باستحقاق العذاب كأنه قيل وكثير وكثير من الناس ﴿ حق عليه العذاب ﴾

أى بكفره واستعصائه وقرىء حق بالضم وحقا أى حق عليه العذاب حقا ﴿ومن يهن الله﴾ بأن كتب عليه الشقاوة حسبما علمه من صرف اختياره إلى الشر ﴿فما له من مكرم﴾ يكرمه بالسعادة وقرىء بفتح الراء على أنه مصدر ميمى ﴿إن الله يفعل ما يشاء﴾ من الأشياء التى من جملتها الإكرام والإهانة .

﴿هذان﴾ تعيين لطرفى الخصام وإزاحة لما عسى يتبادر إلى الوهم من كونه بين كل واحدة من الفرق الست وبين البواقى وتحرير لمحله أى فريق المؤمنين وفريق الكفرة المنقسم إلى الفرق الخمس ﴿خصمان﴾ أى فريقان مختصمان وإنما قيل ﴿اختصموا فى ربهم﴾ حملا على المعنى أى اختصموا فى شأنه عز وجل وقيل فى دينه وقيل ذاته وصفاته والكل من شئونه تعالى فإن اعتقاد كل من الفريقين بحقية ما هو عليه وبطلان ما عليه صاحبه وبناء أقواله وأفعاله عليه خصومة للفريق الآخر وإن لم يجر بينهما التحاور والخصام وقيل تخاصمت اليهود والمؤمنون فقالت اليهود نحن أحق بالله وأقدم منكم كتابا ونبينا قبل نبيكم وقال المؤمنون نحن أحق بالله منكم آمنا بمحمد وبنبيكم وبما أنزل الله من كتاب وأنتم تعرفون كتابنا ونبينا ثم كفرتم به حسدا فنزلت ﴿فالذين كفروا﴾ تفصيل لما أجمل فى قوله تعالى (يفصل بينهم يوم القيامة) ﴿قطعت لهم﴾ أى قدرت على مقادير جثثهم وقرىء بالتخفيف ﴿ثياب من نار﴾ أى نيران هائلة تحيط بهم إحاطة الثياب بلابسها ﴿يصب من فوق رؤوسهم الحميم﴾ أى الماء الحار الذى انتهت حرارته قال ابن عباس رضى الله عنهما لو قطرت قطرة منها على جبال الدنيا لأذابتها والجملة مستأنفة أو خبر ثان للموصول أو حال من ضمير لهم ﴿يصهر به﴾ أى يذاب ﴿ما فى بطونهم﴾ من الأمعاء والأحشاء وقرىء يصهر بالتشديد ﴿والجلود﴾ عطف على ما وتأخيره عنه إما لمراعاة الفواصل أو للإشعار بغاية شدة الحرارة بإيهام أن تأثيرها فى الباطن أقدم من تأثيرها فى الظاهر مع أن ملابستها على العكس والجملة حال من الحميم .

﴿ولهم﴾ للكفرة أى لتعذيبهم وأجلهم ﴿مقامع من حديد﴾ جمع مقمعة وهى آلة القمع ﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منها﴾ أى أشرفوا على الخروج من

النار ودنوا منه حسبما يروى أنها تضربهم بلهيبها فترفعهم حتى إذا كانوا فى أعلاها ضربوا بالمقامع فهووا فيها سبعين خريفا ﴿من غم﴾ أى من غم شديد من غمومها وهو بدل اشتمال من الهاء بإعادة الجار والرابط محذوف كما أشير إليه أو مفعول له للخروج ﴿أعيدوا فيها﴾ أى فى قعرها بأن ردوا من أعاليها إلى أسافلها من غير أن يخرجوا منها ﴿وذوقوا﴾ على تقدير قول معطوف على أعيدوا أى وقيل لهم ﴿عذاب الحريق﴾ أى الغليظ من النار المنتشر العظيم الإهلاك ﴿إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار﴾ بيان لحسن حال المؤمنين إثر بيان سوء حال الكفرة وقد غير الأسلوب فيه بإسناد الإدخال إلى الله عز وجل وتصدير الجملة بحرف التحقيق إيذانا بكمال مباينة حالهم لحال الكفرة وإظهارا لمزيد العناية بأمر المؤمنين ودلالة على تحقيق مضمون الكلام ﴿يحلون فيها﴾ على البناء للمفعول بالتشديد من التحلية وقرىء بالتخفيف من الإحلاء بمعنى الإلباس أى يحليهم الملائكة بأمره تعالى وقرىء يحلون من حلية المرأة إذا لبست حليتها ومن فى قوله تعالى ﴿من أساور﴾ إما للتبعيض أى بعض أساور وهى جمع أسورة جمع سوار أو للبيان لما أن ذكر التحلية مما ينبىء عن الحلى المبهم وقيل زائدة وقيل نعت لمفعول محذوف ليحلون فإنه بمعنى يلبسون ﴿من ذهب﴾ بيان للأساور ﴿ولؤلؤا﴾ عطف على محل من أساور أو على المفعول المحذوف أو منصوب بفعل مضمر يدل عليه يحلون أى يؤتون وقرىء بالجر عطفا على أساور وقرىء لولوا بقلب الهمزة الثانية واوا ولوليا بقلبها ياء بعد قلبهما واوا وليليا بقلبهما ياء ﴿ولباسهم فيها حرير﴾ غير الأسلوب حيث لم يقل ويلبسون فيها حريرا لكن لا للدلالة على أن الحرير ثيابهم المعتادة أو لمجرد المحافظة على هيئة الفواصل بل للإيذان بأن ثبوت اللباس لهم أمر محقق غنى عن البيان إذ لا يمكن عراؤهم عنه وإنما المحتاج إلى البيان أن لباسهم ماذا بخلاف الأساور واللؤلؤ فإنها ليست من اللوازم الضرورية فجعل بيان تحليتهم بها مقصودا بالذات ولعل هذا هو الباعث إلى تقديم بيان التحلية على بيان حال اللباس .

﴿ وهدوا إلى الطيب من القول ﴾ وهو قولهم الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة الآية ﴿ وهدوا إلى صراط الحميد ﴾ أى المحمود نفسه أو عاقبته وهو الجنة ووجه التأخير حينئذ أن ذكر الحمد يستدعى ذكر المحمود ﴿ إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله ﴾ ليس المراد به حالا ولا استقبالا وإنما هو استمرار الصد ولذلك حسن عطفه على الماضى كما فى قوله تعالى (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله) وقيل هو حال من فاعل كفروا أى وهم يصدون وخبر إن محذوف لدلالة آخر الآية الكريمة عليه فإن من ألحد فى الحرم حيث عوقب بالعذاب الأليم فلأن يعاقب من جمع إليه الكفر والصد عن سبيل الله بأشد من ذلك أحق وأولى ﴿ والمسجد الحرام ﴾ عطف على سبيل الله قيل المراد به مكة بدليل وصفه بقوله تعالى ﴿ الذى جعلناه للناس ﴾ أى كائنا من كان من غير فرق بين مكى وآفاقى ﴿ سواء العاكف فيه والباد ﴾ أى المقيم والطارىء وسواء أى مستويا مفعول ثان لجعلناه والعاكف مرتفع به واللام متعلق به ظرف له وفائدة وصف المسجد الحرام بذلك زيادة تشنيع الصادين عنه وقرىء سواء بالرفع على أنه خبر مقدم والعاكف مبتدأ والجملة مفعول ثان للجعل وقرىء العاكف بالجر على أنه بدل من الناس ﴿ ومن يرد فيه ﴾ مما ترك مفعوله ليتناول كل متناول كأنه قيل ومن يرد فيه مرادا ما ﴿ بإلحاد ﴾ بعدول عن القصد ﴿ بظلم ﴾ بغير حق وهما حالان مترادفان أو الثانى بدل من الأول بإعادة الجار أو صلة له أى ملحدا بسبب الظلم كالإشراك واقتراف الآثام ﴿ نذقه من عذاب أليم ﴾ جواب لمن

إبراهيم وتشريع الحج

﴿ وإذ بوأنا ﴾ يقال بوأه منزلا أى أنزله فيه ولما لزمه جعل الثانى مباءة للأول وقيل ﴿ لإبراهيم مكان البيت ﴾ وعليه مبنى قول ابن عباس رضى الله عنهما جعلناه أى اذكر وقت جعلنا مكان البيت مباءة له عليه السلام أى مرجعا يرجع إليه للعمارة والعبادة وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت مع أن المقصود

تذكير ما وقع فيه من الحوادث قد مر بيانه غير مرة وقيل اللام زائدة ومكان ظرف كما فى أصل الاستعمال أى أنزلناه فيه قيل رفع البيت إلى السماء أيام الطوفان وكان من ياقوتة حمراء فأعلم الله تعالى إبراهيم عليه السلام مكانه بريح أرسلها يقال لها الخجوج كنست ماحوله فبناه على أسه القديم روى أن الكعبة الكريمة بنيت خمس مرات إحداها بناء الملائكة وكانت من ياقوتة حمراء ثم رفعت أيام الطوفان والثانية بناء إبراهيم عليه السلام والثالثة بناء قريش فى الجاهلية وقد حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا البناء والرابعة بناء ابن الزبير والخامسة بناء الحجاج وقد أوردنا ما فى هذا الشأن من الأقاويل فى تفسير قوله تعالى (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت) وأن فى قوله تعالى ﴿أن تشرك بى شيئا﴾ مفسرة لبوأنا من حيث أنه متضمن لمعنى تعبدنا لأن التبوئة للعبادة أو مصدرية موصولة بالنهى وقد مر تحقيقه فى أوائل سورة هود أى فعلنا ذلك لئلا تشرك بى فى العبادة شيئاً ﴿وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود﴾ أى وطهر بيتى من الأوثان والأقذار لمن يطوف به ويصلى فيه ولعل التعبير عن الصلاة بأركانها للدلالة على أن كل واحد منها مستقل باقتضاء ذلك فكيف وقد اجتمعت وقرىء يشرك بالياء .

﴿وأذن فى الناس﴾ أى ناد فيهم وقرىء آذن ﴿بالحج﴾ بدعوة الحج والأمر به روى أنه عليه السلام صعد أبا قبيس فقال يا أيها الناس حجوا بيت ربكم فأسمعه الله تعالى من فى أصلاب الرجال وأرحام النساء فيما بين المشرق والمغرب ممن سبق فى علمه تعالى أن يحج وقيل الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بذلك فى حجة الوداع ويأباه كون السورة مكية ﴿يأتوك﴾ جواب للأمر ﴿رجالا﴾ أى مشاة جمع راجل كقيام جمع قائم وقرىء بضم الراء وتخفيف الجيم وتشديده ورجالى كعجالى ﴿وعلى كل ضامر﴾ عطف على رجالا أى ركبانا على كل بعير مهزول أتعبه بعد الشقة فهزله أو زاد هزاله ﴿يأتين﴾ صفة لضامر محمولة على المعنى وقرىء يأتون على أنه صفة للرجال والركبان أو استئناف فيكون الضمير للناس ﴿من كل فج﴾ طريق واسع

﴿ عميق ﴾ بعيد وقرىء معيق يقال بئر بعيـــدة العمق وبعيدة المعق كالجذب والجبذ .

﴿ ليشهدوا ﴾ متعلق بيأتوك لا بأذن أى ليحضروا ﴿ منافع ﴾ عـ الخطر كثيرة العدد أو نوعا من المنافع الدينية والدنيوية المختصة بهذه الـ واللام فى قوله تعالى ﴿ لهم ﴾ متعلق بمحذوف هو صفة لمنافع أى منافعـ لهم ﴿ ويذكروا اسم الله ﴾ عند إعداد الهدايا والضحايا وذبحها وفى جعله للإتيان إيذان بأنه الغاية القصوى دون غيره وقيل هو كناية عن الذبح لا ينفك عنه ﴿ فى أيام معلومات ﴾ هى أيام النحر كما ينبى عنه قوله ﴿ على مارزقهم من بهيمة الأنعام ﴾ فإن المراد بالذكر ما وقع عند الذبح ، هى عشر ذى الحجة قد علق الفعل بالمرزوق وبين بالبهيمة تحريضا على التـ وتنبيها على الذكر ﴿ فكلوا منها ﴾ التفات إلى الخطاب والفاء فصيحة عا لمدخولها[1] على مقدر قد حذف للإشعار بأنه أمر محقق غير محتاج إلى التـ به كما فى قوله تعالى (فانفجرت) أى فاذكروا اسم الله على ضحاياكم فكلو لحومها والأمر للإباحة وإزاحة ما كانت عليه أهل الجاهلية من التحرج فيـ للندب إلى مواساة الفقراء ومساواتهم ﴿ وأطعموا البائس ﴾ أى الذى أ بؤس وشدة ﴿ الفقير ﴾ المحتاج وهـــذا الأمر للوجوب وقد قيل : الأول أيضاً .

﴿ ثم ليقضوا تفثهم ﴾ أى ليؤدوا إزالة وسخهم أو ليحكموها بقص الشا والأظفار ونتف الإبط والاستحداد عند الإحلال ﴿ وليوفوا نذور ما ينذرون من البر فى حجهم وقيل مواجب[2] الحج وقرىء بفتح الواو وتشـ الفاء ﴿ وليطوفوا ﴾ طواف الركن الذى به يتم التحلل فإنه قرينة قضاء الـ

---

(١) فى ١٠ : عطفت مدخولها

(٢) أى واجبات الحج من الدماء وغيرها .

وقيل طواف الوداع ﴿ بالبيت العتيق ﴾ أى القديم فإنه أول بيت وضع للناس أو المعتق من تسلط الجبابرة فكأين من جبار سار إليه ليهدمه فقصمه الله عز وجل وأما الحجاج الثقفى فإنما قصد إخراج ابن الزبير رضى الله عنهما منه لا التسلط عليه.

﴿ ذلك ﴾ أى الأمر ذلك وهذا وأمثاله يطلق للفصل بين الكلامين أو بين وجهى كلام واحد ﴿ ومن يعظم حرمات الله ﴾ أى أحكامه وسائر ما لا يحل هتكه بالعلم بوجوب مراعاتها والعمل بموجبه وقيل الحرم وما يتعلق بالحج من التكاليف وقيل الكعبة والمسجد الحرام والبلد الحرام والشهر الحرام ﴿ فهو خير له ﴾ أى فالتعظيم خير له ثوابا ﴿ عند ربه ﴾ أى فى الآخرة والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير من لتشريفه والإشعار بعلة الحكم ﴿ وأحلت لكم الأنعام ﴾ وهى الأزواج الثمانية على الإطلاق فقوله تعالى ﴿ إلا ما يتلى عليكم ﴾ أى إلا ما يتلى عليكم آية تحريمه استثناء متصل منها على أن ما عبارة عما حرم منها لعارض كالميتة وما أهل به لغير الله تعالى والجملة اعتراض جىء به تقريرا لما قبله من الأمر بالأكل والإطعام ودفعا لما عسى يتوهم أن الإحرام يحرمه كما يحرم الصيد وعدم الاكتفاء ببيان عدم كونها من ذلك القبيل بحمل الأنعام على ما ذكر من الضحايا والهدايا المعهودة خاصة لئلا يحتاج إلى الاستثناء المذكور إذ ليس فيها ما حرم لعارض قطعا لمراعاة حسن التخلص إلى ما بعده من قوله تعالى ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان ﴾ فإنه مترتب على ما يفيده قوله تعالى ومن يعظم حرمات الله من وجوب مراعاتها والاجتناب عن هتكها ولما كان بيان حل الأنعام من دواعى التعاطى لا من مبادى الاجتناب عقب بما يوجب الاجتناب عنه من المحرمات ثم أمر بالاجتناب عما هو أقصى الحرمات كأنه قيل ومن يعظم حرمات الله فهو خير له والأنعام ليست من الحرمات فإنها محللة لكم إلا ما يتلى عليكم آية تحريمه فإنه مما يجب الاجتناب عنه فاجتنبوا ما هو معظم الأمور التى يجب الاجتناب عنها وقوله تعالى ﴿ واجتنبوا قول الزور ﴾ تعميم بعد تخصيص فإن عبادة

الأوثان رأس الزور كأنه لما حث على تعظيم الحرمات أتبع ذلك ردا لما كانت الكفرة عليه من تحريم البحائر والسوائب ونحوهما والافتراء على الله تعالى بأنه حكم بذلك وقيل شهادة الزور لما روى أنه عليه السلام قال عدلت شهادة الزور الإشراك بالله تعالى ثلاثا وتلا هذه الآية والزور من الزور وهو الانحراف كالإفك المأخوذ من الأفك الذى هو القلب والصرف فإن الكذب منحرف مصروف عن الواقع وقيل هو قول أهل الجاهلية فى تلبيتهم لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك.

﴿ حنفاء لله ﴾ مائلين عن كل دين زائغ إلى الدين الحق مخلصين لله تعالى ﴿ غير مشركين به ﴾ أى شيئاً من الأشياء فيدخل فى ذلك الأوثان دخولا أوليا وهما حالان من واو فاجتنبوا ﴿ ومن يشرك بالله ﴾ جملة مبتدأة مؤكدة لما قبلها من الاجتناب عن الإشراك وإظهار الاسم الجليل لإظهار كمال قبح الإشراك ﴿ فكأنما خر من السماء ﴾ لأنه (مسقط)[1] من أوج الإيمان إلى حضيض الكفر ﴿ فتخطفه الطير ﴾ فإن الأهواء المردية توزع أفكاره وقرىء فتخطفه بفتح الخاء وتشديد الطاء وبكسر الخاء والطاء وبكسر التاء مع كسرهما وأصلهما تختطفه ﴿ أوتهوى به الريح ﴾ أى تسقطه وتقذفه ﴿ فى مكان سحيق ﴾ بعيد فإن الشيطان قد طوح به فى الضلالة وأو للتخيير كما فى أو كصيب أو للتنويع ويجوز أن يكون من باب التشبيه المركب فيكون المعنى ومن يشرك بالله فقد هلكت نفسه هلا كا شبيها بهلاك أحد الهالكين (هنا)[2] ﴿ ذلك ﴾ أى الأمر ذلك أو امتثلوا ذلك ﴿ ومن يعظم شعائر الله ﴾ أى الهدايا فإنها من معالم الحج وشعائره تعالى كما ينبىء عنه والبدن جعلناها لكم من شعائر الله وهو الأوفق لما بعده وتعظيمها اعتقاد أن التقرب بها من أجل القربات وأن يختارها حسانا سمانا غالية الأثمان روى أنه عليه الصلاة والسلام أهدى مائة بدنة فيها

---

(١) سقطت من ١٠ .
(٢) سقطت من ط .

جمل لأبى جهل فى أنفه برة من ذهب وأن عمر رضى الله عنه أهدى نجيبة طلبت منه بثلثمائة دينار ﴿ فإنها ﴾ أى فإن تعظيمها ﴿ من تقوى القلوب ﴾ أى من أفعال ذوى تقوى القلوب فحذفت هذه المضافات والعائد إلى من أو فإن تعظيمها ناشىء من تقوى القلوب وتخصيصها بالإضافة لأنها مراكز التقوى التى إذا ثبتت فيها وتمكنت ظهر أثرها فى سائر الأعضاء ﴿ لكم فيها ﴾ أى فى الهدايا ﴿ منافع ﴾ هى درها ونسلها وصوفها وظهرها ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ هو وقت نحرها والتصدق بلحمها والأكل منه ﴿ ثم محلها ﴾ أى وجوب نحرها أو وقت نحرها منتهية ﴿ إلى البيت العتيق ﴾ أى إلى ما يليه من الحرم وثم للتراخى الزمانى أو الرتبى أى لكم فيها منافع دنيوية إلى وقت نحرها ثم منافع دينية أعظمها فى النفع محلها أى وجوب نحرها أو وقت وجوب نحرها إلى البيت العتيق أى منتهية إليه هذا وقد قيل المراد بالشعائر مناسك الحج ومعالمه والمعنى لكم فيها منافع بالأجر والثواب فى قضاء المناسك وإقامة شعائر الحج إلى أجل مسمى هو انقضاء أيام الحج ثم محلها أى محل الناس من إحرامهم إلى البيت العتيق أى منته إليه بأن يطوفوا به طواف الزيارة يوم النحر بعد قضاء المناسك فإضافة المحل إليها لأدنى ملابسة .

﴿ ولكل أمة ﴾ أى لكل أهل دين ﴿ جعلنا منسكا ﴾ أى متعبدا وقربانا يتقربون به إلى الله عز وجل وقرىء بكسر السين أى موضع نسك وتقديم الجار والمجرور على الفعل للتخصيص أى لكل أمة من الأمم جعلنا منسكا لا لبعض دون بعض ﴿ ليذكروا اسم الله ﴾ خاصة دون غيره ويجعلوا نسيكتهم لوجهه الكريم علل الجعل به تنبيها على أن المقصود الأصلى من المناسك تذكر المعبود ﴿ على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ﴾ عند ذبحها وفيه تنبيه على أن القربان يجب أن يكون من الأنعام والخطاب فى قوله تعالى ﴿ فإلهكم إله واحد ﴾ للكل تغليبا والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها فإن جعله تعالى لكل أمة من الأمم منسكا مما يدل على وحدانيته تعالى وإنما قيل إله واحد ولم يقل واحد لما أن المراد بيان أنه تعالى واحد فى ذاته كما أنه واحد فى إلهيته للكل والفاء فى قوله

تعالى ﴿ فله أسلموا ﴾ لترتيب ما بعدها من الأمر بالإسلام على وحدانيته تعالى وتقديم الجار والمجرور على الأمر للقصر أى فإذا كان الحكم إلها واحـــدا فأخلصوا له التقرب أو الذكر واجعلوه لوجهه خاصة ولا تشوبوه بالشرك ﴿ وبشر المخبتين ﴾ تجريد للخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أى المتواضعين أو المخلصين فإن الإخبات من الوظائف الخاصة بهم .

﴿ الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ منه تعالى لإشراق أشعة جلاله عليها ﴿ والصابرين على ما أصابهم ﴾ من مشاق التكاليف ومؤنات النوائب ﴿ والمقيمى الصلوة ﴾ فى أوقاتها وقرىء بنصب الصلاة على تقدير النون وقرى والمقيمين الصلاةعلى الأصل ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ فى وجوه الخيرات ﴿ والبدن ﴾ بضم الباء وسكون الدال وقرىء بضمها وهما جمعا بدنة وقيل الأصل ضم الدال كخشب وخشبة والتسكين تخفيف منه وقرىء بتشديد النون على لفظ الوقف وإنما سميت بها الإبل لعظم بدنها مأخوذة من بدن بدانةوحيث شاركها البقرة فى الإجزاء عن سبعة بقوله صلى الله عليه وسلم البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة جعلا فى الشريعة جنسا واحدا وانتصابه بمضمر يفسره ﴿ جعلناها لكم ﴾ وقرىء بالرفع على أنه مبتدأ والجملة خبره وقوله تعالى ﴿ من شعائر الله ﴾ أى من أعلام دينه التى شرعها الله تعالى مفعول ثان للجعل ولكم ظرف لغو متعلق به وقوله تعالى ﴿ لكم فيها خير ﴾ أى منافع دينية ودنيوية جملة مستأنفة مقررة لما قبلها .

﴿ فاذكروا اسم الله عليها ﴾ بأن تقولوا عند ذبحها الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر اللهم منك وإليك ﴿ صواف ﴾ أى قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن وقرىء صوافن من صفن الفرس إذا قام على ثلاث وعلى طرف سنبك الرابعة لأن البدنة تعقل إحدى يديها فتقوم على ثلاث وقرىء صوافنا بإبدال التنوين من حرف الإطلاق عند الوقف وقرىء صوافى أى خوالص لوجه الله عز وجل وصواف على لغة من يسكن الياء على الإطلاق كما فى قوله :

* لعلى أرى باق على الحدثان *

﴿ فإذا وجبت جنوبها ﴾ سقطت على الأرض وهو كناية عن الموت. ﴿ فكلوا منها وأطعموا القانع ﴾ الراضى بما عنده من غير مسألة ويؤيده أنه قرىء القنع أو السائل من قنع إليه قنوعا إذا خضع له فى السؤال ﴿ والمعتر ﴾ أى المتعرض للسؤال وقرىء المعترى يقال عره وعراه واعتره واعتراه ﴿ كذلك ﴾ مثل ذلك التسخير البديع المفهوم من قوله تعالى ﴿ سخرناها لكم ﴾ مع كمال عظمها ونهاية قوتها فلا تستعصى عليكم حتى تأخذونها منقادة فتعلقونها وتحبسونها صافة قوائمها ثم تطعنون فى لبلتها ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ لتشكروا إنعامنا عليكم بالتقرب والإخلاص.

﴿ لن ينال الله ﴾ أى لن يبلغ مرضاته ولن يقع منه موقع القبول ﴿ لحومها ﴾ المتصدق بها ﴿ ولا دماؤها ﴾ المهراقة بالنحر من حيث أنها لحوم ودماء ﴿ ولكن يناله التقوى منكم ﴾ ولكن يصيبه تقوى قلوبكم التى تدعوكم إلى الامتثال بأمره تعالى وتعظيمه والتقرب إليه والإخلاص له وقيل كان أهل الجاهلية يلطخون الكعبة بدماء قرابينهم فهم به المسلمون فنزلت ﴿ كذلك سخرها لكم ﴾ تكرير التذكير والتعليل بقوله تعالى ﴿ لتكبروا الله ﴾ أى لتعرفوا عظمته باقتداره على ما لا يقدر عليه غيره فتوحدوه بالكبرياء وقيل هو التكبير عند الإحلال أو الذبح ﴿ على ما هداكم ﴾ أى أرشدكم إلى طريق تسخيرها وكيفية التقرب بها وما مصدرية أو موصولة أى على هدايته إياكم أو على ما هداكم إليه وعلى متعلقة بتكبروا لتضمنه معنى الشكر ﴿ وبشر المحسنين ﴾ أى المخلصين فى كل ما يأتون وما يذرون فى أمور دينهم ﴿ إن الله يدافع عن الذين آمنوا ﴾ كلام مستأنف مسوق لتوطين قلوب المؤمنين ببيان أن الله تعالى ناصرهم على أعدائهم بحيث لا يقدرون على صدهم عن الحج ليتفرغوا إلى أداء مناسكه وتصديره بكلمة التحقيق لإبراز الاعتناء التام بمضمونه وصيغة المفاعلة إما للمبالغة أو للدلالة على تكرر الدفع فإنها قد تجرد عن وقوع الفعل المتكرر من الجانبين فيبقى تكرره كما فى الممارسة أى يبالغ فى دفع غائلة المشركين وضررهم الذى من جملته الصد

عن سبيل الله مبالغة من يغالب فيه أو يدفعها عنهم مرة بعد أخرى حسبما تجدد منهم القصد إلى الإضرار بالمسلمين كما فى قوله تعالى (كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله) وقرىء يدفع والمفعول محذوف وقوله تعالى ﴿ إن الله لا يحب كل خوان كفور ﴾ تعليل لما فى ضمن الوعد الكريم من الوعيد للمشركين وإيذان بأن دفعهم بطريق القهر والخزى ونفى المحبة كناية عن البغض أى أن الله يبغض كل خوان فى أماناته تعالى وهى أوامره ونواهيه أو فى جميع الأمانات التى هى معظمها كفور لنعمته وصيغة المبالغة فيهما لبيان أنهم كذلك لا لتقييد البغض بغاية الخيانة والكفر أو للمبالغة فى نفى المحبة على اعتبار النفى أولا وإيراد معنى المبالغة ثانيا .

﴿ أذن ﴾ أى رخص وقرىء على البناء للفاعل أى أذن الله تعالى ﴿ للذين يقاتلون ﴾ أى يقاتلهم المشركون والمأذون فيه محذوف لدلالة المذكور عليه فإن مقاتلة المشركين إياهم دالة على مقاتلتهم إياهم دلالة نيرة وقرىء على صيغة المبنى للفاعل أى يريدون أن يقاتلوا المشركين فيما سيأتى ويحرصون عليه فدلالته على المحذوف أظهر ﴿ بأنهم ظلموا ﴾ أى بسبب أنهم ظلموا وهم أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنهم كان المشركون يؤذونهم وكانوا يأتونه عليه السلام بين مضروب ومشجوج ويتظلمون إليه فيقول عليه السلام « اصبروا فإنى لم أومر بالقتال » حتى هاجروا فأنزلت وهى أول آية نزلت فى القتال بعد ما نهى عنه فى نيف وسبعين آية ﴿ وإن الله على نصرهم لقدير ﴾ وعد لهم بالنصر وتأكيد لما مر من العدة الكريمة بالدفع وتصريح بأن المراد به ليس مجرد تخليصهم من أيدى المشركين بل تغليبهم وإظهارهم عليهم والإخبار بقدرته تعالى على نصرهم وارد على سنن الكبرياء وتأكيده بكلمة التحقيق واللام لمزيد تحقيق مضمونه وزيادة توطين نفوس المؤمنين وقوله تعالى :

﴿ الذين أخرجوا من ديارهم ﴾ فى حيز الجر على أنه صفة للموصول الأول أو بيان له أو بدل منه أو فى محل النصب على المدح أو فى محل الرفع بإضمار مبتدأ والجملة مرفوعة على المدح والمراد بديارهم مكة المعظمة ﴿ بغير حق ﴾ متعلق

بأخرجوا أى أخرجوا بغير ما يوجب إخراجهم وقوله تعالى ﴿ إلا أن يقولوا ربنا الله ﴾ بدل من حق أى بغير موجب سوى التوحيد الذى ينبغى أن يكون موجبا للإقرار والتمكين دون الإخراج والتسيير لكن لا على الظاهر بل على طريقة قول النابغة :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم　　بهن فلول من قراع الكتائب

وقيل الاستثناء منقطع ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض ﴾ بتسليط المؤمنين على الكافرين فى كل عصر وزمان وقرىء دفاع ﴿ لهدمت ﴾ لخربت باستيلاء المشركين على أهل الملل وقرىء هدمت بالتخفيف ﴿ صوامع ﴾ للرهابنة ﴿ وبيع ﴾ للنصارى ﴿ وصلوات ﴾ أى وكنائس لليهود سميت بها لأنها يصلى فيها وقيل أصلها صلوتا بالعبرية فعربت ﴿ ومساجد ﴾ للمسلمين ﴿ يذكر فيها اسم الله كثيرا ﴾ أى ذكرا كثيرا أو وقتا صفة مادحة للمساجد خصت بها دلالة على فضلها وفضل أهلها وقيل صفة للأربع وليس كذلك فإن بيان ذكر الله عز وجل فى الصوامع والبيع والكنائس بعد انتساخ شرعيتها مما لا يقتضيه المقام ولا يرتضيه الأفهام ﴿ ولينصرن الله من ينصره ﴾ أى وبالله لينصرن الله من ينصر أولياءه أو من ينصر دينه ولقد أنجز الله عز سلطانه وعده حيث سلط المهاجرين والأنصار على صناديد العرب وأكاسرة العجم وقياصرة الروم وأورثهم أرضهم وديارهم ﴿ إن الله لقوى ﴾ على كل ما يريده من مراداته التى من جملتها نصرهم ﴿ عزيز ﴾ لا يمانعه شىء ولا يدافعه .

﴿ الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلوة وآتوا الزكوة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ﴾ وصف من الله عز وجل للذين أخرجوا من ديارهم بما سيكون منهم من حسن السيرة عند تمكينه تعالى إياهم فى الأرض وإعطائه إياهم زمام الأحكام منبىء عن عدة كريمة على أبلغ وجه وألطفه وعن عثمان رضى الله عنه هذا والله ثناء قبل بلاء يريد أنه تعالى أثنى عليهم قبل أن يحدثوا من الخير ما أحدثوا قالوا وفيه دليل على صحة أمر الخلفاء الراشدين

لأنه تعالى لم يعط التمكين ونفاذ الأمر مع السيرة العادلة غيرهم من المهاجرين ولا حظ فى ذلك للأنصار والطلقاء. وعن الحسن رحمه الله هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم وقيل الذين بدل من قوله من ينصره ﴿ ولله ﴾ خاصة ﴿ عاقبة الأمور ﴾ فإن مرجعها إلى حكمه وتقديره فقط وفيه تأكيد للوعد بإظهار أوليائه وإعلاء كلمته .

تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم

﴿ وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح ﴾ تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم متضمنة للوعد الكريم بإهلاك من يعاديه من الكفرة وتعيين لكيفية نصره تعالى له الموعود بقوله تعالى ولينصرن الله من ينصره وبيان لرجوع عاقبة الأمور إليه تعالى وصيغة المضارع فى الشرط مع تحقق التكذيب لما أن المقصود تسليته عليه السلام عما يترتب على التكذيب من الحزن المتوقع أى وإن تحزن على تكذيبهم إياك فاعلم أنك لست بأوحدى فى ذلك فقد كذبت قبل تكذيب قومك إياك قوم نوح ﴿ وعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين ﴾ أى رسلهم ممن ذكر ومن لم يذكر وإنما حذف لكمال ظهور المراد أو لأن المراد نفس الفعل أى فعلت التكذيب قوم نوح إلى آخره ﴿ وكذب موسى ﴾ غير النظم الكريم بذكر المفعول وبناء الفعل له لا لأن قومه بنو إسرائيل وهم لم يكذبوه وإنما كذبه القبط لما أن ذلك إنما يقتضى عدم ذكرهم بعنوان كونهم قوم موسى لا بعنوان آخر على أن بنى إسرائيل أيضاً قد كذبوه مرة بعد أخرى حسبما نطق به[1] قوله تعالى (لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) ونحو ذلك من الآيات الكريمة بل للإيذان بأن تكذيبهم له كان فى غاية الشناعة لكون آياته فى كمال الوضوح وقوله تعالى ﴿ فأمليت للكافرين ﴾ أى أمهلتهم حتى انصرمت حبال آجالهم والفاء لترتيب إمهال كل فريق من فرق

---

(١) فى الأصل : ينطق به

المكذبين على تكذيب ذلك الفريق لا لترتيب إمهال الكل على تكذيب الكل ووضع الظاهر موضع الضمير العائد إلى المكذبين لذمهم بالكفر والتصريح بمكذبى موسى عليه السلام حيث لم يذكروا فيما قبل صريحا ﴿ ثم أخذتهم ﴾ أى أخذت كل فريق من فرق المكذبين بعد انقضاء مدة إملائه وإمهاله ﴿ فكيف كان نكير ﴾ أى إنكارى عليهم بالإهلاك أى فكان ذلك فى غاية ما يكون من الهول والفظاعة وقوله تعالى :

﴿ فكأين من قرية ﴾ منصوب بمضمر يفسره قوله تعالى ﴿ أهلكناها ﴾ أى فأهلكنا كثيرا من القرى بإهلاك أهلها والجملة بدل من قوله تعالى (فكيف كان نكير) أو مرفوع على الابتداء وأهلكنا خبره أى فكثير من القرى أهلكناها وقرىء أهلكتها على وفق قوله تعالى (فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير) ﴿ وهى ظالمة ﴾ جملة حالية من مفعول أهلكنا وقوله تعالى ﴿ فهى خاوية ﴾ عطف على أهلكناها لا على وهى ظالمة لأنها حال والإهلاك ليس فى حال خوائها فعلى الأول لا محل له من الإعراب كالمعطوف عليه وعلى الثانى فى محل الرفع لعطفه على الخبر والخواء إما بمعنى السقوط من خوى النجم إذ سقط فالمعنى فهى ساقطة حيطانها ﴿ على عروشها ﴾ أى سقوفها بأن تعطل بنيانها فخرت سقوفها ثم تهدمت حيطانها فسقطت فوق السقوف وإسناد السقوط على العروش إليها لتنزيل الحيطان منزلة كل البنيان لكونها عمدة فيه وإما بمعنى الخلو من خوى المنزل إذا خلا من أهله فالمعنى فهى خالية مع بقاء عروشها وسلامتها فتكون على بمعنى مع ويجوز أن يكون على عروشها خبرا بعد خبر أى فهى على عروشها أى قائمة مشرفة على عروشها على معنى أن السقوف سقطت إلى الأرض وبقيت الحيطان قائمة فهى مشرفة على السقوف الساقطة وإسناد الإشراف إلى الكل مع كونه حاو الحيطان لما مر آنفا ﴿ وبئر معطلة ﴾ عطف على قرية أى وكم بئر عامرة فى البوادى تركت لا يستقى منها لهلاك أهلها وقرىء بالتخفيف من أعطله بمعنى عطله ﴿ وقصر مشيد ﴾ مرفوع البنيان أو مجصص أخليناه عن ساكنيه وهذا يؤيد كون معنى خاوية على عروشها خالية مع بقاء

عروشها وقيل المراد بالبئر بئر بسفح جبل بحضرموت وبالقصر قصر مشرف على قلته كانا لقوم حنظلة بن صفوان من بقايا قوم صالح فلما قتلوه أهلكهم الله تعالى وعطلهما .

﴿ أفلم يسيروا فى الأرض ﴾ حث لهم أن يسافروا ليروا مصارع المهلكين فيعتبروا وهم وإن كانوا قد سافروا فيها ولكنهم حيث لم يسافروا للاعتبار جعلوا غير مسافرين فحثوا على ذلك والفاء لعطف ما بعدها على مقدر يقتضيه أى أغفلوا فلم يسيروا فيها ﴿ فتكون لهم ﴾ بسبب ما شاهدوه من مواد الاعتبار ومظان الاستبصار ﴿ قلوب يعقلون بها ﴾ يجب أن يعقل من التوحيد ﴿ أو آذان يسمعون بها ﴾ ما يجب أن يسمع من الوحى أو من أخبار الأمم المهلكة ممن يجاورهم من الناس فإنهم أعرف منهم بحالهم ﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ﴾ الضمير للقصة أو مبهم يفسره الإبصار وفى تعمى ضمير راجع إليه وقد أقيم الظاهر مقامه ﴿ ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾ أى ليس الخلل فى مشاعرهم وإنما هو فى عقولهم باتباع الهوى والانهماك فى الغفلة وذكر الصدور للتأكيد ونفى توهم التجوز وفضل التنبيه على أن العمى الحقيقى ليس المتعارف الذى يختص بالبصر قيل لما نزل قوله تعالى (ومن كان فى هذه أعمى) قال ابن أم مكتوم يا رسول الله أنا فى الدنيا أعمى أفأكون فى الآخرة أعمى ؟

﴿ ويستعجلونك بالعذاب ﴾ كانوا منكرين لمجىء العذاب المتوعد به أشد الإنكار وإنما كانوا يستعجلون به استهزاء برسول الله صلى الله عليه وسلم وتعجيزا له على زعمهم فحكى عنهم ذلك بطريق التخطئة والاستنكار فقوله تعالى ﴿ ولن يخلف الله وعده ﴾ إما جملة حالية جىء بها لبيان بطلان إنكارهم لمجيئه فى ضمن استعجالهم به وإظهار خطئهم فيه كأنه قيل كيف ينكرون مجىء العذاب الموعود والحال أنه تعالى لا يخلف وعده أبدا وقد سبق الوعد فلا بد من مجيئه حتما أو اعتراضية مبينة لما ذكر وقوله تعالى : ﴿ وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ جملة مستأنفة إن كانت الأولى حالية ومعطوفة عليها إن كانت اعتراضية سيقت لبيان خطئهم فى الاستعجال المذكور ببيان كمال سعة ساحة

حلمه تعالى ووقاره وإظهار غاية ضيق عطنهم المستتبع لكون المدة القصيرة عنده تعالى مددا طوالا عندهم حسبما ينطق به قوله تعالى (إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا) ولذلك يرون مجيئه بعيدا ويتخذونه ذريعة إلى إنكاره ويجترئون على الاستعجال به ولا يدرون أن معيار تقدير الأمور كلها وقوعا وأخبارا ماعنده تعالى من المقدار وقراءة يعدون على صيغة الغيبة أى يعده المستعجلون أوفق لهذا المعنى وقد جعل الخطاب فى القراءة المشهورة لهم أيضا بطريق الالتفات لكن الظاهر أنه للرسول عليه السلام ومن معه من المؤمنين وقيل المراد بوعده تعالى ما جعل لهلاك كل أمة من موعد معين. وأجل مسمى كما فى قوله تعالى (ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب) فتكون الجملة الأولى حالية كانت أو اعتراضية مبينة لبطلان الاستعجال به ببيان استحالة مجيئه قبل وقته الموعود والجملة الأخيرة بيانا لبطلانه ببيان ابتناء على استطالة ماهو قصير عنده تعالى على الوجه الذى مر بيانه فلا يكون فى النظم الكريم حينئذ تعرض لإنكارهم الذى دسوه تحت الاستعجال بل يكون الجواب مبنيا على ظاهر مقالهم ويكتفى فى رد إنكارهم ببيان عاقبة من قبلهم من أمثالهم هذا وحمل المستعجل به على عذاب الآخرة وجعل اليوم عبارة عن يوم العذاب المستطال لشدته أو عن أيام الآخرة الطويلة حقيقة أو المستطالة لشدة عذابها مما لا يساعده سياق النظم الجليل ولا سياقه فإن كلا منهما ناطق بأن المراد هو العذاب الدنيوى وأن الزمان الممتد هو الذى مر عليهم قبل حلوله بطريق الإملال لا الزمان المقارن له ألا يرى إلى قوله تعالى :

﴿ وكأين من قرية ﴾ الخ فإنه كما سلف من قوله تعالى (فأمليت للكافرين ثم أخذتهم) صريح فى أن المراد هو الأخذ العاجل الشديد بعد الإملاء المديد أى وكم من أهل قرية فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه فى الإعراب ورجع الضمائر والأحكام مبالغة فى التعميم والتهويل ﴿ أمليت لها ﴾ كما أمليت لهؤلاء حتى أنكروا مجىء ما وعدوا من العذاب واستعجلوا به استهزاء برسلهم

كما فعل هؤلاء ﴿ وهى ظالمة ﴾ جملة حالية مفيدة لكمال حلمه تعالى ومشعرة بطريق التعريض بظلم المستعجلين أى أمليت لها والحال أنها ظالمة مستوجبة لتعجيل العقوبة كدأب هؤلاء ﴿ ثم أخذتها ﴾ بالعذاب والنكال بعد طول الإملاء والإمهال وقوله تعالى ﴿ وإلى المصير ﴾ اعتراض تذييلى[1] مقرر لما قبله ومصرح بما أفاده ذلك بطريق التعريض من أن مال أمر المستعجلين أيضاً ما ذكر من الأخذ الوبيل أى إلى حكمى مرجع الكل جميعا لا إلى أحد غيرى لا استقلالا ولا شركة فأفعل بهم ما يليق بأعمالهم ﴿ قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين ﴾ أنذركم إنذارا بينا بما أوحى من أنباء الأمم المهلكة من غير أن يكون لى دخل فى إتيان ما توعدونه من العذاب حتى تستعجلونى به والاقتصار على الإنذار مع بيان حال الفريقين بعده لما أشير إليه من أن مساق الحديث للمشركين وعقابهم وإنما ذكر المؤمنون وثوابهم زيادة فى غيظهم ﴿ فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ﴾ لما ندر منهم من الذنوب ﴿ ورزق كريم ﴾ هى الجنة والكريم من كل نوع ما يجمع فضائله ويحوز كمالاته ﴿ والذين سعوا فى آياتنا معاجزين ﴾ أى سابقين أومسابقين فى زعمهم وتقديرهم طامعين أن كيدهم للإسلام يتم لهم وأصله من عاجزه وعجزه فأعجزه إذا سابقه فسبقه لأن كلا من المتسابقين يريد إعجاز الآخر عن اللحاق به وقرىء معجزين أى مثبطين الناس عن الإيمان على أنه حال مقدرة ﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بما ذكر من السعى والمعاجزة ﴿ أصحاب الجحيم ﴾ أى ملازموا النار الموقدة وقيل هو اسم دركة من دركاتها .

إلقاء الشيطان فى أمنيات الرسل

﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى ﴾ الرسول من بعثه الله تعالى بشريعة جديدة يدعو الناس إليها والنبى يعمه ومن بعثه لتقرير شريعة سابقة

---

(١) فى ١١ تقرير تذييلى .

كأنبياء بنى إسرائيل الذين كانوا بين موسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام ولذلك شبه عليه السلام علماء أمته بهم فالنبي أعم من الرسول ويدل عليه أنه عليه الصلاة والسلام سئل عن الأنبياء فقال مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا قيل فكم الرسول منهم فقال ثلثمائة وثلاثة عشر جما غفيرا وقيل الرسول من جمع إلى المعجزة كتابا منزلا عليه والنبي غير الرسول من لا كتاب له وقيل الرسول من يأتيه الملك بالوحى والنبي يقال له ولمن يوحى إليه فى المنام ﴿ إلا إذا تمنى ﴾ أى هيأ فى نفسه ما يهواه ﴿ ألقى الشيطان فى أمنيته ﴾ فى تشهيه ما يوجب اشتغاله بالدنيا كما قال عليه السلام وإنه ليغان على قلبي فأستغفر الله فى اليوم سبعين مرة ﴿ فينسخ الله ما يلقى الشيطان ﴾ فيبطله ويذهب به بعصمته عن الركون إليه وإرشاده إلى ما يزيحه ﴿ ثم يحكم الله آياته ﴾ أى يثبت آياته الداعية إلى الاستغراق فى شئون الحق وصيغة المضارع فى الفعلين للدلالة على الاستمرار التجددى وإظهار الجلالة فى موقع الإضمار لزيادة التقرير والإيذان بأن الألوهية من موجبات أحكام آياته الباهرة ﴿ والله عليم ﴾ مبالغ فى العلم بكل ما من شأنه أن يعلم ومن جملته ما صدر عن العباد من قول وفعل عمدا أو خطأ ﴿ حكيم ﴾ فى كل ما يفعل والإظهار ههنا أيضا لما ذكر مع ما فيه من تأكيد استقلال الاعتراض التذييلى قيل حدث نفسه بزوال المسكنة فنزلت وقيل تمنى لحرصه على إيمان قومه أن ينزل عليه ما يقربهم إليه واستمر به ذلك حتى كان فى ناديهم فنزلت عليه سورة النجم فأخذ يقرؤها فلما بلغ ومناة الثالثة الأخرى وسوس إليه الشيطان حتى سبق لسانه سهوا إلى أن قال تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى ففرح به المشركون حتى شايعوه بالسجود لما سجد فى آخرها بحيث لم يبق فى المسجد مؤمن ولا مشرك إلا سجد ثم نبهه جبريل عليه السلام فاغتم به فعزاه الله عز وجل بهذه الآية وهو مردود عند المحققين ولئن صح فابتلاء يتميز به الثابت على الإيمان عن المتزلزل فيه وقيل تمنى بمعنى قرأ كقوله :

تمنى كتاب الله أول ليلة   تمنى داود الزبور على رسل

وأمنيته قراءته وإلقاء الشيطان فيها أن يتكلم بذلك رافعا صوته بحيث

ظن السامعون أنه من قراءة النبي عليه السلام وقد رد بأنه أيضاً يخل بالوثوق بالقرآن ولا يندفع بقوله تعالى (فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته) لأنه أيضاً يحتمله وفى الآية دلالة على جواز السهو من الأنبياء عليهم السلام وتطرق الوسوسة اليهم ﴿ ليجعل ما يلقى الشيطان ﴾ علة لما ينبىء عنه ما ذكر من إلقاء الشيطان من تمكينه تعالى إياه من ذلك فى حق النبى عليه السلام خاصة كما يعرب عنه سياق النظم الكريم لما أن تمكينه تعالى إياه من الإلقاء فى حق سائر الأنبياء عليهم السلام لا يمكن تعليله بما سيأتى وفيه دلالة على أن ما يلقيه أمر ظاهر يعرفه المحق والمبطل ﴿ فتنة للذين فى قلوبهم مرض ﴾ أى شك ونفاق كما فى قوله تعالى (فى قلوبهم مرض) الآية ﴿ والقاسية قلوبهم ﴾ أى المشركين ﴿ وإن الظالمين ﴾ أى الفريقين المذكورين فوضع الظاهر موضع ضميرهم تسجيلا عليهم بالظلم مع ما وصفوا به من المرض والقساوة ﴿ لفى شقاق بعيد ﴾ أى عداوة شديدة ومخالفة تامة ووصف الشقاق بالبعد مع أن الموصوف به حقيقة هو معروضه للمبالغة والجملة اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ما قبله .

﴿ وليعلم الذين أوتوا العلم أنه ﴾ أى القرآن ﴿ الحق من ربك ﴾ أى هو الحق النازل من عنده تعالى وقيل ليعلموا أن تمكين الشيطان من الإلقاء هو الحق المتضمن للحكمة البالغة والغاية الجميلة لأنه مما جرت به عادته فى جنس الإنس من لدن آدم عليه السلام فحينئذ لا حاجة إلى تخصيص التمكين فيما سبق بالإلقاء فى حقه عليه السلام لكن يأباه قوله تعالى ﴿ فيؤمنوا به ﴾ أى بالقرآن أى يثبتوا على الإيمان به أو يزدادوا إيمانا برد ما يلقى الشيطان فتخبت له قلوبهم بالانقياد والخشية والإذعان لما فيه من الأوامر والنواهى ورجع الضمير لاسيما الثانى إلى تمكين الشيطان من الإلقاء مما لا وجه له ﴿ وإن الله لهادى الذين آمنوا ﴾ أى فى الأمور الدينية خصوصا فى المداحض والمشكلات التى من جملتها ما ذكر ﴿ إلى صراط مستقيم ﴾ هو النظر الصحيح الموصل[1] إلى الحق الصريح والجملة اعتراض مقرر لما قبله .

---

(١) فى ـ ط : الذى يوصل .

﴿ ولا يزال الذين كفروا فى مرية ﴾ أى فى شك وجدال ﴿ منه ﴾ أى من القرآن وقيل من الرسول صلى الله عليه وسلم والأول هو الأظهر بشهادة ما سبق من قول تعالى(ثم يحكم الله آياته)وقوله تعالى(إنه الحق من ربك فيؤمنوا به) وما لحق من قوله تعالى (وكذبوا بآياتنا) وأما تجويز كون الضمير لما ألقى الشيطان فى أمنيته فما لا مساغ له لأن ذلك ليس من هناتهم التى تستمر إلى الأمد المذكور بل إنما هى مريتهم فى شأن القرآن ولا يجدى حمل من على السببية دون الابتدائية لما أن مريتهم المستمرة كما انها ليست مبتدأة من ذلك ليست ناشئة منه ضرورة أنها مستمرة منهم من لدن نزول القرآن الكريم .

﴿ حتى تأتيهم السَّاعَةُ ﴾ أى القيامة نفسها كما يؤذن قوله تعالى ﴿ بغتة ﴾ أى فجأة فإنها الموصوفة بالإتيان كذلك لا أشراطها وقيل الموت ﴿ أو يأتيهم عذاب يوم عقيم ﴾ أى يوم لا يوم بعده كأن كل يوم يلد ما بعده من الأيام فما لا يوم بعده يكون عقيما والمراد به الساعة أيضا كأنه قيل أو يأتيهم عذابها فوضع ذلك موضع ضميرها لمزيد التهويل ولا سبيل إلى حمل الساعة على أشراطها لما عرفته وأما ما قيل من أن المراد يوم حرب يقتلون فيه كيوم بدر سمى به لأن أولاد النساء يقتلون فيه فيصرن كأنهن عقم لم يلدن أو لأن المقاتلين أبناء الحرب فإذا قتلوا صارت عقيما أى ثكلى فوصف اليوم بوصفها اتساعا أو لأنه لا خير لهم فيه ومنه الريح العقيم لما لم ينشىء مطرا ولم يلقح شجرا أو لأنه لا مثل له لقتال الملائكة عليهم السلام فيه فما لا يساعده سياق النظم الكريم أصلا كيف لا وأن تخصيص الملك والتصرف الكلى فيه بالله عز وجل ثم بيان ما يقع فيه من حكمه تعالى بين الفريقين بالثواب والعذاب الآخروبين يقضى بأن المراد به يوم القيامة قضاء بينا لاريب فيه .

﴿ الملك ﴾ أى السلطان القاهر والاستيلاء التام والتصرف على الإطلاق ﴿ يومئذ لله ﴾ وحده بلا شريك أصلا بحيث لا يكون فيه لأحد تصرف من التصرفات فى أمر من الأمور لا حقيقة ولا مجازا ولا صورة ولا معنى كما

فى الدنيا فإن للبعض فيها تصرفا صوريا فى الجملة وليس التنوين نائبا عما تدل عليه الغاية من زوال مريتهم كما قيل ولا عما يستلزمه ذلك من إيمانهم كما قيل لما أن القيد المعتبر مع اليوم حيث وسط بين طرفى الجملة يجب أن يكون مدارا لحكمها أعنى كون الملك لله عز وجل وما يتفرع عليه من الإثابة والتعذيب ولا ريب فى أن إيمانهم أو زوال مريتهم ليس مما له تعلق بما ذكر فضلا عن المدارية له فلا سبيل إلى اعتبار شىء منهما مع اليوم قطعا وإنما الذى يدور عليه ما ذكر إتيان الساعة التى هى منتهى تصرفات الخلق ومبدأ ظهور أحكام الملك الحق جل جلاله فإذن هو نائب عن نفس الجملة الواقعة غاية لمريتهم فالمعنى الملك يوم إذ تأتيهم الساعة أو عذابها لله تعالى وقوله تعالى ﴿ يحكم بينهم ﴾ جملة مستأنفة وقعت جوابا عن سؤال نشأ من الأخبار بكون الملك يومئذ لله كأنه قيل فماذا يصنع بهم حينئذ فقيل يحكم بين فريق المؤمنين به والممارين فيه بالمجازاة وقوله تعالى ﴿ فالذين آمنوا ﴾ الخ تفسير للحكم المذكور وتفصيل له أى فالذين آمنوا بالقرآن الكريم ولم يماروا فيه ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ امتثالا بما أمروا فى تضاعيفه ﴿ فى جنات النعيم ﴾ أى مستقرون فيها ﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا ﴾ أى أصروا على ذلك واستمروا ﴿ فأولئك ﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة من الكفر والتكذيب وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتهم فى الشر والفساد أى أولئك الموصوفون بما ذكر من الكفر والتكذيب وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿ لهم عذاب ﴾ جملة اسمية من مبتدأ وخبر مقدم عليه وقعت خبرا لأولئك أو لهم خبر لأولئك وعذاب مرتفع على الفاعلية بالاستقرار فى الجار والمجرور لاعتماده على المبتدأ وأولئك مع خبره على الوجهين خبر للموصول وتصديره بالفاء للدلالة على أن تعذيب الكفار بسبب أعمالهم السيئة كما أن تجريد خبر الموصول الأول عنها للإيذان بأن إثابة المؤمنين بطريق التفضل لا لإيجاب الأعمال الصالحة إياها وقوله تعالى ﴿ مهين ﴾ صفة لعذاب مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة وفيه من المبالغة من وجوه شتى ما لا يخفى ﴿ والذين هاجروا فى سبيل الله ﴾ أى فى الجهاد حسبما يلوح به قوله تعالى

﴿ ثم قتلوا أو ماتوا ﴾ أى فى تضاعيف المهاجرة ومحل الموصول الرفع على الابتداء وقوله تعالى ﴿ ليرزقنهم ﴾ جواب لقسم محذوف والجملة خبره ومن منع وقوع الجملة القسمية وجوابها خبرا للمبتدأ يضمر قولا هو الخبر والجملة محكية وقوله تعالى ﴿ رزقا حسنا ﴾ إما مفعول ثان على أنه من باب الرعى والذبح أى مرزوقا حسنا أو مصدر مؤكد والمراد به ما لا ينقطع أبدا من نعيم الجنة وإنما سوى بينهما فى الوعد لاستوائهما فى القصد وأصل العمل على أن مراتب الحسن متفاوتة فيجوز تفاوت حال المرزوقين حسب تفاوت الأرزاق الحسنة وروى أن بعض أصحاب النبى عليه السلام قالوا يانبى الله هؤلاء الذين قتلوا فى سبيل الله قد علمنا ما أعطاهم الله تعالى من الخير ونحن نجاهد معك كما جاهدوا فما لنا إن متنا معك فنزلت وقيل نزلت فى طوائف خرجوا من مكة إلى المدينة للهجرة فتبعهم المشركون فقاتلوهم ﴿ وإن الله لهو خير الرازقين ﴾ فإنه يرزق بغير حساب مع أن ما يرزقه لا يقدر عليه أحد غيره والجملة اعتراض تذييلى مقرر لما قبله وقوله تعالى ﴿ ليدخلنهم مدخلا يرضونه ﴾ بدل من قوله تعالى (ليرزقنهم الله) أو استئناف مقرر لمضمونه ومدخلا إما اسم مكان أريد به الجنة فهو مفعول ثان للإدخال أو مصدر ميمى أكد به فعله قال ابن عباس رضى الله عنهما إنما قيل يرضونه لما أنهم فيها يرون ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فيرضونه ﴿ وإن الله لعليم ﴾ بأحوالهم وأحوال معاديهم ﴿ حليم ﴾ لا يعاجلهم بالعقوبة .

﴿ ذلك ﴾ خبر مبتدأ محذوف أى الأمر ذلك والجملة لتقرير ما قبله والتنبيه على أن ما بعده كلام مستأنف ﴿ ومن عاقب بمثل ما عوقب به ﴾ أى لم يزد فى الاقتصاص وإنما سمى الابتداء بالعقاب الذى هو جزاء الجناية للمشاكلة أو لكونه سببا له ﴿ ثم بغى عليه ﴾ بالمعاودة إلى العقوبة ﴿ لينصرنه الله ﴾ على من بغى عليه لا محالة ﴿ إن الله لعفو غفور ﴾ أى مبالغ فى العفو والغفران فيعفو عن المنتصر ويغفر له ما صدر عنه من ترجيح الانتقام على العفو والصبر المندوب إليهما بقوله تعالى (ولمن صبر وغفر إن ذلك) أى ما ذكر من الصبر والمغفرة (لمن

عزم الأمور) فإن فيه حثا بليغا على العفو والمغفرة فإنه تعالى مع كمال قدرته لما كان يعفو ويغفر فغيره أولى بذلك وتنبيها على أنه تعالى قادر على العقوبة إذ لا يوصف بالعفو إلا القادر على ضده ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى النصر وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو رتبته ومحله الرفع على الابتداء خبره قوله تعالى ﴿ بأن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ﴾ أى بسبب أنه تعالى من شأنه وسنته تغليب بعض مخلوقاته على بعض والمداولة بين الأشياء المتضادة وعبر عن ذلك بإدخال أحد الملوين فى الآخر بأن يزيد فيه ما ينقص عن الآخر أو بتحصيل أحدهما فى مكان الآخر أو بتحصيل أحدهما فى مكان الآخر لكونه أظهر المواد وأوضحها ﴿ وإن الله سميع ﴾ بكل المسموعات التى من جملتها قول المعاقب ﴿ بصير ﴾ بجميع المبصرات ومن جملتها أفعاله ﴿ ذلك ﴾ أى الاتصاف بما ذكر من كمال القدرة والعلم وما فيه من معنى البعد لما مر آنفا وهو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿ بأن الله هو الحق ﴾ الواجب لذاته الثابت فى نفسه وصفاته وأفعاله وحده فإن وجوب وجوده ووحدته يقتضيان كونه مبدأ لكل ما يوجد من الموجودات عالما بكل المعلومات أو الثابت إلهية فلا يصلح لها إلا من كان عالما قادرا ﴿ وأن ما يدعون من دونه ﴾ إلها وقرىء على البناء للمفعول على أن الواو لما فاته عبارة عن الآلهة وقرىء بالتاء على خطاب المشركين ﴿ هو الباطل ﴾ أى المعدوم فى حد ذاته أو الباطل ألوهيته ﴿ وأن الله هو العلى ﴾ على جميع الأشياء ﴿ الكبير ﴾ عن أن يكون له شريك لا شىء أعلى منه شأنا وأكبر سلطانا .

﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ﴾ استفهام تقريرى كما يفصح عنه الرفع فى قوله تعالى ﴿ فتصبح الأرض مخضرة ﴾ بالعطف على أنزل وإيثار صيغة الاستقبال للإشعار بتجدد أثر الإنزال واستمراره أو لاستحضار صورة الاخضرار ﴿ إن الله لطيف ﴾ يصل لطفه أو علمه إلى كل ما جل ودق ﴿ خبير ﴾ بما يليق من التدابير الحسنة ظاهرا وباطنا ﴿ له ما فى السموات والأرض ﴾ خلقا وملكا وتصرفا ﴿ وإن الله لهو الغنى ﴾ عن كل شىء ﴿ الحميد ﴾ المستوجب

للحمد بصفاته وأفعاله ﴿ ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض ﴾ أى جعل ما فيها من الأشياء مذللة لكم معدة لمنافعكم تتصرفون فيها كيف شئتم فلا أصلب من الحجر ولا أشد من الحديد ولا أهيب من النار وهى مسخرة لكم وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم لتعجيل المسرة والتشويق إلى المؤخر ﴿ والفلك ﴾ عطف على ما أو على اسم أن وقرىء بالرفع على الابتداء ﴿ تجرى فى البحر بأمره ﴾ حال من الفلك على الأول وخبر على الأخيرين ﴿ ويمسك السماء أن تقع على الأرض ﴾ أى من أن تقع أو كراهة أن تقع بأن خلقها على هيئة متداعية إلى الاستمساك ﴿ إلا بإذنه ﴾ أى بمشيئته وذلك يوم القيامة وفيه رد لاستمساكها بذاتها فإنها مساوية فى الجسمية لسائر الأجسام القابلة للميل الهابط فتقبله كقبول غيرها ﴿ إن الله بالناس لرؤوف رحيم ﴾ حيث هيأ لهم أسباب معاشهم وفتح عليهم أبواب المنافع وأوضح لهم مناهج الاستدلال بالآيات التكوينية والتنزيلية .

﴿ وهو الذى أحياكم ﴾ بعد أن كنتم جمادا عناصر ونطفا حسبما فصل فى مطالع السورة الكريمة ﴿ ثم يميتكم ﴾ عند مجىء آجالكم ﴿ ثم يحييكم ﴾ عند البعث ﴿ إن الإنسان لكفور ﴾ أى جحود للنعم مع ظهورها وهذا وصف للجنس بوصف بعض أفراده ﴿ لكل أمة ﴾ كلام مستأنف جىء به لزجر معاصريه عليه السلام من أهل الأديان السماوية عن منازعته عليه السلام ببيان حال ما تمسكوا به من الشرائع وإظهار خطئهم فى النظر أى لكل أمة معينة من الأمم الخالية والباقية ﴿ جعلنا ﴾ أى وضعنا وعينا ﴿ منسكا ﴾ أى شريعة خاصة لا لأمة أخرى منهم على معنى عينا كل شريعة لأمة معينة من الأمم بحيث لا تتخطى أمة منهم شريعتها المعينة لها إلى شريعة أخرى لا استقلالا ولا اشتراكا وقوله تعالى ﴿ هم ناسكوه ﴾ صفة لمنسكا مؤكدة للقصر المستفاد من تقديم الجار والمجرور على الفعل والضمير لكل أمة باعتبار خصوصها أى تلك الأمة المعينة ناسكوه والعاملون به لا أمة أخرى فالأمة التى كانت من مبعث موسى عليه السلام إلى مبعث عيسى عليه السلام منسكهم التوراة هم ناسكوها والعاملون بها لا غيرهم

والتى كانت من مبعث عيسى إلى مبعث النبى عليهما السلام منسكهم الإنجيل هم ناسكوه والعاملون به لا غيرهم وأما الأمة الموجودة عند مبعث النبى عليه السلام ومن بعدهم من الموجودين إلى يوم القيامة فهم أمة واحدة منسكهم الفرقان ليس إلا كما مر فى تفسير قوله تعالى (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) والفاء فى قوله تعالى ﴿ فلا ينازعنك فى الأمر ﴾ لترتيب النهى أو موجبه على ما قبلها فإن تعيينه تعالى لكل أمة من الأمم التى من جملتهم هذه الأمة شريعة مستقلة بحيث لا تتخطى أمة منهم شريعتها المعينة لها موجب لطاعة هؤلاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم وعدم منازعتهم إياه فى أمر الدين زعما منهم أن شريعتهم ما عين لآبائهم الأولين من التوراة والإنجيل فإنهما شريعتان لمن مضى من الأمم قبل انتساخهما[1]. وهؤلاء أمة مستقلة منسكهم القرآن المجيد فحسب والنهى إما على حقيقته أو كناية عن نهيه عليه السلام عن الالتفات إلى نزاعهم المبنى على زعمهم المذكور وأما جعله عبارة عن نهيه عليه السلام عن منازعتهم فلا يساعده المقام وقرىء فلا ينزعنك على تهييجه عليه السلام والمبالغة فى تثبيته وأيا ما كان فمحل النزاع ما ذكرناه وتخصيصه بأمر النسائك وجعله عبارة عن قول الخزاعيين وغيرهم للمسلمين مالكم تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتله الله تعالى مما لا سبيل إليه أصلا كيف لا وأنه يستدعى أن يكون أكل الميتة وسائر ما يدينونه من الأباطيل من جملة المناسك التى جعلها الله تعالى لبعض الأمم ولا يرتاب فى بطلانه عاقل. ﴿ وادع ﴾ أى وادعهم أو وادع الناس كافة على أنهم داخلون فيهم دخولا أوليا ﴿ إلى ربك ﴾ إلى توحيده وعبادته حسبما بين لهم فى منسكهم وشريعتهم ﴿ إنك لعلى هدى مستقيم ﴾ أى طريق موصل إلى الحق سوى والمراد به إما الدين والشريعة أو أدلتهما .

﴿ وإن جادلوك ﴾ بعد ظهور الحق بما ذكر من التحقيق ولزوم الحجة عليهم ﴿ فقل ﴾ لهم على سبيل الوعيد ﴿ الله أعلم بما تعملون ﴾ من الأباطيل

---

(١) فى ٣٠ نسخهما

التى من جملتها المجادلة ﴿ الله يحكم بينكم ﴾ يفصل بين المؤمنين منكم والكافرين ﴿ يوم القيامة ﴾ بالثواب والعقاب كما فصل فى الدنيا بالحجج والآيات ﴿ فيما كنتم فيه تختلفون ﴾ من أمر الدين ﴿ ألم تعلم ﴾ استئناف مقرر لمضمون ماقبله والاستفهام للتقرير أى قد علمت ﴿ أن الله يعلم ما فى السماء والأرض ﴾ فلا يخفى عليه شىء من الأشياء التى من جملتها ما يقوله الكفرة وما يعملونه ﴿ إن ذلك ﴾ أى ما فى السماء والأرض ﴿ فى كتاب ﴾ هو اللوح قد كتب فيه قبل حدوثه فلا يهمنك أمرهم مع علمنا به وحفظنا له ﴿ إن ذلك ﴾ أى ما ذكر من العلم والإحاطة به وإثباته فى اللوح أو الحكم بينكم ﴿ على الله يسير ﴾ فإن علمه وقدرته مقتضى ذاته فلا يخفى عليه شىء ولا يعسر عليه مقدور .

﴿ ويعبدون من دون الله ﴾ حكاية لبعض أباطيل المشركين وأحوالهم الدالة على كمال سخافة عقولهم وركاكة آرائهم من بناء أمر دينهم على غير مبنى من دليل سمعى أو عقلى وإعراضهم عما ألقى عليهم من سلطان بين هو أساس الدين وقاعدته أشد إعراض أى يعبدون متجاوزين عبادة الله ﴿ مالم ينزل به ﴾ أى بجواز عبادته ﴿ سلطانا ﴾ أى حجة ﴿ وما ليس لهم به ﴾ اى بجواز عبادته ﴿ علم ﴾ من ضرورة العقل أو استدلاله ﴿ وما للظالمين ﴾ أى الذين ارتكبوا مثل هذا الظلم العظيم الذى يقضى ببطلانه وكونه ظلما بديهة العقول ﴿ من نصير ﴾ يساعدهم بنصرة مذهبهم وتقرير رأيهم أو بدفع العذاب الذى يعتريهم بسبب ظلمهم ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا ﴾ عطف على يعبدون وما بينهما اعتراض وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار التجددى ﴿ بينات ﴾ أى حال كونها واضحات الدلالة على العقائد الحقة والأحكام الصادقة أو على بطلان ماهم عليه من عبادة الأصنام أو على كونها من عند الله عز وجل ﴿ تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر ﴾ أى الإنكار كالمكرم بمعنى الإكرام أو الفظيع من التجهم والبسور أو الشر الذى يقصدونه بظهور مخايله من الأوضاع والهيئات وهو الأنسب بقوله تعالى : ﴿ يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا ﴾ أى يثبون ويبطشون بهم من فرط الغيظ والغضب لأباطيل أخذوها تقليدا .

وهل جهالة أعظم وأطم من أن يعبدوا ما لا يوهم صحة عبادته شيء ما أصلا بل يقضي ببطلانها العقل والنقل ويظهروا لمن يهديهم إلى الحق البين بالسلطان المبين مثل هذا المنكر الشنيع كلا ولهذا وضع الذين كفروا موضع الضمير .

﴿ قل ﴾ ردا عليهم وإقناطا عما يقصدونه من الإضرار بالمسلمين ﴿ أفأنبئكم ﴾ أي أأخاطبكم فأخبركم ﴿ بشر من ذلكم ﴾ الذي فيكم من غيظكم على التالين وسطوتكم بهم أو بما تبغونهم من الغوائل أو بما أصابكم من الضجر بسبب ما تلوه عليكم ﴿ النار ﴾ أي هو النار على أنه جواب لسؤال مقدر كأنه قيل ما هو وقيل هو مبتدأ خبره قوله تعالى : ﴿ وعدها الله الذين كفروا ﴾ وقرىء النار بالنصب على الاختصاص وبالجر بدلا من شر فتكون الجملة الفعلية استئنافا كالوجه الأول أو حالا من النار بإضمار قد ﴿ وبئس المصير ﴾ النار ﴿ يا أيها الناس ضرب مثل ﴾ أي بين لكم حال مستغربة أو قصة بديعة رائعة حقيقة بأن تسمى مثلا وتسير في الأمصار والأعصار أو جعل لله مثل أي مثل في استحقاق العبادة وأريد بذلك ما حكى عنهم من عبادتهم للأصنام ﴿ فاستمعوا له ﴾ أي للمثل نفسه استماع تدبر وتفكر أو فاستمعوا لأجله ما أقول فقوله تعالى :

﴿ إن الذين تدعون من دون الله ﴾ الخ بيان للمثل وتفسير له على الأول وتعليل لبطلان جعلهم الأصنام مثل الله سبحانه في استحقاق العبادة على الثاني وقرىء بياء الغيبة مبنيا للفاعل ومبنيا للمفعول والراجع إلى الموصول على الأولين محذوف ﴿ لن يخلقوا ذبابا ﴾ أي لن يقدروا على خلقه أبدا مع صغره وحقارته فإن لن بما فيها من تأكيد النفي دالة على منافاة ما بين المنفي والمنفي عنه ﴿ ولو اجتمعوا له ﴾ أي لخلقه وجواب لو محذوف لدلالة ما قبله عليه والجملة معطوفة على شرطية أخرى محذوفة ثقة بدلالة هذه عليها أي لو لم يجتمعوا عليه لن يخلقوه ولو اجتمعوا له لن يخلقوه كما مر تحقيقه مرارا[1] وهما في موضع

---

(1) في ٢٠٧ : كثيرا .

الحال كأنه قيل لن يخلقوا ذبابا على كل حال ﴿ وإن يسلبهم الذباب شيئا ﴾ بيان لعجزهم عن الامتناع عما يفعل بهم الذباب بعد بيان عجزهم عن خلقه أى إن يأخذ الذباب منهم شيئا ﴿ لا يستنقذوه منه ﴾ مع غاية ضعفه ولقد جهلوا غاية التجهيل فى إشراكهم بالله القادر على جميع المقدورات المتفرد بإيجاد كافة الموجودات تماثيل هى أعجز الأشياء وبين ذلك بأنها لا تقدر على أقل الأحياء وأذلها ولو اتفقوا عليه بل لا تقوى على مقاومة هذا الأقل الأذل وتعجز عن ذبه عن نفسها واستنقاذ ما يختطفه منها قيل كانوا يطيبونها بالطيب والعسل ويغلقون عليها الأبواب فيدخل الذباب من الكوى فيأكله ﴿ ضعف الطالب والمطلوب ﴾ أى عابد الصنم ومعبوده أو الذباب الطالب لما يسلبه من الصنم من الطيب والصنم المطلوب منه ذلك أو الصنم والذباب كأنه يطلبه ليستنقذ منه ما يسلبه ولو حققت وجدت الصنم أضعف من الذباب بدرجات وعابده أجهل من كل جاهل وأضل من كل ضال ﴿ ماقدروا الله حق قدره ﴾ أى ماعرفوه حق معرفته حيث أشركوا به وسموا باسمه ما هو أبعد الأشياء عنه مناسبة ﴿ إن الله لقوى ﴾ على خلق الممكنات بأسرها وإفناء الموجودات عن آخرها ﴿ عزيز ﴾ غالب على جميع الأشياء وقد عرفت حال آلهتهم المقهورة لأذلها العجزة عن أقلها والجملة تعليل لما قبلها من نفى معرفتهم له تعالى ﴿ الله يصطفى من الملائكة رسلا ﴾ يتوسطون بينه تعالى وبين الأنبياء عليهم السلام بالوحى ﴿ ومن الناس ﴾ وهم المختصون بالنفوس الزكية المؤيدون بالقوة القدسية المتعلقون بكلا العالمين الروحانى والجسمانى يتلقون من جانب ويلقون إلى جانب ولا يعوقهم التعلق بمصالح الخلق عن التبتل إلى جانب الحق فيدعونهم إليه تعالى بما أنزل عليهم ويعلمونهم شرائعه وأحكامه كأنه تعالى لما قرر وحدانيته فى الألوهية ونفى أن يشاركه فيها شىء من الأشياء بين أن له عبادا مصطفين للرسالة يتوسل بإجابتهم والاقتداء بهم إلى عبادته عز وجل وهو أعلى الدرجات وأقصى الغايات لمن عداه من الموجودات تقريرا للنبوة وتزييفا لقولهم (لو شاء الله لأنزل ملائكة) وقولهم (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) وقولهم (الملائكة بنات الله)

وغير ذلك من الأباطيل ﴿ إن الله سميع بصير ﴾ عليم بجميع المسموعات والمبصرات فلا يخفى عليه شيء من الأقوال والأفعال ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم وإلى الله ترجع الأمور ﴾ لا إلى أحد غيره لا اشتراكا ولا استقلالا ﴿ يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا ﴾ أى فى صلواتكم أمرهم بهما لما أنهم ما كانوا يفعلونهما أول الإسلام أوصلوا عبر عن الصلاة بهما لأنهما أعظم أركانها أو اخضعوا لله تعالى وخروا له سجدا ﴿ واعبدوا ربكم ﴾ بسائر ما تعبدكم به ﴿ وافعلوا الخير ﴾ وتحروا ما هو خير وأصلح فى كل ما تأتون وما تذرون كنوافل الطاعات وصلة الأرحام ومكارم الأخلاق ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ أى افعلوا هذه كلها وأنتم راجون بها الفلاح غير متيقنين له واثقين بأعمالكم والآية آية سجدة عند الشافعى رحمه الله لظاهر ما فيها من الأمر بالسجود ولقوله عليه الصلاة والسلام فضلت سورة الحج بسجدتين من لم يسجدهما فلا يقرأها ﴿ وجاهدوا فى الله ﴾ أى لله تعالى ولأجله أعداء دينه الظاهرة كأهل الزيغ والباطنة كالهوى والنفس وعنه عليه الصلاة والسلام أنه رجع من غزوة تبوك فقال رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ﴿ حق جهاده ﴾ أى جهادا فيه حقا خالصا لوجهه فعكس وأضيف الحق إلى الجهاد مبالغة كقولك هو حق عالم وأضيف الجهاد إلى الضمير اتساعا أو لأنه مختص به تعالى من حيث أنه مفعول لوجهه ومن أجله ﴿ هو اجتباكم ﴾ أى هو اختاركم لدينه ونصرته لا غيره وفيه تنبيه على ما يقتضى الجهاد ويدعو إليه ﴿ وما جعل عليكم فى الدين من حرج ﴾ أى ضيق بتكليف ما يشق عليكم إقامته إشارة إلى أنه لا مانع لهم عنه ولا عذر لهم فى تركه أو إلى الرخصة فى إغفال بعض ما أمرهم به حيث يشق عليهم لقوله عليه الصلاة والسلام إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وقيل ذلك بأن جعل لهم من كل ذنب مخرجا بأن رخص لهم فى المضايق وفتح لهم باب التوبة وشرع لهم الكفارات فى حقوقه والأروش والديات فى حقوق العباد ﴿ ملة أبيكم إبراهيم ﴾ نصب على المصدر بفعل دل عليه مضمون ما قبله بحذف المضاف أى وسع عليكم دينكم توسعة ملة أبيكم أو على الإغراء أو على

الاختصاص وإنما جعله أباهم لأنه أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو كالأب لأمته من حيث أنه سبب لحياتهم الأبدية ووجودهم على الوجه المعتد به فى الآخرة أو لأن أكثر العرب كانوا من ذريته عليه الصلاة والسلام فغلبوا على غيرهم ﴿ هو سماكم المسلمين من قبل ﴾ فى الكتب المتقدمة .

﴿ وفى هذا ﴾ أى فى القرآن والضمير لله تعالى ويؤيده أنه قرىء الله سماكم أو لإبراهيم وتسميتهم بالمسلمين فى القرآن وإن لم تكن منه عليه الصلاة والسلام كانت بسبب تسميته من قبل فى قوله (ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) وقيل وفى هذا تقديره وفى هذا بيان تسميته إياكم المسلمين ﴿ ليكون الرسول ﴾ يوم القيامة متعلق بسماكم ﴿ شهيدا عليكم ﴾ بأنه بلغكم فيدل على قبول شهادته لنفسه اعتمادا على عصمته أو بطاعة من أطاع وعصيان من عصى ﴿ وتكونوا شهداء على الناس ﴾ بتبليغ الرسل إليهم ﴿ فأقيموا الصلوة وآتوا الزكوة ﴾ أى فتقربوا إلى الله بأنواع الطاعات وتخصيصهما بالذكر لإنافتهما وفضلهما ﴿ واعتصموا بالله ﴾ أى ثقوا به فى مجامع أموركم ولا تطلبوا الإعانة والنصرة إلا منه ﴿ هو مولاكم ﴾ ناصركم ومتولى أموركم ﴿ فنعم المولى ونعم النصير ﴾ هو إذ لا مثل له فى الولاية والنصرة بل لا ولى ولا نصير فى الحقيقة سواه عز وجل عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الحج أعطى من الأجر كحجة حجها وعمرة اعتمرها بعدد من حج واعتمر فيما مضى وفيما بقى .

* * *

سورة المؤمنون

مكية وهى عند البصريين مائة وتسع عشرة آية
وعند الكوفيين مائة وثمانى عشرة آية

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

من دلائل الإيمان

﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ الفلاح الفوز بالمرام والنجاة من المكروه وقيل البقاء فى الخير والإفلاح الدخول فى ذلك كالإبشار الذى هو الدخول فى البشارة وقد يجىء متعدياً بمعنى الإدخال فيه وعليه قراءة من قرأ على البناء للمفعول وكلمة قد ههنا لإفادة ثبوت ما كان متوقع الثبوت من قبل لامتوقع الإخبار به ضرورة أن المتوقع من حال المؤمنين ثبوت الفلاح لهم لاالإخبار بذلك فالمعنى قد فازوا بكل خير ونجوا من كل ضير حسبما كان ذلك متوقعاً من حالهم فإن إيمانهم وما تفرع عليه من أعمالهم الصالحة من دواعى الفلاح بموجب الوعد الكريم خلا أنه إن أريد بالإفلاح حقيقة الدخول فى الفلاح الذى لا يتحقق إلا فى الآخرة فالإخبار به على صيغة الماضى للدلالة على تحققه لا محالة بتنزيله منزلة الثابت وإن أريد كونهم بحال تستتبعه البتة فصيغة الماضى فى محلها وقرىء أفلحوا على الإبهام والتفسير أو على أكلونى البراغيث وقرىء أفلح بضمة اكتفى بها عن الواو كما فى قول من قال :

* ولو أن الأطبا كان حولى *

والمراد بالمؤمنين إما المصدقون بما علم ضرورة أنه من دين نبينا صلى الله عليه وسلم من التوحيد والنبوة والبعث والجزاء ونظائرها فقوله تعالى : ﴿ الذين هم فى صلوتهم خاشعون ﴾ وما عطف عليه صفات مخصصة لهم وإما الآتون بفروعه أيضاً كما ينبىء عنه إضافة الصلاة إليهم فهى صفات موضحة أو مادحة لهم حسب اعتبار ما ذكر فى حيز الصلة من المعانى مع الإيمان إجمالا أو تفصيلا

كما مر فى أوائل سورة البقرة والخشوع الخوف والتذلل أى خائفون من الله عز وجل متذللون له ملزمون أبصارهم مساجدهم روى أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا صلى رفع بصره إلى السماء فلما نزلت رمى ببصره نحو مسجده وأنه رأى مصليا يعبث بلحيته فقال لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه .

﴿ والذين هم عن اللغو ﴾ أى عما لا يعنيهم من الأقوال والأفعال ﴿ معرضون ﴾ أى فى عامة أوقاتهم كما ينبىء عنه الاسم الدال على الاستمرار فيدخل فى ذلك إعراضهم عنه حال اشتغالهم بالصلاة دخولا أوليا ومدار إعراضهم عنه ما فيه من الحالة الداعية إلى الإعراض عنه لا مجرد الاشتغال بالجد فى أمور الدين كما قيل فإن ذلك ربما يوهم أن لا يكون فى اللغو نفسه ما يزجرهم عن تعاطيه وهو أبلغ من أن يقال لا يلهون من وجوه جعل الجملة اسمية وبناء الحكم على الضمير والتعبير عنه بالاسم وتقديم الصلة عليه وإقامة الإعراض مقام الترك ليدل على تباعدهم عنه رأسا مباشرة وتسببا وميلا وحضورا فإن أصله أن يكون فى عرض غير عرضه .

﴿ والذين هم للزكوة فاعلون ﴾ وصفهم بذلك بعد وصفهم بالخشوع فى الصلاة للدلالة على أنهم بلغوا الغاية القاصية من القيام بالطاعات البدنية والمالية والتجنب عن المحرمات وسائر ما توجب المروءة اجتنابه وتوسيط حديث الإعراض بينهما لكمال ملابسته بالخشوع فى الصلاة والزكاة مصدر لأنه الأمر الصادر عن الفاعل لا المحل الذى هو موقعه ومعنى الفعل قد مر تحقيقه فى تفسير قوله تعالى (فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا) ويجوز أن يراد بها العين على تقدير المضاف ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون ﴾ ممسكون لها فالاستثناء فى قوله تعالى ﴿ إلا على أزواجهم ﴾ من نفى الإرسال الذى ينبىء عنه الحفظ أى لا يرسلونها على أحد إلا على أزواجهم وفيه إيذان بأن قوتهم الشهوية داعية لهم إلاما لا يخفى وأنهم حافظون لها من استيفاء مقتضاها وبذلك يتحقق كمال العفة ويجوز أن تكون على بمعنى من وإليه ذهب الفراء كما فى قوله تعالى (إذا اكتالوا على الناس)

أى حافظون لها من كل أحد إلا من أزواجهم وقيل هى متعلقة بمحذوف وقع حالا من ضمير حافظون أى حافظون لها فى جميع الأحوال إلا حال كونهم والين أو قوامين على أزواجهم وقيل بمحذوف يدل عليه غير ملومين كأنه قيل يلامون على كل مباشر إلا على ما أطلق لهم فإنهم غير ملومين وحمل الحفظ على القصر عليهن ليكون المعنى حافظون فروجهم على الأزواج لا يتعداهن ثم يقال غير حافظين إلا عليهن تأكيدا على تأكيد تكلف على تكلف ﴿أو ما ملكت أيمانهم﴾ أى سراريهم عبر عنهن بما إجراء لهن لمملوكيتهن مجرى غير العقلاء أو لأنوثتهن المنبئة عن القصور وقوله تعالى ﴿فإنهم غير ملومين﴾ تعليل لما يفيده الاستثناء من عدم حفظ فروجهم منهن أى فإنهم غير ملومين على عدم حفظها منهن ﴿فمن ابتغى وراء ذلك﴾ الذى ذكر من الحد المتسع وهو أربع من الحرائر أو ما شاء من الإماء ﴿فأولئك هم العادون﴾ الكاملون فى العدوان المتناهون فيه وليس فيه ما يدل حتما على تحريم المتعة حسبما نقل عن القاسم ابن محمد فإنه قال : إنها ليست زوجة له فوجب ألا تحل له أما إنها ليست زوجة له فلأنهما لا يتوارثان بالإجماع ولو كانت زوجة له لحصل التوارث لقوله تعالى ﴿ولكم نصف ما ترك أزواجكم﴾ فوجب أن لا تحل لقوله تعالى ﴿إلا على أزواجهم﴾ لأن لهم أن يقولوا إنها زوجة له فى الجملة وأما إن كل زوجة ترث فهم لا يسلمونها وأما ما قيل من أنه إن أريد لو كانت زوجة حال الحياة لم يفد وإن أريد بعد الموت فالملازمة ممنوعة فليس له معنى محصل نعم لو عكس لكان له وجه ﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم﴾ لما يؤتمنون عليه ويعاهدون من جهة الحق أو الخلق ﴿راعون﴾ أى قائمون عليها حافظون لها على وجه الإصلاح وقرىء لأمانتهم ﴿والذين هم على صلواتهم﴾ المفروضة عليهم ﴿يحافظون﴾ يواظبون عليها ويؤدونها فى أوقاتها ولفظ الفعل فيه لما فى الصلاة من التجدد والتكرر وهو السر فى جمعها وليس فيه تكرير لما أن الخشوع فى الصلاة غير المحافظة عليها وفصلهما للإيذان بأن كلا منهما فضيلة مستقلة على حيالها ولو قرنا فى الذكر لربما توهم أن مجموع الخشوع والمحافظة

فضيلة واحدة ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى المؤمنين باعتبار اتصافهم بما ذكر من الصفات وإيثارها(١) على الإضمار للإشعار بامتيازهم بها عن غيرهم ونزولهم منزلة المشار إليه حسا وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو طبقتهم وبعد درجتهم فى الفضل والشرف أى أولئك المنعوتون بالنعوت الجليلة المذكورة ﴿ هم الوارثون ﴾ أى الأحقاء بأن يسموا وراثا دون من عداهم ممن ورث رغائب الأموال والذخائر وكرائمها ﴿ الذين يرثون الفردوس ﴾ بيان لما يرثونه وتقييد للوراثة بعد إطلاقها وتفسير لها بعد إبهامها تفخيما لشأنها ورفعا لمحلها وهى استعارة لاستحقاقهم الفردوس بأعمالهم حسبما يقتضيه الوعد الكريم للمبالغة فيه وقيل إنهم يرثون من الكفار منازلهم فيها حيث فوتوها على أنفسهم لأنه تعالى خلق لكل إنسان منزلا فى الجنة ومنزلا فى النار ﴿ هم فيها ﴾ أى فى الفردوس والتأنيث لأنه اسم للجنة أو لطبقتهم العليا وهو البستان الجامع لأصناف الثمر روى أنه تعالى بنى جنة الفردوس لبنة من ذهب ولبنة من فضة وجعل خلالها المسك الأذفر وفى رواية ولبنة من مسك مذرى وغرس فيها من جيد الفاكهة وجيد الريحان ﴿ خالدون ﴾ لا يخرجون منها أبدا والجملة إما مستأنفة مقررة لما قبلها وإما حال مقدرة من فاعل يرثون أو مفعوله إذ فيها ذكر كل منهما ومعنى الكلام لا يموتون ولا يخرجون منها .

خلق الإنسان

﴿ ولقد خلقنا الإنسان ﴾ شروع فى بيان مبدأ خلق الإنسان وتقلبه فى أطوار الخلقة وأدوار الفطرة بيانا إجماليا إثر بيان حال بعض أفراده السعداء واللام جواب قسم والواو ابتدائية وقيل عاطفة على ما قبلها والمراد بالإنسان الجنس أى وبالله لقد خلقنا جنس الإنسان فى ضمن خلق آدم عليه السلام خلقا إجماليا حسبما تحققته فى سورة الحج وغيرها وأما كونه مخلوقا من سلالات جعلت نطفا بعد أدوار وأطوار فبعيد ﴿ من سلالة ﴾ السلالة ما سل من الشىء

---

(١) أى وإيثار اسم الإشارة على الضمير .

واستخرج منه فإن فعالة اسم لما يحصل من الفعل فتارة تكون مقصودا منه كالخلاصة وأخرى غير مقصود منه كالقلامة والكناسة والسلالة من قبيل الأول فإنها مقصودة بالسل ومن ابتدائية متعلقة بالخلق ومن فى قوله تعالى ﴿من طين﴾ بيانية متعلقة بمحذوف وقع صفة لسلالة أى خلقناه من سلالة كائنة من طين ويجوز أن تتعلق بسلالة على أنها بمعنى مسلولة فهى ابتدائية كالأولى وقيل المراد بالإنسان آدم عليه السلام فإنه الذى خلق من صفوة سلت من الطين وقد وقفت على التحقيق ﴿ثم جعلناه﴾ أى الجنس باعتبار أفراده المغايرة لآدم عليه السلام أو جعلنا نسله على حذف المضاف إن أريد بالإنسان آدم عليه السلام ﴿نطفة﴾ بأن خلقناه منها أو ثم جعلنا السلالة نطفة والتذكير بتأويل الجوهر أو المسلول أو الماء ﴿فى قرار﴾ أى مستقر وهو الرحم عبر عنها بالقرار الذى هو مصدر مبالغة وقوله تعالى ﴿مكين﴾ وصف لها بصفة ما استقر فيها مثل طريق سائر أو بمكانتها فى نفسها فإنها مكنت بحيث هى وأحرزت .

﴿ثم خلقنا النطفة علقة﴾ أى دما جامدا بأن أحلنا النطفة البيضاء علقة حمراء ﴿فخلقنا العلقة مضغة﴾ أى قطعة لحم لا استبانة ولا تمايز فيها ﴿فخلقنا المضغة﴾ أى غالبها ومعظمها أو كلها ﴿عظاما﴾ بأن صلبناها وجعلناها عمودا للبدن على هيئات وأوضاع مخصوصة تقتضيها الحكمة ﴿فكسونا العظام﴾ المعهودة ﴿لحما﴾ من بقية المضغة أو مما أنبتنا عليها بقدرتنا مما يصل إليها أى كسونا كل عظم من تلك العظام ما يليق به من اللحم على مقدار لائق به وهيئة مناسبة له واختلاف العواطف للتنبيه على تفاوت الاستحالات وجمع العظام لاختلافها وقرىء على التوحيد فيهما اكتفاء بالجنس وبتوحيد الأول فقط وبتوحيد الثانى فحسب ﴿ثم أنشأناه خلقا آخر﴾ هى صورة البدن أو الروح أو القوى بنفخه فيه أو المجموع وثم لكمال التفاوت بين الخلقين واحتج به أبو حنيفة رحمه الله على أن من غصب بيضة فأفرخت عنده لزمه ضمان البيضة لا الفرخ لأنه خلق آخر .

﴿فتبارك الله﴾ فتعالى شأنه فى علمه الشامل وقدرته الباهرة والالتفات

إلى الاسم الجليل لتربية المهابة وإدخال الروعة والإشعار بأن ما ذكر من الأفاعيل العجيبة من أحكام الألوهية وللإيذان بأن حق كل من سمع ما فصل من آثار قدرته عز وعلا أو لاحظه أن يسارع إلى التكلم به إجلالا وإعظاما لشؤونه تعالى ﴿ أحسن الخالقين ﴾ بدل من الجلالة وقيل نعت بناء على أن الإضافة ليست لفظية وقيل خبر مبتدأ محذوف أى هو أحسن الخالقين خلقا أى المقدرين تقديرا حذف المميز لدلالة الخالقين عليه كما حذف المأذون فيه فى قوله تعالى (أذن للذين يقاتلون) لدلالة الصلة عليه أى أحسن الخالقين خلقا فالحسن للخلق قيل نظيره قوله عليه الصلاة والسلام إن الله جميل يحب الجمال أى جميل فعله فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه فانقلب مرفوعا فاستكن روى أن عبد الله بن أبى سرح كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم الوحى فلما انتهى عليه الصلاة والسلام إلى قوله خلقا آخر سارع عبد الله إلى النطق به قبل إملائه عليه الصلاة والسلام فقال اكتبه هكذا نزلت فشك عبد الله فقال إن كان محمد يوحى إليه فأنا كذلك فلحق بمكة كافرا ثم أسلم يوم الفتح وقيل مات على كفره وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال لما نزلت هذه الآية قال عمر رضى الله عنه فتبارك الله أحسن الخالقين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هكذا نزل يا عمر وكان رضى الله عنه يفتخر بذلك ويقول وافقت ربى فى أربع الصلاة خلف المقام وضرب الحجاب على النسوة وقولى لهن أو ليبدله الله خيرا منكن فنزل قوله تعالى (عسى ربه إن طلقكن أن يبدله) الآية والرابع فتبارك الله أحسن الخالقين أنظر كيف وقعت هذه الواقعة سببا لسعادة عمر رضى الله عنه وشقاوة ابن أبى سرح حسبما قال تعالى (يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا) لا يقال فقد تكلم البشر ابتداء بمثل نظم القرآن وذلك قادح فى إعجازه لما أن الخارج عن قدرة البشر ما كان مقدار أقصر السور على أن إعجاز هذه الآية الكريمة منوط بما قبلها كما تعرب عنه الفاء فإنها اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ما قبله ﴿ ثم إنكم بعد ذلك ﴾ أى بعد ما ذكر من الأمور العجيبة حسبما ينبىء عنه ما فى اسم الإشارة من معنى البعد المشعر بعلو رتبة المشار إليه

وبعد منزلته فى الفضل والكمال وكونه بذلك ممتازا منزلا منزلة الأمور الحسية ﴿ لميتون ﴾ لصائرون إلى الموت لا محالة كما تؤذن به صيغة النعت الدالة على الثبوت دون الحدوث الذى تفيده صيغة الفاعل وقد قرىء لمائتون ﴿ ثم إنكم يوم القيامة ﴾ أى عند النفخة الثانية ﴿ تبعثون ﴾ من قبوركم للحساب والمجازاة بالثواب والعقاب .

﴿ ولقد خلقنا فوقكم ﴾ بيان لخلق ما يحتاج إليه بقاؤهم إثر بيان خلقهم أى خلقنا فى جهة العلو من غير اعتبار فوقيتها لهم لأن تلك النسبة إنما تعرض لها بعد خلقهم ﴿ سبع طرائق ﴾ هى السموات السبع سميت بها لأنها طورق بعضها فوق بعض مطارقة النعل فإن كل ما فوقه مثله فهو طريقة أو لأنها طرائق الملائكة أو الكواكب فيها مسيرها ﴿ وما كنا عن الخلق ﴾ عن ذلك المخلوق الذى هو السموات أو عن جميع المخلوقات التى هى من جملتها أو عن الناس ﴿ غافلين ﴾ مهملين أمرها بل نحفظها عن الزوال والاختلال وندبر أمرها حتى تبلغ منتهى ما قدر لها من الكمال حسبما اقتضته الحكمة وتعلقت به المشيئة ويصل إلى ما فى الأرض منافعها كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿ وأنزلنا من السماء ماء ﴾ هو المطر أو الأنهار النازلة من الجنة قيل هى خمسة أنهار سيحون نهر الهند وجيحون نهر بلخ ودجلة والفرات نهرا العراق والنيل نهر مصر أنزلها الله تعالى من عين واحدة من عيون الجنة فاستودعها الجبال وأجراها فى الأرض وجعل فيها منافع للناس فى فنون معايشهم ومن ابتدائية متعلقة بأنزلنا وتقديمها على المفعول الصريح لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر والعدول عن الإضمار لأن الإنزال لا يعتبر فيه عنوان كونها طرائق بل مجرد كونها جهة العلو ﴿ بقدر ﴾ بتقدير لائق لاستجلاب منافعهم ودفع مضارهم[1] أو بمقدار ما علمنا من حاجاتهم ومصالحهم ﴿ فأسكناه فى الأرض ﴾ أى جعلناه ثابتا قارا فيها ﴿ وإنا على ذهاب به ﴾ أى إزالته بالإفساد أو التصعيد أو التغوير بحيث

---

(١) فى ١٠ : لاستجلاب ما ينفعهم ودفع ما يضرهم .

يتعذر استنباطه ﴿ لقادرون ﴾ كما كنا قادرين على إنزاله وفى تنكير ذهاب إيماء إلى كثرة طرقه ومبالغة فى الإبعاد به ولذلك جعل أبلغ من قوله تعالى (قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين) ﴿ فأنشأنا لكم به ﴾ أى بذلك الماء .

﴿ جنات من نخيل وأعناب لكم فيها ﴾ فى الجنات ﴿ فواكه كثيرة ﴾ تتفكهون بها ﴿ ومنها ﴾ من الجنات ﴿ تأكلون ﴾ تغذيا أو ترزقون وتحصلون معايشكم من قولهم فلان يأكل من حرفته ويجوز أى يعود الضميران للنخيل والأعناب أى لكم فى ثمراتها أنواع من الفواكه كالرطب والعنب والتمر والزبيب والعصير والدبس وغير ذلك وطعام تأكلونه ﴿ وشجرة ﴾ بالنصب عطف على جنات وقرىء بالرفع على أنه مبتدأ خبره محذوف دل عليه ما قبله أى ومما أنشىء لكم به شجرة وتخصيصها بالذكر من بين سائر الأشجار لاستقلالها بمنافع معروفة قيل هى أول شجرة نبتت بعد الطوفان وقوله تعالى ﴿ تخرج من طور سيناء ﴾ وهو جبل موسى عليه السلام بين مصر وأيلة وقيل بفلسطين ويقال له طور سينين فإما أن يكون الطور اسم الجبل وسيناء اسم البقعة أضيف إليها أو المركب منهما علم له كامرىء القيس ومنع صرفه على قراءة من كسر السين للتعريف والعجمة أو التأنيث على تأويل البقعة لا للألف لأنه فيعال كديماس من السناء بالمد وهو الرفعة أو بالقصر وهو النور أو ملحق بفعلال كعلباء من السين إذ لا فعلاء بألف التأنيث بخلاف سيناء فإنه فيعال ككيسان أو فعلاء كصحراء إذ لا فعلال فى كلامهم وقرىء بالكسر والقصر والجملة صفة لشجرة وتخصيصها بالخروج منه مع خروجها من سائر البقاع أيضا لتعظيمها ولأنه المنشأ الأصلى لها وقوله تعالى ﴿ تنبت بالدهن ﴾ صفة أخرى لشجرة والباء متعلقة بمحذوف وقع حالا منها أى تنبت ملتبسة به ويجوز كونها صلة معدية أى تنبته بمعنى تتضمنه وتحصله فإن النبات حقيقة صفة للشجرة ولا للدهن وقرىء تنبت من الإفعال وهو إما من الإنبات بمعنى النبات كما فى قول زهير :

رأيت ذوى الحاجات حول بيوتهم قطينا لهم حتى إذا أنبت البقل

أو على تقدير تنبت زيتونها ملتبسا بالدهن وقرىء على البناء للمفعول وهو كالأول وتثمر بالدهن وتخرج بالدهن وتنبت بالدهان ﴿ وصبغ للآكلين ﴾ معطوف على الدهن جار على إعرابه عطف أحد وصفى الشيء على الآخر أى تنبت بالشيء الجامع بين كونه دهنا يدهن به ويسرج منه وكونه إداما يصبغ فيه الخبز أى يغمس فيه للائتدام وقرىء وصباغ كدباغ فى دبغ .

﴿ وإن لكم فى الأنعام لعبرة ﴾ بيان النعم الفائضة عليهم من جهة الحيوان إثر بيان النعم الواصلة إليهم من جهة الماء والنبات وقد بين أنها مع كونها فى نفسها نعمة ينتفعون بها على وجوه شتى عبرة لا بد من أن يعتبروا بها ويستدلوا بأحوالها على عظيم قدرة الله عز وجل وسابغ رحمته ويشكروه ولا يكفروه وخص هذا بالحيوان لما أن محل العبرة فيه أظهر مما فى النبات وقوله تعالى : ﴿ نسقيكم مما فى بطونها ﴾ تفصيل لما فيها من مواقع العبرة وما فى بطونها عبارة إما عن الألبان فمن تبعيضية والمراد بالبطون الجوف أو عن العلف الذى يتكون منه اللبن فمن ابتدائية والبطون على حقيقتها وقرىء بفتح النون وبالتاء أى تسقيكم الأنعام ﴿ ولكم فيها منافع كثيرة ﴾ غير ما ذكر من أصوافها وأشعارها ﴿ ومنها تأكلون ﴾ فتنتفعون بأعيانها كما تنتفعون بما يحصل منها ﴿ وعليها ﴾ أى على الأنعام فإن الحمل عليها لا يقتضى الحمل على جميع أنواعها بل يتحقق بالحمل على البعض كالإبل ونحوها وقيل المراد هى الإبل خاصة لأنها هى المحمول عليها عندهم والمناسب للفلك فإنها سفائن البر قال ذو الرمة :

* سفينة بر تحت خدى زمامها *

فالضمير فيه كما فى قوله تعالى : (وبعولتهن أحق بردهن) ﴿ وعلى الفلك تحملون ﴾ أى فى البر والبحر وفى الجمع بينها وبين الفلك فى إيقاع الحمل عليها مبالغة فى تحملها للحمل وهو الداعى إلى تأخير ذكر هذه المنفعة مع كونها من المنافع الحاصلة منها عن ذكر منفعة الأكل المتعلقة بعينها .

إهمال الأمم السابقة للاعتبار

﴿ ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه ﴾ شروع فى بيان إهمال الأمم السابقة وتركهم النظر والاعتبار فيما عدد من النعم الفائتة للحصر وعدم تذكرهم بتذكير رسلهم وما حاق بهم لذلك من فنون العذاب تحذيرا للمخاطبين وتقديم قصة نوح عليه السلام على سائر القصص مما لا يخفى وجهه وفى إيرادها إثر قوله تعالى (وعلى الفلك تحملون) من حسن الموقع مالا يوصف والواو ابتدائية واللام جواب قسم محذوف وتصدير القصة به لإظهار كمال الاعتناء بمضمونها أى وبالله لقد أرسلنا نوحا الخ ونسبه الكريم وكيفية بعثه وكمية لبثه فيما بينهم قد مر تفصيله فى سورة الأعراف وسورة هود ﴿ فقال ﴾ متعطفا عليهم ومستميلا لهم إلى الحق ﴿ يا قوم اعبدوا الله ﴾ أى اعبدوه وحده كما يفصح عنه قوله تعالى فى سورة هود (أن لا تعبدوا إلا الله) وترك التقييد به للإيذان بأنها هى العبادة فقط وأما العبادة بالإشراك فليست من العبادة فى شىء رأسا وقوله تعالى : ﴿ مالكم من إله غيره ﴾ استئناف مسوق لتعليل العبادة المأمور بها أو تعليل الأمر بها وغيره بالرفع صفة لا له باعتبار محله الذى هو الرفع على أنه فاعل أو مبتدأ خبره لكم أو محذوف ولكم للتخصيص والتبيين أى مالكم فى الوجود أو فى العالم إله غيره تعالى وقرىء بالجر باعتبار لفظه ﴿ أفلا تتقون أنفسكم عذابه الذى يستوجبه ما أنتم عليه من ترك عبادته تعالى كما يفصح عنه قوله تعالى (إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) وقوله تعالى (عذاب يوم أليم) وقيل أفلا تخافون أن ترفضوا عبادة الله الذى هو ربكم الخ وليس بذاك وقيل أفلا تخافون أن يزيل عنكم نعمه الخ وفيه ما فيه والهمزة لإنكار الواقع واستقباحه والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى أتعرفون ذلك أى مضمون قوله تعالى (مالكم من إله غيره) فلا تتقون عذابه بسبب إشراككم به فى العبادة مالا يستحق الوجود لولا إيجاد الله تعالى إياه فضلا عن استحقاق العبادة فالمنكر عدم الاتقاء مع تحقق ما يوجبه أو ألا تلاحظون ذلك فلا تتقونه فالمنكر كلا الأمرين

فالمبالغة حينئذ فى الكمية وفى الأول فى الكيفية ﴿ فقال الملأ ﴾ أى الأشراف ﴿ الذين كفروا من قومه ﴾ وصف الملأ بما ذكر مع اشتراك الكل فيه للإيذان بكمال عراقتهم فى الكفر وشدة شكيمتهم فيه أى قالوا لعوامهم ﴿ ما هذا إلا بشر مثلكم ﴾ أى فى الجنس والوصف من غير فرق بينكم وبينه وصفوه عليه السلام بذلك مبالغة فى وضع رتبته العالية وحطها عن منصب النبوة ﴿ يريد أن يتفضل عليكم ﴾ أى يريد أن يطلب الفضل عليكم ويتقدمكم بادعاء الرسالة مع كونه مثلكم وصفوه بذلك إغضابا للمخاطبين عليه عليه السلام وإغراء لهم على معاداته عليه السلام وقوله تعالى :

﴿ ولو شاء الله لأنزل ملائكة ﴾ بيان لعدم رسالة البشر على الإطلاق على زعمهم الفاسد بعد تحقيق بشريته عليه السلام أى لو شاء الله تعالى إرسال الرسول لأرسل رسلا من الملائكة وإنما قيل لأنزل لأن إرسال الملائكة لا يكون إلا بطريق الإنزال فمفعول المشيئة مطلق الإرسال المفهوم من الجواب لا نفس مضمونه كما فى قوله تعالى (ولو شاء لهداكم) ونظائره ﴿ ما سمعنا بهذا ﴾ أى بمثل هذا الكلام الذى هو الأمر بعبادة الله خاصة وترك عبادة ما سواه وقيل بمثل نوح عليه السلام فى دعوى النبوة ﴿ فى آبائنا الأولين ﴾ أى الماضين قبل بعثته عليه السلام قالوه إما لكونهم وآبائهم فى فترة متطاولة وإما لفرط غلوهم فى التكذيب والعناد وانهماكهم فى الغى والفساد وأياما كان فقولهم هذا ينبغى أن يكون هو الصادر عنهم فى مبادى دعوته عليه السلام كما تنبىء عنه الفاء فى قوله تعالى (فقال الملأ) الخ وقيل معناه ما سمعنا به عليه السلام أنه نبى فالمراد بآبائهم الأولين الذين مضوا قبلهم فى زمن نوح عليه السلام وقولهم المذكور هو الذى صدر عنهم فى أواخر أمره عليه السلام وهو المناسب لما بعده من حكاية دعائه عليه السلام وقولهم ﴿ إن هو ﴾ أى ما هو ﴿ إلا رجل به جنة ﴾ أى جنون أو جن يخبلونه ولذلك يقول ما يقول ﴿ فتربصوا به ﴾ أى احتملوه واصبروا عليه وانتظروا ﴿ حتى حين ﴾ لعله يفيق عما فيه محمول حينئذ على ترامى أحوالهم فى المكابرة والعناد وإضرابهم عما وصفوه

عليه السلام به من البشرية وإرادة التفضل إلى وصفه عليه السلام بما ترى وهم يعرفون أنه عليه السلام أرجح الناس عقلا وأرزنهم قولا وعلى الأول على تناقض مقالاتهم الفاسدة قاتلهم الله أنى يؤفكون .

﴿ قال ﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية كلام الكفرة كأنه قيل فماذا قال عليه السلام بعد ماسمع منهم هذه الأباطيل فقيل قال لما رآهم قد أصروا على الكفر والتكذيب وتمادوا فى الغواية والضلال حتى يئس من إيمانهم بالكلية وقد أوحى الله إليه أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ﴿ رب انصرنى ﴾ بإهلاكهم بالمرة فإنه حكاية إجمالية لقوله عليه السلام (رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا) الخ ﴿ بما كذبون ﴾ أى بسبب تكذيبهم إياى أو بدل تكذيبهم ﴿ فأوحينا إليه ﴾ عند ذلك ﴿ أن اصنع الفلك ﴾ أن مفسرة لما فى الوحى من معنى القول ﴿ بأعيننا ﴾ ملتبساً بحفظنا وكلاءتنا كأن معه عليه السلام منه عز وعلا حفاظا وحراسا يكلؤونه بأعينهم من التعدى أو من الزيغ فى الصنعة ﴿ ووحينا ﴾ وأمرنا وتعليمنا لكيفية صنعها والفاء فى قوله تعالى ﴿ فإذا جاء أمرنا ﴾ لترتيب مضمون ما بعدها على تمام صنع الفلك والمراد بالأمر العذاب كما فى قوله تعالى (لا عاصم اليوم من أمر الله) لا الأمر بالركوب كما قيل وبمجيئه كمال اقترابه أو ابتداء ظهوره أى إذا جاء إثر تمام الفلك عذابنا وقوله تعالى ﴿ وفار التنور ﴾ عطف بيان لمجىء الأمر روى أنه قيل له عليه السلام إذا فار الماء من التنور اركب أنت ومن معك وكان تنور آدم عليه السلام فصار إلى نوح عليه السلام فلما نبع منه الماء أخبرته امرأته فركبوا واختلف فى مكانه فقيل كان فى مسجد الكوفة أى فى موضعه عن يمين الداخل من باب كندة اليوم وقيل كان فى عين وردة من الشام وقد مر تفصيله فى تفسير سورة هود عليه السلام ﴿ فاسلك فيها ﴾ أى أدخل فيها يقال سلك فيه أى دخل فيه وسلكه فيه أى أدخله فيه ومنه قوله تعالى (ما سلككم فى سقر) ﴿ من كل ﴾ أى من كل أمة ﴿ زوجين ﴾ أى فردين مزدوجين كما يعرب عنه قوله تعالى ﴿ اثنين ﴾ فإنه نص فى الفردين دون الجمعين أو الفريقين وقرىء بالإضافة على أن المفعول

اثنين أى من كل أمتى زوجين وهما أمة الذكر وأمة الأنثى كالجمال والنوق والحصن والرماك وهذا صريح فى أن الأمر كان قبل صنعه الفلك وفى سورة هود (حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين) فالوجه أن يحمل إما على أنه حكاية لأمر آخر تنجيزى ورد عند فوران التنور الذى نيط به الأمر التعليقى اعتناء بشأن المأمور به أو على أن ذلك هو الأمر السابق بعينه لكن لما كان الأمر التعليقى قبل تحقق المعلق به فى حق إيجاب المأمور به بمنزلة العدم جعل كأنه إنما حدث عند تحققه فحكى على صورة التنجيز وقد مر فى تفسير قوله تعالى (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم).

﴿ وأهلك ﴾ منصوب بفعل معطوف على فاسلك لا بالعطف على زوجين أو اثنين على القراءتين لأدائه إلى اختلال المعنى أى واسلك أهلك والمراد به امرأته وبنوه وتأخير الأمر بإدخالهم عما ذكر من إدخال الأزواج فيها لكونه عريقا فيما أمر به من الإدخال فإنه يحتاج إلى مزاولة الأعمال منه عليه السلام بل إلى معاونة من أهله وأتباعه وأماهم فإنما يدخلونها باختيارهم بعد ذلك ولأن فى المؤخر ضرب تفصيل بذكر الاستثناء وغيره فتقديمه يؤدى إلى الإخلال بتجاوب أطراف النظم الكريم ﴿ إلا من سبق عليه القول منهم ﴾ أى القول بإهلاك الكفرة وإنما جىء بعلى لكون السابق ضارا كما جىء باللام فى قوله تعالى (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى) لكونه نافعا ﴿ ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا ﴾ بالدعاء لإنجائهم ﴿ إنهم مغرقون ﴾ تعليل للنهى أو لما ينبىء عنه من عدم قبول الدعاء أى إنهم مقضى عليهم بالإغراق لا محالة لظلمهم بالإشراك وسائر المعاصى ومن هذا شأنه لا يشفع له ولا يشفع فيه كيف لاوقد أمر بالحمد على النجاة منهم بهلاكهم بقوله تعالى ﴿ فإذا استويت أنت ومن معك ﴾ أى من أهلك وأشياعك ﴿ على الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين ﴾ على طريقة قوله تعالى (فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) ﴿ وقل رب أنزلنى ﴾ فى السفينة أو منها ﴿ منزلا مباركا ﴾ أى إنزالا أو موضع إنزال يستتبع خيرا كثيرا وقرىء منزلا أى موضع نزول ﴿ وأنت خير المنزلين ﴾

أمر عليه السلام بأن يشفع دعاءه بما يطابقه من ثنائه عز وجل توسلا به إلى الإجابة وإفراده عليه السلام بالأمر مع شركة الكل فى الاستواء والنجاة لإظهار فضله عليه السلام والإشعار بأن فى دعائه وثنائه مندوحة عما عداه .

﴿ إن فى ذلك ﴾ الذى ذكر مما فعل به عليه السلام وبقومه ﴿ لآيات ﴾ جليلة يستدل بها أولو الأبصار ويعتبر بها ذوو الاعتبار ﴿ وإن كنا لمبتلين ﴾ إن مخففة من أن واللام فارقة بينها وبين النافية وضمير الشأن محذوف أى وإن الشأن كنا مصيبين قوم نوح ببلاء عظيم وعقاب شديد أومختبرين بهذه الآيات عبادنا لننظر من يعتبر ويتذكر كقوله تعالى (ولقد تركناها آية فهل من مدكر) ﴿ ثم أنشأنا من بعدهم ﴾ أى من إهلاكهم ﴿ قرنا آخرين ﴾ هم عاد حسبما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما وعليه أكثر المفسرين وهو الأوفق لما هو المعهود فى سائر السور الكريمة من إيراد قصتهم إثر قصة قوم نوح وقيل هم ثمود ﴿ فأرسلنا فيهم ﴾ جعلوا موضعا للإرسال كما فى قوله تعالى (كذلك أرسلناك فى أمة) ونحوه لا غاية له كما فى مثل قوله تعالى (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه) للإيذان من أول الأمر بأن من أرسل إليهم لم يأتهم من غير مكانهم بل إنما نشأ فيما بين أظهرهم كما ينبىء عنه قوله تعالى : ﴿ رسولا منهم ﴾ أى من جملتهم نسبا فإنهما عليهما السلام كانا منهم وأن فى قوله تعالى ﴿ أن اعبدوا الله ﴾ مفسرة لأرسلنا لتضمنه معنى القول أى قلنا لهم على لسان الرسول اعبدوا الله تعالى وقوله تعالى ﴿ مالكم من إله غيره ﴾ تعليل للعبادة المأمور بها أو للأمر بها أو لوجوب الامتثال به ﴿ أفلا تتقون ﴾ أى عذابه الذى يستدعيه ما أنتم عليه من الشرك والمعاصى والكلام فى العطف كالذى مر فى قصة نوح عليه السلام .

﴿ وقال الملأ من قومه ﴾ حكاية لقولهم الباطل إثر حكاية القول الحق الذى نطق به حكاية إرسال الرسول بطريق العطف على أن المراد حكاية مطلق تكذيبهم له عليه السلام إجمالا لا حكاية ما جرى بينه عليه السلام وبينهم من المحاورة والمقاولة تفصيلا حتى يحكى بطريق الاستئناف المبنى على السؤال

كما ينبىء عنه ما سيأتى من حكاية سائر الأمم أى وقال الأشراف من قومه ﴿ الذين كفروا ﴾ فى محل الرفع على أنه صفة للملأ وصفوا بذلك ذما لهم وتنبيها على غلوهم فى الكفر وتأخيره عن من قومه لعطف قوله تعالى ﴿ وكذبوا بلقاء الآخرة ﴾ وما عطف عليه على الصلة الأولى أى كذبوا بلقاء ما فيها من الحساب والثواب والعقاب أو بمعادهم إلى الحياة الثانية بالبعث ﴿ وأترفناهم ﴾ ونعمناهم ﴿ فى الحيوة الدنيا ﴾ بكثرة الأموال والأولاد أى قالوا لأعقابهم مضلين لهم ﴿ ما هذا إلا بشر مثلكم ﴾ أى فى الصفات والأحوال وإيثار مثلكم على مثلنا للمبالغة فى تهوين أمره عليه السلام وتوهينه ﴿ يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ﴾ تقرير للمماثلة وما خبرية والعائد إلى الثانى منصوب محذوف أو مجرور وقد حذف مع الجار لدلالة ما قبله عليه ﴿ ولئن أطعتم بشرا مثلكم ﴾ أى فيما ذكر من الأحوال والصفات أى إن امتثلتم بأوامره ﴿ إنكم إذاً ﴾ أى على تقدير الاتباع ﴿ لخاسرون ﴾ عقولهم ومغبونون فى آرائهم حيث أذللتم أنفسكم أى أنظر كيف جعلوا أتباع الرسول الحق الذى يوصلهم إلى سعادة الدارين خسرانا دون عبادة الأصنام التى لا خسران وراءها قاتلهم الله أنى يؤفكون وإذاً واقع بين اسم إن وخبرها لتأكيد مضمون الشرط والجملة جواب لقسم محذوف قبل إن الشرطية المصدرة باللام الموطئة أى وبالله لئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذاً لخاسرون ﴿ أيعدكم ﴾ استئناف مسوق لتقرير ما قبله من اتباعه عليه السلام بإنكار وقوع ما يدعوهم إلى الإيمان واستبعاده ﴿ أنكم إذا متم ﴾ بكسر الميم من مات يمات وقرىء بضمها من مات يموت ﴿ وكنتم ترابا وعظاما ﴾ نخرة مجردة عن اللحوم والأعصاب[1] أى كان بعض أجزائكم من اللحم ونظائره ترابا وبعضها عظاما وتقديم التراب لعراقته فى الاستبعاد وانقلابه من الأجزاء البادية أو كان متقدموكم ترابا صرفا ومتأخروكم عظاما وقوله تعالى ﴿ أنكم ﴾ تأكيد للأول لطول الفصل بينه

---

(١) فى ١٠ : عن اللحم والعصب

وبين خبره الذى هو قوله تعالى ﴿ مخرجون ﴾ أى من القبور أحياء كما كنتم وقيل أنكم مخرجون مبتدأ وإذا متم خبره على معنى إخراجكم إذا متم ثم أخبر بالجملة على أنكم وقيل رفع أنكم مخرجون بفعل هو جزاء الشرط كأنه قيل إذا متم وقع إخراجكم ثم أوقعت الجملة الشرطية خبرا عن أنكم والذى تقتضيه جزالة النظم الكريم هو الأول وقرىء أيعدكم إذا متم الخ

﴿ هيهات هيهات ﴾ تكرير لتأكيد البعد أى بعد الوقوع أو الصحة ﴿ لما توعدون ﴾ وقيل اللام لبيان المستبعد ما هو كما فى هيت لك كأنهم لما صوتوا بكلمة الاستبعاد قيل لما هذا الاستبعاد فقيل لما توعدون وقيل هيهات بمعنى البعد وهو مبتدأ خبره لما توعدون وقرىء بالفتح منونا للتنكير وبالضم منونا على أنه جمع هيهة وغير منون تشبيها بقبل وبالكسر على الوجهين وبالسكون على لفظ الوقف وإبدال التاء هاء ﴿ إن هى إلا حياتنا الدنيا ﴾ أصله إن الحياة إلا حياتنا فأقيم الضمير مقام الأولى لدلالة الثانية عليها حذرا من التكرار وإشعارا بإغنائها عن التصريح كما فى هى النفس تتحمل ما حملت وهى العرب تقول ما شاءت وحيث كان الضمير بمعنى الحياة لدلالة على الجنس كانت إن النافية بمنزلة لا النافية للجنس وقوله تعالى ﴿ نموت ونحيا ﴾ جملة مفسرة لما ادعوه من أن الحياة هى الحياة الدنيا أى يموت بعضنا أو يولد بعض إلى انقراض العصر ﴿ وما نحن بمبعوثين ﴾ بعد الموت ﴿ إن هو ﴾ أى ما هو ﴿ إلا رجل افترى على الله كذبا ﴾ فيما يدعيه من إرساله وفيما يعدنا من أن الله يبعثنا ﴿ وما نحن له بمؤمنين ﴾ بمصدقين فيما يقوله ﴿ قال ﴾ أى هود عليه السلام عند يأسه من إيمانهم بعد ما سلك فى دعوتهم كل مسلك منصرفا إلى الله عز وجل ﴿ رب انصرنى ﴾ وانتقم لى منهم ﴿ بما كذبون ﴾ أى بسبب تكذيبهم إياى وإصرارهم عليه

﴿ قال ﴾ تعالى إجابة لدعائه وعدة بالقبول ﴿ عما قليل ﴾ أى عن زمان قليل وما مزيدة بين الجار والمجرور لتأكيد معنى القلة كما زيدت فى قوله تعالى (فبما رحمة من الله) أو نكرة موصوفة أى عن شىء قليل ﴿ ليصبحن نادمين ﴾

على ما فعلوه من التكذيب وذلك عند معاينتهم للعذاب ﴿ فأخذتهم الصيحة ﴾ لعلهم حين أصابتهم الريح العقيم أصيبوا فى تضاعيفها بصيحة هائلة أيضا وقد روى أن شداد بن عاد حين تم بناء إرم سار إليها بأهله فلما دنامنها بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا وقيل الصيحة نفس العذاب والموت وقيل هى العذاب المصطلم قال قائلهم :

صاح الزمان بآل برمك صيحة خروا لشدتها على الأذقان

﴿ بالحق ﴾ متعلق بالأخذ أى بالأمر الثابت الذى لا دفاع له أو بالعدل من الله تعالى أو بالوعد الصدق ﴿ فجعلناهم غثاء ﴾ أى كغثاء السيل وهو حميله ﴿ فبعداً للقوم الظالمين ﴾ إخبار أو دعاء وبعدا من المصادر التى لا يكاد يستعمل ناصبها والمعنى بعدوا بعدا أى هلكوا واللام لبيان من قيل له بعدا ووضع الظاهر موضع الضمير للتعليل ﴿ ثم أنشأنا من بعدهم ﴾ أى بعد هلاكهم ﴿ قرونا آخرين ﴾ هم قوم صالح ولوط وشعيب عليهم السلام وغيرهم ﴿ ما تسبق من أمة أجلها ﴾ أى ما تتقدم أمة من الأمم المهلكة الوقت الذى عين لهلاكهم أى ما تهلك أمة قبل مجىء أجلها ﴿ وما يستأخرون ﴾ ذلك الأجل بساعة وقوله تعالى :

﴿ ثم أرسلنا رسلنا ﴾ عطف على أنشأنا لكن لا على معنى أن إرسالهم متراخ عن إنشاء القرون المذكورة جميعا بل على معنى أن إرسال كل رسول متأخر عن إنشاء قرن مخصوص بذلك الرسول كأنه قيل ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين قد أرسلنا إلى كل قرن منهم رسولا خاصا به والفصل بين المعطوفين بالجملة المعترضة الناطقة بعدم تقدم الأمم أجلها المضروب لهلاكهم للمسارعة إلى بيان هلاكهم على وجه إجمالى ﴿ تترى ﴾ أى متواترين واحدا بعد واحد من الوتر وهو الفرد والتاء بدل من الواو كما فى تولج وينقوا والألف للتأنيث باعتبار أن الرسل جماعة وقرىء بالتنوين على أنه مصدر بمعنى الفاعل وقع حالا وقوله تعالى ﴿ كلما جاء أمة رسولها كذبوه ﴾ استئناف مبين لمجىء كل رسول لأمته ولما صدر عنهم عند تبليغ الرسالة والمراد بالمجىء

إما التبليغ وإما حقيقة المجيء للإيذان بأنهم كذبوه فى أول الملاقاة وإضافة الرسول إلى الأمة مع إضافة كلهم فيما سبق إلى نون العظمة لتحقيق أن كل رسول جاء أمته الخاصة به لا أن كلهم جاءوا كل الأمم والإشعار بكمال شناعتهم وضلالهم حيث كذبت كل واحدة منهم رسولها المعين لها وقيل لأن الإرسال لائق بالمرسل والمجيء بالمرسل إليهم ﴿ فأتبعنا بعضهم بعضا ﴾ فى الهلاك حسبما تبع بعضهم بعضا فى مباشرة أسبابه التى هى الكفر والتكذيب وسائر المعاصى ﴿ وجعلناهم أحاديث ﴾ لم يبق منهم إلا حكايات يعتبر بها المعتبرون وهو اسم جمع للحديث أو جمع أحدوثة وهى ما يتحدث به تلهيا[1] كأعاجيب جمع أعجوبة وهى ما يتعجب منه أى جعلناهم أحاديث يتحدث بها تلهيا وتعجبا ﴿ فبعداً لقوم لا يؤمنون ﴾ اقتصر ههنا على وصفهم بعدم الإيمان حسبما اقتصر على حكاية تكذيبهم إجمالا وأما القرون الأولون فحيث نقل عنهم ما مر من الغلو وتجاوز الحد فى الكفر والعدوان وصفوا بالظلم .

﴿ ثم أرسلنا موسى وأخاه هرون بآياتنا ﴾ هى الآيات التسع من اليد والعصا والجراد والقمل والضفادع والدم ونقص الثمرات والطاعون ولامساغ لعد فلق البحر منها إذ المراد هى الآيات التى كذبوها واستكبروا عنها ﴿ وسلطان مبين ﴾ أى حجة واضحة ملزمة للخصم وهى إما العصا وإفرادها بالذكر مع اندراجها فى الآيات لما أنها أم آياته عليه الصلاة والسلام وأولاها وقد تعلقت بها معجزات شتى من انقلابها ثعبانا وتلقفها لما أفكته السحرة حسبما فصل فى تفسير سورة طه وأما التعرض لانفلاق البحر وانفجار العيون من الحجر بضربها وحراستها وصيرورتها شمعة وشجرة خضراء مثمرة ودلوا ورشاء وغير ذلك مما ظهر منها من قبل ومن بعد فى غير مشهد فرعون وقومه فغير ملائم لمقتضى المقام وإما نفس الآيات كقوله إلى الملك القرم وابن الهمام الخ عبر عنها

---

(١) فى ١٠ : لهوا .

بذلك على طريقة العطف تنبيها على جمعها لعنوانين جليلين وتنزيلا لتغايرهما منزلة التغاير الذاتى .

﴿ إلى فرعون وملئه ﴾ أى أشراف قومه خصوا بالذكر لأن إرسال بنى إسرائيل منوط بآرائهم لا بآراء أعقابهم ﴿ فاستكبروا ﴾ عن الانقياد وتمردوا ﴿ وكانوا قوما عالين ﴾ متكبرين متمردين ﴿ فقالوا ﴾ عطف على استكبروا وما بينهما اعتراض مقرر للاستكبار أى كانوا قوما عادتهم الاستكبار والتمرد أى قالوا فيما بينهم بطريق المناصحة ﴿ أنؤمن لبشرين مثلنا ﴾ ثنى البشر لأنه يطلق على الجمع كما فى قوله تعالى (فإما ترين من البشر أحدا) ولم يثن المثل نظرا إلى كونه فى حكم المصدر وهذه القصص كما ترى تدل على أن مدار شبه المنكرين للنبوة قياس حال الأنبياء على أحوالهم بناء على جهلهم بتفاصيل شؤون الحقيقة البشرية وتباين طبقات أفرادها فى مراقى الكمال ومهاوى النقصان بحيث يكون بعضها فى أعلى عليين وهم المختصون بالنفوس الزكية المؤيدون بالقوة القدسية المتعلقون لصفاء جواهرهم بكلا العالمين الروحانى والجسمانى يتلقون من جانب ويلقون من جانب ولا يعوقهم التعلق بمصالح الخلق عن التبتل إلى جناب الحق وبعضها فى أسفل سافلين كأولئك الجهلة الذين هم كالأنعام بل هم أضل سبيلا ﴿ وقومهما ﴾ يعنون بنى إسرائيل ﴿ لنا عابدون ﴾ أى خادمون منقادون لنا كالعبيد وكأنهم قصدوا بذلك التعريض بشأنهما عليهما الصلاة والسلام وحط رتبتهما العلية عن منصب الرسالة من وجه آخر غير البشرية واللام فى لنا متعلقة بعابدون وقدمت عليه رعاية للفواصل والجملة حال من فاعل نؤمن مؤكدة لإنكار الإيمان لهما بناء على زعمهم الفاسد المؤسس على قياس الرياسة الدينية على الرياسات الدنيوية الدائرة على التقدم فى نيل الحظوظ الدنية من المال والجاه كدأب قريش حيث قالوا لو كان خيرا ماسبقونا إليه وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم وجهلهم بأن مناط الاصطفاء للرسالة هو السبق فى حيازة ما ذكر من النعوت العلية وإحراز الملكات السنية جبلة واكتسابا

﴿ فكذبوهما ﴾ أى فتموا على تكذيبهما وأصروا واستكبروا استكبارا ﴿ فكانوا من المهلكين ﴾ بالغرق فى بحر قلزم .

﴿ ولقد آتينا ﴾ أى بعد إهلاكهم وإنجاء بنى إسرائيل من ملكتهم ﴿ موسى الكتاب ﴾ أى التوراة وحيث كان إيتاؤه عليه الصلاة والسلام إياها لإرشاد قومه إلى الحق كما هو شأن الكتب الإلهية جعلوا كأنهم أوتوها فقيل ﴿ لعلهم يهتدون ﴾ أى إلى طريق الحق بالعمل بما فيها من الشرائع والأحكام وقيل أريد آتينا قوم موسى فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه كما فى قوله تعالى (على خوف من فرعون وملئهم) أى من آل فرعون وملئهم ولا سبيل إلى عود الضمير إلى فرعون وقومه لظهور أن التوراة إنما نزلت بعد إغراقهم لبنى إسرائيل وأما الاستشهاد على ذلك بقوله (ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى) فمما لا سبيل إليه ضرورة أن ليس المراد بالقرون الأولى ما يتناول قوم فرعون بل من كان [قبلهم][1] من الأمم المهلكة خاصة كقوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط كما سيأتى فى سورة القصص ﴿ وجعلنا ابن مريم وأمه آية ﴾ وأية آية دالة على عظيم قدرتنا بولادته منها من غير مسيس بشر فالآية أمر واحد نسب إليهما أو جعلنا ابن مريم آية بأن تكلم فى المهد فظهرت منه معجزات جمة وأمه آية بأنها ولدته من غير مسيس فحذفت الأولى لدلالة الثانية عليها والتعبير عنهما بما ذكر من العنوانين وهما كونه عليه الصلاة والسلام ابنها وكونها أمه عليه الصلاة والسلام للإيذان من أول الأمر بحيثية كونهما آية فإن نسبته عليه الصلاة والسلام إليها مع أن النسب إلى الآباء دالة على أن لا أب له أى جعلنا ابن مريم وحدها من غير أن يكون له أب وأمه التى ولدته خاصة من غير مشاركة الأب آية وتقديمه عليه الصلاة والسلام لأصالته فيما ذكر من كونه آية كما أن تقديم أمه فى قوله تعالى (وجعلناها وابنها آية للعالمين) لأصالتها فيما نسب إليها من الإحصان والنفخ .

---

(١) سقطت من ط .

﴿ وآويناهما إلى ربوة ﴾ أى أرض مرتفعة قيل هى إيليا أرض بيت المقدس فإنها مرتفعة وأنها كبد الأرض وأقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلا على ما يروى عن كعب وقيل دمشق وغوطتها وقيل فلسطين والرملة وقيل مصر فإن قراها على الربا وقرىء بكسر الراء وضمها ورباوة بالكسر والضم ﴿ ذات قرار ﴾ مستقر من أرض منبسطة سهلة يستقر عليها ساكنوها وقيل ذات ثمار وزروع لأجلها يستقر فيها ساكنوها ﴿ ومعين ﴾ أى وماء معين ظاهر جار فعيل من معن الماء إذا جرى وأصله الابعاد فى المشى أو من الماعون وهو النفع لأنه نفاع أو مفعول من عانه إذا أدركه بالعين فإنه لظهوره يدرك بالعيون وصف ماؤها بذلك للإيذان بكونه جامعا لفنون المنافع من الشرب وسقى ما يسقى من الحيوان والنبات بغير كلفة والتنزه بمنظره المونق ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات ﴾ حكاية لرسول الله صلى الله عليه وسلم على وجه الإجمال لما خوطب به كل رسول فى عصره جىء بها إثر حكاية إيواء عيسى عليه السلام وأمه إلى الربوة إيذانا بأن ترتيب مبادى التنعم لم يكن من خصائصه عليه السلام بل إباحة الطيبات شرع قديم جرى عليه جميع الرسل عليهم السلام ووصفوا به أى وقلنا لكل رسول كل من الطيبات واعمل صالحا فعبر عن تلك الأوامر المتعددة المتعلقة بالرسل بصيغة الجمع عند الحكاية إجمالا للإيجاز وفيه من الدلالة على بطلان ما عليه الرهابنة من رفض الطيبات مالا يخفى وقيل حكاية لما ذكر لعيسى عليه السلام وأمه عند إيوائهما إلى الربوة ليقتديا بالرسل فى تناول ما رزقا وقيل نداء وخطاب له والجمع للتعظيم وعن الحسن ومجاهد وقتادة والسدى والكلبى رحمهم الله تعالى أنه خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحده على دأب العرب فى مخاطبة الواحد بلفظ الجمع وفيه إبانة لفضله وقيامه مقام الكل فى حيازة كمالاتهم والطيبات ما يستطاب ويستلذ من مباحات المآكل والفواكه حسبما ينبىء عنه سياق النظم الكريم فالأمر للترفيه ﴿ واعملوا صالحا ﴾ أى عملا صالحا فإنه المقصود منكم والنافع عند ربكم ﴿ إنى بما تعملون ﴾ من الأعمال الظاهرة والباطنة ﴿ عليم ﴾ فأجازيكم عليه .

﴿ وإن هذه ﴾ استئناف داخل فيما خوطب به الرسل عليهم السلام على الوجه المذكور مسوق لبيان أن ملة الإسلام والتوحيد مما أمر به كافة الرسل عليهم السلام والأمم وإنما أشير إليها بهذه للتنبيه على كمال ظهور أمرها فى الصحة والسداد وانتظامها بسبب ذلك فى سلك الأمور المشاهدة ﴿ أمتكم ﴾ أى ملتكم وشريعتكم أيها الرسل ﴿ أمة واحدة ﴾ أى ملة وشريعة متحدة فى أصول الشرائع التى لا تتبدل بتبديل الأعصار وقيل هذه إشارة إلى الأمم المؤمنة للرسل ، والمعنى إن هذه جماعتكم جماعة واحدة متفقة على الإيمان والتوحيد فى العبادة ﴿ وأنا ربكم ﴾ من غير أن يكون لى شريك فى الربوبية وضمير المخاطب فيه وفى قوله تعالى[1] ﴿ فاتقون ﴾ أى فى شق العصا والمخالفة بالإخلال بمواجب ما ذكر من اختصاص الربوبية بى للرسل والأمم جميعا على أن الأمر فى حق الرسل للتهييج والإلهاب وفى حق الأمم للتحذير والإيجاب والفاء لترتيب الأمر أو وجوب الامتثال به على ما قبله من اختصاص الربوبية به تعالى واتحاد الأمة فإن كلا منهما موجب للاتقاء حتما وقرىء وأن هذه بفتح الهمزة على حذف اللام أى ولأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون أى إن تتقون فاتقون كما مر فى قوله تعالى (وإياى فارهبون) وقيل على العطف على ما ، أى إنى عليم بأن أمتكم أمة الخ وقيل على حذف فعل عامل فيه أى واعلموا أن هذه أمتكم الخ وقرىء وأن هذه على أنها مخففة من أن ﴿ فتقطعوا أمرهم ﴾ حكاية لما ظهر من أمم الرسل بعدهم من مخالفة الأمر وشق العصا والضمير لما دل عليه الأمة من أربابها أو لها على التفسيرين والفاء لترتيب عصيانهم على الأمر لزيادة تقبيح حالهم أى تقطعوا أمر دينهم مع اتحاده وجعلوه قطعا متفرقة وأديانا مختلفة ﴿ بينهم زبرا ﴾ أى قطعا جمع زبور بمعنى الفرقة ويؤيده قراءة زبرا بفتح الباء جمع زبرة وهو حال من أمرهم أو من واو تقطعوا أو مفعول ثان له فإنه متضمن لمعنى جعلوا وقيل كتبا فيكون مفعولا ثانيا أو حالا من أمرهم على

---

(١) فى ١٠ جلا وعلا .

تقدير المضاف أى مثل زبر وقرىء بتخفيف الباء كرسل فى رسل ﴿ كل حزب ﴾ من أولئك المتحزبين ﴿ بما لديهم ﴾ من الدين الذى اختاروه ﴿ فرحون ﴾ معجبون معتقدون أنه الحق .

﴿ فذرهم فى غمرتهم ﴾ شبه ما هم فيه من الجهالة بالماء الذى يغمر القامة لأنهم مغمورون فيها لاعبون بها وقرىء غمراتهم والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والفاء لترتيب الأمر بالترك على ماقبله من كونهم فرحين بمالديهم فإن انهماكهم فيما هم فيه وإصرارهم عليه من مخايل كونهم مطبوعا على قلوبهم أى اتركهم على حالهم ﴿ حتى حين ﴾ هو حين قتلهم أو موتهم على الكفر أو عذابهم فهو وعيد لهم بعذاب الدنيا والآخرة وتسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ونهى له عن الاستعجال بعذابهم والجزع من تأخيره وفى التنكير والإبهام ما لا يخفى من التهويل ﴿ أيحسبون أنما نمدهم به ﴾ أى نعطيهم إياه ونجعله مددا لهم فما موصولة وقوله تعالى ﴿ من مال وبنين ﴾ بيان لها وتقديم المال على البنين مع كونهم أعز منه قد مر وجهه فى سورة الكهف لا خبر لأن وإنما الخبر قوله تعالى ﴿ نسارع لهم فى الخيرات ﴾ على حذف الراجع إلى الاسم أى أيحسبون أن الذى نمدهم به من المال والبنين نسارع به لهم فيما فيه خيرهم وإكرامهم على أن الهمزة لإنكار الواقع واستقباحه وقوله تعالى ﴿ بل لا يشعرون ﴾ عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام أى كلا لا نفعل ذلك بل هم لا يشعرون بشىء أصلا كالبهائم لا فطنة لهم ولا شعور ليتأملوا ويعرفوا أن ذلك الإمداد استدراج لهم [واستجرار](١) إلى زيادة الإثم وهم يحسبونه مسارعة لهم فى الخيرات وقرىء يمدهم على الغيبة وكذلك يسارع ويسرع ويحتمل أن يكون فيها ضمير الممد به وقرىء يسارع مبنية للمفعول .

﴿ إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون ﴾ استئناف مسوق لبيان من له

(١) سقطت من ١٠ .

المسارعة فى الخيرات إثر اقناط الكفار عنها وإبطال حسبانهم الكاذب أى من خوف عذابه حذرون ﴿والذين هم بآيات ربهم﴾ المنصوبة والمنزلة ﴿يؤمنون﴾ بتصديق مدلولها ﴿والذين هم بربهم لا يشركون﴾ شركا جليا ولا خفيا ولذلك أخر عن الإيمان بالآيات والتعرض لعنوان الربوبية فى المواقع الثلاثة للإشعار بعليتها للإشفاق والإيمان وعدم الإشراك ﴿والذين يؤتون ما آتوا﴾ أى يعطون ما أعطوه من الصدقات وقرىء يأتون ما أتوا أى يفعلون ما فعلوه من الطاعات وأياما كان فصيغة الماضى فى الصلة الثانية للدلالة على التحقق كما أن صيغة المضارع فى الأولى للدلالة عن الاستمرار ﴿وقلوبهم وجلة﴾ حال من فاعل يؤتون أو يأتون أى يؤتون ما آتوه أو يفعلون من العبادات ما فعلوه والحال أن قلوبهم خائفة أشد الخوف ﴿أنهم إلى ربهم راجعون﴾ أى من أن رجوعهم إليه عز وجل على أن مناط الوجل ألا يقبل منهم ذلك وألا يقع على الوجه اللائق فيؤاخذوا به حينئذ لامجرد رجوعهم إليه تعالى وقيل لأن مرجعهم إليه تعالى والموصولات الأربعة عبارة عن طائفة واحدة متصفة بما ذكر فى حيز صلاتها من الأوصاف الأربعة لا عن طوائف كل واحدة منها متصفة بواحد من الأوصاف المذكورة كأنه قيل (إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون) و(بآيات ربهم يؤمنون) الخ وإنما كرر الموصول إيذانا باستقلال كل واحدة من تلك الصفات بفضيلة باهرة على حيالها وتنزيلا لاستقلالها منزلة استقلال الموصوف بها .

﴿أولئك﴾ إشارة إليهم باعتبار اتصافهم بها وما فيه من معنى البعد للإشعار ببعد رتبتهم فى الفضل أى أولئك المنعوتون بما فصل من النعوت الجليلة خاصة دون غيرهم ﴿يسارعون فى الخيرات﴾ أى فى نيل الخيرات التى من جملتها الخيرات العاجلة الموعودة على الأعمال الصالحة كما فى قوله تعالى (فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة) وقوله تعالى (وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين) فقد أثبت لهم ما نفى عن أضدادهم خلا أنه غير الأسلوب حيث لم يقل أولئك نسارع لهم فى الخيرات بل أسند المسارعة إليهم إيماء إلى كمال

استحقاقهم لنيل الخيرات بمحاسن أعمالهم وإيثار كلمة فى على كلمة إلى للإيذان بأنهم متقلبون فى فنون الخيرات لا أنهم خارجون عنها متوجهون إليها بطريق المسارعة كما فى قوله تعالى (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة) الآية ﴿وهم لها سابقون﴾ أى إياها سابقون واللام لتقوية العمل كما فى قوله تعالى (هم لها عاملون) أى ينالونها قبل الآخرة حيث عجلت لهم فى الدنيا وقيل المراد بالخيرات الطاعات والمعنى يرغبون فى الطاعات والعبادات أشد الرغبة وهم لأجلها فاعلون السبق أو لأجلها سابقون الناس والأول هو الأولى .

﴿ولا نكلف نفسا إلا وسعها﴾ جملة مستأنفة سيقت للتحريض على ما وصف به السابقون من فعل الطاعات المؤدى إلى نيل الخيرات ببيان سهولته وكونه غير خارج عن حد الوسع والطاقة أى عادتنا جارية على أن لا نكلف نفسا من النفوس إلا ما فى وسعها على أن المراد استمرار النفى بمعونة المقام لا نفى الاستمرار كما مر مرارا أو للترخيص فيما هو قاصر عن درجة أعمال أولئك الصالحين ببيان أنه تعالى لا يكلف عباده إلا ما فى وسعهم فإن لم يبلغوا فى فعل الطاعات مراتب السابقين فلا عليهم بعد أن يبذلوا طاقتهم ويستفرغوا وسعهم قال مقاتل من لم يستطع القيام فليصل قاعدا ومن لم يستطع القعود فليوم إيماء وقوله تعالى ﴿ولدينا كتاب﴾ الخ تتمة لما قبله ببيان أحوال ما كلفوه من الأعمال وأحكامها المترتبة عليها من الحساب والثواب والعقاب والمراد بالكتاب صحائف الأعمال التى يقرءونها عند الحساب حسبما يعرب عنه قوله تعالى ﴿ينطق بالحق﴾ كقوله تعالى (هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون) أى عندنا كتاب قد أثبت فيه أعمال كل أحد على ما هى عليه أو أعمال السابقين والمقتصدين جميعا لا أنه أثبت فيه أعمال الأولين وأهمل أعمال الآخرين ففيه قطع معذرتهم أيضا وقوله بالحق متعلق بينطق أى يظهر الحق المطابق للواقع على ما هو عليه ذاتا ووصفا ويبينه للناظر كما يبينه النطق ويظهره للسامع فيظهر هنالك جلائل أعمالهم ودقائقها ويرتب عليها أجزيتها إن خيرا فخير وإن شرا فشر وقوله تعالى ﴿وهم لا يظلمون﴾ بيان لفضله تعالى وعدله فى الجزاء إثر

بيان لطفه فى التكليف وكتب الأعمال أى لا يظلمون فى الجزاء بنقص ثواب أو بزيادة عذاب بل يجزون بقدر أعمالهم التى كلفوها ونطقت بها صحائفها بالحق وقد جوز أن يكون تقريراً لما قبله من التكليف وكتب الأعمال أى لا يظلمون بتكليف ما ليس فى وسعهم ولا بعدم كتب [1] بعض أعمالهم التى من جملتها أعمال المقتصدين بناء على قصورها عن درجة أعمال السابقين بل يكتب كل منها على مقاديرها وطبقاتها والتعبير عما ذكر من الأمور بالظلم مع أن شيئاً منها ليس بظلم ما تقرر من أن الأعمال الصالحة لا توجب أصل الثواب فضلا عن إيجاب مرتبة معينة منه حتى تعد الإثابة بما دونها نقصا وكذلك الأعمال السيئة لا توجب درجة معينة من العذاب حتى يعد التعذيب بما فوقها زيادة وكذا تكليف ما فى الوسع وكتب الأعمال ليسا عما يجب عليه سبحانه حتى يعد تركهما ظلما لكمال تنزيه ساحة السبحان عنها بتصويرها بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى وتسميتها باسمه ، وقوله تعالى :

﴿ بل قلوبهم فى غمرة من هذا ﴾ إضراب عما قبله والضمير للكفرة لا للكل كما قبله أى بل قلوب الكفرة فى غفلة غامرة لها من هذا الذى بين فى القرآن من أن لديه تعالى كتابا ينطق ويظهر لهم أعمالهم السيئة على رءوس الأشهاد فيجزون بها كما ينبىء عنه ما سيأتى من قوله تعالى (قد كانت آياتى تتلى عليكم) الخ وقيل عما عليه أولئك الموصوفون بالأعمال الصالحة ﴿ ولهم أعمال ﴾ سيئة كثيرة ﴿ من دون ذلك ﴾ الذى ذكر من كون قلوبهم فى غفلة عظيمة مما ذكر وهى فنون كفرهم ومعاصيهم التى من جملتها ما سيأتى من طعنهم فى القرآن حسبما ينبىء عنه قوله تعالى (مستكبرين به سامرا تهجرون) وقيل متخطية لما وصف به المؤمنون من الأعمال الصالحة المذكورة وفيه أنه لا مزية فى وصف أعمالهم الخبيثة بالتخطى للأعمال الحسنة للمؤمنين وقيل متخطية عما هم عليه من الشرك ولا يخفى بعده لعدم جريان ذكره ﴿ هم لها عاملون ﴾ مستمرون عليها معتادون فعلها ضارون بها لا يكادون يبرحونها .

---

(١) فى ١٠ : كتابة .

﴿ حتى إذا أخذنا مترفيهم ﴾ أى متنعميهم وهم الذين أمدهم الله تعالى بما ذكر من المال والبنين وحتى مع كونها غاية لأعمالهم المذكورة مبدأ لما بعدها من مضمون الشرطية أى لا يزالون يعملون أعمالهم إلى حيث إذا أخذنا رؤساءهم ﴿ بالعذاب ﴾ قيل هو القتل والأسر يوم بدر وقيل هو الجوع الذى أصابهم حين دعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف فقحطوا حتى أكلوا الكلاب والجيف والعظام المحرقة والأولاد وألحق به العذاب الأخروى إذ هو الذى يفاجئون عنده الجؤار فيجابون بالرد والإقناط عن النصر وأما عذاب يوم بدر فلم يوجد لهم عنده جؤار حسبما ينبىء عنه قوله تعالى (ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون) فإن المراد بهذا العذاب ماجرى عليهم يوم بدر من القتل والأسر حتما وأما عذاب الجوع فإن أبا سفيان وإن تضرع فيه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لكن لم يرد عليه بالإقناط حيث روى أنه عليه الصلاة والسلام قد دعا بكشفه فكشف عنهم ذلك ﴿ إذا هم يجأرون ﴾ أى فاجئوا الصراخ بالاستغاثة من الله عز وجل كقوله تعالى (فإليه تجأرون) وهو جواب الشرط وتخصيص مترفيهم بما ذكر من الأخذ بالعذاب ومفاجأة الجؤار مع عمومه لغيرهم أيضاً لغاية ظهور انعكاس حالهم وانتكاس أمرهم وكون ذلك أشق عليهم ولأنهم مع كونهم متمنعين محميين بحماية غيرهم من المنعة والحشم حين لقوا ما لقوا من الحالة الفظيعة فلأن يلقاها من عداهم من الحماة والخدم أولى وأقدم ﴿ لا تجأروا اليوم ﴾ على إضمار القول مسوقا لردهم وتبكيتهم وإقناطهم مما علقوا به أطماعهم الفارغة من الإغاثة والإعانة من جهته تعالى وتخصيص اليوم بالذكر لتهويله والإيذان بتفويتهم وقت الجؤار وقد جوز كونه جواب الشرط وأنت خبير بأن المقصود الأصلى فى الجملة الشرطية هو الجواب فيؤدى ذلك إلى أن يكون مفاجأتهم إلى الجؤار غير مقصود أصلى وقوله تعالى ﴿ إنكم منا لا تنصرون ﴾ تعليل للنهى عن الجؤار ببيان عدم إفادته ونفعه أى لا يلحقكم من جهتنا نصرة تنجيكم مما دهمكم وقيل لا تغاثون ولا تمنعون منا ولا يساعده سباق

النظم الكريم لأن جؤارهم ليس إلى غيره تعالى حتى يرد عليهم بعدم منصوريتهم من قبله ولا سياقه فإن قوله تعالى :

﴿ وقد كانت آياتى تتلى عليكم ﴾ الخ صريح فى أنه تعليل لما ذكرنا من عدم لحوق النصر من جهته تعالى بسبب كفرهم بالآيات ولو كان النصر المنفى متوهما من الغير لعلل بعجزه وذله أو بعزة الله تعالى وقوته أى قد كانت آياتى تتلى عليكم فى الدنيا ﴿ فكنتم على أعقابكم تنكصون ﴾ أى تعرضون عن سماعها أشد الإعراض فضلا عن تصديقها والعمل بها والنكوص الرجوع قهقرى ﴿ مستكبرين به ﴾ أى بالبيت الحرام أو بالحرم والإضمار قبل الذكر لاشتهار استكبارهم وافتخارهم بأنهم خدامه وقوامه أو بكتابى الذى عبر عنه آياتى على تضمين الاستكبار معنى التكذيب أو لأن استكبارهم على المسلمين قد حدث بسبب استماعه ويجوز أن تتعلق الباء بقوله تعالى ﴿ سامرا ﴾ أى تسمرون بذكر القرآن وبالطعن فيه حيث كانوا يجتمعون حول البيت بالليل يسمرون وكانت عامة سمرهم ذكر القرآن وتسميته سحرا وشعرا والسامر كالحاضر فى الإطلاق على الجمع وقيل هو مصدر جاء على لفظ الفاعل وقرىء سمرا وسمارا وأن تتعلق بقوله تعالى ﴿ تهجرون ﴾ من الهجر بالفتح بمعنى الهذيان أو الترك أى تهذون فى شأن القرآن أو تتركونه أومن الهجر بالضم وهو الفحش ويؤيده قراءة تهجرون من أهجر فى منطقه إذا أفحش فيه وقرىء تهجرون من هجر الذى هو مبالغة فى هجر إذا هذى .

﴿ أفلم يدبروا القول ﴾ الهمزة لإنكار الواقع واستقباحه والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلام أى أفعلوا ما فعلوا من النكوص والاستكبار والهجر فلم يتدبروا القرآن ليعرفوا بما فيه من إعجاز النظم وصحة المدلول والإخبار عن الغيب أنه الحق من ربهم فيؤمنوا به فضلا عما فعلوا فى شأنه من القبائح وأم فى قوله تعالى ﴿ أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين ﴾ منقطعة وما فيها من معنى بل للإضراب والانتقال عن التوبيخ بما ذكر إلى التوبيخ بآخر والهمزة لإنكار الوقوع لا لإنكار الواقع أى بل أجاءهم من الكتاب ما لم

يأت آباءهم الأولين حتى استبدعوه واستبعدوه فوقعوا فيما وقعوا فيه من الكفر والضلال يعنى أن مجيء الكتب من جهته تعالى إلى الرسل عليهم السلام سنة قديمة له تعالى لا يكاد يتسنى إنكاره وأن مجيء القرآن على طريقته فمن أين ينكرونه وقيل أم جاءهم من الأمن من عذابه تعالى ما لم يأت آباءهم الأولين كاسماعيل عليه السلام وأعقابه من عدنان وقحطان ومضر وربيعة وقيس والحرث ابن كعب وأسد بن خزيمة وتميم بن مرة وتبع وضبة بن أد فآمنوا به تعالى وبكتبه ورسله وأطاعوه ﴿ أم لم يعرفوا رسولهم ﴾ إضراب وانتقال من التوبيخ بما ذكر إلى التوبيخ بوجه آخر والهمزة لإنكار الوقوع أيضاً أى بل ألم يعرفوه عليه السلام بالأمانة والصدق وحسن الأخلاق وكمال العلم مع عدم التعلم من أحد وغير ذلك مما حازه من الكمالات اللائقة بالأنبياء عليهم السلام ﴿ فهم له منكرون ﴾ أى جاحدون بنبوته فجحودهم بها مترتب على عدم معرفتهم بشأنه عليه السلام ومن ضرورة انتفاء المبنى بطلان ما بنى عليه أى فهم غير عارفين له عليه السلام فهو تأكيد لما قبله .

توبيخ الكفار

﴿ أم يقولون به جنة ﴾ انتقال إلى توبيخ آخر والهمزة لإنكار الواقع كالأولى أى بل أيقولون به جنة أى جنون مع أنه أرجح الناس عقلا وأثقبهم ذهنا وأتقنهم رأيا وأوفرهم رزانة ولقد روعى فى هذه التوبيخات الأربعة التى اثنان منها متعلقان بالقرآن والباقيان به عليه السلام الترقى من الأدنى إلى الأعلى حيث وبخوا أو لا بعدم التدبر وذلك يتحقق مع كون القول غير متعرض له بوجه من الوجوه ثم وبخوا بشيء لو اتصف به القول لكان سببا لعدم تصديقهم به ثم وبخوا بما يتعلق بالرسول عليه الصلاة والسلام من عدم معرفتهم به عليه الصلاة والسلام وذلك يتحقق بعدم المعرفة بخير ولا شر ثم بما لو كان فيه عليه الصلاة والسلام ذلك لقدح فى رسالته عليه الصلاة والسلام ﴿ بل جاءهم بالحق ﴾ إضراب عما يدل عليه ماسبق أى ليس الأمر كما زعموا فى حق القرآن

والرسول عليه الصلاة والسلام بل جاءهم عليه الصلاة والسلام بالحق أى الصدق الثابت الذى لا محيد عنه أصلا ولا مدخل فيه للباطل بوجه من الوجوه ﴿ وأكثرهم للحق ﴾ من حيث هو حق أى حق كان لا لهذا الحق فقط كما ينبىء عنه الإظهار فى موقع الإضمار ﴿ كارهون ﴾ لما فى جبلتهم من الزيغ والانحراف المناسب للباطل ولذلك كرهوا هذا الحق الأبلج وزاغوا عن الطريق الأنهج وتخصيص أكثرهم بهذا الوصف لا يقتضى إلا عدم كراهة الباقين لكل حق من الحقوق وذلك لا ينافى كراهتهم لهذا الحق المبين فتأمل وقيل تقييد الحكم بالأكثر لأن منهم من ترك الإيمان استنكافا من توبيخ قومه أو لقلة فطنته وعدم تفكره لا لكراهته الحق وأنت خبير بأن التعرض لعدم كراهة بعضهم للحق مع اتفاق الكل على الكفر به مما لا يساعده المقام أصلا .

﴿ ولو اتبع الحق أهواءهم ﴾ استئناف مسوق لبيان أن أهواءهم الزائغة التى ما كرهوا الحق إلا لعدم موافقته إياها مقتضية للطامة أى لو كان ما كرهوه من الحق الذى من جملته ما جاء به عليه السلام موافقا لأهوائهم الباطلة ﴿ لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ﴾ وخرجت عن الصلاح والانتظام بالكلية لأن مناط النظام ليس إلا ذلك وفيه من تنويه شأن الحق والتنبيه على سمو مكانه ما لا يخفى وأما ما قيل لو اتبع الحق الذى جاء به عليه السلام أهواءهم وانقلب شركا لجاء الله تعالى بالقيامة ولأهلك العالم ولم يؤخر ففيه أنه لا يلائم فرض مجيئه عليه السلام به وكذا ما قيل لو كان فى الواقع إلاهان لا يناسب المقام وأما ما قيل لو اتبع الحق أهواءهم لخرج عن الإلهية فما لا احتمال له أصلا ﴿ بل أتيناهم بذكرهم ﴾ انتقال من تشنيعهم بكراهة الحق الذى به يقوم العالم إلى تشنيعهم بالإعراض عما جبل عليه كل نفس من الرغبة فيما فيه خيرها والمراد بالذكر القرآن الذى هو فخرهم وشرفهم حسبما ينطق به قوله تعالى (وإنه لذكر لك ولقومك) أى بل أتيناهم بفخرهم وشرفهم الذى كان يجب عليهم أن يقبلوا عليه أكمل إقبال ﴿ فهم ﴾ بما فعلوه من النكوص ﴿ عن ذكرهم ﴾ أى فخرهم وشرفهم خاصة ﴿ معرضون ﴾ لا عن غير ذلك مما لا يوجب الإقبال عليه والاعتناء به .

وفى وضع الظاهر موضع الضمير مزيد تشنيع لهم وتقريع والفاء لترتيب ما بعدها من إعراضهم عن ذكرهم على ما قبلها من إيتاء ذكرهم لا لترتيب الإعراض على الإيتاء مطلقا فإن المستتبع لكون إعراضهم إعراضا عن ذكرهم هو إيتاء ذكرهم لا الإيتاء مطلقا وفى إسناد الإتيان بالذكر إلى نون العظمة بعد إسناده إلى ضميره عليه الصلاة والسلام تنويه لشأن النبي عليه الصلاة والسلام وتنبيه على كونه بمثابة عظيمة منه عز وجل وفى إيراد القرآن الكريم عند نسبته إليه تعالى بعنوان الذكر من النكتة السرية والحكمة العبقرية ما لا يخفى فإن التصريح بحقيته المستلزمة لحقية من جاء به هو الذى يقتضيه مقام حكاية ما قاله المبطلون فى شأنه وأما التشريف فإنما يليق به تعالى لا سيما رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد المشرفين وقيل المراد بالذكر ما تمنوه بقولهم لوأن عندنا ذكرا من الأولين وقيل وعظهم وأيد ذلك بأنه قرىء بذكراهم والتشنيع على الأولين أشد فإن الإعراض عن وعظهم ليس فى مثابة إعراضهم عن شرفهم أو عن ذكرهم الذى يتمنونه فى الشناعة والقباحة .

﴿أم تسألهم﴾ انتقال من توبيخهم بما ذكر من قوله (أم يقولون به جنة) إلى التوبيخ بوجه آخر كأنه قيل أم يزعمون أنك تسألهم عن أداء الرسالة ﴿خرجا﴾ أى جعلا فلأجل ذلك لا يؤمنون بك وقوله تعالى ﴿ فخراج ربك خير﴾ أى رزقه فى الدنيا وثوابه فى الآخرة تعليل لنفى السؤال المستفاد من الإنكار أى لا تسألهم ذلك فإن ما رزقك الله تعالى فى الدنيا والعقبى خير لك من ذلك وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام من تعليل الحكم وتشريفه عليه الصلاة والسلام ما لا يخفى والخرج بإزاء الدخل يقال لكل ما تخرجه إلى غيرك والخراج غالب[1] فى الضريبة على الأرض وقيل الخرج ما تبرعت به والخراج ما لزمك وقيل الخرج أخص

(١) ف ٢٠ غلب فى الضريبة

من الخراج فنى النظم الكريم إشعار بالكثرة واللزوم وقرىء خرجا فخرج وخراجا فخراج ﴿ وهو خير الرازقين ﴾ تقرير لخيرية خراجه تعالى ﴿ وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم ﴾ تشهد العقول السليمة باستقامته ليس فيه شائبة اعوجاج توجب اتهامهم لك بوجه من الوجوه ولقد ألزمهم الله عز وعلا وأزاح عللهم فى هذه الآيات حيث حصر أقسام ما يؤدى إلى الإنكار والاتهام وبين انتفاء ما عدا كراهتهم للحق وقلة فطنتهم ﴿ وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ وصفوا بذلك تشنيعا لهم بما هم عليه من الانهماك فى الدنيا وزعمهم أن لا حياة إلا الحياة الدنيا وإشعارا بعلة الحكم فإن الإيمان بالآخرة وخوف ما فيها من الدواهى من أقوى الدواعى إلى طلب الحق وسلوك سبيله ﴿ عن الصراط ﴾ أى عن جنس الصراط ﴿ لناكبون ﴾ لعادلون فضل عن الصراط المستقيم الذى تدعوهم إليه والأول أدل على كمال ضلالهم وغاية غوايتهم لما أنه ينبىء عن كون ما ذهبوا إليه مما لا يطلق عليه اسم الصراط ولو كان معوجا ﴿ ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر ﴾ أى قحط وجدب .

﴿ للجوا ﴾ لتمادوا ﴿ فى طغيانهم ﴾ إفراطهم فى الكفر والاستكبار وعداوة الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين ﴿ يعمهون ﴾ أى عامهين عن الهدى روى أنه لما أسلم ثمامة بن أثال الحنفى ولحق باليمامة ومنع الميرة عن أهل مكة وأخذهم الله تعالى بالسنين حتى أكلوا العلهز جاء أبو سفيان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له أنشدك الله والرحم ألست تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين قال بلى فقال قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع فنزلت والمعنى لو كشفنا عنهم ما أصابهم من القحط والهزال برحمتنا إياهم ووجدوا الخصب لارتدوا إلى ما كانوا عليه من الكفر والاستكبار ولذهب عنهم هذا التملق والإبلاس وقد كان كذلك ، وقوله تعالى :

﴿ ولقد أخذناهم بالعذاب ﴾ استئناف مسوق للاستشهاد على مضمون الشرطية والمراد بالعذاب ما نالهم يوم بدر من القتل والأسر وما أصابهم من

فنون العذاب التى من جملتها القحط المذكور واللام جواب قسم محذوف أى و بالله لقد أخذناهم بالعذاب ﴿ فما استكانوا لربهم ﴾ بذلك أى لم يخضعوا ولم يتذللوا على أنه إما استفعال من الكون لأن الخاضع ينتقل من كون إلى كون أو افتعال من السكون قد أشبعت فتحته كمنتزاح فى منتزح بل أقاموا على ما كانوا عليه من العتو والاستكبار وقوله تعالى ﴿ وما يتضرعون ﴾ اعتراض مقرر لمضمون ما قبل أى وليس من عادتهم التضرع إليه تعالى ﴿ حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد ﴾ هو عذاب الآخرة كما ينبىء عنه التهويل بفتح الباب والوصف بالشدة وقرىء فتحنا بالتشديد ﴿ إذا هم فيه مبلسون ﴾ أى متحيرون آيسون من كل خير أى محناهم بكل محنة من القتل والأسر والجوع وغير ذلك فما رؤى منهم لين مقادة وتوجه إلى الإسلام قط وأما ما أظهره أبو سفيان فليس من الاستكانة له تعالى والتضرع إليه تعالى فى شىء وإنما هو نوع خنوع إلى أن يتم غرضه فحاله كما قيل إذا جاع ضغا وإذا شبع طغا وأكثرهم مستمرون على ذلك إلى أن يروا عذاب الآخرة فحينئذ يبلسون وقيل المراد بالباب الجوع فإنه أشد وأعم من القتل والأسر والمعنى أخذناهم أولا بما جرى عليهم يوم بدر من قتل صناديدهم وأسرهم فما وجد منهم تضرع واستكانة حتى فتحنا عليهم باب الجوع الذى هو أطم وأتم فأبلسوا الساعة وخضعت رقابهم وجاءك أعتاهم وأشدهم شكيمة فى العناد يستعطفك ، والوجه هو الأول .

﴿ وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار ﴾ لتشاهدوا بها الآيات التنزيلية والتكوينية ﴿ والأفئدة ﴾ لتتفكروا بها فيما تشاهدونه وتعتبروا اعتبارا لائقا ﴿ قليلا ما تشكرون ﴾ أى شكرا قليلا غير معتد به تشكرون تلك النعم الجليلة لما أن العمدة فى الشكر صرف تلك القوى التى هى فى أنفسها نعم باهرة إلى ما خلقت هى له وأنتم تخلون بذلك إخلالا عظيما ﴿ وهو الذى ذرأكم فى الأرض ﴾ أى خلقكم وبثكم فيها بالتناسل ﴿ وإليه تحشرون ﴾ أى تجمعون يوم القيامة بعد تفرقكم لا إلى غيره فما لكم لا تؤمنون به ولا تشكرونه

﴿ وهو الذى يحيى ويميت ﴾ من غير أن يشاركه فى ذلك شىء من الأشياء ﴿ وله ﴾ خاصة ﴿ اختلاف الليل والنهار ﴾ أى هو المؤثر فى اختلافهما أى تعاقبهما أو اختلافهما ازديادا وانتقاصا أو لأمره وقضائه اختلافهمـــا ﴿ أفلا تعقلون ﴾ أى ألا تتفكرون فلا تعقلون أو أتتفكرون فلا تعقلون بالنظر والتأمل أن الكل منا وأن قدرتنا تعم جميع الممكنات التى من جملتها البعث وقرىء يعقلون على أن الالتفات إلى الغيبة لحكاية سوء حال المخاطبين لغيرهم وقيل على ان الخطاب الأول لتغليب المؤمنين وليس بذاك ﴿ بل قالوا ﴾ عطف على مضمر يقتضيه المقام أى فلم يعقلوا بل قالوا ﴿ مثل ما قال الأولون ﴾ أى آباؤهم ومن دان بدينهم ﴿ قالوا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون ﴾ تفسير لما قبله من المبهم وتفصيل لما فيه من الإجمال وقد مر الكلام فيه ﴿ لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا ﴾ أى البعث ﴿ من قبل ﴾ متعلق بالفعل من حيث إسناده إلى آبائهم لا إليهم أى ووعد آباؤنا من قبل أو بمحذوف وقع حالا من آباؤنا أى كائنين من قبل .

﴿ إن هذا ﴾ أى ما هذا ﴿ إلا أساطير الأولين ﴾ أى أكاذيبهم التى سطروها جمع أسطورة كأحدوثة وأعجوبة وقيل جمع أسطار[1] جمع سطر ﴿ قل لمن الأرض ومن فيها ﴾ من المخلوقات تغليبا للعقلاء على غيرهم ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ جوابه محذوف ثقة بدلالة الاستفهام عليه أى إن كنتم تعلمون شيئا ما فأخبرونى به فإن ذلك كاف فى الجواب وفيه من المبالغة فى وضوح الأمر وفى تجهيلهم مالا يخفى أو إن كنتم تعلمون ذلك فأخبرونى وفيه استهانة بهم وتقرير لجهلهم ولذلك أخبر بجوابهم قبل أن يجيبوا حيث قيل ﴿ سيقولون لله ﴾ لأن بديهة العقل تضطرهم إلى الاعتراف بأنه تعالى خالقها .

﴿ قل ﴾ أى عند اعترافهم بذلك تبكيتا لهم ﴿ أفلا تذكرون ﴾ أى أتعلمون ذلك أو تقولون ذلك فلا تتذكرون أن من فطر الأرض ومافيها ابتداء

(١) فى ١٠ سطر . خطأ

قادر على إعادتها ثانيا فإن البدء ليس بأهون من الإعادة بل الأمر بالعكس فى قياس العقول وقرىء تتذكرون على الأصل ﴿ قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ﴾ أعيد الرب تنويها لشأن العرش ورفعا لمحله عن أن يكون تبعا للسموات وجودا وذكرا ولقد روعى فى الأمر بالسؤال الترقى من الأدنى إلى الأعلى ﴿ سيقولون لله ﴾ باللام نظرا إلى معنى السؤال فإن قولك من ربه ولمن هو فى معنى واحد وقرىء هو وما بعده بغير لام نظرا إلى لفظ السؤال .

﴿ قل ﴾ إفحاما لهم وتوبيخا ﴿ أفلا تتقون ﴾ أى أتعلمون ذلك ولا تقون أنفسكم عقابه بعدم العمل بموجب العلم حيث تكفرون به وتنكرون البعث وتثبتون له شريكا فى الربوبية ﴿ قل من بيده ملكوت كل شىء ﴾ مما ذكر وما لم يذكر أى ملكه التام القاهر وقيل خزائنه ﴿ وهو يجير ﴾ أى يغيث غيره إذا شاء ﴿ ولا يجار عليه ﴾ أى ولا يغيث أحد عليه أى لا يمنع أحد منه بالنصر عليه ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ أى شيئاً ما أو ذلك فأجيبونى على ماسُبِق ﴿ سيقولون لله ﴾ أى لله ملكوت كل شىء وهو الذى يجير ولا يجار عليه ﴿ قل فأنى تسحرون ﴾ أى فمن أين تخدعون وتصرفون عن الرشد مع علمكم به إلى ما أنتم عليه من الغى فإن من لا يكون مسحورا مختل العقل لا يكون كذلك ﴿ بل أتيناهم بالحق ﴾ الذى لا محيد عنه من التوحيد والوعد بالبعث ﴿ وإنهم لكاذبون ﴾ فيما قالوا من الشرك وإنكار البعث ﴿ ما اتخذ الله من ولد ﴾ كما يقوله النصارى والقائلون إن الملائكة بنات الله تعالى عن ذلك علواً كبيرا ﴿ وما كان معه من إله ﴾ يشاركه فى الألوهية كما يقوله عبدة الأوثان وغيرهم ﴿ إذن لذهب كل إله بما خلق ﴾ جواب لمحاجتهم وجزاء لشرط قد حذف لدلالة ما قبله عليه أى لو كان معه آلهة كما يزعمون لذهب كل واحد منهم بما خلقه واستبد به وامتاز ملكه عن ملك الآخرين ووقع بينهم التغالب والتحارب كما هو الجارى فيما بين الملوك ﴿ ولعلا بعضهم على بعض ﴾ فلم يكن بيده وحده ملكوت كل شىء وهو باطل لا يقول به عاقل قط مع قيام البرهان على استناد

جميع الممكنات إلى واجب الوجود واحد بالذات ﴿سبحان الله عما يصفون﴾ أى يصفونه من أن يكون له أنداد وأولاد ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ بالجر على أنه بدل من الجلالة وقيل صفة لها وقرىء بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف وأياما كان فهو دليل آخر على انتفاء الشريك بناء على توافقهم فى تفرده تعالى بذلك ولذلك رتب عليه بالفاء قوله تعالى ﴿فتعالى عما يشركون﴾ فإن تفرده تعالى بذلك موجب لتعاليه عن أن يكون له شريك.

﴿قل رب إما ترينى﴾ أى إن كان لا بد من أن ترينى ﴿ما يوعدون﴾ من العذاب الدنيوى المستأصل وأما العذاب الأخروى فلا يناسبه المقام ﴿رب فلا تجعلنى فى القوم الظالمين﴾ أى قرينا لهم فيما هم فيه من العذاب وفيه إيذان بكمال فظاعة ما وعدوه من العذاب وكونه بحيث يجب أن يستعيذ منه من لا يكاد يمكن أن يحيق به ورد لإنكارهم إياه واستعجالهم به على طريقة الاستهزاء به وقيل أمر به عليه الصلاة والسلام هضما لنفسه وقيل لأن شؤم الكفرة قد يحيق بمن وراءهم كقوله تعالى : (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) وروى أنه تعالى أخبر نبيه عليه الصلاة والسلام بأن له فى أمته نقمة ولم يطلعه على وقتها فأمره بهذا الدعاء وتكرير النداء وتصدير كل من الشرط والجزاء به لإبراز كمال الضراعة والابتهال ﴿وإنا على أن نريك ما نعدهم﴾ من العذاب ﴿لقادرون﴾ ولكنا نؤخره لعلمنا بأن بعضهم أو بعض أعقابهم سيؤمنون أو لأنا لا نعذبهم وأنت فيهم وقيل قد أراه ذلك وهو ما أصابهم يوم بدر أو فتح مكة ولا يخفى بعده فإن المتبادر أن يكون ما يستحقونه من العذاب الموعود عذابا هائلا مستأصلا لا يظهر على يديه عليه الصلاة والسلام للحكمة الداعية إليه .

﴿ادفع بالتى هى أحسن السيئة﴾ وهو الصفح عنها والإحسان فى مقابلتها لكن لا بحيث يؤدى إلى وهن فى الدين وقيل هى كلمة التوحيد والسيئة الشرك وقيل هو الأمر بالمعروف والسيئة المنكر وهو أبلغ من ادفع بالحسنة السيئة لما فيه من التنصيص على التفضيل وتقديم الجار والمجرور على المفعول فى

الموضعين للاهتمام ﴿ نحن أعلم بما يصفون ﴾ أى بما يصفونك به أو بوصفهم إياك على خلاف ما أنت عليه وفيه وعيد لهم بالجزاء والعقوبة وتسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وإرشاد له عليه السلام إلى تفويض أمره إليه تعالى .

﴿ وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين ﴾ أى وساوسهم المغرية على خلاف ما أمرت به من المحاسن التى من جملتها دفع السيئة بالحسنة وأصل الهمز النخس ومنه مهماز الرائض شبه حثهم للناس على المعاصى بهمز الرائض الدواب على الإسراع أو الوثب والجمع للمرات أو لتنوع الوساوس أو لتعدد المضاف إليه ﴿ وأعوذ بك رب أن يحضرون ﴾ أمر عليه السلام بأن يعوذ به تعالى من حضورهم بعد ما أمر بالعوذ به من همزاتهم للمبالغة فى التحذير من ملابستهم وإعادة الفعل مع تكرير النداء لإظهار كمال الاعتناء بالمأمور به وعرض نهاية الابتهال فى الاستدعاء أى أعوذ بك من أن يحضرونى ويحوموا حولى فى حال من الأحوال وتخصيص حال الصلاة وقراءة القرآن كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما وحال حلول الأجل كما روى عن عكرمة رحمه الله لأنها أحرى الأحوال بالاستعاذة منها ﴿ حتى إذا جاء أحدهم الموت ﴾ حتى هى التى يبتدأ بها الكلام دخلت على الجملة الشرطية وهى مع ذلك غاية لما قبلها متعلقة بيصفون وما بينهما اعتراض مؤكد للإغضاء بالاستعاذة به تعالى من الشياطين أن يزلوه عليه الصلاة والسلام عن الحلم ويغروه على الانتقام لكن لا بمعنى أنه العامل فيه لفساد المعنى بل بمعنى أنه معمول لمحذوف يدل عليه ذلك وتعلقها بكاذبون فى غاية البعد لفظا ومعنى أى يستمرون على الوصف المذكور حتى إذا جاء أحدهم أى أحد كان الموت الذى لا مرد له وظهرت له أحوال الآخرة .

﴿ قال ﴾ تحسرا على ما فرط فيه من الإيمان والطاعة ﴿ رب ارجعون ﴾ أى ردنى إلى الدنيا والواو لتعظيم المخاطب وقيل لتكرير قوله ارجعنى كما قيل فى قفا نبك ونظائره ﴿ لعلى أعمل صالحا فيما تركت ﴾ أى فى الإيمان الذى تركته لم ينظمه فى سلك الرجاء كسائر الأعمال الصالحة بأن يقول لعلى أومن فأعمل الخ للإشعار بأنه أمر مقرر الوقوع غنى عن الإخبار بوقوعه قطعا فضلا

عن كونه مرجو الوقوع أى لعلى أعمل فى الإيمان الذى آتى به البتة عملا صالحا وقيل فيما تركته من المال أو من الدنيا وعنه عليه الصلاة والسلام إذا عاين المؤمن الملائكة قالوا أنرجعك إلى الدنيا فيقول إلى دار الهموم والأحزان بل قدوما إلى الله تبارك وتعالى وأما الكافر فيقول ارجعونى ﴿ كلا ﴾ ردع عن طلب الرجعة واستبعاد لها ﴿ إنها ﴾ أى قوله رب ارجعون الخ ﴿ كلمة هو قائلها ﴾ لا محالة لتسلط الحسرة عليه ﴿ ومن ورائهم ﴾ أى أمامهم والضمير لأحدهم والجمع باعتبار المعنى لأنه فى حكم كلهم كما أن الإفراد فى الضمائر الأول باعتبار اللفظ ﴿ برزخ ﴾ حائل بينهم وبين الرجعة ﴿ إلى يوم يبعثون ﴾ يوم القيامة وهو إقناط كلى عن الرجعة إلى الدنيا لما علم أنه لارجعة يوم البعث إلى الدنيا وإنما الرجعة يومئذ إلى الحياة الأخروية .

﴿ فإذا نفخ فى الصور ﴾ لقيام الساعة وهى النفخة الثانية التى يقع عندها البعث والنشور وقيل المعنى فإذا نفخ فى الأجساد أرواحها على أن الصور جمع الصورة لا القرن ويؤيده القراءة بفتح الواو وبه مع كسر الصاد ﴿ فلا أنساب بينهم ﴾ تنفعهم لزوال التراحم والتعاطف من فرط الحيرة واستيلاء الدهشة بحيث يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه أو لا أنساب يفتخرون بها ﴿ يومئذ ﴾ كما هى بينهم اليوم ﴿ ولا يتساءلون ﴾ أى لا يسأل بعضهم بعضا لاشتغال كل منهم بنفسه ولا يناقضه قوله تعالى (فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) لأن هذا عند ابتداء النفخة الثانية وذلك بعد ذلك ﴿ فمن ثقلت موازينه ﴾ موزونات حسناته من العقائد والأعمال أى فمن كانت له عقائد صحيحة وأعمال صالحة يكون لها وزن وقدر عند الله تعالى ﴿ فأولئك هم المفلحون ﴾ الفائزون بكل مطلوب الناجون من كل مهروب ﴿ ومن خفت موازينه ﴾ أى ومن لم يكن له من العقائد والأعمال ما له وزن وقدر عنده تعالى وهم الكفار لقوله تعالى (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا) وقد مر تفصيل ما فى هذا المقام من الكلام فى تفسير سورة الأعراف ﴿ فأولئك الذين خسروا أنفسهم ﴾ ضيعوها بتضييع زمان استكمالها وأبطلوا استعدادها لنيل كمالها واسم الإشارة فى الموضعين

عبارة عن الموصول وجمعه باعتبار معناه كما أن إفراد الضميرين فى الصلتين باعتبار لفظه ﴿ فى جهنم خالدون ﴾ بدل من الصلة أو خبر ثان لأولئك ﴿تلفح وجوههم النار﴾ تحرقها واللفح كالنفخ إلا أنه أشد تأثيرا منه وتخصيص الوجوه بذلك لأنها أشرف الأعضاء فبيان حالها أزجر عن المعاصى المؤدية إلى النار وهو السر فى تقديمها على الفاعل ﴿ وهم فيها كالحون ﴾ من شدة الاحتراق والكلوح تقلص الشفتين عن الأسنان وقرىء كلحون ﴿ ألم تكن آياتى تتلى عليكم﴾ على إضمار القول أى يقال لهم تعنيفا وتوبيخا وتذكيرا لما به استحقوا ما ابتلوا به من العذاب ألم تكن آياتى تتلى عليكم فى الدنيا ﴿ فكنتم بها تكذبون ﴾ حينئذ ﴿ قالوا ربنا غلبت علينا ﴾ أى ملكتنا ﴿ شقوتنا ﴾ التى اقترفناها بسوء اختيارنا كما ينبىء عنه إضافتها إلى أنفسهم وقرىء شقوتنا بالفتح وشقاوتنا أيضاً بالفتح والكسر ﴿ وكنا ﴾ بسبب ذلك ﴿ قوما ضالين ﴾ عن الحق ولذلك فعلنا من التكذيب وهذا كما ترى اعتراف منهم بأن ما أصابهم قد أصابهم بسوء صنيعهم وأما ما قيل من أنه اعتذار منهم بغلبة ما كتب عليهم من الشقاوة الأزلية فمع أنه باطل فى نفسه لما أنه لا يكتب عليهم من السعادة والشقاوة إلا ما علم الله تعالى أنهم يفعلونه باختيارهم ضرورة أن العلم تابع للمعلوم يرده قوله تعالى :

﴿ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون﴾ أى أخرجنا من النار وارجعنا إلى الدنيا فإن عدنا بعد ذلك إلى ما كنا عليه من الكفر والمعاصى فإنا متجاوزون الحد فى الظلم ولو كان اعتقادهم أنهم مجبورون على ما صدر عنهم لما سألوا الرجعة إلى الدنيا ولما وعدوا الإيمان والطاعة بل قولهم فإن عدنا صريح فى أنهم حينئذ على الإيمان والطاعة وإنما الموعود على تقدير الرجعة إلى الدنيا الثبات عليها لا إحداثهما ﴿ قال اخسئوا فيها ﴾ أى اسكتوا فى النار سكوت هوان وذلوا وانزجروا انزجار الكلاب إذا زجرت من خسأت الكلاب إذا زجرته خسأ أى انزجر ﴿ ولا تكلمون ﴾ أى باستدعاء الإخراج من النار والرجع إلى الدنيا وقيل لا تكلمون فى رفع العذاب ويرده التعليل الآتى وقيل لا تكلمون

رأسا وهو آخر كلام يتكلمون به ثم لا كلام بعد ذلك إلا الشهيق والزفير والعواء كعواء الكلب لا يفهمون ولا يفهمون ويرده الخطابات الآتية قطعا وقوله تعالى ﴿ إنه ﴾ تعليل لما قبله من الزجر عن الدعاء أى أن الشأن وقرىء بالفتح أى لأن الشأن ﴿ كان فريق من عبادى ﴾ وهم المؤمنون وقيل هم الصحابة وقيل أهل الصفة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ﴿ يقولون ﴾ فى الدنيا ﴿ ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين فاتخذتموهم سخريا ﴾ أى اسكتوا عن الدعاء بقولكم ربنا الخ لأنكم كنتم تستهزئون بالداعين بقولهم ربنا آمنا الخ وتتشاغلون باستهزائهم ﴿ حتى أنسوكم ﴾ أى الاستهزاء بهم ﴿ ذكرى ﴾ من فرط اشتغالكم باستهزائهم ﴿ وكنتم منهم تضحكون ﴾ وذلك غاية الاستهزاء وقوله تعالى ﴿ إنى جزيتهم اليوم ﴾ استئناف لبيان حسن حالهم وأنهم انتفعوا بما آذوهم ﴿ بما صبروا ﴾ بسبب صبرهم على أذيتكم وقوله تعالى ﴿ أنهم هم الفائزون ﴾ ثانى مفعولى الجزاء أى جزيتهم فوزهم بمجامع مراداتهم مخصوصين به وقرىء بكسر الهمزة على أنه تعليل للجزاء وبيان لكونه فى غاية ما يكون من الحسن ﴿ قال ﴾ أى الله عز وجل أو الملك المأمور بذلك تذكيرا لما لبثوا فيما سألوا الرجوع إليه من الدنيا بعد التنبيه على استحالته بقوله اخسئوا فيها الخ وقرىء قل على الأمر للملك ﴿ كم لبثتم فى الأرض ﴾ التى تدعون أن ترجعوا إليها ﴿ عدد سنين ﴾ تمييز لكم .

﴿ قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم ﴾ استقصارا لمدة لبثهم فيها ﴿ فاسأل العادين ﴾ أى المتمكنين من العد فإنا بما دهمنا من العذاب بمعزل من ذلك أو الملائكة العادين لأعمار العباد وأعمالهم وقرىء العادين بالتخفيف أى المتعدين فإنهم أيضا يقولون ما نقول كأنهم الأتباع يسمون الرؤساء بذلك لظلمهم إياهم بإضلالهم وقرىء العاديين أى القدماء المعمرين فإنهم أيضا يستقصرون مدة لبثهم ﴿ قال ﴾ أى الله تعالى أو الملك وقرىء قل كما سبق ﴿ إن لبثتم إلا قليلا ﴾ تصديقا لهم فى ذلك ﴿ لو أنكم كنتم تعلمون ﴾ أى تعلمون شيئا

أولو كنتم من أهل العلم والجواب محذوف ثقة بدلالة ما سبق عليه أى لعلمتم يومئذ قلة لبثكم فيها كما علمتم اليوم ولعملتم بموجبه ولم تخلدوا إليها ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا﴾ أى ألم تعلموا شيئاً فحسبتم أنما خلقناكم بغير حكمة بالغة حتى أنكرتم البعث فعبثا حال من نون العظمة أى عابثين أو مفعول له أى إنما خلقناكم للعبث ﴿وأنكم إلينا لا ترجعون﴾ عطف على أنما فإن خلقكم بغير بعث من قبيل العبث وإنما خلقناكم لنعيدكم ونجازيكم على أعمالكم وقرىء ترجعون بفتح التاء من الرجوع ﴿فتعالى الله﴾ استعظام له تعالى ولشئونه التى تصرف عليها عباده من البدء والإعادة والإثابة والعقاب بموجب الحكمة البالغة أى ارتفع بذاته وتنزه عن مماثلة المخلوقين فى ذاته وصفاته وأحواله وأفعاله وعن خلو أفعاله عن الحكم والمصالح والغايات الحميدة ﴿الملك الحق﴾ الذى يحق له الملك على الإطلاق إيجادا وإعداما بدءاً وإعادة إحياء وإماتة عقابا وإثابة وكل ما سواه مملوك له مقهور تحت ملكوته ﴿لا إله إلا هو﴾ فإن كل ما عداه عبيده ﴿رب العرش الكريم﴾ فكيف بما تحته ومحاط به من الموجودات كائنا ما كان ووصفه بالكرم إما لأنه منه ينزل الوحى الذى منه القرآن الكريم أو الخير والبركة والرحمة أو لنسبته إلى أكرم الأكرمين وقرىء الكريم بالرفع على أنه صفة الرب كما فى قوله تعالى (ذو العرش المجيد) ﴿ومن يدع مع الله إلها آخر﴾ يعبده إفرادا أو إشراكا .

﴿لا برهان له به﴾ صفة لازمة لا لها كقوله تعالى (يطير بجناحيه) جىء بها للتأكيد وبناء الحكم عليه تنبيها على أن التدين بما لا دليل عليه باطل فكيف بما شهدت بديهة العقول بخلافه او اعتراض بين الشرط والجزاء كقولك من أحسن إلى زيد لا أحق منه بالإحسان فالله مثيبه ﴿فإنما حسابه عند ربه﴾ فهو مجاز له على قدر ما يستحقه ﴿إنه لا يفلح الكافرون﴾ أى إن الشأن الخ وقرىء بالفتح على أنه تعليل أو خبر ومعناه حسابه عدم الفلاح والأصل حسابه إنه لا يفلح هو فوضع الكافرون موضع الضمير لأن من يدع فى معنى الجمع وكذلك حسابه إنه لا يفلح فى معنى حسابهم إنهم لا يفلحون ، بدئت

السورة الكريمة بتقرير فلاح المؤمنين وختمت بنفي الفلاح عن الكافرين ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالاستغفار والاسترحام فقيل ﴿ وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين ﴾ إيذانا بأنهما من أهم الأمور الدينية حيث أمر به من قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فكيف بمن عداه . عن النبي عليه الصلاة والسلام من قرأ سورة المؤمنين بشرته الملائكة بالروح والريحان وما تقر به عينه عند نزول ملك الموت وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال لقد أنزلت على عشر آيات من أقامهن دخل الجنة ثم قرأ قد أفلح المؤمنون حتى ختم العشر وروى أن أولها وآخرها من كنوز الجنة من عمل بثلاث آيات من أولها واتعظ بأربع من آخرها فقد نجا وأفلح .

* * *

سورة النور

مدنية وهى اثنتان أو أربع وستون آية

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ سورة ﴾ خبر مبتدأ محذوف أى هذه سورة وإنما أشير إليها مع عدم سبق ذكرها لأنها باعتبار كونها فى شرف الذكر فى حكم الحاضر المشاهد وقوله تعالى ﴿ أنزلناها ﴾ مع ما عطف عليه صفات لها مؤكدة لما أفاده التنكير من الفخامة من حيث الذات بالفخامة من حيث الصفات وأما كونها مبتدأ محذوف الخبر على أن يكون التقدير فيما أوحينا إليك سورة أنزلناها فيأباه أن مقتضى بيان شأن هذه السورة الكريمة لا أن فى جملة ما أوحى إلى النبى عليه الصلاة والسلام سورة شأنها كذا وكذا وحملها على السورة الكريمة بمعونة المقام يوهم أن غيرها من السور الكريمة ليست على تلك الصفات وقرىء بالنصب على إضمار فعل يفسره أنزلناها فلا محل له حينئذ من الإعراب أو على

تقديرا قرأ ونحوه أو دونك عند من يسوغ حذف أداة الإغراء فمحل أنزلنا النصب على الوصفية ﴿ وفرضناها ﴾ أى أوجبنا ما فيها من الأحكام إيجابا قطعيا وفيه من الإيذان بغاية وكادة الفرضية مالا يخفى وقرىء فرضناها بالتشديد لتأكيد الإيجاب أو لتعدد الفرائض أو لكثرة المفروض عليهم من السلف والخلف ﴿ وأنزلنا فيها ﴾ أى فى تضاعيف السورة ﴿ آيات بينات ﴾ إن أريد بها الآيات التى نيطت بها الأحكام المفروضة وهو الأظهر فكونها فى السورة ظاهر ومعنى كونها بينات وضوح دلالاتها على أحكامها لا على الإطلاق فإنها أسوة لسائر الآيات فى ذلك وتكرير أنزلنا مع استلزام إنزال السورة لإنزالها لإبراز كمال العناية بشأنها وإن أريد جميع الآيات فالظرفية باعتبار اشتمال الكل على كل واحد من أجزائه وتكرير أنزلنا مع أن جميع الآيات عين السورة وإنزالها لاستقلالها بعنوان رائق داع إلى تخصيص إنزالها بالذكر إبانة لخطرها ورفعا لمحلها كقوله تعالى (ونجيناهم من عذاب غليظ) بعد قوله تعالى : (نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا)﴿ لعلكم تذكرون ﴾ بحذف إحدى التاءين وقرىء بإدغام الثانية فى الذال أى تتذكرونها فتعملون بموجبها عند وقوع الحوادث الداعية إلى إجراء أحكامها وفيه إيذان بأن حقها أن تكون على ذكر منهم بحيث متى مست الحاجة إليها استحضروها .

أحكام الزنى

﴿ الزانية والزانى ﴾ شروع فى تفصيل ما ذكر من الآيات البينات وبيان أحكامها والزانية هى المرأة المطاوعة للزنا الممكنة منه كما تنبىء عنه الصيغة لا المزنية كرها وتقديمها على الزانى لأنها الأصل فى الفعل لكون الداعية فيها أوفر ولولا تمكينها منه لم يقع ورفعهما على الابتداء والخبر قوله تعالى : ﴿ فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ﴾ والفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط إذ اللام بمعنى الموصول والتقدير التى زنت والذى زنى كما فى قوله تعالى (واللذان يأتيانها منكم فآذوهما) وقيل الخبر محذوف أى فيما أنزلنا أو فيما فرضنا الزانية

والزانى أى حكمهما وقوله تعالى فاجلدوا الخ بيان لذلك الحكم وكان هذا عاما فى حق المحصن وغيره وقد نسخ فى حق المحصن قطعا ويكفينا فى تعيين الناسخ القطع بأنه عليه الصلاة والسلام قد رجم ماعزا وغيره فيكون من باب نسخ الكتاب بالسنة المشهورة وفى الإيضاح الرجم حكم ثبت بالسنة المشهورة المتفق عليها فجازت الزيادة بها على الكتاب وروى عن على رضى الله عنه جلدتها بكتاب الله ورجمتها بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل نسخ بآية منسوخة التلاوة هى الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم ويأباه ما روى عن على رضى الله عنه ﴿ ولا تأخذكم بهما رأفة ﴾ وقرىء بفتح الهمزة وبالمد أيضا على فعالة أى رحمة ورقة ﴿ فى دين الله ﴾ فى طاعته وإقامة حده فتعطلوه أو تسامحوا فيه وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها ﴿ إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ من باب التهييج والإلهاب فإن الإيمان بهما يقتضى الجد فى طاعته تعالى والاجتهاد فى إجراء أحكامه وذكر اليوم الآخر لتذكير ما فيه من العقاب فى مقابلة المسامحة والتعطيل .

﴿ وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ﴾ أى لتحضره زيادة فى التنكيل فإن التفضيح قد ينكل أكثر مما ينكل التعذيب والطائفة فرقة يمكن أن تكون حافة حول شىء من الطوف وأقلها ثلاثة كما روى عن قتادة وعن ابن عباس رضى الله عنهما أربعة إلى أربعين وعن الحسن عشرة والمراد جمع يحصل به التشهير والزجر ﴿ الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك ﴾ حكم مؤسس على الغالب المعتاد جىء به لزجر المؤمنين عن نكاح الزوانى بعد زجرهم عن الزنا بهن وقد رغب بعض من ضعفة المهاجرين فى نكاح موسرات كانت بالمدينة من بغايا المشركين فاستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك فنفروا عنه ببيان أنه من أفعال الزناة وخصائص المشركين كأنه قيل الزانى لا يرغب إلا فى نكاح إحداهما والزانية لا يرغب فى نكاحها إلا أحدهما فلا تحوموا حوله كيلا تنتظموا فى سلكهما

أو تتسموا بسمتهما فإيراد الجملة الأولى مع أن مناط التنفير هى الثانية إما للتعريض بقصرهم الرغبة عليهن حيث استأذنوا فى نكاحهن أو لتأكيد العلاقة بين الجانبين مبالغة فى الزجر والتنفير وعدم التعرض فى الجملة الثانية للمشركة للتنبيه على أن مناط الزجر والتنفير هو الزنا لا مجرد الإشراك وإنما تعرض لها فى الأولى إشباعا فى التنفير عن الزانية بنظمها فى سلك المشركة ﴿ وحرم ذلك ﴾ أى نكاح الزوانى ﴿ على المؤمنين ﴾ لما أن فيه من التشبه بالفسقة والتعرض للتهمة والتسبب لسوء القالة والطعن فى النسب واختلال أمر المعاش وغير ذلك من المفاسد ما لا يكاد يليق بأحد من الأدانى والأراذل فضلا عن المؤمنين ولذلك عبر عن التنزيه بالتحريم مبالغة فى الزجر وقيل النفى بمعنى النهى وقد قرىء به والتحريم على حقيقته والحكم إما مخصوص بسبب النزول أو منسوخ بقوله تعالى (وأنكحوا الأيامى منكم) فإنه متناول للمسافحات ويؤيده ما روى أنه صلى الله عليه وسلم سئل عن ذلك فقال أوله سفاح وآخره نكاح والحرام لا يحرم الحلال وما قيل من أن المراد بالنكاح هو الوطء بين البطلان .

﴿ والذين يرمون المحصنات ﴾ بيان لحكم العفائف إذا نسبن إلى الزنا بعد بيان حكم الزوانى ويعتبر فى الإحصان ههنا مع مدلوله الوضعى الذى هو العفة عن الزنا الحرية والبلوغ والإسلام وفى التعبير عن التفوه بما قالوا فى حقهن بالرمى المنبىء عن صلابة الآلة وإيلام المرمى وبعده عن الرامى إيذان بشدة تأثيره فيهن وكونه رجما بالغيب والمراد به رميهن بالزنا لا غير وعدم التصريح به للاكتفاء بإيرادهن عقيب الزوانى ووصفهن بالإحصان الدال بالوضع على نزاهتهم عن الزنى خاصة فإن ذلك بمنزلة التصريح بكون رميهن به لا محالة ولا حاجة فى ذلك إلى الاستشهاد باعتبار الأربعة من الشهداء على أن فيه مؤنة بيان تأخر نزول الآية عن قوله تعالى (فاستشهدوا عليهن أربعة) ولا بعدم وجوب الحد بالرمى بغير الزنى على أن فيه شبهة المصادرة كأنه قيل والذين يرمون العفائف المنزهات عما رمين به من الزنى ﴿ ثم لم يأتوا بأربعة شهداء ﴾ يشهدون عليهن بما رموهن به وفى كلمة ثم إشعار بجواز تأخير الإتيان بالشهود كما أن فى كلمة

لم إشارة إلى تحقق العجز عن الإتيان بهم وتقرره خلا أن اجتماع الشهود لا بد منه عند الأداء خلافا للشافعي رحمه الله تعالى فإنه جوز التراخي بين الشهادات كما بين الرمي والشهادة وتجوز أن يكون أحدهم زوج المقذوفة خلافا له أيضا وقرىء بأربعة شهداء ﴿ فاجلدوهم ثمانين جلدة ﴾ لظهور كذبهم وافترائهم بعجزهم عن الإتيان بالشهداء لقوله تعالى (فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون) وانتصاب ثمانين كانتصاب المصادر ونصب جلدة على التمييز وتخصيص رميهن[1] بهذا الحكم مع أن حكم رمي المحصنين أيضا كذلك لخصوص الواقعة وشيوع الرمي فيهن .

﴿ ولا تقبلوا لهم شهادة ﴾ عطف على اجلدوا داخل في حكمه تتمة له لما فيه معنى الزجر لأنه مؤلم للقلب كما أن الجلد مؤلم للبدن وقد آذى المقذوف بلسانه فعوقب بإهدار منافعه جزاء وفاقا واللام في لهم متعلقة بمحذوف هو حال من شهادة قدمت عليها لكونها نكرة ولو تأخرت عنها لكانت صفة لها وفائدتها تخصيص الرد بشهادتهم الناشئة عن أهليتهم الثابتة لهم عند الرمي وهو السر في قبول شهادة الكافر المحدود في القذف بعد التوبة والإسلام لأنها ليست ناشئة عن أهليته السابقة بل عن أهلية حدثت له بعد إسلامه فلا يتناولها الرد فتدبر ودع عنك ما قيل من أن المسلمين لا يعبأون بسبب الكفار فلا يلحق المقذوف بقذف الكافر من الشين والشنار ما يلحقه بقذف المسلم فإن ذلك بدون ما مر من الاعتبار تعليل في مقابلة النص ولا يخفى حاله فالمعنى لا تقبلوا منهم شهادة من الشهادات حال كونها حاصلة لهم عند الرمي ﴿ أبدا ﴾ أي مدة حياتهم وإن تابوا وأصلحوا لما عرفت من أنه تتمة للحد كأنه قيل فاجلدوهم وردوا شهادتهم أي فاجمعوا لهم الجلد والرد فيبقى كأصله ﴿ وأولئك هم الفاسقون ﴾ كلام مستأنف مقرر لما قبله ومبين لسوء حالهم عند الله عز وجل وما في اسم الإشارة من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتهم في الشر والفساد أي

---

(١) في ١٠ رمايتهن

أولئك هم المحكوم عليهم بالفسق والخروج على الطاعة والتجاوز عن الحدود الكاملون فيه كأنهم هم المستحقون لإطلاق اسم الفاسق عليهم لا غيرهم من الفسقة وقوله تعالى ﴿إلا الذين تابوا﴾ استثناء من الفاسقين كما ينبىء عنه التعليل الآتى ومحل المستثنى النصب لأنه عن موجب وقوله تعالى ﴿من بعد ذلك﴾ لتهويل المتوب عنه أى من بعد ما اقترفوا ذلك الذنب العظيم الهائل ﴿وأصلحوا﴾ أى أصلحوا أعمالهم التى من جملتها ما فرط منهم بالتلافى والتدارك ومنه الاستسلام للحد والاستحلال من المقذوف ﴿فإن الله غفور رحيم﴾ تعليل لما يفيده الاستثناء من العفو عن المؤاخذة بموجب الفسق كأنه قيل فحينئذ لا يؤاخذهم الله تعالى بما فرط منهم ولا ينظمهم فى سلك الفاسقين لأنه تعالى مبالغ فى المغفرة والرحمة هذا وقد علق الشافعى رحمه الله الاستثناء بالنهى فمحل المستثنى حينئذ الجر على البدلية من الضمير فى لهم وجعل الأبد عبارة عن مدة كونه قاذفا فتنتهى بالتوبة فتقبل شهادته بعدها .

حكم قذف الزوجات

﴿والذين يرمون أزواجهم﴾ بيان الحكم الرامين لأزواجهم خاصة بعد بيان حكم الرامين لغيرهن لكن لا بأن يكون هذا مخصصا للمحصنات بالأجنبيات ليلزم بقاء الآية السابقة ظنية فلا يثبت بها الحد فإن من شرائط التخصيص أن لا يكون المخصص متراخى النزول بل بكونه ناسخا لعمومها ضرورة تراخى نزولها كما سيأتى فتبقى الآية السابقة قطعية الدلالة فيما بقى بعد النسخ لما بين فى موضعه أن دليل النسخ غير معلل ﴿ولم يكن لهم شهداء﴾ يشهدون بما رموهن به من الزنى وقرىء بتأنيث الفعل ﴿إلا أنفسهم﴾ بدل من شهداء أو صفة لها على أن إلا بمعنى غير جعلوا من جملة الشهداء إيذانا من أول الأمر بعدم إلغاء قولهم بالمرة ونظمه فى سلك الشهادة فى الجملة وبذلك ازداد حسن إضافة الشهادة إليهم فى قوله تعالى ﴿فشهادة أحدهم﴾ أى شهادة كل واحد منهم وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿أربع شهادات﴾ خبره أى فشهادتهم المشروعة أربع شهادات

﴿ بالله ﴾ متعلق بشهادات لقربها وقيل بشهادة لتقدمها وقرىء أربع شهادات بالنصب على المصدر والعامل فشهادة على أنه إما خبر لمبتدأ محذوف أى فالواجب شهادة أحدهم وإما مبتدأ محذوف الخبر فشهادة أحدهم واجبة ﴿ إنه لمن لمن الصادقين ﴾ أى فيما رماها به من الزنا وأصله على أنه الخ فحذف الجار وكسرت إن وعلق العامل عنها للتأكيد ﴿ والخامسة ﴾ أى الشهادة الخامسة للأربع المتقدمة أى الجاعلة لها خمسا بانضمامها إليهن وإفرادها عنهن مع كونها شهادة أيضا لاستقلالها بالفحوى ووكادتها فى إفادة ما يقصد بالشهادة من تحقيق الخبر وإظهار الصدق وهى مبتدأ خبره ﴿أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين﴾ فيما رماها به من الزنا فإذا لاعن الزوج حبست الزوجة حتى تعترف فترجم أو تلاجم أو تلاعن ﴿ ويدرأ عنها العذاب ﴾ أى العذاب الدنيوى وهو الحبس المغيا على أحد الوجهين بالرجم الذى هو أشد العذاب ﴿ أن تشهد أربع شهادات بالله إنه ﴾ أى الزوج ﴿ لمن الكاذبين ﴾ أى فيما رمانى به من الزنا .

﴿ والخامسة ﴾ بالنصب عطفا على أربع شهادات ﴿ أن غضب الله عليها إن كان ﴾ أى الزوج ﴿ من الصادقين ﴾ أى فيما رمانى به من الزنا وقرىء والخامسة بالرفع على الابتداء وقرىء أن بالتخفيف فى الموضعين ورفع اللعنة والغضب وقرىء أن غضب الله وتخصيص الغضب بجانب المرأة للتغليظ عليها لما أنها مادة الفجور ولأن النساء كثيرا ما يستعملن اللعن فربما يجترئن على التفوه به لسقوط وقعه عن قلوبهن بخلاف غضبه تعالى روى أن آية القذف لما نزلت قرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فقام عاصم بن عدى الأنصارى رضى الله عنه فقال جعلنى الله فداك إن وجد رجل مع امرأته رجلا فأخبر جلد ثمانين وردت شهادته وفسق وإن ضربه بالسيف قتل وإن سكت سكت على غيظ وإلى أن يجىء بأربعة شهداء فقد قضى الرجل حاجته ومضى اللهم افتح وخرج فاستقبله هلال بن أمية أو عويمر فقال ما وراءك قال شر وجدت على امرأتى خولة وهى بنت عاصم شريك بن سحماء فقال والله هذا سؤالى ما أسرع ما ابتليت به فرجعا فأخبرا رسول الله صلى الله عليه وسلم

فكلم خولة فأنكرت فلاعن بينهما والفرقة الواقعة باللعان فى حكم التطليقة البائنة عند أبى حنيفة ومحمد رحمهما الله ولا يتأبد حكمها حتى إذا أكذب الرجل نفسه بعد ذلك فحد جاز له أن يتزوجها وعند أبى يوسف وزفر والحسن بن زياد والشافعى رحمهم الله هى فرقة بغير طلاق توجب تحريما مؤبدا ليس لهما اجتماع بعد ذلك أبدا .

﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم ﴾ التفات إلى خطاب الرامين والمرميات بطريق التغليب لتوفية مقام الامتنان حقه وجواب لولا محذوف لتهويله والإشعار بضيق العبارة عن حصره كأنه قيل ولولا تفضله تعالى عليكم ورحمته وأنه تعالى مبالغ فى قبول التوبة حكيم فى جميع أفعاله وأحكامه التى جملتها ما شرع لكم من حكم اللعان لكان ما كان مما لا يحيط به نطاق البيان ومن جملته أنه تعالى لو لم يشرع لهم ذلك لوجب على الزوج حد القذف مع أن الظاهر صدقه لأنه أعرف بحال زوجته وأنه لا يفترى عليها لاشتراكهما فى الفضاحة وبعد ما شرع لهم ذلك لوجعل شهاداته موجبة لحد القذف عليه لفات النظر له ولا ريب فى خروج الكل عن سنن الحكمة والفضل والرحمة فجعل شهادات كل منهما مع الجزم بكذب أحدهما حتما دارئة لما توجه إليه من الغائلة الدنيوية وقد ابتلى الكاذب منهما فى تضاعيف شهاداته من العذاب بما هو أتم مما درأته عنه وأطم وفى ذلك من أحكام الحكم البالغة وآثار التفضل والرحمة ما لا يخفى أما على الصادق فظاهر وأما على الكاذب فهو إمهاله والستر عليه فى الدنيا ودرء الحد عنه وتعريضه للتوبة حسبما ينبىء عنه التعرض لعنوان توابيته سبحانه ما أعظم شأنه وأوسع رحمته وأدق حكمته .

قصة الإفك

﴿ إن الذين جاؤا بالإفك ﴾ أى بأبلغ ما يكون من الكذب والافتراء وقيل البهتان لا تشعر به حتى يفجأك وأصله الإفك وهو القلب لأنه مأفوك عن وجهه وسمته والمراد به ما أفك به الصديقة أم المؤمنين رضى الله عنها وفى لفظ

المجيء إشارة إلى أنهم أظهروه من عند أنفسهم من غير أن يكون له أصل وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه فأيتهن خرجت قرعتها استصحبها قالت عائشة رضي الله عنها فأقرع بيننا فى غزوة غزاها قيل غزوة بنى المصطلق فخرج سهمى فخرجت معه عليه السلام بعد نزول آية الحجاب فحملت فى هودج فسرنا حتى إذا قفلنا ودنونا من المدينة نزلنا منزلا ثم نودى بالرحيل فقمت ومشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شأنى أقبلت إلى رحلى فلمست صدرى فإذا عقدى من جزع ظفار قد انقطع فرجعت فالتمسته فحبسنى ابتغاؤه وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بى فاحتملوا هودجى فرحلوه على بعيرى وهم يحسبون أنى فيه لخفتى فلم يستنكروا خفة الهودج وذهبوا بالبعير ووجدت عقدى بعد ما استمرت الجيش فجئت منازلهم وليس فيها داع ولا مجيب فتيممت منزلى وظننت أنى سيفقدوننى ويعودون فى طلبى فبينا أنا جالسة فى منزلى غلبتنى عينى فنمت وكان صفوان بن المعطل السلمى من وراء الجيش فلما رآنى عرفنى فاستيقظت باسترجاعه فخمرت وجهى بجلبابى ووالله ما تكلمنا بكلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه وهوى حتى أناخ راحلته فوطىء على يديها فقمت إليها فركبتها وانطلق يقود بى الراحلة حتى أتينا الجيش موغرين فى نحر الظهيرة وهم نزول وافتقدنى الناس حين نزلوا وماج القوم فى ذكرى فبينا الناس كذلك إذ هجمت عليهم فخاض الناس فى حديثى فهلك من هلك ، وقوله تعالى :

﴿ عصبة منكم ﴾ خبر أن أى جماعة وهى من العشرة إلى الأربعين وكذا العصابة وهم عبد الله بن أبى وزيد بن رفاعة وحسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش ومن ساعدهم وقوله تعالى ﴿ لا تحسبوه شرا لكم ﴾ استئناف خوطب به رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعائشة وصفوان رضى الله عنهم تسلية لهم من أول الأمر والضمير للإفك ﴿ بل هو خير لكم ﴾ لاكتسابكم به الثواب العظيم وظهور كرامتكم على الله عز وجل بانزال ثمانى عشرة آية فى نزاهة ساحتكم وتعظيم شأنكم وتشديد الوعيد فيمن تكلم فيكم

والثناء على من ظن بكم خيرا ﴿ لكل امرىء منهم ﴾ أى من أولئك العصبة ﴿ ما اكتسب من الإثم ﴾ بقدر ما خاض فيه ﴿ والذى تولى كبره ﴾ أى معظمه وقرىء بضم الكاف وهى لغة فيه ﴿ منهم ﴾ من العصبة وهو ابن أبى فإنه بدأ به وأذاعه بين الناس عداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل هو وحسان ومسطح فإنهما شايعاه بالتصريح به فإفراد الموصول حينئذ باعتبار الفوج أو الفريق أو نحوهما ﴿ له عذاب عظيم ﴾ أى فى الآخرة أو فى الدنيا أيضا فإنهم جلدوا وردت شهادتهم وصار ابن أبى مطرودا مشهودا عليه بالنفاق وحسان أعمى وأشل اليدين ومسطح مكفوف البصر وفى التعبير عنه بالذى وتكرير الإسناد وتنكير العذاب ووصفه بالعظم من تهويل الخطب مالا يخفى .

﴿ لولا إذ سمعتموه ﴾ تلوين للخطاب وصرف له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وذويه إلى الخائضين بطريق الالتفات لتشديد ما فى لولا التحضيضية من التوبيخ ثم العدول عنه إلى الغيبة فى قوله تعالى ﴿ ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا ﴾ لتأكيد التوبيخ والتشنيع لكن لا بطريق الإعراض عنهم وحكاية جناياتهم لغيرهم على وجه المباثة بل بالتوسل بذلك إلى وصفهم بما يوجب الإتيان بالمحضض عليه ويقتضيه اقتضاء تاما ويزجرهم عن ضده زجرا بليغا فإن كون وصف الإيمان مما يحملهم على إحسان الظن ويكفهم عن إساءته بأنفسهم أى بأبناء جنسهم النازلين منزلة أنفسهم كقوله تعالى (ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم) وقوله تعالى (ولا تلمزوا أنفسكم) مما لاريب فيه فإخلالهم بموجب ذلك الوصف أقبح وأشنع والتوبيخ عليه أدخل مع ما فيه من التوسل به إلى التصريح بتوبيخ الخائضات ثم إن كان المراد بالإيمان الإيمان الحقيقى فإيجابه لما ذكر واضح والتوبيخ خاص بالمؤمنين وإن كان مطلق الإيمان الشامل لما يظهره المنافقون أيضا فإيجابه له من حيث أنهم كانوا يحترزون عن إظهار ما ينافى مدعاهم فالتوبيخ حينئذ متوجه إلى الكل وتوسيط الظرف بين لولا وفعلها لتخصيص التحضيض بأول زمان سماعهم وقصر التوبيخ على تأخير الإتيان

بالمحضض عليه عن ذلك الآن والتردد فيه ليفيد أن عدم الإتيان به رأسا فى غاية ما يكون من القباحة والشناعة أى كان الواجب أن يظن المؤمنون والمؤمنات أول ما سمعوه ممن اخترعه بالذات أو بالواسطة من غير تلعثم وتردد بمثلهم من آحاد المؤمنين خيرا ﴿ وقالوا ﴾ فى ذلك الآن ﴿ هذا إفك مبين ﴾ أى ظاهر مكشوف كونه إفكا فكيف بالصديقة ابنة الصديق أم المؤمنين حرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء ﴾ إما من تمام القول المحضض عليه مسوق لحث السامعين على إلزام المسمعين وتكذيبهم إثر تكذيب ما سمعوه منهم بقولهم هذا إفك مبين وتوبيخهم على تركه أى هلا جاء الخائضون بأربعة شهداء يشهدون على ما قالوا ؟

﴿ فإذا لم يأتوا ﴾ بهم وإنما قيل ﴿ بالشهداء ﴾ لزيادة التقرير ﴿ فأولئك ﴾ إشارة إلى الخائضين وما فيه من معنى البعد للايذان بغلوهم فى الفساد وبعد منزلتهم فى الشر أى أولئك المفسدون ﴿ عند الله ﴾ أى فى حكمه وشرعه المؤسس على الدلائل الظاهرة المتقنة ﴿ هم الكاذبون ﴾ الكاملون فى الكذب المشهود عليهم بذلك المستحقون لإطلاق الاسم عليهم دون غيرهم ولذلك رتب عليه الحد خاصة وأما كلام مبتدأ مسوق من جهته تعالى للاحتجاج على كذبهم بكون ما قالوه قولا لا يساعده الدليل أصلا ﴿ ولولا فضل الله عليكم ﴾ خطاب للسامعين والمسمعين جميعا ﴿ ورحمته فى الدنيا ﴾ من فنون النعم التى من جملتها الإمهال للتوبة ﴿ والآخرة ﴾ من ضروب الآلاء التى من جملتها العفو والمغفرة بعد التوبة ﴿ لمسكم ﴾ عاجلا ﴿ فيما أفضتم فيه ﴾ بسبب ما خضتم فيه من حديث الإفك والإبهام لتهويل أمره والاستهجان بذكره يقال أفاض فى الحديث وخاض واندفع وهضب بمعنى ﴿ عذاب عظيم ﴾ يستحقر دونه التوبيخ والجلد ﴿ إذ تلقونه ﴾ بحذف إحدى التاءين ظرف للمس أى لمسكم ذلك العذاب العظيم وقت تلقيكم إياه من المخترعين ﴿ بألسنتكم ﴾ والتلقى والتلقف والتلقن معان متقاربة خلا أن فى الأول معنى الاستقبال وفى الثانى معنى الخطف والأخذ بسرعة وفى الثالث معنى الحذق والمهارة وقرىء تتلقونه على الأصل وتلقونه

من لقيه وتلقونه بكسر حرف المضارعة وتلقونه من إلقاء بعضهم على بعض وتلقونه وتألقونه من الولق الألق وهو الكذب وتثقفونه من ثقفته إذا طلبته وتقفونه أى تتبعونه ﴿ وتقولون بأفواهكم ماليس لكم به علم ﴾ أى تقولون قولا مختصا بالأفواه من غير أن يكون له مصداق ومنشأ فى القلوب لأنه ليس بتعبير عن علم به فى قلوبكم كقوله تعالى (يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم) ﴿ وتحسبونه هينا ﴾ سهلا لا تبعة له أو ليس له كثير عقوبة ﴿ وهو عند الله ﴾ والحال أنه عنده عزوجل ﴿ عظيم ﴾ لا يقادر قدره فى الوزر واستجرار العذاب ﴿ ولولا إذ سمعتموه ﴾ من المخترعين أو المشايعين لهم ﴿ قلتم ﴾ تكذيبا لهم وتهويلا لما ارتكبوه ﴿ ما يكون لنا ﴾ ما يمكننا ﴿ أن نتكلم بهذا ﴾ وما يصدر عنا ذلك بوجه من الوجوه وحاصله نفى وجود التكلم به لا نفى وجوده على وجه الصحة والاستقامة والإنبغاء وهذا إشارة إلى ما سمعوه وتوسيط الظرف بين لولا وقلتم لما مر من تخصيص التحضيض بأول وقت السماع وقصر التوبيخ واللوم على تأخير القول المذكور عن ذلك الآن ليفيد أنه المحتمل للوقوع المفتقر إلى التحضيض على تركه وأما ترك القول نفسه رأسا فما لا يتوهم وقوعه حتى يحضض على فعله ويلام على تركه وعلى هذا ينبغى أن يحمل ما قيل أن المعنى أنه كان الواجب عليهم أن يتفادوا أول ما سمعوا بالإفك عن التكلم به فلما كان ذكر الوقت أهم وجب التقديم وأما ما قيل من أن ظروف الأشياء منزلة أنفسها لوقوعها فيها وأنها لا تنفك عنها فلذلك يتسع فيها ما لا يتسع فى غيرها فهى ضابطة ربما تستعمل فيما إذا وضع الظرف موضع المظروف بأن جعل مفعولا صريحا لفعل مقدر كما فى قوله تعالى (واذكروا إذ جعلكم خلفاء) أو بتقدير كلمة الظروف المنصوبة باضمار اذكر وأما ههنا فلا حاجة إليها أصلا لما تحققت أن مناط التقديم توجه التحضيض إليه وذلك يتحقق فى جميع متعلقات الفعل كما فى قوله تعالى (فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونها) ﴿ سبحانك ﴾ تعجب من تفوههم به وأصله أن يذكر عند معاينة العجيب من صنائعه تعالى تنزيها له سبحانه عن أن يصعب عليه أمثاله ثم كثر حتى استعمل

فى كل متعجب منه أو تنزيه له تعالى عن أن تكون حرمة نبيه فاجرة فإن فجورها تنفير عنه ومخل بمقصود الزواج فيكون تقريرا لما قبله وتمهيدا لقوله تعالى ﴿ هذا بهتان عظيم ﴾ لعظمة المبهوت عليه واستحالة صدقه فإن حقارة الذنوب وعظمها باعتبار متعلقاتها ﴿ يعظكم الله ﴾ أى ينصحكم ﴿ أن تعودوا لمثله ﴾ أى كراهة أن تعودوا أو يزجركم من أن لا تعودوا من قولك وعظته فى كذا فتركه ﴿ أبدا ﴾ أى مدة حياتكم ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ فإن الإيمان وازع عنه لا محالة وفيه تهييج وتقريع ﴿ ويبين الله لكم الآيات ﴾ الدالة على الشرائع ومحاسن الآداب دلالة واضحة لتتعظوا وتتأدبوا بها أى ينزلها كذلك أى مبينة ظاهرة الدلالة على معانيها لا أنه يبينها بعد أن لم تكن كذلك وهذا كما فى قولهم سبحان من صغر البعوض وكبر الفيل أى خلقهما صغيرا وكبيرا ومنه قولك ضيق فم الركية ووسع أسفلها وإظهار الاسم الجليل فى موقع الإضمار لتفخيم شأن البيان ﴿ والله عليم ﴾ بأحوال جميع مخلوقاته جلائلها ودقائقها ﴿ حكيم ﴾ فى جميع تدابيره وأفعاله فأنى يمكن صدق ما قيل فى حق حرمة من اصطفاه لرسالاته وبعثه لكافة[1] الخلق ليرشدهم إلى الحق ويزكيهم ويطهرهم تطهيرا وإظهار الاسم الجليل ههنا لتأكيد استقلال الاعتراض التذييلى والإشعار بعلة الألوهية للعلم والحكمة .

﴿ إن الذين يحبون ﴾ أى يريدون ويقصدون ﴿ أن تشيع الفاحشة ﴾ أى تنتشر الخصلة المفرطة فى القبح وهى الفرية والرمى بالزنا أو نفس الزنا فالمراد بشيوعها شيوع خبرها أى يحبون شيوعها ويتصدون مع ذلك لإشاعتها وإنما لم يصرح به اكتفاء بذكر المحبة فإنها مستتبعة له لا محالة ﴿ فى الذين آمنوا ﴾ متعلق بتشيع أى تشيع فيما بين الناس وذكر المؤمنين لأنهم العمدة فيهم أو بمضمر هو حال من الفاحشة فالموصول عبارة عن المؤمنين خاصة أى يحبون أن تشيع الفاحشة كائنة فى حق المؤمنين وفى شأنهم ﴿ لهم ﴾ بسبب ما ذكر

---

(١) فى الأصل : إلى كافة

﴿ عذاب أليم فى الدنيا ﴾ من الحد وغيره مما يتفق من البلايا الدنيوية ولقد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن أبى وحسانا ومسطحا حد القذف وضرب صفوان حسانا ضربة بالسيف وكف بصره ﴿ والآخرة ﴾ من عذاب النار وغير ذلك مما يعلمه الله عز وجل ﴿ والله يعلم ﴾ جميع الأمور التى من جملتها ما فى الضمائر من المحبة المذكورة ﴿ وأنتم لا تعلمون ﴾ ما يعلمه تعالى بل إنما تعلمون ما ظهر لكم من الأقوال والأفعال المحسوسة فابنوا أموركم على ما تعلمونه وعاقبوا فى الدنيا على ما تشاهدونه من الأحوال الظاهرة والله سبحانه هو المتولى للسرائر فيعاقب فى الآخرة على ما تكنه الصدور هذا إذا جعل العذاب الأليم فى الدنيا عبارة عن حد القذف أو منتظما له كما أطبق عليه الجمهور أما إذا حمل على إطلاقه يراد بالمحبة نفسها من غير أن يقارنها التصدى للإشاعة وهو الأنسب بسياق النظم الكريم فيكون ترتيب العذاب عليها تنبيها على عذاب من يباشر الإشاعة ويتولاها أشد وأعظم ويكون الاعتراض التذييلى أعنى قوله تعالى ﴿ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ تقريرا لثبوت العذاب الأليم لهم وتعليلا له .

﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ﴾ تكرير للمنة بترك المعاجلة بالعقاب للتنبيه على كمال عظم الجريرة ﴿ وأن الله رءوف رحيم ﴾ عطف على فضل الله وإظهار الاسم الجليل لتربية المهابة والإشعار باستتباع صفة الألوهية للرأفة والرحمة وتغيير سبكه وتصديره بحرف التحقيق لما أن المراد بيان اتصافه تعالى فى ذاته بالرأفة التى هى كمال الرحمة والرحيمية التى هى المبالغة فيها على الدوام والاستمرار لا بيان حدوث تعلق رأفته ورحمته بهم كما أنه المراد بالمعطوف عليه وجواب لولا محذوف لدلالة ما قبله عليه ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ﴾ أى لا تسلكوا مسالكه فى كل ما تأتون وما تذرون من الأفاعيل التى من جملتها إشاعة الفاحشة وحبها وقرىء خطوات بسكون الطاء وبفتحها أيضا ﴿ ومن يتبع خطوات الشيطان ﴾ وضع الظاهران موضع ضميريهما حيث لم يقل ومن يتبعها أو ومن يتبع خطواته لزيادة التقرير والمبالغة فى التنفير والتحذير

﴿ فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ﴾ علة للجزاء وضعت موضعه كأنه قيل فقد ارتكب الفحشاء والمنكر لأنه دأبه المستمر أن يأمر بهما فمن اتبع خطواته فقد امتثل بأمره قطعا والفحشاء ما أفرط قبحه كالفاحشة والمنكر ما ينكره الشرع وضمير إنه للشيطان وقيل للشأن على رأى من لا يوجب عود الضمير من الجملة الجزائية إلى اسم الشرط أو على أن الأصل يأمره وقيل هو عائد إلى من أى فان ذلك المتبع يأمر الناس بهما لأن شأن الشيطان هو الإضلال فمن اتبعه يترقى من رتبة الضلال والفساد الى رتبة الإضلال والإفساد .

﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ﴾ بما من جملته هاتيك البيانات والتوفيق للتوبة الماحصة للذنوب وشرع الحدود المكفرة لها ﴿ ماز كا ﴾ أى ما طهر من دنسها وقرىء ما زكى بالتشديد أى ما طهر الله تعالى ومن فى قوله تعالى ﴿ منكم ﴾ بيانية وفى قوله تعالى ﴿ من أحد ﴾ زائدة وأحدفى حيز[1] الرفع على الفاعلية على القراءة الأولى وفى محل النصب على المفعولية على القراءة الثانية ﴿ أبداً ﴾ لا إلى نهاية ﴿ ولكن الله يزكى ﴾ يطهر ﴿ من يشاء ﴾ من عباده بإفاضة آثار فضله ورحمته عليه وحمله على التوبة ثم قبولها منه كما فعل بكم ﴿ والله سميع ﴾ مبالغ فى سمع الأقوال التى من جملتها ما أظهروه من التوبة ﴿ عليم ﴾ بجميع المعلومات التى من جملتها نياتهم وفيه حث لهم على الإخلاص فى التوبة وإظهار الاسم الجليل للإيذان باستدعاء الألوهية للسمع والعلم مع ما فيه من تأكيد استقلال الاعتراض التذييلى ﴿ ولا يأتل ﴾ أى لا يحلف افتعال من الألية وقيل لا يقصر من الالو والأول هو الأظهر لنزوله فى شأن الصديق رضى الله عنه حين حلف أن لا ينفق على مسطح بعد وكان ينفق عليه لكونه ابن خالته وكان من فقراء المهاجرين ويعضده قراءة من قرأ ولا يتأل ﴿ أولو الفضل منكم ﴾ فى الدين وكفى به دليلا على فضل الصديق رضى الله تعالى عنه ﴿ والسعة ﴾ فى المال ﴿ أن يؤتوا ﴾ أى على أن لا يؤتوا وقرىء بتاء الخطاب على الالتفات

---

(١) فى ١٠ : محل .

﴿ أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله ﴾ صفات لموصوف واحد جىء بها بطريق العطف تنبيها على أن كلا منها علة مستقلة لاستحقاقه الأبناء وقيل لموصوفات أقيمت هى مقامها وحذف المفعول الثانى لغاية ظهوره أى على أن لا يؤتوهم شيئا ﴿ وليعفوا ﴾ ما فرط منهم ﴿ وليصفحوا ﴾ بالإغضاء عنه وقد قرىء الأمران بناء الخطاب على وفق قوله تعالى ﴿ ألا تحبون أن يغفر الله لكم ﴾ أى بمقابلة عفوكم وصفحكم وإحسانكم إلى من أساء إليكم ﴿ والله غفور رحيم ﴾ مبالغ فى المغفرة والرحمة مع كمال قدرته على المؤاخذة وكثرة ذنوب العباد الداعية إليها وفيه ترغيب عظيم فى العفو ووعد كريم بمقابلته كأنه قيل ألا تحبون أن يغفر الله لكم فهذا من موجباته روى أنه عليه الصلاة والسلام قرأه على أبى بكر رضى الله عنه فقال بل أحب أن يغفر الله لى فرجع إلى مسطح نفقته وقال والله لا أنزعها أبدا .

﴿ إن الذين يرمون المحصنات ﴾ أى العفائف مما رمين به من الفاحشة ﴿ الغافلات ﴾ عنها على الإطلاق بحيث لم يخطر ببالهن شىء منها ولا من مقدماتها أصلا ففيها من الدلالة على كمال النزاهة ما ليس فى المحصنات أى السليمات الصدور النقيات القلوب عن كل سوء ﴿ المؤمنات ﴾ أى المتصفات بالإيمان بكل ما يجب أن يؤمن به من الواجبات والمحظورات وغيرها إيمانا حقيقيا تفصيليا كما ينبىء عنه تأخير المؤمنات عما قبلها من أصالة وصف الإيمان فإنه للإيذان بأن المراد بها المعنى الوصفى المعرب كما ذكر لا المعنى الاسمى المصحح لإطلاق الاسم فى الجملة كما هو المتبادر على تقدير التقديم والمراد بها عائشة الصديقة رضى الله عنها والجمع باعتبار أن رميها رمى لسائر أمهات المؤمنين لاشتراك الكل فى العصمة والنزاهة والانتساب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كما فى قوله تعالى (كذبت قوم نوح المرسلين) ونظائره وقيل أمهات المؤمنين فيدخل فيهن الصديقة دخولا أوليا وأما ماقيل من أن المراد هى الصديقة والجمع باعتبار استتباعها للمتصفات بالصفات المذكورة من نساء الأمة فيأباه أن العقوبات المترتبة على رمى هؤلاء عقوبات مختصة بالكفار والمنافقين ولا ريب فى أن

رمى غير أمهات المؤمنين ليس بكفر فيجب أن يكون المراد إياهن على أحد الوجهين فإنهن قد خصصن من بين سائر المؤمنات فجعل رميهن كفرا إبرازا لكرامتهن على الله عز وجل وحماية فى الرسالة من أن يحوم حوله أحد بسوء حتى أن ابن عباس رضى الله عنهما جعله أغلظ من سائر أفراد الكفر حين سئل عن هذه الآيات فقال من أذنب ذنبا ثم تاب منه قبلت توبته إلا من خاض فى أمر عائشة رضى الله عنها وهل هو منه رضى الله عنه إلا لتهويل أمر الافك والتنبيه على أنه كفر غليظ ﴿لعنوا﴾ بما قالوه فى حقهن ﴿فى الدنيا والآخرة﴾ حيث يلعنهم اللاعنون من المؤمنين والملائكة أبدا ﴿ولهم﴾ مع ما ذكر من اللعن الأبدى ﴿عذاب عظيم﴾ هائل لا يقادر قدره لغاية عظم ما اقترفوه من الجناية وقوله تعالى

﴿يوم تشهد عليهم﴾ الخ إما متصل بما قبله مسوق لتقرير العذاب المذكور بتعيين وقت حلوله وتهويله ببيان ظهور جناياتهم الموجبة له مع سائر جناياتهم المستتبعة لعقوباتها على كيفية هائلة وهيئة خارقة للعادات[1] فيوم ظرف لما فى الجار والمجرور والمتقدم من معنى الاستقرار لا لعذاب وإن أغضينا عن وصفه لإخلاله بجزالة المعنى وإما منقطع عنه مسوق التهويل اليوم بتهويل ما يحويه على أنه ظرف لفعل مؤخر قد ضرب عنه الذكر صفحا للإيذان بقصور العبارة عن تفصيل مايقع فيه من الطامة التامة والداهية العامة كأنه قيل يوم تشهد عليهم ﴿ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون﴾ يكون من الأحوال والأهوال ما لا يحيط به حيطة المقال على أن الموصول المذكور عبارة عن جميع أعمالهم السيئة وجناياتهم القبيحة لا عن جناياتهم المعهودة فقط ومعنى شهادة الجوارح المذكورة بها أنه تعالى ينطقها بقدرته فتخبر كل جارحة منها بما صدر عنها من أفاعيل صاحبها لا أن كل منها يخبر بجناياتهم المعهودة فحسب والموصول المحذوف عبارة عنها وعن فنون العقوبات المترتبة عليها كافة لا عن

(١) فى ١٠ : العادة .

إحداهما خاصة ففيه من ضروب التهويل بالإجمال والتفصيل ما لا مزيد عليه وجعل الموصول المذكور عبارة عن خصوص جنايتهم المعهودة وحمل شهادة الجوارح على إخبار الكل بها فقط تحجير للواسع وتهوين أمر الوازع والجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل للدلالة على استمرارهم عليها في الدنيا وتقديم عليهم على الفاعل للمسارعة إلى بيان الشهادة ضارة لهم مع ما فيه من التشويق إلى المؤخر كما مر مرارا ، وقوله تعالى :

﴿ يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ﴾ أي يوم إذ تشهد جوارحهم بأعمالهم القبيحة يعطيهم الله تعالى جزاءهم الثابت الذي يحق أن يثبت لهم لا محالة وافيا كاملا كلام مبتدأ مسوق لبيان ترتيب حكم الشهادة عليها متضمن لبيان ذلك المهم المحذوف على وجه الإجمال ويجوز أن يكون يوم تشهد ظرفا ليوفيهم ويومئذ بدلا منه وقيل هو منصوب على أنه مفعول لفعل مضمر أي اذكر يوم تشهد وقرىء يوم يشهد بالتذكير للفصل ﴿ ويعلمون ﴾ عند معاينتهم الأهوال والخطوب حسبما نطق به القرآن الكريم ﴿ أن الله هو الحق ﴾ الثابت الذي يحق أن يثبت لا محالة في ذاته وصفاته وأفعاله التي من جملتها كلماته التامات المنبئة عن الشئون التي يشاهدونها منطبقة عليها ﴿ المبين ﴾ المظهر للأشياء كما هي في أنفسها أو الظاهر أنه هو الحق وتفسيره بظهور ألوهيته تعالى وعدم مشاركة الغير له فيها وعدم قدرة ما سواه على الثواب والعقاب ليس له كثير مناسبة للمقام كما أن تفسير الحق بذي الحق البين العادل الظاهر عدله كذلك ولو تتبعت ما في الفرقان المجيد من آيات الوعيد الواردة في حق كل كفار مريد وجبار عنيد لا تجد شيئا منها فوق هاتيك القوارع المشحونة بفنون التهديد والتشديد وما ذاك إلا لإظهار منزلة النبي صلى الله عليه وسلم في علو الشأن والنباهة وإبراز رتبة الصديقة رضي الله عنها في العفة والنزاهة وقوله تعالى :

﴿ الخبيثات ﴾ الخ كلام مستأنف مسوق على قاعدة السنة الإلهية الجارية فيما بين الخلق على موجب أن الله تعالى ملكا يسوق الأهل إلى الأهل أي الخبيثات من النساء ﴿ للخبيثين ﴾ من الرجال أي مختصات بهم لا يكدن

يتجاوزنهم إلى غيرهم على أن اللام للاختصاص ﴿ والخبيثون ﴾ أيضاً ﴿ للخبيثات ﴾ لأن المجانسة من دواعى الانضمام ﴿ والطيبات ﴾ منهن ﴿ للطيبين ﴾ منهم ﴿ والطيبون ﴾ أيضاً ﴿ للطيبات ﴾ منهن بحيث لا يكادون يجاوزنهن إلى من عداهن وحيث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أطيب الأطيبين وخيرة الأولين والآخرين تبين كون الصديقة رضى الله عنها من أطيب الطيبات بالضرورة واتضح بطلان ما قيل فى حقها من الخرافات حسبما نطق به قوله تعالى ﴿ أولئك مبرءون مما يقولون ﴾ على أن الإشارة إلى أهل البيت المنتظمين الصديقة انتظاما أوليا وقيل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والصديقة وصفوان وما فى اسم الإشارة من معنى البعد للايذان بعلو رتبة المشار إليهم وبعد منزلتهم فى الفضل أى أولئك الموصوفون بعلو الشأن مبرءون مما تقوله أهل الإفك فى حقهم من الأكاذيب الباطلة وقيل الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال والنساء أى مختصة ولائقة بهم لاينبغى أن تقال فى حق غيرهم وكذا الخبيثون من الفريقين أحقاء بأن يقال فى حقهم خبائث القول والطيبات من الكلم للطيبين من الفريقين مختصة وحقيقة بهم وهم أحقاء بأن يقال فى شأنهم طيبات الكلم أولئك الطيبون مبرءون مما يقول الخبيثون فى حقهم فمآله تنزيه الصديقة أيضاً وقيل خبيثات القول مختصة بالخبيثين من فريق الرجال والنساء لا تصدر عن غيرهم والخبيثون من الفريقين مختصون بخبائث القول متعرضون لها والطيبات من الكلام للطيبين من الفريقين أى مختصة بهم لا تصدر عن غيرهم والطيبون من الفريقين مختصون بطيبات الكلام لا يصدر عنهم غيرها أولئك الطيبون مبرءون مما يقوله الخبيثون من الخبائث أى لا يصدر عنهم مثل ذلك فمآله تنزيه القائلين سبحانك هذا بهتان عظيم ﴿ لهم مغفرة ﴾ عظيمة لما لا يخلو عنه البشر من الذنوب ﴿ ورزق كريم ﴾ هو الجنة .

أحكام اجتماعية

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم ﴾ إثر ما فصل الزواجر

عن الزنا وعن رمى العفائف عنه شرع فى تفصيل الزواجر عما عسى يؤدى إلى أحدهما من مخالطة الرجال بالنساء ودخولهم عليهن فى أوقات الخلوات وتعليم الآداب الجميلة والأفاعيل المرضية المستتبعة لسعادة الدارين ووصف البيوت بمغايرة بيوتهم خارج مخرج العادة التى هى سكنى كل أحد فى ملكه وإلا فالآجر والمعير أيضا منهيان عن الدخول بغير إذن وقرىء بيوتا غير بيوتكم بكسر الباء لأجل الياء ﴿ حتى تستأنسوا ﴾ أى تستأذنوا من يملك الإذن على أن من لا يملكه من النساء والولدان وجدانه كفقدانه أو أحدا أصلا على أن مدلول النص الكريم عبارة هو النهى عن دخول البيوت الخالية لما فيه من الإطلاع على ما يعتاد الناس إخفاءه مع أن التصرف فى ملك الغير محظور مطلقا وأما حرمة دخول ما فيه للنساء والولدان فثابتة بدلالة النص لأن الدخول حيث حرم مع ما ذكر من العلة فلأن يحرم عند انضمام ما هو أقوى منه إليه أعنى الاطلاع على العورات أولى ﴿ فلا تدخلوها ﴾ واصبروا ﴿ حتى يؤذن لكم ﴾ أى من جهة من يملك الإذن عند إتيانه ومن فسره بقوله حتى يأتى من يأذن لكم أو حتى تجدوا من يأذن لكم فقد أبرز القطعى فى معرض الاحتمال ولما كان جعل النهى بالإذن مما يوهم الرخصة فى الانتظار على الأبواب مطلقا بل فى تكرير الاستئذان ولو بعد الرد دفع ذلك بقوله تعالى : ﴿ وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا ﴾ أى إن أمرتم من جهة أهل البيت بالرجوع سواء كان الأمر ممن يملك الإذن أو لا فارجعوا ولا تلحوا بتكرير الاستئذان كما فى الوجه الأول لا تلحوا بالإصرار على الانتظار إلى أن يأتى الآذن كما فى الثانى فإن ذلك مما يجلب الكراهة فى قلوب الناس ويقدح فى المروءة أى قدح ﴿ هو ﴾ أى الرجوع ﴿ أزكى لكم ﴾ أى أطهر مما لا يخلو عنه اللج والعناد والوقوف على الأبواب من دنس الدناءة والرذالة ﴿ والله بما تعملون عليم ﴾ فيعلم ما تأتون وما تذرون مما كلفتموه فيجازيكم عليه .

﴿ ليس عليكم جناح أن تدخلوا ﴾ أى بغير استئذان ﴿ بيوتا غير مسكونة ﴾ أى غير موضوعة لسكنى طائفة مخصوصة فقط بل ليتمتع بها من يضطر إليها

كائنا من كان من غير أن يتخذها سكنا كالربط والخانات والحوانيت والحمامات ونحوها فإنها معدة لمصالح الناس كافة كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿ فيها متاع لكم ﴾ فإنه صفة للبيوت أو استئناف جار مجرى التعليل لعدم الجناح أى فيها حق تمتع لكم كالاستكنان من الحر والبرد وإيواء الأمتعة والرحال والشراء والبيع والاغتسال وغير ذلك مما يليق بحال البيوت وداخليها فلا بأس بدخولها بغير استئذان من داخليها من قبل ولا ممن يتولى أمرها ويقوم بتدبيرها من قوام الرباطات والخانات وأصحاب الحوانيت ومتصرفى الحمامات ونحوهم وروى أن أبا بكر رضى الله عنه قال يا رسول الله إن الله تعالى قد أنزل عليك آية فى الاستئذان وإنا نختلف فى تجاراتنا فننزل هذه الخانات أفلا ندخلها إلا بإذن؟ فنزلت وقيل هى الخربات يتبرز فيها والمتاع التبرز والظاهر أنها من جملة ما ينتظمه البيوت لا أنها المرادة فقط وقوله تعالى ﴿ والله يعلم ما تبـــدون وما تكتمون ﴾ وعيد لمن يدخل مدخلا من هذه المداخل لفساد أو اطلاع على عورات ﴿ قل للمؤمنين ﴾ شروع فى بيــان أحكام كلية شاملة للمؤمنين كافة يندرج فيها حكم المستأذنين عند دخولهم البيوت اندراجا أوليا وتلوين الخطاب وتوجيهه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفويض ما فى حيزه من الأوامر والنواهى إلى رأيه عليه الصلاة والسلام لأنها تكاليف متعلقة بأمور جزئية كثيرة الوقوع حقيقة بأن يكون الآمر بها والمتصدى لتدبيرها حافظا ومهيمنا عليهم ومفعول الأمر أمر آخر قد حذف تعويلا على دلالة جوابه عليه أى قل لهم غضوا ﴿ يغضوا من أبصارهم ﴾ عما يحرم ويقتصروا به على ما يحل ﴿ ويحفظوا فروجهم ﴾ إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم وتقييد الغض بمن التبعيضية دون الحفظ لما فى أمر النظر من السعة وقيل المراد بالحفظ ههنا خاصة هو الستر .

﴿ ذلك ﴾ أى ما ذكر من الغض والحفظ ﴿ أزكى لهم ﴾ أى أطهر لهم من دنس الريبة ﴿ إن الله خبير بما يصنعون ﴾ لا يخفى عليه شىء مما يصدر عنهم من الأفاعيل التى من جملتها إحالة النظر واستعمال سائر الحواس وتحريك الجوارح

وما يقصدون بذلك فليكونوا على حذر منه فى كل ما يأتون وما يذرون ﴿ وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ﴾ فلا ينظرن إلى ما لا يحل لهن النظر إليه ﴿ ويحفظن فروجهن ﴾ بالتستر أو التصون عن الزنا وتقديم الغض لأن النظر بريد الزنا ورائد الفساد ﴿ ولا يبدين زينتهن ﴾ كالحلى وغيرها مما يتزين به وفيه من المبالغة فى النهى عن إبداء مواضعها ما لا يخفى ﴿ إلا ما ظهر منها ﴾ عند مزاولة الأمور التى لا بد منها عادة كالخاتم والكحل والخضاب ونحوها فإن فى سترها حرجا بينا وقيل المراد بالزينة مواضعها على حذف المضاف أو ما يعم المحاسن الخلقية والتزيينية والمستثنى هو الوجه والكفان لأنها ليست بعورة ﴿ وليضربن بخمرهن على جيوبهن ﴾ إرشاد إلى كيفية إخفاء بعض مواضع الزينة بعد النهى عن إبدائها وقد كانت النساء على عادة الجاهلية يسدلن خمرهن من خلفهن فتبدو نحورهن وقلائدهن من جيوبهن لوسعها فأمرن بإرسال خمرهن إلى جيوبهن سترا لما يبدو منها وقد ضمن الضرب معنى الإلقاء فعدى بعلى وقرىء بكسر الجيم كما تقدم ﴿ ولا يبدين زينتهن ﴾ كرر النهى لاستثناء بعض مواد الرخصة عنه باعتبار الناظر بعد ما استثنى عنه بعض مواد الضرورة باعتبار المنظور ﴿ إلا لبعولتهن ﴾ فإنهم المقصودون بالزينة ولهم أن ينظروا إلى جميع بدنهن حتى الموضع المعهود ﴿ أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن ﴾ لكثرة المخالطة الضرورية بينهم وبينهن وقلة توقع الفتنة من قبلهم لما فى طباع الفريقين من النفرة عن مماسة القرائب ولهم أن ينظروا منهن ما يبدو عند المهنة والخدمة وعدم ذكر الأعمام والأخوال لما أن الأحوط أن يتستون عنهم حذارا من أن يصفوهن لأبنائهم ﴿ أو نسائهن ﴾ المختصات بهن بالصحبة والخدمة من حرائر المؤمنات فإن الكوافر لا يتحرجن عن وصفهن للرجال .

﴿ أو ما ملكت أيمانهن ﴾ أى من الإماء فإن عبد المرأة بمنزلة الأجنبى منها وقيل من الإماء والعبيد لما روى أنه عليه الصلاة والسلام أتى فاطمة رضى الله عنها بعبد وهبه لها وعليها ثوب إذا اقنعت به لم يبلغ رجليها وإذا

غطت رجليها لم يبلغ رأسها فقال عليه الصلاة والسلام إنه ليس عليك بأس إنما هو أبوك وغلامك ﴿ أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال ﴾ أى أولى الحاجة إلى النساء وهم الشيوخ الهم والممسوحون وفى المجبوب والخصى خلاف وقيل هم البلة الذين يتبعون الناس لفضل طعامهم ولا يعرفون شيئاً من أمور النساء وقرىء غير بالنصب على الحالية ﴿ أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ﴾ لعدم تمييزهم من الظهور بمعنى الاطلاع أو لعدم بلوغهم حد الشهوة من الظهور بمعنى الغلبة والطفل جنس وضع موضع الجمع اكتفاء بدلالة الوصف ﴿ ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين ﴾ أى ما يخفينه من الرؤية ﴿ من زينتهن ﴾ أى ولا يضربن بأرجلهن الأرض ليتقعقع خلخالهن فيعلم أنهن ذوات الخلخال فإن ذلك مما يورث الرجال ميلا إليهن ويوهم أن لهن ميلا إليهم وفى النهى عن إبداء صوت الحلى بعد النهى عن إبداء عينها من المبالغة فى الزجر عن إبداء مواضعها ما لا يخفى ﴿ وتوبوا إلى الله جميعا ﴾ تلوين للخطاب وصرف له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الكل بطريق التغليب لإبراز كمال العناية بما فى حيزه من أمر التوبة وأنها من معظمات المهمات الحقيقية بأن يكون سبحانه وتعالى هو الآمر بها لما أنه لا يكاد يخلو أحد من المكلفين عن نوع تفريط فى إقامة مواجب التكاليف كما ينبغى وناهيك بقوله عليه السلام شيبتنى سورة هود لما فيها من قوله عز وجل (فاستقم كما أمرت) لاسيما إذا كان المأمور به الكف عن الشهوات وقيل توبوا عما كنتم تفعلونه فى الجاهلية فإنه وإن جب بالإسلام لكن يجب الندم عليه والعزم على تركه كلما خطر بباله وفى تكرير الخطاب بقوله تعالى ﴿ أيها المؤمنون ﴾ تأكيد للإيجاب وإيذان بأن وصف الإيمان موجب للامتثال حتما وقرىء أية المؤمنون ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ تفوزون بذلك بسعادة الدارين .

من أحكام النكاح

﴿ وأنكحوا الأيامى منكم ﴾ بعد مازجر تعالى عن السفاح ومباديه القريبة والبعيدة أمر بالنكاح فإنه مع كونه مقصودا بالذات من حيث كونه مناطا لبقاء النوع خيرمزجرة عن ذلك وأيامى مقلوب أيايم جمع أيم وهو من لازوج له من الرجال والنساء بكرا كان أو ثيبا كما يفصح عنه قول من قال :

فإن تنكحى أنكحوإن تتأيمى وإن كنت أفتى منكم أتأيم

أى زوجوا من لا زوج له من الأحرار والحرائر ﴿ والصالحين من عبادكم وإمائكم ﴾ على أن الخطاب للأولياء والسادات واعتبار الصلاح فى الأرقاء لأن من لا صلاح له منهم بمعزل من أن يكون خليقا بأن يعتنى مولاه بشأنه ويشفق عليه ويتكلف فى نظم مصالحه بما لابد منه شرعا وعادة من بذل المال والمنافع بل حقه أن لا يستبقيه عنده وأما عدم اعتبار الصلاح فى الأحرار والحرائر فلأن الغالب فيهم الصلاح على أنهم مستبدون فى التصرفات المتعلقة بأنفسهم وأموالهم فإذا عزموا النكاح فلابد من مساعدة الأولياء لهم إذ ليس عليهم فى ذلك غرامة حتى يعتبر فى مقابلتها غنيمة عائدة إليهم عاجلة أو آجلة وقيل المراد هو الصلاح للنكاح والقيام بحقوقه ﴿ إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ﴾ إزاحة لما عسى يكون وازعا من النكاح من فقر أحد الجانبين أى لا يمنعن فقر الخاطب أو المخطوبة من المناكحة فإن فى فضل الله عز وجل غنية عن المال فإنه غاد ورائح يرزق من يشاء من حيث لايحتسب أو وعد منه سبحانه بالإغناء لقوله عليه الصلاة والسلام اطلبوا الغنى فى هذه الآية لكنه مشروط بالمشيئة كما فى قوله تعالى (وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء) ﴿ والله واسع ﴾ غنى ذو سعة لا يرزؤه إغناء الخلائق إذ لا نفاد لنعمته ولا غاية لقدرته ومع ذلك ﴿ عليم ﴾ يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة ﴿ وليستعفف ﴾ إرشاد للعاجزين عن مبادى النكاح وأسبابها إلى

ما هو أولى لهم وأحرى بهم بعد بيان جواز مناكحة الفقراء أي ليجتهد في العفة وقمع الشهوة ﴿ الذين لا يجدون نكاحا ﴾ أي أسباب نكاح أو لا يتمكنون مما ينكح به من المال ﴿ حتى يغنيهم الله من فضله ﴾ عدة كريمة بالتفضل عليهم بالغنى ولطف بهم في استعفافهم وتقوية لقلوبهم وإيذان بأن فضله تعالى أولى بالإعفاء وأدنى من الصلحاء ﴿ والذين يبتغون الكتاب ﴾ بعد ما أمر بإنكاح صالحي المماليك الأحقاء بالإنكاح أمر بكتابة من يستحقها منهم والكتاب مصدر كاتب كالمكاتبة أي الذين يطلبون المكاتبة ﴿ مما ملكت أيمانكم ﴾ عبداً كان أو أمة وهي أن يقول المولى لمملوكه كاتبتك على كذا درهما تؤديه إلى وتعتق ويقول المملوك قبلته أو نحو ذلك فإن أداه إليه عتق قالوا معناه كتبت لك على نفسي أن تعتق مني إذا وفيت بالمال وكتبت لي على نفسك أن تفي بذلك أو كتبت عليك الوفاء بالمال وكتبت على العتق عنده والتحقيق أن المكاتبة اسم للعقد الحاصل من مجموع كلاميهما كسائر العقود الشرعية المنعقدة بالإيجاب والقبول ولا ريب في أن ذلك لا يصدر حقيقة إلا من المتعاقدين وليس وظيفة كل منهما في الحقيقة إلا الاتيان بأحد شطريه معربا عما يتم من قبله ويصدر عنه من الفعل الخاص به من غير تعرض لما يتم من قبل صاحبه ويصدر عنه من فعله الخاص به إلا أن كلا من ذينك الفعلين لما كان بحيث لا يمكن تحققه في نفسه إلا منوطا بتحقق الآخر ضرورة أن التزام العتق بمقابلة البدل من جهة المولى لا يتصور تحققه وتحصله إلا بالتزام البدل من طرف العبد كما أن عقد البيع الذي هو تمليك المبيع بالثمن من جهة البائع لا يمكن تحققه إلا بتملكه به من جانب المشترى لم يكن بد من تضمين أحدهما الآخر وقت الإنشاء فكما أن قول البائع بعت إنشاء لعقد البيع على معنى أنه إيقاع لما يتم من قبله أصالة ولما يتم من قبل المشترى ضمنا إيقاعا متوقفا على رأيه توقفا شبيها بتوقف عقد الفضولي كذلك قول المولى كاتبتك على كذا إنشاء لعقد الكتابة أي إيقاع لما يتم من قبله من التزام العتق بمقابلة البدل أصالة ولما يتم من قبل العبد من التزام البدل ضمنا إيقاعا متوقفا على قبوله فإذا قبل تم العقد ومحل الموصول الرفع على الابتداء

خبره ﴿فكاتبوهم﴾ والفاء لتضمنه معنى الشرط أو النصب على أنه مفعول لمضمر يفسره هذا والأمر فيه للندب لأن الكتابة عقد يتضمن الإرفاق فلا تجب كغيرها ويجوز حالا ومؤجلا ومنجما وغير منجم وعند الشافعي رحمه الله لا يجوز إلا مؤجلا منجما وقد فصل في موضعه ﴿إن علمتم فيهم خيراً﴾ أي أمانة ورشدا وقدرة على أداء البدل بتحصيله من وجه حلال وصلاحا لا يؤذي الناس بعد العتق وإطلاق العنان .

﴿وآتوهم من مال الله الذي آتاكم﴾ أمر للموالي ببذل شيء من أموالهم وفي حكمه حط شيء من مال الكتابة ويكفي في ذلك أقل ما يتمول وعن علي رضي الله عنه حط الربع وعن ابن عباس رضي الله عنهما الثلث وهو للندب عندنا وعند الشافعي للوجوب ويرده قوله عليه الصلاة والسلام المكاتب عبد ما بقي عليه درهم إذ لو وجب الحط لسقط عنه الباقي حتما وأيضاً لو وجب الحط لكان وجوبه معلقا بالعقد فيكون العقد موجبا ومسقطا معا وأيضاً فهو عقد معاوضة فلا يجبر على الحطيطة كالبيع وقيل معنى آتوهم أقرضوهم وقيل هو أمر لهم بأن ينفقوا عليهم بعد أن يؤدوا ويعتقوا وإضافة المال إليه تعالى ووصفه بإيتائه إياهم للحث على الامتثال بالأمر بتحقيق المأمور به كما في قوله تعالى (وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) فإن ملاحظة وصول المال إليهم من جهته تعالى مع كونه هو المالك الحقيقي له من أقوى الدواعي إلى صرفه إلى الجهة المأمور بها وقيل هو أمر بإعطاء سهمهم من الصدقات فالأمر للوجوب حتما والإضافة والوصف لتعيين المأخذ وقيل هو أمر ندب لعامة المسلمين بإعانة المكاتبين بالتصدق عليهم ويحل ذلك للمولى وإن كان غنيا لتبدل العنوان حسبما ينطق به قوله عليه الصلاة والسلام في حديث بريرة «هو لها صدقة ولنا هدية» .

﴿ولا تكرهوا فتياتكم﴾ أي إماءكم فإن كلا من الفتى والفتاة كناية مشهورة عن العبد والأمة وعلى ذلك مبني قوله عليه الصلاة والسلام « ليقل أحدكم فتاي وفتاتي ولا يقل عبدي وأمتي » ولهذه العبارة في هذا المقام باعتبار مفهومها

الأصلى حسن موقع ومزيد مناسبة لقوله تعالى ﴿ على البغاء ﴾ وهو الزنا من حيث صدوره عن النساء لأنهن اللاتى يتوقع منهن ذلك غالبا دون من عداهن من العجائز والصغائر وقوله تعالى ﴿ إن أردن تحصنا ﴾ ليس لتخصيص النهى بصورة إرادتهن التعفف عن الزنا وإخراج ما عداها من حكمه كما إذا كان الإكراه بسبب كراهتهن الزنا لخصوص الزانى أو لخصوص الزمان أو لخصوص المكان أو لغير ذلك من الأمور المصححة للإكراه فى الجملة بل للمحافظة على عادتهم المستمرة حيث كانوا يكرهونهن على البغاء وهن يردن التعفف عنه مع وفور شهوتهن الآمرة بالفجور وقصورهن فى معرفة الأمور الداعية إلى المحاسن الزاجرة عن تعاطى القبائح فإن عبدالله بن أبى كانت له ست جوار يكرههن على الزنا وضرب عليهن ضرائب فشكت اثنتان منهن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت وفيه من زيادة تقبيح حالهم وتشنيعهم على ما كانوا عليه من القبائح ما لا يخفى فإن من له أدنى مروءة لا يكاد يرضى بفجور من يحويه حرمه من إمائه فضلا عن أمرهن به أو إكراههن عليه لا سيما عند إرادتهن التعفف فتأمل ودع عنك ما قيل من أن ذلك لأن الإكراه لا يتأتى إلا مع إرادة التحصن وما قيل من أنه إن جعل شرطا للنهى لا يلزم من عدمه جواز الإكراه لجواز أن يكون ارتفاع النهى لامتناع المنهى عنه فإنهما بمعزل من التحقيق وإيثار كلمة إن على إذا مع تحقق الإرادة فى مورد النص حتما للإيذان بوجوب الانتهاء عن الإكراه عند كون إرادة التحصن فى حيز التردد والشك فكيف إذا كانت محققة الوقوع كما هو الواقع وتعليله بأن الإرادة المذكورة منهن فى حيز الشاذ النادر مع خلوه عن الجدوى بالكلية يأباه اعتبار تحققها إياه ظاهرا وقوله تعالى ﴿ لتبتغوا عرض الحيوة الدنيا ﴾ قيد للإكراه لكن لا باعتبار أنه مدار للنهى عنه بل باعتبار أنه المعتاد فيما بينهم كما قبله جىء به تشنيعا لهم فيما هم عليه من احتمال الوزر الكبير لأجل النزر الحقير أى لا تفعلوا ما أنتم عليه من إكراههن على البغاء لطلب المتاع السريع الزوال الوشيك الاضمحلال فالمراد بالابتغاء الطلب المقارن لنيل المطلوب واستيفائه بالفعل إذ هو الصالح لكونه غاية

للإكراه مترتبا عليه لا المطلق المتناول للطلب السابق الباعث عليه ﴿ ومن يكرههن ﴾ الخ جملة مستأنفة سيقت لتقرير النهى وتأكيد وجوب العمل به ببيان خلاص المكرهات عن عقوبة المكره عليه عبارة ورجوع غائلة الإكراه إلى المكرهين إشارة أى ومن يكرهن على ما ذكر من البغاء .

﴿ فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم ﴾ أى لهن كما وقع فى مصحف ابن مسعود وعليه قراءة ابن عباس رضى الله تعالى عنهم وكما ينبىء عنه قوله تعالى (من بعد إكراههن) أى كونهن مكرهات على أن الإكراه مصدر من المبنى للمفعول فإن توسيطه بين اسم إن وخبرها للإيذان بأن ذلك هو السبب للمغفرة والرحمة وكان الحسن البصرى رحمه الله إذا قرأ هذه الآية يقول لهن والله لهن والله وفى تخصيصهما بهن وتعيين مدارهما مع سبق ذكر المكرهين أيضا فى الشرطية دلالة بينة على كونهم محرومين منهما بالكلية كأنه قيل لا للمكره ولظهور هذا التقدير اكتفى به عن العائد إلى اسم الشرط فتجويز تعلقهما بهم بشرط التوبة استقلالا أو معهن إخلال بجزالة النظم الجليل وتهوين لأمر النهى فى مقام التهويل وحاجتهن إلى المغفرة المنبئة عن سابقة الإثم إما باعتبار أنهن وإن كن مكرهات لا يخلون فى تضاعيف الزنا عن شائبة مطاوعة ما بحكم الجبلة البشرية وإما باعتبار أن الإكراه قد يكون قاصرا عن حد الإلجاء المزيل للاختيار بالمرة وإما لغاية تهويل أمر الزنا وحث المكرهات على التثبت فى التجافى عنه والتشديد فى تحذير المكرهين ببيان أنهن حيث كن عرضة للعقوبة لولا أن تداركهن المغفرة والرحمة مع قيام العذر فى حقهن فما حال من يكرههن فى استحقاق العذاب ؟

﴿ ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ﴾ كلام مستأنف جىء به فى تضاعيف ما ورد من الآيات السابقة واللاحقة لبيان جلالة شئونها المستوجبة للإقبال الكلى على العمل بمضمونها وصدر بالقسم الذى تعرب عنه اللام لإبراز كمال العناية بشأنه أى وبالله لقد أنزلنا إليكم فى هذه السورة الكريمة آيات مبينات لكل ما بكم حاجة إلى بيانه من الحدود وسائر الأحكام والآداب وتقرير ذلك

مما هو من مبادى بيانها على أن إسناد التبيين إليها مجازى أو آيات واضحات تصدقها الكتب القديمة والعقول السليمة على أن مبينات من بين بمعنى تبين ومنه المثل قد بين الصبح لذى عينين وقرئ على صيغة المفعول أى التى بينت وأوضحت فى هذه السورة من معالم الأحكام والحدود وقد يجوز أن يكون الأصل مبينا فيها الأحكام فاتسع فى الظرف بإجرائه مجرى المفعول ﴿ ومثلا من الذين خلوا من قبلكم ﴾ عطف على آيات أى وأنزلنا مثلا كائنا من قبيل أمثال الذين مضوا من قبلكم من القصص العجيبة والأمثال المضروبة لهم فى الكتب السابقة والكلمات الجارية على ألسنة الأنبياء عليهم السلام فينتظم قصة عائشة رضى الله عنها المحاكية لقصة يوسف عليه السلام وقصة مريم رضى الله عنها وسائر الأمثال الواردة فى السورة الكريمة انتظاما واضحا وتخصيص الآيات المبينات بالسوابق وحمل المثل على القصة العجيبة فقط يأباه تعقيب الكلام بما سيأتى من التمثيلات ﴿ وموعظة ﴾ تتعظون به وتنزجرون عما لا ينبغى من المحرمات والمكروهات وسائر ما يخل بمحاسن الآداب فهى عبارة عما سبق من الآيات والمثل لظهور كونها من المواعظ بالمعنى المذكور ومدار العطف هو التغاير العنوانى المنزل منزلة التغاير الذاتى وقد خصت الآيات بما بين الحدود والأحكام والموعظة بما وعظ به من قوله تعالى (ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله) وقوله تعالى (لولا إذ سمعتموه) وغير ذلك من الآيات الواردة فى شأن الآداب وإنما قيل ﴿ للمتقين ﴾ مع شمول الموعظة للكل حسب شمول الإنزال لقوله تعالى (أنزلنا إليكم) حثا للمخاطبين على الاعتناء بالانتظام فى سلك المتقين ببيان أنهم المغتنمون لآثارها المقتبسون من أنوارها فحسب وقيل المراد بالآيات المبينات والمثل والموعظة جميع ما فى القرآن المجيد من الآيات والأمثال والمواعظ .

من طرائق معرفة الله

فقوله تعالى ﴿ الله نور السموات والأرض ﴾ الخ حينئذ استئناف مسوق

لتقرير ما فيها من البيان مع الإشعار بكونه في غاية الكمال على الوجه الذى ستعرفه وأما على الأول فلتحقيق أن بيانه تعالى ليس مقصورا على ما ورد فى السورة الكريمة بل هو شامل لكل ما يحق بيانه من الأحكام والشرائع ومباديها وغاياتها المترتبة عليها فى الدنيا والآخرة وغير ذلك مما له مدخل فى البيان وأنه واقع منه تعالى على أتم الوجوه وأكملها حيث عبر عنه بالتنوير الذى هو أقوى مراتب البيان وأجلاها وعبر عن المنور بنفس النور تنبيها على قوة التنوير وشدة التأثير وإيذانا بأنه تعالى ظاهر بذاته وكل ما سواه ظاهر بإظهاره كما أن النور نير بذاته وماعداه مستنير به وأضيف النور إلى السموات والأرض للدلالة على كمال شيوع البيان المستعار له وغاية شموله لكل ما يليق به من الأمور التى لها مدخل فى إرشاد الناس بوساطة بيان شمول المستعار منه لجميع ما يقبله ويستحقه من الأجرام العلوية والسفلية فإنهما قطران للعالم الجسمانى الذى لامظهر للنور الحسى سواه أو على شمول البيان لأحوالهما وأحوال مافيهما من الموجودات إذ ما من موجود إلا وقد بين من أحواله ما يستحق البيان إما تفصيلا أو إجمالا كيف لا ولاريب فى بيان كونه دليلا على وجود الصانع وصفاته وشاهدا بصحة البعث أو على تعلق البيان بأهلهما كما قال ابن عباس رضى الله عنهما هادى أهل السموات والأرض فهم بنوره يهتدون وبهداه من حيرة الضلالة ينجون ، هذا وأما حمل التنوير على إخراجه تعالى للماهيات من العدم إلى الوجود إذ هو الأصل فى الإظهار كما أن الإعدام هو الأصل فى الإخفاء أو على تزيين السموات بالنيرين وسائر الكواكب وما يفيض عنها من الأنوار أو بالملائكة عليهم السلام وتزيين الأرض بالأنبياء عليهم السلام والعلماء والمؤمنين أو بالنبات والأشجار أو على تدبيره تعالى لأمورهما وأمور مافيهما فمما لا يلائم المقام ولا يساعده حسن النظام .

﴿مثل نوره﴾ أى نوره الفائض منه تعالى على الأشياء المستنيرة به وهو القرآن المبين كما يعرب عنه ما قبله من وصف آياته بالإنزال والتبيين وقد صرح بكونه نورا أيضا فى قوله تعالى ﴿وأنزلنا إليكم نورا مبينا﴾ وبه قال ابن عباس

رضى الله عنهما والحسن وزيد بن أسلم رحمهم الله تعالى وجعله عبارة عن الحق وإن شاع استعارته كاستعارة الظلمة للباطل يأباه مقام بيان شأن الآيات ووصفها بما ذكر من التبيين مع عدم سبق ذكر الحق ولأن المعتبر في مفهوم النور هو الظهور والإظهار كما هو شأن القرآن الكريم وأما الحق فالمعتبر في مفهومه من حيث هو حق هو الظهور لا الإظهار والمراد بالمثل الصفة العجيبة أي صفة نوره العجيبة ﴿ كمشكاة ﴾ أى صفة كوة غير نافذة فى الجدار فى الإنارة والتنوير ﴿ فيها مصباح ﴾ سراج ضخم ثاقب وقيل المشكاة الأنبوبة فى وسط القنديل والمصباح الفتيلة المشتعلة ﴿ المصباح فى زجاجة ﴾ أى قنديل من الزجاج الصافى الأزهر وقرىء بفتح الزاى وكسرها فى الموضعين ﴿ الزجاجة كأنها كوكب درى ﴾ متلألىء وقاد شبيه بالدرفى صفائه وزهرته ودرارى الكواكب عظامها المشهورة وقرىء درىء بدال مكسورة وراء مشددة وياء ممدودة بعدها همزة على أنه فعيل من الدرء وهو الدفع أى مبالغ فى دفع الظلام بضوئه أو فى دفع بعض أجزاء ضيائه لبعض عند البريق واللمعان وقرىء بضم الدال والباقى على حاله وفى إعادة المصباح والزجاجة معروفين إثر سبقهما منكرين والإخبار عنهما بما بعدهما مع انتظام الكلام بأن يقال كمشكاة فيها مصباح فى زجاجة كأنها كوكب درى من تفخيم شأنهما ورفع مكانهما بالتفسير إثر الإبهام والتفصيل بعد الإجمال وإثبات ما بعدهما لهما بطريق الإخبار المنبىء عن القصد الأصلى دون الوصف المبنى على الإشارة إلى الثبوت فى الجلة ما لا يخفى ومحل الجملة الأولى الرفع على أنها صفة لمصباح ومحل الثانية الجر على أنها صفة لزجاجة واللام مغنية عن الرابط كأنه قيل فيها مصباح هو فى زجاجة هى كأنها كوكب درى.

﴿ يوقد من شجرة ﴾ أى يبتدأ إيقاد المصباح من شجرة ﴿ مباركة ﴾ أى كثيرة المنافع بأن رويت ذبالته بزيتها وقيل إنما وصفت بالبركة لأنها تنبت فى الأرض التى بارك الله تعالى فيها للعالمين ﴿ زيتونة ﴾ بدل من شجرة وفى إبهامها ووصفها بالبركة ثم الإبدال منها تفخيم لشأنها وقرىء توقد بالتاء على أن الضمير

القائم مقام الفاعل للزجاجة دون المصباح وقرىء توقد على صيغة الماضى من التفعل أى ابتداء ثقوب المصباح منها وقرىء توقد بحذف إحدى التاءين من تتوقد على إسناده إلى الزجاجة ﴿لا شرقية ولا غربية﴾ تقع الشمس عليها حينا دون حين بل بحيث تقع عليها طول النهار كالتى على قلة أوصحراء واسعة فتقع الشمس عليها حالتى الطلوع والغروب وهذا قول ابن عباس رضى الله عنهما وسعيد بن جبير وقتادة وقال الفراء والزجاج لا شرقية وحدها ولا غربية وحدها لكنها شرقية وغربية أى تصيبها الشمس عند طلوعها وعند غروبها فتكون شرقية وغربية تأخذ حظها من الأمرين فيكون زيتها أضوأ وقيل لا نابتة فى شرق المعمورة ولا فى غربها بل فى وسطها وهو الشأم فإن زيوتها أجود ما يكون وقيل لا فى مضحى تشرق الشمس عليها دائما فتحرقها ولا فى مقنأة تغيب عنها دائما فتتركها نيئة وفى الحديث لا خير فى شجرة ولا فى نبات فى مقنأة ولا خير فيهما فى مضحى .

﴿يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار﴾ أى هو فى الصفاء والإنارة بحيث يكاد يضىء بنفسه من غير مساس نار أصلا وكلمة لو فى أمثال هذه المواقع ليست لبيان انتفاء شىء فى الزمان الماضى لانتفاء غيره فيه فلا يلاحظ لها جواب قد حذف ثقة بدلالة ما قبلها عليه ملاحظة قصدية إلا عند القصد إلى بيان الإعراب على القواعد الصناعية بل هى لبيان تحقق ما يفيده الكلام السابق من الحكم الموجب أو المنفى على كل حال مفروض من الأحوال المقارنة له إجمالا بإدخالها على أبعدها منه إما لوجود المانع كما فى قوله تعالى (أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة) وإما لعدم الشرط كما فى هذه الآية الكريمة ليظهر بثبوته أو انتفائه معه ثبوته أو انتفاؤه مع ما عداه من الأحوال بطريق الأولوية لما أن الشىء متى تحقق مع ما ينافيه من وجود المانع أو عدم الشرط فلأن يتحقق بدون ذلك أولى ولذلك لا يذكر معه شىء آخر من سائر الأحوال ويكتفى عنه بذكر الواو العاطفة للجملة على نظيرتها المقابلة لها المتناولة لجميع الأحوال المغايرة لها عند تعددها وهذا معنى قولهم إنها لاستقصاء الأحوال على سبيل

الإجمال وهذا أمر مطرد فى الخبر الموجب والمنفى فإنك إذا قلت فلان جواد يعطى ولو كان فقيرا أو بخيل لا يعطى ولو كان غنيا تريد بيان تحقق الإعطاء فى الأول وعدم تحققه فى الثانى فى جميع الأحوال المفروضة والتقدير يعطى لو لم يكن فقيرا ولا يعطى لو لم يكن غنيا فالجملة مع ما عطفت هى عليه فى حيز النصب على الحالية من المستكن فى الفعل الموجب أو المنفى أى يعطى أو لا يعطى كائنا على جميع الأحوال وتقدير الآية الكريمة يكاد زيتها يضىء لو مسته نار ولو لم تمسسه نار أى يضىء كائنا على كل حال من وجود الشرط وعدمه وقد حذفت الجملة الأولى حسبما هو المطرد فى الباب لدلالة الثانية عليها دلالة واضحة ﴿ نور ﴾ خبر مبتدأ محذوف وقوله تعالى ﴿ على نور ﴾ متعلق بمحذوف هو صفة له مؤكدة لما أفاده التنكير من الفخامة والجملة فذلكة للتمثيل وتصريح بما حصل منه وتمهيد لما يعقبه أى ذلك النور الذى عبر به من القرآن ومثلت صفته العجيبة الشأن بما فصل من صفة المشكاة نور عظيم كائن على نور كذلك لا على أنه عبارة عن نور واحد معين أو غير معين فوق نور آخر مثله ولا عن مجموع نورين اثنين فقط بل عن نور متضاعف من غير تحديد لتضاعفه بحد معين وتحديد مراتب تضاعف ما مثل به من نور المشكاة بما ذكر لكونه أقصى مراتب تضاعفه عادة فإن المصباح إذا كان فى مكان متضايق كالمشكاة كان أضوأ له وأجمع لنوره بسبب انضمام الشعاع المنعكس منه إلى أصل الشعاع بخلاف المكان المتسع فإن الضوء ينبث فيه وينتشر والقنديل أعون شىء على زيادة الإنارة وكذلك الزيت وصفاؤه وليس وراء هذه المراتب مما يزيد نورها إشراقا ويمده بإضاءة مرتبة أخرى عادة هذا وجعل النور عبارة عن النور المشبه به مما لا يليق بشأن التنزيل الجليل ﴿ يهدى الله لنوره ﴾ أى يهدى هداية خاصة موصلة إلى المطلوب حتما لذلك النور المتضاعف العظيم الشأن وإظهاره فى مقام الإضمار لزيادة تقريره وتأكيد فخامته الذاتية بفخامته الإضافية الناشئة من إضافته إلى ضميره عز وجل ﴿ من يشاء ﴾ هدايته من عباده بأن يوفقهم لفهم ما فيه من دلائل حقيقته وكونه من عند الله تعالى من الإعجاز والإخبار

عن الغيب وغير ذلك من موجبات الإيمان به وفيه إيذان بأن مناط هذه الهداية وملاكها ليس إلا مشيئته تعالى وأن تظاهر الأسباب بدونها بمعزل من الإفضاء إلى المطالب .

﴿ ويضرب الله الأمثال للناس ﴾ فى تضاعيف الهداية حسبما يقتضى حالهم فإن له دخلا عظيما فى باب الإرشاد لأنه إبراز للمعقول فى هيئة المحسوس وتصوير لأوابد المعانى بصورة المأنوس ولذلك مثل نوره المعبر به عن القرآن المبين بنور المشكاة وإظهار الاسم الجليل فى مقام الإضمار للإيذان باختلاف حال ما أسند إليه تعالى من الهداية الخاصة وضرب الأمثال الذى هو من قبيل الهداية العامة كما يفصح عنه تعليق الأولى بمن يشاء والثانية بالناس كافة ﴿ والله بكل شىء عليم ﴾ معقولا كان أو محسوسا ظاهراً كان أو باطنا ومن قضيته أن تتعلق مشيئته بهداية من يليق بها ويستحقها من الناس دون من عداهم لمخالفته الحكمة التى عليها مبنى التكوين والتشريع وأن تكون هدايته العامة على فنون مختلفة وطرائق شتى حسبما تقتضيه أحوالهم والجملة اعتراض تذييلى مقرر لما قبله وإظهار الاسم الجليل لتأكيد استقلال الجملة والإشعار بعلة الحكم وبما ذكر من اختلاف حال المحكوم به ذاتا وتعلقا ﴿ فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ﴾ لما ذكر شأن القرآن الكريم فى بيانه للشرائع والأحكام ومباديها وغاياتها المترتبة عليها من الثواب والعقاب وغير ذلك من أحوال الآخرة وأهوالها وأشير إلى كونه فى غاية ما يكون من التوضيح والإظهار حيث مثل بما فصل من نور المشكاة وأشير إلى أن ذلك النور مع كونه فى أقصى مراتب الظهور إنما يهتدى بهداه من تعلقت مشيئة الله تعالى بهدايته دون من عداه عقب ذلك بذكر الفريقين وتصوير بعض أعمالهم المعربة عن كيفية حالهم فى الاهتداء وعدمه والمراد بالبيوت المساجد كلها حسبما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما وقيل هى المساجد التى بناها نبى من أنبياء الله تعالى : الكعبة التى بناها ابراهيم واسمعيل عليهما السلام وبيت المقدس الذى بناه داود وسليمان عليهما السلام ومسجد المدينة ومسجد قباء اللذان بناهما رسول الله صلى الله عليه وسلم وتنكيرها

للتفخيم والمراد بالإذن فى رفعها الأمر ببنائها رفيعة لا كسائر البيوت وقيل هو الأمر برفع مقدارها بعبادة الله تعالى فيها فيكون عطف الذكر عليه من قبيل العطف التفسيرى وأياما كان ففى التعبير عنه بالإذن تلويح بأن اللائق بحال المأمور أن يكون متوجها إلى المأمور به قبل ورود الأمر به ناويا لتحقيقه كأنه مستأذن فى ذلك فيقع الأمر به موقع الإذن فيه والمراد بذكر اسمه تعالى ما يعم جميع أذكاره تعالى وكلمة فى متعلقة بقوله تعالى ﴿ يسبح له ﴾ وقوله تعالى ﴿ فيها ﴾ تكرير لها للتأكيد والتذكير لما بينهما من الفاصلة وللايذان بأن التقديم للاهتمام لا لقصر التسبيح على الوقوع فى البيوت فقط وأصل التسبيح التنزيه والتقديس يستعمل باللام وبدونها أيضاً كما فى قوله تعالى (سبح اسم ربك الأعلى) قالوا أريد به الصلوات المفروضة كما ينبىء عنه تعيين الأوقات بقوله تعالى ﴿ بالغدو والآصال ﴾ أى بالغدوات والعشايا على أن الغدو إما جمع غداة كقنى فى جمع قناة كما قيل أو مصدر أطلق على الوقت حسبما يشعر به اقترانه بالآصال وهو جمع أصيل وهو العشى وهو شامل لأوقات ماعدا صلاة الفجر المؤداة بالغداة ويجوز أن يراد به نفس التنزيه على أنه عبارة عما يقع منه فى أثناء الصلوات وأوقاتها لزيادة شرفه وإنافته على سائر أفراده أو عما يقع فى جميع الأوقات وإفراد طرفى النهار بالذكر لقيامهما مقام كلها لكونهما العمدة فيها بكونهما مشهورين وكونهما أشهر ما يقع فيه المباشرة للأعمال والاشتغال بالأشغال وقرىء والإيصال وهو الدخول فى الأصيل وقوله تعالى :

﴿ رجال ﴾ فاعل يسبح وتأخيره عن الظروف لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر ولأن فى وصفه نوع طول فيخل تقديمه بحسن الانتظام وقرىء يسبح على البناء للمفعول بإسناده إلى أحد الظروف ورجال مرفوع بما ينبىء عنه حكاية الفعل من غير تسمية الفاعل على طريقة قوله ليبك يزيد ضارع لخصومة كأنه قيل من يسبح له فقيل يسبح له رجال وقرىء تسبح بتأنيث الفعل مبنيا للفاعل لأن جمع التكسير قد يعامل معاملة المؤنث ومبنيا للمفعول على أن يسند إلى أوقات الغدو والآصال بزيادة الباء وتجعل الأوقات

مسبحة مع كونها مسبحا فيها أو يسند إلى ضمير التسبيحة أى تسبح له التسبيحة على المجاز المسوغ لإسناده إلى الوقتين كما خرجوا قراءة أبى جعفر ليجزى قوما أى ليجزى الجزاء قوما بل هذا أولى من ذلك إذ ليس هنا مفعول صريح ﴿ لاتلهيهم تجارة ﴾ صفة لرجال مؤكدة لما أفاده التنكير من الفخامة مفيدة لكمال تبتلهم إلى الله تعالى واستغراقهم فيما حكى عنهم من التسبيح من غير صارف يلويهم ولا عاطف يثنيهم كائنا ما كان وتخصيص التجارة بالذكر لكونها أقوى الصوارف عندهم وأشهرها أى لايشغلهم نوع من أنواع التجـــارة ﴿ ولا بيع ﴾ أى ولا فرد من أفراد البياعات وإن كان فى غاية الربح وإفراده بالذكر مع اندراجه تحت التجارة للإيذان بإنافته على سائر أنواعها لأن ربحه متيقن ناجز وربح ما عداه متوقع فى ثانى الحال عند البيع فلم يلزم من نفى إلهاء ما عداه نفىَ إلهائه ولذلك كررت كلمة لا لتذكير النفى وتأكيده وقد نقل عن الواقدى أن المراد بالتجارة هو الشراء لأنه أصلها ومبدؤها وقيل هو الجلب لأنه الغالب فيها ومنه يقال تجر فى كذا أى جلبه .

﴿ عن ذكر الله ﴾ بالتسبيح والتحميد ﴿ وإقام الصلاة ﴾ أى إقامتها لمواقيتها من غير تأخير وقد أسقطت التاء المعوضة عن العين الساقطة بالإعلال وعوض عنها الإضافة كما فى قوله :

* وأخلفوك عد الأمر الذى وعدوا *

أى عدة الأمر ﴿ وإيتاء الزكاة ﴾ أى المال الذى فرض إخراجه للمستحقين وإيراده ههنا وإن لم يكن مما يفعل فى البيوت لكونه قرينة لاتفارق إقامة الصلاة فى عامة المواضع مع ما فيه من التنبيه على أن محاسن أعمالهم غير منحصرة فيما يقع فى المساجد وكذلك قوله تعالى ﴿ يخافون ﴾ الخ فإنه صفة ثانية لرجال أو حال من مفعول لاتلهيهم وأياما كان فليس خوفهم مقصورا على كونهم فى فى المساجد وقوله تعالى ﴿ يوما ﴾ مفعول ليخافون لا ظرف له وقوله تعالى ﴿ تتقلب فيه القلوب والأبصار ﴾ صفة ليوما أى تضطرب وتتغير فى أنفسها من الهول والفزع وتشخص كما فى قوله تعالى ﴿ وإذ زاغت الأبصار وبلغت

القلوب الحناجر) أو تتغير أحوالها وتتقلب فتتفقه القلوب بعد أن كانت مطبوعا عليها وتبصر الأبصار بعد أن كانت عمياء أو تتقلب القلوب بين توقع النجاة وخوف الهلاك والإبصار من أى ناحية يؤخذ بهم ويؤتى كتابهم ﴿ ليجزيهم الله ﴾ متعلق بمحذوف يدل عليه ما حكى من أعمالهم المرضية أى يفعلون ما يفعلون من المداومة على التسبيح والذكر وإيتاء الزكاة والخوف من غير صارف لهم عن ذلك ليجزيهم الله تعالى ﴿ أحسن ما عملوا ﴾ أى أحسن جزاء أعمالهم حسبما وعدلهم بمقابلة حسنة واحدة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ﴿ ويزيدهم من فضله ﴾ أى يتفضل عليهم بأشياء لم توعد لهم بخصوصياتها أو بمقاديرها ولم تخطر ببالهم كيفياتها ولا كمياتها بل إنما وعدت بطريق الإجمال فى مثل قوله تعالى (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) وقوله عليه الصلاة والسلام حكاية عنه عز وجل « أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » وغير ذلك من المواعيد الكريمة التى من جملتها قوله تعالى :

﴿ والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ فإنه تذييل مقرر للزيادة ووعد كريم بأنه تعالى يعطيهم غير أجزية أعمالهم من الخيرات ما لا يفى من الحساب وأما عدم سبق الوعد بالزيادة ولو إجمالا وعدم خطورها ببالهم ولو بوجه ما فيأباه نظمها فى سلك الغاية والموصول عبارة عمن ذكرت صفاتهم الجميلة كأنه قيل والله يرزقهم بغير حساب ووضعه موضع ضميرهم للتنبيه بما فى حيز الصلة على أن مناط الرزق المذكور محض مشيئته تعالى لا أعمالهم المحكية كما أنها المناط لما سبق من الهداية لنوره تعالى لا لتظاهر الأسباب وللإيذان بأنهم ممن شاء الله تعالى أن يرزقهم كما أنهم ممن شاء الله تعالى أن يهديهم لنوره حسبما يعرب عنه ما فصل من أعمالهم الحسنة فإن جميع ما ذكر من الذكر والتسبيح وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وخوف اليوم الآخر وأهواله ورجاء الثواب مقتبس من القرآن الكريم الذى هو المعنى بالنور وبه يتم بيان أحوال من اهتدى بهداه على أوضح وجه وأجلاه هذا وقد قيل قوله تعالى (فى بيوت) الخ من تتمة التمثيل وكلمة فى

متعلقة بمحذوف هى صفة لمشكاة أى كائنة فى بيوت وقيل لمصباح وقيل لزجاجة وقيل متعلقة بيوقد والكل مما لا يليق بشأن التنزيل الجليل كيف لا وأن ما بعد قوله تعالى (ولو لم تمسسه نار) على ما هو الحق أو ما بعد قوله تعالى (نور على نور) على ما قيل إلى قوله تعالى (بكل شىء عليم) كلام متعلق بالممثل قطعا فتوسيطه بين أجزاء التمثيل مع كونه من قبيل الفصل بين الشجر ولحائه بالأجنبى يؤدى إلى كون ذكر حال المنتفعين بالتمثيل المهديين بنور القرآن الكريم بطريق الاستتباع والاستطراد مع كون بيان أضدادهم مقصودا بالذات ومثل هذا مما لا عهد به فى كلام الناس فضلا أن يحمل عليه الكلام المعجز ﴿ والذين كفروا ﴾ عطف على ما ينساق إليه ما قبله كأنه قيل الذين آمنوا أعمالهم حالا ومآلا كما وصف والذين كفروا ﴿ أعمالهم ﴾ أى أعمالهم التى هى من أبواب البر كصلة الأرحام وفك العناة وسقاية الحاج وعمارة البيت وإغاثة الملهوفين وقرى الأضياف ونحو ذلك مما لو قارنه الإيمان لاستتبع الثواب كما فى قوله تعالى (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم برماد) الآية ﴿ كسراب ﴾ وهو ما يرى فى الفلوات من لمعان الشمس عليها وقت الظهيرة فيظن أنه ماء يسرب أو يجرى ﴿ بقيعة ﴾ متعلق بمحذوف هو صفة لسراب أى كائن فى قاع وهى الأرض المنبسطة المستوية وقيل هى جمع قاع كجيرة جمع جار وقرىء بقيعات بتاء ممدودة كديمات إما على أنها جمع قيعة أو على أن الأصل قيعة قد أشبعت فتحة العين فتولد منها ألف ﴿ يحسبه الظمآن ماء ﴾ صفة أخرى لسراب وتخصيص الحسبان بالظمآن مع شموله لكل من يراه كائنا من كان من العطشان والريان لتكميل التشبيه بتحقيق شركة طرفيه فى وجه الشبه الذى هو المطلع المطمع والمقطع المؤيس ﴿ حتى إذا جاءه ﴾ أى إذا جاء العطشان ما حسبه ماء وقيل موضعه ﴿ لم يجده ﴾ أى ما حسبه ماء وعلق به رجاءه ﴿ شيئا ﴾ أصلا لا محققا ولا متوهما كما كان يراه من قبل فضلا عن وجدانه ماء وبه تم بيان أحوال الكفرة بطريق التمثيل وقوله تعالى :

﴿ ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب ﴾ بيان لبقية أحوالهم

العارضة لهم بعد ذلك بطريق التكملة لئلا يتوهم أن قصارى أمرهم هو الخيبة والقنوط كما هو شأن الظمآن ويظهر أنه يعتريهم بعد ذلك من سوء الحال ما لا قدر عنده للخيبة أصلا فليست الجملة معطوفة على لم يجده شيئا بل على ما يفهم منه بطريق التمثيل من عدم وجدان الكفرة من أعمالهم المذكورة عينا ولا أثرا كما فى قوله تعالى (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) كيف لا وأن الحكم بأن أعمال الكفرة كسراب يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا حكم بأنها بحيث يحسبونها فى الدنيا نافعة لهم فى الآخرة حتى إذا جاءوها لم يجدوها شيئا كأنه قيل حتى إذا جاء الكفرة يوم القيامة أعمالهم التى كانوا فى الدنيا يحسبونها نافعة لهم فى الآخرة لم يجدوها شيئا ووجدوا الله أى حكمه وقضاءه عند المجىء وقيل عند العمل فوفاهم أى أعطاهم وافيا كاملا حسابهم أى حساب أعمالهم المذكورة وجزاءها فإن اعتقادهم لنفعها بغير إيمان وعملهم بموجبه كفر على كفر موجب للعقاب قطعا وإفراد الضميرين الراجعين إلى الذين كفروا إما لإرادة الجنس كالظمآن الواقع فى التمثيل وإما للحمل على كل واحد منهم وكذا إفراد ما يرجع إلى أعمالهم، هذا وقد قيل نزلت فى عتبة بن أبى ربيعة بن أمية كان قد تعبد فى الجاهلية ولبس المسوح والتمس الدين فلما جاء الإسلام كفر

﴿ أو كظلمات ﴾ عطف على كسراب وكلمة أو للتنويع أثر ما مثلت أعمالهم التى كانوا يعتمدون عليها أقوى اعتماد ويفتخرون بها فى كل واد وناد بما ذكر من حال السراب مع زيادة حساب وعقاب مثلت أعمالهم القبيحة التى ليس فيها شائبة خيرية يغتر بها المغترون بظلمات كائنة ﴿ فى بحر لجى ﴾ أى عميق كثير الماء منسوب إلى اللج وهو معظم ماء البحر وقيل إلى اللجة وهى أيضا معظمه ﴿ يغشاه ﴾ صفة أخرى للبحر أى يستره ويغطيه بالكلية ﴿ موج ﴾ وقوله تعالى ﴿ من فوقه موج ﴾ جملة من مبتدأ وخبر محلها الرفع على أنها صفة لموج أو الصفة هى الجار والمجرور وموج الثانى فاعل له لاعتماده على الموصوف والكلام فيه كما مر فى قوله تعالى (نور على نور) أى يغشاه أمواج متراكمة متراكبة

بعضها على بعض ، وقوله تعالى ﴿ من فوقه سحاب ﴾ صفة لموج الثانى على أحد الوجهين المذكورين أى من فوق ذلك الموج سحاب ظلمانى ستر أضواء النجوم وفيه إيماء إلى غاية تراكم الأمواج وتضاعفها حتى كأنها بلغت السحاب ﴿ ظلمات ﴾ خبر مبتدأ محذوف أى هى ظلمات ﴿ بعضها فوق بعض ﴾ أى متكاثفة متراكمة وهذا بيان لكمال شدة الظلمات كما أن قوله تعالى نور على نور بيان لغاية قوة النور خلو أن ذلك متعلق بالمشبه وهذا بالمشبه به كما يعرب عنه ما بعده وقرىء بالجر على الإبدال من الأولى وقرىء بإضافة السحاب إليها ﴿ إذا أخرج ﴾ أى من ابتلى بها وإضماره من غير ذكره للدلالة المعنى عليه دلالة واضحة ﴿ يده ﴾ وجعلها بمرأى منه قريبة من عينه لينظر إليها ﴿ لم يكد يراها ﴾ وهى أقرب شىء منه فضلا عن أن يراها ﴿ ومن لم يجعل الله له نورا ﴾ الخ اعتراض تذييلى جىء به لتقرير ما أفاده التمثيل من كون أعمال الكفرة كما فصل وتحقيق أن ذلك لعدم هدايته تعالى إياهم لنوره وإيراد الموصول للإشارة بما فى حيز الصلة إلى علة الحكم وأنهم ممن لم يشأ الله تعالى هدايتهم أى ومن لم يشاء الله أن يهديه لنوره الذى هو القرآن هداية خاصة مستتبعة للاهتداء حتما ولم يوفقه للإيمان به ﴿ فما له من نور ﴾ أى فما له هداية ما من أحد أصلا .

إشعار بمنزلة النبي صلى الله عليه وسلم

وقوله تعالى ﴿ ألم تر ﴾ الخ استئناف خوطب به النبى عليه الصلاة والسلام للإيذان بأنه تعالى قد أفاض عليه الصلاة والسلام أعلى مراتب النور وأجلاها وبين له من أسرار الملك والملكوت أدقها وأخفاها والهمزة للتقرير أى قد علمت علما يقينيا شبيها بالمشاهدة فى القوة والرصانة بالوحى الصريح والاستدلال الصحيح ﴿ أن الله يسبح له ﴾ أى ينزهه تعالى على الدوام فى ذاته وصفاته وأفعاله عن كل ما لا يليق بشأنه الجليل من نقص أو خلل ﴿ من فى السموات والأرض ﴾ أى ما فيهما إما بطريق الاستقرار فيهما من العقلاء وغيرهم كائنا

ما كان أو بطريق الجزئية منهما تنزيها معنويا تفهمه العقول السليمة فإن كل موجود من الموجودات الممكنة مركبا كان أو بسيطا فهو من حيث ماهيته ووجوده وأحواله يدل على وجود صانع واجب الوجود متصف بصفات الكمال مقدس عن كل مالا يليق بشأن من شئونه الجليلة وقد نبه على كمال قوة تلك الدلالة وغاية وضوحها حيث عبر عنها بما يخص العقلاء من التسبيح الذى هو أقوى مراتب التنزيه وأظهرها تنزيلا للسان الحال منزلة لسان المقال وأكد ذلك بإيثار كلمة من على ما كأن كل شىء مما عز وهان وكل فرد من أفراد الأعراض والأعيان عاقل ناطق ومخبر صادق بعلو شأنه تعالى وعزة سلطانه وتخصيص التنزيه بالذكر مع دلالة ما فيهما على اتصافه تعالى بنعوت الكمال أيضاً لما أن مساق الكلام لتقبيح حال الكفرة فى إخلالهم بالتنزيه بجعلهم الجمادات شركاء له فى الألوهية ونسبتهم إياه إلى اتخاذ الولد تعالى عن ذلك علوا كبيرا وحمل التسبيح على ما يليق بكل نوع من أنواع المخلوقات بأن يراد به معنى مجازى شامل لتسبيح العقلاء وغيرهم حسبما هو المتبادر من قوله تعالى : (كل قدعلم صلاته وتسبيحه) يرده أن بعضاً من العقلاء وهم الكفرة من الثقلين لا يسبحونه بذلك المعنى قطعا وإنما تسبيحهم ما ذكر من الدلالة التى يشاركهم فيها غير العقلاء أيضاً وفيه مزيد تخطئة لهم وتعبير ببيان أنهم يسبحونه تعالى باعتبار أخس جهاتهم التى هى الجمادية والجسمية والحيوانية ولا يسبحونه باعتبار أشرفها التى هى الإنسانية .

﴿ والطير ﴾ بالرفع عطفا على من وتخصيصها بالذكر مع اندراجها فى جملة ما فى الأرض لعدم استمرار قرارها فيها واستقلالها بصنع بارع وإنشاء رائع قصد بيان تسبيحها من تلك الجهة لوضوح إنبائها عن كمال قدرة صانعها ولطف تدبير مبدعها حسبما يعرب عنه التقييد بقوله تعالى : ﴿ صافات ﴾ أى تسبحه تعالى حال كونها صافات أجنحتها فإن إعطاءه تعالى للأجرام الثقيلة ما تتمكن به من الوقوف فى الجو والحركة كيف تشاء من الأجنحة والأذناب

الخفيفة وإرشادها إلى كيفية استعمالها بالقبض والبسط حجة نيرة واضحة المكنون وآية بينة لقوم يعقلون دالة على كمال قدرة الصانع المجيد وغاية حكمة المبدىء المعيد ، وقوله تعالى ﴿ كل قد علم صلاته وتسبيحه ﴾ بيان لكمال عراقة كل واحد بما ذكر فى التنزيه ورسوخ قدمه فيه بتمثيل حاله بحال من يعلم ما يصدر عنه من الأفاعيل فيفعلها عن قصد ونية لا عن اتفاق بلا روية وقد أدمج فى تضاعيفه الإشارة إلى أن لكل واحد من الأشياء المذكورة مع ما ذكر من التنزيه حاجةذاتية إليه تعالى واستفاضة منه لما يهمه بلسان استعداده وتحقيقه أن كل واحد من الموجودات الممكنة فى حد ذاته بمعزل من استحقاق الوجود لكنه مستعد لأن يفيض عليه منه تعالى ما يليق بشأنه من الوجود وما يتبعه من الكمالات ابتداء وبقاء فهو مستفيض منه تعالى على الاستمرار فيفيض عليه فى كل آن من فيوض الفنون المتعلقة بذاته وصفاته مالا يحيط به نطاق البيان بحيث لو انقطع ما بينه وبين العناية الربانية من العلاقة لانعدم بالمرة وقد عبر عن تلك الاستفاضة المعنوية بالصلاة التى هى الدعاء والابتهال لتكميل التمثيل وإفادة المزايا المذكورة فيما مر على التفصيل وتقديمها على التسبيح فى الذكر لتقدمها عليه فى الرتبة هذا ويجوز أن يكون العلم على حقيقته ويراد به مطلق الإدراك وبما ناب عنه التنوين فى كل أنواع الطير وأفرادها وبالصلاة والتسبيح ما ألهمه الله تعالى كل واحد منها من الدعاء والتسبيح المخصوصين به لكن لا على أن يكون الطير معطوفاً على كلمة من مرفوعا برافعها فإنه يؤدى إلى أن يراد بالتسبيح معنى مجازى شامل للتسبيح المقالى والحالى من العقلاء وغيرهم وقد عرفت ما فيه بل بفعل مضمر أريد به التسبيح المخصوص بالطير معطوف على المذكور كما مر فى قوله تعالى (وكثير من الناس) أى وتسبيح الطير تسبيحا خاصا بها حال كونها صافات أجنحتها وقوله تعالى (كل قد علم صلاته وتسبيحه) أى دعاءه وتسبيحه اللذين ألهمهما الله عز وجل إياه لبيان كمال رسوخه فيهما وأن صدورهما عنه ليس بطريق الاتفاق بلا روية بل عن علم وإيقان من غير إخلال بشىء منهما حسبما ألهمه الله تعالى فإن إلهامه تعالى لكل نوع من أنواع

المخلوقات علوما دقيقة لا يكاد يهتدى إليه جهابذة العقلاء مما لا سبيل إلى إنكاره أصلا كيف لا وأن القنفذ مع كونه أبعد الأشياء من الإدراك قالوا إنه يحس بالشمال والجنوب قبل هبوبها فيغير المدخل إلى جحره حتى روي أنه كان بقسطنطينية قبل الفتح الإسلامى رجل قد أثرى بسبب أنه كان ينذر الناس بالرياح قبل هبوبها وينتفعون بإنذاره بتدارك أمور سفائنهم وغيرها وكان السبب فى ذلك أنه كان يقتنى فى داره قنفذا يستدل بأحواله على ما ذكر وتخصيص تسبيح الطير بهذا المعنى بالذكر لما أن أصواتها أظهر وجودا وأقرب حملا على التسبيح وقوله تعالى : ﴿ والله عليم بما يفعلون ﴾ أى ما يفعلونه اعتراض مقرر لمضمون ما قبله وما على الوجه الأول عبارة عما ذكر من الدلالة الشاملة لجميع الموجودات من العقلاء وغيرهم والتعبير عنها بالفعل مسندا إلى ضمير العقلاء لما مر وعلى الثانى إما عبارة عنها وعن التسبيح الخاص بالطير معا أو عن تسبيح الطير فقط فالفعل على حقيقته وإسناده إلى ضمير العقلاء لما مر والاعتراض حينئذ مقرر لتسبيح الطير فقط وعلى الأولين لتسبيح الكل هذا وقد قيل إن الضمير فى قوله تعالى (قد علم) لله عز وجل وفى صلاته وتسبيحه لكل أى قد علم الله تعالى صلاة كل واحد مما فى السموات والأرض وتسبيحه فالاعتراض حينئذ مقرر لمضمونه على الوجهين لكن لا على أن تكون ما عبارة عما تعلق به علمه تعالى من صلاته وتسبيحه بل عن جميع أحواله العارضة له وأفعاله الصادرة عنه وهما داخلتان فيها دخولا أوليا .

﴿ ولله ملك السموات والأرض ﴾ لا لغيره لأنه الخالق لها ولما فيهما من الذوات والصفات وهو المتصرف فى جميعها إيجادا وإعداما بدءا وإعادة وقوله تعالى : ﴿ وإلى الله ﴾ أى إليه تعالى خاصة لا إلى غيره ﴿ المصير ﴾ أى رجوع الكل بالفناء والبعث بيان لاختصاص الملك به تعالى فى المعاد أثر بيان اختصاصه به تعالى فى المبدأ وإظهار الاسم الجليل فى موقع الإضمار لتربية المهابة والإشعار بعلة الحكم ﴿ ألم تر أن الله يزجى سحابا ﴾ الإزجاء سوق

الشيء برفق وسهولة غلب فى سوق شيء يسير أو غير معتد به ومنه البضاعة المزجاة ففيه إيماء إلى أن السحاب بالنسبة إلى قدرته تعالى مما لا يعتد به ﴿ ثم يؤلف بينه ﴾ أى بين أجزائه بضم بعضها إلى بعض وقرىء يؤلف بغير همزة ﴿ ثم يجعله ركاما ﴾ أى متراكما بعضه فوق بعض ﴿ فترى الودق ﴾ أى المطر إثر تراكمه وتكاثفه ، وقوله تعالى ﴿ يخرج من خلاله ﴾ أى من فتوقه حال من الودق لأن الرؤية بصرية وفى تعقيب الجعل المذكور برؤيته خارجا لا بخروجه من المبالغة فى سرعة الخروج على طريقة قوله تعالى (فقلنا اضرب بعصاك البحر فانفلق) ومن الاعتناء بتقرير الرؤية مالا يخفى والخلال جمع خلل كجبال وجبل وقيل مفرد كحجاب وحجاز ويؤيده أنه قرىء من خلله ﴿ وينزل من السماء ﴾ من الغمام فإن كل ماعلاك سماء ﴿ من جبال ﴾ أى من قطع عظام تشبه الجبال فى العظم كائنة ﴿ فيها ﴾ وقوله تعالى ﴿ من برد ﴾ مفعول ينزل على أن من تبعيضية والأوليان لابتداء الغاية على أن الثانية بدل اشتمال من الأولى بإعادة الجار أى ينزل مبتدئا من السماء من جبال فيها بعض برد ، وقيل المفعول محذوف ومن برد بيان للجبال أى ينزل مبتدئا من السماء من جبال فيها من جنس البرد بردا والأول أظهر لخلوه عن ارتكاب الحذف والتصريح ببعضية المنزل وقيل المفعول من جبال على أن من تبعيضية ومن برد بيان للجبال أى ينزل من السماء بعض جبال كائنة فيها من برد أى مشبهة بالجبال فى الكثرة وأياما كان لتقديم الجار والمجرور على المفعول لما مر غير مرة من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر وقيل المراد بالسماء المظلة وفيها جبال من برد كما أن فى الأرض جبالا من حجر وليس فى العقل ما ينفيه من قاطع والمشهور أن الأبخرة إذا تصاعدت ولم تحللها حرارة فبلغت الطبقة الباردة من الهواء وقوى البرد اجتمع هناك وصار سحابا وإن لم يشتد البرد تقاطر مطرا وإن اشتد فإن وصل إلى الأجزاء البخارية قبل اجتماعها نزل ثلجا وإلا نزل بردا وقد يبرد الهواء بردا مفرطا فينقبض وينعقد سحابا وينزل منه المطر أو الثلج وكل ذلك مستند إلى إرادة الله تعالى ومشيئته المبنية على الحكم والمصالح ﴿ فيصيب به ﴾ أى بما ينزله من البرد ﴿ من يشاء ﴾ أن يصيبه به فيناله من

ضرر فى نفسه وماله ﴿ ويصرفه عمن يشاء ﴾ أن يصرفه عنه فينجو من غائلته ﴿ يكاد سنابرقه ﴾ أى ضوء برق السحاب الموصوف بما مر من الإزجاء والتأليف وغيرهما وإضافة البرق إليه قبل الإخبار بوجوده فيه للإيذان بظهور أمره واستغنائه عن التصريح به وقرىء بالمد بمعنى الرفعة والعلو وبإدغام الدال فى السين وبرقه بفتح الراء على أنه جمع برقة وهى مقدار من البرق كالغرفة وبضمها للاتباع لضمة الباء ﴿ يذهب بالأبصار ﴾ أى يخطفها من فرط الإضاءة وسرعة ورودها وفى إطلاق الأبصار مزيد تهويل لأمره وبيان لشدة تأثيره فيها كأنه يكاد يذهب بها ولو عند الإغماض وهذا من أقوى الدلائل على كمال القدرة من حيث أنه توليد للضد من الضد وقرىء يذهب من الإذهاب على زيادة الباء ﴿ يقلب الله الليل والنهار ﴾ بالمعاقبة بينهما أو بنقص أحدهما وزيادة الآخر أو بتغير أحوالهما بالحر والبرد وغيرهما مما يقع فيهما من الأمور التى من جملتها ما ذكر من إزجاء السحاب وما ترتب عليه .

﴿ إن فى ذلك ﴾ إشارة إلى ما فصل آنفا وما فيه من معنى البعد مع قرب المشار اليه للإيذان بعلو رتبته وبعد منزلته ﴿ لعبرة ﴾ أى لدلالة واضحة على وجود الصانع القديم ووحدته وكمال قدرته وإحاطة علمه بجميع الأشياء ونفاذ مشيئته وتنزهه عما لا يليق بشأنه العلى ﴿ لأولى الأبصار ﴾ لكل من له بصر ﴿ والله خلق كل دابة ﴾ أى كل حيوان يدب على الأرض وقرىء خالق كل دابة بالإضافة ﴿ من ماء ﴾ هو جزء مادته أو ماء مخصوص هو النطفة فيكون تنزيلا للغالب منزلة الكل لأن من الحيوانات ما يتولد لا عن نطفة وقيل من ماء متعلق بدابة وليست صلة لخلق ﴿ فمنهم من يمشى على بطنه ﴾ كالحية وتسمية حركتها مشيا مع كونها زحفا بطريق الاستعارة أو المشاكلة ﴿ ومنهم من يمشى على رجلين ﴾ كالإنس والطير ﴿ ومنهم من يمشى على أربع ﴾ كالنعم والوحش وعدم التعرض لما يمشى على أكثر من أربع كالعناكب ونحوها من الحشرات لعدم الاعتداد بها وتذكير الضمير فى منهم لتغليب العقلاء والتعبير عن الأصناف بكلمة من ليوافق التفصيل الإجمال والترتيب لتقديم ما هو أعرف فى

القدرة ﴿ يخلق الله ما يشاء ﴾ مما ذكر ومما لم يذكر بسيطا كان أو مركبا على ما يشاء من الصور والأعضاء والهيئات والحركات والطبائع والقوى والأفاعيل مع اتحاد العنصر وإظهار الاسم الجليل فى موضع الإضمار لتفخيم شأن الخلق المذكور والإيذان بأنه من أحكام الألوهية ﴿ إن الله على كل شىء قدير ﴾ فيفعل ما يشاء كما يشاء وإظهار الجلالة لما ذكر مع تأكيد استقلال الاستئناف التعليلى ﴿ لقد أنزلنا آيات مبينات ﴾ أى لكل ما يليق بيانه من الأحكام الدينية والأسرار التكوينية ﴿ والله يهدى من يشاء ﴾ أن يهديه بتوفيقه للنظر الصحيح فيها وإرشاده إلى التأمل فى مطاويها ﴿ إلى صراط مستقيم ﴾ موصل إلى حقيقة الحق والفوز بالجنة .

أحوال غير المهديين

﴿ ويقولون آمنا بالله وبالرسول ﴾ شروع فى بيان أحوال بعض من لم يشأ الله هدايته إلى الصراط المستقيم قال الحسن نزلت فى المنافقين الذين كانوا يظهرون الإيمان ويسرون الكفر وقيل نزلت فى بشر المنافق خاصم يهودياً فدعاه إلى كعب بن الأشرف واليهودى يدعوه إلى النبى عليه الصلاة والسلام وقيل فى المغيرة بن وائل خاصم عليا رضى الله عنه فى أرض وماء فأبى أن يحاكم إلى الرسول عليه الصلاة والسلام وأياما ما كان فصيغة الجمع للإيذان بأن للقائل طائفة يساعدونه ويشايعونه فى تلك المقالة كما يقال بنو فلان قتلوا فلانا والقاتل واحد منهم ﴿ وأطعنا ﴾ أى أطعناهما فى الأمر والنهى ﴿ ثم يتولى ﴾ عن قبول حكمه ﴿ فريق منهم من بعد ذلك ﴾ أى من بعدما صدر عنهم ما صدر من ادعاء الإيمان بالله وبالرسول والطاعة لهما على التفصيل ومافى ذلك من معنى البعد للإيذان بكونه أمرا معتدا به واجب المراعاة ﴿ وما أولئك ﴾ إشارة إلى القائلين لا إلى الفريق المتولى منهم فقط لعدم اقتضاء نفى الإيمان عنهم نفيه عن الأولين بخلاف العكس فإن نفيه عن القائلين مقتض لنفيه عنهم على أبلغ وجه وآكده وما فيه من معنى البعد للإشعار ببعد منزلتهم فى الكفر والفساد أى وما أولئك الذين يدعون

الإيمان والطاعة ثم يتولى بعضهم الذين يشاركون فى العقد والعمل ﴿ بالمؤمنين ﴾ أى المؤمنين حقيقة كما يعرب عنه اللام أى ليسوا بالمؤمنين المعهودين بالإخلاص فى الإيمان والثبات عليه ﴿ وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم ﴾ أى الرسول ﴿ بينهم ﴾ لأنه المباشر حقيقة للحكم وان كان ذلك حكم الله حقيقة وذكر الله تعالى لتفخيمه عليه السلام والإيذان بجلالة محله عنده تعالى ﴿ إذا فريق منهم معرضون ﴾ أى فاجأ فريق منهم الإعراض عن المحاكمة إليه عليه السلام لكون الحق عليهم وعلمهم بأنه عليه السلام يحكم بالحق عليهم وهو شرح للتولى ومبالغة فيه ﴿ وإن يكن لهم الحق ﴾ لا عليهم ﴿ يأتوا إليه مذعنين ﴾ منقادين لجزمهم بأنه عليه السلام يحكم لهم وإلى صلة ليأتوا فإن الإتيان والمجىء يعديان بإلى أو لمذعنين على تضمين معنى الإسراع والإقبال كما فى قوله تعالى (فأقبلوا اليه يزفون) والتقديم للاختصاص ﴿ أفى قلوبهم مرض ﴾ إنكار واستقباح لإعراضهم المذكور وبيان لمنشئه بعد استقصاء عدة من القبائح المحققة فيهم والمتوقعة منهم وترديد المنشئية بينها فمدار الاستفهام ليس نفس ما وليته الهمزة وأم من الأمور الثلاثة بل هو منشئيتها له كأنه قيل أذلك أى إعراضهم المذكور لأنهم مرضى القلوب لكفرهم ونفاقهم .

﴿ أم ﴾ لأنهم ﴿ ارتابوا ﴾ فى أمر نبوته عليه السلام مع ظهور حقيتها ﴿ أم ﴾ لأنهم ﴿ يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ﴾ ثم أضرب عن الكل وأبطلت منشئيته وحكم بأن المنشأ شىء آخر من شنائعهم حيث قيل ﴿ بل أولئك هم الظالمون ﴾ أى ليس ذلك لشىء مما ذكر أما الأولان فلأنه لو كان لشىء منهما لأعرضوا عنه عليه السلام عند كون الحق لهم ولما أتوا إليه عليه السلام مذعنين لحكمه لتحقق نفاقهم وارتيابهم حينئذ أيضاً وأما الثالث فلانتفائه رأسا حيث كانوا لا يخافون الحيف أصلا لمعرفتهم بتفاصيل أحواله عليه السلام فى الأمانة والثبات على الحق بل لأنهم هم الظالمون يريدون أن يظلموا من له الحق عليهم ويتم لهم جحوده فيأبون المحاكمة إليه عليه الصلاة والسلام لعلمهم بأنه

عليه الصلاة والسلام يقضى عليهم بالحق فمناط النفى المستفاد من الإضراب فى الأولين هو وصف منشئيهما للإعراض فقط مع تحققهما فى نفسهما وفى الثالث هو الأصل والوصف جميعا هذا وقد خص الارتياب بماله منشأ مصحح لعروضه لهم فى الجملة والمعنى أم ارتابوا بأن رأوا منه عليه الصلاة والسلام تهمة فزالت ثقتهم ويقينهم به عليه الصلاة والسلام فمدار النفى حينئذ نفس الارتياب ومنشئيته معا فتأمل فيما ذكر على التفصيل ودع عنك ما قيل وقيل حسبما يقتضيه النظر الجليل .

﴿ إنما كان قول المؤمنين ﴾ بالنصب على أنه خبر كان وأن مع مافى حيزها اسمها وقرىء بالرفع على العكس والأول أقوى صناعة لأن الأولى للاسمية ماهو أوغل فى التعريف وذلك هو الفعل المصدر بأن إذ لاسبيل اليه للتنكير بخلاف قول المؤمنين فإنه يحتمله كما اذا اعتزلت عنه الإضافة لكن قراءة الرفع أقعد بحسب المعنى وأوفى لمقتضى المقام لما ان مصب الفائدة وموقع البيان فى الجمل هو الخبر فالأحق بالخبرية ما هو أكثر إفادة وأظهر دلالة على الحدوث وأوفر اشتمالا على نسب خاصة بعيدة من الوقوع فى الخارج وفى ذهن السامع ولاريب فى أن ذلك ههنا فى أن مع مافى حيزها أتم وأكمل فاذا هو أحق بالخبرية وأما ما تفيده الإضافة من النسبة المطلقة الإجمالية فحيث كانت قليلة الجدوى سهلة الحصول خارجاً وذهنا كان حقها أن تلاحظ ملاحظة مجملة وتجعل عنوانا للموضوع فالمعنى إنما كان مطلق القول الصادر عن المؤمنين ﴿ إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم ﴾ أى الرسول عليه الصلاة والسلام ﴿ بينهم ﴾ أى وبين خصومهم سواء كانوا منهم أو من غيرهم ﴿ أن يقولوا سمعنا وأطعنا ﴾ أى خصوصية هذا القول المحكى عنهم لاقولا آخر أصلا وأما قراءة النصب فمعناها إنما كان قول المؤمنين أى إنما كان قولا لهم عند الدعوة خصوصية قولهم المحكى عنهم ففيه من جعل أخص النسبتين وأبعدهما وقوعا وحضورا فى الأذهان وأحقهما بالبيان مفروغا عنها عنوانا للموضوع وإبراز ما هو بخلافها فى معرض

القصد الأصلى مالا يخفى وقرىء ليحكم على بناء الفعل للمفعول مسنداً إلى مصدره مجاوبا لقوله تعالى اذا دعوا أى ليفعل الحكم كما فى قوله تعالى (لقد تقطع بينكم) أى وقع التقطع بينكم .

﴿وأولئك﴾ إشارة إلى المؤمنين باعتبار صدور القول المذكور عنهم وما فيه من معنى البعد للإشعار بعلو رتبتهم وبعد منزلتهم فى الفضل أى أولئك المنعوتون بما ذكر من النعت الجميل ﴿هم المفلحون﴾ أى هم الفائزون بكل مطلب والناجون من كل محذور ﴿ومن يطع الله ورسوله﴾ استئناف جىء به لتقرير مضمون ماقبله من حسن حال المؤمنين وترغيب من عداهم فى الانتظام فى سلكهم أى ومن يطعهما كائنا من كان فيما أمرا به من الأحكام الشرعية اللازمة والمتعدية وقيل فى الفرائض والسنن والأول هو الأنسب بالمقام ﴿ويخش الله ويتقه﴾ بإسكان القاف المبنى على تشبيهه بكتف وقرىء بكسر القاف والهاء وبإسكان الهاء أى ويخش الله على ما مضى من ذنوبه ويتقه فيما يستقبل ﴿فأولئك﴾ الموصوفون بما ذكر من الطاعة والخشية والاتقاء ﴿هم الفائزون﴾ بالنعيم المقيم لا من عداهم ﴿وأقسموا بالله﴾ حكاية لبعض آخر من أكاذيبهم مؤكد بالأيمان الفاجرة وقوله تعالى ﴿جهد أيمانهم﴾ نصب على أنه مصدر مؤكد لفعله الذى هو فى حيز النصب على أنه حال من فاعل أقسموا أى أقسموا به تعالى يجهدون أيمانهم جهدا ومعنى جهد اليمين بلوغ غايتها بطريق الاستعارة من قولهم جهد نفسه إذا بلغ أقصى وسعها وطاقتها أى جاهدين بالغين أقصى مراتب اليمين فى الشدة والوكادة وقيل هو مصدر مؤكد لأقسموا أى أقسموا إقسام اجتهاد فى اليمين قال مقاتل من حلف بالله فقد اجتهد فى اليمين ﴿لئن أمرتهم﴾ أى بالخروج إلى الغزو لا عن ديارهم وأموالهم كما قيل لأنه حكاية لما كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم أينما كنت نكن معك لئن خرجت خرجنا وإن أقمت أقمنا وإن أمرتنا بالجهاد جاهدنا وقوله تعالى ﴿ليخرجن﴾ جواب لأقسموا بطريق حكاية فعلهم لا حكاية قولهم وحيث كانت مقالتهم هذه كاذبة ويمينهم فاجرة أمر عليه السلام بردها حيث قيل ﴿قل﴾ أى ردا عليهم وزجرا لهم عن التفوه

بها وإظهارا لعدم القبول لكونهم كاذبين فيها ﴿ لا تقسموا ﴾ أى على ما ينبىء عنه كلامكم من الطاعة وقوله تعالى ﴿ طاعة معروفة ﴾ خبر مبتدأ محذوف والجملة تعليل للنهى أى لا تقسموا على ما تدعون من الطاعة لأن طاعتكم طاعة نفاقية واقعة باللسان فقط من غير مواطأة من القلب وإنما عبر عنها بمعروفة للإيذان بأن كونها كذلك مشهور معروف لكل أحد وقرىء بالنصب والمعنى تطيعون طاعة معروفة هذا وحملها على الطاعة الحقيقية بتقدير ما يناسبها من مبتدأ أو خبر أو فعل مثل الذى يطلب منكم طاعة معروفة حقيقية لا نفاقية أو طاعة معروفة أمثل أو ليكن طاعة معروفة أو أطيعوا طاعة معروفة مما لا يساعده المقام .

﴿ إن الله خبير بما تعملون ﴾ من الأعمال الظاهرة والباطنة التى من جملتها ما تظهرونه من الأكاذيب المؤكدة بالأيمان الفاجرة وما تضمرونه فى قلوبكم من الكفر والنفاق والعزيمة على مخادعة المؤمنين وغيرها من فنون الشر والفساد والجملة تعليل للحكم بأن طاعتهم طاعة نفاقية تشعر بأن مدار شهرة أمرها فيما بين المؤمنين إخباره تعالى بذلك ووعيد لهم بأنه تعالى مجازيهم بجميع أعمالهم السيئة التى منها نفاقهم ﴿ قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴾ كرر الأمر بالقول لإبراز كمال العناية به والإشعار باختلافهما من حيث أن المقول فى الأول نهى بطريق الرد والتقريع كما فى قوله تعالى (اخسؤا فيها ولا تكلمون) وفى الثانى أمر بطريق التكليف والتشريع وإطلاق الطاعة المأمور بها عن وصف الصحة والإخلاص ونحوهما بعد وصف طاعتهم بما ذكر للتنبيه على أنها ليست من الطاعة فى شىء أصلا وقوله تعالى ﴿ فإن تولوا ﴾ خطاب للمأمورين بالطاعة من جهته تعالى وارد لتأكيد الأمر بها والمبالغة فى إيجاب الامتثال به والحمل عليه بالترهيب والترغيب لما أن تغيير الكلام المسوق لمعنى من المعانى وصرفه عن سننه المسلوك ينبىء عن اهتمام جديد بشأنه من المتكلم ويستجلب مزيد رغبة فيه من السامع كما أشير إليه فى تفسير قوله تعالى (ولو جئنا بمثله مددا) لاسيما إذا كان ذلك بتغيير الخطاب بالواسطة إلى الخطاب بالذات فإن فى خطابه تعالى إياهم بالذات بعد أمره تعالى إياهم بوساطته عليه السلام وتصديه لبيان حكم الامتثال بالأمر

والتولى عنه إجمالا وتفصيلا من إفادة ما ذكر من التأكيد والمبالغة ما لا غاية وراءه وتوهم أنه داخل تحت القول المأمور بحكايته من جهته تعالى وأنه أبلغ فى التبكيت تعكيس للأمر والفاء لترتيب مابعدها على تبليغه عليه السلام للمأمور به إليهم وعدم التصريح به للإيذان بغاية ظهور مسارعته عليه السلام إلى تبليغ ما أمر به وعدم الحاجة إلى الذكر أى إن تتولوا عن الطاعة إثر ما أمرتم بها .

﴿ فإنما عليه ﴾ أى فاعلموا أنما عليه عليه السلام ﴿ ما حمل ﴾ أى أمر به من التبليغ وقد شاهدتموه عند قوله أطيعوا الله والرسول ﴿ وعليكم ما حملتم ﴾ أى ما أمرتم به من الطاعة ولعل التعبير عنه بالتحميل للإشعار بثقله وكونه مؤنة باقية فى عهدتهم بعد كأنه قيل وحيث توليتم عن ذلك فقد بقيتم تحت ذلك الحمل الثقيل وقوله تعالى ما حمل محمول على المشاكلة ﴿ وأن تطيعوه ﴾ أى فيما أمركم به من الطاعة ﴿ تهتدوا ﴾ إلى الحق الذى هو المقصد الأصلى الموصل إلى كل خير والمنجى من كل شر وتأخيره عن بيان حكم التولى لما فى تقديم الترهيب من تأكيد الترغيب وتقريبه مما هو من بابه من الوعد الكريم وقوله تعالى ﴿ وماعلى الرسول إلا البلاغ المبين ﴾ اعتراض مقرر لما قبله من أن غائلة التولى وفائدة الإطاعة مقصورتان عليهم واللام إما للجنس المنتظم له عليه السلام انتظاما أوليا أو للعهد أى ما على جنس الرسول كائنا من كان أو ماعليه عليه السلام إلا التبليغ الموضح لكل ما يحتاج إلى الإيضاح أو الواضح على أن المبين من أبان بمعنى بان وقد علمتم أنه قد فعله بما لا مزيد عليه وإنما بقى ما حملتم وقوله تعالى ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم ﴾ استئناف مقرر لما فى قوله تعالى (وإن تطيعوه تهتدوا) من الوعد الكريم ومعرب عنه بطريق التصريح ومبين لتفاصيل ما أجمل فيه من فنون السعادات الدينية والدنيوية التى هى من آثار الاهتداء ومتضمن لما هو المراد بالطاعة التى نيط بها الاهتداء والمراد بالذين آمنوا كل من اتصف بالإيمان بعد الكفر على الإطلاق من أى طائفة كان وفى أى وقت كان لا من آمن من طائفة المنافقين فقط ولا من آمن بعد نزول الآية الكريمة فحسب ضرورة عموم

الوعد الكريم للكل كافة فالخطاب فى منكم لعامة الكفرة لا للمنافقين خاصة ومن تبعيضية .

﴿ وعملوا الصالحات ﴾ عطف على آمنوا داخل معه فى حيز الصلة وبه يتم تفسير الطاعة التى أمر بها ورتب عليها ما نظم فى سلك الوعد الكريم كما أشير إليه وتوسيط الظرف بين المعطوفين لإظهار أصالة الإيمان وعراقته فى استتباع الآثار والأحكام وللإيذان بكونه أول ما يطلب منهم وأهم ما يجب عليهم وأما تأخيره عنهما فى قوله تعالى (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما) فلأن من هناك بيانية والضمير للذين معه عليه السلام من خلص المؤمنين ولا ريب فى أنهم جامعون بين الإيمان والأعمال الصالحة مثابرون عليهما فلا بد من ورود بيانهم بعد ذكر نعوتهم الجليلة بكمالها ، هذا ومن جعل الخطاب للنبى عليه الصلاة والسلام وللأمة عموما على أن من تبعيضية أوله عليه السلام ولمن معه من المؤمنين خصوصا على أنها بيانية فقد نأى عما يقتضيه سياق النظم الكريم وسياقه بمنازل وأبعد عما يليق بشأنه عليه السلام بمراحل ﴿ليستخلفنهم فى الأرض﴾ جواب للقسم إما بالإضمار أو بتنزيل وعده تعالى منزلة القسم لتحقق إنجازه لا محالة أى ليجعلنهم خلفاء متصرفين فيها تصرف الملوك فى ممالكهم أو خلفا من الذين لم يكونوا على حالهم من الإيمان والأعمال الصالحة .

﴿ كما استخلف الذين من قبلهم ﴾ هم بنو إسرائيل استخلفهم الله عزوجل فى مصر والشام بعد إهلاك فرعون والجبابرة أو هم ومن قبلهم من الأمم المؤمنة التى أشير إليهم فى قوله تعالى (ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات) إلى قوله تعالى (فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم) ومحل الكاف النصب على أنه مصدر تشبيهى مؤكد للفعل بعد تأكيده بالقسم وما مصدرية أى ليستخلفنهم استخلافا كائنا كاستخلافه تعالى للذين من قبلهم وقرىء كما استخلف على البناء للمفعول فليس العامل فى الكاف حينئذ الفعل المذكور بل ما يدل

هو عليه من فعل مبنى هو للمفعول جار منه مجرى المطاوع فإن استخلافه تعالى إياهم مستلزم لكونهم مستخلفين لا محالة كأنه قيل ليستخلفنهم فى الأرض فيستخلفن فيها استخلافا أى مستخلفية كائنة كمستخلفية من قبلهم وقد مر تحقيقه فى قوله تعالى (كما سئل موسى من قبل) ومن هذا القبيل قوله تعالى (وأنبتها نباتا حسنا) على أحد الوجهين أى فنبتت نباتا حسنا وعليه قول من قال :

وعضة دهر يا ابن مروان لم تدع   من المال إلا مسحت أو مجلف

أى فلم يبق إلا مسحت الخ ﴿ وليمكنن لهم دينهم ﴾ عطف على ليستخلفنهم منتظم معه فى سلك الجواب وتأخيره عنه مع كونه أجل الرغائب الموعودة وأعظمها لما أن النفوس إلى الحظوظ العاجلة أميل فتصدير المواعيد بها فى الاستمالة أدخل والمعنى ليجعلن دينهم ثابتا مقررا بحيث يستمرون على العمل بأحكامه ويرجعون إليه فى كل ما يأتون وما يذرون والتعبير عن ذلك بالتمكين الذى هو جعل الشىء مكانا لآخر يقال مكن له فى الأرض أى جعلها مقرا له ومنه قوله تعالى (إنا مكنا له فى الأرض) ونظائره وكلمة فى للإيذان بأن ماجعل مقرا له قطعة منها لا كلها للدلالة على كمال ثبات الدين ورصانة أحكامه وسلامته من التغيير والتبديل لابتنائه على تشبيهه بالأرض فى الثبات والقرار مع ما فيه من مراعاة المناسبة بينه وبين الاستخلاف فى الأرض وتقديم صلة التمكين على مفعوله الصريح للمسارعة إلى بيان كون الموعود من منافعهم تشويقا لهم إليه وترغيبا لهم فى قبوله عند وروده ولأن فى توسيطها بينه وبين وصفه أعنى قوله تعالى ﴿ الذى ارتضى لهم ﴾ وفى تأخيرها عنه من الإخلال بجزالة النظم الكريم ما لا يخفى وفى إضافة الدين إليهم وهو دين الإسلام ثم وصفه بارتضائه لهم تأليف لقلوبهم ومزيد ترغيب فيه وفضل تثبيت عليه .

﴿ وليبدلنهم ﴾ بالتشديد وقرىء بالتخفيف من الإبدال ﴿ من بعد خوفهم ﴾ أى من الأعداء ﴿ أمنا ﴾ حيث كان أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة عشر سنين بل أكثر خائفين ثم هاجروا إلى المدينة وكانوا يصبحون فى السلاح ويمسون كذلك حتى قال رجل منهم ما يأتى علينا يوم نأمن فيه فقال عليه الصلاة

والسلام «لاتعبرون إلا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم فى الملأ العظيم محتبيا ليس معه حديدة » فأنزل الله عز وجل هذه الآية وأنجز وعده وأظهرهم على جزيرة العرب وفتح لهم بلاد الشرق والغرب وصاروا إلى حال يخافهم كل من عداهم وفيه من الدلالة على صحة النبوة للإخبار بالغيب على ما هو عليه قبل وقوعه ما لا يخفى وقيل المراد الخوف من العذاب والأمن منه فى الآخرة ﴿ يعبدوننى ﴾ حال من الموصول الأول مفيدة لتقييد الوعد بالثبات على التوحيد أو استئناف ببيان المقتضى للاستخلاف وما انتظم معه فى سلك الوعد ﴿ لا يشركون بى شيئاً ﴾ حال من الواو أى يعبدوننى غيرمشركين بى فى العبادة شيئاً ﴿ ومن كفر ﴾ أى اتصف بالكفر بأن ثبت واستمر عليه ولم يتأثر بما مر من الترهيب والترغيب فإن الإصرار عليه بعد مشاهدة دلائل التوحيد كفر مستأنف زائد على الأصل وقيل كفر بعد الإيمان وقيل كفر هذه النعمة العظيمة والأول هو الأنسب بالمقام .

﴿ بعد ذلك ﴾ أى بعد ذلك الوعد الكريم بما فصل من المطالب العالية المستوجبة لغاية الاهتمام بتحصيلها والسعى الجميل فى حيازتها ﴿ فأولئك ﴾ البعداء عن الحق التائهون فى تيه الغواية والضلال ﴿ هم الفاسقون ﴾ الكاملون فى الفسق والخروج عن حدود الكفر والطغيان ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام ويستدعيه النظام فإن خطابه تعالى للمأمورين بالطاعة على طريق الترهيب من التولى بقوله تعالى (فإن تولوا) الخ وترغيبه تعالى إياهم فى الطاعة بقوله تعالى (وإن تطيعوه تهتدوا) الخ ووعده تعالى إياهم على الإيمان والعمل الصالح بما فصل من الاستخلاف وما يتلوه من الرغائب الموعودة ووعيده على الكفر مما يوجب الأمر بالإيمان والعمل الصالح والنهى عن الكفر فكأنه قيل فآمنوا واعملوا صالحا وأقيموا أو فلا تكفروا وأقيموا وعطفه على أطيعوا الله مما لا يليق بجزالة النظم الكريم ﴿ وأطيعوا الرسول ﴾ أمرهم الله سبحانه وتعالى بالذات بما أمرهم به بواسطة الرسول عليه الصلاة والسلام من طاعته التى هى طاعته تعالى فى الحقيقة تأكيداً للأمر السابق

وتقريرا لمضمونه على أن المراد بالمطاع فيه جميع الأحكام الشرعية المنتظمة للآداب المرضية أيضاً أى وأطيعوه فى كل ما يأمركم به وينهاكم عنه أو تكميلا لما قبله من الأمرين الخاصين المتعلقين بالصلاة والزكاة على أن المراد بما ذكر ما عداهما من الشرائع أى وأطيعوه فى سائر ما يأمركم به الخ وقوله تعالى ﴿لعلكم ترحمون﴾ متعلق على الأول بالأمر الأخير المشتمل على جميع الأوامر وعلى الثانى بالأوامر الثلاثة أى افعلوا ما ذكر من الإقامة والإيتاء والإطاعة راجين أن ترحموا .

﴿ولا تحسبن الذين كفروا﴾ لما بين حال من أطاعه عليه الصلاة والسلام وأشير إلى فوزه بالرحمة المطلقة المستتبعة لسعادة الدارين عقب ذلك ببيان حال من عصاه عليه الصلاة والسلام ومآل أمره فى الدنيا والآخرة بعد بيان تناهيه فى الفسق تكميلا لأمر الترغيب والترهيب والخطاب إما لكل أحد ممن يصلح له كائنا من كان وإما للرسول عليه الصلاة والسلام على منهاج قوله تعالى (فلا تكونن من المشركين) ونظائره للإيذان بأن الحسبان المذكور من القبح والمحذورية بحيث ينهى عنه من يمتنع صدوره عنه فكيف بمن يمكن ذلك منه ومحل الموصول النصب على أنه مفعول أول للحسبان وقوله تعالى ﴿معجزين﴾ ثانيهما وقوله تعالى ﴿فى الأرض﴾ ظرف لمعجزين لكن لا لإفادة كون الإعجاز المنفى فيها لا فى غيرها فإن ذلك مما لا يحتاج إلى البيان بل لإفادة شمول عدم الإعجاز بجميع أجزائها أى لا تحسبنهم معجزين الله عز وجل عن إدراكهم وإهلاكهم فى قطر من أقطار الأرض بما رحبت وإن هربوا منها كل مهرب وقرىء لا يحسبن بياء الغيبة على أن الفاعل كل أحد والمعنى كما ذكر أى لا يحسبن أحد الكافرين معجزين له سبحانه فى الأرض أو هو الموصول والمفعول الأول محذوف لكونه عبارة عن أنفسهم كأنه قيل لا يحسبن الكافرون أنفسهم معجزين فى الأرض وأما جعل معجزين مفعولا أول وفى الأرض مفعولا ثانيا فبمعزل من المطابقة لمقتضى المقام ضرورة أن مصب الفائدة هو المفعول الثانى ولا فائدة فى بيان كون المعجزين فى الأرض وقد مر فى قوله تعالى

(إنى جاعل فى الأرض خليفة) وقوله تعالى ﴿ ومأواهم النار ﴾ معطوف على جملة النهى بتأويلها بجملة خبرية لأن المقصود بالنهى عن الحسبان تحقيق نفى الحسبان كأنه قيل ليس الذين كفروا معجزين ومأواهم الخ أو على جملة مقدرة وقعت تعليلا للنهى كأنه قيل لا تحسبن الذين كفروا معجزين فى الأرض فإنهم مدركون ومأواهم الخ وقيل الجملة المقدرة بل هم مقهورون فتدبر ﴿ ولبئس المصير ﴾ جواب لقسم مقدر والمخصوص بالذم محذوف أى وبالله لبئس المصير هى أى النار والجملة اعتراض تذييلى مقرر لما قبله وفى إيراد النار بعنوان كونها مأوى ومصيرا لهم إثر نفى فوتهم بالهرب فى الأرض كل مهرب من الجزالة ما لا غاية وراءه فلله در شأن التنزيل .

﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ رجوع إلى بيان تتمة الأحكام السابقة بعد تمهيد ما يوجب الامتثال بالأوامر والنواهى الواردة فيها وفى الأحكام اللاحقة من التمثيلات والترغيب والترهيب والوعد والوعيد والخطاب إما للرجال خاصة والنساء داخلات فى الحكم بدلالة النص أو للفريقين جميعا بطريق التغليب روى أن غلاما لأسماء بنت أبى مرثد دخل عليها فى وقت كرهته فنزلت وقيل أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم مدلج بن عمرو الأنصارى وكان غلاما وقت الظهيرة ليدعو عمر رضى الله عنه فدخل عليه وهو نائم قد انكشف عنه ثوبه فقال عمر رضى الله عنه لوددت أن الله تعالى نهى آباءنا وأبناءنا وخدمنا أن لا يدخلوا علينا هذه الساعات إلا بإذن ثم انطلق معه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجده وقد أنزلت عليه هذه الآية .

﴿ ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم ﴾ من العبيد والجوارى ﴿ والذين لم يبلغوا الحلم ﴾ أى الصبيان القاصرون عن درجة البلوغ المعهود والتعبير عنه بالحلم لكونه أظهر دلائله ﴿ منكم ﴾ أى من الأحرار ﴿ ثلاث مرات ﴾ أى ثلاثة أوقات فى اليوم والليلة والتعبير عنها بالمرات للإيذان بأن مدار وجوب الاستئذان مقارنة تلك الأوقات لمرور المستأذنين بالمخاطبين لا أنفسها ﴿ من قبل صلاة الفجر ﴾ لظهور أنه وقت القيام من المضاجع وطرح ثياب النوم

ولبس ثياب اليقظة ومحله النصب على أنه بدل من ثلاث مرات أو الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أى أحدها من قبل الخ ﴿ وحين تضعون ثيابكم ﴾ أى ثيابكم التى تلبسونها فى النهار وتخلعونها لأجل القيلولة وقوله تعالى ﴿من الظهيرة﴾ وهى شدة الحر عند انتصاف النهار بيان للحين والتصريح بمدار الأمر أعنى وضع الثياب فى هذا الحين دون الأول والآخر لما أن التجرد عن الثياب فيه لأجل القيلولة لقلة زمانها كما ينبىء عنها إيراد الحين مضافا إلى فعل حادث منقض ووقوعها فى النهار الذى هو مئنة لكثرة الورود والصدور ومظنة لظهور الأحوال وبروز الأمور ليس من التحقق والاطراد بمنزلة ما فى الوقتين المذكورين فإن تحقق التجرد واطراده فيهما أمر معروف لا يحتاج إلى التصريح به ﴿ ومن بعد صلاة العشاء ﴾ ضرورة أنه وقت التجرد عن اللباس والالتحاف باللحاف وليس المراد بالقبلية والبعدية المذكورتين مطلقهما المتحقق فى الوقت الممتد المتخلل بين الصلاتين كما فى قوله تعالى (وإن كنت من قبله لمن الغافلين) وقوله تعالى (من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى) بل ما يعرض منهما لطرفى ذلك الوقت الممتد المتصلين بالصلاتين المذكورتين اتصالا عاديا وقوله تعالى ﴿ثلاث عورات﴾ خبر مبتدأ محذوف وقوله تعالى ﴿ لكم ﴾ متعلق بمحذوف هو صفة لثلاث عورات أى كائنة لكم والجملة استئناف مسوق لبيان علة وجوب الاستئذان أى هن ثلاثة أوقات يختل فيها التستر عادة والعورة فى الأصل هو الخلل غلب فى الخلل الواقع فيما يهم حفظه ويعتنى بستره أطلقت على الأوقات المشتملة عليها مبالغة كأنها نفس العورة وقرىء ثلاث عورات بالنصب بدلا من ثلاث مرات .

﴿ ليس عليكم ولا عليهم ﴾ أى على المماليك والصبيان ﴿ جناح ﴾ أى إثم فى الدخول بغير استئذان لعدم ما يوجبه من مخالفة الأمر والاطلاع على العورات ﴿ بعدهن ﴾ أى بعد كل واحدة من تلك العورات الثلاث وهى الأوقات المتخللة بين كل اثنتين منهن وإيرادها بعنوان البعدية مع أن كل وقت

من تلك الأوقات قبل عورة من العورات كما أنها بعد أخرى منهن لتوفية حق التكليف والترخيص الذى هو عبارة عن رفعه إذ الرخصة إنما تتصور فى فعل يقع بعد زمان وقوع الفعل المكلف والجملة على القراءتين مستأنفة مسوقة لتقرير ما قبلها بالطرد والعكس وقد جوز على القراءة الأولى كونها فى محل رفع على أنها صفة أخرى لثلاث عورات وأما على القراءة الثانية فهى مستأنفة لا غير إذ لو جعلت صفة لثلاث عورات وهى بدل من ثلاث مرات لكان التقدير ليستأذنكم هؤلاء فى ثلاث عورات لا إثم فى ترك الاستئذان بعدهن وحيث كان انتفاء الإثم حينئذ مما لم يعلمه السامع إلا بهذا الكلام لم يتسن إبرازه فى معرض الصفة بخلاف قراءة الرفع فإن انتفاء الإثم حينئذ معلوم من صدر الكلام وقوله تعالى: ﴿ طوافون عليكم ﴾ استئناف ببيان العذر المرخص فى ترك الاستئذان وهى المخالطة الضرورية وكثرة المداخلة وفيه دليل على تعليل الأحكام وكذا فى الفرق بين الأوقات الثلاثة وبين غيرها بكونها عورات .

﴿ بعضكم على بعض ﴾ أى بعضكم طائف على بعض طوافا كثيرا أو بعضكم يطوف على بعض ﴿ كذلك ﴾ إشارة إلى مصدر الفعل الذى بعده وما فيه من معنى البعد لما مر مرارا من تفخيم شأن المشار إليه حسا أى مثل ذلك التبيين ﴿ يبين الله لكم الآيات ﴾ الدالة عن الأحكام أى ينزلها بينة واضحة الدلالات عليها لا أنه تعالى يبينها بعد أن لم تكن كذلك والكاف مقحمة وقد مر تفصيله فى قوله تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) ولكم متعلق بيبين وتقديمه على المفعول الصريح لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر وقيل يبين علل الأحكام وليس بواضح مع أنه مؤد إلى تخصيص الآيات بما ذكر هنا ﴿ والله عليم ﴾ مبالغ فى العلم بجميع المعلومات فيعلم أحوالكم ﴿ حكيم ﴾ فى جميع أفاعيله فيشرع لكم ما فيه صلاح أمركم معاشا ومعادا .

﴿ وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم ﴾ لما بين فيما مر آنفا حكم الأطفال فى أنه لا جناح عليهم فى ترك الاستئذان فيما عدا الأوقات الثلاثة عقب بيان حالهم بعد البلوغ دفعا لما عسى يتوهم أنهم وإن كانوا أجانب ليسوا

كسائر الأجانب بسبب اعتيادهم الدخول أى إذا بلغ الأطفال الأحرار الأجانب ﴿فليستأذنوا﴾ إذا أرادوا الدخول عليكم وقوله تعالى ﴿كما استأذن الذين من قبلهم﴾ فى حيز النصب على أنه نعت لمصدر مؤكد للفعل السابق والموصول عبارة عمن قيل لهم لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا الآية ووصفهم بكونهم قبل هؤلاء باعتبار ذكرهم قبل ذكرهم لا باعتبار بلوغهم قبل بلوغهم كما قيل لما أن المقصود بالتشبيه بيان كيفية استئذان هؤلاء وزيادة إيضاحه ولا يتسنى ذلك إلا بتشبيهه باستئذان المعهودين عند السامع ولا ريب فى أن بلوغهم قبل بلوغ هؤلاء مما لا يخطر ببال أحد وإن كان الأمر كذلك فى الواقع وإنما المعهود المعروف ذكرهم قبل ذكرهم أى فليستأذنوا استئذانا كائناً مثل استئذان المذكورين قبلهم بأن يستأذنوا فى جميع الأوقات ويرجعوا إن قيل لهم ارجعوا حسبما فصل فيما سلف ﴿كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم﴾ الكلام فيه كالذى سبق والتكرير للتأكيد والمبالغة فى الأمر بالاستئذان وإضافة الآيات إلى ضمير الجلالة لتشريفها .

﴿والقواعد من النساء﴾ أى العجائز اللاتى قعدن عن الحيض والحمل ﴿اللاتى لا يرجون نكاحا﴾ أى لا يطمعن فيه لكبرهن ﴿فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن﴾ أى الثياب الظاهرة كالجلباب ونحوه والفاء فيه لأن اللام فى القواعد بمعنى اللاتى أو للوصف بها ﴿غير متبرجات بزينة﴾ غير مظهرات لزينة مما أمر بإخفائه فى قوله تعالى (ولا يبدين زينتهن) وأصل التبرج التكلف فى إظهار ما يخفى من قولهم سفينة بارجة لاغطاء عليها والبرج سعة العين بحيث يرى بياضها محيطاً بسوادها كله إلا أنه خص بكشف المرأة زينتها ومحاسنها للرجال ﴿وأن يستعففن﴾ بترك الوضع ﴿خير لهن﴾ من الوضع لبعده من التهمة ﴿والله سميع﴾ مبالغ فى سمع جميع ما يسمع فيسمع ما يجرى بينهن وبين الرجال من المقاولة ﴿عليم﴾ فيعلم مقاصدهن وفيه من الترهيب مالا يخفى ﴿ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج﴾ كانت هؤلاء الطوائف يتحرجون من مؤاكلة الأصحاء حذارا من

استقذارهم إياهم وخوفا من تأذيهم بأفعالهم وأوضاعهم فإن الأعمى ربما سبقت يده إلى ما سبقت إليه عين آكيله وهو لا يشعر به والأعرج يتفسح فى مجلسه فيأخذ أكثر من موضعه فيضيق على جليسه والمريض لا يخلو عن حالة تؤذى قرينه وقيل كانوا يدخلون على الرجل لطالب العلم فإذا لم يكن عنده ما يطعمهم ذهب بهم إلى بيوت آبائهم وأمهاتهم أو إلى بعض من سماهم الله عز وجل فى الآية الكريمة فكانوا يتحرجون من ذلك ويقولون ذهب بنا إلى بيت غيره ولعل أهله كارهون لذلك وكذا كانوا يتحرجون من الأكل من أموال الذين كانوا إذا خرجوا إلى الغزو خلفوا هؤلاء الضعفاء فى بيوتهم ودفعوا إليهم مفاتيحها وأذنوا لهم أن يأكلوا مما فيها مخافة أن لا يكون إذنهم عن طيب نفس منهم وكان غير هؤلاء أيضاً يتحرجون من الأكل فى بيوت غيرهم فقيل لهم ليس على الطوائف المعدودة .

﴿ ولا على أنفسكم ﴾ أى عليكم وعلى من يماثلكم فى الأحوال من من المؤمنين حرج ﴿ أن تأكلوا ﴾ أى تأكلوا أنتم وهم معكم وتعميم الخطاب للطوائف المذكورة أيضا يأباه ما قبله وما بعده فإن الخطاب فيهما لغير أولئك الطوائف حتما ﴿ من بيوتكم ﴾ أى البيوت التى فيها أزواجكم وعيالكم فيدخل فيها بيوت الأولاد لأن بيتهم كبيته لقوله عليه الصلاة والسلام أنت ومالك لأبيك وقوله عليه الصلاة والسلام إن أطيب مال الرجل من كسبه وإن ولده من كسبه ﴿ أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم ﴾ وقرىء بكسر الهمزة والميم وبكسر الأولى وفتح الثانية ﴿ أو بيوت إخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم أو ما ملكتم مفاتحه ﴾ من البيوت التى تملكون التصرف فيها بإذن أربابها على الوجه الذى مر بيانه وقيل هى بيوت المماليك والمفاتح جمع مفتح وجمع المفتاح مفاتيح وقرىء مفتاحه ﴿ أو صديقكم ﴾ أى أو بيوت صديقكم وإن لم يكن بينكم وبينهم قرابة نسبية فإنهم أرضى بالتبسط وأسر به من كثير من الأقرباء. روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الصديق أكبر من الوالدين

إن الجهنميين لما استغاثوا لم يستغيثوا بالآباء والأمهات بل قالوا فما لنا من شافعين ولاصديق حميم والصديق يقع على الواحد والجمع كالخليط والقطين وأضرابهما وهذا فيما إذا علم رضا صاحب البيت بصريح الإذن أو بقرينة دالة عليه ولذلك خصص هؤلاء بالذكر لاعتيادهم التبسط فيما بينهم وقوله تعالى :

﴿ ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا ﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان حكم آخر من جنس ما بين قبله حيث كان فريق من المؤمنين كبنى ليث بن عمرو من كنانة يتحرجون أن يأكلوا طعامهم منفردين وكان الرجل منهم لا يأكل ويمكث يومه حتى يجد ضيفا يأكل معه فإن لم يجد من يؤاكله لم يأكل شيئاً وربما قعد الرجل والطعام بين يديه لا يتناوله من الصباح إلى الرواح وربما كانت معه الإبل الحفل فلا يشرب من ألبانها حتى يجد من يشاربه فإذا أمسى ولم يجد أحداً أكل وقيل كان الغنى منهم يدخل على الفقير من ذوى قرابته وصداقته فيدعوه إلى طعامه فيقول إنى أتحرج أن آكل معك وأنا غنى وأنت فقير وقيل كان قوم من الأنصار لا يأكلون إذا نزل بهم ضيف إلا مع ضيفهم فرخص لهم فى أن يأكلوا كيف شاؤا وقيل كانوا إذا اجتمعوا ليأكلوا طعاما عزلوا للأعمى وأشباهه طعاما على حدة فبين الله تعالى أن ذلك ليس بواجب وقوله تعالى جميعا حال من فاعل تأكلوا وأشتاتا عطف عليه داخل فى حكمه وهو جمع شت على أنه صفة كالحق يقال أمر شت أى متفرق أو على أنه فى الأصل مصدر وصف به مبالغة أى ليس عليكم جناح أن تأكلوا مجتمعين أو متفرقين ﴿ فإذا دخلتم ﴾ شروع فى بيان الآداب التى تجب رعايتها عند مباشرة ما رخص فيه إثر بيان الرخصة فيه ﴿ بيوتا ﴾ أى من البيوت المذكورة ﴿ فسلموا على أنفسكم ﴾ أى على أهلها الذين بمنزلة أنفسكم لما بينكم وبينهم من القرابة الدينية والنسبية الموجبة لذلك ﴿ تحية من عند الله ﴾ أى ثابتة بأمره مشروعة من لدنه ويجوز أن يكون صلة للتحية فإنها طلب الحياة التى هى من عنده تعالى وانتصابها على المصدرية لأنها بمعنى التسليم ﴿ مباركة ﴾ مستتبعة لزيادة الخير والثواب ودوامها ﴿ طيبة ﴾ تطيب بها نفس المستمع وعن

أنس رضى الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال متى لقيت أحد من أمتى فسلم عليه يطل عمرك وإذا دخلت بيتك فسلم عليهم يكثر خير بيتك وصل صلاة الضحى فإنها صلاة الأبرار الأوابين .

﴿كذلك يبين الله لكم الآيات﴾ تكرير لتأكيد الأحكام المختتمة به وتفخيمها ﴿لعلكم تعقلون﴾ أى ما فى تضاعيفها من الشرائع والأحكام وتعملون بموجبها وتحوزون بذلك سعادة الدارين وفى تعليل هذا التبيين بهذه الغاية القصوى بعد تذييل الأولين بما يوجبهما من الجزالة مالا يخفى ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله﴾ استئناف جىء به فى أواخر الأحكام السابقة تقريرا لها وتأكيدا لوجوب مراعاتها وتكميلا لها ببيان بعض آخر من جنسها وإنما ذكر الإيمان بالله ورسوله فى حيز الصلة للموصول الواقع خبرا للمبتدأ مع تضمنه له قطعا تقريرا لما قبله وتمهيدا لما بعده وإيذانا بأنه حقيق بأن يجعل قرينا للإيمان بهما منتظما فى سلكه فقوله تعالى ﴿وإذا كانوا معه على أمر جامع﴾ معطوف على آمنوا داخل معه فى حيز الصلة أى إنما الكاملون فى الإيمان الذين آمنوا بالله ورسوله عن صميم قلوبهم وأطاعوهما فى جميع الأحكام التى من جملتها ما فصل من قبل من الأحكام المتعلقة بعامة أحوالهم المطردة فى الوقوع وأحوالهم الواقعة بحسب الاتفاق كما إذا كانوا معه عليه الصلاة والسلام على أمر مهم يجب اجتماعهم فى شأنه كالجمعة والأعياد والحروب وغيرها من الأمور الداعية إلى اجتماع أولى الآراء والتجارب ووصف الأمر بالجمع للمبالغة وقرىء أمر جميع ﴿لم يذهبوا﴾ أى من المجمع مع كون ذلك الأمر مما لا يوجب حضورهم لا محالة كما عند إقامة الجمعة ولقاء العدو بل يسوغ التخلف عنه ﴿حتى يستأذنوه﴾ عليه الصلاة والسلام فى الذهاب لا على أن نفس الاستئذان غاية لعدم الذهاب بل الغاية هى الإذن المنوط برأيه عليه الصلاة والسلام والاقتصار على ذكره لأنه الذى يتم من قبلهم وهو المعتبر فى كمال الإيمان لا الإذن ولا الذهاب المترتب عليه واعتباره فى ذلك لما أنه كالمصداق لصحته والمميز للمخلص فيه عن المنافق فإن ديدنه التسلل للفرار

ولتعظيم ما فى الذهاب بغير إذنه عليه الصلاة والسلام من الجناية والتنبيه على ذلك عقب بقوله تعالى : ﴿ إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله ﴾ فقضى بأن المستأذنين هم المؤمنون بالله ورسوله كما حكم فى الأول بأن الكاملين فى الإيمان هم الجامعون بين الإيمان بهما وبين الاستئذان وفى أولئك من تفخيم شأن المستأذنين مالا يخفى ﴿ فإذا استأذنوك ﴾ بيان لما هو وظيفته عليه الصلاة والسلام فى هذا الباب اثر بيان ما هو وظيفة المؤمنين وأن الإذن عند الاستئذان ليس بأمر محتوم بل هو مفوض إلى رأيه عليه الصلاة والسلام والفاء لترتيب مابعدها على ما قبلها أى بعد ما تحقق أن الكاملين فى الإيمان هم المستأذنون فإذا استأذنوك ﴿ لبعض شأنهم ﴾ أى لبعض أمرهم المهم وخطبهم الملم ﴿ فأذن لمن شئت منهم ﴾ لما علمت فى ذلك من حكمة ومصلحة ﴿ واستغفر لهم الله ﴾ فإن الاستئذان وإن كان لعذر قوى لايخلو عن شائبة تقديم أمر الدنيا على أمر الآخرة ﴿ إن الله غفور ﴾ مبالغ فى مغفرة فرطات العباد ﴿ رحيم ﴾ مبالغ فى إفاضة آثار الرحمة عليهم والجملة تعليل للمغفرة الموعودة فى ضمن الأمر بالاستغفار لهم .

﴿ لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم ﴾ استئناف مقرر لمضمون ما قبله والالتفات لإبراز مزيد الاعتناء بشأنه أى لا تجعلوا دعوته عليه الصلاة والسلام إياكم فى الاعتقاد والعمل بها .

﴿ كدعاء بعضكم بعضا ﴾ أى لاتقيسوا دعاءه عليه الصلاة والسلام إياكم على دعاء بعضكم بعضا فى حال من الأحوال وأمر من الأمور التى من جملتها المساهلة فيه والرجوع عن مجلسه عليه الصلاة والسلام بغير استئذان فإن ذلك من المحرمات وقيل لا تجعلوا دعاءه عليه الصلاة والسلام ربه كدعاء صغيركم كبيركم يجيبه مرة ويرده أخرى فإن دعاءه مستجاب لامرد له عند الله عز وجل وتقرير الجملة حينئذ لما قبلها أما من حيث أن استجابته تعالى لدعائه عليه الصلاة والسلام مما يوجب امتثالهم بأوامره عليه الصلاة والسلام ومتابعتهم له فى الورود والصدور أكمل إيجاب وأما من حيث أنها موجبة للاحتراز عن التعرض لسخطه عليه الصلاة والسلام المؤدى إلى ما يوجب هلاكهم من دعائه عليه

عليه الصلاة والسلام عليهم وأما ما قيل من أن المعنى لاتجعلوا نداءه عليه الصلاة والسلام كنداء بعضكم بعضا باسمه ورفع الصوت والنداء من وراء الحجرات ولكن بلقبه المعظم مثل يا رسول الله يا نبي الله مع غاية التوقير والتفخيم والتواضع وخفض الصوت فلا يناسب المقام فإن قوله تعالى : ﴿ قد يعلم الله الذين يتسللون منكم ﴾ الخ وعيد لمخالفي أمره عليه الصلاة والسلام فيما ذكر من قبل فتوسيط ما ذكر بينهما مما لاوجه له والتسلل الخروج من البين على التدريج والخفية وقد للتحقيق كما أن رب تجيء للتكثير حسبما بين فى مطلع سورة الحجر أى يعلم الله الذين يخرجون من الجماعة قليلا قليلا على خفية ﴿ لواذاً ﴾ أى ملاوذة بأن يستتر بعضهم ببعض حتى يخرج أو بأن يلوذ بمن يخرج بالإذن إراءة أنه من أتباعه وقرىء بفتح اللام وانتصابه على الحالية من ضمير يتسللون أى ملاوذين أو على أنه مصدر مؤكد لفعل مضمر هو الحال فى الحقيقة أى يلوذون لواذاً والفاء فى قوله تعالى :

﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره ﴾ لترتيب الحذر أو الأمر به على ماقبلها من علمه تعالى بأحوالهم فإنه مما يوجب الحذر البتة أى يخالفون أمره بترك مقتضاه ويذهبون سمتا خلاف سمته وعن إما لتضمنه معنى الإعراض أو حمله على معنى يصدون على أمره دون المؤمنين من خالفه عن الأمر إذا صد عنه دونه وحذف المفعول لما أن المقصود بيان المخالف والمخالف عنه والضمير لله تعالى لأنه الآمر حقيقة أو للرسول عليه الصلاة والسلام لأنه المقصود بالذكر ﴿ أن تصيبهم فتنة ﴾ أى محنة فى الدنيا ﴿ أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ أى فى الآخرة وكلمة أو لمنع الخلو دون الجمع وإعادة الفعل صريحا للاعتناء بالتهديد والتحذير واستدل به على أن الأمر للايجاب فإن ترتيب العذابين على مخالفته كما يعرب عنه التحذير عن إصابتهما يوجب وجوب الامتثال به حتما ﴿ ألا إن لله ما فى السموات والأرض ﴾ من الموجودات بأسرها خلقاً وملكا وتصرفا وإيجادا وإعداما بدءاً وإعادة ﴿ قد يعلم ما أنتم عليه ﴾ أيها المكلفون من الأحوال والأوضاع التى من جملتها الموافقة والمخالفة والإخلاص والنفاق

﴿ ويوم يرجعون إليه ﴾ عطف على ما أنتم عليه أى يعلم يوم يرجع المنافقون المخالفون للأمر إليه تعالى للجزاء والعقاب وتعليق علمه تعالى بيوم رجوعهم لا برجعهم لزيادة تحقيق علمه تعالى بذلك وغاية تقريره لما أن العلم بوقت وقوع الشيء مستلزم للعلم بوقوعه على أبلغ وجه وآكده وفيه إشعار بأن علمه تعالى لنفس رجوعهم من الظهور بحيث لا يحتاج إلى البيان قطعا ويجوز أن يكون الخطاب أيضاً خاصا بالمنافقين على طريقة الالتفات وقرىء يرجعون مبنيا للفاعل ﴿ فينبئهم بما عملوا ﴾ من الأعمال السيئة التى من جملتها مخالفة الأمر فيرتب عليه ما يليق به من التوبيخ والجزاء وقد مر وجه التعبير عن الجزاء بالتنبئة فى قوله تعالى (إنما بغيكم على أنفسكم) الآية ﴿ والله بكل شيء عليم ﴾ لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة النور أعطى من الأجر عشر حسنات بعدد كل مؤمن ومؤمنة فيمامضى وفيما بقى ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

* * *

سورة الفرقان
مكية وهى سبع وسبعون آية

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ تبارك الذى نزل الفرقان ﴾ البركة النماء والزيادة حسية كانت أو معنوية وكثرة الخير ودوامه أيضا ونسبتها إلى الله عز وجل على المعنى الأول وهو الأليق بالمقام باعتبار تعاليه عما سواه فى ذاته وصفاته وأفعاله التى من جملتها تنزيل القرآن الكريم المعجز الناطق بعلو شأنه تعالى وسمو صفاته وابتناء أفعاله على أساس الحكم والمصالح وخلوها عن شائبة الخلل بالكلية وصيغة التفاعل للمبالغة فيما ذكر فإن ما لا يتصور نسبته إليه سبحانه حقيقة من الصيغ كالتكبر ونحوه لا تنسب إليه تعالى إلا باعتبار غايتها وعلى المعنى الثانى باعتبار كثرة ما يفيض منه على مخلوقاته لاسيما على الإنسان من فنون الخيرات التى من جملتها تنزيل القرآن المنطوى على جميع الخيرات الدينية والدنيوية والصيغة حينئذ يجوز أن تكون لإفادة نماء تلك الخيرات وتزايدها شيئاً فشيئاً وآنا فآنا بحسب حدوثها أو حدوث متعلقاتها ولاستقلالها بالدلالة على غاية الكمال وتحققها بالفعل والإشعار بالتعجب المناسب للإنشاء والإنباء عن نهاية التعظيم لم يجز استعمالها فى حق غيره تعالى ولا استعمال غيرها من الصيغ فى حقه تعالى والفرقان مصدر فرق بين الشيئين أى فصل بينهما سمى به القرآن لغاية فرقه بين الحق والباطل بأحكامه أو بين المحق والمبطل بإعجازه أو لكونه مفصولا بعضه من بعض فى نفسه أو فى إنزاله ﴿ على عبده ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم وإيراده عليه الصلاة والسلام بذلك العنوان لتشريفه والإيذان بكونه عليه الصلاة والسلام فى أقصى مراتب العبودية والتنبيه على أن الرسول لا يكون إلا عبدا للمرسل ردا على النصارى ﴿ ليكون ﴾ غاية للتنزيل أى نزله عليه ليكون هو عليه الصلاة والسلام أو الفرقان ﴿ للعالمين ﴾ من الثقلين ﴿ نذيرا ﴾ أى

منذرا أو إنذارا مبالغة أو ليكون تنزيله انذارا أو عدم التعرض للتبشير لا نسياق الكلام على أحوال الكفرة وتقديم اللام على عاملها لمراعاة الفواصل وإبراز تنزيل الفرقان في معرض الصلة التي حقها أن تكون معلومة الثبوت للموصول عند السامع مع إنكار الكفرة له لإجرائه مجرى المعلوم المسلم تنبيها على كمال قوة دلائله وكونه بحيث لا يكاد يجهله أحد كقوله تعالى لا ريب فيه ﴿ الذى له ملك السموات والأرض ﴾ أى له خاصة دون غيره لا استقلالا ولا اشتراكا السلطان القاهر والاستيلاء الباهر عليهما المستلزمان القدرة التامة والتصرف الكلى فيهما وفيما فيهما إيجاداً وإعداما وإحياء وإماتة وأمراً ونهيا حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح ومحله الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف والجملة مستأنفة مقررة لما قبلها أو على أنه نعت للموصول الأول أو بيان له أو بدل منه وما بينهما ليس بأجنبى لأنه من تمام صلته ومعلومية مضمونه للكفرة مما لا ريب فيه لقوله تعالى (قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون الله) ونظائره أو مدح له تعالى بالرفع أو بالنصب ﴿ولم يتخذ ولدا﴾ كما يزعم الذين يقولون فى حق المسيح والملائكة ما يقولون فسبحان الله عما يصفون وهو معطوف على ما قبله من الجملة الظرفية ونظمه فى سلك الصلة للإيذان بأن مضمونه من الوضوح والظهور بحيث لا يكاد يجهله جاهل لا سيما بعد تقرير ما قبله .

﴿ ولم يكن له شريك فى الملك ﴾ أى ملك السموات والأرض وهو أيضا عطف على الصلة وإفراده بالذكر مع أن ما ذكر من اختصاص ملكهما به تعالى مستلزم له قطعا للتصريح ببطلان زعم الثنوية القائلين بتعدد الآلهة والرد فى فى نحورهم وتوسيط نفى اتخاذ الولد بينهما للتنبيه على استقلاله وأصالته والاحتراز عن توهم كونه تتمة للأول ﴿ وخلق كل شىء ﴾ أى أحدث كل موجود من الموجودات أحداثا جاريا على سنن التقدير حسبما اقتضته إرادته المبنية على الحكم البالغة بأن خلق كلا منها من مواد مخصوصة على صور معينة ورتب فيه قوى وخواص مختلفة الآثار والأحكام ﴿فقدره﴾ أى هيأه لما أراد به من الخصائص والأفعال اللائقة به ﴿ تقديرا ﴾ بديعا لا يقادر قدره ولا يبلغ كنهه كتهيئة

الإنسان للفهم والإدراك والنظر والتدبر فى أمور المعاش والمعاد واستنباط الصنائع المتنوعة ومزاولة الأعمال المختلفة وهكذا أحوال سائر الأنواع وقيل أريد بالخلق مطلق الإيجاد والإحداث مجازاً من غير ملاحظة معنى التقدير وإن لم يخل عنه فى نفس الأمر فالمعنى أوجد كل شيء فقدره فى ذلك الإيجاد تقديراً وأما ما قيل من أنه سمى إحداثه تعالى خلقا لأنه تعالى لا يحدث شيئاً الا على وجه التقدير من غير تفاوت ففيه أن ارتكاب المجاز يحمل الخلق على مطلق الإحداث لتجريده عن معنى التقدير فاعتباره فيه بوجه من الوجوه مخل بالمرام قطعا وقيل المراد بالتقدير الثانى هو التقدير للبقاء الى الأجل المسمى وأياما كان فالجملة جارية مجرى التعليل لما قبلها من الجمل المنتظمة مثلها فى سلك الصلة فان خلقه تعالى لجميع الأشياء على ذلك النمط البديع كما يقتضى استقلاله تعالى باتصافه بصفات الألوهية يقتضى انتظام كل ما سواه كائنا ما كان تحت ملكوته القاهرة بحيث لا يشذ عنها شيء من ذلك قطعا وما كان كذلك كيف يتوهم كونه ولدا له سبحانه أو شريكا فى ملكه .

﴿ واتخذوا من دونه آلهة ﴾ بعدما بين حقيقة الحق فى مطلع السورة الكريمة بذكر تنزيله تعالى للفرقان العظيم على رسوله صلى الله عليه وسلم ووصفه تعالى بصفات الكمال وتنزيهه عما لا يليق بشأنه الجليل عقب ذلك بحكاية أباطيل المشركين فى حق المنزل سبحانه والمنزل والمنزل عليه على الترتيب وإظهار بطلانها والإضمار من غير جريان ذكرهم للثقة بدلالة ما قبله من نفى الشريك عليهم أى اتخذوا لأنفسهم متجاوزين الله تعالى الذى ذكر بعض شئونه الجليلة من اختصاص ملك السموات والأرض به تعالى وانتفاء الولد والشريك عنه وخلق جميع الأشياء وتقديرها أبدع تقدير آلهة :

﴿ لا يخلقون شيئاً ﴾ أى لا يقدرون على خلق شيء من الأشياء أصلا ﴿ وهم يخلقون ﴾ كسائر المخلوقات وقيل لا يقدرون على أن يختلقوا شيئا وهم يختلقون حيث تختلقهم عبدتهم بالنحت والتصوير وقوله تعالى ﴿ ولا يملكون لأنفسهم

ضرا ولا نفعا ﴾ لبيان ما لم يدل عليه ما قبله من مراتب عجزهم وضعفهم فإن بعض المخلوقين العاجزين عن الخلق ربما يملك دفع الضر وجلب النفع فى الجملة كالحيوان وهؤلاء لا يقدرون على التصرف فى ضر ما ليدفعوه عن أنفسهم ولا فى نفع ما حتى يجلبوه إليها فكيف يملكون شيئاً منهما لغيرهم وتقديم ذكر الضر لأن دفعه مع كونه أهم [illegible] على قوله تعالى :

﴿ ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا ﴾ أى لا يقدرون على التصرف فى شىء منها بإماتة الأحياء وإحياء الموتى وبعثهم بعد بيان عجزهم عما هو أهون من هذه الأمور من دفع الضر وجلب النفع التصريح بعجزهم عن كل واحد مما ذكر على التفصيل والتنبيه على أن الإله يجب أن يكون قادراً على جميع ذلك وفيه إيذان بغاية جهلهم وسخافة عقولهم كأنهم غير عارفين بانتفاء ما نفى عن آلهتهم من الأمور المذكورة مفتقرون الى التصريح بذلك ﴿ وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك ﴾ شروع فى حكاية أباطيلهم المتعلقة بالمنزل والمنزل عليه معا وإبطالها والموصول إما عبارة عن غلاتهم فى الكفر والطغيان وهم النضر بن الحرث وعبد الله بن أمية ونوفل بن خويلد ومن ضامهم وروى عن الكلبى ومقاتل أن القائل هو النضر بن الحرث والجمع لمشايعة الباقين له فى ذلك وإما عن كلهم ووضع الموصول موضع ضميرهم لذمهم بما فى حيز الصلة والإيذان بأن ما تفوهوا به كفر عظيم وفى كلمة هذا حط لرتبة المشار اليه أى ما هذا الا كذب مصروف عن وجهه ﴿ افتراه ﴾ يريدون أنه اختلقه رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وأعانه عليه ﴾ أى على اختلاقه ﴿ قوم آخرون ﴾ يعنون اليهود بأن يلقوا إليه أخبار الأمم الدارجة وهو يعبر عنها بعبارته وقيل هما جبر ويسار كانا يصنعان السيف بمكة ويقرآن التوراة والإنجيل وقيل هو عابس وقد مر تفصيله فى سورة النحل. ﴿ فقد جاؤا ظلما ﴾ منصوب بجاؤا فإن جاء وأتى يستعملان فى معنى فعل فيعديان تعديته أو بنزع الخافض أى بظلم قاله الزجاج والتنوين للتفخيم أى جاؤا بما

قالوا ظلما هائلا عظيما لا يقادر قدره حيث جعلوا الحق البحت الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه إفكا مفترى من قبل البشر وهو من جهة نظمه الرائق وطرزه الفائق بحيث لو اجتمعت الإنس والجن على مباراته لعجزوا عن الإتيان بمثل آية من آياته ومن جهة اشتماله على الحكم الخفية والأحكام المستتبعة للسعادات الدينية والدنيوية والأمور الغيبية بحيث لا يناله عقول البشر ولا يفى بفهمه القوى والقدر ﴿ وزورا ﴾ أى كذبا كبيرا لا يبلغ غايته حيث نسبوا اليه عليه الصلاة والسلام ما هو برىء منه والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها لكن لا على أنهما أمران متغايران حقيقة يقع أحدهما عقيب الآخر أو يحصل بسببه بل على أن الثانى هو عين الأول حقيقة وإنما الترتيب بحسب التغاير الاعتبارى وقد لتحقيق ذلك المعنى فإن ماجاؤه من الظلم والزور هو عين ما حكى عنهم لكنه لما كان مغايرا له فى المفهوم وأظهر منه بطلانا رتب عليه بالفاء ترتيب اللازم على الملزوم تهويلا لأمره .

﴿ وقالوا أساطير الأولين ﴾ بعد ما جعلوا الحق الذى لا محيد عنه إفكا مختلقا بإعانة البشر بينوا على زعمهم الفاسد كيفية الإعانة والأساطير جمع أسطار أو أسطورة كأحدوثة وهى ماسطره المتقدمون من الخرافات ﴿ اكتتبها ﴾ أى كتبها لنفسه على الإسناد المجازى أو استكتبها وقرىء على البناء للمفعول لأنه عليه الصلاة والسلام أمى وأصله اكتتبها له كاتب فحذف اللام وأفضى الفعل إلى الضمير فصار اكتتبها إياه كاتب ثم حذف الفاعل لعدم تعلق الغرض العلمى بخصوصه وبنى الفعل للضمير المنفصل فاستتر فيه ﴿ فهى تملى عليه ﴾ أى تلقى عليه تلك الأساطير بعد اكتتابها ليحفظها من أفواه من يملها عليه من ذلك المكتتب لكونه أميا لايقدر على أن يتلقاها منه بالقراءة أو تملى على الكاتب على أن معنى اكتتبها أراد اكتتابها أو استكتابها ورجع الضمير المجرور اليه عليه الصلاة والسلام لإسناد الكتابة فى ضمن الاكتتاب إليه عليه الصلاة والسلام .

﴿ بكرة وأصيلا ﴾ أى دائما أو خفية قبل انتشار الناس حين يأوون إلى

مساكنهم انظر إلى هذه الرتبة من الجراءة العظيمة قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴿قل﴾ لهم ردا عليهم وتحقيقاً للحق ﴿أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض﴾ وصفه تعالى بإحاطة علمه بجميع المعلومات الجلية والخفية للإيذان بانطواء ما أنزله على أسرار مطوية عن عقول البشر مع ما فيه من التعريض بمجازاتهم بجناياتهم المحكية التى هى من جملة معلوماته تعالى أى ليس ذلك مما يفترى ويفتعل بإعانة قوم وكتابة آخرين من الأحاديث الملفقة وأساطير الأولين بل هو أمر سماوى أنزله الله الذى لا يعزب عن علمه شىء من الأشياء وأودع فيه فنون الحكم والأسرار على وجه بديع لا يحوم حوله الافهام حيث أعجزكم قاطبة بفصاحته وبلاغته وأخبركم بمغيبات مستقبلة وأمور مكنونة لا يهتدى اليها ولا يوقف عليها إلا بتوفيق العليم الخبير وقد جعلتموه إفكا مفترى من قبيل الأساطير واستوجبتم بذلك أن يصب عليكم سوط العذاب صبا فقوله تعالى ﴿إنه كان غفورا رحيما﴾ تعليل لما هو المشاهد من تأخير العقوبة أى أنه تعالى أزلا وأبدا مستمر على المغفرة والرحمة المستتبعين للتأخير فلذلك لا يعجل بعقوبتكم على ما تقولون فى حقه مع كمال استيجابه إياها وغاية قدرته تعالى عليها ﴿وقالوا مال هذا الرسول﴾ شروع فى حكاية جنايتهم المتعلقة بخصوصية المنزل عليه وما استفهامية بمعنى إنكار الوقوع ونفيه مرفوعة على الابتداء خبرها ما بعدها من الجار والمجرور وفى هذا تصغير لشأنه عليه الصلاة والسلام وتسميته عليه الصلاة والسلام رسولا بطريق الاستهزاء به عليه الصلاة والسلام كما قال فرعون ان رسولكم الذى أرسل اليكم، وقوله تعالى:

﴿يأكل الطعام﴾ حال من الرسول والعامل فيها ما عمل فى الجار من معنى الاستقرار أى أى شىء وأى سبب حصل لهذا الذى يدعى الرسالة حال كونه يأكل الطعام كما نأكل ﴿ويمشى فى الأسواق﴾ لابتغاء الأرزاق كما نفعله على توجيه الإنكار والنفى الى السبب فقط مع تحقق المسبب الذى هو مضمون الجملة الحالية كما فى قوله تعالى (فما لهم لا يؤمنون) وقوله (مالكم لا ترجون لله وقارا) فكما أن كلا من عدم الإيمان وعدم الرجاء أمر محقق قد استبعد تحققه لانتفاء

سببه بل لوجود سبب عدمه خلا أن استبعاد المسبب وإنكار السبب ونفيه في عدم الإيمان وعدم الرجاء بطريق التحقيق وفى الأكل والمشى بطريق التهكم والاستهزاء فانهم لا يستبعدونهما ولا ينكرون سببهما حقيقة بل هم معترفون بوجودهما وتحقق سببهما وإنما الذى يستبعدونه الرسالة المنافية لهما على زعمهم يعنون أنه إن صح ما يدعيه فما باله لم يخالف حاله حالنا وهل هو إلا لعمههم وركاكة عقولهم وقصور أنظارهم على المحسوسات فان تميز الرسل عمن عداهم ليس بأمور جسمانية وإنما هو بأمور نفسانية كما أشير اليه بقوله تعالى (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد ﴿ لولا أنزل إليه ملك ﴾ أى على صورته وهيئته ﴿ فيكون معه نذيرا ﴾ تنزل منهم من اقتراح أن يكون ملكا مستغنيا عن الأكل والشرب إلى اقتراح أن يكون معه ملك يصدقه ويكون ردءاً له فى الإنذار وهو يعبر عنه ويفسر ما يقوله للعامة وقوله تعالى ﴿ أو يلقى اليه كنز ﴾ تنزل من تلك المرتبة اقتراح أن يلقى إليه من السماء كنز يستظهر به ولا يحتاج الى طلب المعاش ويكون دليلا على صدقه وقوله تعالى ﴿ أو تكون له جنة يأكل منها ﴾ تنزل من ذلك إلى اقتراح ما هو أيسر منه وأقرب من الوقوع وقرىء نأكل بنون الحكاية وفيه مزيد مكابرة وفرط تحكم .

﴿ وقال الظالمون ﴾ هم القائلون الأولون وإنما وضع المظهر موضع ضميرهم تسجيلا عليهم بالظلم وتجاوز الحد فيما قالوه لكونه إضلالا خارجا عن حد الضلال مع ما فيه من نسبته عليه الصلاة والسلام إلى المسحورية أى قالوا للمؤمنين ﴿ إن تتبعون ﴾ أى ما تتبعون ﴿ إلا رجلا مسحورا ﴾ قد سحر فغلب على عقله وقيل ذا سحر وهى الرئة أى بشرا لا ملكا على أن الوصف لزيادة التقرير والأول هو الأنسب بحالهم ﴿ أنظر كيف ضربوا لك الأمثال ﴾ استعظام للأباطيل التى اجترؤا على التفوه بها وتعجيب منها أى انظر كيف قالوا فى حقك تلك الأقاويل العجيبة الخارجة عن العقول الجارية لغرابتها مجرى الأمثال واخترعوا لك تلك الصفات والأحوال الشاذة البعيدة من الوقوع ﴿ فضلوا ﴾ أى عن طريق المحاجة حيث لم يأتوا بشىء يمكن صدوره عمن له أدنى عقل

وتمييز فبقوا متحيرين ﴿ فلا يستطيعون سبيلا ﴾ إلى القدح في نبوتك بأن يجدوا قولا يستقرون عليه وإن كان باطلا في نفسه أو فضلوا عن الحق ضلالا مبينا فلا يجدون طريقا موصلا إليه فإن من اعتاد استعمال أمثال هذه الأباطيل لا يكاد يهتدى الى استعمال المقدمات الحقة .

﴿ تبارك الذى ﴾ أى تكاثر وتزايد خير الذى ﴿ إن شاء جعل لك ﴾ فى الدنيا عاجلا شيئا ﴿ خيرا ﴾ لك ﴿ من ذلك ﴾ الذى اقترحوه من أن يكون لك جنة تأكل منها بأن يجعل لك مثل ماوعدك فى الآخرة وقوله تعالى ﴿ جنات تجرى من تحتها الأنهار ﴾ بدل من خيرا ومحقق لخيريته مما قالوا لأن ذلك كان مطلقا عن قيد التعدد وجريان الأنهار ﴿ ويجعل لك قصورا ﴾ عطف على محل الجزاء الذى هو جعل وقرىء بالرفع عطفا على نفسه لأن الشرط إذا كان ماضيا جاز فى جزائه الرفع والجزم كما فى قول القائل :

وإن أتاه خليل يوم مسألة يقول لا غائب مالى ولا حرم

ويجوز أن يكون استئنافا بوعد ما يكون له فى الآخرة وقرىء بالنصب على أنه جواب بالواو وتعليق ذلك بمشيئته تعالى للإيذان بأن عدم جعلها بمشيئته المبنية على الحكم والمصالح وعدم التعرض لجواب الاقتراحين الأولين للتنبيه على خروجهما عن دائرة العقل واستغنائهما عن الجواب لظهور بطلانهما ومنافاتهما للحكمة التشريعية وإنما الذى له وجه فى الجملة هو الاقتراح الأخير فإنه غير مناف للحكمة بالكلية فإن بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد أوتوا فى الدنيا مع النبوة ملكا عظيما ﴿ بل كذبوا بالساعة ﴾ إضراب عن توبيخهم بحكاية جناياتهم السابقة وانتقال منه إلى توبيخهم بحكاية جناياتهم الأخرى للتخلص إلى بيان ما لهم فى الآخرة بسببها من فنون العذاب بقوله تعالى :

﴿ وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا ﴾ الخ أى أعتدنا لهم نارا عظيمة شديدة الاشتعال شأنها كيت وكيت بسبب تكذيبهم بها على ما يشعر به وضع الموصول موضع ضميرهم أو لكل من كذب بها كائنا من كان وهم داخلون فى زمرتهم دخولا أوليا ووضع الساعة موضع ضميرها للمبالغة فى التشنيع ومدار اعتاد

السعير لهم وإن لم يكن بمجرد تكذيبهم بالساعة بل مع تكذيبهم بسائر ما جاء به الشريعة الشريفة لكن الساعة لما كانت هى العلة القريبة لدخولهم السعير أشير إلى سببية تكذيبها لدخولها وقيل هو عطف على وقالوا ما لهذا الخ على معنى بل أتوا بأعجب من ذلك حيث كذبوا بالساعة وأنكروها والحال أنا قد أعتدنا لكل من كذب بها سعيرا فإن جراءتهم على التكذيب بها وعدم خوفهم مما أعد لمن كذب بها من أنواع العذاب أعجب من القول السابق وقيل هو متصل بما قبله من الجواب المبنى على التحقيق المنبىء عن الوعد بالجنات فى الآخرة مسوق لبيان أن ذلك لا يجدى نفعاً ولا يحلى بطائل على طريقة قول من قال :

عوجوا لنعم فحيوا دمنة الدار   ماذا تحيون من نؤى وأحجار

والمعنى أنهم لا يؤمنون بالساعة فكيف يقتنعون بهذا الجواب وكيف يصدقون بتعجيل مثل ما وعدك فى الآخرة وقيل المعنى بل كذبوا بها فقصرت أنظارهم على الحظوظ الدنيوية وظنوا أن الكرامة ليست إلا بالمال وجعلوا فقرك ذريعة إلى تكذيبك وقوله تعالى :

﴿ إذا رأتهم ﴾ الخ صفة للسعير أى إذا كانت منهم بمرأى الناظر فى البعد كقوله عليه الصلاة والسلام لا تتراءى ناراهما أى لا تتقاربان بحيث تكون إحداهما بمرأى من الأخرى على المجاز كأن بعضها يرى البعض ونسبة الرؤية إليها لا إليهم للإيذان بأن التغيظ والزفير منها لهيجان غضبها عليهم عند رؤيتها إياهم حقيقة أو تمثيلا ومن فى قوله تعالى ﴿ من مكان بعيد ﴾ إشعار بأن بعد ما بينها وبينهم من المسافة حين رأتهم خارج عن حدود البعد المعتاد فى المسافات المعهودة وفيه مزيد تهويل لأمرها قال الكلبى والسدى من مسيرة عام وقيل من مسيرة مائة سنة ﴿ سمعوا لها تغيظا وزفيرا ﴾ أى صوت تغيظ على تشبيه صوت غليانها بصوت المغتاظ وزفيره وهو صوت يسمع من جوفه هذا وأن الحياة لما لم تكن مشروطة عندنا بالبنية أمكن أن يخلق الله تعالى فيها حياة فترى وتتغيظ وتزفر وقيل إن ذلك لزبانيتها فنسب إليها على حذف المضاف ﴿ وإذا ألقوا منها مكانا ﴾ نصب على الظرفية ومنها حال منه لأنه فى الأصل صفة له ﴿ ضيقا ﴾

صفة لمكانا مفيدة لزيادة شدة فإن الكرب مع الضيق كما أن الروح مع السعة وهو السر فى وصف الجنة بأن عرضها السموات والأرض وعن ابن عباس وابن عمر رضى الله تعالى عنهم تضيق جهنم عليهم كما يضيق الزج على الرمح وسئل النبى عليه الصلاة والسلام عن ذلك فقال والذى نفسى بيده إنهم ليستكرهون فى النار كما يستكره الوتد فى الحائط قال الكلبى الأسفلون يرفعهم اللهب والأعلون يحطهم الداخلون فيزدحمون فيها وقرىء ضيقا بسكون الياء ﴿ مقرنين ﴾ حال من مفعول ألقوا أى إذا ألقوا منها مكانا ضيقا حال كونهم مقرنين قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم بالجوامع وقيل مقرنين مع الشياطين فى السلاسل كل كافر مع شيطان وفى أرجلهم الأصفاد ﴿ دعوا هنالك ﴾ أى فى ذلك المكان الهائل والحالة الفظيعة ﴿ ثبورا ﴾ أى يتمنون هلاكا وينادونه يا ثبوراه تعال فهذا حينك وأوانك .

﴿ لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا ﴾ على تقدير قول إما منصوب على أنه حال من فاعل دعوا أى دعوه مقولا لهم ذلك حقيقة بأن يخاطبهم الملائكة به لتنبيههم على خلود عذابهم وأنهم لا يجابون إلى ما يدعونه ولا ينالون ما يتمنونه من الهلاك المنجى أو تمثيلا وتصويرا لحالهم بحال من يقال له ذلك من غير أن يكون هناك قول ولا خطاب أى دعوه حال كونهم أحقاء بأن يقال لهم ذلك وإما مستأنف وقع جوابا عن سؤال ينسحب عليه الكلام كأنه قيل فماذا يكون عند دعائهم المذكور فقيل يقال لهم ذلك إقناطا مما علقوا به أطماعهم من الهلاك وتنبيها على أن عذابهم الملجىء لهم إلى استدعاء الهلاك بالمرة أبدى لا خلاص لهم منه أى لا تقتصروا على دعاء ثبور واحد ﴿ وادعوا ثبورا كثيرا ﴾ أى بحسب كثرة الدعاء المتعلق به لا بحسب كثرته فى نفسه فإن ما يدعونه ثبور واحد فى حد ذاته لكنه كلما تعلق به دعاء من تلك الأدعية الكثيرة صار كأنه ثبور مغاير لما تعلق به دعاء آخر منها وتحقيقه لا تدعوه دعاء واحدا وادعوه أدعية كثيرة فإن ما أنتم فيه من العذاب لغاية شدته وطول مدته مستوجب لتكرير الدعاء فى كل آن وهذا أدل على فظاعة العذاب وهوله من جعل تعدد الدعاء

وتجدده لتعدد العذاب بتعدد أنواعه وألوانه أو لتعدده بتجدد الجلود كما لا يخفى وأما ما قيل من أن المعنى إنكم وقعتم فيما ليس ثبوركم فيه واحدا إنما هو ثبور كثير إما لأن العذاب أنواع وألوان كل نوع منها ثبور لشدته وفظاعته أو لأنهم كلما نضجت جلودهم بدلوا غيرها فلا غاية لهلاكهم فلا يلائم المقام كيف لا وهم إنما يدعون هلاكا ينهى عذابهم وينجيهم منه فلا بد أن يكون الجواب إقناطا لهم من ذلك ببيان استحالته ودوام مايوجب استدعاءه من العذاب الشديد وتقييد النهى والأمر باليوم لمزيد التهويل والتفظيع والتنبيه على أنه ليس كسائر الأيام المعهودة .

﴿ قل ﴾ تقريعا لهم وتهكما بهم وتحسيرا على مافاتهم ﴿ أذلك ﴾ إشارة إلى ما ذكر من السعير باعتبار اتصافها بما فصل من الأحوال الهائلة وما فيه من معنى البعد للإشعار بكونها فى الغاية القاصية من الهول والفظاعة أى قل لهم أذلك الذى ذكر من السعير التى أعتدت لمن كذب بالساعة وشأنها كيت وكيت وشأن أهلها ذيت وذيت ﴿ خير أم جنة الخلد التى وعد المتقون ﴾ أى وعدها المتقون وإضافة الجنة إلى الخلد للمدح وقيل للتمييز عن جنات الدنيا والمراد بالمتقين المتصفون بمطلق التقوى لا بالمرتبة الثانية أو الثالثة منها فقط ﴿ كانت ﴾ تلك الجنة ﴿ لهم ﴾ فى علم الله تعالى أو فى اللوح المحفوظ أو لأن ما وعده الله تعالى فهو كائن لا محالة فحكى تحققه ووقوعه ﴿ جزاء ﴾ على أعمالهم حسبما مر من الوعد الكريم ﴿ ومصيرا ﴾ ينقلبون إليه ﴿ لهم فيها مايشاؤن ﴾ أى مايشاؤنه من فنون الملاذ والمشتهيات وأنواع النعيم كما فى قوله تعالى (ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم) ولعل كل فريق منهم يقتنع بما أتيح له من درجات النعيم ولا تمتد أعناق هممهم إلى ما فوق ذلك من المراتب العالية فلا يلزم الحرمان ولا تساوى مراتب أهل الجنان ﴿ خالدين ﴾ حال من الضمير المستكن فى الجار والمجرور لاعتماده على المبتدأ وقيل من فاعل يشاؤن ﴿ كان ﴾ أى ما يشاؤنه وقيل الوعد المدلول عليه بقوله تعالى وعد المتقون ﴿ على ربك وعدا مسئولا ﴾ أى موعودا حقيقيا بأن يسأل ويطلب لكونه مما يتنافس فيه المتنافسون أو مسؤلا يسأله الناس

فى دعائهم بقولهم ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك أو الملائكة بقولهم ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم وما فى على من معنى الوجوب لامتناع الخلف فى وعده تعالى ولا يلزم منه الإلجاء إلى الإنجاز فإن تعلق الإرادة بالموعود متقدم على الوعد الموجب للإنجاز وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام من تشريفه والإشعار بأنه عليه الصلاة والسلام هو الفائز آثر ذى أثير بمغانم الوعد الكريم ما لا يخفى ﴿ ويوم يحشرهم ﴾ نصب على أنه مفعول لمضمر مقدم معطوف على قوله تعالى قل أذلك الخ أى لهم بعد التقريع والتحسير يوم يحشرهم الله عز وجل وتعليق التذكير باليوم مع أن المقصود تذكير ما وقع فيه من الحوادث الهائلة قد مر وجهه غير مرة أو على أنه ظرف لمضمر مؤخر قد حذف للتنبيه على كمال هوله وفظاعة مافيه والإيذان بقصور العبارة عن بيانه أى يوم يحشرهم يكون من الأحوال والأهوال مالا يفى ببيانه المقال وقرىء بنون العظمة بطريق الالتفات من الغيبة إلى التكلم وبكسر الشين أيضا ﴿ وما يعبدون من دون الله ﴾ أريد به ما يعم العقلاء وغيرهم إما لأن كلمة ما موضوعة للكل كما ينبىء عنه أنك إذا رأيت شبحا من بعيد تقول ما هو أو لأنه أريد به الوصف لا الذات كأنه قيل ومعبوديهم أو لتغليب الأصنام على غيرها تنبيها على أنهم مثلها فى السقوط عن رتبة المعبودية أو اعتباراً لغلبة عبدتها أو أريد به الملائكة والمسيح وعزير بقرينة السؤال والجواب أو الأصنام ينطقها الله تعالى أو تكلم بلسان الحال كما قيل فى شهادة الأيدى والأرجل ﴿ فيقول ﴾ أى الله عز وجل للمعبودين إثر حشر الكل تقريعا للعبدة وتبكيتا لهم وقرىء بالنون كما عطف عليه وقرىء هذا بالياء والأول بالنون على طريق الالتفات إلى الغيبة ﴿ أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء ﴾ بأن دعوتموهم إلى عبادتكم كما فى قوله تعالى (أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله) ﴿ أم هم ضلوا السبيل ﴾ أى عن السبيل بأنفسهم لإخلالهم بالنظر الصحيح وإعراضهم عن المرشد فحذف الجار وأوصل الفعل إلى المفعول كقوله تعالى وهو يهدى السبيل والأصل إلى السبيل أو للسبيل وتقديم الضميرين على الفعلين لأن المقصود بالسؤال

هو المتصدى للفعل لا نفسه ﴿ قالوا ﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية السؤال كأنه قيل فماذا قالوا فى الجواب فقيل قالوا ﴿ سبحانك ﴾ تعجبا مما قيل لهم لأنهم إما ملائكة معصومون أو جمادات لا قدرة لها على شىء أو إشعاراً بأنهم الموسومون بتسبيحه تعالى وتوحيده فكيف يتأتى منهم إضلال عباده أو تنزيها له تعالى عن الأنداد ﴿ ما كان ينبغى لنا ﴾ أى ما صح وما استقام لنا ﴿ أن نتخذ من دونك ﴾ أى متجاوزين إياك ﴿ من أولياء ﴾ نعبدهم لما بنا من الحالة المنافية له فأنى يتصور أن نحمل غيرنا على أن يتخذ ولياً غيرك فضلا أن يتخذنا وليا وأن نتخذ من دونك أولياء أى أتباعا فإن الولى كما يطلق على المتبوع يطلق على التابع كالمولى يطلق على الأعلى والأسفل ومنه أولياء الشيطان أى أتباعه وقرىء على البناء للمفعول من المتعدى إلى مفعولين كما فى قوله تعالى (واتخذ الله إبراهيم خليلا) ومفعوله الثانى من أولياء على أن من للتبعيض أى أن نتخذ بعض أولياء وهى على الأول مزيدة وتنكير أولياء من حيث أنهم أولياء مخصوصون وهم الجن والأصنام ﴿ ولكن متعتهم وآباءهم ﴾ استدراك مسوق لبيان أنهم هم الضالون بعد بيان تنزهم عن إضلالهم وقد نعى عليهم سوء صنيعهم حيث جعلوا أسباب الهداية أسبابا للضلالة أى ما أضللناهم ولكنك متعتهم وآباءهم بأنواع النعم ليعرفوا حقها ويشكروها فاستغرقوا فى الشهوات وانهمكوا فيها ﴿ حتى نسوا الذكر ﴾ أى غفلوا عن ذكرك أو عن التذكر فى آلائك والتدبر فى آياتك فجعلوا أسباب الهداية بسوء اختيارهم ذريعة إلى الغواية ﴿ وكانوا ﴾ أى فى قضائك المبنى على علمك الأزلى المتعلق بما سيصدر عنهم فيما لا يزال باختيارهم من الأعمال السيئة ﴿ قوما بورا ﴾ أى هالكين على أن بورا مصدر وصف به الفاعل مبالغة ولذلك يستوى فيه الواحد والجمع أو جمع بائر كعوذ فى جمع عائذ والجملة اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ما قبله وقوله تعالى ﴿ فقد كذبوكم ﴾ حكاية لاحتجاجه تعالى على العبدة بطريق تلوين الخطاب وصرفه عن المعبودين عند تمام جوابهم وتوجيهه إلى العبدة مبالغة فى تقريعهم وتبكيتهم على تقدير قول مرتب على الجواب أى فقال الله تعالى عند ذلك فقد كذبوكم المعبودون

أيها الكفرة ﴿ بما تقولون ﴾ أى فى قولكم إنهم آلهة وقيل فى قولكم هؤلاء أضلونا ويأباه أن تكذيبهم فى هذا القول لاتعلق له بما بعده من عدم استطاعتهم للصرف والنصر أصلا وإنما الذى يستتبعه تكذيبهم فى زعمهم أنهم آلهتهم وناصروهم وأيا ما كان فالباء بمعنى فى أو هى صلة للتكذيب على أن الجار والمجرور بدل اشتمال من الضمير المنصوب وقرىء بالياء أى كذبوكم بقولهم سبحانك الآية ﴿ فما تستطيعون ﴾ أى ماتملكون ﴿ صرفا ﴾ أى دفعاً للعذاب عنكم بوجه من الوجوه كما يعرب عنه التنكير أى لا بالذات ولا بالواسطة وقيل حيلة من قولهم إنه ليتصرف فى أموره أى يحتال فيها وقيل توبة ﴿ ولا نصرا ﴾ أى فردا من أفراد النصر لا من جهة أنفسكم ولا من جهة غيركم والفاء لترتيب عدم الاستطاعة على ما قبلها من التكذيب لكن لا على معنى أنه لولاه لوجدت الاستطاعة حقيقة بل فى زعمهم حيث كانوا يزعمون أنهم ليدفعون عنهم العذاب وينصرونهم وفيه ضرب تهكم بهم وقرىء يستطيعون على صيغة الغيبة أى ما يستطيع آلهتكم أن يصرفوا عنكم العذاب أو يحتالوا لكم ولا أن ينصروكم وترتب ما بعد الفاء على ما قبلها كما مر بيانه .

﴿ ومن يظلم منكم ﴾ أيها المكلفون كدأب هؤلاء حيث ركبوا متن المكابرة والعناد واستمروا على ماهم عليه من الفساد وتجاوزوا فى اللجاج كل حد معتاد ﴿ نذقه ﴾ فى الآخرة ﴿ عذابا كبيرا ﴾ لا يقادر قدره وهو عذاب النار وقرىء يذقه على أن الضمير لله سبحانه وتعالى وقيل لمصدر الفعل الواقع شرطا وتعميم الظلم لا يستلزم اشتراك الفاسق للكافر فى إذاقة العذاب الكبير فان الشرط فى اقتضاء الجزاء مقيد بعدم المزاحم وفاقا وهو التوبة والإحباط بالطاعة إجماعا وبالعفو عندنا ﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق ﴾ جواب عن قولهم (مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق) والجملة الواقعة بعد إلا صفة لموصوف قد حذف ثقة بدلالة الجار والمجرور عليه وأقيمت هى مقامه كما فى قوله تعالى (وما منا إلا له مقام معلوم) والمعنى ما أرسلنا أحدا قبلك من المرسلين إلا آكلين وماشين وقيل هى حال والتقدير إلا وإنهم

ليأكلون الخ وقرىء يمشون على البناء للمفعول أى يمشيهم حوائجهم أو الناس ﴿وجعلنا بعضكم﴾ تلوين للخطاب بتعميمه لسائر الرسل عليهم الصلاة والسلام بطريق التغليب والمراد بهذا البعض كفار الأمم فإن اختصاصهم بالرسل وتبعيتهم لهم مصحح لأن يعدوا بعضا منهم وبما فى قوله تعالى ﴿لبعض﴾ رسلهم لكن لا على معنى جعلنا بمجموع البعض الأول ﴿فتنة﴾ أى ابتلاء ومحنة لمجموع البعض الثانى ولا على معنى جعلنا كل فرد من أفراد البعض الأول فتنة لكل فرد من أفراد البعض الثانى ولا على معنى جعلنا بعضا مبهما من الأولين فتنة لبعض مبهم من الآخرين ضرورة أن بمجموع الرسل من حيث هو بمجموع غير مفتون بمجموع الأمم ولا كل فرد منهم بكل فرد من الأمم ولا بعض مبهم من الأولين لبعض مبهم من الآخرين بل على معنى جعلنا كل بعض معين من الأمم فتنة لبعض معين من الرسل كأنه قيل وجعلنا كل أمة مخصوصة من الأمم الكافرة فتنة لرسولها المعين المبعوث إليها وإنما لم يصرح بذلك تعويلا على شهادة الحال هذا وأما تعميم الخطاب لجميع المكلفين وإبقاء البعضين على العموم والإبهام على على معنى وجعلنا بعضكم أيها الناس فتنة لبعض آخر منكم فيأباه قوله تعالى ﴿أتصبرون﴾ فإنه غاية للجعل المذكور ومن البين أن ليس ابتلاء كل أحد من آحاد الناس مغيا بالصبر بل بما يناسب حاله على أن الاقتصار على ذكره من غير تعرض لمعادل له مما يدل على أن اللائق بحال المفتونين والمتوقع صدوره عنهم هو الصبر لا غير فلا بد أن يكون المراد بهم الرسل فيحصل به تسليته عليه الصلاة والسلام فالمعنى جرت سنتنا بموجب حكمتنا على ابتلاء المرسلين بأممهم وبمناصبتهم لهم العداوة وإيذائهم لهم وأقاويلهم الخارجة عن حدود الإنصاف لنعلم صبركم وقوله تعالى ﴿وكان ربك بصيرا﴾ وعد كريم للرسول عليه الصلاة والسلام بالأجر الجزيل لصبره الجميل مع مزيد تشريف له عليه الصلاة والسلام بالالتفات إلى اسم الرب مضافا إلى ضميره صلى الله عليه وسلم .

من أباطيل الكفار

﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا﴾ شروع فى حكاية بعض آخر من أقاويلهم

الباطلة وبيان بطلانها إثر إبطال أباطيلهم السابقة والجملة معطوفة على قوله تعالى (وقالوا ما لهذا الرسول) الخ ووضع الموصول موضع الضمير للتنبيه بما فى حيز الصلة على أن ما يحكى عنهم من الشناعة بحيث لا يصدر عمن يعتقد المصير الى الله عز وجل ولقاء الشيء عبارة عن مصادفته من غير أن يمنع مانع من إدراكه بوجه من الوجوه والمراد بلقائه تعالى إما الرجوع إليه تعالى بالبعث والحشر أو لقاء حسابه تعالى كما فى قوله تعالى (إنى ظننت أنى ملاق حسابيه) وبعدم رجائهم إياه عدم توقعهم له أصلا لإنكارهم البعث والحساب بالكلية لاعدم أملهم حسن اللقاء ولا عدم خوفهم سوء اللقاء لأن عدمهما غير مستلزم لما هم عليه من العتو والاستكبار وإنكار البعث والحساب رأسا أى وقال الذين لايتوقعون الرجوع إلينا أو حسابنا المؤدى الى سوء العذاب الذى تستوجبه مقالتهم ﴿لولا أنزل علينا الملائكة﴾ أى هلا أنزلوا علينا ليخبرونا بصدق محمد عليه الصلاة والسلام وقيل هلا أنزلوا علينا بطريق الرسالة وهو الأنسب لقولهم ﴿أو نرى ربنا﴾ من حيث أن كلا القولين ناشىء عن غاية غلوهم فى المكابرة والعتو حسبما يعرب عنه قوله تعالى ﴿لقد استكبروا فى أنفسهم﴾ أى فى شأنها حتى اجترأوا على التفوه بمثل هذه العظيمة الشنعاء ﴿وعتوا﴾ أى تجاوزوا الحد فى الظلم والطغيان ﴿عتوا كبيرا﴾ بالغا أقصى غاياته حيث أملوا نيل مرتبة المفاوضة الإلهية من غير توسط الرسول والملك كما قالوا (لو لا يكلمنا الله) ولم يكتفوا بما عاينوا من المعجزات القاهرة التى تخر لها صم الجبال فذهبوا فى الاقتراح كل مذهب حتى منتهم أنفسهم الخبيثة أمانى لا تكاد ترنو إليها أحداق الأمم ولا تمتد اليها أعناق الهمم ولا ينالها إلا أولو العزائم الماضية من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام واللام جواب قسم محذوف أى والله لقد استكبروا الآية وفيه من الدلالة على غاية قبح ما هم عليه والإشعار بالتعجب من استكبارهم وعتوهم ما لا يخفى .

﴿يوم يرون الملائكة﴾ استئناف مسوق لبيان ما يلقونه عند مشاهدتهم لما اقترحوه من نزول الملائكة عليهم السلام بعد استعظامه وبيان كونه فى غاية

مما يكون من الشناعة وإنما قيل يوم يرون دون أن يقال يوم ينزل الملائكة إيذانا من أول الأمر بأن رؤيتهم لهم ليست على طريق الإجابة إلى ما اقترحوه بل على وجه آخر غير معهود ويوم منصوب على الظرفية بما يدل عليه قوله تعالى ﴿لا بشرى يومئذ للمجرمين﴾ فإنه فى معنى لا يبشر يومئذ المجرمون والعدول الى نفى الجنس للمبالغة فى نفى البشرى وما قيل من أنه بمعنى يمنعون البشرى أو يعدمونها تهوين للخطيب فى مقام التهويل فان منع البشرى وفقدانها مشعران بأن هناك بشرى يمنعونها أو يفقدونها وأين هذا من نفيها بالكلية وحيث كان نفيها كناية عن إثبات ضدها كما أن نفى المحبة فى مثل قوله تعالى (والله لا يحب الكافرين) كناية عن البغض والمقت دل على ثبوت النذرى لهم على أبلغ وجه وآكده وقيل منصوب بفعل مقدر يؤكده بشرى على أن لا غير نافية للجنس وقيل منصوب على المفعولية بمضمر مقدم عليه أى اذكر يوم رؤيتهم الملائكة ويومئذ على كل حال تكرير للتأكيد والتهويل مع ما فيه من الإيذان بأن تقديم الظرف للاهتمام لا لقصر نفى البشرى على ذلك الوقت فقط فان ذلك مخل بتفظيع حالهم وللمجرمين تبيين على أنه مظهر وضع موضع الضمير تسجيلا عليهم بالإجرام مع ماهم عليه من الكفر وحمله على العموم بحيث يتناول فساق المؤمنين ثم الالتجاء فى إخراجهم عن الحرمان الكلى الى أن نفى البشرى حينئذ لا يستلزم نفيه فى جميع الأوقات فيجوز أن يبشروا بالعفو والشفاعة فى وقت آخر بمعزل عن الحق بعيد ﴿ويقولون﴾ عطف على ما ذكر من الفعل المنفى المنبىء عن كمال فظاعة ما يحيق بهم من الشر وغاية هول مطلعه ببيان أنهم يقولون عند مشاهدتهم له ﴿حجرا محجورا﴾ وهى كلمة يتكلمون بها عند لقاء عدو موتور وهجوم نازلة هائلة يضعونها موضع الاستعاذة حيث يطلبون من الله تعالى أن يمنع المكروه فلا يلحقهم فكان المعنى نسأل الله تعالى أن يمنع ذلك منعا ويحجره حجرا أو كسر الحاء تصرف فيه لاختصاصه بموضع واحد كما فى قعدك وعمرك وقد قرىء حجرا بالضم والمعنى أنهم يطلبون نزول الملائكة عليهم السلام ويقترحونه وهم إذا رأوهم كرهوا لقاءهم أشد كراهة وفزعوا منهم فزعا شديدا

وقالوا ما كانوا يقولونه عند نزول خطب شنيع وحلول بأس شديد فظيع ومحجورا صفة لحجرا وارادة للتأكيد كما قالوا ذيل ذائل وليل أليل وقيل يقولها الملائكة اقناطا للكفرة بمعنى حراما محرما عليكم الغفران أو الجنة أو البشرى أي جعل الله تعالى ذلك حراما عليكم وليس بواضح .

﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ﴾ بيان لحال ما كانوا يعملونه فى الدنيا من صلة رحم وإغاثة ملهوف وقرىء ضيف ومن على أسير وغير ذلك من مكارمهم ومحاسنهم التى لو كانوا عملوها مع الايمان لنالوا ثوابها بتمثيل حالهم وحال أعمالهم المذكورة بحال قوم خالفوا سلطانهم واستعصوا عليه فقدم إلى أشيائهم وقصد ما تحت أيديهم فأنحى عليها بالإفساد والتحريق ومزقها كل تمزيق بحيث لم يدع لها عينا ولا اثرا أى عمدنا إليها وأبطلناها أى أظهرنا بطلانها بالكلية من غير أن يكون هناك قدوم ولا شىء يقصد تشبيهه به والهباء شبه غبار يرى فى شعاع الشمس يطلع من الكوة من الهبوة وهى الغبار ومنثورا صفته شبه به أعمالهم المحبطة فى الحقارة وعدم الجدوى ثم بالمنثور منه فى الانتشار بحيث لا يمكن نظمه أو مفعول ثالث من حيث إنه كالخبر كما فى قوله تعالى (كونوا قردة خاسئين) ﴿ أصحاب الجنة ﴾ هم المؤمنون المشار إليهم فى قوله تعالى قل أذلك خير أم جنة الخلد التى وعد المتقون الخ ﴿ يومئذ ﴾ أى يوم إذ يكون ما ذكر من عدم التبشير وقولهم حجرا محجورا وجعل أعمالهم هباء منثورا ﴿ خير مستقرا ﴾ المستقر المكان الذى يستقر فيه فى أكثر الأوقات للتجالس والتحادث ﴿ وأحسن مقيلا ﴾ المقيل المكان الذى يؤوى إليه للاسترواح إلى الأزواج والتمتع بمغازلتهن سمى بذلك لما أن التمتع به يكون وقت القيلولة غالبا وقيل لأنه يفرغ من الحساب فى منتصف ذلك اليوم فقيل أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار وفى وصفه بزيادة الحسن مع حصول الخيرية بعطفه على المستقر رمز إلى أنه مزين بفنون الزين والزخارف والتفضيل المعتبر فيهما إما لإرادة الزيادة على الاطلاق أى هم فى أقصى ما يكون من خيرية المستقر وحسن المقيل وإما بالإضافة إلى ما للكفرة المتنعمين فى الدنيا أو إلى ما لهم فى

الآخرة بطريق التهكم بهم كما مر فى قوله تعالى (قل أذلك خير) الآية هذا وقد جوز أن يراد بأحدهما المصدر أو الزمان إشارة إلى أن مكانهم وزمانهم أطيب ما يتخيل من الأمكنة والأزمنة .

﴿ ويوم تشقق السماء ﴾ أى تنفتح وأصله تتشقق فحذفت إحدى التاءين كما فى تلظى وقرىء بإدغام التاء فى الشين ﴿ بالغمام ﴾ بسبب طلوع الغمام منها وهو الغمام الذى ذكر فى قوله تعالى (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة) قيل هو غمام أبيض رقيق مثل الضبابة ولم يكن إلا لبنى إسرائيل ﴿ ونزل الملائكة تنزيلا ﴾ أى تنزيلا عجيبا غير معهود قيل تنشق سماء سماء وينزل الملائكة خلال ذلك الغمام بصحائف أعمال العباد وقرىء ونزلت الملائكة وتنزل ونزل على صيغة المتكلم من الإنزال والتنزيل ونزل الملائكة وأنزل الملائكة ونزل الملائكة على حذف النون الذى هو فاء الفعل من تنزل ﴿ الملك يومئذ الحق للرحمن ﴾ أى السلطنة القاهرة والاستيلاء الكلى العام الثابت صورة ومعنى ظاهرا وباطنا بحيث لا زوال له أصلا ثابت للرحمن يومئذ فالملك مبتدأ والحق صفته وللرحمن خبره ويومئذ ظرف لثبوت الخبر للمبتدأ وفائدة التقييد أن ثبوت الملك المذكور له تعالى خاصة يومئذ وأما فيما عداه من أيام الدنيا فيكون لغيره أيضا تصرف صورى فى الجملة وقيل الملك مبتدأ والحق خبره وللرحمن متعلق بالحق أو بمحذوف على التبيين أو بمحذوف هو صفة للحق ويومئذ معمول للملك وقيل الخبر يومئذ والحق نعت للملك وللرحمن على ما ذكر وأيا ما كان فالجملة بمعناها عاملة فى الظرف أى ينفرد الله تعالى بالملك يوم تشقق وقيل الظرف منصوب بما ذكر فالجملة حينئذ استئناف مسوق لبيان أحواله وأهواله وإيراده تعالى بعنوان الرحمانية للإيذان بأن اتصافه تعالى بغاية الرحمة لا يهون الخطب على الكفرة لعدم استحقاقهم للرحمة كما فى قوله تعالى (يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم) والمعنى أن الملك الحقيقى يومئذ الرحمن ﴿ وكان ﴾ ذلك اليوم مع كون الملك فيه لله تعالى المبالغ فى الرحمة لعباده ﴿ يوما على الكافرين عسيرا ﴾ شديدا لهم وتقديم الجار والمجرور لمراعاة الفواصل

وأما للمؤمنين فيكون يسيرا بفضل الله تعالى وقد جاء فى الحديث أنه يهون يوم القيامة على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة صلاها فى الدنيا والجملة اعتراض تذييلى مقرر لما قبله .

﴿ ويوم يعض الظالم على يديه ﴾ عض اليدين والأنامل وأكل البنان وحرق الأسنان ونحوها كنايات عن الغيظ والحسرة لأنها من روادفهما والمراد بالظالم إما عقبة بن أبى معيط على ما قيل من أنه كان يكثر مجالسة النبى صلى الله عليه وسلم فدعاه عليه الصلاة والسلام يوما إلى ضيافته فأبى عليه الصلاة والسلام أن يأكل من طعامه حتى ينطق بالشهادتين ففعل وكان أبى بن خلف صديقه فعاتبه فقال صبأت فقال لا ولكن أبى أن يأكل من طعامى وهو فى بيتى فاستحييت منه فشهدت له فقال إنى لا أرضى منك إلا أن تأتيه فتطأ قفاه وتبزق فى وجهه فأتاه فوجده ساجدا فى دار الندوة ففعل ذلك فقال عليه الصلاة والسلام لا ألقاك خارجا من مكة إلا علوت رأسك بالسيف فأسر يوم بدر فأمر عليا رضى الله عنه فقتله وقيل قتله عاصم بن ثابت الأنصارى وطعن عليه الصلاة والسلام أبيا يوم أحد فى المبارزة فرجع إلى مكة ومات وأما جنس الظالم وهو داخل فيه دخولا أوليا وقوله تعالى ﴿ يقول ﴾ الخ حال من فاعل يعض وقوله تعالى ﴿ يا ليتنى ﴾ الخ محكى به ويا إما لمجرد التنبيه من غير قصد إلى تعيين المنبه أو المنادى محذوف أى يا هؤلاء ليتنى ﴿ اتخذت مع الرسول سبيلا ﴾ أى طريقا واحدا منجيا من هذه الورطات وهو طريق الحق ولم تتشعب بى طرق الضلالة أو حصلت فى صحبته عليه الصلاة والسلام طريقا ولم أكن ضالا لا طريق لى قط ﴿ يا ويلتا ﴾ بقلب ياء المتكلم ألفا كما فى صحارى ومدارى وقرىء على الأصل يا ويلتى أى هلكتى تعالى واحضرى فهذا أوانك ﴿ ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا ﴾ يريد من أضله فى الدنيا فإن فلانا كناية عن الأعلام كما أن الهن كناية عن الأجناس وقيل فلان كناية عن علم ذكور من يعقل وفلانة عن علم أناثهم وفل كناية عن نكرة من يعقل من الذكور وفلة عمن يعقل من الإناث والفلان والفلانة من غير العاقل ويختص فل بالنداء إلا فى ضرورة كما فى قوله ؎

* فى لجة أمسك فلانا عن فل *

وقوله :

* خذا حدثانى عن فل وفلان *

وليس فل مرخما من فلان خلافا للفراء واختلفوا فى لام فل وفلان فقيل واو وقيل ياء ، هذا فإن أريد بالظالم عقبة ففلان كناية عن أبى وإن أريد به الجنس فهو كناية عن علم كل من يضله كائنا من كان من شياطين الإنس والجن وهذا التمنى منه وإن كان مسوقا لإبراز الندم والحسرة لكنه متضمن لنوع تعلل واعتذار بتوريك جنايته إلى الغير وقوله تعالى :

﴿ ولقد أضلنى عن الذكر ﴾ تعليل لتمنيه المذكور وتوضيح لتعلله وتصديره باللام القسمية للمبالغة فى بيان خطئه وإظهار ندمه وحسرته أى والله لقد أضلنى عن ذكر الله تعالى أو عن القرآن أو عن موعظة الرسول عليه الصلاة والسلام أو كلمة الشهادة ﴿ بعد إذ جاءنى ﴾ وتمكنت منه وقوله تعالى ﴿ وكان الشيطان للإنسان خذولا ﴾ أى مبالغا فى الخذلان حيث يواليه حتى يؤديه إلى الهلاك ثم يتركه ولا ينفعه اعتراض مقرر لمضمون ما قبله أما من جهته تعالى أو من تمام كلام الظالم على أنه سمى خليله شيطانا بعد وصفه بالإضلال الذى هو أخص الأوصاف الشيطانية أو على أنه أراد بالشيطان إبليس لأنه الذى حمله على مخالة المضلين ومخالفة الرسول الهادى عليه الصلاة والسلام بوسوسته وإغوائه لكن وصفه بالخذلان يشعر بأنه كان يعده فى الدنيا ويمنيه بأنه ينفعه فى الآخرة وهو أوفق بحال إبليس .

﴿ وقال الرسول ﴾ عطف على قوله تعالى (وقال الذين لا يرجون لقاءنا) وما بينهما اعتراض مسوق لاستعظام ما قالوه وبيان ما يحيق بهم فى الآخرة من الأهوال والخطوب وإيراده عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة لتحقيق الحق والرد على نحورهم حيث كان ما حكى عنهم قدحا فى رسالته عليه الصلاة والسلام أى قالوا كيت وكيت وقال الرسول إثر ما شاهد منهم غاية العتو ونهاية

الطغيان بطريق البث إلى ربه عز وجل ﴿ يارب إن قومى ﴾ يعنى الذين حكى عنهم ما حكى من الشنائع ﴿ اتخذوا هذا القرآن ﴾ الذى من جملته هذه الآيات الناطقة بما يحيق بهم فى الآخرة من فنون العقاب كما ينبىء عنه كلمة الإشارة ﴿ مهجورا ﴾ أى متروكا بالكلية ولم يؤمنوا به ولم يرفعوا إليه رأسا ولم يتأثروا بوعيده وفيه تلويح بأن من حق المؤمن أن يكون كثير التعاهد للقرآن كيلا يندرج تحت ظاهر النظم الكريم فإنه روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال من تعلم القرآن وعلق مصحفا لم يتعاهده ولم ينظر فيه جاء يوم القيامة متعلقا به يقول يارب العالمين عبدك هذا اتخذنى مهجورا اقض بينى وبينه وقيل هو من هجر إذا هذى أى جعلوه مهجورا فيه إما على زعمهم الباطل وإما بأن هجروا فيه إذا سمعوه كما يحكى عنهم من قولهم (لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه) وقد جوز أن يكون المهجور بمعنى الهجر كالمجلود والمعقول فالمعنى اتخذوه هجرا وهذيانا وفيه من التحذير والتخويف ما لا يخفى فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إذا شكوا الى الله تعالى قومهم عجل لهم العذاب ولم ينظروا وقوله تعالى ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين ﴾ تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحمل له على الاقتداء بمن قبله من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أى كما جعلنا لك أعداء من المشركين يقولون ما يقولون ويفعلون ما يفعلون من الأباطيل جعلنا لكل نبى من الأنبياء الذين هم أصحاب الشريعة والدعوة إليها عدوا من مجرمى قومهم فاصبر كما صبروا وقوله تعالى ﴿ وكفى بربك هاديا ونصيرا ﴾ وعد كريم له عليه الصلاة والسلام بالهداية إلى كافة مطالبه والنصر على أعدائه أى كفاك مالك أمرك ومبلغك إلى الكمال هاديا لك إلى ما يوصلك إلى غاية الغايات التى من جملتها تبليغ الكتاب أجله وإجراء أحكامه فى أكناف الدنيا إلى يوم القيامة ونصيرا لك على جميع من يعاديك ﴿ وقال الذين كفروا ﴾ حكاية لاقتراحهم الخاص بالقرآن الكريم بعد حكاية اقتراحهم فى حقه عليه الصلاة والسلام والقائلون هم القائلون أولا وإيرادهم بعنوان الكفر لذمهم به والإشعار بعلة الحكم ﴿ لولا نزل عليه القرآن ﴾ التنزيل ههنا مجرد عن معنى

التدريج كما فى قوله تعالى (يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء)
ويجوز أن يراد به الدلالة على كثرة المنزل فى نفسه أى هلا أنزل كله ﴿ جملة
واحدة ﴾ كالكتب الثلاثة وبطلان هذه الكلمة الحمقاء مما لا يكاد يخفى على أحد
فإن الكتب المتقدمة لم يكن شاهد صحتها ودليل كونها من عند الله تعالى إعجازها
وأما القرآن الكريم فبينة صحته وآية كونه من عند الله تعالى نظمه المعجز الباقى
على مر الدهور المتحقق فى كل جزء من أجزائه المقدرة بمقدار أقصر السور
حسبما وقع به التحدى ولا ريب فى أن ما يدور عليه فلك الإعجاز هو المطابقة
لما تقتضيه الأحوال ومن ضرورة تغيرها وتجددها تغير ما يطابقها حتما على
أن فيه فوائد جمة قد أشير إلى بعض منها بقوله تعالى :

﴿ كذلك لنثبت به فؤادك ﴾ فإنه استئناف وارد من جهته تعالى لرد مقالتهم
الباطلة وبيان الحكمة فى التنزيل التدريجى ومحل الكاف النصب على أنها صفة
لمصدر مؤكد لمضمر معلل بما بعده وذلك إشارة إلى ما يفهم من كلامهم أى مثل
ذلك التنزيل المفرق الذى قدحوا فيه واقترحوا خلافه نزلناه لا تنزيلا مغايراً له
لنقوى بذلك التنزيل المفرق فؤادك فان فيه تيسيرا لحفظ النظم وفهم المعانى
وضبط الأحكام والوقوف على تفاصيل ما روعى فيها من الحكم والمصالح
المبنية على المناسبة على أنها منوطة بأسبابها الداعية إلى شرعها ابتداء أو تبديلا
بالنسخ من أحوال المكلفين وكذلك عامة ما ورد فى القرآن المجيد من الأخبار
وغيرها متعلقة بأمور حادثة من الأقاويل والأفاعيل ومن قضية تجددها تجدد
ما يتعلق بها كالاقتراحات الواقعة من الكفرة الداعية إلى حكايتها وإبطالها
وبيان ما يؤول إليه حالهم فى الآخرة على أنهم فى هذا الاقتراح كالباحث عن
حتفه بظلفه حيث أمروا بالاتيان بمثل نوبة من نوب التنزيل فظهر عجزهم
عن المعارضة وضاقت عليهم الأرض بما رحبت فكيف لو تحدوا بكلمة وقوله
تعالى ﴿ ورتلناه ترتيلا ﴾ عطف على ذلك المضمر وتنكير ترتيلا للتفخيم
أى كذلك نزلناه ورتلناه ترتيلا بديعا لا يقادر قدره ومعنى ترتيله تفريقه آية
بعد آية قاله النخعى والحسن وقتادة وقال ابن عباس رضى الله عنهما بيناه بيانا

فيه ترتيل وتثبيت وقال السدى فصلناه تفصيلا وقال مجاهد جعلنا بعضه فى إثر بعض وقيل هو الأمر بترتيل قراءته بقوله تعالى (ورتل القرآن ترتيلا) وقيل قرأناه عليك بلسان جبريل عليه السلام شيئا فشيئا فى عشرين أو فى ثلاث وعشرين سنة على تؤدة وتمهل .

﴿ولا يأتونك بمثل﴾ من الأمثال التى من جملتها ما حكى من اقتراحاتهم القبيحة الخارجة عن دائرة العقول الجارية لذلك مجرى الأمثال أى لا يأتونك بكلام عجيب هو مثل فى البطلان يريدون به القدح فى حقك وحق القرآن ﴿إلا جئناك﴾ فى مقابلته ﴿بالحق﴾ أى بالجواب الحق الثابت الذى ينحى عليه بالإبطال ويحسم مادة القيل والقال كما مر من الأجوبة الحقة القالعة لعروق أسئلتهم الشنيعة الدامغة لها بالكلية وقوله تعالى ﴿وأحسن تفسيرا﴾ عطف على الحق أى جئناك بأحسن تفسيرا أو على محل بالحق أى آتيناك الحق وأحسن تفسيرا أى بيانا وتفصيلا على معنى أنه فى غاية ما يكون من الحسن فى حد ذاته لا أن ما يأتون به له حسن فى الجملة وهذا أحسن منه كما مر والاستثناء مفرغ محله النصب على الحالية أى لا يأتونك بمثل إلا حال إيتائنا إياك الحق الذى لا محيد عنه وفيه من الدلالة على المسارعة إلى إبطال ما أتوا به وتثبيت فؤاده عليه الصلاة والسلام ما لا يخفى وهذا بعبارته ناطق ببطلان جميع الأسئلة وبصحة جميع الأجوبة وبإشارته منبىء عن بطلان السؤال الأخير وصحة جوابه إذ لولا أن تنزيل القرآن على التدريج لما أمكن إبطال تلك الاقتراحات الشنيعة ولما حصل تثبيت فؤاده عليه الصلاة والسلام من تلك الحيثية هذا وقد جوز أن يكون المثل عبارة عن الصفة الغريبة التى كانوا يقترحون كونه عليه الصلاة والسلام عليها من مقارنة الملك والاستغناء عن الأكل والشرب وحيازة الكنز والجنة ونزول القرآن عليه جملة واحدة على معنى لا يأتونك بحال عجيبة يقترحون اتصافك بها قائلين هلا كان على هذه الحالة الا أعطيناك نحن من الأحوال الممكنة ما يحق لك فى حكمتنا ومشيئتنا أن تعطاه وما هو أحسن

تكشيفا لما بعثت عليه ودلالة على صحته وهو الذى أنت عليه فى الذات والصفات ويأباه الاستثناء المذكور فإن المتبادر منه أن يكون ما أعطاه الله تعالى من الحق مترتبا على ما أتوا به من الأباطيل دامغا لها ولا ريب فى أن ما آتاه الله تعالى من الملكات السنية اللائقة بالرسالة قد أتاه من أول الأمر لا بمقابلة ما حكى عنهم من الاقتراحات لأجل دمغها وإبطالها .

﴿ الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم ﴾ أى يحشرون كائنين على وجوههم يسحبون عليها ويجرون إلى جهنم وقيل مقلوبين وجوههم على قفاهم وأرجلهم إلى فوق . روى عنه عليه الصلاة والسلام «يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أثلاث ثلث على الدواب وثلث على وجوههم وثلث على أقدامهم ينسلون نسلا » وأما ماقيل متعلقة قلوبهم بالسفليات متوجهة وجوههم إليها فبعيد لأن هول ذلك اليوم ليس بحيث يبقى لهم عنده تعلق بالسفليات أو توجه إليها فى الجملة ومحل الموصول إما النصب أو الرفع على الذم أو الرفع على الابتداء وقوله تعالى ﴿ أولئك ﴾ بدل منه أو بيان له وقوله تعالى ﴿ شر مكانا وأضل سبيلا ﴾ خبر له أو اسم الإشارة مبتدأ ثان وشر خبره والجملة خبر للموصول ووصف السبيل بالضلال من باب الإسناد المجازى للمبالغة والمفضل عليه الرسول عليه الصلاة والسلام على منهاج قوله تعالى (قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه) كأنه قيل إن حاملهم على هذه الاقتراحات تحقير مكانه عليه الصلاة والسلام بتضليل سبيله ولا يعلمون حالهم ليعلموا أنهم شر مكانا وأضل سبيلا وقيل هو متصل بقوله تعالى (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا) ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب ﴾ جملة مستأنفة سيقت لتأكيد ما مر من التسلية والوعد بالهداية والنصر فى قوله تعالى (وكفى بربك هاديا ونصيرا) بحكاية ما جرى بين من ذكر من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وبين قومهم حكاية إجمالية كافية فيما هو المقصود واللام جواب لقسم محذوف أى وبالله ولقد آتينا موسى التوراة أى أنزلناها عليه بالآخرة ﴿ وجعلنا معه ﴾ الظرف متعلق بجعلنا وقوله تعالى : ﴿ أخاه ﴾ مفعول أول له وقوله تعالى

﴿ هرون ﴾ بدل من أخاه أو عطف بيان له على عكس ما وقع فى سورة طه وقوله تعالى ﴿ وزيرا ﴾ مفعول ثان له وقد مر ثمة معنى الوزير أى جعلناه فى أول الأمر وزيرا له .

﴿ فقلنا ﴾ لهما حينئذ ﴿ اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا ﴾ هم فرعون وقومه والآيات هى المعجزات التسع المفصلات الظاهرة على يدى موسى عليه السلام ولم يوصف القوم لهما عند إرسالهما إليهم بهذا الوصف ضرورة تأخر تكذيب الآيات عن إظهارها المتأخر عن ذهابهما المتأخر عن الأمر به بل إنما وصفوا بذلك عند الحكاية لرسول الله صلى الله عليه وسلم بيانا لعلة استحقاقهم لما يحكى بعده من التدمير أى فذهبا إليهم فأرياهم آياتنا كلها فكذبوها تكذيبا مستمرا ﴿ فدمرناهم ﴾ إثر ذلك التكذيب المستمر ﴿ تدميرا ﴾ عجيبا هائلا لا يقادر قدره ولا يدرك كنهه فاقتصر على حاشيتى القصة اكتفاء بما هو المقصود وحمل قوله تعالى فدمرناهم على معنى لحكمنا بتدميرهم مع كونه تعسفا ظاهرا مما لا وجه له إذ لا فائدة يعتد بها فى حكاية الحكم بتدميرهم قد وقع وانقضى والتعرض فى مطلع القصة لإيتاء الكتاب مع أنه كان بعد مهلك القوم ولم يكن له مدخل فى هلاكهم كسائر الآيات للإيذان من أول الأمر ببلوغه عليه الصلاة والسلام غاية الكمال ونيله نهاية الآمال التى هى إنجاء بنى إسرائيل من ملكة فرعون وإرشادهم إلى طريق الحق بما فى التوراة من الأحكام إذ به يحصل تأكيد الوعد بالهداية على الوجه الذى مر بيانه وقرىء فدمرتهم وفدمراهم على التأكيد بالنون الثقيلة ﴿ وقوم نوح ﴾ منصوب بمضمر يدل عليه قوله تعالى فدمرناهم أى ودمرنا قوم نوح وقيل عطف على مفعول فدمرناهم وليس من ضرورة ترتب تدميرهم على ما قبله ترتب تدمير هؤلاء عليه لا سيما وقد بين سببه بقوله تعالى ﴿ لما كذبوا الرسل ﴾ أى نوحا ومن قبله من الرسل أو نوحا وحده لأن تكذيبه تكذيب للكل لاتفاقهم على التوحيد والإسلام وقيل هو منصوب بمضمر يفسره قوله تعالى ﴿ أغرقناهم ﴾ وإنما يتسنى ذلك على تقدير كون كلمة لما ظرف زمان وأما على تقدير كونها حرف وجود

لوجود فلا لأنه حينئذ جواب لما لا يفسر ماقبله مع أنه مخل بعطف المنصوبات الآتية على قوم نوح لما أن إهلاكهم ليس بالإغراق فالوجه ماتقدم وقوله تعالى أغرقناهم استئناف مبين لكيفية تدميرهم .

﴿ وجعلناهم ﴾ أى جعلنا إغراقهم أو قصتهم ﴿ للناس آية ﴾ أى آية عظيمة يعتبر بها كل من شاهدها أو سمعها وهى مفعول ثان لجعلنا والناس ظرف لغو له أو متعلق بمحذوف وقع حالا من آية إذ لو تأخر عنها لكان صفة لها ﴿ وأعتدنا للظالمين ﴾ أى لهم والإظهار فى موقع الإضمار للإيذان بتجاوزهم الحد فى الكفر والتكذيب ﴿ عذابا أليما ﴾ هو عذاب الآخرة إذ لا فائدة فى الإخبار باعتاد العذاب الذى قد أخبر بوقوعه من قبل أو لجميع الظالمين الباقين الذين لم يعتبروا بما جرى عليهم من العذاب فيدخل فى زمرتهم قريش دخولا أوليا ويحتمل العذاب الدنيوى والأخروى ﴿ وعاداً ﴾ عطف على قوم نوح وقيل على المفعول الأول لجعلناهم وقيل على محل الظالمين إذ هو فى معنى وعدنا الظالمين وكلاهما بعيد ﴿ وثمود ﴾ الكلام فيه وفيما بعده كما فيما قبله وقرىء وثمودا على تأويل الحى أو على أنه اسم الأب الأقصى ﴿ وأصحاب الرس ﴾ هم قوم يعبدون الأصنام فبعث الله تعالى إليهم شعيبا عليه السلام فكذبوه فبينما هم حول الرس وهى البئر التى لم تطو بعد إذ انهارت فخسف بهم وبديارهم وقيل الرس قرية بفلج اليمامة كان فيها بقايا ثمود فبعث إليهم نبى فقتلوه فهلكوا وقيل هو الأخدود وقيل بئر بأنطاكية قتلوا فيها حبيبا النجار وقيل هم أصحاب حنظلة بن صفوان النبى عليه السلام ابتلاهم الله تعالى بطير عظيم كان فيها من كل لون وسموها عنقاء لطول عنقها وكانت تسكن جبلهم الذى يقال له فتخ أو دمخ فتنقض على صبيانهم فتخطفهم إن أعوزها الصيد ولذلك سميت مغربا فدعا عليها حنظلة عليه السلام فأصابتها الصاعقة ثم إنهم قتلوه عليه السلام فأهلكوا وقيل قوم كذبوا رسولهم فرسوه أى دسوه فى بئر .

﴿ وقرونا ﴾ أى أهل قرون قيل القرن أربعون سنة وقيل سبعون وقيل مائة وقيل مائة وعشرون ﴿ بين ذلك ﴾ أى بين ذلك المذكور من الطوائف

والأمم وقد يذكر الذاكر أشياء مختلفة ثم يشير إليها بذلك ويحسب الحاسب أعدادا متكاثرة ثم يقول فذلك كيت وكيت على ذلك المذكور وذلك المحسوب ﴿ كثيرا ﴾ لا يعلم مقدارها إلا العليم الخبير ولعل الاكتفاء فى شئون تلك القرون بهذا البيان الإجمالى لما أن كل قرن منها لم يكن فى الشهرة وغرابة القصة بمثابة الأمم المذكورة ﴿ وكلا ﴾ منصوب بمضمر يدل عليه ما بعده فإن ضرب المثل فى معنى التذكير والتحذير والمحذوف الذى عوض عنه التنوين عبارة إما عن الأمم التى لم يذكر أسباب إهلاكهم وإما عن الكل فإن ماحكى عن قوم نوح وقوم فرعون تكذيبهم للآيات والرسل لاعدم التأثر من الأمثال المضروبة أى ذكرنا وأنذرنا كل واحد من المذكورين ﴿ ضربنا له الأمثال ﴾ أى بينا له القصص العجيبة الزاجرة عما هم عليه من الكفر والمعاصى بواسطة الرسل ﴿ وكلا ﴾ أى كل واحد منهم لا بعضهم دون بعض ﴿ تبرنا تتبيرا ﴾ عجيباً هائلا لما أنهم لم يتأثروا بذلك ولم يرفعوا له رأسا وتمادوا على ما هم عليه من الكفر والعدوان وأصل التتبير التفتيت قال الزجاج كل شىء كسرته وفتته فقد تبرته ومنه التبر لفتات الذهب والفضة .

﴿ ولقد أتوا ﴾ جملة مستأنفة مسوقة لبيان مشاهدتهم لآثار هلاك بعض الأمم المتبرة وعدم اتعاظهم بها وتصديرها بالقسم لمزيد تقرير مضمونها أى والله لقد أتى قريش فى متاجرهم إلى الشام ﴿ على القرية التى أمطرت ﴾ أى أهلكت بالحجارة وهى قرى قوم لوط وكانت خمس قرى مانجت منها إلا واحدة كان أهلها لا يعملون العمل الخبيث وأما البواقى فأهلكها الله تعالى بالحجارة وهى المرادة بقوله تعالى ﴿ مطر السوء ﴾ وانتصابه إما على أنه مصدر مؤكد بحذف الزوائد كما قيل فى أنبته الله تعالى نباتا حسنا أى إمطار السوء أو على أنه مفعول ثان إذ المعنى أعطيت أو وليت مطر السوء ﴿ أفلم يكونوا يرونها ﴾ توبيخ لهم على تركهم التذكر عند مشاهدة مايوجبه والهمزة لإنكار نفى استمرار رؤيتهم لها وتقرير استمرارها حسب استمرار ما يوجبها من إتيانهم عليها لا لإنكار استمرار نفى رؤيتهم وتقرير رؤيتهم لها فى الجملة والفاء لعطف

مدخولها على مقدر يقتضيه المقام أى ألم يكونوا ينظرون إليها فلم يكونوا يرونها أو أكانوا ينظرون إليها فلم يكونوا يرونها فى مرار مرورهم ليتعظوا بما كانوا يشاهدونه من آثار العذاب فالمنكر فى الأول ترك النظر وعدم الرؤية معا وفى الثانى عدم الرؤية مع تحقق النظر الموجب لها وقوله تعالى ﴿ بل كانوا لا يرجون نشورا ﴾ إما إضراب عما قبله من عدم رؤيتهم لآثار ما جرى على أهل القرى من العقوبة وبيان لكون عدم اتعاظهم بسبب إنكارهم لكون ذلك عقوبة لمعاصيهم لا لعدم رؤيتهم لآثارها خلا أنه اكتفى عن التصريح بإنكارهم ذلك بذكر ما يستلزمه من إنكارهم للجزاء الأخروى الذى هو الغاية من خلق العالم وقد كنى عن ذلك بعدم رجاء النشور أى عدم توقعه كأنه قيل بل كانوا ينكرون النشور المستتبع للجزاء الأخروى ولا يرون لنفس من النفوس نشوراً أصلا مع تحققه حتما وشموله للناس عموما واطراده وقوعا فكيف يعترفون بالجزاء الدنيوى فى حق طائفة خاصة مع عدم الاطراد والملازمة بينه وبين المعاصى حتى يتذكروا ويتعظوا بما شاهدوه من آثار الهلاك وإنما يحملونه على الاتفاق وإما انتقال من التوبيخ بما ذكر من ترك التذكر إلى التوبيخ بما هو أعظم منه من عدم توقع النشور .

﴿ وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا ﴾ أى ما يتخذونك إلا مهزوءاً به على معنى قصر معاملتهم معه عليه الصلاة والسلام على اتخاذهم إياه عليه الصلاة والسلام هزؤاً لا على معنى قصر اتخاذهم على كونه هزؤا كما هو المتبادر من ظاهر العبارة كأنه قيل ما يفعلون بك إلا اتخاذك هزوا وقد مر تحقيقه فى قوله تعالى (إن أتبع إلا ما يوحى إلى) من سورة الأنعام وقوله تعالى ﴿ أهذا الذى بعث الله رسولا ﴾ محكى بعد قول مضمر هو حال من فاعل يتخذونك أى يستهزؤن بك قائلين أهذا الذى الخ والإشارة للاستحقار وإبراز بعث الله رسولا فى معرض التسليم بجعله صلة للموصول الذى هو صفته عليه الصلاة والسلام مع كونهم فى غاية النكير لبعثه عليه الصلاة والسلام بطريق التهكم والاستهزاء وإلا لقالوا أبعث الله هذا رسولا أو أهذا الذى يزعم أنه بعثه الله رسولا ﴿ إن كاد ﴾ إنه

مخففة من إن وضمير الشأن محذوف أى إنه كاد ﴿ ليضلنا عن آلهتنا ﴾ أى ليصرفنا عن عبادتها صرفا كليا بحيث يبعدنا عنها لا عن عبادتها فقط والعدول إلى الإضلال لغاية ضلالهم بادعاء أن عبادتها طريق سوى ﴿ لولا أن صبرنا عليها ﴾ ثبتنا عليها واستمسكنا بعبادتها ولولا فى أمثال هذا الكلام تجرى مجرى التقييد للحكم المطلق من حيث المعنى كما أشار إليه فى قوله تعالى (ولقد همت به) الخ وهذا اعتراف منهم بأنه عليه الصلاة والسلام قد بلغ من الاجتهاد فى الدعوة إلى الحق وإظهار المعجزات وإقامة الحجج والبينات إلى حيث شارفوا أن يتركوا دينهم لولا فرط لجاجهم وغاية عنادهم يروى أنه من قول أبى جهل ﴿وسوف يعلمون﴾ جواب من جهته تعالى لآخر كلامهم ورد لما ينبىء عنه من نسبته عليه الصلاة والسلام إلى الضلال فى ضمن الإضلال أى سوف يعلمون البتة وإن تراخى ﴿ حين يرون العذاب ﴾ الذى يستوجبه كفرهم وعنادهم ﴿من أضل سبيلا ﴾ وفيه مالا يخفى من الوعيد والتنبيه على أنه تعالى لا يهملهم وإن أمهلهم.

﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ تعجيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم من شناعة حالهم بعد حكاية قبائحهم من الأقوال والأفعال وبيان ما لهم من المصير والمآل وتنبيه على أن ذلك من الغرابة بحيث يجب أن يرى ويتعجب منه وإلهه مفعول ثان لاتخذ قدم على الأول للاعتناء به لأنه الذى يدور عليه أمر التعجيب ومن توهم أنهما على الترتيب بناء على تساويهما فى التعريف فقد زل منه أن المفعول الثانى فى هذا الباب هو المتلبس بالحالة الحادثة أى أرأيت من جعل هواه إلهاً لنفسه من غير أن يلاحظه وبنى عليه أمر دينه معرضا عن استماع الحجة الباهرة والبرهان النير بالكلية على معنى انظر إليه وتعجب منه وقوله تعالى ﴿ أفأنت تكون عليه وكيلا ﴾ إنكار واستبعاد لكونه عليه الصلاة والسلام حفيظا عليه يزجره عما هو عليه من الضلال ويرشده إلى الحق طوعا أو كرها والفاء لترتيب الإنكار على ما قبله من الحالة الموجبة له كأنه قيل أبعد ما شاهدت غلوه فى طاعة الهوى وعتوه عن اتباع الهدى تقسره على الإيمان شاء أو أبى وقوله تعالى ﴿ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ﴾

إضراب وانتقال عن الإنكار المذكور إلى إنكار حسبانه عليه الصلاة والسلام لهم ممن يسمع أو يعقل حسبما ينبىء عنه جده عليه الصلاة والسلام فى الدعوة واهتمامه بالإرشاد والتذكير لكن لا على أنه لا يقع كالأول بل على أنه لا ينبغى أن يقع أى بل أتحسب أن أكثرهم يسمعون ما تتلو عليهم من الآيات حق السماع أو يعقلون ما فى تضاعيفها من المواعظ الزاجرة عن القبائح الداعية إلى المحاسن فتعتنى بشأنهم وتطمع فى إيمانهم وضمير أكثرهم لمن وجمعه باعتبار معناها كما أن الإفراد فى الضمائر الأول باعتبار لفظها وضمير الفعلين لأكثر لا لما أضيف هو إليه وقوله تعالى :

﴿ إن هم إلا كالأنعام ﴾ الخ جملة مستأنفة مسوقة لتقرير النكير وتأكيده وحسم مادة الحسبان بالمرة أى ما هم فى عدم الانتفاع بما يقرع آذانهم من قوارع الآيات وانتفاء التدبر فيما يشاهدونه من الدلائل والمعجزات إلا كالبهائم التى هى مثل فى الغفلة وعلم فى الضلالة ﴿ بل هم أضل ﴾ منها ﴿ سبيلا ﴾ لما أنها تنقاد لصاحبها الذى يعلفها ويتعهدها وتعرف من يحسن إليها ممن يسىء إليها وتطلب ما ينفعها وتجتنب ما يضرها وتهتدى لمراعيها ومشاربها وتأوى إلى معاطنها وهؤلاء لا ينقادون لربهم وخالقهم ورازقهم ولا يعرفون إحسانه إليهم من إساءة الشيطان الذى هو أعدى عدوهم ولا يطلبون الثواب الذى هو أعظم المنافع ولا يتقون العقاب الذى هو أشد المضار والمهالك ولا يهتدون للحق الذى هو المشرع الهنى والمورد العذب الروى ولأنها إن لم تعتقد حقا مستتبعا لاكتساب الخير لم تعتقد باطلا مستوجبا لاقتراف الشر بخلاف هؤلاء حيث مهدوا قواعد الباطل وفرعوا عليها أحكام الشرور ولأن أحكام جهالتها وضلالتها مقصورة على أنفسها لا تتعدى إلى أحد وجهالة هؤلاء مؤدية إلى ثوران الفتنة والفساد وصد الناس عن سنن السداد وهيجان الهرج والمرج فيما بين العباد ولأنها غير معطلة لقوة من القوى المودعة بل صارفة لها إلى ما خلقت هى له فلا تقصير من قبلها فى طلب الكمال وأما هؤلاء فهم معطلون لقواهم العقلية مضيعون للفطرة الأصلية التى فطر الناس عليها مستحقون بذلك أعظم العقاب وأشد النكال .

﴿ ألم تر إلى ربك ﴾ بيان لبعض دلائل التوحيد إثر بيان جهالة المعرضين عنها وضلالتهم والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والهمزة للتقرير والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام لتشريفه عليه الصلاة والسلام وللإيذان بأن ما يعقبه من آثار ربوبيته ورحمته تعالى أى ألم تنظر إلى بديع صنعه تعالى ﴿ كيف مد الظل ﴾ أى كيف أنشأ ظل أى مظل كان من جبل أو بناء أو شجرة عند ابتداء طلوع الشمس ممتدا لا أنه تعالى مده بعد أن لم يكن كذلك كما بعد نصف النهار إلى غروبها فإن ذلك مع خلوه عن عن التصريح بكون نفسه بإنشائه تعالى وإحداثه يأباه سياق النظم الكريم وأما ما قيل من أن المراد بالظل ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس وأنه أطيب الأوقات فإن الظلمة الخالصة تنفر عنها الطباع وشعاع الشمس يسخن الجو ويبهر البصر ولذلك وصف به الجنة فى قوله تعالى (وظل ممدود) فغير سديد إذ لا ريب فى أن المراد تنبيه الناس على عظيم قدرة الله عز وجل وبالغ حكمته فيما يشاهدونه فلا بد أن يراد بالظل ما يتعارفونه من حالة مخصوصة يشاهدونها فى موضع يحول بينه وبين الشمس جسم كثيف مخالفة لما فى جوانبه من مواقع ضح الشمس وما ذكر وإن كان فى الحقيقة ظلا للأفق الشرقى لكنهم لا يعدونه ظلا ولا يصفونه بأوصافه المعهودة ولعل توجيه الرؤية إليه سبحانه وتعالى مع أن المراد تقرير رؤيته عليه الصلاة والسلام لكيفية مد الظل للتنبيه على أن نظره عليه الصلاة والسلام غير مقصور على ما يطالعه من الآثار والصنائع بل مطمح أنظاره معرفة شؤن الصانع المجيد وقوله تعالى :

﴿ ولو شاء لجعله ساكنا ﴾ جملة اعترضت بين المعطوفين للتنبيه من أول الأمر على أنه لا مدخل فيما ذكر من المد للأسباب العادية وإنما المؤثر فيه المشيئة والقدرة ومفعول المشيئة محذوف على القاعدة المستمرة من وقوعها شرطا وكون مفعولها مضمون الجزاء أى ولو شاء سكونه لجعله ساكنا أى ثابتاً على حاله من الطول والامتداد وإنما عبر عن ذلك بالسكون لما أن مقابله الذى هو تغير حاله حسب تغير الأوضاع بين المظل وبين الشمس يرى رأى العين حركة

وانتقالا وحاصله أنه لا يعتريه اختلاف حال بأن لا تنسخه الشمس وأما التعليل بأن يجعل الشمس مقيمة على وضع واحد فمداره الغفول عما سيق له النظم الكريم ونطق به صريحا من بيان كمال قدرته القاهرة وحكمته الباهرة بنسبة جميع الأمور الحادثة إليه تعالى بالذات وإسقاط الأسباب العادية عن رتبة السببية والتأثير بالكلية وقصرها على مجرد الدلالة على وجود المسببات لا بذكر قدرته تعالى على بعض الخوارق كإقامة الشمس فى مقام واحد على أنها أعظم من إبقاء الظل على حاله فى الدلالة على ما ذكر من كمال القدرة والحكمة لكونه من من فروعها ومستتبعاتها فهى أولى وأحق بالإيراد فى معرض البيان وقوله تعالى :

﴿ ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ﴾ عطف على مد داخل فى حكمه أى جعلناها علامة يستدل بأحوالها المتغيرة على أحواله من غير أن يكون بينهما سببية وتأثير قطعا حسبما نطق به الشرطية المعترضة والالتفات إلى نون العظمة لما فى الجعل المذكور العارى عن التأثير مع ما يشاهد بين الشمس والظل من الدوران المطرد المنبىء عن السببية من مزيد دلالة على عظم القدرة ودقة الحكمة وهو السر فى إيراد كلمة التراخى وقوله تعالى ﴿ ثم قبضناه ﴾ عطف على مد داخل فى حكمه وثم للتراخى الزمانى لما أن فى بيان كون القبض والمد مرتبين دائرين على قطب مصالح المخلوقات مزيد دلالة على الحكمة الربانية ويجوز أن تكون للتراخى الرتبى أى أزلناه بعد ما أنشأناه ممتدا ومحوناه بمحض قدرتنا ومشيئتنا عند إيقاع شعاع الشمس موقعه من غير أن يكون له تأثير فى ذلك أصلا وإنما عبر عنه بالقبض المنبىء عن جمع المنبسط وطيه لما أنه قد عبر عن احداثه بالمد الذى هو البسط طولا وقوله تعالى ﴿ إلينا ﴾ للتنصيص على كون مرجعه اليه تعالى كما أن حدوثه منه عز وجل ﴿ قبضا يسيرا ﴾ أى على مهل قليلا قليلا حسب ارتفاع دليله على وتيرة معينة مطردة مستتبعة لمصالح المخلوقات ومرافقها وقيل إن الله تعالى حين بنى السماء كالقبة المضروبة ودحا الأرض تحتها ألقت القبة ظلها على الأرض لعدم النير وذلك مده تعالى إياه ولو شاء لجعله ساكنا مستقرا على تلك

الحالة ثم خلق الشمس وجعلها على ذلك الظل أى سلطها عليه ونصبها دليلا متبوعا له كما يتبع الدليل فى الطريق فهو يزيد بها وينقص ويمتد ويقلص ثم نسخه بها فقبضه قبضا سهلا يسيرا غير عسير أو قبضا سهلا عند قيام الساعة بقبض أسبابه وهى الأجرام التى تلقى الظل فيكون قد ذكر إعدامه بإعدام أسبابه كما ذكر إنشاؤه بانشائها ووصفه باليسر على طريقة قوله تعالى (ذلك حشر علينا يسير) وصيغة الماضى للدلالة على تحقيق الوقوع .

﴿وهو الذى جعل لكم الليل لباسا﴾ بيان لبعض بدائع آثار قدرته تعالى وحكمته وروائع أحكام رحمته ونعمته الفائضة على الخلق وتلوين الخطاب لتوفية مقام الامتنان حقه واللام متعلقة بجعل وتقديمها على مفعوليه للاعتناء ببيان كون ما يعقبه من منافعهم وفى تعقيب بيان أحوال الظل بيان أحكام الليل الذى هو ظل الأرض من لطف المسلك ما لا مزيد عليه أى هو الذى جعل لكم الليل كاللباس يستركم بظلامه كما يستركم اللباس ﴿والنوم سباتا﴾ أى وجعل النوم الذى يقع فى الليل غالبا قطعا عن الأفاعيل المختصة بحال اليقظة عبر عنه بالسبات الذى هو الموت لما بينها من المشابهة التامة فى انقطاع أحكام الحياة وعليه قوله تعالى (وهو الذى يتوفاكم بالليل) وقوله تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها) ﴿وجعل النهار نشورا﴾ أى زمان بعث من ذلك السبات كبعث الموتى على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه أو نفس البعث على طريق المبالغة وفيه إشارة إلى أن النوم واليقظة أنموذج للموت والنشور وعن لقمان عليه السلام يا بنى كما تنام فتوقظ كذلك تموت وتنشر ﴿وهو الذى أرسل الرياح﴾ وقرىء بالتوحيد على أن المراد هو الجنس ﴿بشراً﴾ تخفيف بشر جمع بشور أى مبشرين وقرىء بشرى وقرىء نشرا بالنون جمع نشور أى ناشرات للسحاب وقرىء بالتخفيف وبفتح النون أيضا على أنه مصدر وصف به مبالغة وقوله تعالى ﴿بين يدى رحمته﴾ استعارة بديعة أى قدام المطر والالتفات إلى نون العظمة فى قوله تعالى :

﴿وأنزلنا من السماء ماء طهورا﴾ لإبراز كمال العناية بالإنزال لأنه نتيجة ما ذكر من إرسال الرياح أى أنزلنا بعظمتنا بما رتبنا من إرسال الرياح من جهة الفوق ماء

بليغا فى الطهارة وما قيل إنه ما يكون طاهرا فى نفسه ومطهراً لغيره فهو شرح لبلاغته فى الطهارة كما ينبىء عنه قوله تعالى (وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به) فإن الطهور فى العربية إما صفة كما تقول ماء طهور أو اسم كما فى قوله عليه الصلاة والسلام التراب طهور المؤمن وقد جاء بمعنى الطهارة كما فى قولك تطهرت طهورا حسنا كقولك وضوءاً حسنا ومنه قوله عليه الصلاة والسلام لا صلاة إلا بطهور ووصف الماء به إشعار بتمام النعمة فيه وتتميم للنعمة فيما بعده فإن الماء الطهور أهنأ وأنفع مما خالطه ما يزيل طهوريته وتنبيه على أن ظواهرهم لما كانت مما ينبغى أن يطهروها فبواطنهم أحق بذلك وأولى ﴿ لنحيي به ﴾ أى بما أنزلنا من الماء الطهور ﴿ بلدة ميتا ﴾ بإنبات النبات والتذكير لأن البلدة بمعنى البلد ولأنه غير جار على الفعل كسائر أبنية المبالغة فأجرى مجرى الجامد والمراد به القطعة من الأرض عامرة كانت أو غامرة ﴿ ونسقيه ﴾ أى ذلك الماء الطهور عند جريانه فى الأودية أو اجتماعه فى الحياض والمناقع أو الآبار ﴿ مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا ﴾ أى أهل البوادى الذين يعيشون بالحيا ولذلك نكر الأنعام والأناسى وتخصيصهم بالذكر لأن أهل القرى والأمصار يقيمون بقرب الأنهار والمنابع فيهم وبمالهم من الأنعام غنية عن سقيا السماء وسائر الحيوانات تبعد فى طلب الماء فلا يعوزها الشرب غالبا من أن مساق الآيات الكريمة كما هو للدلالة على عظم القدرة فهو لتعدد أنواع النعمة والأنعام حيث كانت قنية للإنسان وعامة منافعهم ومعايشهم منوطة بها قدم سقيها على سقيهم كما قدم عليها إحياء الأرض فإنه سبب لحياتها وتعيشها وقرىء نسقيه وأسق وسق لغتان وقيل أسقاه جعل له سقيا وأناسى جمع إنسى أو إنسان كظرابى فى ظربا على أن أصله أناسين فقلبت نونه ياء وقرىء أناسى بالتخفيف بحذف ياء أفاعيل كأناعم فى أناعيم .

﴿ ولقد صرفناه ﴾ أى وبالله لقد كررنا هذا القول الذى هو ذكر إنشاء السحاب وإنزال القطر لما مر من الغايات الجليلة فى القرآن وغيره من الكتب السماوية ﴿ بينهم ﴾ أى بين الناس من المتقدمين والمتأخرين ﴿ ليذكروا ﴾ ليتفكروا ويعرفوا بذلك كمال قدرته تعالى وواسع رحمته فى ذلك ويقوموا

بشكر نعمته حق قيام وقيل الضمير للمطر وتصريفه بينهم إنزاله فى بعض البلاد دون غيرها أو فى بعض الأوقات دون بعض أو جعله تارة وابلا وأخرى طلا وحينا ديمة ووقتا رحمة والأول هو الأظهر ﴿ فأبى أكثر الناس ﴾ ممن سلف وخلف ﴿ إلا كفورا ﴾ أى لم يفعل إلا كفران النعمة قلة الاكتراث لها أو إلا جحودها بأن يقولوا مطرنا بنوء كذا ولا يذكروا صنع الله تعالى ورحمته ومن لا يرى الأمطار إلا من الأنواء فهو كافر بخلاف من يرى أن الكل بخلق الله تعالى والأنواء أمارات لجعله تعالى ﴿ ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيرا ﴾ نبيا ينذر أهلها فيخفف عليك أعباء النبوة لكن لم نشأ ذلك فلم نفعله بل قصرنا الأمر عليك حسبما ينطق به قوله تعالى (ليكون للعالمين نذيرا) إجلالا لك وتعظيما وتفضيلا لك على سائر الرسل ﴿ فلا تطع الكافرين ﴾ أى فقابل ذلك بالثبات والاجتهاد فى الدعوة وإظهار الحق والتشدد معهم كأنه نهى لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن المداراة معهم والتلطف فى الدعوة لما أنه عليه الصلاة والسلام كان يود أن يدخلوا فى الإسلام ويجتهد فى ذلك بتأليف قلوبهم أشد الاجتهاد ﴿ وجاهدهم به ﴾ أى بالقرآن بتلاوة ما فى تضاعيفه من من القوارع والزواجر والمواعظ وتذكير أحوال الأمم المكذبة .

﴿ جهادا كبيرا ﴾ فإن دعوة كل العالمين على الوجه المذكور جهاد كبير لا يقادر قدره كما وكيفا وقيل الضمير المجرور لترك الطاعة المفهوم من النهى عن الطاعة وأنت خبير بأن مجرد ترك الطاعة يتحقق بلا دعوة أصلا وليس فيه شائبة الجهاد فضلا عن الجهاد الكبير اللهم إلا أن تجعل الباء للملابسة ليكون المعنى وجاهدهم بما ذكر من أحكام القرآن الكريم ملابسا بترك طاعتهم كأنه قيل جاهدهم بالشدة والعنف لا بالملاءمة والمداراة كما فى قوله تعالى (يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم) وقد جعل الضمير لما دل عليه قوله تعالى (ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيرا) من كونه عليه الصلاة والسلام نذير كافة القرى لأنه لو بعث فى كل قرية نذيرا لوجب على كل نذير مجاهدة قريته فاجتمعت على رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك المجاهدات كلها فكبر من أجل ذلك جهاده

وعظم فقيل له عليه الصلاة والسلام وجاهدهم بسبب كونك نذير كافة القرى جهادا كبيرا جامعا لكل مجاهدة وأنت خبير بأن بيان سبب كبر المجاهدة بحسب الكمية ليس فيه مزيد فائدة فإنه بين بنفسه وإنما اللائق بالمقام بيان سبب كبرها وعظمها فى الكيفية ﴿ وهو الذى مرج البحرين ﴾ أى خلاهما متجاورين متلاصقين بحيث لا يتمازجان من مرج دابته إذا خلاها ﴿ هذا عذب فرات ﴾ قامع للعطش لغاية عذوبته ﴿ وهذا ملح أجاج ﴾ بليغ الملوحة وقرىء ملح فلعله تخفيف مالح كبرد فى بارد ﴿ وجعل بينهما برزخا ﴾ حاجزا غير مرئى من قدرته كما فى قوله تعالى (بغير عمد ترونها) ﴿ وحجرا محجورا ﴾ وتنافرا مفرطا كأن كلا منهما يتعوذ من الآخر بتلك المقالة وقيل حدا محدودا وذلك كدجلة تدخل البحر وتشقه وتجرى فى خلاله فراسخ لا يتغير طعمها وقيل المراد بالبحر العذب النهر العظيم وبالمالح البحر الكبير وبالبرزخ ما بينهما من الأرض فيكون أثر القدرة فى الفصل واختلاف الصفة مع أن مقتضى طبيعة كل عنصر التضام والتلاصق والتشابه فى الكيفية .

﴿ وهو الذى خلق من الماء بشرا ﴾ هو الماء الذى خمر به طينة آدم عليه السلام أو جعله جزءا من مادة البشر ليجتمع ويسلس ويستعد لقبول الاشكال والهيئات بسهولة أو هو النطفة ﴿ فجعله نسبا وصهرا ﴾ أى قسمه قسمين ذوى نسب أى ذكورا ينتسب إليهم وذوات صهر أى أناثا يصاهر بهن كقوله تعالى (فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى) ﴿ وكان ربك قديرا ﴾ مبالغا فى القدرة حيث قدر على أن يخلق من مادة واحدة بشراً ذا أعضاء مختلفة وطباع متباعدة وجعله قسمين متقابلين وربما يخلق من نطفة واحدة توأمين ذكرا وأنثى ﴿ ويعبدون من دون الله ﴾ الذى شأنه ما ذكر ﴿ مالا ينفعهم ولا يضرهم ﴾ أى ما ليس من شأنه النفع والضر أصلا وهو الأصنام أو كل ما يعبد من دونه تعالى إذ ما من مخلوق يستقل بالنفع والضر ﴿ وكان الكافر على ربه ﴾ الذى ذكرت آثار ربوبيته ﴿ ظهيراً ﴾ يظاهر الشيطان بالعداوة والشرك والمراد بالكافر الجنس أو أبو جهل وقيل هينا مهينا لا اعتداد به عنده تعالى من قولهم

ظهرت به إذا نبذته خلف ظهرك فيكون كقوله تعالى (ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم) ﴿وما أرسلناك إلا مبشرا﴾ للمؤمنين ﴿ونذيرا﴾ للكافرين ﴿قل﴾ لهم ﴿ما أسألكم عليه﴾ أى على تبليغ الرسالة الذى ينبىء عنه الإرسال ﴿من أجر﴾ من جهتكم ﴿إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا﴾ أى ألا فعل من يريد أن يتقرب إليه تعالى ويطلب الزلفى عنده بالإيمان والطاعة حسبما أدعوهم إليهما فصور ذلك بصورة الأجر من حيث أنه مقصود الإتيان به واستثنى منه قلعا كليا لشائبة الطمع وإظهارا لغاية الشفقة عليهم حيث جعل ذلك مع كون نفعه عائدا إليهم عائدا إليه عليه الصلاة والسلام وقيل الاستثناء منقطع أى لكن من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا فليفعل ﴿وتوكل على الحى الذى لا يموت﴾ فى الاستكفاء عن شرورهم والإغناء عن أجورهم فإنه الحقيق بأن يتوكل عليه دون الأحياء الذين من شأنهم الموت فإنهم إذا ماتوا ضاع من توكل عليهم ﴿وسبح بحمده﴾ ونزهه عن صفات النقصان مثنيا عليه بنعوت الكمال طالبا لمزيد الإنعام بالشكر على سوابغه ﴿وكفى به بذنوب عباده﴾ ما ظهر منها وما بطن ﴿خبيرا﴾ أى مطلعا عليها بحيث لا يخفى عليه شىء منها فيجزيهم جزاء وفيا .

﴿الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش﴾ قد سلف تفسيره ومحل الموصول الجر على أنه صفة أخرى للحى وصف بالصفة الفعلية بعد وصفه بالأبدية التى هى من الصفات الذاتية والإشارة إلى اتصافه بالعلم الشامل لتقرير وجوب التوكل عليه تعالى وتأكيده فإن من أنشأ هذه الأجرام العظام على هذا النمط الفائق والنسق الرائق بتدبير متين وترتيب رصين فى أوقات معينة مع كمال قدرته على إبداعها دفعة لحكم جليلة وغايات جميلة لا تقف على تفاصيلها العقول أحق من يتوكل عليه وأولى من يفوض الأمر إليه ﴿الرحمن﴾ مرفوع على المدح أى هو الرحمن وهو فى الحقيقة وصف آخر للحى كما قرىء بالجر مفيد لزيادة تأكيد ما ذكر من وجوب التوكل عليه تعالى وإن لم يتبعه فى الإعراب لما تقرر من أن المنصوب والمرفوع

مدحا وإن خرجا عن التبعية لما قبلهما صورة حيث لم يتبعاه فى الإعراب وبذلك سميا قطعا لكنهما تابعان له حقيقة ألا يرى كيف التزموا حذف الفعل والمبتدأ فى النصب والرفع روما لتصوير كل منهما بصورة متعلق من متعلقات ما قبله وتنبيها على شدة الاتصال بينهما وقد مر تمام التحقيق فى تفسير قوله عز وجل (الذين يؤمنون بالغيب) الآية وقيل الموصول مبتدأ والرحمن خبره وقيل الرحمن بدل من المستكن فى استوى ﴿ فاسأل به ﴾ أى بتفاصيل ما ذكر إجمالا من الخلق والاستواء لا بنفسهما فقط إذ بعد بيانهما لا يبقى إلى السؤال حاجة ولا فى تعديته بالباء فائدة فإنها مبنية على تضمينه معنى الاعتناء المستدعى لكون المسئول أمرا خطيرا مهتما بشأنه غير حاصل للسائل وظاهر أن نفس الخلق والاستواء بعد الذكر ليس كذلك وما قيل من أن التقدير إن شككت فيه فاسأل به خبيرا على أن الخطاب له عليه الصلاة والسلام والمراد غيره بمعزل من السداد بل التقدير إن شئت تحقيق ما ذكر أو تفصيل ما ذكر فاسأل معنيا به ﴿ خبيرا ﴾ عظيم الشأن محيطا بظواهر الأمور وبواطنها وهو الله سبحانه يطلعك على جلية الأمر وقيل فاسأل به من وجده فى الكتب المتقدمة ليصدقك فيه فلا حاجة حينئذ إلى ما ذكرنا وقيل الضمير للرحمن والمعنى إن أنكروا إطلاقه على الله تعالى فاسأل عنه من يخبرك من أهل الكتاب ليعرفوا مجىء ما يرادفه فى كتبهم وعلى هذا يجوز أن يكون الرحمن مبتدأ وما بعده خبرا وقرىء فسل .

﴿ وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن ﴾ قالوه لما أنهم ما كانوا يطلقونه على الله تعالى أو لأنهم ظنوا أن المراد به غيره تعالى ولذلك قالوا ﴿ أنسجد لما تأمرنا ﴾ أى للذى تأمرنا بسجوده أو لأمرك إيانا من غير أن نعرف أن المسجود ماذا وقيل لأنه كان معربا لم يسمعوه وقرىء يأمرنا بياء الغيبة على أنه قول بعضهم لبعض ﴿ وزادهم ﴾ أى الأمر بسجود الرحمن ﴿ نفورا ﴾ عن الإيمان ﴿ تبارك الذى جعل فى السماء بروجا ﴾ هى البروج الاثنا عشر سميت به وهى القصور العالية لأنها للكواكب السيارة كالمنازل الرفيعة لسكانها واشتقاقه من التبرج لظهوره ﴿ وجعل فيها سراجا ﴾ هى الشمس لقوله تعالى

وجعل الشمس سراجا وقرىء سرجا وهى الشمس والكواكب الكبار ﴿وقمرا منيرا﴾ مضيئا بالليل وقرىء قمرا أى ذا قمر وهى جمع قمراء ولما أن الليالى بالقمر تكون قمراء أضيف إليها ثم حذف وأجرى حكمه على المضاف إليه القائم مقامه كما فى قول حسان رضى الله عنه:

* بردى يصفق بالرحيق السلسل *

أى ماء بردى ويحتمل أن يكون بمعنى القمر كالرشد والرشد والعرب والعرب ﴿وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة﴾ أى ذوى خلفة يخلف كل منهما الآخر بأن يقوم مقامه فيما ينبغى أن يعمل فيه أو بأن يعتقبا كقوله تعالى (واختلاف الليل والنهار) وهى اسم للحالة من خلف كالركبة والجلسة من ركب وجلس ﴿لمن أراد أن يذكر﴾ أى يتذكر آلاء الله عز وجل ويتفكر فى بدائع صنعه فيعلم أنه لابد لها من صانع حكيم واجب الذات رحيم للعباد ﴿أو أراد شكورا﴾ أى أن يشكر الله تعالى على ما فيهما من النعم أو ليكونا وقتين للذاكرين من فاته ورده فى أحدهما تداركه فى الآخرة وقرىء أن يذكر من ذكر بمعنى تذكر .

سمات المخلصين من عباد الله

﴿وعباد الرحمن﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان أوصاف خلص عباد الرحمن وأحوالهم الدنيوية والأخروية بعد بيان حال النافرين عن عبادته والسجود له والإضافة للتشريف وهو مبتدأ خبره مابعده من الموصول وما عطف عليه وقيل هو ما فى آخر السورة الكريمة من الجملة المصدرة باسم الإشارة وقرىء عباد الرحمن أى عباده المقبولون ﴿الذين يمشون على الأرض هونا﴾ أى بسكينة وتواضع وهونا مصدر وصف به ونصبه إما على أنه حال من فاعل يمشون أو على أنه نعت لمصدره أى يمشون هينين لينى الجانب من غير فظاظة أو مشيا هينا وقوله تعالى ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون﴾ أى السفهاء كما فى قول من قال :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

﴿ قالوا سلاما ﴾ بيان لحالهم فى المعاملة مع غيرهم إثر بيان حالهم فى أنفسهم أى إذا خاطبوهم بالسوء قالوا تسليما منكم ومتاركة لا خير بيننا وبينكم ولا شر وقيل سدادا من القول يسلمون به من الأذية والإثم وليس فيه تعرض لمعاملتهم مع الكفرة حتى يقال نسختها آية القتال كما نقل عن أبى العالية وقوله تعالى ﴿ والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما ﴾ بيان لحالهم فى معاملتهم مع ربهم أى يكونون ساجدين لربهم وقائمين أى يحيون الليل كلا أو بعضا بالصلاة وقيل من قرأ شيئا من القرآن فى صلاة وإن قل فقد بات ساجداً وقائما وقيل هما الركعتان بعد المغرب والركعتان بعد العشاء وتقديم السجود على القيام لرعاية الفواصل.

﴿ والذين يقولون ﴾ أى فى أعقاب صلواتهم أو فى عامة أوقاتهم ﴿ ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما ﴾ أى شرا دائما وهلاكا لازما وفيه مزيد مدح لهم ببيان أنهم مع حسن معاملتهم مع الخلق واجتهادهم فى عبادة الحق يخافون العذاب ويبتهلون إلى الله تعالى فى صرفه عنهم غير محتفلين بأعمالهم كقوله تعالى (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون) ﴿ إنها ساءت مستقرا ومقاما ﴾ تعليل لاستدعائهم المذكور بسوء حالها فى نفسها إثر تعليله بسوء حال عذابها وقد جوز أن يكون تعليلا للأولى وليس بذاك وساءت فى حكم بئست وفيها ضمير مبهم يفسره مستقرا والمخصوص بالذم محذوف معناه ساءت مستقرا ومقاما هى وهذا الضمير هو الذى ربط الجملة باسم إن وجعلها خبراً لها قيل ويجوز أن يكون ساءت بمعنى أحزنت وفيها ضمير اسم إن ومستقرا حال أو تمييز وهو بعيد خال عما فى الأول من المبالغة فى بيان سوء حالها وكذا جعل التعليلين من جهته تعالى ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ﴾ لم يجاوزوا حد الكرم ﴿ ولم يقتروا ﴾ ولم يضيقوا تضييق الشحيح وقيل الإسراف هو الإنفاق فى المعاصى والقتر منع الواجبات والقرب وقرىء بكسر التاء مع فتح الياء وبكسرها مخففة ومشددة مع ضم الياء ﴿ وكان بين ذلك ﴾ أى بين ما ذكر من الإسراف والقتر ﴿ قواما ﴾ وسطا وعدلا سمى به لاستقامة الطرفين كما سمى به سواء لاستوائهما وقرىء بالكسر وهو ما يقام به الحاجة

لا يفضل عنها ولا ينقص وهو خبر ثان أو حال مؤكدة أو هو الخبر وبين ذلك لغو وقد جوز أن يكون اسم كان على أنه مبنى لإضافته إلى غير متمكن ولا يخفى ضعفه فإنه بمعنى القوام فيكون كالإخبار بشىء عن نفسه ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ﴾ شروع فى بيان اجتنابهم عن المعاصى بعد بيان إتيانهم بالطاعات وذكر نفى الإسراف والقتر لتحقيق معنى الاقتصاد والتصريح بوصفهم بنفى الإشراك مع ظهور إيمانهم لإظهار كمال الاعتناء بالتوحيد والإخلاص وتهويل أمر القتل والزنا بنظمهما فى سلكه والتعريض بما كان عليه الكفرة من قريش وغيرهم أى لا يعبدون معه تعالى إلها آخر .

﴿ولا يقتلون النفس التى حرم الله﴾ أى حرمها بمعنى حرم قتلها فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه مبالغة فى التحريم ﴿إلا بالحق﴾ أى لا يقتلونها بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق المزيل لحرمتها وعصمتها أو لا يقتلون قتلا ما إلا قتلا ملتبسا بالحق أو لا يقتلونها فى حال من الأحوال إلا حال كونهم ملتبسين بالحق ﴿ولا يزنون﴾ أى الذين لا يفعلون شيئا من هذه العظائم القبيحة التى جمعهن الكفرة حيث كانوا مع إشراكهم به سبحانه مداومين على قتل النفوس المحرمة التى من جملتها الموءودة مكبين على الزنا لا يرعوون عنه أصلا ﴿ومن يفعل ذلك﴾ أى ما ذكر كما هو دأب الكفرة المذكورين ﴿ يلق ﴾ فى الآخرة وقرىء يلقى وقرىء يلق بالتشديد مجزوما ﴿ أثاما ﴾ وهو جزاء الإثم كالوبال والنكال وزنا ومعنى وقيل هو الإثم أى يلق جـــزاء الإثم والتنوين على التقديرين للتفخيم وقرىء أياما أى شدائد يقال يوم ذو أيام لليوم الصعب ﴿يضاعف له العذاب يوم القيامة﴾بدل من يلق لاتحادهما فى المعنى كقوله :

متى تأتنا تلمم بنـا فى ديارنا تجد حطبا جزلا ونارا تأججا

وقرىء بالرفع على الاستئناف أو على الحالية وكذا ما عطف عليه وقرىء يضعف ونضعف له العذاب بالنون ونصب العذاب ﴿ ويخلد فيه ﴾ أى فى ذلك

العذاب المضاعف ﴿ مهانا ﴾ ذليلا مستحقرا جامعا للعذاب الجسمانى والروحانى وقرىء يخلد ويخلد مبنيا للمفعول من الإخلاد والتخليد وقرىء تخلد بالتاء على الالتفات المنبىء عن شدة الغضب ومضاعفة العذاب لانضمام المعاصى إلى الكفر كما يفصح عنه قوله تعالى ﴿ إلا من تاب وآمن وعمل صالحا ﴾ وذكر الموصوف مع جريان الصالح والصالحات مجرى الاسم للاعتناء به والتنصيص على مغايرته للأعمال السابقة ﴿ فأولئك ﴾ إشارة إلى الموصول والجمع باعتبار معناه كما أن الإفراد فى الأفعال الثلاثة باعتبار لفظه أى أولئك الموصوفون بالتوبة والإيمان والعمل الصالح ﴿ يبدل الله سيئاتهم حسنات ﴾ بأن يمحو سوابق معاصيهم بالتوبة ويثبت مكانها لواحق طاعتهم أو يبدل بملكة المعصية ودواعيها فى النفس ملكة الطاعة بأن يزيل الأولى ويأتى بالثانية وقيل بأن يوفقه لأضداد ما سلف منه أو بأن يثبت له بدل كل عقاب ثوابا وقيل يبدلهم بالشرك إيمانا وبقتل المسلمين قتل المشركين وبالزنا عفة وإحصانا ﴿ وكان الله غفورا رحيما ﴾ اعتراض تذييلى مقرر لما قبله من المحو والإثبات ﴿ ومن تاب ﴾ أى عن المعاصى بتركها بالكلية والندم عليها ﴿ وعمل صالحا ﴾ يتلافى به ما فرط منه أو خرج عن المعاصى ودخل فى الطاعات ﴿ فإنه ﴾ بما فعل ﴿ يتوب إلى الله ﴾ أى يرجع إليه تعالى ﴿ متابا ﴾ أى متابا عظيم الشأن مرضيا عنده تعالى ماحيا للعقاب محصلا للثواب أو يتوب متابا إلى الله تعالى الذى يحب التوابين ويحسن إليهم أو فإنه يرجع إليه تعالى أو إلى ثوابه مرجعا حسنا وهذا تعميم بعد تخصيص .

﴿ والذين لا يشهدون الزور ﴾ لا يقيمون الشهادة الكاذبة أو لا يحضرون محاضر الكذب فإن مشاهدة الباطل مشاركة فيه ﴿ وإذا مروا ﴾ على طريق الاتفاق ﴿ باللغو ﴾ أي ما يجب أن يلغى ويطرح مما لا خير فيه ﴿ مروا كراما ﴾ معرضين عنه مكرمين أنفسهم عن الوقوف عليه والخوض فيه ومن ذلك الإغضاء عن الفواحش والصفح عن الذنوب والكناية عما يستهجن التصريح به ﴿ والذين إذا ذكروا بآيات ربهم ﴾ المنطوية على المواعظ والأحكام ﴿ لم يخروا

عليها صما وعميانا﴾ أى أكبوا عليها سامعين بآذان واعية مجتلين لها بعيون راعية وإنما عبر عن ذلك بنفى الضد تعريضا بما يفعله الكفرة والمنافقون وقيل الضمير للمعاصى المدلول عليها باللغو ﴿والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين﴾ بتوفيقهم للطاعة وحيازة الفضائل فإن المؤمن إذا ساعده أهله فى طاعة الله عزوجل وشاركوه فيها يسر بهم قلبه وتقر بهم عينه لما يشاهده من مشايعتهم له فى مناهج الدين وتوقع لحوقهم به فى الجنة حسبما وعد بقوله تعالى (ألحقنا بهم ذريتهم) ومن ابتدائية أو بيانية وقرىء وذريتنا وتنكير الأعين لإرادة تنكير القرة تعظيما وتقليلها لأن المراد أعين المتقين ولا ريب فى قلتها نظرا إلى غيرها ﴿واجعلنا للمتقين إماما﴾ أى اجعلنا بحيث يقتدون بنا فى إقامة مراسم الدين بإفاضة العلم والتوفيق للعمل وتوحيده للدلالة على الجنس وعدم الالتباس كقوله تعالى (ثم يخرجكم طفلا) أو لأن المراد واجعل كل واحد منا إماما أو لأنهم كنفس واحدة لاتحاد طريقتهم واتفاق كلمتهم كذا قالوا وأنت خبير بأن مدار الكل صدور هذا الدعاء إما عن الكل إما بطريق المعية وأنه محال لاستحالة اجتماعهم فى عصر واحد فما ظنك باجتماعهم فى مجلس واحد واتفاقهم على كلمة واحدة وإما عن كل واحد بطريق تشريك غيره فى استدعاء الإمامة وأنه ليس بثابت جزما بل الظاهر صدوره عنهم بطريق الانفراد وأن عبارة كل واحد منهم عند الدعاء واجعلنى للمتقين إماما خلا أنه حكيت عباراتت الكل بصيغة المتكلم مع الغير للقصد إلى الإيجاز على طريقة قوله تعالى (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا) وأبقى إماما على حاله وقيل الإمام جمع آم بمعنى قاصد كصيام جمع صائم ومعناه قاصدين لهم مقتدين بهم وإعادة الموصول فى المواقع السبعة مع كفاية ذكر الصلات بطريق العطف على صلة الموصول الأول للإيذان بأن كل واحد مما ذكر فى حيز صلة الموصولات المذكورة وصف جليل على حياله له شأن خطير حقيق بأن يفرد له موصوف مستقل ولا يجعل شىء من ذلك تتمة لغيره وتوسيط العاطف بين الموصولات لتنزيل الاختلاف العنوانى منزلة الاختلاف الذاتى كما فى قوله :

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتائب في المزدحم

﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى المتصفين بما فصل فى حيز صلة الموصولات الثمانية من حيث اتصافهم به وفيه دلالة على أنهم متميزون بذلك أكمل تميز منتظمون بسببه فى سلك الأمور المشاهدة وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتهم فى الفضل وهو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿ يجزون الغرفة ﴾ والجملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب مبينة لما لهم فى الآخرة من السعادة الأبدية أثر بيان ما لهم فى الدنيا من الأعمال السنية والغرفة الدرجة العالية من المنازل وكل بناء مرتفع عال أى يثابون أعلى منازل الجنة وهى اسم جنس أريد به الجمع كقوله تعالى (وهم فى الغرفات آمنون) وقيل هى اسم من أسماء الجنة ﴿ بما صبروا ﴾ أى بصبرهم على المشاق من مضض الطاعات ورفض الشهوات وتحمل المجاهدات ﴿ ويلقون فيها ﴾ من جهة الملائكة ﴿ تحية وسلاما ﴾ أى يحييهم الملائكة ويدعون لهم بطول الحياة والسلامة من الآفات أو يعطون التبقية والتخليد مع السلامة من كل آفة وقيل يحيي بعضهم بعضا ويسلم عليه وقرىء يلقون من لقى ﴿ خالدين فيها ﴾ لا يموتون ولا يخرجون ﴿ حسنت مستقرا ومقاما ﴾ الكلام فيه كالذى مر فى مقابله ﴿ قل ﴾ أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يبين للناس أن الفائزين بتلك النعماء الجليلة التى يتنافس فيها المتنافسون إنما نالوها بما عدد من محاسنهم ولولاها لم يعتد بهم أصلا أى قل لهم كافة مشافها لهم بما صدر عن جنسهم من خير وشر ﴿ ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم ﴾ أى أى عبء يعبأ بكم وأى اعتداد يعتد بكم لولا عبادتكم له تعالى حسبما مر تفصيله فإن ما خلق له الإنسان معرفته تعالى وطاعته وإلا فهو وسائر البهائم سواء وقال الزجاج معناه أى وزن يكون لكم عنده وقيل معناه ما يصنع بكم ربى لولا دعاؤه إياكم إلى الإسلام وقيل ما يصنع بعذابكم لولا دعاؤكم معه آلهة ويجوز أن تكون ما نافية وقوله تعالى ﴿ فقد كذبتم ﴾ بيان لحال الكفرة من المخاطبين كما أن ما قبله بيان لحال المؤمنين منهم أى فقد كذبتم

بما أخبرتكم به وخالفتموه أيها الكفرة ولم تعملوا عمل أولئك المذكورين وقيل فقد قصرتم فى العبادة من قولهم كذب القتال إذا لم يبالغ فيه وقرىء فقد كذب الكافرون أى الكافرون منكم لعموم الخطاب للفريقين وفائدته الإيذان بأن مناط فوز أحدهما وخسران الآخر مع الاتحاد الجنسى المصحح للاشتراك فى الفوز ليس إلا اختلافهما فى الأعمال ﴿ فسوف يكون لزاما ﴾ أى يكون جزاء التكذيب أو أثره لازما يحيق بكم لا محالة حتى يكبكم فى النار كما تعرب عنه الفاء الدالة على لزوم ما بعدها لما قبلها وإنما أضمر من غير ذكر للإيذان بغاية ظهوره وتهويل أمره والتنبيه على أنه مما لا يكتنهه البيان وقيل يكون العذاب لزاما وعن مجاهد رحمه الله هو القتل يوم بدر وأنه لوزم بين القتلى وقرىء لزاما بالفتح بمعنى اللزوم كالثبات والثبوت . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الفرقان لقى الله تعالى وهو مؤمن بأن الساعة آتية لا ريب فيها وأدخل الجنة بغير نصب .

* * *

سورة الشعراء

مكية إلا قوله : (والشعراء) إلى آخرها
وهى مائتان وست أو سبع وعشرون آية

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ طسم ﴾ بتفخيم الألف وبإمالتها وإظهار النون وبإدغامها فى الميم وهو إما مسرود على نمط التعديد بطريق التحدى على أحد الوجهين المذكورين فى فاتحة سورة البقرة فلا محل له من الإعراب وإما اسم للسورة كما عليه إطباق الأكثر فمحله الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف وهو أظهر من الرفع على الابتداء وقد مر وجهه فى مطلع سورة يونس عليه السلام أو النصب بتقدير فعل لائق بالمقام نحو اذكر أو اقرأ وتلك فى قوله تعالى : ﴿ تلك آيات الكتاب المبين ﴾ إشارة إلى السورة سواء كان طسم مسرودا على نمط التعديد أو اسما للسورة حسبما مر تحقيقه هناك وما فى اسم الإشارة من معنى البعد للتنبيه على بعد منزلة المشار إليه فى الفخامة ومحله الرفع على أنه مبتدأ خبره ما بعده وعلى تقدير كون طسم مبتدأ فهو مبتدأ ثان أو بدل من الأول والمراد بالكتاب القرآن وبالمبين الظاهر إعجازه على أنه من أبان بمعنى بان أو المبين للأحكام الشرعية وما يتعلق بها أو الفاصل بين الحق والباطل والمعنى هى آيات مخصوصة منه مترجمة باسم مستقل والمراد ببيان كونها بعضا منه وصفا بما اشتهر به الكل من النعوت الفاضلة .

تسلية النبى صلى الله عليه وسلم

﴿ لعلك باخع نفسك ﴾ أى قاتل وأصل البخع أن يبلغ بالذبح النخاع وهو عرق مستبطن الفقار وذلك أقصى حد الذبح وقرىء باخع نفسك على الإضافة ولعل للإشفاق أى أشفق على نفسك أن تقتلها حسرة على مافاتك من

إسلام قومك ﴿ أن يكونوا مؤمنين ﴾ أى لعدم إيمانهم بذلك الكتاب المبين أو خيفة أن لا يؤمنوا به وقوله تعالى : ﴿ إن نشأ ﴾ الخ استئناف مسوق لتعليل ما يفهم من الكلام من النهى عن التحسر المذكور ببيان أن إيمانهم ليس مما تعلقت به مشيئة الله تعالى حتما فلا وجه للطمع فيه والتألم من فواته ومفعول المشيئة محذوف لكونه مضمون الجزاء أعنى قوله تعالى ﴿ ننزل عليهم من السماء آية ﴾ أى ملجئة لهم إلى الإيمان قاسرة عليه وتقديم الظرفين على المفعول الصريح لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر ﴿ فظلت أعناقهم لها خاضعين ﴾ أى منقادين وأصله فظلوا لها خاضعين فأقحمت الأعناق لزيادة التقرير ببيان موضع الخضوع وترك الخبر على حاله وقيل لما وصفت الأعناق بصفات العقلاء أجريت مجراهم فى الصيغة أيضا كما فى قوله تعالى (رأيتهم لى ساجدين) وقيل أريد بها الرؤساء والجماعات من قولهم جاءنا عنق من الناس أى فوج منهم وقرىء خاضعة وقوله تعالى فظلت عطف على ننزل باعتبار محله وقوله تعالى :

﴿ وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين ﴾ بيان لشدة شكيمتهم وعدم ارعوائهم عما كانوا عليه من الكفر والتكذيب بغير ما ذكر من الآية الملجئة لصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحرص على إسلامهم وقطع رجائه عنه ومن الأولى مزيدة[1] لتأكيد العموم والثانية لابتداء الغاية مجازا متعلقة بيأتيهم أو بمحذوف هو صفة لذكر وأيا ما كان ففيه دلالة على فضله وشرفه وشناعة ما فعلوا به والتعرض لعنوان الرحمة لتغليظ شناعتهم وتهويل جنايتهم فإن الإعراض عما يأتيهم من جنابه عز وجل على الإطلاق شنيع قبيح وعما يأتيهم بموجب رحمته تعالى لمحض منفعتهم أشنع وأقبح إلى ما يأتيهم من موعظة من المواعظ القرآنية أو من طائفة نازلة من القرآن تذكرهم أكمل تذكير وتنبههم عن الغفلة أتم تنبيه كأنها نفس الذكر من جهته

---

(١) فى ٢٠ : زائدة .

تعالى بمقتضى رحمته الواسعة بجدد تنزيله حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة إلا جددوا إعراضاعنه على وجه التكذيب والاستهزاء وإصرارا على ما كانوا عليه من الكفر والضلال والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال محله النصب على الحالية من مفعول يأتيهم بإضمار قد أو بدونه على الخلاف المشهور أى ما يأتيهم من ذكر فى حال من الأحوال إلا حال كونهم معرضين عنه ﴿ فقد كذبوا ﴾ أى كذبوا بالذكر الذى يأتيهم تكذيبا صريحا مقارنا للاستهزاء به ولم يكتفوا بالإعراض عنه حيث جعلوه تارة سحرا وأخرى أساطير وأخرى شعرا والفاء فى قوله تعالى ﴿ فسيأتيهم ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها والسين لتأكيد مضمون الجملة وتقريره أى فسيأتيهم البتة من غير تخلف أصلا .

﴿ أنباء ما كانوا به يستهزؤن ﴾ عدل عما يقتضيه سائر ما سلف من الإعراض والتكذيب للايذان بأنهما كانا مقارنين للاستهزاء كما أشير إليه حسبما وقع فى قوله تعالى (وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤن) وأنباؤه ما سيحيق بهم من العقوبات العاجلة والآجلة عبر عنها بذلك إما لكونها مما أنبأ بها القرآن الكريم وأما لأنهم بمشاهدتها يقفون على حقيقة حال القرآن كما يقفون على الأحوال الخافية عنهم باستماع الأنباء وفيه تهويل له لأن النبأ لا يطلق إلا على خبر خطير له وقع عظيم أى فسيأتيهم لامحالة مصداق ما كانوا يستهزؤن به قبل من غير أن يتدبروا فى أحواله ويقفوا عليها ﴿ أو لم يروا ﴾ الهمزة للإنكار التوبيخى والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى فعلوا ما فعلوا من الإعراض عن الآيات والتكذيب والاستهزاء بها ولم ينظروا ﴿ إلى الأرض ﴾ أى إلى عجائبها الزاجرة عما فعلوا الداعية إلى الإقبال على ما أعرضوا عنه وإلى الإيمان به وقوله تعالى ﴿ كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم ﴾ استئناف مبين لما فى الأرض من الآيات الزاجرة عن الكفر الداعية إلى الإيمان وكم خبرية منصوبة بما بعدها على المفعولية والجمع بينها وبين كل

لإفادة الإحاطة والكثرة معا ومن كل زوج أي صنف تمييز والكريم من كل شيء مرضيه ومحموده أي كثيرا من كل صنف مرضى كثير المنافع أنبتنا فيها وتخصيص إنباته بالذكر دون ما عداه من الأصناف لاختصاصه بالدلالة على القدرة والنعمة معا ويحتمل أن يراد به جميع أصناف النباتات نافعها وضارها ويكون وصف الكل بالكرم للتنبيه على أنه تعالى ما أنبت شيئاً إلا وفيه فائدة كما نطق به قوله تعالى (هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا) فإن الحكيم لا يكاد يفعل فعلا إلا وفيه حكمة بالغة وإن غفل عنها الغافلون ولم يتوصل إلى معرفة كنهها العاقلون ﴿ إن فى ذلك ﴾ إشارة إلى مصدر أنبتنا أو إلى كل واحد من تلك الأزواج وأيا ما كان فما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلته فى الفضل ﴿ لآية ﴾ أى آية عظيمة دالة على كمال قدرة منبتها وغاية وفور علمه وحكمته ونهاية سعة رحمته موجبة للإيمان وازعة عن الكفر .

﴿ وما كان أكثرهم ﴾ أى أكثر قومه عليه الصلاة والسلام ﴿ مؤمنين ﴾ قيل أى فى علم الله تعالى وقضائه حيث علم أزلا أنهم سيصرفون فيما لا يزال اختيارهم الذى عليه يدور أمر التكليف إلى جانب الشر ولا يتدبرون فى هذه الآيات العظام وقال سيبويه كان صلة والمعنى وما أكثرهم مؤمنين وهو الأنسب بمقام بيان عتوهم وغلوهم فى المكابرة والعناد مع تعاضد موجبات الإيمان من جهته تعالى وأما نسبة كفرهم إلى علمه تعالى وقضائه فربما يتوهم منها كونهم معذورين فيه بحسب الظاهر لأن ما أشير إليه من التحقيق مما خفى على مهرة العلماء المتقنين كأنه قيل إن فى ذلك لآية باهرة موجبة للإيمان وما أكثرهم مؤمنين مع ذلك لغاية تماديهم فى الكفر والضلالة وانهماكهم فى الغى والجهالة ونسبة عدم الإيمان إلى أكثرهم لأن منهم من سيؤمن ﴿ وإن ربك لهو العزيز ﴾ الغالب على كل مايريده من الأمور التى من جملتها الانتقام من هؤلاء ﴿ الرحيم ﴾ المبالغ فى الرحمة ولذلك يمهلهم ولا يؤاخذهم بغتة بما اجترؤا عليه من العظائم الموجبة لفنون العقوبات وفى التعرض لوصف

الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام من تشريفه والعدة الخفية بالانتقام من الكفرة مالا يخفى .

إعراض الكفار عن الأنبياء

﴿ وإذ نادى ربك موسى ﴾ كلام مستأنف مسوق لتقرير ما قبله من من إعراضهم عن كل ما يأتيهم من الآيات التنزيلية وتكذيبهم بها إثر بيان إعراضهم عما يشاهدونه من الآيات التكوينية وإذ منصوب على المفعولية بمضمر خوطب به النبي عليه الصلاة والسلام أى واذكر لأولئك المعرضين المكذبين وقت ندائه تعالى إياه عليه الصلاة والسلام وذكرهم بما جرى على قوم فرعون بسبب تكذيبهم إياه زجرا لهم عما هم عليه من التكذيب وتحذيرا من أن يحيق بهم مثل ما حاق بأضرابهم المكذبين الظالمين حتى يتضح لك أنهم لا يؤمنون بما يأتيهم من الآيات لكن لا بقياس حال هؤلاء بحال أولئك فقط بل بمشاهدة إصرارهم على ماهم عليه بعد سماع الوحى الناطق بقصتهم وعدم اتعاظهم بذلك كما يلوح به تكرير قوله تعالى (إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين) عقيب كل قصة وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت مع أن المقصود تذكير ما وقع فيه من الحوادث قد مر سرده مرارا ﴿ أن ائت ﴾ بمعنى أى ائت على أن مفسرة أو بأن ائت على أنها مصدرية حذف منها الجار ﴿ القوم الظالمين ﴾ أى بالكفر والمعاصى واستعباد بنى إسرائيل وذبح أبنائهم وليس هذا مطلع ما ورد فى حيز النداء وإنما هو ما فصل فى سورة طه من قوله تعالى (إنى أنا ربك) إلى قوله (لنريك من آياتنا الكبرى) وإيراد ما جرى فى قصة واحدة من المقالات بعبارات شتى وأساليب مختلفة قد مر تحقيقه فى أوائل سورة الأعراف عند قوله تعالى (قال أنظرنى) ﴿ قوم فرعون ﴾ بدل من الأول أو عطف بيان له جىء به للإيذان بأنهم علم فى الظلم كأن معنى القوم الظالمين وترجمته قوم فرعون والاقتصار على ذكر قومه للإيذان بشهرة أن نفسه أول داخل فى الحكم ﴿ ألا يتقون ﴾ استئناف جىء به إثر إرساله عليه الصلاة والسلام

إليهم للإنذار تعجيبا من غلوهم فى الظلم وإفراطهم فى العدوان وقرىء بتاء الخطاب على طريقة الالتفات المنبىء عن زيادة الغضب عليهم كأن ذكر ظلمهم أدى إلى مشافهتهم بذلك وهم وإن كانوا حينئذ غيبا لكنهم قد أجروا مجرى الحاضرين فى كلام المرسل إليهم من حيث أنه مبلغه إليهم وإسماعه مبتدأ إسماعهم مع ما فيه من مزيد الحث على التقوى لمن تدبر وتأمل وقرىء بكسر النون اكتفاء به عن ياء المتكلم وقد جوز أن يكون بمعنى ألا يا ناس اتقون نحو أن لا يسجدوا .

﴿ قال ﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية ما مضى كأنه قيل فماذا قال موسى عليه السلام فقيل قال متضرعا إلى الله عز وجل ﴿ رب إنى أخاف أن يكذبون ﴾ من أول الأمر ﴿ ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى ﴾ معطوفان على أخاف ﴿ فأرسل ﴾ أى جبريل عليه السلام ﴿ إلى هرون ﴾ ليكون معى وأتعاضد به فى تبليغ الرسالة رتب عليه الصلاة والسلام استدعاءه ذلك على الأمور الثلاثة خوف التكذيب وضيق الصدر وازدياد ما كان فيه عليه الصلاة والسلام من حبسة اللسان بانقباض الروح إلى باطن القلب عند ضيقه بحيث لا ينطلق لأنها إذا اجتمعت مس الحاجة إلى معين يقوى قلبه وينوب منابه إذا اعتراه حبسة حتى لا تختل دعوته ولا تنقطع حجته وليس هذا من التعلل والتوقف فى تلقى الأمر فى شىء وإنما هو استدعاء لما يعينه على الامتثال به وتمهيد عذر فيه وقرىء ويضيق ولا ينطلق بالنصب عطفا على يكذبون فيكونان من جملة ما يخاف منه ﴿ ولهم على ذنب ﴾ أى تبعة ذنب فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه أو سمى باسمه والمراد به قتل القبطى وتسميته ذنبا بحسب زعمهم كما ينبىء عنه قوله لهم وهذا إشارة إلى قصة مبسوطة فى غير موضع ﴿ فأخاف ﴾ أى إن أتيتهم وحدى ﴿ أن يقتلون ﴾ بمقابلته قبل أداء الرسالة كما ينبغى وليس هذا أيضا تعللا وإنما هو استدفاع للبلية المتوقعة قبل وقوعها وقوله تعالى ﴿ قال كلا فاذهبا بآياتنا ﴾ حكاية لإجابته تعالى إلى الطلبتين الدفع المفهوم من الردع عن الخوف وضم أخيه المفهوم من توجيه الخطاب إليهما بطريق

التغليب فإنه معطوف على مضمر ينبىء عنه الردع كأنه قيل ارتدع يا موسى عما تظن فاذهب أنت ومن استدعيته وفى قوله بآياتنا رمز إلى أنها تدفع مايخافه وقوله تعالى ﴿ إنا معكم مستمعون ﴾ تعليل للردع عن الخوف ومزيد تسلية لهما بضمان كمال الحفظ والنصرة كقوله تعالى (إننى معكما أسمع وأرى) وحيث كان الموعود بمحضر من فرعون اعتبر ههنا فى المعية وقيل أجريا مجرى الجماعةويأباه ما قبله وما بعده من ضمير التثنية أى سامعون ما يجرى بينكما وبينه فنظهركما عليه مثل حاله تعالى بحال ذى شوكة قد حضر مجادلة قوم يستمع ما يجرى بينهم ليمد أولياءه ويظهرهم على أعدائهم مبالغة فى الوعد بالإعانة أو استعير الاستماع الذى هو بمعنى الإصغاء للسمع الذى هو العلم بالحروف والأصوات وهو خبر ثان أو خبر وحده ومعكم ظرف لغو والفاء فى قوله تعالى :

﴿ فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها من الوعد الكريم وليس هذا مجرد تأكيد للأمر بالذهاب لأن معناه الوصول إلى المأتى لا مجرد التوجه إليه كالذهاب وإفراد الرسول إما باعتبار رسالة كل منهما أو لاتحاد مطلبهما أو لأنه مصدر وصف به وأن فى قوله تعالى ﴿ أن أرسل معنا بنى إسرائيل ﴾ مفسرة لتضمن الإرسال المفهوم من الرسول معنى القول ومعنى إرسالهم تخليتهم و شأنهم ليذهبوا معهما إلى الشام ﴿ قال ﴾ أى فرعون لموسى عليه السلام بعد ما أتياه وقالا له ما أمرا به يروى أنهما انطلقا إلى باب فرعون فلم يؤذن لهما سنة حتى قال البواب إن ههنا إنسانا يزعم أنه رسول رب العالمين فقال ائذن له لعلنا نضحك فأديا إليه الرسالة فعرف موسى عليه السلام فقال عند ذلك :

﴿ ألم نربك فينا ﴾ فى حجرنا ومنازلنا ﴿ وليدا ﴾ أى طفلا عبر عنه بذلك لقرب عهده بالولادة ﴿ ولبثت فينا من عمرك سنين ﴾ قيل لبث فيهم ثلاثين سنة ثم خرج إلى مدين وأقام بها عشر سنين ثم عاد إليهم يدعوهم إلى الله عز وجل ثلاثين سنة ثم بقى بعد الغرق خمسين سنة وقيل وكز القبطى وهو ابن اثنتى عشرة سنة وفر منهم على أثر ذلك والله أعلم ﴿ وفعلت فعلتك التى فعلت ﴾

يعنى قتل القبطى بعد ما عدد عليه نعمته من تربيته وتبليغه مبلغ الرجال وبخه بما جرى عليه من قتل خبازه وعظم ذلك وفظعه وقرىء فعلتك بكسر الفاء لأنها كانت نوعا من القتل ﴿ وأنت من الكافرين ﴾ أى بنعمتى حيث عمدت إلى قتل رجل من خواصى أو أنت حينئذ ممن تكفرهم الآن وقد افترى عليه عليه الصلاة والسلام أو جهل أمره عليه الصلاة والسلام حيث كان يعايشهم بالتقية وإلا فأين هو عليه الصلاة والسلام من مشاركتهم فى الدين فالجملة حينئذ حال من إحدى التاءين ويجوز أن يكون حكما مبتدأ عليه بأنه من الكافرين بإلهيته أو ممن يكفرون فى دينهم حيث كانت لهم آلهة يعبدونها أو من الكافرين بالنعم المعتادين لغمطها ومن اعتاد ذلك لا يكون مثل هذه الجناية بدعا منه ﴿ قال ﴾ مجيباً له مصدقا له فى القتل ومكذبا فيما نسبه إليه من الكفر ﴿ فعلتها إذاً وأنا من الضالين ﴾ أى من الجاهلين وقد قرىء كذلك لا من الكافرين كما زعمت افتراء أي من الفاعلين فعل الجهالة والسفهاء أو من المخطئين لأنه لم يتعمد قتله بل أراد تأديبه أو الذاهبين عما يؤدى إليه الوكز أو الناسين كقوله تعالى (أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى) ﴿ ففررت منكم ﴾ إلى مدين ﴿ لما خفتكم ﴾ أن تصيبونى بمضرة وتؤاخذونى بما لا أستحقه بجنايتى من العقاب ﴿ فوهب لى ربى حكما ﴾ أى حكمة أو نبوة ﴿ وجعلنى من المرسلين ﴾ رد أولا بذلك ما وبخه به قدحا فى نبوته ثم كر على ما عده عليه من النعمة ولم يصرح برده حيث كان صدقا غير قادح فى دعواه بل نبه على أن ذلك كان فى الحقيقة نقمة فقال :

﴿ وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل ﴾ أى تلك التربية نعمة تمن بها على ظاهرا وهى فى الحقيقة تعبيدك بنى إسرائيل وقصدك إياهم بذبح أبنائهم فإنه السبب فى وقوعى عندك وحصولى فى تربيتك وقيل إنه مقدر بهمزة الإنكار أى أو تلك نعمة تمنها على وهى أن عبدت بنى إسرائيل ومحل أن عبدت الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أو بدل من نعمة أو الجر بإضمار الباء أو النصب بحذفها وقيل تلك إشارة إلى خصلة شنعاء مبهمة وأن عبدت عطف بيان لها والمعنى

تعبيدك بنى إسرائيل نعمة تمنها على وتوحيد الخطاب فى تمنها وجمعه فيما قبله لأن المنة منه خاصة والخوف والفرار منه ومن ملئه ﴿ قال فرعون ﴾ لما سمع منه عليه الصلاة والسلام تلك المقالة المتينة وشاهد تصلبه فى أمره وعدم تأثره بما قدمه من الإبراق والإرعاد شرع فى الاعتراض على دعواه عليه الصلاة والسلام فبدأ بالاستفسار عن المرسل فقال ﴿ وما رب العالمين ﴾ حكاية لما وقع فى عبارته عليه الصلاة والسلام أى أى شىء رب العالمين الذى ادعيت أنك رسوله منكرا لأن يكون للعالمين رب سواه حسبما يعرب عنه قوله أنا ربكم الأعلى وقوله ما علمت لكم من إله غيرى وينطق به وعيده عند تمام أجوبته عليه الصلاة والسلام ﴿ قال ﴾ موسى عليه السلام مجيبا له ﴿ رب السموات والأرض وما بينهما ﴾ بتعيين ما أراد بالعالمين وتفصيله لزيادة التحقيق والتقرير وحسم مادة تزوير اللعين وتشكيكه بحمل العالمين على ما تحت مملكته ﴿ إن كنتم موقنين ﴾ أى إن كنتم موقنين بالأشياء محققين لها علمتم ذلك أو إن كنتم موقنين بشىء من الأشياء فهذا أولى بالإيقان لظهوره وإنارة دليله ﴿ قال ﴾ أى فرعون عند سماع جوابه عليه الصلاة والسلام خوفا من تأثيره فى قلوب قومه وإذعانهم له ﴿ لمن حوله ﴾ من أشراف قومه قال ابن عباس رضى الله عنهما خمسمائة عليهم الأساور وكانت للملوك خاصة .

﴿ ألا تستمعون ﴾ مرائياً لهم أن ما سمعوه من جوابه عليه الصلاة والسلام مع كونه مما لا يليق بأن يتعجب منه كأنه قال ألا تستمعون ما يقوله فاستمعوه وتعجبوا منه حيث يدعى خلاف أمر محقق لا اشتباه فيه يريد به ربوبية نفسه ﴿ قال ﴾ عليه الصلاة والسلام تصريحا بما كان مندرجا تحت جوابيه السابقين ﴿ ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ وحطا له من ادعاء الربوبية إلى مرتبة المربوبية ﴿ قال ﴾ أى فرعون لما واجهه موسى عليه السلام بما ذكر غاظه ذلك وخاف من تأثر قومه منه فأراهم أن ما قاله عليه الصلاة والسلام مما لا يصدر عن العقلاء صدا لهم عن قبوله فقال مؤكدا لمقالته الشنعاء بحرف التأكيد ﴿ إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون ﴾ ليفتنهم بذلك ويصرفهم عن قبول الحق وسماه

رسولا بطريق الاستهزاء وأضافه إلى مخاطبيه ترفعا من أن يكون مرسلا إلى نفسه ﴿ قال ﴾ عليه الصلاة والسلام ﴿ رب المشرق والمغرب وما بينهما ﴾ قاله عليه الصلاة والسلام تكميلا لجوابه الأول وتفسيرا له وتنبيها على جهلهم وعدم فهمهم لمعنى مقالته فإن بيان ربوبيته تعالى للسموات والأرض وما بينهما وإن كان متضمنا لبيان ربوبيته تعالى للخافقين وما بينهما لكن لما لم يكن فيه تصريح بإستناد حركات السموات وما فيها وتغيرات أحوالها وأوضاعها وكون الأرض تارة مظلمة وأخرى منورة إلى الله تعالى أرشدهم إلى طريق معرفة ربوبيته تعالى لما ذكر فإن ذكر المشرق والمغرب منبيء عن شروق الشمس وغروبها المنوطين بحركات السموات وما فيها على نمط بديع يترتب عليه هذه الأوضاع الرصينة وكل ذلك أمور حادثة مفتقرة إلى محدث قادر عليم حكيم لا كذوات السموات والأرض التي يتوهم جهلة المتوهمين باستمرارها استغناءها عن الموحد المتصرف ﴿ إن كنتم تعقلون ﴾ أي إن كنتم تعقلون شيئا من الأشياء أو إن كنتم من أهل العقل علمتم أن الأمر كما قلته وفيه إيذان بغاية وضوح الأمر بحيث لا يشتبه على من له عقل في الجملة وتلويح بأنهم بمعزل من دائرة العقل وأنهم المتصفون بما رموه عليه الصلاة والسلام به من الجنون .

﴿ قال ﴾ لما سمع اللعين منه عليه الصلاة والسلام تلك المقالات المبنية على أساس الحكم البالغة وشاهد شدة حزمه وقوة عزمه على تمشية أمره وأنه ممن لا يجارى في حلبة المحاورة ضرب صفحا عن المقاولة بالانصاف ونأى بجانبه الى عدوة الجور والاعتساف فقال مظهرا لما كان يضمره عند السؤال والجواب ﴿ لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين ﴾ لم يقتنع عليه الصلاة والسلام بترك دعوى الرسالة وعدم التعرض له حتى كلفه عليه الصلاة والسلام أن يتخذه إلها لغاية عتوه وغلوه فيما فيه من دعوى الألوهية وهذا صريح في أن تعجبه وتعجيبه من الجواب الأول ونسبته عليه الصلاة والسلام إلى الجنون في الجواب الثاني كان لنسبته عليه الصلاة والسلام الربوبية إلى غيره وأما ما قيل من أن

سؤاله كان عن حقيقة المرسل وتعجبه من جوابه كان لعدم مطابقته له لكونه يذكر أحواله فلا يساعده النظم الكريم ولا حال فرعون ولا مقاله واللام فى المسجونين للعهد أى لأجعلنك ممن عرفت أحوالهم فى سجونى حيث كان يطرحهم فى هوة عميقة حتى يموتوا ولذلك لم يقل لأسجننك .

﴿قال أولو جئتك بشىء مبين﴾ أى أتفعل بى ذلك ولو جئتك بشىء مبين أى موضح لصدق دعواى يريد به المعجزة فإنها جامعة بين الدلالة على وجود الصانع وحكمته وبين الدلالة على صدق دعوى من ظهرت على يده والتعبير عنها بالشىء للتهويل قالوا الواو فى أولو جئتك للحال دخلت عليها همزة الاستفهام أى جائيا بشىء مبين وقد سلف منا مراراً أنها للعطف وأن كلمة لو ليست لانتفاء الشىء فى الزمان الماضى لانتفاء غيره فيه فلا يلاحظ لها جواب قد حذف تعويلا على دلالة ما قبلها عليه ملاحظة قصدية إلا عند القصد الى بيان الإعراب على القواعد الصناعية بل هى لبيان تحقق ما يفيده الكلام السابق من الحكم الموجب أو المنفى على كل حال مفروض من الأحوال المقارنة له على الإجمال بإدخالها على أبعدها منه وأشدها منافاة له ليظهر بثبوته أو انتفائه معه ثبوته وانتفاؤه مع ما عداه من الأحوال بطريق الأولوية لما أن الشىء متى تحقق مع المنافى القوى فلأن يتحقق مع غيره أولى ولذلك لا يذكر معه شىء من سائر الأحوال ويكتفى عنه بذكر العاطف للجملة على نظيرتها المقابلة لها الشاملة لجميع الأحوال المغايرة لها عند تعددها ليظهر ما ذكر من تحقق الحكم على جميع الأحوال فإنك إذا قلت فلان جواد يعطى ولو كان فقيرا تريد بيان تحقق الإعطاء منه على كل حال من أحواله المفروضة فتعلق الحكم بأبعدها منه ليظهر بتحققه معه تحققه مع ما عداه من الأحوال التى لا منافاة بينها وبين الحكم بطريق الأولوية المصححة للاكتفاء بذكر العاطف عن تفصيلها كأنك قلت فلان جواد يعطى لو لم يكن فقيرا ولو كان فقيرا أى يعطى حال كونه فقيرا فالحال فى الحقيقة كلتا الجملتين المتعاطفتين لا المذكورة على أن الواو للحال وتصدير المجىء بما ذكر من كلمة لو دون أن ليس لبيان استبعاده فى نفسه بل

بالنسبة إلى فرعون والمعنى أتفعل فى ذلك حال عدم مجيئى بشىء مبين وحال مجيئى به ﴿قال فأت به إن كنت من الصادقين﴾ أى فيما يدل عليه كلامك من أنك تأتى بشىء مبين موضح لصدق دعواك أو فى دعوى الرسالة وجواب الشرط المحذوف لدلالة ما قبله عليه ﴿فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين﴾ أى ظاهر ثعبانيته لا أنه شىء يشبهه واشتقاق الثعبان من ثعبت الماء فانثعب أى فجرته فانفجر وقد مر بيان كيفية الحال فى سورة الأعراف وسورة طه ﴿ونزع يده﴾ من جيبه ﴿فإذا هى بيضاء للناظرين﴾ قيل لما رأى فرعون الآية الأولى وقال هل لك غيرها فأخرج يده فقال ما هذه قال فرعون يدك فما فيها فأدخلها فى إبطه ثم نزعها ولها شعاع يكاد يغشى الأبصار ويسد الأفق .

﴿قال للملأ حوله﴾ أى مستقرين حوله فهو ظرف وقع موقع الحال ﴿إن هذا لساحر عليم﴾ فائق فى فن السحر ﴿يريد أن يخرجكم﴾ قسرا ﴿من أرضكم بسحره فماذا تأمرون﴾ بهره سلطان المعجزة وحيره حتى حطه عن ذروة ادعاء الربوبية إلى حضيض الخضوع لعبيده فى زعمه والامتثال بأمرهم أو إلى مقام مؤامرتهم ومشاورتهم بعد ما كان مستقلا فى الرأى والتدبير وأظهر استشعار الخوف من استيلائه على ملكه ونسبة الإخراج والأرض إليهم لتنفيرهم عن موسى عليه السلام ﴿قالوا أرجه وأخاه﴾ أخر أمرهما وقيل احبسهما ﴿وابعث فى المدائن حاشرين﴾ أى شرطا يحشرون السحرة ﴿يأتوك﴾ أى الحاشرون ﴿بكل سحار عليم﴾ فائق فى فن السحر وقرىء بكل ساحر ﴿فجمع السحرة لميقات يوم معلوم﴾ هو ما عينه موسى عليه السلام بقوله موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى ﴿وقيل للناس هل أنتم مجتمعون﴾ قيل لهم ذلك استبطاء لهم فى الاجتماع وحثاً لهم على المبادرة إليه ﴿لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين﴾ أى نتبعهم فى دينهم إن كانوا هم الغالبين لا موسى عليه السلام وليس مرادهم بذلك أن يتبعوا دينهم حقيقة وإنما هو أن لا يتبعوا موسى عليه السلام لكنهم ساقوا كلامهم مساق الكناية حملا لهم على الاهتمام والجد فى المغالبة ﴿فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجرا﴾ أى أجرا

عظيما ﴿ إن كنا نحن الغالبين ﴾ لا موسى عليه السلام ﴿ قال نعم ﴾ لكم ذلك ﴿ وإنكم ﴾ مع ذلك ﴿ إذاً لمن المقربين ﴾ عندى قيل قال لهم تكونون أول من يدخل على وآخر من يخرج عنى وقرىء نعم بكسر العين وهما لغتان ﴿ قال لهم موسى ﴾ أى بعد ما قال له السحرة إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى ﴿ ألقوا ما أنتم ملقون ﴾ ولم يرد به الأمر بالسحر والتمويه بل الإذن فى تقديم ما هم فاعلوه البتة توسلا به إلى إظهار الحق وإبطال الباطل ﴿ فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا ﴾ أى وقد قالوا عند الإلقاء ﴿ بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون ﴾ قالوا ذلك لفرط اعتقادهم فى أنفسهم وإتيانهم بأقصى ما يمكن أن يؤتى به من السحر .

﴿ فألقى موسى عصاه فإذا هى تلقف ﴾ أى تبتلع بسرعة وقرىء تلقفه بحذف إحدى التاءين من تتلقف ﴿ ما يأفكون ﴾ أى ما يقلبونه من وجهه وصورته بتمويههم وتزويدهم فيخيلون حبالهم وعصيهم أنها حيات تسعى أو إفكهم تسمية للمأفوك به مبالغة ﴿ فألقى السحرة ساجدين ﴾ أى أثر ما شاهدوا وذلك من غير تلعثم وتردد غير متمالكين كأن ملقيا ألقاهم لعلمهم بأن مثل ذلك خارج عن حدود السحر وأنه أمر إلهى قد ظهر على يده عليه الصلاة والسلام لتصديقه وفيه دليل على أنه قصارى ما ينتهى إليه همم السحرة هو التمويه والتزوير وتخييل شىء لا حقيقة له ﴿ قالوا آمنا برب العالمين ﴾ بدل اشتمال من ألقى أو حال بإضمار قد وقوله تعالى ﴿ رب موسى وهرون ﴾ بدل من رب العالمين للتوضيح ودفع توهم إرادة فرعون حيث كان قومه الجهلة يسمونه بذلك وللإشعار بأنه الموجب لإيمانهم به تعالى ما أجراه على أيديهما من المعجزة القاهرة .

﴿ قال ﴾ أى فرعون للسحرة ﴿ آمنتم له قبل أن آذن لكم ﴾ أى بغير أن آذن لكم كما فى قوله تعالى (لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى) لا أن الإذن منه ممكن أو متوقع ﴿ إنه لكبيركم الذى علمكم السحر ﴾ فتواطأتم على ما فعلتم أو غلبكم شيئاً دون شىء فلذلك غلبكم أراد بذلك التلبيس على قومه كيلا يعتقدوا أنهم آمنوا عن بصيرة وظهور حق وقرىء أآمنتم بهمزتين ﴿ فلسوف تعلمون ﴾

أى وبال ما فعلتم وقوله ﴿ لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين ﴾ بيان لما أوعدهم به ﴿ قالوا ﴾ أى السحرة ﴿ لا ضير ﴾ لا ضرر فيه علينا وقوله تعالى ﴿ إنا إلى ربنا منقلبون ﴾ تعليل لعدم الضير أى لا ضير فى ذلك بل لنا فيه نفع عظيم لما يحصل لنا فى الصبر عليه لوجه الله تعالى من تكفير الخطايا والثواب العظيم أو لا ضير علينا فيما تتوعدنا به من القتل انه لابد لنا من الانقلاب إلى ربنا بسبب من أسباب الموت والقتل أهونها وأرجاها وقوله تعالى ﴿ إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا ﴾ أى لأن كنا ﴿ أول المؤمنين ﴾ أى من أتباع فرعون أو من أهل المشهد تعليل ثان لنفى الضير أى لا ضير علينا فى قتلك إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا لكوننا أول المؤمنين وقرىء إن كنا على الشرط لهضم النفس وعدم الثقة بالخاتمة أو على طريقة قول المدل بأمره كقول العامل لمستأجر أخر أجرته إن كنت عملت لك فوفنى حقى ﴿ وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى ﴾ وذلك بعد بضع سنين أقام بين أظهرهم يدعوهم إلى الحق ويظهر لهم الآيات فلم يزيدوا إلا عتوا وعنادا حسبما فصل فى سورة الاعراف بقوله تعالى (ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين) الآيات وقرىء بكسر النون ووصل الألف من سرى وقرىء أن سر من السير ﴿ إنكم متبعون ﴾ تعليل للأمر بالإسراء أى يتبعكم فرعون وجنوده مصبحين فأسر بمن معك حتى لا يدركوكم قبل الوصول الى البحر فيدخلوا مداخلكم فأطبقه عليهم فأغرقهم ﴿ فأرسل فرعون ﴾ حين أخبر بمسيرهم ﴿ فى المدائن حاشرين ﴾ جامعين للعساكر ليتبعوهم ﴿ إن هؤلاء ﴾ يريد بنى إسرائيل ﴿ لشرذمة قليلون ﴾ استقلهم وهم ستمائة ألف وسبعون ألفا بالنسبة إلى جنوده إذ روى أنه أرسل فى أثرهم ألف ألف وخمسمائة ملك مسور مع كل ملك ألف وخرج فرعون فى جمع عظيم وكانت مقدمته سبعمائة ألف رجل على حصان وعلى رأسه بيضة وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما خرج فرعون فى ألف ألف حصان سوى الإناث ﴿ وإنهم لنا لغائظون ﴾ أى فاعلون ما يغيظنا .

﴿ وإنا لجميع حاذرون ﴾ يريد أنهم لقلتهم لا يبالى بهم ولا يتوقع غلبتهم

وعلوهم ولكنهم يفعلون أفعالا تغيظنا وتضيق صدورنا ونحن قوم من عادتنا التيقظ والحذر واستعمال الحزم فى الأمور فإذا خرج علينا سارعنا إلى إطفاء ثائرة فساده وهذه معاذير اعتذر بها إلى أهل المدائن لئلا يظن به ما يكسر من قهره وسلطانه وقرىء حذرون فالأول دال على التجدد والثانى على الثبات وقيل الحاذر المؤدى فى السلاح وقرىء حادرون بالدال المهملة أى أقوياء وأشداء وقيل مدججون فى السلاح قد أكسبهم ذلك حدارة فى أجسامهم ﴿فأخرجناهم﴾ بأن خلقنا فيهم داعية الخروج بهذا السبب فحملتهم عليهم ﴿من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم﴾ كانت لهم جملة ذلك ﴿كذلك﴾ إما مصدر تشبيهى لأخرجنا أى مثل ذلك الإخراج العجيب أخرجناهم أو صفة لمقام كريم أى من مقام كريم كائن كذلك أو خبر لمبتدأ محذوف أى الأمر كذلك ﴿وأورثناها بنى إسرائيل﴾ أى ملكناها إياهم على طريقة تمليك مال المورث للوارث كأنهم ملكوها من حين خروج أربابها منها قبل أن يقبضوها ويتسلموها ﴿فأتبعوهم﴾ أى فلحقوهم وقرىء فاتبعوهم ﴿مشرقين﴾ داخلين فى وقت شروق الشمس أى طلوعها ﴿فلما تراءى الجمعان﴾ تقاربا بحيث رأى كل واحد منهما الآخر وقرىء تراءت الفئتان ﴿قال أصحاب موسى إنا لمدركون﴾ جاؤا بالجملة الاسمية مؤكدة بحرفى التأكيد للدلالة على تحقق الإدراك واللحاق وتنجزهما وقرىء لمدركون بتشديد الدال من إدراك الشىء إذا تتابع ففنى أى لمتتابعون فى الهلاك على أيديهم ﴿قال كلا﴾ ارتدعوا عن ذلك فإنهم لا يدركونكم ﴿إن معى ربى﴾ بالنصرة والهداية ﴿سيهدين﴾ البتة الى طريق النجاة منهم بالكلية روى أن يوشع عليه السلام قال يا كليم الله أين أمرت فقد غشينا فرعون والبحر أمامنا قال عليه السلام ههنا فخاض يوشع عليه السلام الماء وضرب موسى عليه السلام بعصاه البحر فكان ما كان وروى أن مؤمنا من آل فرعون كان بين يدى موسى عليه السلام فقال أين أمرت فهذا البحر أمامك وقد غشيك آل فرعون قال عليه السلام أمرت بالبحر ولعلى أومر بما أصنع فأمر بما أمر به وذلك قوله تعالى ﴿فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر﴾ القلزم أو النيل ﴿فانفلق﴾ الفاء فصيحة أى فضرب

فانفلق فصار اثنى عشر فرقا بعدد الأسباط بينهن مسالك ﴿ فكان كل فرق ﴾ حاصل بالانفلاق ﴿ كالطود العظيم ﴾ كالجبل المنيف الثابت فى مقره فدخلوا فى شعابها كل سبط فى شعب منها ﴿ وأزلفنا ﴾ أى قربنا ﴿ ثم الآخرين ﴾ أى فرعون وقومه حتى دخلوا على أثرهم مداخلهم.

﴿ وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ﴾ بحفظ البحر على تلك الهيئة إلى أن عبروا إلى البر ﴿ ثم أغرقنا الآخرين ﴾ بإطباقه عليهم ﴿ إن فى ذلك ﴾ أى فى جميع ما فصل مما صدر عن موسى عليه السلام وظهر على يديه من المعجزات القاهرة وبما فعل فرعون وقومه من الأقوال والأفعال وما فعل بهم من العذاب والنكال وما فى اسم الإشارة من معنى البعد لتهويل أمر المشار إليه وتفظيعه كتنكير الآية فى قوله تعالى ﴿ لآية ﴾ أى آية آية أو آية عظيمة لا تكاد توصف موجبة لأن يعتبر بها المعتبرون ويقيسوا شأن النبى عليه الصلاة والسلام بشأن موسى عليه السلام وحال أنفسهم بحال أولئك المهلكين ويجتنبوا تعاطى ما كانوا يتعاطونه من الكفر والمعاصى ومخالفة الرسول ويؤمنوا بالله تعالى ويطيعوا رسوله كيلا يحل بهم مثل ما حل بأولئك أو أن فيما فصل من القصة من حيث حكايته عليه الصلاة والسلام إياها على ما هى عليه من غير أن يسمعها من أحد لآية عظيمة دالة على أن ذلك بطريق الوحى الصادق موجبة للإيمان بالله تعالى وحده وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام ﴿ وما كان أكثرهم ﴾ أى أكثر هؤلاء الذين سمعوا قصتهم منه عليه الصلاة والسلام ﴿ مؤمنين ﴾ لا بأن يقيسوا شأنه بشأن موسى عليهما السلام وحال أنفسهم بحال أولئك المكذبين المهلكين ولا بأن يتدبروا فى حكايته عليه الصلاة والسلام لقصتهم من غير أن يسمعها من أحد مع كون كل من الطريقين مما يؤدى إلى الإيمان قطعا ومعنى ما كان أكثرهم مؤمنين على أن كان زائدة كما هو رأى سيبويه فيكون كقوله تعالى (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) وهو إخبار منه تعالى بما سيكون من المشركين بعد ما سمعوا الآيات الناطقة بالقصة تقريرا لما مر من قوله تعالى (وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين فقد كذبوا) الخ

وإيثار الجملة الاسمية للدلالة على استقرارهم على عدم الإيمان واستمرارهم عليه ويجوز أن يجعل كان بمعنى صار كما فعل ذلك فى قوله تعالى (وكان من الكافرين) فالمعنى وما صار أكثرهم مؤمنين مع ما سمعوا من الآية العظيمة الموجبة له بما ذكر من الطريقين فيكون الإخبار بعدم الصيرورة قبل الحدوث للدلالة على كمال تحققه وتقرره كقوله تعالى(أتى أمر الله) الآية ﴿ وإن ربك لهو العزيز ﴾ الغالب على كل ما يريده من الأمور التى من جملتها الانتقام من المكذبين ﴿الرحيم﴾ المبالغ فى الرحمة ولذلك يمهلهم ولا يعجل عقوبتهم بعدم إيمانهم بعد مشاهدة هذه الآية العظيمة بطريق الوحى مع كمال استحقاقهم لذلك هذا هو الذى يقتضيه جزالة النظم الكريم من مطلع السورة الكريمة الى آخر القصص السبع بل الى آخر السورة الكريمة اقتضاء بينا لا ريب فيه وأما ما قيل من أن ضمير أكثرهم لأهل عصر فرعون من القبط وغيرهم وأن المعنى وما كان أكثر أهل مصر مؤمنين حيث لم يؤمن منهم إلا آسية وحزقيل ومريم ابنة ياموشا التى دلت على تابوت يوسف عليه السلام وبنو اسرائيل بعد ما نجوا سألوا بقرة يعبدونها واتخذوا العجل وقالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فبمعزل من التحقيق كيف لا ومساق كل قصة من القصص الواردة فى السورة الكريمة سوى قصة إبراهيم عليه السلام إنما هو لبيان حال طائفة معينة قد عتوا عن أمر ربهم وعصوا رسله عليهم الصلاة والسلام كما يفصح عنه تصدير القصص بتكذيبهم المرسلين بعد ما شاهدوا بأيديهم من الآيات العظام ما يوجب عليهم الإيمان ويزجرهم عن الكفر والعصيان وأصروا على ما هم عليه من التكذيب فعاقبهم الله تعالى لذلك بالعقوبة الدنيوية وقطع دابرهم بالكلية فكيف يمكن أن يخبر عنهم بعدم إيمان أكثرهم لاسيما بعد الإخبار بإهلاكهم وعد المؤمنين من جملتهم أو لا وإخراجهم منها آخرا مع عدم مشاركتهم لهم فى شىء مما حكى عنهم من الجنايات أصلا مما يوجب تنزيه التنزيل عن أمثاله فتدبر .

﴿ واتل عليهم ﴾ عطف على المضمر المقدر عاملا لإذ نادى الخ أى واتل على المشركين ﴿ نبأ إبراهيم ﴾ أى خبره العظيم الشأن حسبما أوحى إليك لتقف

على ما ذكر من عدم إيمانهم بما يأتيهم من الآيات بأحد الطريقين ﴿ إذ قال ﴾ منصوب إما على الظرفية للنبأ أى نبأه وقت قوله ﴿ لأبيه وقومه ﴾ أى على المفعولية لاتل على أنه بدل من نبأ أى واتل عليهم وقت قوله لهم ﴿ ما تعبدون ﴾ على أن المتلو ما قاله لهم فى ذلك الوقت سألهم عليه الصلاة والسلام عن ذلك ليبنى على جوابهم أن ما يعبدونه بمعزول من استحقاق العبادة بالكلية ﴿ قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين ﴾ لم يقتصروا على الجواب الكافى بأن يقولوا أصناما كما فى قوله تعالى (ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو) وقوله تعالى (ماذا أنزل ربكم قالوا الحق) ونظائرهما بل أطنبوا فيه بإظهار الفعل وعطف دوام عكوفهم على أصنامهم قصدا إلى إبراز مافى نفوسهم الخبيثة من الابتهاج والافتخار بذلك والمراد بالظلول الدوام وقيل كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل وصلة العكوف كلمة على وإيراد اللام لإفادة معنى زائد كأنهم قالوا فنظل لأجلها مقبلين على عبادتها أو مستديرين حولها وهذا أيضا من جملة إطنابهم ﴿ قال ﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من تفصيل جوابهم ﴿ هل يسمعونكم ﴾ أى هل يسمعون دعاءكم على حذف المضاف أو يسمعونكم تدعون كقولك سمعت زيدا يقول كيت وكيت فحذف لدلالة قوله تعالى ﴿ إذ تدعون ﴾ عليه وقرىء هل يسمعونكم من الإسماع أى هل يسمعونكم شيئاً من الأشياء أو الجواب عن دعائكم وهل يقدرون على ذلك وصيغة المضارع من إذ على حكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها كأنه قيل لهم استحضروا الأحوال الماضية التى كنتم تدعونها فيها وأجيبوا هل سمعوا أو أسمعوا قط ﴿ أو ينفعونكم ﴾ بسبب عبادتكم لها ﴿ أو يضرون ﴾ أى يضرونكم بترككم لعبادتها إذ لا بد للعبادة لا سيما عند كونها على ماوصفتم من المبالغة فيها من جلب نفع أودفع ضر ﴿ قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ﴾ اعترفوا بأنها بمعزل مما ذكر من السمع والمنفعة والمضرة بالمرة واضطروا إلى إظهار أن لا سند لهم سوى التقليد أى ما علمنا أو ما رأينا منهم ما ذكر من الأمور بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون أى مثل عبادتنا يعبدون فاقتدينا بهم ﴿ قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون ﴾ اى أنظرتم فأبصرتم أو أتأملتم

فعلتم ما كنتم تعبدونه ﴿ أنتم وآباؤكم الأقدمون ﴾ حق الإبصار أو حق العلم وقوله ﴿ فإنهم عدو لى ﴾ بيان لحال ما يعبدونه بعد التنبيه على عدم علمهم بذلك أى فاعلموا أنهم أعداء لعابديهم الذين يحبونهم كحب الله تعالى لما أنهم يتضررون من جهتهم فوق ما يتضرر الرجل من جهة عدوه أو لأن من يغريهم على عبادتهم ويحملهم عليها هو الشيطان الذى هو أعدى عدو الإنسان لكنه عليه الصلاة والسلام صور الأمر فى نفسه تعريضا بهم فإنه أنفع فى النصيحة من التصريح وإشعارا بأنها نصيحة بدأ بها نفسه ليكون ادعى إلى القبول والعدو والصديق يجيئان فى معنى الواحد والجمع ومنه قوله تعالى (وهم لكم عدو) شبها بالمصادر للموازنة كالقبول والولوع والحنين والصهيل ﴿ إلا رب العالمين ﴾ استثناء منقطع أى لكن رب العالمين ليس كذلك بل هو وليى فى الدنيا والآخرة لا يزال يتفضل على بمنافعهما حسبما يعرب عنه ما وصفه تعالى به من أحكام الولاية وقيل متصل وهو قول الزجاج على أن الضمير لكل معبود وكان من آبائهم من عبد الله تعالى وقوله تعالى ﴿ الذى خلقنى ﴾ صفة لرب العالمين وجعله مبتدأ وما بعده خبرا غير حقيق بجزالة التنزيل وإنما وصفه تعالى بذلك وبما عطف عليه مع اندراج الكل تحت ربوبيته تعالى للعالمين تصريحا بالنعم الخاصة به عليه الصلاة والسلام وتفصيلا لها لكونها أدخل فى اقتضاء تخصيص العبادة به تعالى وقصر الالتجاء فى جلب المنافع الدينية والدنيوية ودفع المضار العاجلة والآجلة عليه تعالى ﴿ فهو يهدين ﴾ أى هو يهدينى وحده إلى كل ما يهمنى ويصلحنى من أمور الدين والدنيا هداية متصلة بحين الخلق ونفخ الروح متجددة على الاستمرار كما ينبىء عنه الفاء وصيغة المضارع فإنه تعالى يهدى كل ما خلقه لما خلق له من أمور المعاش والمعاد هداية متدرجة من مبدأ إيجاده إلى منتهى أجله يتمكن بها من جلب منافعه ودفع مضاره إما طبعا وإما اختيارا مبدؤها بالنسبة إلى الإنسان هداية الجنين لامتصاص دم الطمث ومنتهاها الهداية إلى طريق الجنة والتنعم بنعيمها المقيم ﴿ والذى هو يطعمنى ويسقين ﴾ عطف على الصفة الأولى وتكرير الموصول فى المواقع الثلاثة مع كفاية عطف ما وقع فى حيز الصلة من الجمل الست على

صلة الموصول الأول للإيذان بأن كل واحدة من تلك الصلات نعت جليل له تعالى مستقل فى استيجاب الحكم حقيق بأن تجرى عليه تعالى بحيالها ولا تجعل من روادف غيرها .

﴿ وإذا مرضت فهو يشفين ﴾ عطف على يطعمنى ويسقين نظم معهما فى سلك الصلة لموصول واحد لما أن الصحة والمرض من متفرعات الأكل والشرب غالبا ونسبة المرض إلى نفسه والشفاء إلى الله تعالى مع أنهما منه تعالى لمراعاة حسن الأدب كما قال الخضر عليه السلام (فأردت أن أعيبها) وقال (فأراد ربك أن يبلغا أشدهما) وأما الإماتة فحيث كانت من معظم خصائصه تعالى كالإحياء بدءاً وإعادة وقد نيطت أمور الآخرة جميعا بها وبما بعدها من البعث نظمهما فى سمط واحد فى قوله تعالى ﴿ والذى يميتنى ثم يحيين ﴾ على أن الموت لكونه ذريعة إلى نيله عليه الصلاة والسلام للحياة الأبدية بمعزل من أن يكون غير مطبوع عنده عليه الصلاة والسلام ﴿ والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين ﴾ ذكره عليه الصلاة والسلام هضما لنفسه وتعليما للأمة أن يجتنبوا المعاصى ويكونوا على حذر وطلب مغفرة لما يفرط منهم وتلافيا لما عسى يندر منه عليه الصلاة والسلام من الصغائر وتنبيها لأبيه وقومه على أن يتأملوا فى أمرهم فيقفوا على أنهم من سوء الحال فى درجة لا يقادر قدرها فإن حاله عليه الصلاة والسلام مع كونه فى طاعة الله تعالى وعبادته فى الغاية القاصية حيث كانت بتلك المثابة فما ظنك بحال أولئك المغمورين فى الكفر وفنون المعاصى والخطايا وحمل الخطيئة على كلماته الثلاث إنى سقيم بل فعله كبيرهم وقوله لسارة هى أختى مما لا سبيل إليه لأنها مع كونها معاريض لا من قبيل الخطايا المفتقرة إلى الاستغفار إنما صدرت عنه عليه الصلاة والسلام بعد هذه المقاولة الجارية بينه وبين قومه أما الثالثة فظاهرة لوقوعها بعد مهاجرته عليه الصلاة والسلام إلى الشأم وأما الأوليان فلأنهما وقعتا مكتنفتين بكسر الأصنام ومن البين أن جريان هذه المقالات فيما بينهم كان فى مبادىء الأمر وتعليق مغفرة الخطيئة بيوم الدين مع

أنها إنما تغفر فى الدنيا لأن أثرها يومئذ يتبين ولأن فى ذلك تهويلا له وإشارة إلى وقوع الجزاء فيه إن لم تغفر .

﴿ رب هب لى حكما ﴾ بعد ماذكر عليه الصلاة والسلام لهم فنون الألطاف الفائضة عليه من الله عز وجل من مبدأ خلقه إلى يوم بعثه حمله ذلك على مناجاته تعالى ودعائه لربط العتيد وجلب المزيد والحكم الحكمة التى هى الكمال فى العلم والعمل بحيث يتمكن به من خلافة الحق ورياسة الخلق ﴿ وألحقنى بالصالحين ﴾ ووفقنى من العلوم والأعمال والملكات لما يرشحنى للانتظام فى زمرة الكاملين الراسخين فى الصلاح المنزهين عن كبائر الذنوب وصغائرها أواجمع بينى وبينهم فى الجنة ولقد أجابه تعالى حيث قال (وإنه فى الآخرة لمن الصالحين) ﴿ واجعل لى لسان صدق فى الآخرين ﴾ أى جاها وحسن صيت فى الدنيا بحيث يبقى أثره إلى يوم الدين ولذلك لاترى أمة من الأمم إلا وهى محبة له ومثنية عليه أو صادقا من ذريتى يجدد أصل دينى ويدعو الناس إلى ما كنت أدعوهم إليه من التوحيد وهو النبى صلى الله عليه وسلم ولذلك قال عليه الصلاة والسلام أنا دعوة أبى ابراهيم .

﴿ واجعلنى ﴾ فى الآخرة ﴿ من ورثة جنة النعيم ﴾ وقد مر معنى الوراثة فى سورة مريم ﴿ واغفر لأبى ﴾ بالهداية والتوفيق للإيمان كما يلوح به تعليله بقوله ﴿ إنه كان من الضالين ﴾ أى طريق الحق وقد مر تحقيق المقام فى تفسير سورة التوبة وسورة مريم بما لا مزيد عليه ﴿ ولا تخزنى ﴾ بمعاتبتى على ما فرطت أو بنقص رتبتى عن بعض الوراث أو بتعذيبى لخفاء العاقبة وجواز التعذيب عقلا كل ذلك مبنى على هضم النفس منه عليه الصلاة والسلام أو بتعذيب والدى أو ببعثه فى عداد الضالين بعدم توفيقه للإيمان وهو من الخزى بمعنى الهوان أو من الخزاية بمعنى الحياء ﴿ يوم يبعثون ﴾ أى الناس كافة والإضمار قبل الذكر لما فى عموم البعث من الشهرة الفاشية المغنية عنه وتخصيصه بالضالين مما يخل بتهويل اليوم ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون ﴾ بدل من يوم يبعثون جىء

به تأكيدا للتهويل وتمهيدا لما يعقبه من الاستثناء وهو من أعم المفاعيل أى لا ينفع مال وإن كان مصروفا فى الدنيا إلى وجوه البر والخيرات ولا بنون وإن كانوا صلحاء مستأهلين للشفاعة أحدا .

﴿ إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ أى عن مرض الكفر والنفاق ضرورة اشتراط نفع كل منهما بالإيمان وفيه تأييد لكون استغفاره عليه الصلاة والسلام لأبيه طلبا لهدايته إلى الإيمان لاستحالة طلب مغفرته بعد موته كافرا مع علمه عليه الصلاة والسلام بعدم نفعه، لأنه من باب الشفاعة وقيل هو استثناء من فاعل ينفع بتقدير المضاف أى الآمال من أو بنو من أتى الله الآية وقيل المضاف المحذوف ليس من جنس المستثنى منه حقيقة بل بضرب من الاعتبار كما فى قوله * تحية بينهم ضرب وجيع * أى إلا حال من أتى الله بقلب سليم على أنها عبارة عن سلامة القلب كأنه قيل إلا سلامة قلب من أتى الله الآية وقيل المضاف المحذوف ما دل عليه المال والبنون من الغنى وهو المستثنى منه كأنه قيل يوم لا ينفع غنى إلا غنى من أتى الله الآية لأن غنى المرء فى دينه بسلامة قلبه وقيل الاستثناء منقطع والمعنى لكن سلامة قلبه تنفعه ﴿ وأزلفت الجنة للمتقين ﴾ عطف على لا ينفع وصيغة الماضى فيه وفيما بعده من الجمل المنتظمة معه فى سلك العطف للدلالة على تحقق الوقوع وتقرره كما أن صيغة المضارع فى المعطوف عليه للدلالة على استمرار انتفاء النفع ودوامه حسبما يقتضيه مقام التهويل والتفظيع أى قربت الجنة للمتقين عن الكفر والمعاصى بحيث يشاهدونها من الموقف ويقفون على ما فيها من فنون المحاسن فيبتهجون بأنهم المحشورون إليها ﴿ وبرزت الجحيم للغاوين ﴾ الضالين عن طريق الحق الذى هو الإيمان والتقوى أى جعلت بارزة لهم بحيث يرونها مع ما فيها من أنواع الأحوال الهائلة ويوقنون بأنهم مواقعوها ولا يجدون عنها مصرفا ﴿ وقيل لهم أينما كنتم ﴾ فى الدنيا ﴿ تعبدون من دون الله ﴾ أى أين آلهتكم الذين كنتم تزعمون فى الدنيا أنهم شفعاؤكم فى هذا الموقف ﴿ هل ينصرونكم ﴾ بدفع العذاب عنكم ﴿ أو ينتصرون ﴾ بدفعه عن أنفسهم وهذا سؤال تقريع وتبكيت لا يتوقع له جواب ولذلك قيل :

﴿فكبكبوا فيها﴾ أى ألقوا فى الجحيم على وجوههم مرة بعد أخرى إلى أن يستقروا فى قعرها ﴿هم﴾ أى آلهتهم ﴿والغاوون﴾ الذين كانوا يعبدونهم وفى تأخير ذكرهم عن ذكر آلهتكم رمز إلى أنهم يؤخرون عنها فى الكبكبة ليشاهدوا سوء حالها فيزدادوا غماً إلى غمهم ﴿وجنود إبليس﴾ أى شياطينه الذين كانوا يغوونهم ويوسوسون إليهم ويسولون لهم ما هم عليه من عبادة الأصنام وسائر فنون الكفر والمعاصى ليجتمعوا فى العذاب حسبما كانوا مجتمعين فيما يوجبه وقيل متبعوه من عصاة الثقلين والأول هو الوجه ﴿أجمعون﴾ تأكيد للضمير وما عطف عليه وقوله تعالى ﴿قالوا﴾ الخ استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من حكاية حالهم كأنه قيل ماذا قالوا حين فعل بهم ما فعل فقيل قال العبدة ﴿وهم فيها يختصمون﴾ أى قالوا معترفين بخطئهم فى انهماكهم فى الضلالة متحسرين معيرين لأنفسهم والحال أنهم فى الجحيم بصدد الاختصام مع من معهم من المذكورين مخاطبين لمعبوديهم على أن الله تعالى يجعل الأصنام صالحة للاختصام بأن يعطيها القدرة على الفهم والنطق ﴿تالله إن كنا لفى ضلال مبين﴾ إن مخففة من الثقيلة قد حذف اسمها الذى هو ضمير الشأن واللام فارقة بينها وبين النافية أى أن الشأن كنا فى ضلال واضح لا خفاء فيه ووصفهم له بالوضوح للإشباع فى إظهار ندمهم وتحسرهم وبيان عظم خطئهم فى رأيهم مع وضوح الحق كما ينبىء عنه تصدير قسمهم بحرف التاء المشعرة بالتعجب وقوله تعالى ﴿إذ نسويكم برب العالمين﴾ ظرف لكونهم فى ضلال مبين وقيل لما دل عليه الكلام أى ضللنا وقيل للضلال المذكور وإن كان فيه ضعف صناعى من حيث أن المصدر الموصوف لا يعمل بعد الوصف وقيل ظرف لمبين وصيغة المضارع لاستحضار الصورة الماضية أى تالله لقد كنا فى غاية الضلال الفاحش وقت تسويتنا إياكم أيها الأصنام فى استحقاق العبادة برب العالمين الذى أنتم أدنى مخلوقاته وأذلهم وأعجزهم وقولهم:

﴿وما أضلنا إلا المجرمون﴾ بيان لسبب ضلالهم بعد اعترافهم بصدوره عنهم لكن لا على معنى قصر الإضلال على المجرمين دون من عداهم بل على معنى

قصر ضلالهم على كونه بسبب إضلالهم من غير أن يستقلوا فى تحققه أو يكون بسبب إضلال الغير كأنه قيل وما صدر عنا ذلك الضلال الفاحش إلا بسبب إضلالهم والمراد بالمجرمين الذين أضلوهم رؤساؤهم وكبراؤهم كما فى قوله تعالى (ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا) وعن السدى رحمه الله الأولون الذين اقتدوا بهم وأيا ما كان ففيه أوفر نصيب من التعريض للذين (قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون) وعن ابن جريج إبليس وابن آدم القاتل لأنه أول من سن القتل وأنواع المعاصى ﴿ فما لنا من شافعين ﴾ كما للمؤمنين من الملائكة والأنبياء عليهم الصلاة والسلام ﴿ ولا صديق حميم ﴾ كما نرى لهم أصدقاء أو فما لنا من شافعين ولا صديق حميم من الذين كنا نعدهم شفعاء وأصدقاء على أن عدمهما كناية عن عداوتهما كما أن عدم المحبة فى مثل قوله تعالى (والله لا يحب الفساد) كناية عن البغض حسبما ينبىء عنه قوله تعالى (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين) أو وقعنا فى مهلكة لا يخلصنا منها شافع ولا صديق على أن المراد بعدمهما عدم أثرهما وجمع الشافع لكثرة الشفعاء عادة كما أن إفراد الصديق لقلته أو لصحة إطلاقه على الجمع كالعدو تشبيها لهما بالمصادر كالحنين والقبول وكلمة لو فى قوله تعالى ﴿ فلو أن لنا كرة ﴾ للتمنى كليت لما أن بين معنييهما تلاقيا فى معنى الفرض والتقدير كأنه قيل فليت لنا كرة أى رجعة إلى الدنيا وقيل هى على أصلها من الشرط وجوابه محذوف كأنه قيل فلو أن لنا كرة لفعلنا من الخيرات كيت وكيت ويأباه قوله تعالى ﴿ فنكون من المؤمنين ﴾ لتحتم كونه جوابا للتمنى مفيدا لترتب إيمانهم على وقوع الكرة البتة بلا تخلف كما هو مقتضى حالهم وعطفه على كرة على طريقة ٭ للبس عباءة وتقر عينى ٭ كما يستدعيه كون لو على أصلها إنما يفيد تحقق مضمون الجواب على تقدير تحقق كرتهم وإيمانهم معاً من غير دلالة على استلزام الكرة للإيمان أصلا مع أنه المقصود حتما ﴿ إن فى ذلك ﴾ أى فيما ذكر من نبأ إبراهيم عليه السلام المشتمل على بيان بطلان ما كان عليه أهل مكة من عبادة الأصنام وتفصيل ما يؤول إليه أمر عبدتها يوم القيامة من اعترافهم بخطئهم الفاحش وندمهم

وتحسرهم على ما فاتهم من الإيمان وتمنيهم الرجعة إلى الدنيا ليكونوا من المؤمنين عند مشاهدتهم لما أزلفت لهم جنات النعيم وبرزت لأنفسهم الجحيم وغشيهم ما غشيهم من ألوان العذاب وأنواع العقاب ﴿ لآية ﴾ أى آية عظيمة لا يقادر قدرها موجبة على عبده الأصنام كافة لاسيما على أهل مكة الذين يدعون أنهم على ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام أن يجتنبوا كل الاجتناب ما كانوا عليه من عبادتها خوفا أن يحيق بهم مثل العذاب بحكم الاشتراك فيما يوجبه أو أن فى ذكر نبئه وتلاوته عليهم على ما هو عليه من غير أن تسمعه من أحد لآية عظيمة دالة على أن ماتتلوه عليهم وحى صادق نازل من جهة الله تعالى موجبة للإيمان به قطعا ﴿ وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾ أكثر هؤلاء الذين تتلو عليهم النبأ مؤمنين بل هم مصرون على ما كانوا عليه من الكفر والضلال وأما أن ضمير أكثرهم لقوم إبراهيم عليه السلام كما توهموا فمما لا سبيل إليه أصلا لظهور أنهم ما ازدادوا بما سمعوا منه عليه الصلاة والسلام إلا طغيانا وكفرا حتى اجترؤا على تلك العظيمة التى فعلوها به عليه الصلاة والسلام فكيف يعبر عنهم بعدم إيمان أكثرهم وإنما آمن له لوط فنجاهما الله عز وجل إلى الشام وقد مر بقية الكلام فى آخر قصة موسى عليه السلام ﴿ وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ أى هو القادر على تعجيل العقوبة لقومك ولكنه يمهلهم بحكم رحمته الواسعة ليؤمن بعض منهم أو من ذرياتهم .

﴿ كذبت قوم نوح المرسلين ﴾ القوم مؤنث ولذلك يصغر على قويمة وقيل القوم بمعنى الأمة وتكذيبهم للمرسلين إما باعتبار إجماع الكل على التوحيد وأصول الشرائع التى لا تختلف باختلاف الأزمنة والأعصار وإما لأن المراد بالجمع الواحد كما يقال فلان يركب الدواب ويلبس البرود وماله إلا دابة وبرودة وإذ فى قوله تعالى ﴿ إذ قال لهم ﴾ ظرف للتكذيب على أنه عبارة عن زمان مديد وقع فيه ما وقع من الجانبين إلى تمام الأمر كما أن تكذيبهم عبارة عما صدر عنهم من حين ابتداء دعوته عليه الصلاة والسلام إلى انتهائها ﴿ أخوهم ﴾ أى نسيبهم ﴿ نوح ألا تتقون ﴾ الله حيث تعبدون غيره ﴿ إنى لكم رسول ﴾ من

جهته تعالى ﴿ أمين ﴾ مشهور بالأمانة فيما بينكم ﴿ فاتقوا الله وأطيعون ﴾ فيما آمركم به من التوحيد والطاعة لله تعالى ﴿ وما أسألكم عليه ﴾ أى على ما أنا متصد له من الدعاء والنصح ﴿ من أجر ﴾ أصلا ﴿ إن أجرى ﴾ فيما أتولاه ﴿ إلا على رب العالمين ﴾ والفاء فى قوله تعالى ﴿ فاتقوا الله وأطيعون ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها من تنزهه عليه الصلاة والسلام عن الطمع كما أن نظيرتها السابقة لترتيب ما بعدها على أمانته والتكرير للتأكيد والتنبيه على أن كلا منهما مستقل فى إيجاب التقوى والطاعة فكيف إذا اجتمعا وقرىء إن أجرى بسكون الياء ﴿ قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ﴾ أى الأقلون جاها ومالا جمع الأرذل على الصحة فإنه بالغلبة صار جاريا مجرى الاسم كالأكبر والأكابر وقيل جمع أرذل جمع رذل كأكالب وأكلب وكلب وقرىء وأتباعك وهو جمع تابع كشاهد وأشهاد أو جمع تبع كبطل وأبطال يعنون أنه لا عبرة باتباعهم لك إذ ليس لهم رزانة عقل ولا إصابة رأى وقد كان ذلك منهم فى بادىء الرأى كما ذكر فى موضع آخر وهذا من كمال سخافة عقولهم وقصرهم أنظارهم على حطام الدنيا وكون الأشرف عندهم من هو أكثر منها حظا والأرذل من حرمها وجهلهم بأنها لا تزن عند الله تعالى جناح بعوضة وأن النعيم هو نعيم الآخرة والأشرف من فاز به والأرذل من حرمه ﴿ قال وما علمى بما كانوا يعملون ﴾ جواب عما أشير إليه من قولهم إنهم لم يؤمنوا عن نظر وبصيرة أى وما وظيفتى إلا اعتبار الظواهر وبناء الأحكام عليها دون التفتيش عن بواطنهم والشق عن قلوبهم .

﴿ إن حسابهم ﴾ أى ما محاسبة أعمالهم والتنقير عن كيفياتها البارزة والكامنة ﴿ إلا على ربى ﴾ فإنه المطلع على السرائر والضمائر ﴿ لو تشعرون ﴾ أى بشىء من الأشياء أو لو كنتم من أهل الشعور لعلمتم ذلك ولكنكم لستم كذلك فتقولون ما تقولون ﴿ وما أنا بطارد المؤمنين ﴾ جواب عما أوهمه كلامهم من استدعاء طردهم وتعليق إيمانهم بذلك حيث جعلوا اتباعهم مانعا عنه وقوله

﴿ إن أنا إلا نذير مبين ﴾ كالعلة أى ما أنا إلا رسول مبعوث لإنذار المكلفين وزجرهم عن الكفر والمعاصى سواء كانوا من الأعزاء أو الأذلاء فكيف يتسنى لى طرد الفقراء لاستتباع الأغنياء أوما على إلا إنذاركم بالبرهان الواضح وقد فعلته وما على استرضاء بعضكم بطرد الآخرين ﴿ قالوا لئن لم تنته يانوح ﴾ عما تقول ﴿ لتكونن من المرجومين ﴾ من المشتومين أو المرميين بالحجارة قالوه قاتلهم الله تعالى فى أواخر الأمر ومعنى قوله تعالى ﴿ قال رب إن قومى كذبون ﴾ تموا على تكذيبى وأصروا على ذلك بعد ما دعوتهم هذه الأزمنة المتطاولة ولم يزدهم دعائى إلا فرارا كما يعرب عنه دعاؤه بقوله ﴿ فافتح بينى وبينهم فتحا ﴾ أى أحكم بيننا بما يستحقه كل واحد منا وهذه حكاية إجمالية لدعائه المفصل فى سورة نوح عليه السلام ﴿ ونجنى ومن معى من المؤمنين ﴾ أى من قصدهم أو من شؤم أعمالهم ﴿ فأنجيناه ومن معه ﴾ حسب دعائه ﴿ فى الفلك المشحون ﴾ أى المملوء بهم وبما لا بد لهم منه ﴿ ثم أغرقنا بعد ﴾ أى بعد إنجائهم ﴿ الباقين ﴾ أى من قومه ﴿ إن فى ذلك لآية وماكان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ الكلام فيه كالذى مر خلا أن حمل أكثرهم على قوم نوح أبعد من السداد وأبعد .

﴿ كذبت عاد المرسلين ﴾ أنث عاد باعتبار القبيلة وهو اسم أبيهم الأقصى ﴿ إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون ﴾ الكلام فى أن المراد بتكذيبهم وبما وقع فيه من الزمان ماذا كما مر فى صدر قصة نوح عليه السلام أى لا تتقون الله تعالى فتفعلون ما تفعلون ﴿ إنى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ﴾ الكلام فيه كالذى مر وتصدير القصص به للتنبيه على أن مبنى البعثة هو الدعاء إلى معرفة الحق والطاعة فيما يقرب المدعو إلى الثواب ويبعده من العقاب وأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مجمعون على ذلك وإن اختلفوا فى بعض فروع الشرائع المختلفة باختلاف الأزمنة والأعصار وأنهم متنزهون عن المطامع الدنية والأغراض الدنيوية بالكلية ﴿ أتبنون بكل ريع ﴾ أى مكان مرتفع ومنه ريع الأرض لارتفاعها

﴿ آية ﴾ علما للمارة ﴿ تعبثون ﴾ أى ببنائها إذ كانوا يهتدون بالنجوم فى أسفارهم فلا يحتاجون إليها أو بروج الحمام أو بنيانا يجتمعون إليه ليعبثوا بمن مر عليهم أو قصورا عالية يفتخرون بها ﴿ وتتخذون مصانع ﴾ أى مآخذ الماء وقيل قصورا مشيدة وحصونا ﴿ لعلكم تخلدون ﴾ أى راجين أن تخلدوا فى الدنيا أى عاملين عمل من يرجو ذلك فلذلك تحكمون بنيانها ﴿ وإذا بطشتم ﴾ بسوط أو سيف ﴿ بطشتم جبارين ﴾ متسلطين غاشمين بلا رأفة ولا قصد تأديب ولا نظر فى العاقبة ﴿ فاتقوا الله ﴾ واتركوا هذه الأفعال ﴿ وأطيعون ﴾ فيما أدعوكم إليه فإنه أنفع لكم ﴿ واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون ﴾ من أنواع النعماء وأصناف الآلاء أجملها أولا ثم فصلها بقوله ﴿ أمدكم بأنعام وبنين ﴾ بإعادة الفعل لزيادة التقرير فإن التفصيل بعد الإجمال والتفسير إثر الإبهام أدخل فى ذلك ﴿ وجنات وعيون إنى أخاف عليكم ﴾ إن لم تقوموا بشكر هذه النعم ﴿ عذاب يوم عظيم ﴾ فى الدنيا والآخرة فإن كفران النعمة مستتبع للعذاب كما أن شكرها مستلزم لزيادتها قال تعالى (لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد) .

﴿ قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين ﴾ فإنا لن نرعوى عما نحن عليه وتغيير الشق الثانى عن مقابله للمبالغة فى بيان قلة اعتدادهم بوعظه كأنهم قالوا أم لم تكن من أهل الوعظ ومباشريه أصلا ﴿ إن هذا ﴾ ما هذا الذى جئتنا به ﴿ إلا خلق الأولين ﴾ أى عاداتهم كانوا يلفقون مثله ويسطرونه أو ماهذا الذى نحن عليه من الدين إلا خلق الأولين وعادتهم ونحن بهم مقتدون أو ما هذا الذى نحن عليه من الموت والحياة إلا عادة قديمة لم يزل الناس عليها وقرىء خلق الأولين بفتح الخاء أى اختلاق الأولين كما قالوا أساطير الأولين أو ما خلقنا هذا إلا خلقهم نحيا كما حيوا ونموت كما ماتوا ولا بعث ولا حساب ﴿ وما نحن بمعذبين ﴾ على ما نحن عليه من الأعمال ﴿ فكذبوه ﴾ أى أصروا على ذلك ﴿ فأهلكناهم ﴾ بسببه بريح صرصر ﴿ إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم كذبت ثمود المرسلين إذ قال لهم

أخوهم صالح ألا تتقون ﴾ الله تعالى ﴿ إنى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون. وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين أتتركون فيما ههنا آمنين ﴾ إنكار ونفى لأن يتركوا فيما هم فيه من النعمة أو تذكير للنعمة فى تخليته تعالى إياهم وأسباب تنعمهم آمنين وقوله تعالى :

﴿ فى جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم ﴾ تفسير لما قبله من المبهم والهضيم اللطيف اللين للطف الثمر أو لأن النخل أنثى وطلع الإناث ألطف وهو ما يطلع منها كنصل السيف فى جوفه شماريخ القنو أو متدل متكسر من كثرة الحمل وإفراد النخل لفضله على سائر أشجار الجنات أو لأن المراد بها غيرها من الأشجار ﴿ وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين ﴾ بطرين أو حاذقين من الفراهة وهى النشاط فإن الحاذق يعمل بنشاط وطيب قلب وقرىء فرهين وهو أبلغ ﴿ فاتقوا الله وأطيعون ولا تطيعوا أمر المسرفين ﴾ استعير الطاعة التى هى انقياد الآمر لامتثال الأمر وارتسامه أو نسب حكم الآمر إلى أمره مجازا ﴿ الذين يفسدون فى الأرض ﴾ وصف موضح لإسرافهم ولذلك عطف ﴿ ولا يصلحون ﴾ على يفسدون لبيان خلوص إفسادهم عن مخالطة الإصلاح .

﴿ قالوا إنما أنت من المسحرين ﴾ أى الذين سحروا حتى غلب على عقولهم أو من ذوى السحر أى الرئة أى من الإنس فيكون قوله تعالى ﴿ ما أنت إلا بشر مثلنا ﴾ تأكيدا له ﴿ فأت بآية إن كنت من الصادقين ﴾ أى فى دعواك ﴿ قال هذه ناقة ﴾ أى بعد ما أخرجها الله تعالى من الصخرة بدعائه عليه الصلاة والسلام حسبما مر تفصيله فى سورة الأعراف وسورة هود ﴿ لها شرب ﴾ أى نصيب من الماء كالسقى والقيت للحظ من السقى والقوت وقرىء بالضم ﴿ ولكم شرب يوم معلوم ﴾ فاقتنعوا بشربكم ولا تزاحموا على شربها ﴿ ولا تمسوها بسوء ﴾ كضرب وعقر ﴿ فيأخذكم عذاب يوم عظيم ﴾ وصف اليوم بالعظم لعظم ما يحل فيه وهو أبلغ من تعظيم العذاب ﴿ فعقروها ﴾ أسند العقر إلى كلهم لما أن عاقرها

عقرها برأيهم ولذلك عمهم العذاب ﴿ فأصبحوا نادمين ﴾ خوفا من حلول العذاب لا توبة أو عند معاينتهم لمباديه ولذلك لم ينفعهم الندم وإن كان بطريق التوبة ﴿ فأخذهم العذاب ﴾ أى العذاب الموعود ﴿ إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ قيل فى نفى الإيمان عن أكثرهم فى هذا المعرض إيماء إلى أنه لو آمن أكثرهم أو شطرهم لما أخذوا بالعذاب وأن قريشا إنما عصموا من مثله ببركة من آمن منهم وأنت خبير بأن قريشا هم المشهورون بعدم إيمان أكثرهم .

﴿ كذبت قوم لوط المرسلين إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون إنى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين أتأتون الذكران من العالمين ﴾ أى أتأتون من بين من عداكم من العالمين الذكران لا يشارككم فيه غيركم أو أتأتون الذكران من أولاد آدم مع كثرتهم وغلبة النساء فيهم مع كونهن أليق بالاستمتاع فالمراد بالعالمين على الأول كل ما ينكح من الحيوان وعلى الثانى الناس ﴿ وتذرون ما خلق لكم ربكم ﴾ لأجل استمتاعكم وكلمة من فى قوله تعالى ﴿ من أزواجكم ﴾ للبيان إن أريد بها جنس الإناث وهو الظاهر وللتبعيض أن أريد بها العضو المباح منهن تعريضا بأنهم كانوا يفعلون ذلك بنسائهم أيضا ﴿ بل أنتم قوم عادون ﴾ متعدون متجاوزون الحد فى جميع المعاصى وهذا من جملتها وقيل متجاوزون عن حد الشهوة حيث زادوا على سائر الناس بل الحيوانات .

﴿ قالوا لئن لم تنته يا لوط ﴾ أى عن تقبيح أمرنا أو نهينا عنه أو عن دعوى النبوة التى من جملة أحكامها التعرض لنا ﴿ لتكونن من المخرجين ﴾ أى من المنفيين من قريتنا وكأنهم كانوا يخرجون من أخرجوه من بينهم على عنف وسوء حال ﴿ قال إنى لعملكم من القالين ﴾ أى من المبغضين غاية البغض كأنه يقلى الفؤاد والكبد لشدته وهو أبلغ من أن يقال إنى لعملكم قال لدلالته على أنه عليه الصلاة والسلام من زمرة الراسخين فى بغضه المشهورين فى قلاه ولعله

عليه الصلاة والسلام أراد إظهار الكراهة فى مساكنتهم والرغبة فى الخلاص من سوء جوارهم ولذلك أعرض عن محاورتهم وتوجه إلى الله تعالى قائلا ﴿رب نجنى وأهلى مما يعملون﴾ أى من شؤم عملهم وغائلته .

﴿فنجيناه وأهله أجمعين﴾ أى أهل بيته ومن اتبعه فى الدين بإخراجهم من بينهم عند مشارفة حلول العذاب بهم ﴿إلا عجوزا﴾ هى امرأة لوط استثنيت من أهله فلا يضره كونها كافرة لأن لها شركة فى الأهلية بحق الزواج ﴿فى الغابرين﴾ أى مقدرا كونها من الباقين فى العذاب لأنها كانت مائلة إلى القوم راضية بفعلهم وقد أصابها الحجر فى الطريق فأهلكها كما مر فى سورة الحجر وسورة هود وقيل كانت فيمن بقى فى القرية ولم تخرج مع لوط عليه السلام ﴿ثم دمرنا الآخرين﴾ أهلكناهم أشد إهلاك وأفظعه ﴿وأمطرنا عليهم مطرا﴾ أى مطرا غير معهود قيل أمطر الله تعالى على شذاذ القوم حجارة فأهلكتهم ﴿فساء مطر المنذرين﴾ اللام فيه للجنس وبه يتسنى وقوع المضاف إليه فاعل ساء والمخصوص بالذم محذوف وهو مطرهم ﴿إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم كذب أصحاب الأيكة المرسلين﴾ الأيكة الغيضة التى تنبت ناعم الشجر وهى غيضة بقرب مدين يسكنها طائفة وكانوا ممن بعث إليهم شعيب عليه السلام وكان أجنبيا منهم ولذلك قيل ﴿إذ قال لهم شعيب ألا تتقون﴾ ولم يقل أخوهم .

وقيل الأيكة الشجر الملتف وكان شجرهم الدوم وهو المقل وقرىء بحذف الهمزة والقاء حركتها على اللام وقرئت كذلك مفتوحة على أنها ليكة وهى اسم بلدهم وإنما كتبت ههنا وفى ص بغير ألف إتباعا للفظ اللافظ ﴿إنى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين أوفوا الكيل﴾ أى أتموه ﴿ولا تكونوا من المخسرين﴾ أى حقوق الناس بالتطفيف ﴿وزنوا﴾ أى الموزونات ﴿بالقسطاس المستقيم﴾ بالميزان السوى وهو إن كان عربيا فإن كان من القسط ففعلاس بتكرير العين وإلا ففعلال وقرىء بضم

القاف ﴿ ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴾ أى لا تنقصوا شيئا من حقوقهم أى حق كان وهذا تعميم بعد تخصيص بعض المواد بالذكر لغاية انهماكهم فيها ﴿ ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ﴾ بالقتل والغارة وقطع الطريق ﴿ واتقوا الذى خلقكم والجبلة الأولين ﴾ أى وذوى الجبلة الأولين وهم من تقدمهم من الخلائق وقرىء بضم الجيم والباء وبكسر الجيم وسكون الباء كالخلقة ﴿ قالوا إنما أنت من المسحرين وما أنت إلا بشر مثلنا ﴾ ادخال الواو بين الجملتين للدلالة على أن كلا من التسحير والبشرية مناف للرسالة مبالغة فى التكذيب ﴿ وإن نظنك لمن الكاذبين ﴾ أى فيما تدعيه من النبوة ﴿ فأسقط علينا كسفا من السماء ﴾ أى قطعا وقرىء بسكون السين وهو أيضا جمع كسفة وقيل الكسف والكسفة كالريع والريعة وهى القطعة والمراد بالسماء إما السحاب أو المظلة ولعله جواب لما أشعر به الأمر بالتقوى من التهديد ﴿ إن كنت من الصادقين ﴾ فى دعواك ولم يكن طلبهم ذلك إلا لتصميمهم على الجحود والتكذيب وإلا لما أخطروه ببالهم فضلا أن يطلبوه .

﴿ قال ربى أعلم بما تعملون ﴾ من الكفر والمعاصى وبما تستحقون بسببه من العذاب فسينزله عليكم فى وقته المقدر له لا محالة ﴿ فكذبوه ﴾ أى فتموا على تكذيبه وأصروا عليه ﴿ فأخذهم عذاب يوم الظلة ﴾ حسبما اقترحوا أما إن أرادوا بالسماء السحاب فظاهر وأما إن أرادوا المظلة فلأن نزول العذاب من جهتها وفى إضافة العذاب إلى يوم الظلة دون نفسها إيذان بأن لهم يومئذ عذابا آخر غير عذاب الظلة وذلك بأن سلط الله عليهم الحر سبعة أيام ولياليها فأخذ بأنفسهم لا ينفعهم ظل ولا ماء ولا سرب فاضطروا إلى أن خرجوا إلى البرية فأظلتهم سحابة وجدوا لها بردا ونسيما فاجتمعوا تحتها فأمطرت عليهم نارا فاحترقوا جميعا . روى أن شعيبا عليه السلام بعث إلى أمتين أصحاب مدين وأصحاب الأيكة فأهلكت مدين بالصيحة والرجفة وأصحاب الأيكة بعذاب يوم الظلة ﴿ إنه كان عذاب يوم عظيم ﴾ أى فى الشدة والهول وفظاعة ما وقع فيه من الطامة والداهية التامة ﴿ إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ هذا آخر القصص السبع التى أوحيت

إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لصرفه عليه الصلاة والسلام عن الحرص على إسلام قومه وقطع رجائه عنه ودفع تحسره على فواته تحقيقاً لمضمون ما مر فى مطلع السورة الكريمة من قوله تعالى (وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين) فقد كذبوا بالحق الآية فإن كل واحدة من هذه القصص ذكر مستقل متجدد النزول قد أتاهم من جهته تعالى بموجب رحمته الواسعة وما كان أكثرهم مؤمنين بعد ما سمعوها على التفصيل قصة بعد قصة لا بأن يتدبروا فيها ويعتبروا بما فى كل واحدة منها من الدواعى إلى الإيمان والزواجر عن الكفر والطغيان ولا بأن يتأملوا فى شأن الآيات الكريمة الناطقة بتلك القصص على ما هى عليه مع علمهم بأنه عليه الصلاة والسلام لم يسمع شيئاً منها من أحد أصلا واستمروا على ما كانوا عليه من الكفر والضلال كأن لم يسمعوا شيئاً يزجرهم عن ذلك قطعا كما حقق فى خاتمة قصة موسى عليه السلام.

﴿ وإنه ﴾ أى ما ذكر من الآيات الكريمة الناطقة بالقصص المحكية أو القرآن الذى هى من جملته ﴿ لتنزيل رب العالمين ﴾ أى منزل من جهته تعالى سمى به مبالغة ووصفه تعالى بربوبية العالمين للإيذان بأن تنزيله من أحكام تربيته تعالى ورأفته للكل كقوله تعالى (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) ﴿ نزل به ﴾ أى أنزله ﴿ الروح الأمين ﴾ أى جبريل عليه السلام فانه أمين وحيه تعالى وموصله إلى أنبيائه عليهم الصلاة والسلام وقرىء بتشديد الزاى ونصب الروح والأمين أى جعل الله تعالى الروح الأمين نازلا به ﴿ على قلبك ﴾ أى روحك وإن أريد به العضو فتخصيصه به لأن المعانى الروحانية تنزل أولا على الروح ثم تنتقل منه إلى القلب لما بينهما من التعلق ثم تتصعد إلى الدماغ فينتقش بها لوح المتخيلة ﴿ لتكون من المنذرين ﴾ متعلق بنزل به أى أنزله لتنذرهم بما فى تضاعيفه من العقوبات الهائلة وإيثار ما عليه النظم الكريم للدلالة على انتظامه عليه الصلاة والسلام فى سلك أولئك المنذرين المشهورين فى حقية الرسالة وتقرر وقوع العذاب المنذر.

﴿ بلسان عربى مبين ﴾ واضح المعنى ظاهر المدلول لئلا يبقى لهم عذر ما وهو

أيضا متعلق بنزل به وتأخيره للاعتناء بأمر الإنذار وللإيماء إلى أن مدار كونه من جملة المنذرين المذكورين عليهم السلام مجرد إنزاله عليه عليه الصلاة والسلام لا إنزاله باللسان العربى وجعله متعلقا بالمنذرين كما جوزه الجمهور يؤدى إلى أن غاية الإنزال كونه عليه الصلاة والسلام من جملة المنذرين باللغة العربية فقط من هود وصالح وشعيب عليهم السلام ولا يخفى فساده كيف لا والطامة الكبرى فى باب الإنذار ما أنذره نوح وموسى عليهما الصلاة والسلام وأشد الزواجر تأثيرا فى قلوب المشركين ما أنذره إبراهيم عليه السلام لا تمائهم وادعائهم أنهم على ملته عليه الصلاة والسلام ﴿ وإنه لفى زبر الأولين ﴾ أى وإن ذكره أو معناه لفى الكتب المتقدمة فإن أحكامه التى لا تحتمل النسخ والتبديل بحسب تبدل الأعصار من التوحيد وسائر ما يتعلق بالذات والصفات مسطورة فيها وكذا ما فى تضاعيفه من المواعظ والقصص وقيل الضمير لرسول الله صلى الله عليه وسلم وليس بواضح ﴿ أولم يكن لهم آية ﴾ الهمزة للإنكار والنفى والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام كأنه قيل أغفلوا عن ذلك ولم يكن لهم آية دالة على أنه تنزيل من رب العالمين وأنه فى زبر الأولين على أن لهم متعلق بالكون قدم على اسمه وخبره للاهتمام به أو بمحذوف هو حال من آية قدمت عليها لكونها نكرة وآية خبر للكون قدم على اسمه الذى هو قوله تعالى :

﴿ أن يعلمه علماء بنى إسرائيل ﴾ لما مر مرارا من الاعتناء والتشويق إلى المؤخر أى أن يعرفوه بنعوته المذكورة فى كتبهم ويعرفوا من أنزل عليه وقرىء تكن بالتأنيث وجعلت آية إسما وأن يعلمه خبرا وفيه ضعف حيث وقع النكرة اسما والمعرفة خبرا وقد قيل فى تكن ضمير القصة وآية أن يعلمه جملة واقعة موقع الخبر ويجوز أن يكون لهم آية هى جملة الشأن وأن يعلمه بدلا من آية ويجوز مع نصب آية تأنيث تكن كما فى قوله تعالى (ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا) وقرىء تعلمه بالتاء ﴿ ولو نزلناه ﴾ كما هو بنظمه الرائق المعجز ﴿ على بعض الأعجمين ﴾ الذين لا يقدرون على التكلم بالعربية وهو جمع أعجمى على التخفيف ولذلك جمع جمع السلامة وقرىء الأعجميين وفى لفظ البعض إشارة

إلى كون ذلك واحدا من عرض تلك الطائفة كائنا من كان ﴿ فقرأه عليهم ﴾ قراءة صحيحة خارقة للعادات ﴿ما كانوا به مؤمنين﴾ مع انضمام إعجاز القراءة إلى إعجاز المقروء لفرط عنادهم وشدة شكيمتهم فى المكابرة وقيل المعنى ولو نزلناه على بعض الأعجمين بلغة العجم فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين لعدم فهمهم واستنكافهم من اتباع العجم وليس بذاك فإنه بمعزل من المناسبة لمقام بيان تماديهم فى المكابرة والعناد ﴿ كذلك سلكناه ﴾ أى مثل ذلك السلك البديع المذكور سلكناه أى أدخلنا القرآن ﴿ فى قلوب المجرمين ﴾ ففهموا معانيه وعرفوا فصاحته وأنه خارج عن القوى البشرية من حيث النظم المعجز ومن حيث الإخبار عن الغيب وقد انضم إليه اتفاق علماء أهل الكتب المنزلة قبله على تضمنها للبشارة بإنزاله وبعثة من أنزل عليه بأوصافه فقوله تعالى ﴿لا يؤمنون به﴾ جملة مستأنفة مسوقة لبيان أنهم لا يتأثرون بأمثال تلك الأمور الداعية إلى الإيمان به بل يستمرون على ما هم عليه ﴿حتى يروا العذاب الأليم﴾ الملجىء إلى الإيمان به حين لا ينفعهم الإيمان ﴿فيأتيهم بغتة﴾ أى فجأة فى الدنيا والآخرة ﴿وهم لا يشعرون﴾ بإتيانه ﴿فيقولون هل نحن منظرون﴾ تحسرا على مافات من الإيمان وتمنيا للإمهال لتلافى ما فرطوه وقيل معنى كذلك سلكناه مثل تلك الحال وتلك الصفة من الكفر به والتكذيب له وضعناه فى قلوبهم وقوله تعالى (لا يؤمنون به) فى موقع الإيضاح والتلخيص له أو فى موقع الحال أى سلكناه فيها غير مؤمن به والأول هو الأنسب بمقام بيان غاية عنادهم ومكابرتهم مع تعاضد أدلة الإيمان وتآخذ مبادىء الهداية والإرشاد وانقطاع أعذارهم بالكلية وقيل ضمير سلكناه للكفر المدلول عليه بما قبله من قوله تعالى (ما كانوا به مؤمنين) ونقل عن ابن عباس رضى الله عنهما والحسن ومجاهد رحمهما الله تعالى أدخلنا الشرك والتكذيب في قلوب المجرمين .

﴿ أفبعذابنا يستعجلون ﴾ بقولهم (أمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) وقولهم (فأتنا بما تعدنا) ونحوهما وحالهم عند نزول العذاب كما وصف من طلب الإنذار فالفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى أيكون حالهم كما

ذكر من الاستنظار عند نزول العذاب الأليم فيستعجلون بعذابنا وبينهما من التنافى ما لايخفى على أحد أو أيغفلون عن ذلك مع تحققه وتقرره فيستعجلون الخ وإنما قدم الجار والمجرور للإيذان بأن مصب الإنكار والتوبيخ كون المستعجل به عذابه تعالى مع مافيه من رعاية الفواصل ﴿أفرأيت﴾ لما كانت الرؤية من أقوى أسباب الإخبار بالشيء وأشهرها شاع استعمال أرأيت فى معنى أخبرنى والخطاب لكل من يصلح له كائنا من كان والفاء لترتيب الاستخبار على قولهم هل نحن منظورون وما بينهما اعتراض للتوبيخ والتبكيت وهى متقدمة فى المعنى على الهمزة وتأخيرها عنها صورة لاقتضاء الهمزة الصدارة كما هو رأى الجمهور أى فاخبرنى ﴿إن متعناهم سنين﴾ متطاولة بطول الأعمار وطيب المعايش ﴿ثم جاءهم ما كانوا يوعدون﴾ من العذاب ﴿ما أغنى عنهم﴾ أى شيء أو أى إغناء أغنى عنهم ﴿ما كانوا يمتعون﴾ أى كونهم ممتعين ذلك التمتيع المديد على أن ما مصدرية أو ما كانوا يمتعون به من متاع الحياة الدنيا على أنها موصولة حذف عائدها وأيا ما كان فالاستفهام للانكار والنفى وقيل ما نافية أى لم يغن عنهم تمتعهم المتطاول فى دفع العذاب وتخفيفه والأول هو الأولى لكونه أوفق لصورة الاستخبار وأدل على انتفاء الإغناء على أبلغ وجه وآكده كأن كل من من شأنه الخطاب قد كلف أن يخبر بأن تمتيعهم ماذا أفادهم وأى شيء أغنى عنهم فلم يقدر أحد على أن يخبر بشيء من ذلك أصلا وقرىء يمتعون من الإمتاع .

﴿وما أهلكنا من قرية﴾ من القرى المهلكة ﴿إلا لها منذرون﴾ قد أنذروا أهلها إلزاما للحجة ﴿ذكرى﴾ أى تذكرة ومحلها النصب على العلة أو المصدر لأنها فى معنى الإنذار كأنه قيل مذكرون ذكرى أو على أنه مصدر مؤكد لفعل هو صفة لمنذرون أى إلا لها منذرون يذكرونهم ذكرى أو الرفع على أنها صفة منذرون باضمار ذوو أو بجعلهم ذكرى لإمعانهم فى التذكرة أو خبر مبتدأ محذوف والجملة اعتراضية وضمير لها للقرى المدلول عليها بمفردها الواقع فى حيز النفى على أن معنى أن الكل منذرين أعم من أن يكون لكل قرية منها

منذر واحد أو أكثر ﴿ وما كنا ظالمين ﴾ فنهلك غير الظالمين وقيل الإنذار والتعبير عن ذلك بنفى الظالمية مع أن إهلاكهم قبل الإنذار ليس بظلم أصلا على ما تقرر من قاعدة أهل السنة لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى من الظلم وقد مر فى سورة آل عمران عند قوله تعالى (وأن الله ليس بظلام للعبيد) .

﴿ وما تنزلت به الشياطين ﴾ رد لما زعمه الكفرة فى حق القرآن الكريم من أنه من قبيل ما يلقيه الشيطان على الكهنة بعد تحقيق الحق ببيان أنه نزل به الروح الأمين ﴿ وما ينبغى لهم ﴾ أى وما يصح وما يستقيم لهم ذلك ﴿ وما يستطيعون ﴾ ذلك أصلا ﴿ إنهم عن السمع ﴾ لكلام الملائكة ﴿ لمعزولون ﴾ لانتفاء المشاركة بينهم وبين الملائكة فى صفاء الذوات والاستعداد لقبول فيضان أنوار الحق والانتقاش بصور العلوم الربانية والمعارف النورانية ، كيف لا ونفوسهم خبيثة ظلمانية شريرة بالذات غير مستعدة إلا لقبول مالاخير فيه أصلا من فنون الشرور فمن أين لهم أن يحوموا حول القرآن الكريم المنطوى على الحقائق الرائقة الغيبية التى لا يمكن تلقيها إلا من الملائكة عليهم الصلاة والسلام .

﴿ فلا تدع مع الله إلها آخر فتكون من المعذبين ﴾ خوطب به النبى عليه الصلاة والسلام تهييجا وحثا على ازدياد الإخلاص ولطفا لسائر المكلفين ببيان أن الإشراك من القبح والسوء بحيث ينهى عنه من لا يمكن صدوره عنه فكيف بمن عداه ﴿ وأنذر ﴾ العذاب الذى يستتبعه الشرك والمعاصى ﴿ عشيرتك الأقربين ﴾ الأقرب منهم فالأقرب فإن الاهتمام بشأنهم أهم .

روى أنه لما نزلت صعد الصفا وناداهم فخذا فخذا حتى اجتمعوا إليه فقال لو أخبرتكم أن بسفح هذا الجبل خيلا أكنتم مصدقى قالوا نعم قال فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد وروى أنه قال يابنى عبد المطلب يابنى هاشم يابنى عبد مناف افتدوا أنفسكم من النار فإنى لا أغنى عنكم شيئاً ثم قال ياعائشة بنت

أبى بكر ويا حفصة بنت عمر ويافاطمة بنت محمد وياصفية عمة محمد اشترين أنفسكن من النار فإنى لا أغنى عنكن شيئاً .

﴿ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ﴾ أى لين جانبك لهم مستعار من حال الطائر فإنه إذا أراد أن ينحط خفض جناحه ومن للتبيين لأن من اتبع أعم من اتبع لدين أو غيره أو للتبعيض على أن المراد بالمؤمنين المشارفون للإيمان أو المصدقون باللسان فحسب ﴿ فإن عصوك ﴾ ولم يتبعوك ﴿ فقل إنى برىء مما تعملون ﴾ أى مما تعملون أو من أعمالكم ﴿ وتوكل على العزيز الرحيم ﴾ الذى يقدر على قهر أعدائه ونصر أوليائه يكفك شر من يعصيك منهم ومن غيرهم وقرىء فتوكل على أنه بدل من جواب الشرط ﴿ الذى يراك حين تقوم ﴾ أى إلى التهجد ﴿ وتقلبك فى الساجدين ﴾ وترددك فى تصفح أحوال المتهجدين كما روى أنه لما نسخ فرض قيام الليل طاف عليه الصلاة والسلام تلك الليلة ببيوت أصحابه لينظر ما يصنعون حرصا على كثرة طاعتهم فوجدها كبيوت الزنابير لما سمع منها من دندنتهم بذكر الله تعالى والتلاوة أو تصرفك فيما بين المصلين بالقيام والركوع والسجود والقعود إذا أممتهم وإنما وصف الله تعالى ذاته بعلمه بحاله عليه الصلاة والسلام التى بها يستأهل ولايته بعد أن عبر عنه بما ينبىء عن قهر أعدائه ونصر أوليائه من وصفى العزيز الرحيم تحقيقا للتوكل وتوطينا لقلبه عليه .

﴿ إنه هو السميع ﴾ لما تقول ﴿ العليم ﴾ بما تنويه وتعمله ﴿ هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ﴾ أى تتنزل بحذف إحدى التاءين وهو استئناف مسوق لبيان استحالة تنزل الشياطين على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد بيان امتناع تنزلهم بالقرآن ودخول حرف الجر على من الاستفهامية لما أنها ليست موضوعة للاستفهام بل الأصل أمن فحذف حرف الاستفهام واستمر الاستعمال على حذفه كما حذف من هل والأصل أهل وقوله تعالى ﴿ تنزل على كل أفاك أثيم ﴾ قصر لتنزلهم على كل من اتصف بالإفك الكثير والإثم الكبير من الكهنة والمتنبئة وتخصيص له بهم بحيث لا يتخطاهم إلى غيرهم وحيث كانت ساحة

رسول الله صلى الله عليه وسلم منزهة عن أن يحوم حولها شائبة شيء من تلك الأوصاف اتضح استحالة تنزلهم عليه عليه الصلاة والسلام ﴿ يلقون ﴾ أى الأفاكون ﴿ السمع ﴾ إلى الشياطين فيتلقون منهم أوهاما وأمارات لنقصان علمهم فيضمون إليها بحسب تخيلاتهم الباطلة خرافات لا يطابق أكثرها الواقع وذلك قوله تعالى ﴿ وأكثرهم كاذبون ﴾ أى فيما قالوه من الأقاويل وقد ورد فى الحديث الكلمة يخطفها الجنى فيقرها فى أذن وليه فيزيد فيها أكثر من مائة كذبة أو يلقون السمع أى المسموع من الشياطين إلى الناس وأكثرهم كاذبون يفترون على الشياطين ما لم يوحوا إليهم والإظهر أن الأكثرية باعتبار أقوالهم على معنى أن هؤلاء قلما يصدقون فيما يحكون عن الجنى وأما فى أكثره فهم كاذبون ومآله وأكثر أقوالهم كاذبة لا باعتبار ذواتهم حتى يلزم من نسبة الكذب إلى أكثرهم كون أقلهم صادقين على الإطلاق وليس معنى الأفاك من من لا ينطق إلا بالإفك حتى يمتنع منه الصدق بل من يكثر الإفك فلا ينافيه أن يصدق نادرا فى بعض الأحايين وقيل الضمير للشياطين أى يلقون السمع أى المسموع من الملأ الأعلى قبل أن رجموا من بعض المغيبات الى أوليائهم وأكثرهم كاذبون فيما يوحون به إليهم إذ لا يسمعونهم على نحو ما تكلمت به الملائكة لشرارتهم أو لقصور فهمهم أو ضبطهم أو إفهامهم ولا سبيل الى حمل إلقاء السمع على تسمعهم وإنصاتهم إلى الملأ الأعلى قبل الرجم كما جوزه الجمهور لما أن يلقون كما صرحوا به إما حال من ضمير تنزل مفيدة لمقارنة التنزل للإلقاء أو استئناف مبين للغرض من التنزل مبنى على السؤال عنه ولا ريب فى أن إلقاء السمع إلى الملأ الأعلى بمعزل من احتمال أن يقارن التنزل أو يكون غرضا منه لتقدمه عليه قطعا وإنما المحتمل لهما الإلقاء بالمعنى الأول فالمعنى على تقدير كونه حالا تنزل الشياطين على الأفاكين ملقين إليهم ما سمعوه من الملأ الأعلى وعلى تقدير كونه جوابا على سؤال من قال لم تنزل عليهم وماذا يفعلون بهم يلقون إليهم ما سمعوه وحمله على استئناف الأخبار كما فعله بعضهم غير سديد لأن ذكر حالهم السابقة على تنزلهم المذكور قبله غير خليق بجزالة

التنزيل وأما على تقدير كون ضمير يلقون للأفاكين فهو صفة لكل أفاك لأنه فى معنى الجمع سواء أريد بإلقاء السمع الإصغاء إلى الشياطين أو إلقاء المسموع إلى الناس ويجوز أن يكون استئناف اخبار بحالهم على كلا التقديرين لما أن كلا من تلقيهم من الشياطين وإلقائهم الى الناس يكون بعد التنزيل وأن يكون استئنافا مبنيا على السؤال على التقدير الأول فقط كأنه قيل ما يفعلون عند تنزل الشياطين عليهم فقيل يلقون إليهم أسماعهم ليحفظوا ما يوحون به إليهم وقوله تعالى وأكثرهم كاذبون على التقدير الأول استئناف فقط وعلى الثانى يحتمل الحالية من ضمير يلقون أى يلقون ما سمعوه من الشياطين إلى الناس والحال أنهم فى أكثر أقوالهم كاذبون فتدبر .

إبطال مزاعمهم عن القرآن

﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ﴾ استئناف مسوق لإبطال ماقالوا فى حق القرآن العظيم من أنه من قبيل الشعر وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الشعراء ببيان حال الشعراء المنافية لحاله عليه الصلاة والسلام بعد إبطال ماقالوا إنه من قبيل مايلقى الشياطين على الكهنة من الأباطيل بما مر من بيان أحوالهم المضادة لأحواله عليه الصلاة والسلام والمعنى أن الشعراء يتبعهم أى يجاريهم ويسلك مسلكهم ويكون من جملتهم الغاوون الضالون عن السنن الحائرون فيما يأتون وما يذرون لايستمرون على وتيرة واحدة فى الأفعال والأقوال والأحوال لاغيرهم من أهل الرشد المهتدين إلى طريق الحق الثابتين عليه وقوله تعالى ﴿ ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ﴾ استشهاد على أن الشعراء إنما يتبعهم الغاوون وتقرير له والخطاب لكل من تتأتى منه الرؤية للقصد إلى أن حالهم من الجلاء والظهور بحيث لا تختص برؤية راء دون راء أى ألم تر أن الشعراء فى كل واد من أودية القيل والقال وفى كل شعب من شعاب الوهم والخيال وفى كل مسلك من مسالك الغى والضلال يهيمون على وجوههم لا يهتدون إلى سبيل معين من السبل بل يتحيرون فى فيافى الغــواية والسفاهة ويتيهون فى تيه المجون

والوقاحة دينهم تمزيق الأعراض المحمية والقدح فى الأنساب الطاهرة السنية والنسيب بالحرام والغزل والابتهار والتردد بين طرفى الإفراط والتفريط فى المدح والهجاء .

﴿ وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴾ من الأفاعيل غير مبالين بما يستتبعه من اللوائم فكيف يتوهم أن يتبعهم فى مسلكهم ذلك ويلتحق بهم وينتظم فى سلكهم من تنزهت ساحته عن أن يحوم حولها شائبة الإنصاف بشىء من الأمور المذكورة واتصف بمحاسن الصفات الجليلة وتخلق بمكارم الأخلاق الجميلة وحاز جميع الكمالات القدسية وفاز بجملة الملكات الأنسية مستقرا على المنهاج القويم مستمرا على الصراط المستقيم ناطقا بكل أمر رشيد داعيا إلى صراط العزيز الحميد مؤيداً بمعجزات قاهرة وآيات ظاهرة مشحونة بفنون الحكم الباهرة وصنوف المعارف الزاهرة مستقلة بنظم رائق أعجز كل منطق ماهر وبكت كل مفلق ساحر هذا وقد قيل فى تنزيهه عليه الصلاة والسلام عن أن يكون من الشعراء أن أتباع الشعراء الغاوون وأتباع محمد صلى الله عليه وسلم ليسوا كذلك ولا ريب فى أن تعليل عدم كونه عليه الصلام والسلام منهم يكون أتباعه عليه الصلاة والسلام غير غاوين بما لا يليق بشأنه العالى وقيل الغاوون الراوون وقيل الشياطين وقيل هم شعراء قريش عبد الله بن الزبعرى وهبيرة ابن أبى وهب المخزومى ومسافع بن عبد مناف وأبو عزة الجمحى ومن ثقيف أمية بن أبى الصلت قالوا نحن نقول مثل قول محمد صلى الله عليه وسلم وقرىء والشعراء بالنصب على إضمار فعل يفسره الظاهر وقرىء يتبعهم على التخفيف ويتبعهم بسكون العين تشبيها لبعه بعضد

﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا ﴾ استثناء للشعراء المؤمنين الصالحين الذين يكثرون ذكر الله عز وجل ويكون أكثر أشعارهم فى التوحيد والثناء على الله تعالى والحث على طاعته والحكمة والموعظة والزهد فى الدنيا والترغيب عن الركون إليها والزجر عن

الاغترار بزخارفها والافتتان بملاذها القلبية ولو وقع منهم فى بعض الأوقات هجو وقع ذلك منهم بطريق الانتصار ممن هجاهم وقيل المراد بالمستثنين عبد الله ابن رواحة وحسان بن ثابت وكعب بن مالك وكعب بن زهير بن أبى سلمى والذين كانوا ينافحون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويكافحون هجاة قريش وعن كعب بن مالك رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له اهجهم فوالذى نفسى بيده لهو أشد عليهم من النبل وكان يقول لحسان قل وروح القدس معك ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾ تهديد شديد ووعيد أكيد لما فى سيعلم من تهويل متعلقة وفى الذين ظلموا من الاطلاق والتعميم وفى أى منقلب ينقلبون من الإبهام والتهويل وقد قاله أبو بكر لعمر رضى الله عنهما حين عهد إليه وقرىء أى منفلت ينفلتون من الانفلات بمعنى النجاة والمعنى أن الظالمين يطمعون أن ينفلتوا من عذاب الله تعالى وسيعلمون أن ليس لهم وجه من وجوه الانفلات . عن النبى عليه الصلاة والسلام من قرأ سورة الشعراء كان له من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق بنوح وكذب به وهود وصالح وشعيب وابراهيم وبعدد من كذب بعيسى وصدق بمحمد عليهم الصلاة والسلام

* * *

سورة النمل
مكية وهى ثلاث أو أربع وتسعون آية

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ طس ﴾ بالتفخيم وقرىء بالإمالة والكلام فيه كالذى مر فى نظائره من الفواتح الشريفة ومحله على تقدير كونه اسما للسورة وهو الأظهر والأشهر الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أى هذا طس أى مسمى به والإشارة إليه قبل ذكره قد مر وجهها فى فاتحة سورة يونس وغيرها ورفعه بالابتداء على أن ما بعده خبر ضعيف لما ذكر هناك ﴿ تلك ﴾ إشارة إلى نفس السورة لأنها التى نوهت بذكر اسمها لا إلى آياتها لعدم ذكرها صريحا لأن إضافتها إليها تأبى إضافتها إلى القرآن كما سيأتى وما فى اسم الاشارة من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإيذان ببعد منزلته فى الفضل والشرف ومحله الرفع على الابتداء خبره ﴿ آيات القرآن ﴾ والجملة مستأنفة مقررة لما أفاده التسمية من نباهة شأن المسمى والقرآن عبارة عن الكل أو عن الجميع المنزل عند نزول السورة حسبما ذكر فى فاتحة فاتحة الكتاب أى تلك السورة آيات القرآن المعروف بعلو الشأن أى بعض منه مترجم مستقل باسم خاص ﴿ وكتاب ﴾ أى كتاب عظيم الشأن ﴿ مبين ﴾ مظهر لما فى تضاعيفه من الحكم والأحكام وأحوال الآخرة التى من جملتها الثواب والعقاب أو لسبيل الرشد والغى أو فارق بين الحق والباطل والحلال والحرام أو ظاهر الإعجاز على أنه من أبان بمعنى بان ولقد فخم شأنه الجليل بما جمع فيه من وصف القرآنية المنبئة عن كونه بديعا فى بابه ممتازا عن غيره بالنظم المعجز كما يعرب عنه قوله تعالى (قرآنا عربيا غير ذى عوج) ووصف الكتابية المعربة عن اشتماله على صفات كمال الكتب الإلهية فكأنه كلها وقدم الوصف الأول ههنا نظراً إلى تقدم حال القرآنية على حال الكتابية وعكس فى سورة الحجر نظرا إلى ما ذكر هناك من الوجه وما قيل من أن الكتاب هو اللوح المحفوظ وإبانته أنه خط فيه

ما هو كائن فهو يبينه للناظرين فيه لا يساعده إضافة الآيات إليه إذ لا عهد باشتماله على الآيات ولا وصفه بالهداية والبشارة إذ هما باعتبار إبانته فلابد من اعتبارها بالنسبة إلى الناس الذين من جملتهم المؤمنون لا إلى الناظرين فيه وقرىء وكتاب بالرفع على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه أى وآيات كتاب مبين.

﴿ هدى وبشرى للمؤمنين ﴾ فى حيز النصب على الحالية من الآيات على أنهما مصدران أقيما مقام الفاعل للمبالغة كأنهما نفس الهدى والبشارة والعامل معنى الاشارة أى هادية ومبشرة أو الرفع على أنهما بدلان من الآيات أو خبران آخران لتلك أو لمبتدأ محذوف ومعنى هدايتها لهم وهم مهتدون أنها تزيدهم هدى قال تعالى (فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون) وأما معنى تبشيرها إياهم فظاهر لأنها تبشرهم برحمة من الله ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم وقوله تعالى ﴿ الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ﴾ صفة مادحة لهم وتخصيصهما بالذكر لأنهما قرينتا الإيمان وقطرا العبادات البدنية والمالية مستتبعان لسائر الأعمال الصالحة وقوله تعالى ﴿ وهم بالآخرة هم يوقنون ﴾ جملة اعتراضية كأنه قيل وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات هم الموقنون بالآخرة حق الإيقان لا من عداهم لأن تحمل مشاق العبادات لخوف العقاب ورجاء الثواب أو هو من تتمة الصلة والواو حالية أو عاطفة له على الصلة الأولى وتغيير نظمه للدلالة على قوة يقينهم وثباته وأنهم أوحديون فيه .

من أحوال الكفار

﴿ إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ بيان لأحوال الكفرة بعد بيان أحوال المؤمنين أى لا يؤمنون بها وبما فيها من الثواب على الأعمال الصالحة والعقاب على السيئات حسبما ينطق به القرآن ﴿ زينا لهم أعمالهم ﴾ القبيحة حيث جعلناها مشتهاة للطبع محبوبة للنفس كما ينبىء عنه قوله عليه الصلاة والسلام حفت النار بالشهوات أو الأعمال الحسنة ببيان حسنها فى أنفسها حالا واستتباعها لفنون المنافع مآلا وإضافتها إليهم باعتبار أمرهم بها وإيجابها عليهم ﴿ فهم

يعمهون ﴾ يتحيرون ويترددون على التجدد والاستمرار فى الاشتغال بها والانهماك فيها من غير ملاحظة لما يتبعها من نفع وضر أو فى الضلال والإعراض عنها والفاء على الأول لترتيب المسبب على السبب وعلى الثانى لترتيب ضد المسبب على السبب كما فى قولك وعظته فلم يتعظ وفيه إيذان بكمال عتوهم ومكابرتهم وتعكيسهم فى الأمور ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى المذكورين وهو مبتدأ خبره الموصول بعده أى أولئك الموصوفون بالكفر والعمه ﴿ الذين لهم سوء العذاب ﴾ أى فى الدنيا كالقتل والأسر يوم بدر ﴿ وهم فى الآخرة هم الأخسرون ﴾ أى أشد الناس خسرانا لفوات الثواب واستحقاق العقاب .

﴿ وإنك لتلقى القرآن ﴾ كلام مستأنف قد سيق بعد بيان بعض شئون القرآن الكريم تمهيدا لما يعقبه من الأقاصيص وتصديره بحرفى التأكيد لإبراز كمال العناية بمضمونه أى لتؤتاه بطريق التلقية والتلقين ﴿ من لدن حكيم عليم ﴾ أى أى حكيم وأى عليم وفى تفخيمهما تفخيم لشأن القرآن وتنصيص على علو طبقته عليه الصلاة والسلام فى معرفته والاحاطة بما فيه من الجلائل والدقائق فان من تلقى العلوم والحكم من مثل ذلك الحكيم العليم يكون علما فى رصانة العلم والحكمة والجمع بينهما مع دخول العلم فى الحكمة لعموم العلم ودلالة الحكمة على اتقان الفعل والإشعار بأن مافى القرآن من العلوم منها ماهو حكمة كالعقائد والشرائع ومنها ما ليس كذلك كالقصص والأخبار الغيبية وقوله تعالى ﴿ إذ قال موسى لأهله ﴾ منصوب على المفعولية بمضمر خوطب به النبى صلى الله عليه وسلم وأمر بتلاوة بعض من القرآن الذى يلقاه عليه الصلاة والسلام من لدنه عز وجل تقريرا لما قبله وتحقيقا له أى اذكر لهم وقت قوله عليه الصلاة والسلام لأهله فى وادى طوى وقد غشيتهم ظلمة الليل وقدح فأصلد زنده فبدا له من جانب الطور نارا ﴿ إنى آنست نارا سآتيكم منها بخبر ﴾ أى عن حال الطريق وقد كانوا ضلوه والسين للدلالة على نوع بعد فى المسافة وتأكيد الوعد والجمع إن صح أنه لم يكن معه عليه الصلاة والسلام إلا امرأته لما كنى عنها بالأهل أو للتعظيم مبالغة فى التسلية ﴿ أو آتيكم بشهاب قبس ﴾ بتنوينهما

على أن الثانى بدل من الأول أو صفة له لأنه بمعنى مقبوس أى بشعلة نار مقبوسة أى مأخوذة من أصلها وقرىء بالإضافة وعلى التقديرين فالمراد تعيين المقصود الذى هو القبس الجامع لمنفعتى الضياء والاصطلاء لأن من النار ما ليس بقبس كالجمر وكلتا العدتين منه عليه الصلاة والسلام بطريق الظن كما يفصح عن ذلك ما فى سورة طه من صيغة الترجى والترديد للإيذان بأنه إن لم يظفر بهما لم يعدم أحدهما بناء على ظاهر الأمر وثقة بسنة الله تعالى فإنه تعالى لا يكاد يجمع على عبده حرمانين ﴿ لعلكم تصطلون ﴾ رجاء أن تستدفئوا بها والصلاء النار العظيمة .

﴿ فلما جاءها نودى ﴾ من جانب الطور ﴿ أن بورك ﴾ معناه أى بورك على أن أن مفسرة لما فى النداء من معنى القول أو بأن بورك على أنها مصدرية حذف عنها الجار جريا على القاعدة المستمرة وقيل مخففة من الثقيلة ولا ضير فى فقدان التعويض بلا أو قد أو السين أو سوف لما أن الدعاء يخالف غيره فى كثير من الأحكام ﴿ من فى النار ومن حولها ﴾ أى من فى مكان النار وهى البقعة المباركة المذكورة فى قوله سبحانه نودى من شاطىء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة ومن حول مكانها وقرىء تباركت الأرض ومن حولها والظاهر عمومه لكل من فى ذلك الوادى وحواليه من أرض الشام الموسومة بالبركات لكونها مبعث الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وكفاتهم أحياء وأمواتا ولاسيما تلك البقعة التى كلم الله تعالى فيها موسى وقيل المراد موسى والملائكة الحاضرون وتصدير الخطاب بذلك بشارة بأنه قد قضى له أمر عظيم دينى تنتشر بركاته فى أقطار الشأم وهو تكليمه تعالى إياه عليه الصلاة والسلام واستنباؤه له واظهار المعجزات على يده عليه الصلاة والسلام ﴿ وسبحان الله رب العالمين ﴾ تعجيب لموسى عليه الصلاة والسلام من ذلك وإيذان بأن ذلك مريده ومكونه رب العالمين تنبيها على أن الكائن من جلائل الأمور وعظائم الشئون ومن أحكام تربيته تعالى للعالمين ﴿ ياموسى إنه أنا الله ﴾ استئناف مسوق لبيان آثار البركة المذكورة والضمير إما للشأن وأنا الله جملة مفسرة له وإما راجع إلى المتكلم وأنا خبره

والله بيان له وقوله تعالى ﴿ العزيز الحكيم ﴾ صفتان لله تعالى ممهدتان لما أريد إظهاره على يده من المعجزات أى أنا القوى القادر على ما لا تناله الأوهام من الأمور العظام التى من جملتها أمر العصا واليد الفاعل كل ما أفعله بحكمة بالغة وتدبير رصين .

﴿ وألق ﴾ عطف على بورك منتظم معه فى سلك تفسير النداء أى نودى أن بورك وأن ألق ﴿ عصاك ﴾ حسبما نطق به قوله تعالى وأن ألق عصاك بتكرير حرف التفسير كما تقول كتبت إليه أن حج وأن اعتمر وإن شئت أن حج واعتمر والفاء فى قوله تعالى ﴿ فلما رآها تهتز ﴾ فصيحة تفصح عن جملة قد حذفت ثقة بظهورها ودلالة على سرعة وقوع مضمونها كما فى قوله تعالى (اخرج عليهن) كأنه قيل فألقاها فانقلبت حية تسعى فأبصرها فلما أبصرها متحركة بسرعة واضطراب وقوله تعالى ﴿ كأنها جان ﴾ أى حية خفيفة سريعة الحركة جملة حالية إما من مفعول رأى مثل يهتز كما أشير إليه أو من ضمير تهتز على طريقة التداخل وقرىء جأن على لغة من جد فى الهرب من التقاء الساكنين ﴿ ولى مدبرا ﴾ من الخوف ﴿ ولم يعقب ﴾ أى لم يرجع على عقبه من عقب المقاتل إذا كر بعد الفر وإنما اعتراه الرعب لظنه أن ذلك الأمر أريد به كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿ يا موسى لاتخف ﴾ أى من غيرى ثقة بى أو مطلقا لقوله تعالى ﴿ إنى لا يخاف لدى المرسلون ﴾ فإنه يدل على نفى الخوف عنهم مطلقاً لكن لا فى جميع الأوقات بل حين يوحى إليهم كوقت الخطاب فإنهم حينئذ مستغرقون فى مطالعة شؤن الله عزوجل لا يخطر ببالهم خوف من أحد أصلا وأما فى سائر الأحيان فهم أخوف الناس منه سبحانه أو لا يكون لهم عندى سوء عاقبة ليخافوا منه ﴿ إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فإنى غفور رحيم ﴾ استثناء منقطع استدرك به ما عسى يختلج فى الخلد من نفى الخوف عن كلهم مع أن منهم من فرطت منه صغيرة مما يجوز صدوره عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فإنهم وإن صدر عنهم شىء من ذلك فقد فعلوا عقيبه ما يبطله ويستحقون به من الله

تعالى مغفرة ورحمة وقد قصد به التعريض بما وقع من موسى عليه الصلاة والسلام من وكزه القبطى والاستغفار وتسميتها ظلما لقوله عليه الصلاة والسلام (رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له) ﴿ وأدخل يدك فى جيبك ﴾ لأنه كان مدرعة صوف لا كم لها وقيل الجيب القميص لأنه يجاب أى يقطع ﴿ تخرج بيضاء من غير سوء ﴾ أى آفة كبرص ونحوه ﴿ فى تسع آيات ﴾ فى جملتها أو معها على أن التسع هى الفلق والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمسة والجدب فى بواديهم والنقصان فى مزارعهم ولمن عد العصا واليد من التسع أن يعد الأخيرين واحدا ولا يعد الفلق منها لأنه لم يبعث به إلى فرعون أو اذهب فى تسع آيات على أنه استئناف بالإرسال فيتعلق به ﴿ إلى فرعون وقومه ﴾ وعلى الأولين يتعلق بنحو مبعوثا أو مرسلا ﴿ إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾ تعليل للإرسال أى خارجين عن الحدود فى الكفر والعدوان ﴿ فلما جاءتهم آياتنا ﴾ وظهرت على يد موسى ﴿ مبصرة ﴾ بينة اسم فاعل أطلق على المفعول إشعارا بأنها لفرط وضوحها وإنارتها كأنها تبصر نفسها لو كانت مما يبصر أو ذات تبصر من حيث أنها تهدى والعمى لا تهتدى فضلا عن الهداية أو مبصرة كل من ينظر إليها ويتأمل فيها وقرىء مبصرة أى مكانا يكثر فيه التبصر .

﴿ قالوا هذا سحر مبين ﴾ واضح سحريته ﴿ وجحدوا بها ﴾ أى كذبوا بها ﴿ واستيقنتها أنفسهم ﴾ الواو للحال أى وقد استيقنتها أى علمتها أنفسهم علما يقينيا ﴿ ظلما ﴾ أى للآيات كقوله تعالى (بما كانوا بآياتنا يظلمون) ولقد ظلموا بها أى ظلم خبث حطوها عن رتبتها العالية وسموها سحرا وقيل ظلما لأنفسهم وليس بذاك ﴿ وعلوا ﴾ أى استكبارا عن الإيمان بها كقوله تعالى (والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها) وانتصابهما إما على العلة من جحدوا بها أى على الحالية من فاعله أى جحدوا بها ظالمين لها مستكبرين عنها ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ من الإغراق على الوجه الهائل الذى هو عبرة للعالمين وإنما لم يذكر تنبيها على أنه عرضة لكل ناظر مشهور فيما بين كل باد وحاضر ﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علما ﴾ كلام مستأنف مسوق لتقرير ما سبق من أنه عليه الصلاة

والسلام يلقى القرآن من لدن حكيم عليم فإن قصتهما عليهما الصلاة والسلام من جملة القرآن الكريم لقيه عليه الصلاة والسلام من لدنه تعالى كقصة موسى عليه الصلاة والسلام وتصديره بالقسم لإظهار كمال الاعتناء بتحقيق مضمونه أى آتينا كل واحد منهما طائفة من العلم لائقة به من علم الشرائع والأحكام وغير ذلك مما يختص بكل منهما كصنعة لبوس ومنطق الطير أو علما سنيا عزيزا ﴿ وقالا ﴾ أى قال كل واحد منهما شكرا لما أوتيه من العلم ﴿ الحمد لله الذى فضلنا ﴾ بما آتانا من العلم ﴿ على كثير من عباده المؤمنين ﴾ على أن عبارة كل منهما فضلنى إلا أنه عبر عنهما عند الحكاية بصيغة المتكلم مع الغير إيجازا فإن حكاية الأقوال المتعددة سواء كانت صادرة عن المتكلم أو عن غيره بعبارة جامعة للكل مما ليس بعزيز ومن الأول قوله تعالى (يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا) وقد مر فى سورة قد أفلح المؤمنون وبهذا ظهر حسن موقع العطف بالواو إذ المتبادر من العطف بالفاء ترتب حمد كل منهما على إيتاء ماأوتى كل منهما لا على إيتاء ما أوتى نفسه فقط وقيل فى العطف بالواو إشعار بأن ما قالاه بعض ما أحدث فيهما إيتاء العلم وشىء من مواجبه فأضمر ذلك ثم عطف عليه التحميد كأنه قيل ولقد آتيناهما علما فعملا به وعلماه وعرفا حق النعمة فيه وقالا الحمد لله الآية فتأمل والكثير المفضل عليه من لم يؤت مثل علمهما وقيل من لم يؤت علما ويأباه تبيين الكثير بالمؤمنين فإن خلوهم من العلم بالمرة مما لا يمكن وفى تخصيصهما الأكثر بالذكر رمز إلى أن البعض مفضلون عليهما وفيه أوضح دليل على فضل العلم وشرف أهله حيث شكرا على العلم وجعلاه أساس الفضل ولم يعتبرا دونه ما أوتيا من الملك الذى لم يؤته غيرهما وتحريض للعلماء على أن يحمدوا الله تعالى على ما آتاهم من فضله ويتواضعوا ويعتقدوا أنهم وإن فضلوا على كثير فقد فضل عليهم كثير وفوق كل ذى علم عليم ونعما قال أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه كل الناس أفقه من عمر .

﴿ وورث سليمان داود ﴾ أى النبوة والعلم أو الملك بأن قام مقامه فى ذلك دون سائر بنيه وكانوا تسعةعشر ﴿ وقال ﴾ تشهيرا لنعمة الله تعالى وتنويها بها

ودعاء للناس إلى التصديق بذكر المعجزات الباهرة التى أوتيها ﴿ يأيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شىء ﴾ المنطق فى المتعارف كل لفظ يعبر به عما فى الضمير مفردا كان أو مركبا وقد يطلق على كل ما يصوت به من المفرد والمؤلف المفيد وغير المفيد يقال نطقت الحمامة وكل صنف من أصناف الطير يتفاهم أصواته والذى علمه سليمان عليه السلام من منطق الطير هو مايفهم بعضه من بعض من معانيه وأغراضه ويحكى أنه مر على بلبل فى شجرة يحرك رأسه ويميل ذنبه فقال لأصحابه أتدرون ما يقول قالوا الله ونبيه أعلم قال يقول إذا إذا أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفاء وصاحت فاختة فأخبر أنها تقول ليت الخلق لم يخلقوا وصاح طاوس فقال يقول كما تدين تدان وصاح هدهد فقال يقول استغفروا الله يامذنبين وصاح طيطوى فقال يقول كل حى ميت وكل جديد بال وصاح خطاف فقال يقول قدموا خيرا تجدوه وصاح قمرى فأخبر أنه يقول سبحان ربى الأعلى وصاحت رخمة فقال تقول سبحان ربى الأعلى ملء سمائه وأرضه وقال الحدأة تقول كل شىء هالك إلا الله والقطاة تقول من سكت سلم والببغاء تقول ويل لمن الدنيا همه والديك يقول اذكروا الله ياغافلين والنسر يقول يا ابن آدم عش ما شئت آخرك الموت والعقاب تقول فى البعد عن الناس أنس والضفدع يقول سبحان ربى القدوس وأراد عليه الصلاة والسلام بقوله علمنا وأوتينا بالنون التى يقال لها نون الواحد المطاع بيان حاله وصفته من كونه ملكا مطاعا لكن لا تجبرا وتكبرا بل تمهيدا لما أراد منهم من حسن الطاعة والانقياد له فى أوامره ونواهيه حيث كان على عزيمة المسير وبقوله من كل شىء كثرة ما أوتيه كما يقال فلان يقصده كل أحد ويعلم كل شىء ويراد به كثرة قصاده وغزارة علمه ومثله قوله تعالى (وأوتيت من كل شىء) وقال ابن عباس رضى الله عنهما كل ما يهمه من أمر الدنيا والآخرة وقال مقاتل يعنى النبوة والملك وتسخير الجن والإنس والشياطين والريح .

﴿ إن هذا ﴾ إشارة إلى ما ذكر من التعليم والإيتاء ﴿ لهو الفضل ﴾ والإحسان من الله تعالى ﴿ المبين ﴾ الواضح الذى لايخفى على أحد أو إن هذا

الفضل الذى أوتيه لهو الفضل المبين على أنه عليه الصلاة والسلام قاله على سبيل الشكر والمحمدة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا سيد ولد آدم ولا فخر أى أقول هذا القول شكراً لا فخرا ولعله عليه الصلاة والسلام رتب على كلامه ذلك دعوة الناس إلى الغزو فإن إخبارهم بإيتاء كل شىء من الأشياء التى من جملتها آلات الحرب وأسباب الغزو مما ينبىء عن ذلك فمعنى قوله تعالى ﴿ وحشر لسليمان جنوده ﴾ جمع له عساكره ﴿ من الجن والإنس والطير ﴾ بمباشرة مخاطبيه فإنهم كانوا رؤساء مملكته وعظماء دولته من الثقلين وغيرهم بتعميم الناس للكل تغليبا وتقديم الجن على الإنس فى البيان للمسارعة إلى الإيذان بكمال قوة ملكه وعزة سلطانه من أول الأمر لما أن الجن طائفة عاتية وقبيلة طاغية ماردة بعيدة من الحشر والتسخير ﴿ فهم يوزعون ﴾ أى يحبس أوائلهم على أواخرهم أى يوقف سلاف العسكر حتى يلحقهم التوالى فيكونوا مجتمعين لا يتخلف منهم أحد وذلك للكثرة العظيمة ويجوز أن يكون ذلك لترتيب الصفوف كما هو المعتاد فى العساكر وفيه إشعار بكمال مسارعتهم إلى السير وتخصيص حبس أوائلهم بالذكر دون سوق أواخرهم مع أن التلاحق يحصل بذلك أيضا لما أن أواخرهم غير قادرين على ما يقدر عليه أوائلهم من السير السريع وهذا إذا لم يكن سيرهم بتسيير الريح فى الجو روى أن معسكره عليه الصلاة والسلام كان مائة فرسخ فى مائة خمسة وعشرون للجن وخمسة وعشرون للإنس وخمسة وعشرون للطير وخمسة وعشرون للوحش وكان له عليه الصلاة السلام ألف بيت من قوارير على الخشب فيها ثلثمائة منكوحة وسبعمائة سرية وقد نسجت له الجن بساطا من ذهب وإبريسم فرسخا فى فرسخ وكان يوضع منبره فى وسطه وهو من ذهب فيقعد عليه وحوله ستمائة ألف كرسى من ذهب وفضة فيقعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام على كراسى الذهب والعلماء على كراسى الفضة وحولهم الناس وحول الناس الجن والشياطين وتظله الطير بأجنحتها حتى لا تقع عليه الشمس وترفع ريح الصبا البساط فتسير به مسيرة شهر ويروى أنه كان يأمر الريح العاصف تحمله ويأمر الرخاء تسيره فأوحى الله تعالى إليه وهو

يسير بين السماء والأرض إني قد زدت في ملكك لا يتكلم أحد بشيء إلا ألقته الريح في سمعك فيحكى أنه مر بحراث فقال لقد أوتي آل داود ملكا عظيما فألقته الريح في أذنه فنزل ومشى إلى الحراث وقال إنما مشيت إليك لئلا تتمنى ما لا تقدر عليه ثم قال لتسبيحة واحدة يقبلها الله تعالى خير مما أوتي آل داود .

﴿ حتى إذا أتوا على وادي النمل ﴾ حتى هي التي يبتدأ بها الكلام ومع ذلك هي غاية لما قبلها كالتي في قوله تعالى (حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل) الآية وهي ههنا غاية لما ينبىء عنه قوله تعالى فهم يوزعون من السير كأنه قيل فساروا حتى إذا أتوا الخ ووادي النمل واد بالشام كثير النمل على ما قاله مقاتل رضى الله عنه وبالطائف على ما قاله كعب رضى الله عنه وقيل هو واد تسكنه الجن والنمل مراكبهم وتعدية الفعل اليه بكلمة على إما لأن إتيانهم كان من فوق وإما لأن المراد بالاتيان عليه قطعه من قولهم أتى على الشيء إذا أنفده وبلغ آخره ولعلهم أرادوا أن ينزلوا عند منتهى الوادي إذ حينئذ يخافهم ما في الأرض لا عند سيرهم في الهواء وقوله تعالى ﴿ قالت نملة ﴾ جواب إذا كأنها لما رأتهم متوجهين الى الوادي فرت منهم فصاحت صيحة تنبهت بها ما بحضرتها من النمل لمرادها فتبعها في الفرار فشبه ذلك بمخاطبة العقلاء ومناصحتهم فأجروا مجراهم جعلت هي قائلة وما عداها من النمل مقول لهم حيث قيل ﴿ يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم ﴾ مع أنه لا يمتنع أن يخلق الله تعالى فيها النطق وفيما عداها العقل والفهم وقرىء نملة يا أيها النمل بضم الميم وهو الأصل كالرجل وتسكين الميم تخفيف منه كالسبع في السبع وقرىء بضم النون والميم قيل كانت نملة عرجاء تمشي وهي تتكاوس فنادت بما قالت فسمع سليمان عليه السلام كلامها من ثلاثة أميال وقيل كان اسمها طاخية وقرىء مسكنكم وقوله تعالى :

﴿ لا يحطمنكم سليمان وجنوده ﴾ نهي في الحقيقة للنمل عن التأخر في دخول مساكنهم وإن كان بحسب الظاهر نهيا له عليه الصلاة والسلام ولجنوده عن الحطم كقولهم لا أرينك ههنا فهو استئناف أو بدل من الأمر كقول من قال

«فقلت له ارحل لا تقيمن عندنا» لا جواب له فان النون لا تدخله فى السعة وقرىء لا يحطمنكم بفتح الحاء وكسرها وأصله لا يحتطمنكم وقوله تعالى ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ حال من فاعل يحطمنكم مفيدة لتقييد الحطم بحال عدم شعورهم بمكانهم حتى لو شعروا بذلك لم يحطموا وأرادت بذلك الإيذان بأنها عارفة بشئون سليمان وسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من عصمتهم عن الظلم والإيذاء وقيل هو استئناف أى فهم سليمان ما قالته والقوم لا يشعرون بذلك ﴿ فتبسم ضاحكا من قولها ﴾ تعجبا من حذرها واهتدائها الى تدبير مصالحها ومصالح بنى نوعها وسرورا بشهرة حاله وحال جنوده فى باب التقوى والشفقة فيما بين أصناف المخلوقات التى هى أبعدها من إدراك أمثال هذه الأمور وابتهاجا بما خصه الله تعالى به من إدراك همسها وفهم مرادها روى أنها أحست بصوت الجنود ولا تعلم أنهم فى الهواء فأمر سليمان عليه السلام الريح فوقفت لئلا يذعرن حتى دخلن مساكنهن ﴿ وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك ﴾ أى اجعلنى أزع شكر نعمتك عندى واكفه وأرتبطه بحيث لا ينفلت عنى حتى لا أنفك عن شكرك أصلا وقرىء بفتح ياء أوزعنى ﴿ التى أنعمت على وعلى والدى ﴾ أدرك فيه ذكرهما تكثيرا للنعمة فان الانعام عليهما إنعام عليه مستوجب للشكر ﴿ وأن أعمل صالحا ترضاه ﴾ إتماما للشكر واستدامة للنعمة ﴿ وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين ﴾ فى جملتهم الجنة التى هى دار الصالحين.

﴿ وتفقد الطير ﴾ أى تعرف أحوال الطير فلم ير الهدهد فيما بينها ﴿ فقال ما لى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ﴾ كأنه قال أو لا مالى لا أراه لساتر ستره أو لسبب آخر ثم بداله أنه غائب فأضرب عنه فأخذ يقول أهو غائب ﴿ لأعذبنه عذابا شديدا ﴾ قيل كان تعذيبه للطير بنتف ريشه وتشميسه وقيل بجعله مع ضده فى قفص وقيل بالتفريق بينه وبين الفه ﴿ أو لأذبحنه ﴾ ليعتبر به أبناء جنسه ﴿ أو ليأتينى بسلطان مبين ﴾ بحجة تبين عذره والحلف فى الحقيقة على أحد الأولين على تقدير عدم الثالث وقرىء ليأتيننى بنونين أولاهما مفتوحة مشددة قيل إنه عليه الصلاة والسلام لما أتم بيت المقدس تجهز للحج بحشره

فوافى الحرم وأقام به ما شاء وكان يقرب كل يوم طول مقامه خمسة آلاف ناقة وخمسة آلاف بقرة وعشرين ألف شاة ثم عزم على السير إلى اليمن فخرج من مكة صباحا يؤم سهيلا فوافى صنعاء وقت الزوال وذلك مسيرة شهر فرأى أرضا حسناء أعجبته خضرتها فنزل ليتغدى ويصلى فلم يجد الماء وكان الهدهد قناقه وكان يرى الماء من تحت الأرض كما يرى الماء فى الزجاجة فيجيء الشياطين فيسلخونها كما يسلخ الأهاب ويستخرجون الماء فتفقده لذلك وقد كان حين نزل سليمان عليه السلام حلق الهدهد فرأى هدهدا واقفا فانحط اليه فوصف له ملك سليمان عليه السلام وما سخر له عن كل شيء وذكر له صاحبه ملك بلقيس وأن تحت يدها اثنى عشر ألف قائد تحت يد كل قائد مائة الف وذهب معه لينظر فما رجع إلا بعد العصر وذلك قوله تعالى :

﴿فمكث غير بعيد﴾ أى زمانا غير مديد وقرىء بضم الكاف وذكر أنه وقعت نفحة من الشمس على رأس سليمان عليه السلام فنظر فاذا موضع الهدهد خال فدعا عريف الطير وهو النسر فسأله عنه فلم يجد عنده علمه ثم قال لسيد الطير وهو العقاب على به فارتفعت فنظرت فاذا هو مقبل فقصدته فناشدها الله وقال بحق الله الذى قواك وأقدرك على إلا رحمتنى فتركته وقالت ثكلتك أمك إن نبى الله قد حلف ليعذبنك قال وما استثنى قالت بلى قال أو ليأتينى بعذر مبين فلما قرب من سليمان عليه السلام أرخى ذنبه وجناحيه يجرها على الأرض تواضعا له فلما دنا منه أخذ عليه السلام برأسه فمده اليه فقال يا نبى الله اذكر وقوفك بين يدى الله تعالى فارتعد سليمان عليه السلام وعفا عنه ثم سأله ﴿فقال أحطت بما لم تحط به﴾ أى علما ومعرفة وحفظته من جميع جهاته وقرىء أحطت بادغام الطاء فى التاء باطباق وبغير إطباق ولا خفاء فى أنه لم يرد بما ادعى الاحاطة به ما هو من حقائق العلوم ودقائق المعارف التى تكون معرفتها والإحاطة بها من وظائف أرباب العلم والحكمة لتوقفها على علم رصين وفضل مبين حتى يكون إثباتها لنفسه بين يدى نبى الله سليمان عليه السلام تعديا عن طوره وتجاوزا عن دائرة قدره ونفيها عنه عليه الصلاة والسلام جناية على جناية

فيحتاج الى الاعتذار عنه بأن ذلك كان منه بطريق الإلهام فكافحه عليه الصلاة والسلام بذلك مع ما أوتى عليه الصلاة والسلام من فضل النبوة والحكمة والعلوم الجمة والإحاطة بالمعلومات الكثيرة ابتلاء له عليه الصلاة والسلام فى علمه وتنبيها على أن فى أدنى خلقه تعالى وأضعفهم من أحاط علما بما لم يحط به لتتحاقر اليه نفسه ويتصاغر اليه علمه ويكون لطفا له فى ترك الإعجاب الذى هو فتنة العلماء بل أراد به ما هو من الأمور المحسوسة التى لا تعد الإحاطة بها فضيلة ولا الغفلة عنها نقيصة لعدم توقف إدراكها إلا على مجرد إحساس يستوى فيه العقلاء وغيرهم وقد علم أنه عليه الصلاة والسلام لم يشاهده ولم يسمع خبره من غيره قطعا فعبر عنه بما ذكر لترويج كلامه عنده عليه الصلاة والسلام وترغيبه فى الإصغاء الى اعتذاره واستمالة قلبه نحو قبوله فان النفس للإعتذار المنبىء عن أمر بديع أقبل والى تلقى ما لا تعلمه أميل ثم أيده بقوله .

سليمان وبلقيس

﴿ وجئتك من سبأ بنبأ يقين ﴾ حيث فسر إبهامه نوع تفسير وأراه عليه الصلاة والسلام أنه كان بصدد إقامة خدمة مهمة له حيث عبر عما جاء به بالنبأ الذى هو الخبر الخطير والشأن الكبير ووصفه بما وصفه وإلا فاذا صدر عنه عليه الصلاة والسلام مع ما حكى عنه ما حكى من الحمد والشكر واستدعاء الإيزاع حتى يليق بالحكمة الإلهية تنبيهه عليه الصلاة والسلام على تركه وسبأ منصرف على أنه اسم لحى سموا باسم أبيهم الأكبر وهو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان قالوا اسمه عبد شمس لقب به لكونه أول من سبى وقرىء بفتح الهمزة غير منصرف على أنه اسم للقبيلة ثم سميت مدينة مأرب بسبأ وبينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث وعلى هذه القراءة يجوز أن يراد به القبيلة والمدينة وأما على القراءة الأولى فالمراد هو الحى لا غير وعدم وقوف سليمان عليه السلام على نبئهم قبل إنباء الهدهد ليس بأمر بديع لا بد له من حكمة داعية اليه البتة وإلا استحال خلو أفعاله تعالى من الحكم والمصالح لما أن المسافة بين محطه

عليه الصلاة والسلام وبين مأرب وإن كانت قصيرة لكن مدة ما بين نزوله عليه الصلاة والسلام هناك وبين مجيء الهدهد بالخبر أيضا قصيرة نعم اختصاص الهدهد بذلك مع كون الجن أقوى منه مبنى على حكم بالغة يستأثر بها علام الغيوب وقوله تعالى ﴿ إنى وجدت امرأة تملكهم ﴾ استئناف ببيان ما جاء به من النبأ وتفصيل له أثر الإجمال وهى بلقيس بنت شراحيل بن مالك ابن ريان وكان أبوها ملك أرض اليمن كلها ورث الملك من أربعين أبا ولم يكن له ولد غيرها فغلبت بعده على الملك ودانت لها الأمة وكانت هى وقومها مجوسا يعبدون الشمس والإيثار وجدت على رأيت لما أشير إليه من الإيذان بكونه عند غيبته بصدد خدمته عليه الصلاة والسلام بإبراز نفسه فى معرض من يتفقد أحوالها ويتعرفها كأنها طلبته وضالته ليعرضها على سليمان عليه السلام وضمير تملكهم لسبأ على أنه اسم الحى أو لأهلها المدلول عليهم بذكر مدينتهم على أنه اسم لها ﴿ وأوتيت من كل شىء ﴾ أى من الأشياء التى يحتاج إليها الملوك ؛

﴿ ولها عرش عظيم ﴾ قيل كان ثلاثين ذراعا فى ثلاثين عرضا وسمكا وقيل ثمانين فى ثمانين من ذهب وفضة مكللا بالجواهر وكانت قوائمه من ياقوت أحمر وأخضر ودر وزمرد وعليه سبعة أبيات على كل بيت باب مغلق واستعظام الهدهد لعرشها مع ما كان يشاهده من ملك سليمان عليه السلام إما بالنسبة إلى حالها أو إلى عروش أمثالها من الملوك وقد جوز أن لا يكون لسليمان عليه السلام مثله وأيا ما كان فوصفه بذلك بين يديه عليه الصلاة والسلام لما مر من ترغيبه عليه الصلاة والسلام فى الإصغاء إلى حديثه وتوجيه عزيمته عليه الصلاة والسلام نحو تسخيرها ولذلك عقبه بما يوجب غزوها من كفرها وكفر قومها حيث قال ﴿ وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ﴾ أى يعبدونها متجاوزين عبادة الله تعالى ﴿ وزين لهم الشيطان أعمالهم ﴾ التى هى عبادة الشمس ونظائرها من أصناف الكفر والمعاصى ﴿ فصدهم ﴾ بسبب ذلك ﴿ عن السبيل ﴾ أى سبيل الحق والصواب فإن تزيين أعمالهم لا يتصور بدون تقويم طرق كفرهم وضلالهم ومن ضرورته نسبة طريق الحق إلى العوج ﴿ فهم ﴾ بسبب ذلك

﴿ لا يهتدون ﴾ إليه وقوله تعالى ﴿ أن لا يسجدوا لله ﴾ مفعول له إما للصد أو للتزيين على حذف اللام منه أى فصدهم لأن لايسجدوا له تعالى أو زين لهم أعمالهم لأن لا يسجدوا له تعالى أو زين لهم أعمالهم لأن لا يسجدوا أو بدل على حاله من أعمالهم وما بينهما اعتراض أى زين لهم أن لا يسجدوا وقيل هو فى موقع المفعول ليهتدون بإسقاط الخافض ولا مزيدة كما فى قوله تعالى (لئلا يعلم أهل الكتاب) والمعنى فهم لا يهتدون إلى أن يسجدوا له تعالى وقرىء ألا ياسجدوا على التنبيه والنداء والمنادى محذوف أى ألا يا قوم اسجدوا كما فى قوله * ألا يا اسلمى يادارمى على البلى * ونظائره وعلى هذا يحتمل أن يكون استئنافا من جهة الله عز وجل أو من سليمان عليه السلام ويوقف على لا يهتدون ويكون أمرا بالسجود وعلى الوجوه المتقدمة ذما على تركه وأياما كان فالسجود واجب وقرىء هلا وهلا بقلب الهمزتين هاء وقرىء هلا تسجدون بمعنى ألا تسجدون على الخطاب .

﴿ الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ﴾ أى يظهر ما هو مخبوء ومخفى فيهما كائنا ما كان وتخصيص هذا الوصف بالذكر بصدد بيان تفرده تعالى باستحقاق السجود له من بين سائر أوصافه الموجبة لذلك لما أنه أرسخ فى معرفته والإحاطة بأحكامه بمشاهدة آثاره التى من جملتها ما أودعه الله تعالى فى نفسه من مقدرة على معرفة الماء تحت الأرض وأشار بعطف قوله ﴿ ويعلم ما تخفون وما تعلنون ﴾ على يخرج إلى أنه تعالى يخرج ما فى العالم الإنسانى من الخفايا كما يخرج ما فى العالم الكبير من الخبايا لما أن المراد يظهر ما تخفونه من الأحوال فيجازيكم بها وذكر ما تعلنون لتوسيع دائرة العلم و للتنبيه على تساويهما بالنسبة إلى العلم الإلهى وقرىء ما يخفون وما يعلنون على صيغة الغيبة بلا التفات وإخراج الخبء يعم إشراق الكواكب وإظهارها من آفاقها بعد استتارها وراءها وإنزال الأمطار وإنبات النبات بل الإنشاء الذى هو إخراج ما فى الشىء بالقوة إلى الفعل والإبداع الذى هو إخراج ما فى الإمكان والعدم إلى الوجود وغير ذلك من غيوبه عز وجل وقرىء الخب بتخفيف الهمزة

بالحذف وقرىء الخبا بتخفيفها بالقلب وقرىء (ألا تسجدون لله الذى يخرج الخبء من السماء والأرض ويعلم سركم وما تعلنون) ﴿ الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم ﴾ الذى هو أول الأجرام وأعظمها وقرىء العظيم بالرفع على أنه صفة الرب واعلم أن ما حكى من الهدهد من قوله الذى يخرج الخبء إلى هنا ليس داخلا تحت قوله أحطت بما لم تحط به وإنما هو من العلوم والمعارف التى اقتبسها من سليمان عليه السلام أورده بيانا لما هو عليه واظهاراً لتصلبه فى الدين وكل ذلك لتوجيه قلبه عليه الصلاة والسلام نحو قبول كلامه وصرف عنان عزيمته عليه السلام الى غزوها وتسخير ولايتها

﴿ قال ﴾ استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من حكاية كلام الهدهد كأنه قيل فماذا فعل سليمان عليه السلام عند ذلك فقيل قال ﴿ سننظر ﴾ أى فيما ذكرته من النظر بمعنى التأمل والسين للتأكيد أى سنتعرف بالتجربة البتة ﴿ أصدقت أم كنت من الكاذبين ﴾ كان مقتضى الظاهر أم كذبت وإيثار ما عليه النظم الكريم للإيذان بأن كذبه فى هذه المادة يستلزم انتظامه فى سلك الموسومين بالكذب الراسخين فيه فإن مساق هذه الأقاويل الملفقة على ترتيب أنيق يستميل قلوب السامعين نحو قبولها من غير أن يكون لها مصداق أصلا لاسيما بين يدى نبى عظيم الشأن لا يكاد يصدر إلا عمن له قدم راسخ فى الكذب والإفك وقوله تعالى ﴿ اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ﴾ استئناف مبين لكيفية النظر الذى وعده عليه الصلاة والسلام وقد قال عليه الصلاة والسلام بعدما كتب كتابه فى ذلك المجلس أو بعده وتخصيصه عليه الصلاة والسلام إياه بالرسالة دون سائر ما تحت ملكه من أمناء الجن الأقوياء على التصرف والتعرف لما عاين فيه من مخايل العلم والحكمة وصحة الفراسة ولئلا يبقى له عذر أصلا ﴿ ثم تول عنهم ﴾ أى تنح إلى مكان قريب تتوارى فيه ﴿ فانظر ﴾ أى تأمل وتعرف ﴿ ماذا يرجعون ﴾ أى ماذا يرجع بعضهم إلى بعض من القول وجمع الضمائر لما أن مضمون الكتاب الكريم دعوة الكل إلى الإسلام

﴿ قالت ﴾ أى بعد ما ذهب الهدهد بالكتاب فألقاه إليهم وتنحى عنهم حسبما أمر به وإنما طوى ذكره إيذانا بكمال مسارعته إلى إقامة ما أمر به من الخدمة، وإشعارا باستغنائه عن التصريح به لغاية ظهوره . روى أنه عليه الصلاة والسلام كتب كتابه وطبعه بالمسك وختمه بخاتمه ودفعه الى الهدهد فوجدها الهدهد راقدة فى قصرها بمأرب وكانت إذا رقدت غلقت الأبواب ووضعت المفاتيح تحت رأسها فدخل من كوة وطرح الكتاب على نحرها وهى مستلقية وقيل نقرها فانتبهت فزعة وقيل أتاها والقادة والجنود حواليها فرفرف ساعة والناس ينظرون حتى رفعت رأسها فألقى الكتاب فى حجرها وكانت قارئة كاتبة عربية من نسل تبع الحميرى كما مر فلما رأت الخاتم ارتعدت وخضعت فعند ذلك قالت لأشراف قومها ﴿ يا أيها الملأ إنى ألقى إلى كتاب كريم ﴾ وصفته بالكرم لكرم مضمونه أو لكونه من عند ملك كريم أو لكونه مختوما أو لغرابة شأنه ووصوله إليها على منهاج غير معتاد ﴿ إنه من سليمان ﴾ استئناف وقع جوابا لسؤال مقدر كأنه قيل ممن هو وماذا مضمونه فقالت إنه من سليمان ﴿ وإنه ﴾ أى مضمونه أو المكتوب فيه ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ وفيه إشارة إلى سبب وصفها اياه بالكرم وقرىء أنه وأنه بالفتح على حذف اللام كأنها عللت كرمه بكونه من سليمان وبكونه مصدرا باسم الله تعالى وقيل على أنه بدل من كتاب وقرىء أن من سليمان وأن بسم الله الرحمن الرحيم على أن أن المفسرة

﴿ أن لا تعلوا على ﴾ أن مفسرة ولا ناهية أى لا تتكبروا كما يفعل جبابرة الملوك وقيل مصدرية ناصبة للفعل ولا نافية محلها الرفع على أنها بدل من كتاب أو خبر لمبتدأ مضمر يليق بالمقام أى مضمونه أن لاتعلوا أو النصب بإسقاط الخافض أى بأن لا تعلوا على وقرىء ألا تغلوا بالغين المعجمة أى لا تجاوزوا حدكم ﴿ وائتونى مسلمين ﴾ أى مؤمنين وقيل منقادين والأول هو الأليق بشأن النبى عليه الصلاة والسلام على أن الإيمان مستتبع للانقياد حتما . روى أن نسخة الكتاب «من عبد الله سليمان بن داود إلى بلقيس ملكة

سبأ السلام على من اتبع الهدى أما بعد فلا تعلوا على وائتونى مسلمين ، وليس الأمر فيه بالإسلام قبل إقامة الحجة على رسالته حتى يتوهم كونه استدعاءاً للتقليد فإن القاء الكتاب إليها على تلك الحالة معجزة باهرة دالة على رسالة مرسلها دلالة بينة ﴿ قالت ﴾ كررت حكاية قولها للإيذان بغاية اعتنائها بما فى حيزه من قولها ﴿ يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى ﴾ أى أجيبونى فى أمرى الذى حزبنى وذكرت لكم خلاصته وعبرت عن الجواب بالفتوى التى هى الجواب فى الحوادث المشكلة غالبا تهويلا للأمر ورفعا لمحلهم بالإشعار بأنهم قادرون على حل المشكلات الملمة وقولها ﴿ ما كنت قاطعة أمرا ﴾ أى من الأمور المتعلقة بالملك ﴿ حتى تشهدون ﴾ أى إلا بمحضركم وبموجب آرائكم استعطافاً لهم واستمالة لقلوبهم لئلا يخالفوها فى الرأى والتدبير .

﴿ قالوا ﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية قولها كأنه قيل فماذا قالوا فى جوابها فقيل قالوا ﴿ نحن أولو قوة ﴾ فى الأجساد والآلات والعدد ﴿ وأولو بأس شديد ﴾ اى نجدة وشجاعة مفرطة وبلاء فى الحرب ﴿ والأمر إليك ﴾ أى هو موكول إليك ﴿ فانظرى ماذا تأمرين ﴾ ونحن مطيعون لك فمرينا بأمرك نمتثل به ونتبع رأيك أو أرادوا نحن من أبناء الحرب لا من أبناء الرأى والمشورة وإليك الرأى والتدبير فانظرى ماذا ترين نكن فى الخدمة فلما أحست منهم الميل إلى الحراب والعدول عن سنن الصواب شرعت فى تزييف مقالتهم المبنية على الغفلة عن شأن سليمان عليه السلام وذلك قوله تعالى ﴿ قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية ﴾ من القرى على منهاج المقاتلة والحراب ﴿ أفسدوها ﴾ بتخريب عماراتها واتلاف مافيها من الأموال ﴿ وجعلوا أعزة أهلها أذلة ﴾ بالقتل والأسر والإجلاء وغير ذلك من فنون الإهانة والإذلال ﴿ وكذلك يفعلون ﴾ تأكيد لما وصفت من حالهم بطريق الاعتراض التذييلى وتقرير له بأن ذلك عادتهم المستمرة وقيل تصديق لها من جهة الله تعالى على طريقة قوله تعالى (ولو جئنا بمثله مددا) إثر قوله (لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى) .

﴿وإنى مرسلة إليهم بهدية﴾ تقرير لرأيها بعد ما زيفت آراءهم وأتت بالجملة الاسمية الدالة على الثبات المصدرة بحرف التحقيق للإيذان بأنها مزمعة على رأيها لا يلويها عنه صارف ولا يثنيها عاطف أى وإنى مرسلة إليهم رسلا بهدية عظيمة ﴿فناظرة بم يرجع المرسلون﴾ حتى أعمل بما يقتضيه الحال . روى أنها بعثت خمسمائة غلام عليهم ثياب الجوارى وحليهن الأساور والأطواق والقرطة راكبى خيل مغشاة بالديباج محلاة اللجم والسروج بالذهب المرصع بالجواهر وخمسمائة جارية على رماك فى زى الغلمان وألف لبنة من ذهب وفضة وتاجا مكللا بالدر والياقوت المرتفع والمسك والعنبر وحقا فيه درة عذراء وجزعة معوجة الثقب وبعثت رجلا من أشراف قومها المنذر بن عمرو وآخر ذا رأى وعقل وقالت إن كان نبيا ميز بين الغلمان والجوارى وثقب الدرة ثقبا مستويا وسلك فى الخرزة خيطا ثم قالت للمنذر إن نظر إليك نظر غضبان فهو ملك فلا يهولنك وإن رأيته بشاً لطيفا فهو نبى فأقبل الهدهد فأخبر سليمان عليه السلام بذلك فأمر الجن فضربوا لبن الذهب والفضة وفرشوه فى ميدان بين يديه طوله سبعة فراسخ وجعلوا حول الميدان حائطا شرفاته من الذهب والفضة وأمر بأحسن الدواب فى البر والبحر فربطوها عن يمين الميدان ويساره على اللبن وأمر بأولاد الجن وهم خلق كثير فأقيموا على اليمين واليسار ثم قعد على سريره والكراسى من جانبيه واصطفت الشياطين صفوفا فراسخ والإنس صفوفا فراسخ والوحش والسباع والطيور والهوام كذلك فلما دنا القوم ونظروا بهتوا ورأوا الدواب تروث على اللبن فتقاصرت إليهم نفوسهم ورموا بما معهم ولما وقفوا بين يديه نظر إليهم بوجه طلق وقال ما وراءكم وقال أين الحق وأخبره جبريل عليهما السلام بما فيه فقال لهم إن فيه كذا وكذا ثم أمر بالأرضة فأخذت شعرة ونفذت فى الدرة فجعل رزقها فى الشجرة وأخذت دودة بيضاء الخيط بفيها ونفذت فى الجزعة فجعل رزقها فى الفواكه ودعا بالماء فكانت الجارية تأخذ الماء بيدها فتجعله فى الأخرى ثم تضرب به وجهها والغلام كما يأخذه يضرب به وجهه ثم رد الهدية وذلك قوله تعالى :

﴿ فلما جاء سليمان ﴾ أى الرسول ﴿ قال ﴾ أى مخاطبا للرسول والمرسل تغليبا للحاضر على الغائب وقيل للرسول ومن معه ويؤيده أنه قرىء فلما جاءوا والأول أولى لما فيه من تشديد الإنكار والتوبيخ وتعميمهما لبلقيس وقومها ويؤيده الإفراد فى قوله تعالى ارجع إليهم ﴿ أتمدونن بمال ﴾ وهو إنكار لإمدادهم إياه عليه الصلاة والسلام بالمال مع علو شأنه وسعة سلطانه وتوبيخ لهم بذلك وتنكير مال للتحقير وقوله تعالى ﴿ فما آتانى الله ﴾ أى مما رأيتم آثاره من النبوة والملك الذى لا غاية وراءه ﴿ خير مما آتاكم ﴾ أى من المال الذى من جملته ما جئتم به فلا حاجة لى إلى هديتكم ولا وقع لها عندي تعليلا للإنكار ولعله عليه الصلاة والسلام إنما قال لهم هذه المقالة إلى آخرها بعد ما جرى بينه وبينهم ما حكى من قصة الحق وغيرها كما أشير اليه لا أنه عليه الصلاة والسلام خاطبهم بها أول ما جاءوه كما يفهم من ظاهر قوله تعالى فلما جاء الخ وقرىء أتمدونى بالإدغام وبنون واحدة وبنونين وحذف الياء وقوله تعالى ﴿ بل أنتم بهديتكم تفرحون ﴾ إضراب عما ذكر من إنكار الإمداد بالمال إلى التوبيخ بفرحهم بهديتهم التى أهدوها إليه عليه الصلاة والسلام فرح افتخار وامتنان واعتداد بها كما ينبىء عنه ما ذكر من حديث الحق والجزعة وتغيير زى الغلمان والجوارى وغير ذلك وفائدة الإضراب التنبيه على أن إمداده عليه الصلاة والسلام بالمال منكر قبيح وعد ذلك مع أنه لا قدر له عنده عليه الصلاة والسلام مما يتنافس فيه المتنافسون أقبح والتوبيخ به أدخل وقيل المضاف إليه المهدى إليه والمعنى بل أنتم بما يهدى إليكم تفرحون حبا لزيادة المال لما أنكم لا تعلمون إلا ظاهرا من الحياة الدنيا .

﴿ ارجع ﴾ أفرد الضمير ههنا بعد جمع الضمائر الخمسة فيما سبق لاختصاص الرجوع بالرسول وعموم الإمداد ونحوه للكل أى ارجع أيها الرسول ﴿ إليهم ﴾ أى إلى بلقيس وقومها فلنأتينهم أى فوالله لنأتينهم ﴿ بجنود لا قبل لهم بها ﴾ اى لا طاقة لهم بمقاومتها ولا قدرة لهم على مقابلتها وقرىء بهم ﴿ ولنخرجنهم ﴾ عطف على جواب القسم ﴿ منها ﴾ من سبأ ﴿ أذلة ﴾ أى حال كونهم أذلة

بعد ما كانوا فيه من العز والتمكين وفى جمع القلة تأكيد لذلتهم وقوله تعالى ﴿وهم صاغرون﴾ أى أسارى مهانون حال أخرى مفيدة لكون إخراجهم بطريق الأسر لا بطريق الإجلاء وعدم وقوع جواب القسم لأنه كان معلقا بشرط قد حذف عند الحكاية ثقة بدلالة الحال عليه كأنه قيل ارجع إليهم فليأتوا مسلمين وإلا فلنأتينهم الخ ﴿قال يا أيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها﴾ قاله عليه الصلاة والسلام لما دنا مجىء بلقيس إليه عليه الصلاة والسلام يروى أنه لما رجعت رسلها إليها بما حكى من خبر سليمان عليه السلام قالت قد علمت والله ما هذا بملك ولا لنا به من طاقة وبعثت إلى سليمان عليه السلام إنى قادمة اليك بملوك قومى حتى أنظر ما أمرك وما تدعو إليه من دينك ثم آذنت بالرحيل إلى سليمان عليه السلام فشخصت إليه فى اثنى عشر ألف قيل تحت كل قيل ألوف ويروى أنها أمرت فجعل عرشها فى آخر سبعة أبيات بعضها فى بعض فى آخر قصر من قصور سبعة لها وغلقت الأبواب ووكلت به حرسا يحفظونه ولعله أوحى إلى سليمان عليه السلام باستيثاقها من عرشها فأراد أن يريها بعض ماخصه الله عز سلطانه به من إجراء التعاجيب على يده مع إطلاعها على عظيم قدرته تعالى وصحة نبوته عليه الصلاة والسلام ويختبر عقلها بأن ينكر عرشها فينظر أتعرفه أم لا وتقييد الإتيان به بقوله تعالى ﴿قبل أن يأتونى مسلمين﴾ لما أن ذلك أبدع وأغرب وأبعد من الوقوع عادة وأدل على عظم قدرة الله تعالى وصحة نبوته عليه الصلاة والسلام وليكون اختبارها واطلاعها على بدائع المعجزات فى أول مجيئها وقيل لأنها إذا أتت مسلمة لم يحل له أخذ مالها بغير رضاها .

﴿ قال عفريت ﴾ أى مارد خبيث ﴿ من الجن ﴾ بيان له إذ يقال للرجل الخبيث المنكر المعفر لأقرانه وكان اسمه ذكوان أو صخرا ﴿ أنا آتيك به ﴾ أى بعرشها ﴿قبل أن تقوم من مقامك﴾ أى من مجلسك للحكومة وكان يجلس إلى نصف النهار وآتيك إما صيغة المضارع أو الفاعل وهو الأنسب لمقام ادعاء الإتيان به لا محالة وأوفق لما عطف عليه من الجملة الاسمية أى أنا آت به فى تلك

المدة البتة ﴿وإنى عليه﴾ أى على الإتيان به ﴿لقوى﴾ لا يثقل على حمله ﴿أمين﴾ لا أختزل منه شيئا ولا أبدله .

﴿قال الذى عنده علم من الكتاب﴾ فصل عما قبله للإيذان بما بين القائلين ومقاليهما وكيفيتى قدرتهما على الإتيان من كمال التباين أو لإسقاط الأول عن درجة الاعتبار قيل هو آصف بن برخيا وزير سليمان عليه السلام وقيل رجل كان عنده اسم الله الأعظم الذى إذا سئل به أجاب وقيل الخضر أو جبريل أو ملك أيده الله عز وجل به عليهم السلام وقيل هو سليمان نفسه عليه السلام وفيه بعد لا يخفى والمراد بالكتاب الجنس المنتظم لجميع الكتب المنزلة أو اللوح وتنكير علم للتفخيم والرمز إلى أنه علم غير معهود ومن ابتدائية ﴿أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك﴾ الطرف تحريك الأجفان وفتحها للنظر إلى شىء وارتداده انضمامهما ولكونه أمرا طبيعياً غير منوط بالقصد أوثر الارتداد على الرد ولما لم يكن بين هذا الوعد وإنجازه مدة كما فى وعد العفريت استغنى عن التأكيد وطوى عند الحكاية ذكر الإتيان به للإيذان بأنه أمر متحقق غنى عن الإخبار به وجىء بالفاء الفصيحة لا داخلة على جملة معطوفة على جملة مقدرة دالة على تحققه فقط كما فى قوله عز وجل (فقلنا اضرب بعصاك البحر فانفلق) ونظائره بل داخلة على الشرطية حيث قيل :

﴿فلما رآه مستقرا عنده﴾ أى رأى العرش حاضرا لديه كما فى قوله عز وجل (فلما رأينه أكبرنه) للدلالة على كمال ظهور ما ذكر من تحققه واستغنائه عن الإخبار به ببيان ظهور ما يترتب عليه من رؤية سليمان عليه السلام إياه واستغنائه أيضا عن التصريح به إذ التقدير فأتاه به فرآه فلما رآه الخ فحذف ما حذف لما ذكر وللإيذان بكمال سرعة الإتيان به كأنه لم يقع بين الوعد به وبين رؤيته عليه الصلاة والسلام إياه شىء ما أصلا وفى تقييد رؤيته باستقراره عنده عليه الصلاة والسلام تأكيد لهذا المعنى لإيهامه أنه لم يتوسط بينهما ابتداء الإتيان أيضاً كأنه لم يزل موجودا عنده مع ما فيه من الدلالة على دوام قراره عنده منتظما فى سلك ملكه ﴿قال﴾ أى سليمان عليه السلام تلقيا للنعمة

بالشكر جريا على سنن أبناء جنسه من أنبياء الله تعالى عليهم الصلاة والسلام وخلص عباده ﴿ هذا ﴾ أى حضور العرش بين يديه فى هذه المدة القصيرة أو التمكن من إحضاره بالواسطة أو بالذات كما قيل ﴿ من فضل ربى ﴾ أى تفضله على من غير استحقاق له من قبلى ﴿ ليبلونى أأشكر ﴾ بأن أراه محض فضله تعالى من غير حول من جهتى ولا قوة وأقوم بحقه ﴿ أم أكفر ﴾ بأن أجد لنفسى مدخلا فى البين أو أقصر فى إقامة مواجبه كما هو شأن سائر النعم الفائضة على العباد ﴿ ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ﴾ لأنه يرتبط به عتيدها ويستجلب به مزيدها ويحط به عن ذمته عبء الواجب ويتخلص عن وصمة الكفران ﴿ ومن كفر ﴾ أى لم يشكر ﴿ فإن ربى غنى ﴾ عن شكره ﴿ كريم ﴾ بترك تعجيل العقوبة والإنعام مع عدم الشكر أيضاً ﴿ قال ﴾ أى سليمان عليه السلام كررت الحكاية مع كون المحكى سابقا ولاحقا من كلامه عليه الصلاة والسلام تنبيها على ما بين السابق واللاحق من المخالفة لما أن الأول من باب الشكر لله تعالى والثانى أمر لخدمه ﴿ نكروا لها عرشها ﴾ أى غيروا هيئته بوجه من الوجوه ﴿ ننظر ﴾ الجزم على أنه جواب الأمر وقرىء بالرفع على الاستئناف ﴿ أتهتدى ﴾ إلى معرفته أو إلى الجواب اللائق بالمقام وقيل إلى الايمان بالله تعالى ورسوله عند رؤيتها لتقدم عرشها من مسافة طويلة فى مدة قليلة وقد خلفته مغلقة عليه الأبواب موكلة عليه الحراس والحجاب ويأباه تعليق النظر المتعلق بالاهتداء بالتنكير فإن ذلك مما لا دخل فيه للتنكير .

﴿ أم تكون ﴾ أى بالنسبة إلى علمنا ﴿ من الذين لا يهتدون ﴾ أى إلى ما ذكر من معرفة عرشها أو الجواب الصواب فإن كونها فى نفس الأمر منهم وإن كان أمرا مستورا لكن كونها منهم عند سليمان عليه السلام وقومه أمر حادث يظهر بالاختبار ﴿ فلما جاءت ﴾ شروع فى حكاية التجربة التى قصدها سليمان عليه السلام أى فلما جاءت بلقيس سليمان عليه السلام وقد كان العرش بين يديه ﴿ قيل ﴾ أى من جهة سليمان عليه السلام بالذات أو بالواسطة ﴿ أهكذا عرشك ﴾ لم يقل أهذا عرشك لئلا يكون تلقينا لها فيفوت ما هو

المقصود من الأمر بالتنكير من إبراز العرش فى معرض الإشكال والاشتباه حتى يتبين حالها وقد ذكرت عنده عليه الصلاة والسلام بسخافة العقل ﴿قالت كأنه هو﴾فأنبأت عن كمال رجاحة عقلها حيث لم تقل هو هو مع علمها بحقيقة الحال تلويحا بما اعتراه بالتنكير من نوع مغايرة فى الصفات مع اتحاد الذات ومراعاة لحسن الأدب فى محاورته عليه الصلاة والسلام ﴿ وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين ﴾ من تتمة كلامها كأنها ظنت أنه عليه الصلاة والسلام أراد بذلك اختيار عقلها وإظهار معجزة لها فقالت أوتينا العلم بكمال قدرة الله تعالى وصحة نبوتك من قبل هذه المعجزة التى شاهدناها بما سمعناه من المنذر من الآيات الدالة على ذلك وكنا مسلمين من ذلك الوقت وفيه من الدلالة على كمال رزانة رأيها ورصانة فكرها مالا يخفى وقوله تعالى :

﴿ وصدها ماكانت تعبد من دون الله ﴾ بيان من جهته تعالى لما كان يمنعها من إظهار ما ادعته من الإسلام إلى الآن أى صدها عن ذلك عبادتها القديمة للشمس ، وقوله تعالى ﴿ إنها كانت من قوم كافرين ﴾ تعليل لسببية عبادتها المذكورة للصد أى أنها كانت من قوم راسخين فى الكفر ولذلك لم تكن قادرة على إظهار إسلامها وهى بين ظهرانيهم إلى أن دخلت تحت ملكة سليمان عليه السلام وقرىء أنها بالفتح على البدلية من فاعل صد أو على التعليل بحذف اللام هذاوأما ماقيل من أن قوله تعالى (وأوتينا العلم) إلى قوله تعالى (من قوم كافرين) من كلام سليمان عليه السلام وملئه كأنهم لما سمعوا قولها كأنه هو تفطنوا لإسلامها فقالوا استحسانا لشأنها أصابت فى الجواب وعلمت قدرة الله تعالى وصحة النبوة بما سمعت من المنذر من الآيات المتقدمة وبما عاينت من هذه الآية الباهرة من أمر عرشها ورزقت الإسلام فعطفوا على ذلك قولهم وأوتينا العلم الخ أى وأوتينا نحن العلم بالله تعالى وبقدرته وبصحة ما جاء من عنده قبل علمها ولم نزل على دين الإسلام شكرا لله تعالى على فضلهم عليها وسبقهم إلى العلم بالله تعالى والإسلام قبلها وصدها عن التقدم إلى الإسلام عبادة الشمس ونشؤها بين ظهرانى الكفرة فمما لا يخفى ما فيه من البعد

والتعسف ﴿ قيل لها ادخلى الصرح ﴾ الصرح القصر وقيل صحن الدار . روى أن سليمان عليه السلام أمر قبل قدومها فبنى له على طريقها قصراً من زجاج أبيض وأجرى من تحته الماء وألقى فيه من دواب البحر السمك وغيره ووضع سريره فى صدره فجلس عليه وعكف عليه الطير والجن والإنس وإنما فعل ذلك ليزيدها استعظاما لأمره وتحققا لنبوته وثباتا على الدين وزعموا أن الجن كرهوا أن يتزوجها فتفضى إليه بأسرارهم لأنها كانت بنت جنية وقيل خافوا أن يولد له منها ولد يجتمع له فطنة الجن والإنس فيخرجون من ملك سليمان عليه السلام إلى ملك هو أشد وأفظع فقالوا إن فى عقلها شيئا وهى شعراء الساقين ورجلها كحافر الحمار فاختبر عقلها بتنكير العرش واتخذ الصرح ليتعرف ساقها ورجلها ﴿ فلما رأته ﴾ وهو حاضر بين يديها كما يعرب عنه الأمر بدخولها وأحاطت بتفاصيل أحواله خبرا ﴿ حسبته لجة وكشفت عن ساقيها ﴾ وتشمرت لئلا تبتل أذيالها فإذا هى أحسن الناس ساقا وقدما خلا أنها شعراء قيل هى السبب فى اتخاذ النورة أمر بها الشياطين فاتخذوها واستنكحها عليه الصلاة والسلام وأمر الجن فبنوا لها سيلحين وغمدان وكان يزورها فى الشهر مرة ويقيم عندها ثلاثة أيام وقيل بل زوجها ذاتبع ملك همدان وسلطه على اليمن وأمر زوبعة أمير جن اليمن أن يطيعه فبنى له المصانع وقرىء ساقيها حملا للمفرد على الجمع فى سؤق وأسؤق .

﴿ قال ﴾ عليه الصلاة والسلام حين رأى ما اعتراها من الدهشة والرعب ﴿ إنه ﴾ أى ما توهمته ماء ﴿ صرح ممرد ﴾ أى مملس ﴿ من قوارير ﴾ من الزجاج ﴿ قالت ﴾ حين عاينت تلك المعجزة أيضا ﴿ رب إنى ظلمت نفسى ﴾ بما كنت عليه إلى الآن من عبادة الشمس وقيل بظنى بسليمان حيث ظنت أنه يريد إغراقها فى اللجة وهو بعيد ﴿ وأسلمت مع سليمان ﴾ تابعة له مقتدية به وما فى قوله تعالى ﴿ لله رب العالمين ﴾ من الالتفات إلى الاسم الجليل ووصفه بربوبية العالمين لإظهار معرفتها بألوهيته تعالى وتفرده باستحقاق العبادة وربوبيته لجميع الموجودات التى من جملتها ما كانت تعبده قبل ذلك من الشمس ﴿ ولقد

أرسلنا ﴾ عطف على قوله تعالى (ولقد آتينا داود وسليمان علما) مسوق لما سبق هو له من تقرير أنه عليه الصلاة والسلام يلقى القرآن من لدن حكيم عليم فإن هذه القصة من جملة القرآن الكريم الذى لقيه عليه الصلاة والسلام واللام جواب قسم محذوف أى وبالله لقد أرسلنا ﴿ إلى ثمود أخاهم صالحا ﴾ وأن فى قوله تعالى ﴿ أن اعبدوا الله ﴾ مفسرة لما فى الإرسال من معنى القول أو مصدرية حذف عنها الباء وقرىء بضم النون اتباعا لها للباء ﴿ فإذا هم فريقان يختصمون ﴾ ففاجؤا التفرق والاختصام فآمن فريق وكفر فريق والواو لمجموع الفريقين ﴿ قال ﴾ عليه الصلاة والسلام للفريق الكافر منهم بعد ما شاهد منهم ما شاهد من نهاية العتو والعناد حتى بلغوا من المكابرة إلى أن قالوا له عليه الصلاة والسلام ياصالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين .

﴿ يا قوم لم تستعجلون بالسيئة ﴾ أى بالعقوبة السيئة ﴿ قبل الحسنة ﴾ أى التوبة فتؤخرونها إلى حين نزولها حيث كانوا من جهلهم وغوايتهم يقولون إن وقع إيعاده تبنا حينئذ وإلا فنحن على ما كنا عليه ﴿ لولا تستغفرون الله ﴾ هلا تستغفرونه تعالى قبل نزولها ﴿ لعلكم ترحمون ﴾ بقبولها إذ لا إمكان للقبول عند النزول ﴿ قالوا اطيرنا ﴾ أصله تطيرنا والتطير التشاؤم عبر عنه بذلك لما أنهم كانوا إذا خرجوا مسافرين فيمرون بطائر يزجرونه فإن مر سانحا تيمنوا وإن مر بارحا تشاءموا فلما نسبوا الخير والشر إلى الطائر استعير لما كان سببا لهما من قدر الله تعالى وقسمته أو من عمل العبد أى تشاءمنا ﴿ بك وبمن معك ﴾ فى دينك حيث تتابعت علينا الشدائد وقد كانوا قحطوا أو لم نزل فى اختلاف وافتراق مذ اخترعتم دينكم ﴿ قال طائركم ﴾ أى سببكم الذى منه ينالكم ما ينالكم من الشر ﴿ عند الله ﴾ وهو قدره أو عملكم المكتوب عنده وقوله تعالى ﴿ بل أنتم قوم تفتنون ﴾ أى تختبرون بتعاقب السراء والضراء أو تعذبون أو يفتنكم الشيطان بوسوسته إليكم الطيرة إضراب من بيان طائرهم الذى هو مبدأ ما يحيق بهم إلى ذكر ما هو الداعى إليه ﴿ وكان فى المدينة ﴾ وهى الحجر ﴿ تسعة رهط ﴾ أى أشخاص وبهذا الاعتبار وقع تمييزا للتسعة لا باعتبار لفظه والفرق بينه وبين النفر أنه من

الثلاثة أو من السبعة إلى العشرة والنفر من الثلاثة إلى التسعة وأسماؤهم حسبما نقل عن وهب الهذيل بن عبد رب وغنم بن غنم ورئاب بن مهرج ومصدع ابن مهرج وعمير بن كردبة وعاصم بن مخرمة وسبيط بن صدقة وشمعان بن صفى وقدار بن سالف وهم الذين سعوا فى عقر الناقة وكانوا عتاة قوم صالح وكانوا من أبناء أشرافهم ﴿ يفسدون فى الأرض ﴾ لا فى المدينة فقط إفسادا بحتاً لا يخالطه شىء ما من الإصلاح كما ينطق به قوله تعالى ﴿ ولا يصلحون ﴾ أى لا يفعلون شيئاً من الإصلاح أو لا يصلحون شيئاً من الأشياء ﴿ قالوا ﴾ استئناف ببيان بعض ما فعلوا من الفساد أى قال بعضهم لبعض فى أثناء المشاورة فى أمر صالح عليه الصلاة والسلام وكان ذلك غب ما أنذرهم بالعذاب وقوله تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام الخ ﴿ تقاسموا بالله ﴾ إما أمر مقول لقالوا أو ماض وقع بدلا منه أو حالا من فاعله بإضمار قد وقوله تعالى : ﴿ لنبيتنه وأهله ﴾ أى لنباغتن صالحا وأهله ليلا ونقتلنهم وقرىء بالتاء على خطاب بعضهم لبعض وقرىء بياء الغيبة وضم التاء على أن تقاسموا فعل ماض ﴿ ثم لنقولن لوليه ﴾ أى لولى صالح وقرىء بالتاء والياء كما قبله ﴿ ما شهدنا مهلك أهله ﴾ أى ما حضرنا هلاكهم أو مكان هلاكهم فضلا أن نتولى إهلاكهم وقرىء مهلك بفتح اللام فيكون مصدرا ﴿ وإنا لصادقون ﴾ من تمام القول أو حال أى نقول ما نقول والحال إنا لصادقون فى ذلك لأن الشاهد للشىء غير المباشر له عرفا أو لأنا ما شاهدنا مهلكهم وحده بل مهلكه ومهلكهم جميعا كقولك ما رأيت ثمة رجلا بل رجلين .

﴿ ومكروا مكرا ﴾ بهذه المواضعة ﴿ ومكرنا مكرا ﴾ أى أهلكناهم إهلاكا غير معهود ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ أو جازيناهم مكرهم من حيث لا يحتسبون ﴿ فانظر كيف كان عاقبة مكرهم ﴾ شروع فى بيان ما ترتب على ما باشروه من المكر وكيف معلقة لفعل النظر ومحل الجملة النصب بنزع الخافض أى فتفكر فى أنه كيف كان عاقبة مكرهم وقوله تعالى ﴿ أنا دمرناهم ﴾ إما بدل من عاقبة مكرهم على أنه فاعل كان وهى تامة وكيف حال أى فانظر

كيف حصل أى على أى وجه حدث تدميرنا إياهم وإما خبر لمبتدأ محذوف والجملة مبنية لما فى عاقبة مكرهم من الإبهام أى هى تدميرنا إياهم ﴿ وقومهم ﴾ الذين لم يكونوا معهم فى مباشرة التبييت ﴿ أجمعين ﴾ بحيث لم يشذ منهم شاذ وإما تعليل لما ينبىء عنه الأمر بالنظر فى كيفية عاقبة مكرهم من غاية الهول والفظاعة بحذف الجار أى لأنا دمرناهم الخ وقيل كان ناقصة اسمها عاقبة مكرهم خبرها كيف كان فالأوجه حينئذ أن يكون قوله تعالى أنا دمرناهم الخ تعليلا لما ذكر وقرىء إنا دمرناهم الخ بالكسر على الاستئناف .

روى أنه كان لصالح عليه السلام مسجد فى الحجر فى شعب يصلى فيه فقالوا زعم صالح أنه يفرغ منا إلى ثلاث فنحن نفرغ منه ومن أهله قبل الثلاث فخرجوا إلى الشعب وقالوا إذا جاء يصلى قتلناه ثم رجعنا إلى أهله فقتلناهم فبعث الله تعالى صخرة من الهضب حيالهم فبادروا فطبقت الصخرة عليهم فم الشعب فلم يدر قومهم أين هم ولم يدروا ما فعل بقومهم وعذب الله تعالى كلا منهم فى مكانه ونجى صالحا ومن معه وقيل جاءوا بالليل شاهرى سيوفهم وقد أرسل الله تعالى الملائكة ملء دار صالح فدمغوهم بالحجارة يرون الحجارة ولا يرون راميا ﴿ فتلك بيوتهم ﴾ جملة مقررة لما قبلها وقوله تعالى :

﴿ خاوية ﴾ أى خالية أو ساقطة متهدمة ﴿ بما ظلموا ﴾ أى بسبب ظلمهم المذكور حال من بيوتهم والعامل معنى الإشارة وقرىء خاوية بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف ﴿ إن فى ذلك ﴾ أى فيما ذكر من التدمير العجيب بظلمهم ﴿ لآية ﴾ لعبرة عظيمة ﴿ لقوم يعلمون ﴾ أى ما من شأنه أن يعلم من الأشياء أو لقوم يتصفون بالعلم ﴿ وأنجينا الذين آمنوا ﴾ صالحا ومن معه من المؤمنين ﴿ وكانوا يتقون ﴾ أى الكفر والمعاصى اتقاء مستمرا فلذلك خصوا بالنجاة ﴿ ولوطا ﴾ منصوب بمضمر معطوف على أرسلنا فى صدر قصة صالح داخل معه فى حيز القسم أى وأرسلنا لوطا وقوله تعالى ﴿ إذ قال لقومه ﴾ ظرف للإرسال على أن المراد به أمر ممتد وقع فيه الإرسال وما جرى بينه وبين

قومه من الأقوال والأحوال وقيل انتصاب لوطا بإضمار اذكر وإذ بدل منه وقيل بالعطف على الذين آمنوا أى وأنجينا لوطا وهو بعيد ﴿أتأتون الفاحشة﴾ أى الفعلة المتناهية فى القبح والسماجة وقوله تعالى ﴿ وأنتم تبصرون ﴾ جملة حالية من فاعل تأتون مفيدة لتأكيد الإنكار وتشديد التوبيخ فإن تعاطى القبيح من العالم بقبحه أقبح وأشنع وتبصرون من بصر القلب أى أتفعلونها والحال أنكم تعلمون علما يقينيا بكونها كذلك وقيل يبصرها بعضكم من بعض لما كانوا يعلنون بها ﴿ أئنكم لتأتون الرجال شهوة ﴾ تثنية للإنكار وتكرير للتوبيخ وبيان لما يأتونه من الفاحشة بطريق التصريح وتحلية الجملة بحرفى التأكيد للإيذان بأن مضمونها مما لا يصدق وقوعه أحد لكمال بعده من العقول وإيراد المفعول بعنوان الرجولية لتربية التقبيح وتحقيق المباينة بينها وبين الشهوة التى علل بها الإتيان ﴿ من دون النساء ﴾ متجاوزين النساء اللاتى هن محال الشهوة ﴿ بل أنتم قوم تجهلون ﴾ تفعلون فعل الجاهلين بقبحه أو تجهلون العاقبة أو الجهل بمعنى السفاهة والمجون أى بل أنتم قوم سفهاء ماجنون والتاء فيه مع كونه صفة لقوم لكونهم فى حيز الخطاب .

﴿ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون ﴾ يتنزهون عن أفعالنا أو عن الأقذار ويعدون فعلنا قذرا وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه استهزاء وقد مر فى سورة الأعراف أن هذا الجواب هو الذى صدر عنهم فى المرة الأخيرة من مرات مواعظ لوط عليه السلام بالأمر والنهى لا أنه لم يصدر عنهم كلام آخر غيره ﴿ فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها ﴾ أى قدرنا أنها ﴿ من الغابرين ﴾ أى الباقين فى العذاب ﴿ وأمطرنا عليهم مطرا ﴾ غير معهود ﴿ فساء مطر المنذرين ﴾ قد مر بيان كيفية ماجرى عليهم من العذاب غير مرة ﴿ قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ﴾ إثر ماقص الله تعالى على رسوله عليه الصلاة والسلام قصص الأنبياء المذكورين عليهم الصلاة والسلام وأخبارهم الناطقة بكمال قدرته تعالى وعظم شأنه وبما خصهم به من الآيات القاهرة والمعجزات الباهرة الدالة

على جلالة أقدارهم وصحة أخبارهم ويبين على ألسنتهم حقية الإسلام والتوحيد وبطلان الكفر والإشراك وأن من اقتدى بهم فقد اهتدى ومن أعرض عنهم فقد تردى فى مهاوى الردى وشرح صدره عليه الصلاة والسلام بما فى تضاعيف تلك النصص من فنون المعارف الربانية ونور قلبه بأنوار الملكات السبحانية الفائضة من عالم القدس وقرر بذلك فحوى ما نطق به قوله عز وجل (وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم) أمره عليه الصلاة والسلام بأن يحمده تعالى على ما أفاض عليه من تلك النعم التى لا مطمع وراءها لطامع ولا مطمح من دونها لطامح ويسلم على كافة الأنبياء الذين من جملتهم الذين قصت عليه أخبارهم التى هى من جملة المعارف التى أوحيت إليه عليه الصلاة والسلام أداء لحق تقدمهم واجتهادهم فى الدين وقيل هو أمر للوط عليه السلام بأن يحمده تعالى على إهلاك كفرة قومه ويسلم على من اصطفاه بالعصمة عن الفواحش والنجاة عن الهلاك ولا يخفى بعده .

﴿ الله خير أما يشركون ﴾ أى آلله الذى ذكرت شئونه العظيمة خير ,أم ما يشركونه به تعالى من الأصنام ومرجع الترديد إلى التعريض بتبكيت الكفرة من جهته تعالى وتسفيه آرائهم الركيكة والتهكم بهم إذ من البين أن ليس فيما أشركوه به تعالى شائبة خير ما حتى يمكن أن يوازن بينه وبين من لا خير إلا خيره ولا إله غيره وقرىء تشركون بالتاء الفوقانية بطريق تلوين الخطاب وتوجيهه إلى الكفرة وهو الأليق بما بعده من سياق النظم الكريم المبنى على خطابهم وجعله من جملة القول المأمور به يأباه قوله تعالى فأنبتنا الخ فإنه صريح فى أن التبكيت من قبله عز وجل بالذات وحمله على أنه حكاية منه عليه الصلاة والسلام لما أمر به بعبارته كما فى قوله تعالى (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم) تعسف ظاهر من غير داع إليه وأم فى قوله تعالى ﴿ أم من خلق السموات والأرض ﴾ منقطعة وما فيها من كلمة بل على القراءة الأولى للاضراب والانتقال من التبكيت تعريضاً إلى التصريح به خطابا على وجه أظهر منه لمزيد التأكيد والتشديد وأما على القراءة الثانية فلتثنية التبكيت

وتكرير الإلزام كنظائرها الآتية والهمزة لتقريرهم أى حملهم على الإقرار بالحق على وجه الاضطرار فإنه لا يتمالك أحد ممن له أدنى تمييز ولا يقدر على أن لا يعترف بخيرية من خلق جميع المخلوقات وأفاض على كل منها ما يليق به من منافعه من أخس تلك المخلوقات وأدناها بل بأن لا خيرية فيه بوجه من الوجوه قطعا ومن مبتدأ خبره محذوف مع أم المعادلة للهمزة تعويلا على ماسبق فى الاستفهام الأول خلا أن تشركون ههنا بتاء الخطاب على القراءتين معا وهكذا فى المواضع الأربعة الآتية والمعنى بل أمن خلق قطرى العالم الجسمانى ومبداى منافع ما بينهما ﴿وأنزل لكم﴾ التفات إلى خطاب الكفرة على القراءة الأولى لتشديد التبكيت والإلزام أى أنزل لأجلكم ومنفعتكم ﴿من السماء ماء﴾ أى نوعا منه هو المطر .

﴿فأنبتنا به حدائق﴾ أى بساتين محدقة ومحاطة بالحوائط ﴿ذات بهجة﴾ أى ذات حسن ورونق يبتهج به النظار ﴿ما كان لكم﴾ أى ماصح وما أمكن لكم ﴿أن تنبتوا شجرها﴾ فضلا عن ثمرها وسائر صفاتها البديعة خير أم ما تشركون وقرىء أمن بالتخفيف على أنه بدل من الله وتقديم صلتى الإنزال على مفعوله لما مر مرارا من التشويق إلى المؤخر والالتفات إلى التكلم فى قوله تعالى فأنبتنا لتأكيد اختصاص الفعل بذاته تعالى والإيذان بأن إنبات تلك الحدائق المختلفة الأصناف والأوصاف والألوان والطعوم والروائح والأشكال مع ما لها من الحسن البارع والبهاء الرائع بماء واحد مما لا يكاد يقدر عليه إلا هو وحده حسبما ينبىء عنه تقييدها بقوله تعالى (ما كان لكم) الخ سواء كانت صفة لها أو حالا وتوحيدوصفها الأول أعنى ذات بهجة لما أن المعنى جماعة حدائق ذات بهجة على نهج قولهم النساء ذهبت وكذا الحال فى ضمير شجرها ﴿أإله مع الله﴾ أى أإله آخر كائن مع الله الذى ذكر بعض أفعاله التى لا يكاد يقدر عليها غيره حتى يتوهم جعله شريكا له تعالى فى العبادة وهذا تبكيت لهم بنفى الألوهية عما يشركونه به تعالى فى ضمن النفى الكلى على الطريقة البرهانية بعد تبكيتهم بنفى الخيرية عنه بما ذكر من الترديد فإن أحدا ممن له تمييز فى الجملة كما

لا يقدر على إنكار انتفاء الخيرية عنه بالمرة لا يكاد يقدر على إنكار انتفاء الألوهية عنه رأسا لا سيما بعد ملاحظة انتفاء أحكامها عما سواه تعالى وهكذا الحال فى المواقع الأربعة الآتية وقيل المراد نفى أن يكون معه تعالى إله آخر فيما ذكر من الخلق وما عطف عليه لكن لا على أن التبكيت بنفس ذلك النفى فقط كيف لاوهم لا ينكرونه حسبما ينطق به قوله تعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) بل بإشراكهم به تعالى فى العبادة ما يعترفون بعدم مشاركته له تعالى فيما ذكر من لوازم الألوهية كأنه قيل أإله آخر مع الله فى خواص الألوهية حتى يجعل شريكا له تعالى فى العبادة وقيل المعنى أغيره يقرن به ويجعل له شريكا فى العبادة مع تفرده تعالى بالخلق والتكوين فالإنكار للتوبيخ والتبكيت مع تحقيق المنكر دون النفى كما فى الوجهين السابقين والأول هو الأظهر الموافق لقوله تعالى (وما كان معه من إله) والأوفى بحق المقام لإفادته نفى وجود إله آخر معه تعالى رأسا لا نفى معيته فى الخلق وفروعه فقط وقرىء آإله بتوسيط مدة بين الهمزتين وبإخراج الثانية بين بين وقرىء أإلها بإضمار فعل يناسب المقام مثل أتدعون أو أتشركون .

﴿ بل هم قوم يعدلون ﴾ إضراب وانتقال من تبكيتهم بطريق الخطاب إلى بيان سوء حالهم وحكايته لغيرهم أى بل هم قوم عادتهم العدول عن طريق الحق بالكلية والانحراف عن الاستقامة فى كل أمر من الأمور فلذلك يفعلون ما يفعلون من العدول عن الحق الواضح الذى هو التوحيد والعكوف على الباطل البين الذى هو الإشراك وقيل يعدلون به تعالى غيره وهو بعيد خال عن الإفادة ﴿ أم من جعل الأرض قرارا ﴾ قيل هو بدل من أم من خلق السموات الخ وكذا ما بعده من الجمل الثلاث وحكم الكل واحد والأظهر أن كل واحدة منها إضراب وانتقال من التبكيت بما قبلها إلى التبكيت بوجه آخر أدخل فى الإلزام بجهة من الجهات أى جعلها بحيث يستقر عليها الإنسان والدواب بإبداء بعضها من الماء ودخولها وتسويتها حسبما تدور عليه منافعهم ﴿ وجعل خلالها ﴾

أوساطها ﴿ أنهارا ﴾ جارية ينتفعون بها ﴿ وجعل لها رواسى ﴾ أى جبالا ثوابت تمنعها أن تميد بأهلها ويتكون فيها المعادن وينبع فى حضيضها الينابيع ويتعلق بها من المصالح ما لا يحصى ﴿ وجعل بين البحرين ﴾ أى العذب والمالح أو خليجى فارس والروم ﴿ حاجزا ﴾ برزخا مانعا من الممازجة وقد مر فى سورة الفرقان والجعل فى المواقع الثلاثة الأخيرة إبداعى وتأخير مفعوله عن الظرف لما مر مرارا من التشويق ﴿ أإله مع الله ﴾ فى الوجود أو فى إبداع هذه البدائع على ما مر ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ أى شيئاً من الأشياء ولذلك لا يفهمون بطلان ما هم عليه من الشرك مع كمال ظهوره .

﴿ أم من يجيب المضطر إذا دعاه ﴾ وهو الذى أحوجته شدة من الشدائد وألجأته إلى اللجأ والضراعة إلى الله عز وجل اسم مفعول من الاضطرار الذى هو افتعال من الضرورة وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما هو المجهود وعن السدى رحمه الله تعالى من لا حول له ولا قوة وقيل المذنب إذا استغفر واللام للجنس لا للاستغراق حتى يلزم إجابة كل مضطر ﴿ ويكشف السوء ﴾ وهو الذى يعترى الإنسان مما يسوؤه ﴿ ويجعلكم خلفاء الأرض ﴾ أى خلفاء فيها بأن ورثكم سكناها والتصرف فيها ممن قبلكم من الأمم وقيل المراد بالخلافة الملك والتسلط ﴿ أإله مع الله ﴾ الذى يفيض على كافة الأنام هذه النعم الجسام ﴿ قليلا ما تذكرون ﴾ أى تذكرا قليلا أو زمانا قليلا تتذكرون وما مزيدة لتأكيد معنى القلة التى أريد بها العدم أو مايجرى مجراه فى الحقارة وعدم الجدوى وفى تذييل الكلام بنفى التذكر عنهم إيذان بأن مضمونه مركوز فى ذهن كل ذكى وغبى وأنه من الوضوح بحيث لا يتوقف إلا على التوجه إليه وتذكره وقرىء تتذكرون على الأصل وتذكرون ويذكرون بالتاء والياء مع الإدغام ﴿ أم من يهديكم فى ظلمات البر والبحر ﴾ أى فى ظلمات الليالى فيهما على أن الإضافة للملابسة أو فى مشتبهات الطرق يقال طريقة ظلماء وعمياء للتى لا منار بها ﴿ ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته ﴾ وهى المطر ولئن صح أن السبب الأكثرى فى تكون الريح معاودة الأدخنة الصاعدة من الطبقة الباردة

لانكسار حرها وتموجها للهواء فلا ريب فى أن الأسباب الفاعلية والقابلية لذلك كله من خلق الله عز وجل والفاعل للسبب فاعل للمسبب قطعا ﴿ أإله مع الله ﴾ نفى لأن يكون معه إله آخر وقوله تعالى ﴿ تعالى الله عما يشركون ﴾ تقرير وتحقيق له وإظهار الاسم الجليل فى موضع الإضمار للإشعار[1] بعلة الحكم أى تعالى وتنزه بذاته المنفردة بالألوهية المستتبعة لجميع صفات الكمال ونعوت الجمال والجلال المقتضية لكون كل المخلوقات مقهورا تحت قدرته عما يشركون أى عن وجود ما يشركونه به تعالى لا مطلقا فإن وجوده مما لا مرد له بل عن وجوده بعنوان كونه إلها وشريكا له تعالى أو عن إشراكهم ﴿ أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ أى بل أمن يبدأ الخلق ثم يعيده بعد الموت بالبعث ﴿ ومن يرزقكم من السماء والأرض ﴾ أى بأسباب سماوية وأرضية قد رتبها على ترتيب بديع تقتضيه الحكمة التى عليها بنى أمر التكوين خير أم ماتشركونه به فى العبادة من جماد لا يتوهم قدرته على شىء ما أصلا .

﴿ أإله ﴾ آخر موجود ﴿ مع الله ﴾ حتى يجعل شريكا له فى العبادةوقوله تعالى ﴿ قل هاتوا برهانكم ﴾ أمر له عليه الصلاة والسلام بتبكيتهم إثر تبكيت أى هاتوا برهانا عقلياً أو نقلياً يدل على أن معه تعالى إلها لا على أن غيره تعالى يقدرعلى شىء مماذكر من أفعاله تعالى كما قيل فإنهم لايدعونه صريحا ولا يلتزمون كونه من لوازم الألوهية وإن كان منها فى الحقيقة فمطالبتهم بالبرهان عليه لا على صريح دعواهم بما لا وجه له وفى إضافة البرهان إلى ضميرهم تهكم بهم لما فيها من إيهام أن لهم برهانا وأنى لهم ذلك ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أى فى تلك الدعوى ﴿ قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله ﴾ بعد ما حقق تفرده تعالى بالألوهية ببيان اختصاصه بعلم الغيب تكميلا لما قبله وتمهيداً لما بعده من أمر البعث والاستثناء منقطع ورفع المستثنى على اللغة التميمية للدلالة على استحالة علم الغيب من أهل السموات والأرض بتعليقه بكونه سبحانه وتعالى منهم كأنه

---

(١) فى ١٢ : للايذان ،

قيل إن كان الله تعالى ممن فيهما ففيهم من يعلم الغيب أو متصل على أن المراد بمن فى السموات والأرض من تعلق علمه بهما واطلع عليهما اطلاع الحاضر فيهما فإن ذلك معنى مجازى عام له تعالى ولأولى العلم من خلقه ومن موصولة أو موصوفة ﴿ وما يشعرون أيان يبعثون ﴾ أى متى ينشرون من القبور مع كونه مما لا بد لهم منه ومن أهم الأمور عندهم وأيان مركبة من أى وآن وقرىء بكسر الهمزة والضمير للكفرة وإن كان عدم الشعور بما ذكر عاما لئلا يلزم التفكيك بينه وبين ما سيأتى من الضمائر الخاصة بهم قطعا وقيل الكل لمن وإسناد خواص الكفرة إلى الجميع من قبيل قولهم بنو فلان فعلوا كذا والفاعل بعض منهم ﴿ بل ادارك علمهم فى الآخرة ﴾ لما نفى عنهم علم الغيب وأكد ذلك بنفى شعورهم بوقت ما هو مصيرهم لا محالة بولغ فى تأكيده وتقريره بأن أضرب عنه وبين أنهم فى جهل أفحش من جهلهم بوقت بعثهم حيث لا يعلمون أحوال الآخرة مطلقاً مع تعاضد أسباب معرفتها على أن معنى ادارك علمهم فى الآخرة تدارك وتتابع علمهم فى شأن الآخرة التى ما ذكر من البعث حال من أحوالها حتى انقطع ولم يبق لهم علم بشىء مما سيكون فيها قطعا لكن لا على معنى أنه كان لهم علم بذلك على الحقيقة ثم انتفى شيئاً فشيئاً بل على طريقة المجاز بتنزيل أسباب العلم ومباديه من الدلائل العقلية والسمعية منزلة نفسه وإجراء تساقطها عن درجة اعتبارهم كلما لاحظوها مجرى تتابعها إلى الانقطاع ثم أضرب وانتقل عن بيان عدم علمهم بها إلى بيان ما هو أسوأ منه وهو حيرتهم فى ذلك حيث قيل : ﴿ بل هم فى شك منها ﴾ أى فى شك مريب من نفس الآخرة وتحققها كمن تحير فى أمر لا يجد عليه دليلا فضلا عن الأمور التى ستقع فيها ثم أضرب عن ذلك إلى بيان أن ماهم فيه أشد وأفظع من الشك حيث قيل ﴿ بل هم منها عمون ﴾ بحيث لا يكادون يدركون دلائلها لاختلال بصائرهم بالكلية وقرىء بل ادارك علمهم بمعنى انتهى وفنى وقد فسره الحسن البصرى باضمحل علمهم وقيل كلتا الصيغتين على معناهما الظاهر أى تكامل واستحكم أو تم أسباب علمهم بأن كائنة لا محالة من الآيات القيامة القاطعة والحجج الساطعة وتمكنوا من المعرفة فضل

تمكن وهم جاهلون فى ذلك وقوله تعالى (بل هم فى شك منها) إضراب وانتقال من وصفهم بمطلق الجهل إلى وصفهم بالشك وقوله تعالى (بل هم منها عمون) إضراب من وصفهم بالشك إلى وصفهم بما هو أشد منه وأفظع من العمى وأنت خبير بأن تنزيل أسباب العلم منزلة العلم سنن مسلوك لكن دلالة النظم الكريم على جهلهم حينئذ ليست بواضحة وقيل المراد بوصفهم باستحكام العلم وتكامله التهكم بهم فيكون وصفا لهم بالجهل مبالغة والإضرابات على ما ذكر وأصل ادارك تدارك وبه قرأ أبى فأبدلت التاء دالا وسكنت فتعذر الابتداء فاجتلبت همزة الوصل فصار ادارك وقرىء بل ادرك وأصله افتعل وبل أأدرك بهمزتين وبل آأدرك بألف بينهما وبل درك بالتخفيف والنقل وبل أدرك بفتح اللام وتشديد الدال وأصله بل أدرك على الاستفهام وبلى أدرك وبلى أأدرك وأم تدارك وأم ادرك فهذه ثنتا عشرة قراءة فما فيه استفهام صريح أو مضمن من ذلك فهو إنكار ونفى ومافيه بلى فإثبات لشعورهم وتفسير له بالإدراك على وجه التهكم الذى هو أبلغ وجوه النفى والإنكار وما بعده إضراب عن التفسير مبالغة فى النفى ودلالة على أن شعورهم بها أنهم شاكون فيها بل إنهم منها عمون أو رد وإنكار لشعورهم .

﴿وقال الذين كفروا﴾ بيان لجهلهم بالآخرة وعمهم منها بحكاية إنكارهم للبعث ووضع الموصول موضع ضميرهم لذمهم بما فى حيز صلته والإشعار بعلة حكمهم الباطل فى قولهم ﴿أئذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخرجون﴾ أى أنخرج من القبور إذا كنا ترابا كما ينبىء عنه مخرجون ولا مساغ لأن يكون هو العامل فى إذا لاجتماع موانع لو تفرد واحد منها لكفى فى المنع وتقييد الإخراج بوقت كونهم ترابا ليس لتخصيص الإنكار بالإخراج حينئذ فقط فإنهم منكرون للإحياء بعد الموت مطلقاً وإن كان البدن على حاله بل لتقوية الإنكار بتوجيهه إلى الإخراج فى حالة منافية له وقوله تعالى وآباؤنا عطف على اسم كان وقام الفصل مع الخبر مقام الفصل بالتأكيد وتكرير الهمزة فى أئنا للمبالغة والتشديد فى الإنكار وتحلية الجملة بأن واللام لتأكيد الإنكار لا لإنكار التأكيد كما يوهمه ظاهر النظم فإن تقديم الهمزة لاقتضائها الصدارة كما فى قوله تعالى

أفلا تعقلون ونظائره على رأى الجمهور فإن المعنى عندهم تعقيب الإنكار لا إنكار التعقيب كما هو المشهور وقرىء إذا كنا بهمزة واحدة مكسورة وقرىء إنا لمخرجون على الخبر ﴿ لقد وعدنا هذا ﴾ أى الإخراج ﴿ نحن وآباؤنا من قبل ﴾ أى من قبل وعده عليه الصلاة والسلام وتقديم الموعود على نحن لأنه المقصود بالذكر وحيث أخر قصد به المبعوث والجملة استئناف مسوق لتقرير الإنكار وتصديرها بالقسم لمزيد التأكيد وقوله تعالى ﴿ إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ تقرير إثر تقرير ﴿ قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين ﴾ بسبب تكذيبهم للرسل عليهم الصلاة والسلام فيما دعوهم إليه من الإيمان بالله عز وجل وحده وباليوم الآخر الذى تنكرونه فإن فى مشاهدة عاقبتهم مافيه كفاية لأولى الأبصار وفى التعبير عن المكذبين بالمجرمين لطف بالمؤمنين فى ترك الجرائم .

﴿ ولا تحزن عليهم ﴾ لإصرارهم على الكفر والتكذيب ﴿ ولا تكن فى ضيق ﴾ فى حرج صدر ﴿ مما يمكرون ﴾ من مكرهم فإن الله تعالى يعصمك من الناس وقرىء بكسر الضاد وهو أيضا مصدر ويجوز أن يكون المفتوح مخففا من ضيق وقد قرىء كذلك أى لا تكن فى أمر ضيق ﴿ ويقولون متى هذا الوعد ﴾ أى العذاب العاجل الموعود ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ فى إخباركم بإتيانه والجمع باعتبار شركة المؤمنين فى الإخبار بذلك ﴿ قل عسى أن يكون ردف لكم ﴾ أى تبعكم ولحقكم واللام مزيدة للتأكيد كالباء فى قوله تعالى (ولاتلقوا بأيديكم إلى التهلكة) أو الفعل مضمن معنى فعل يعدىٰ باللام وقرىء بفتح الدال وهى لغة فيه ﴿ بعض الذى تستعجلون ﴾ وهو عذاب يوم بدر وعسى ولعل وسوف فى مواعيد الملوك بمنزلة الجزم بها وإنما يطلقونها إظهارا للوقار وإشعارا بأن الرمز من أمثالهم كالتصريح ممن عداهم وعلى ذلك جرى وعد الله تعالى ووعيده وإيثار ما عليه النظم الكريم على أن يقال عسى أن يردفكم الخ لكونه أدل على تحقق الوعد ﴿ وإن ربك لذو فضل على الناس ﴾ أى لذو إفضال وإنعام على كافة الناس ومن جملة إنعاماته تأخير عقوبة هؤلاء على مايرتكبونه

من المعاصى التى من جملتها استعجال العذاب ﴿ ولكن أكثرهم لا يشكرون ﴾ لا يعرفون حق النعمة فيه فلا يشكرونه بل يستعجلون بجهلهم وقوعه كدأب هؤلاء ﴿ وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم ﴾ أى ما تخفيه وقرىء بفتح التاء من كننت[1] الشىء إذا سترته ﴿ وما يعلنون ﴾ من الأفعال والأقوال التى من جملتها ما حكى عنهم من استعجال العذاب وفيه إيذان بأن لهم قبائح غير ما يظهرونه وأنه تعالى يجازيهم على الكل وتقديم السر على العلن قد مر سره فى سورة البقرة عند قوله تعالى (أو لا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون).

﴿ وما من غائبة فى السماء والأرض ﴾ أى من خافية فيهما وهما من الصفات الغالبة والتاء للمبالغة كما فى الرواية أو اسمان لما يغيب ويخفى والتاء للنقل إلى الاسمية ﴿ إلا فى كتاب مبين ﴾ أى بين أو مبين لما فيه لمن يطالعه وهو اللوح المحفوظ وقيل هو القضاء العدل بطريق الاستعارة ﴿ إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون ﴾ من جملته ما اختلفوا فى شأن المسيح وتحزبوا فيه أحزابا وركبوا متن العتو والغلو فى الإفراط والتفريط والتشبيه والتنزيه ووقع بينهم التناكد فى أشياء حتى بلغ المشاقة إلى حيث لعن بعضهم بعضا وقد نزل القرآن الكريم ببيان كنه الأمر لو كانوا فى حيز الإنصاف ﴿ وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين ﴾ على الإطلاق فيدخل فيهم من آمن من بنى إسرائيل دخولا أوليا ﴿ إن ربك يقضى بينهم ﴾ أى بين بنى إسرائيل ﴿ بحكمه ﴾ بما يحكم به وهو الحق أو بحكمته ويؤيده أنه قرىء بحكمه ﴿ وهو العزيز ﴾ فلا يرد حكمه وقضاؤه ﴿ العليم ﴾ بجميع الأشياء التى من جملتها ما يقضى به والفاء فى قوله تعالى ﴿ فتوكل على الله ﴾ لترتيب الأمر على ما ذكر من شئونه عز وجل فإنها موجبة للتوكل عليه وداعية إلى

---

(١) فى ١٠ : أكننت

إلى الأمر به أى فتوكل على الله الذى هذا شأنه فإنه موجب على كل أحد أن يتوكل عليه ويفوض جميع أموره إليه وقوله تعالى :

﴿ إنك على الحق المبين ﴾ تعليل صريح للتوكل عليه تعالى بكونه عليه الصلاة والسلام على الحق البين أو الفاصل بينه وبين الباطل أو بين المحق والمبطل فإن كونه عليه الصلاة والسلام كذلك مما يوجب الوثوق بحفظه تعالى ونصرته وتأييده لا محالة وقوله تعالى ﴿ إنك لا تسمع الموتى ﴾ الخ تعليل آخر للتوكل الذى هو عبارة عن التبتل إلى الله تعالى وتفويض الأمر إليه والإعراض عن التشبث بما سواه وقد علل أولا بما يوجبه من جهته تعالى أعنى قضاءه بالحق وعزته وعلمه تعالى وثانيا بما يوجبه من جهته عليه الصلاة والسلام على أحد الوجهين أعنى كونه عليه الصلاة والسلام على الحق ومن جهته تعالى على الوجه الآخر أعنى إعانته تعالى وتأييده للحق .

ثم علل ثالثا بما يوجبه لكن لا بالذات بل بواسطة إيجابه للإعراض عن التشبث بما سواه تعالى فإن كونهم كالموتى والصم والعمى موجب لقطع الطمع عن مشايعتهم ومعاضدتهم رأسا وداع إلى تخصيص الاعتضاد به تعالى وهو المعنى بالتوكل عليه تعالى وإنما شبهوا بالموتى لعدم تأثرهم بما يتلى عليهم من القوارع وإطلاق الأسماع عن المفعول لبيان عدم سماعهم لشىء من المسموعات ولعل المراد تشبيه قلوبهم بالموتى فيما ذكر من عدم الشعور فإن القلب مشعر من المشاعر أشير إلى بطلانه بالمرة ثم بين بطلان مشعرى الأذن والعين كما فى قوله تعالى (لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها) وإلا فبعد تشبيه أنفسهم بالموتى لا يظهر لتشبيههم بالصم والعمى مزيد مزية ﴿ ولا تسمع الصم الدعاء ﴾ أى الدعوة إلى أمر من الأمور وتقييد النفى بقوله تعالى ﴿ إذا ولوا مدبرين ﴾ لتكميل التشبيه وتأكيد النفى فإنهم مع صممهم عن الدعاء إلى الحق معرضون عن الداعى مولون على أدبارهم ولا ريب فى أن الأصم لا يسمع الدعاء مع كون الداعى بمقابلة صماخه

قريبا منه فكيف إذا كان خلفه بعيدا منه وقرىء ولا يسمع الصم الدعاء .
﴿ وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم ﴾ هداية موصلة إلى المطلوب كما فى قوله تعالى إنك لا تهدى من أحببت فإن الاهتداء منوط بالبصر وعن متعلقة بالهداية باعتبار تضمنه معنى الصرف وقيل بالعمى عن كذا وفيه بعد وإيراد الجملة الاسمية للمبالغة فى نفى الهداية وقرىء وما أنت تهدى العمى ﴿ إن تسمع ﴾ أى ما تسمع سماعا يجدى السامع نفعا ﴿ إلا من يؤمن بآياتنا ﴾ أى من من شأنهم الإيمان بها وإيراد الأسماع فى النفى والإثبات دون الهداية مع قربها بأن يقال إن تهدى إلا من يؤمن الخ لما أن طريق الهداية هو إسماع الآيات التنزيلية ﴿ فهم مسلمون ﴾ تعليل لإيمانهم بها كأنه قيل فإنهم منقادون للحق وقيل مخلصون لله تعالى من قوله تعالى (بلى من أسلم وجهه لله) ﴿ وإذا وقع القول عليهم ﴾ بيان لما أشير إليه بقوله تعالى (بعض الذى تستعجلون) من بقية ما يستعجلونه من الساعة ومباديها والمراد بالقول ما نطق من الآيات الكريمة بمجىء الساعة وما فيها من فنون الأهوال التى كانوا يستعجلونها وبوقوعه قيامها وحصولها عبر عن ذلك به إيذانا بشدة وقعها وتأثيرها وإسناده إلى القول لما أن المراد بيان وقوعها من حيث أنها مصداق للقول الناطق بمجيئها وقد أريد بالوقوع دنوه واقترابه كما فى قوله تعالى (أتى أمر الله) أى إذا دنا وقوع مدلول القول المذكور الذى لا يكادون يسمعونه ومصداقه ﴿ أخرجنا لهم دابة من الارض ﴾ وهى الحساسة وفى التعبير عنها باسم الجنس وتأكيد إبهامه بالتنوين التفخيمى من الدلالة على غرابة شأنها وخروج أوصافها عن طور البيان مالا يخفى وقد ورد فى الحديث أن طولها ستون ذراعا لا يدركها طالب ولا يفوتها هارب وروى أن لها أربع قوائم ولها زغب وريش وجناحان وعن ابن جريج فى وصفها رأس ثور وعين خنزير وأذن فيل وقرن ايل وعنق نعامة وصدر أسد ولون نمر وخاصرة هرة وذنب كبش وخف بعير وما بين المفصلين اثنا عشر ذراعا بذراع آدم عليه السلام وقال وهب وجهها وجه الرجل وباقى خلقها خلق الطير وروى عن على رضى الله عنه أنه قال ليس

بداية لها ذنب ولكن لها لحية كأنه رجل والمشهور أنها دابة وروى لا تخرج إلا رأسها ورأسها يبلغ عنان السماء أو يبلغ السحاب وعن أبى هريرة رضى الله عنه فيها كل لون ما بين قرنيها فرسخ للراكب وعن الحسن رضى الله عنه لايتم خروجها إلا بعد ثلاثة أيام وعن على رضى الله عنه أنها تخرج ثلاثة أيام والناس ينظرون فلا يخرج كل يوم الاثلثها وعن النبى عليه الصلاة والسلام أنه سئل من أين تخرج الدابة فقال من أعظم المساجد حرمة على الله تعالى يعنى المسجد الحرام وروى أنها تخرج ثلاث خرجات تخرج بأقصى اليمن ثم تخرج بالبادية ثم تنكمن دهرا طويلا فبينا الناس فى أعظم المساجد حرمة على الله تعالى وأكرمها فما يهولهم إلا خروجها من بين الركن حذاء دار بنى مخزوم عن يمين الخارج من المسجد فقوم يهربون وقوم يقفون نظارة وقيل تخرج من الصفا وروى بينا عيسى عليه السلام يطوف البيت ومعه المسلمون إذ تضطرب الأرض تحتهم تحرك القنديل وينشق الصفا مما يلى المسعى فتخرج الدابة من الصفا ومعها عصا موسى وخاتم سليمان عليهما السلام فتضرب المؤمن فى مسجده بالعصا فتنكت نكتة بيضاء فتفشو حتى يضىء لها وجهه وتكتب بين عينيه مؤمن ، وتنكت الكافر بالخاتم فى أنفه فتفشو النكتة حتى يسود لها وجهه وتكتب بين عينيه كافر ثم تقول لهم أنت يافلان من أهل الجنة وأنت يافلان من أهل النار وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قرع الصفا بعصاه وهو محرم وقال إن الدابة لتسمع قرع عصاى هذه وروى أبو هريرة عن النبى عليه الصلاة والسلام أنه قال بئس الشعب شعب أجياد مرتين أو ثلاثا قيل ولم ذاك يارسول الله قال تخرج منه الدابة فتصرخ ثلاث صرخات يسمعها من بين الخافقين فتتكلم بالعربية بلسان ذلق وذلك قوله تعالى :

﴿ تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ﴾ أى تكلمهم بأنهم كانوا لا يوقنون بآيات الله تعالى الناطقة بمجىء الساعة ومباديها أو بجميع آياته التى

من جملتها تلك الآيات وقيل بآياته التي من جملتها خروجها بين يدى الساعة والأول هو الحق كما ستحيط به علما وقرىء بأن الناس الآية وإضافة الآيات إلى نون العظمة لأنها حكاية منه تعالى لمعنى قولها لا لعين عبارتها وقيل لأنها حكاية منها لقول الله عز وجل وقيل لاختصاصها به تعالى وأثرتها عنده كما يقول بعض خواص الملك خيلنا وبلادنا وإنما الخيل والبلاد لمولاه وقيل هناك مضاف محذوف أى بآيات ربنا ووصفهم بعدم الإيقان بها مع أنهم كانوا جاحدين بها للإيذان بأنه كان من حقهم أن يوقنوا بها ويقطعوا بصحتها وقد اتصفوا بنقيضه وقرىء إن الناس بالكسر على إضمار القول أو إجراء الكلام مجراه والكلام فى الإضافة كالذى سبق وقيل هو استئناف مسوق من جهته تعالى لتعليل إخراجها أو تكليمها ويرده الجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل فإنه صريح فى كونه حكاية لعدم إيقانهم السابق فى الدنيا والمراد بالناس إما الكفرة على الإطلاق أو مشركو مكة وقد روى عن وهب أنها تخبر كل من تراه أن أهل مكة كانوا بمحمد والقرآن لا يوقنون وقرىء تكلمهم من الكلم الذى هو الجرح والمراد به ما نقل من الوسم بالعصا والخاتم وقد جوز كون القراءة المشهورة أيضا منه لمعنى التكثير ولا يخفى بعده .

﴿ ويوم نحشر من كل أمة فوجا ﴾ بيان إجمالى لحال المكذبين عند قيام الساعة بعد بيان بعض مباديها ويوم منصوب بمضمر خوطب به النبى عليه الصلاة والسلام والمراد بهذا الحشر هو الحشر للعذاب بعد الحشر الكلى الشامل لكافة الخلق وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت مع أن المقصود تذكير ما وقع فيه من الحوادث قد مر بيان سره مرارا أى واذكر لهم وقت حشرنا أى جمعنا من كل أمة من أمم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أو من أهل كل قرن من القرون جماعة كثيرة فمن تبعيضية لأن كل أمة منقسمة إلى مصدق ومكذب وقوله تعالى ﴿ ممن يكذب بآياتنا ﴾ بيان للفوج أى فوجا مكذبين بها ﴿ فهم يوزعون ﴾ أى يحبس أولهم على آخرهم حتى يتلاحقوا ويجتمعوا فى موقف التوبيخ والمناقشة وفيه من الدلالة على كثرة عددهم وتباعد أطرافهم

ما لا يخفى وعن ابن عباس رضى الله عنهما أبو جهل والوليد بن المغيرة وشيبة ابن ربيعة يساقون بين يدى أهل مكة وهكذا يحشر قادة سائر الأمم بين أيديهم إلى النار ﴿ حتى إذا جاءوا ﴾ إلى موقف السؤال والجواب والمناقشة والحساب ﴿قال﴾ أى الله عز وجل موبخا لهم على التكذيب والالتفات لتربية المهابة ﴿ أكذبتم بآياتى ﴾ الناطقة بلقاء يومكم هذا وقوله تعالى ﴿ولم تحيطوا بها علما﴾ جملة حالية مفيدة لزيادة شناعة التكذيب وغاية قبحه ومؤكدة للإنكار والتوبيخ أى أكذبتم بها بادىء الرأى غير ناظرين فيها نظرا يؤدى إلى العلم بكنهها وأنها حقيقة بالتصديق حتما وهذا نص فى أن المراد بالآيات فيما فى الموضعين هى الآيات القرآنية لأنها هى المنطوية على دلائل الصحة وشواهد الصدق التى لم يحيطوا بها علما مع وجوب أن يتأملوا ويتدبروا فيها لا نفس الساعة وما فيها وقيل هو معطوف على كذبتم أى أجمعتم بين التكذيب وعدم التدبر فيها ﴿أم ماذا كنتم تعملون ﴾ أى أم أى شىء كنتم تعملون بها أو أم أى شىء كنتم تعملون غير ذلك بمعنى أنه لم يكن لهم عمل غير ذلك كأنهم لم يخلقوا إلا للكفر والمعاصى مع أنهم ما خلقوا إلا للإيمان والطاعة يخاطبون بذلك تبكيتا ثم يكبون فى النار وذلك قوله تعالى :

﴿ ووقع القول عليهم﴾ أى حل بهم العذاب الذى هو مدلول القول الناطق بحلوله ونزوله ﴿ بما ظلموا ﴾ بسبب ظلمهم الذى هو تكذيبهم بآيات الله ﴿ فهم لا ينطقون﴾ لانقطاعهم عن الجواب بالكلية وابتلائهم بشغل شاغل من العذاب الأليم ﴿ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه ﴾ الرؤية قلبية لا بصرية لأن نفس الليل والنهار وإن كانا من المبصرات لكن جعلهما كما ذكر من قبيل المعقولات أى ألم يعلموا أنا جعلنا الليل بما فيه من الإظلام ليستريحوا فيه بالنوم والقرار ﴿والنهار مبصرا﴾ أى ليبصروا بما فيه من الإضاءة طرق التقلب فى أمور المعاش فبولغ فيه حيث جعل الإبصار الذى هو حال الناس حالا له ووصفا من أوصافه التى جعل عليها بحيث لا ينفك عنها ولم يسلك فى الليل هذا المسلك لما أن تأثير ظلام الليل فى السكون ليس بمثابة تأثير ضوء النهار فى

الأبصار ﴿إن فى ذلك﴾ أى فى جعلهما كما وصفا وما فى اسم الإشارة من معنى البعد للإشعار ببعد درجته فى الفضل ﴿لآيات﴾ أى عظيمة كثيرة ﴿لقوم يؤمنون﴾ دالة على صحة البعث وصدق الآيات الناطقة به دلالة واضحة كيف لا وإن من تأمل فى تعاقب الليل والنهار واختلافهما على وجوه بديعة مبنية على حكم رائعة تحار فى فهمها العقول ولا يحيط بها إلا الله عز وجل وشاهد فى الآفاق تبدل ظلمة الليل الحاكية للموت بضياء النها المضاهى للحياة وعاين فى نفسه تبدل النوم الذى هو أخو الموت بالانتباه الذى هو مثل الحياة قضى بأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور قضاء متقنا وجزم بأنه تعالى قد جعل هذا أنموذجا له ودليلا يستدل به على تحققه وأن الآيات الناطقة به وبكون حال الليل والنهار برهانا عليه وسائر الآيات كلها حق نازل من عند الله تعالى .

﴿ويوم ينفخ فى الصور﴾ إما معطوف على يوم نحشر منصوب بناصبه أو بمضمر معطوف عليه والصور هو القرن الذى ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لما فرغ الله تعالى من خلق السموات والأرض خلق الصور فأعطاه إسرافيل فهو واضعه على فيه شاخص بصره إلى العرش متى يؤمر قال قلت يا رسول الله ما الصور قال القرن قال قلت كيف هو قال عظيم والذى نفسى بيده إن عظم دارة فيه كعرض السماء والأرض فيؤمر بالنفخ فيه فينفخ نفخة لا يبقى عندها فى الحياة أحد غير من شاء الله تعالى وذلك قوله تعالى (ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله) ثم يؤمر بأخرى فينفخ نفخة لا يبقى معها ميت إلا بعث وقام وذلك قوله تعالى (ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) والذى يستدعيه سياق النظم الكريم وسياقه أن المراد بالنفخ ههنا هى النفخة الثانية وبالفزع فى قوله تعالى ﴿ففزع من فى السموات ومن فى الأرض﴾ ما يعترى الكل عند البعث والنشور بمشاهدة الأمور الهائلة الخارقة للعادات فى الأنفس والآفاق من الرعب والتهيب الضروريين الجبليين وإيراد صيغة الماضى مع كون المعطوف عليه أعنى ينفخ مضارعا للدلالة على تحقق وقوعه إثر النفخ ولعل

تأخير بيان الأحوال الواقعة عند ابتداء النفخة عن بيان مايقع بعدها من حشر المكذبين من كل أمة لتثنية التهويل بتكرير التذكير إيذانا بأن كل واحد منهما طامة كبرى وداهية دهياء حقيقة بالتذكير على حيالها ولو روعى الترتيب الوقوعى لربما توهم أن الكل داهية واحدة قد أمر بذكرها كما مر فى قصة البقرة ﴿إلا من شاء الله﴾ أى أن لايفزع قيل هم جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل عليهم السلام وقيل الحور والخزنة وحملة العرش ﴿وكل﴾ أى كل واحد من المبعوثين عند النفخة ﴿أتوه﴾ حضروا الموقف بين يدى رب العزة جل جلاله للسؤال والجواب والمناقشة والحساب وقرىء أتاه باعتبار لفظ الكل كما أن القراءة الأولى باعتبار معناه وقرىء آتوه أى حاضروه ﴿داخرين﴾ أى صاغرين وقرىء دخرين وقوله تعالى:

﴿وترى الجبال﴾ عطف على ينفخ داخل فى حكم التذكير وقوله عز وجل ﴿تحسبها جامدة﴾ أى ثابتة فى أماكنها إما بدل منه أو حال من ضمير ترى أو من مفعوله وقوله تعالى ﴿وهى تمر مر السحاب﴾ حال من ضمير الجبال فى تحسبها أو فى جامدة أى تراها رأى العين ساكنة والحال أنها تمر مر السحاب التى تسيرها الرياح سيرا حثيثا وذلك أن الأجرام العظام إذا تحركت نحو سمت لا تكاد تتبين حركتها وعليه قول من قال:

بأرعن مثل الطود تحسب أنهم وقوف لحاج والركاب تهملج

وقد أدمج فى هذا التشبيه تشبيه حال الجبال بحال السحاب فى تخلخل الأجزاء وانتفاشها كما فى قوله تعالى (وتكون الجبال كالعهن المنفوش) وهذا أيضا مما يقع بعد النفخة الثانية عند حشر الخلق يبدل الله عز وجل الأرض غير الأرض ويغير هيآتها ويسير الجبال عن مقارها على ما ذكر من الهيئة الهائلة ليشاهدها أهل المحشر وهى وإن اندكت وتصدعت عند النفخة الأولى لكن تسييرها وتسوية الأرض إنما يكونان بعد النفخة الثانية كما نطق به قوله تعالى (ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا فيذرها قاعا صفصفا لاترى فيها عوجا ولا أمتا يومئذ يتبعون الداعى) وقوله تعالى (يوم تبدل الأرض

غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار) فإن اتباع الداعي الذي هو إسرافيل عليه السلام وبروز الخلق لله تعالى لايكون إلا بعد النفخة الثانية وقد قالوا فى تفسير قوله تعالى (ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم) إن صيغة الماضي فى المعطوف عليه مستقبلا للدلالة على تقدم الحشر على التسيير والرؤية كأنه قيل وحشرناهم قبل ذلك هذا وقد قيل إن المراد هى النفخة الأولى والفزع هو الذى يستتبع الموت لغاية شدة الهول كما فى قوله تعالى (فصعق من فى السموات ومن فى الأرض) الآية فيختص أثرها بمن كان حيا عند وقوعها دون من مات قبل ذلك من الأمم وجوز أن يراد بالإتيان داخرين رجوعهم إلى أمره تعالى وانقيادهم له ولا ريب فى أن ذلك مما ينبغى أن تنزه ساحة التنزيل عن أمثاله وأبعد من هذا ما قيل إن المراد بهذه النفحة نفخة الفزع التى تكون قبل نفخة الصعق وهى التى أريدت بقوله تعالى (ما ينظر هؤلاء إلاصيحة واحدة مالها من فواق) فيسير الله تعالى عندها الجبال فتمر مر السحاب فتكون سرابا وترج الأرض بأهلها رجا فتكون كالسفينه الموثقة فى البحر أو كالقنديل المعلق ترجحه الأرواح فإنه مما لا ارتباط له بالمقام قطعا والحق الذى لامحيد عنه ماقدمناه ومما هو نص فى الباب ما سيأتى من قوله تعالى (وهم من فزع يومئذ آمنون) ﴿صنع الله﴾ مصدر مؤكد لمضمون ماقبله أى صنع الله ذلك صنعا على أنه عبارة عما ذكر من النفخ فى الصور وما ترتب عليه جميعا قصد به التنبيه على عظم شأن تلك الأفاعيل وتهويل أمرها والإيذان بأنها ليست بطريق إخلال نظام العالم وإفساد أحوال الكائنات بالكلية من غير أن يدعو إليها داعية أو يكون لها عاقبة بل هى من قبيل بدائع صنع الله تعالى المبنية على أساس الحكمة المستتبعة للغايات الجميلة التى لأجلها رتبت مقدمات الخلق ومبادىء الإبداع على الوجه المتين والنهج الرصين كما يعرب عنه قوله تعالى :

﴿الذى أتقن كل شىء﴾ أى أحكم خلقه وسواه على ما تقتضيه الحكمة وقوله تعالى ﴿إنه خبير بما تفعلون﴾ تعليل لكون ما ذكر صنعا محكما له تعالى ببيان أن علمه تعالى بظواهر أفعال المكلفين وبواطنها مما يدعو

إلى إظهارها وبيان كيفياتها على ما هى عليه من الحسن والسوء وترتيب أجزيتها عليها بعد بعثهم وحشرهم وجعل السموات والأرض والجبال على وفق ما نطق به التنزيل ليتحققوا بمشاهدة ذلك أن وعد الله حق لا ريب فيه وقرىء خبير بما يفعلون وقوله تعالى :

﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها ﴾ بيان لما أشير إليه بإحاطة علمه تعالى بأفعالهم من ترتيب أجزيتها عليها أى من جاء منكم أو من أولئك الذين أتوه تعالى بالحسنة فله من الجزاء ما هو خير منها إما باعتبار أنه أضعافها وإما باعتبار دوامه وانقضائها وقيل فله خير حاصل من جهتها وهو الجنة وعن ابن عباس رضى الله عنهما الحسنة كلمة الشهادة ﴿ وهم ﴾ أى الذين جاؤا بالحسنات ﴿ من فزع ﴾ أى عظيم هائل لا يقادر قدره وهو الفزع الحاصل من مشاهدة العذاب بعد تمام المحاسبة وظهور الحسنات والسيئات وهو الذى فى قوله تعالى (لا يحزنهم الفزع الأكبر) وعن الحسن رحمه الله تعالى حين يؤمر بالعبد إلى النار وقال ابن جريج حين يذبح الموت وينادى المنادى يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت .

﴿ يومئذ ﴾ أى يوم إذ ينفخ فى الصور ﴿ آمنون ﴾ لا يعتريهم ذلك الفزع الهائل ولا يلحقهم ضرره أصلا وأما الفزع الذى يعترى كل من فى السموات ومن فى الأرض غير من استثناه الله تعالى فإنما هو التهيب والرعب الحاصل فى ابتداء النفخة من معاينة فنون الدواهى والأهوال ولا يكاد يخلو منه أحد بحكم الجبلة وإن كان آمنا من لحوق الضرر والأمن يستعمل بالجار وبدونه كما فى قوله تعالى (أفأمنوا مكر الله) وقرىء من فزع يومئذ بالإضافة مع كسر الميم وفتحها أيضا والمراد هو الفزع المذكور فى القراءة الأولى لا جميع الأفزاع الحاصلة يومئذ ومدار الإضافة كونه أعظم الأفزاع وأكبرها كأن ما عداه ليس بفزع بالنسبة إليه .

﴿ ومن جاء بالسيئة ﴾ قيل هو الشرك ﴿ فكبت وجوههم فى النار ﴾ أى كبوا فيها على وجوههم منكوسين أو كبت فيها أنفسهم على طريقة (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) ﴿هل تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾ على الالتفات للتشديد

أو على إضمار القول أى مقولا لهم ذلك ﴿ إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها ﴾ أمر عليه الصلاة والسلام أن يقول لهم ذلك بعد ما بين لهم أحوال المبدأ والمعاد وشرح أحوال القيامة تنبيها لهم على أنه قد أتم أمر الدعوة بما لا مزيد عليه ولم يبق له عليه الصلاة والسلام بعد ذلك شأن سوى الاشتغال بعبادة الله عز وجل والاستغراق فى مراقبته غير مبال بهم ضلوا أم رشدوا صلحوا أو فسدوا ليحملهم ذلك على أن يهتموا بأمور أنفسهم ولا يتوهموا من شدة اعتنائه عليه الصلاة والسلام بأمر دعوتهم أنه عليه الصلاة والسلام يظهر لهم مايلجئهم إلى الإيمان لامحالة ويشتغلوا بتدارك أحوالهم ويتوجهوا نحو التدبر فيما شاهدوه من الآيات الباهرة والبلدة هى مكة المعظمة وتخصيصها بالإضافة لتفخيم شأنها وإجلال مكانها والتعرض لتحريمه تعالى إياها تشريف لها بعد تشريف وتعظيم إثر تعظيم مع ما فيه من الإشعار بعلة الأمر وموجب الامتثال به كما فى قوله تعالى (فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) ومن الرمز إلى غاية شناعة ما فعلوا فيها ألا يرى أنهم مع كونها محرمة من أن تنتهك حرمتها باختلاء خلاها وعضد شجرها وتنفير صيدها وإرادة الإلحاد فيها بوجه من الوجوه قد استمروا فيها على تعاطى أفجر أفراد الفجور وأشنع آحاد الإلحاد حيث تركوا عبادة ربها ونصبوا فيها الأوثان وعكفوا على عبادتها قاتلهم الله أنى يؤفكون وقرىء حرمها بالتخفيف وقوله تعالى ﴿ وله كل شىء ﴾ أى خلقا وملكا وتصرفا من غير أن يشاركه شىء فى شىء من ذلك تحقيق للحق وتنبيه على أن إفراد مكة بالإضافة لما ذكر من التفخيم والتشريف مع عموم الربوبية لجميع الموجودات ﴿ وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾ أى أثبت على ما كنت عليه من كونى من جملة الثابتين على ملة الإسلام والتوحيد أى الذين أسلموا وجوههم لله خالصة من قوله تعالى (ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله) ﴿ وأن أتلو القرآن ﴾ أى أواظب على تلاوته لتنكشف لى حقائقه الرائعة المخزونة فى تضاعيفه شيئا فشيئا أو على تلاوته على الناس بطريق

تكرير الدعوة وتثنية الإرشاد فيكون ذلك تنبيها على كفايته فى الهداية والإرشاد من غير حاجة إلى إظهار معجزة أخرى فمعنى قوله تعالى : ﴿ فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ﴾ حينئذ فمن اهتدى بالإيمان به والعمل بما فيه من الشرائع والأحكام وعلى الأول فمن اهتدى باتباعه إياى فيما ذكر من العبادة والإسلام وتلاوة القرآن فإنما منافع اهتدائه عائدة إليه لا إلى ﴿ ومن ضل ﴾ بالكفر به والإعراض عن العمل بما فيه أو بمخالفتى فيما ذكر ﴿فقل﴾ فى حقه ﴿ إنما أنا من المنذرين ﴾ وقد خرجت عن عهدة الإنذار فليس على من وبال ضلاله شىء وإنما هو عليه فقط .

﴿ وقل الحمد لله ﴾ أى على ما أفاض على من نعمائه التى أجلها نعمة النبوة المستتبعة لفنون النعم الدينية والدنيوية ووفقنى لتحمل أعبائها وتبليغ أحكامها إلى كافة الورى بالآيات البينة والبراهين النيرة وقوله تعالى : ﴿ سيريكم آياته ﴾ من جملة الكلام المأمور به أى سيريكم البتة فى الدنيا آياته الباهرة التى نطق بها القرآن كخروج الدابة وسائر الأشراط وقد عد منها وقعة بدر ويأباه قوله تعالى[1] ﴿ فتعرفونها ﴾ أى فتعرفون أنها آيات الله تعالى حين لا تنفعكم المعرفة لأنهم لا يعترفون بكون وقعة بدر كذلك وقيل سيريكم فى الآخرة وقوله تعالى ﴿ وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ كلام مسوق من جهته تعالى بطريق التذييل مقرر لما قبله متضمن للوعد والوعيد كما ينبىء عنه إضافة الرب إلى ضمير النبى عليه الصلاة والسلام وتخصيص الخطاب أولا به عليه الصلاة والسلام وتعميمه ثانيا للكفرة تغليبا أى وما ربك بغافل عما تعمل أنت من الحسنات وما تعملون أنتم أيها الكفرة من السيئات فيجازى كلا منكم بعمله لا محالة وقرىء عما يعملون على الغيبة فهو وعيد محض والمعنى وما ربك بغافل عن أعمالهم فسيعذبهم البتة فلا يحسبوا أن تأخير عذابهم لغفلته تعالى عن أعمالهم الموجبة له والله تعالى أعلم عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة طس كان

---

(١) فى ا ا عز وجل

لله من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق بسليمان وهود وصالح وإبراهيم وشعيب عليهم الصلاة والسلام ومن كذب بهم ويخرج من قبره وهو ينادى لا إله إلا الله .

* * *

سورة القصص

مكية وقيل : إلا قوله (الذين آتيناهم الكتاب) إلى قوله (الجاهلين) وهى ثمان وثمانون آية

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ طسم تلك آيات الكتاب المبين ﴾ قد مر ما يتعلق به من الكلام بالإجمال والتفصيل فى أشباهه ﴿ نتلو عليك ﴾ أى نقرأ بواسطة جبريل عليه السلام ويجوز أن تكون التلاوة مجازا من التنزيل ﴿ من نبأ موسى وفرعون ﴾ مفعول نتلو أى بعض نبئهما ﴿ بالحق ﴾ متعلق بمحذوف هو حال من فاعل نتلو أو من مفعوله أو صفة لمصدره أى نتلو عليك بعض نبئهما ملتبسين أو ملتبسا بالحق أو تلاوة ملتبسة بالحق ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ متعلق بنتلو وتخصيصهم بذلك مع عموم الدعوة والبيان للكل لأنهم المنتفعون به .

عناصر كفر فرعون

﴿ إن فرعون علا فى الأرض ﴾ استئناف جار مجرى التفسير للمجمل الموعود وتصديره بحرف التأكيد للاعتناء بتحقيق مضمون ما بعده أى أنه تجبر وطغا فى أرض مصر وجاوز الحدود المعهودة فى الظلم والعدوان ﴿ وجعل أهلها شيعا ﴾ أى فرقا يشيعونه فى كل ما يريده من الشر والفساد أو يشيع بعضهم بعضا فى طاعته أو أصنافا فى استخدامه يستعمل كل صنف فى عمل ويسخره فيه

من بناء وحرث وحفر وغير ذلك من الأعمال الشاقة ومن لم يستعمله ضرب عليه الجزية أو فرقا مختلفة قد أغرى بينهم العداوة والبغضاء لئلا تتفق كلمتهم ﴿ يستضعف طائفة منهم ﴾ وهم بنو اسرائيل والجملة إما حال من فاعل جعل أو صفة لشيعا أو استئناف وقوله تعالى ﴿ يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم ﴾ بدل منها وكان ذلك لما أن كاهنا قال له يولد فى بنى إسرائيل مولود يذهب ملكك على يده وما ذاك إلا لغاية حمقه إذ لو صدق فما فائدة القتل وإن كذب فما وجهه ﴿ إنه كان من المفسدين ﴾ أى الراسخين فى الإفساد ولذلك اجترأ على مثل تلك العظيمة من قتل المعصومين من أولاد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ﴿ ونريد أن نمن ﴾ أى نتفضل ﴿ على الذين استضعفوا فى الأرض ﴾ على الوجه المذكور بانجائهم من بأسه وصيغة المضارع فى نريد حكاية حال ماضية وهو معطوف على أن فرعون علا الخ لتناسبهما فى الوقوع فى حيز التفسير للنبأ أو حال من يستضعف بتقدير المبتدأ أى يستضعفهم فرعون ونحن نريد أن نمن عليهم وليس من ضرورة مقارنة الإرادة للاستضعاف مقارنة المراد له لما أن تعلق الإرادة للمن تعلق استقبالى على أن منة الله تعالى عليهم بالخلاص لما كانت فى شرف الوقوع جاز إجراؤها مجرى الواقع المقارن له ووضع الموصول موضع الضمير لإبانة قدر النعمة فى المنة بذكر حالتهم السابقة المباينة لها ﴿ ونجعلهم أئمة ﴾ يقتدى بهم فى أمور الدين بعد أن كانوا أتباعا مسخرين لآخرين ﴿ ونجعلهم الوارثين ﴾ لجميع ما كان منتظما فى سلك ملك فرعون وقومه وراثة معهودة فيما بينهم كما ينبىء عنه تعريف الوارثين وتأخير ذكر وراثتهم له عن ذكر جعلهم أئمة مع تقدمها عليه زمانا لانحطاط رتبتها عن الإمامة ولئلا ينفصل عنه ما بعده مع كونه من روادفه أعنى قوله تعالى ﴿ ونمكن لهم فى الأرض ﴾ الخ أى نسلطهم على مصر والشام يتصرفون فيهما كيفما يشاءون وأصل التمكين أن تجعل للشىء مكانا يتمكن فيه ﴿ ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ﴾ أى من أولئك المستضعفين ﴿ ما كانوا يحذرون ﴾ ويجتهدون

فى دفعه من ذهاب ملكهم وهلكهم على يد مولود منهم وقرىء يرى بالياء ورفع ما بعده على الفاعلية .

﴿ وأوحينا إلى أم موسى ﴾ بإلهام أو رؤيا ﴿ أن أرضعيه ﴾ ما أمكنك إخفاؤه ﴿ فاذا خفت عليه ﴾ بأن يحس به الجيران عند بكائه وينموا عليه ﴿ فألقيه فى اليم ﴾ فى البحر وهو النيل ﴿ ولا تخافى ﴾ عليه ضيعة بالغرق ولا شدة ﴿ ولا تحزنى إنا رادوه إليك ﴾ عن قريب بحيث تأمنين عليه ﴿ وجاعلوه من المرسلين ﴾ والجملة تعليل للنهى عن الخوف والحزن وإيثار الجملة الاسمية وتصديرها بحرف التحقيق للاعتناء بتحقيق مضمونها أى انا فاعلون لرده وجعله من المرسلين لا محالة روى أن بعض القوابل الموكلات من قبل فرعون بحبالى بنى إسرائيل كانت مصافية لأم موسى عليه السلام فقالت لها لينفعنى حبك اليوم فعالجتها فلما وقع إلى الأرض هالها نور بين عينيه وارتعش كل مفصل منها ودخل حبه فى قلبها ثم قالت ما جئتك إلا لأقبل مولودك وأخبر فرعون ولكنى وجدت لابنك فى قلبى محبة ما وجدت مثلها لأحد فاحفظيه فلما خرجت جاء عيون فرعون فلفته فى خرقة فألقته فى تنور مسجور لم تعلم ما تصنع لما طاش من عقلها فطلبوا فلم يلقوا شيئاً فخرجوا وهى لاتدرى مكانه فسمعت بكائه من التنور فانطلقت إليه وقد جعل الله تعالى النار عليه برداً وسلاماً فلما ألح فرعون فى طلب الولدان أوحى الله تعالى إليها ما أوحى وقد روى أنها أرضعته ثلاثة أشهر فى تابوت من بردى مطلى بالقار من داخله والفاء فى قوله تعالى ﴿ فالتقطه آل فرعون ﴾ فصيحة مفصحة عن عطفه على جملة مترتبة على ما قبلها من الأمر بالإلقاء قد حذفت تعويلا على دلالة الحال وإيذانا بكمال سرعة الامتثال أى فألقته فى اليم بعد ما جعلته فى التابوت حسبما أمرت به فالتقطه آل فرعون أى أخذوه أخذ اعتناء به وصيانة له عن الضياع قال ابن عباس رضى الله عنهما وغيره كان لفرعون يومئذ بنت لم يكن له ولد غيرها وكانت من أكرم الناس إليه وكان بها برص شديد عجزت الأطباء عن علاجه فقالوا لا تبرأ إلا من قبل البحر يؤخذ منه شبه الإنس يوم كذا وساعة كذا

من شهر كذا حين تشرق الشمس فيؤخذ من ريقه فيلطخ به برصها فتبرأ فلما كان ذلك اليوم غدا فرعون فى مجلس له على شفير النيل ومعه امرأته آسية بنت مزاحم بن عبيد بن الريان بن الوليد الذى كان فرعون مصر فى زمن يوسف الصديق عليه السلام وقيل كانت من بنى اسرائيل من سبط موسى عليه الصلاة والسلام وقيل كانت عمته حكاه السهيلى وأقبلت بنت فرعون فى جواريها حتى جلست على شاطىء النيل فاذا بتابوت فى النيل تضربه الأمواج فتعلق بشجرة فقال فرعون ائتونى به فابتدروا بالسفن فأحضروه بين يديه فعالجوا فتحه فلم يقدروا عليه وقصدوا كسره فأعياهم فنظرت آسية فرأت نورا فى جوف التابوت لم يره غيرها فعالجته ففتحته فاذا هى بصبى صغير فى مهده وإذا نور بين عينيه وهو يمص إبهامه لبنا فألقى الله تعالى محبته فى قلوب القوم وعمدت ابنة فرعون إلى ريقه فلطخت به برصها فبرأت من ساعته وقيل لما نظرت إلى وجهه برأت فقالت الغواة من قوم فرعون إنا نظن أن هذا هو الذى نحذر منه رمى فى البحر فرقا منك فاقتله فهم فرعون بقتله فاستوهبته آسية فتركه كما سيأتى واللام فى قوله تعالى ﴿ ليكون لهم عدوا وحزنا ﴾ لام العاقبة أبرز مدخولها فى معرض العلة لالتقاطهم تشبيها له فى الترتيب عليه بالغرض الحامل عليه وقرىء حزنا وهما لغتان كالسقم والسقم جعل عليه الصلاة والسلام نفس الحزن إيذانا بقوة سببيته لحزنهم .

﴿ إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين ﴾ أى فى كل ما يأتون وما يذرون فلا غرو فى أن قتلوا لأجله ألوفا ثم أخذوه يربونه ليكبر ويفعل بهم ما كانوا يحذرون . روى أنه ذبح فى طلبه عليه الصلاة والسلام تسعون ألف وليد أو كانوا مذنبين فعاقبهم الله تعالى بأن ربى عدوهم على أيديهم فالجملة اعتراضية لتأكيد خطئهم أو لبيان الموجب لما ابتلوا به وقرىء خاطين على أنه تخفيف خاطئين او على أنه بمعنى متعدين الصواب إلى الخطأ ﴿ وقالت امرأة فرعون ﴾ أى لفرعون حين أخرجته من التابوت ﴿ قرة عين لى ولك ﴾ أى هو قرة عين لنا لما أنهما لما رأياه أحباه أو لما ذكر من برء ابنته من البرص

بريقه وفى الحديث أنه قال لك لا لى ولو قال لى كما هو لك لهداه الله تعالى كما هداها ﴿ لا تقتلوه ﴾ خاطبته بلفظ الجمع تعظيما ليساعدها فيما تريده ﴿ عسى أن ينفعنا ﴾ فإن فيه مخايل اليمن ودلائل النجابة وذلك لما رأت فيه من العلامات المذكورة ﴿ أو نتخذه ولدا ﴾ أى نتبناه فانه خليق بذلك ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ حال من آل فرعون والتقدير فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا وقالت امرأته له كيت وكيت وهم لا يشعرون بأنهم على خطأ عظيم فيما صنعوا من الالتقاط ورجاء النفع منه والتبنى له وقوله تعالى إن فرعون الآية اعتراض وقع بين المعطوفين لتأكيد خطئهم ، وقيل : حال من أحد ضميرى نتخذه على أن الضمير للناس أى وهم لا يعلمون أنه لغيرنا وقد تبنيناه ﴿ وأصبح فؤاد أم موسى فارغا ﴾ صفرا من العقل لما دهمها من الخوف والحيرة حين سمعت بوقوعه فى يد فرعون لقوله تعالى (وأفئدتهم هواء) أى خلاء لا عقول فيها ويعضده أنه قرئ فرغا من قولهم دماؤهم بينهم فرغ أى هدر وقيل فارغا من الهم والحزن لغاية وثوقها بوعد الله تعالى أو لسماعها أن فرعون عطف عليه وتبناه وقرئ مؤسى بالهمز إجراء للضمة فى جارة الواو مجرى ضمتها فهمزت كما فى وجوه .

﴿ إن كادت لتبدى به ﴾ أى إنها كادت لتظهر بموسى أى بأمره وقصته من فرط الحيرة والدهشة أو الفرح بتبنيه ﴿ لولا أن ربطنا على قلبها ﴾ بالصبر والثبات ﴿ لتكون من المؤمنين ﴾ أى المصدقين بوعد الله تعالى أو من الواثقين بحفظه لا بتبنى فرعون وتعطفه وهو علة الربط وجواب لولا محذوف لدلالة ما قبله عليه .

﴿ وقالت لأخته ﴾ مريم والتعبير عنها بأخوته عليه الصلاة والسلام دون أن يقال لبنتها للتصريح بمدار المحبة الموجبة للامتثال بالأمر ﴿ قصيه ﴾ أى اتبعى أثره وتتبعى خبره ﴿ فبصرت به ﴾ أى أبصرته ﴿ عن جنب ﴾ عن بعد وقرئ بسكون النون وعن جانب والكل بمعنى ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ أنها تقصه وتتعرف حاله وأنها أخته ﴿ وحرمنا عليه المراضع ﴾ أى معناه أن يرتضع

من المرضعات والمراضع جمع مرضع وهى المرأة التى ترضع أو مرضع وهو الرضاع أو موضعه أعنى الثدى ﴿ من قبل ﴾ أى من قبل قصها أثره ﴿ فقالت ﴾ عند رؤيتها لعدم قبوله الثدى واعتناء فرعون بأمره وطلبهم من يقبل ثديها ﴿ هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم ﴾ أى لأجلكم ﴿ وهم له ناصحون ﴾ لا يقصرون فى إرضاعه وتربيته روى أن هامان لما سمعه منها قال إنها لتعرفه وأهله فخذوها حتى تخبر بحاله فقالت إنما أردت وهم للملك ناصحون فأمرها فرعون بأن تأتى بمن يكفله فأتت بأمه وموسى على يد فرعون يبكى وهو يعلله فدفعه إليها فلما وجد ريحها استأنس والتقم ثديها فقال من أنت منه فقد أبى كل ثدى إلا ثديك فقالت إنى امرأة طيبة الريح طيبة اللبن لا أوتى بصبى إلا قبلنى فقرره فى يدها وأجرى عليها فرجعت إلى بيتها من يومها وذلك قوله تعالى ﴿ فرددناه إلى أمه كى تقر عينها ﴾ بوصول ولدها إليها ﴿ ولا تحزن ﴾ بفراقه ﴿ ولتعلم أن وعد الله ﴾ أى جميع ما وعده من رده وجعله من المرسلين ﴿ حق ﴾ لا خلف فيه بمشاهدة بعضه وقياس بعضه عليه ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ أن الأمر كذلك فيرتابون فيه أو أن الغرض الأصلى من الرد علمها بذلك وما سواه تبع وفيه تعريض بما فرط منها حين سمعت بوقوعه فى يد فرعون

﴿ ولما بلغ أشده ﴾ أى المبلغ الذى لا يزيد عليه نشؤه وذلك من ثلاثين إلى أربعين سنة فإن العقل يكمل حينئذ وروى أنه لم يبعث نبى إلا على رأس الأربعين ﴿ واستوى ﴾ أى اعتدل قده أو عقله ﴿ آتيناه حكما ﴾ أى نبوة ﴿ وعلما ﴾ بالدين أو علم الحكماء والعلماء وسمتهم قبل استنبائه فلا يقول ولا يفعل ما يستجهل فيه وهو أوفق لنظم القصة لأنه تعالى استنبأه بعد الهجرة فى المراجعة ﴿ وكذلك ﴾ ومثل ذلك الذى فعلنا بموسى وأمه ﴿ نجزى المحسنين ﴾ على إحسانهم ﴿ ودخل المدينة ﴾ أى مصر من قصر فرعون وقيل منف أو حابين أو عين شمس من نواحيها ﴿ على حين غفلة من أهلها ﴾ فى وقت لا يعتاد دخولها أو لا يتوقعونه فيه قيل كان وقت القيلولة وقيل بين العشاءين

﴿ فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته ﴾ أى ممن شايعه على دينه وهم بنو إسرائيل ﴿ وهذا من عدوه ﴾ أى من مخالفيه دينا وهم القبط والإشارة على الحكاية ﴿ فاستغاثه الذى من شيعته ﴾ أى سأله أن يغيثه بالإعانة كما ينبىء عنه تعديته بعلى وقرىء استعانه ﴿ على الذى من عدوه فوكزه موسى ﴾ أى ضرب القبطى بجمع كفه وقرىء فلكزه أى فضرب به صدره ﴿ فقضى عليه ﴾ فقتله وأصله أنهى حياته من قوله تعالى (وقضينا إليه ذلك الأمر) ﴿ قال هذا من عمل الشيطان ﴾ لأنه لم يكن مأمورا بقتل الكفار أو لأنه كان مأمونا فيما بينهم فلم يكن له اغتيالهم ولا يقدح ذلك فى عصمته لكونه خطأ وإنما عده من عمل الشيطان وسماه ظلما واستغفر منه جريا على سنن المقربين فى استعظام ما فرط منهم ولو كان من محقرات الصغائر ﴿ إنه عدو مضل مبين ﴾ ظاهر العداوة والاضلال

﴿ قال ﴾ توسيطه بين كلاميه عليه الصلاة والسلام لإبانة ما بينهما من المخالفة من حيث أنه مناجاة ودعاء بخلاف الأول ﴿ رب إنى ظلمت نفسى ﴾ أى بقتله ﴿ فاغفر لى ﴾ ذنبى ﴿ فغفر له ﴾ ذلك ﴿ انه هو الغفور الرحيم ﴾ أى المبالغ فى مغفرة ذنوب عباده ورحمتهم ﴿ قال رب بما أنعمت على ﴾ إما قسم محذوف الجواب أى أقسم بانعامك على بالمغفرة لأتوبن ﴿ فلن أكون ﴾ بعد هذا أبدا ﴿ ظهيرا للمجرمين ﴾ وإما استعطاف أى بحق إنعامك على اعصمنى فلن أكون معينا لمن تؤدى معاونته إلى الجرم وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه عليه الصلاة والسلام لم يستثن فابتلى به مرة أخرى وهذا يؤيد الأول وقيل معناه بما أنعمت على من القوة أعين أولياءك فلن استعملها فى مظاهرة أعدائك ﴿ فأصبح فى المدينة خائفا يترقب ﴾ يترصد الاستقادة أو الأجناد ﴿ فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه ﴾ أى يستغيثه برفع الصوت من الصراخ ﴿ قال له موسى إنك لغوى مبين ﴾ أى بين الغواية تسببت لقتل رجل وتقاتل آخر ﴿ فلما أن أراد ﴾ موسى ﴿ أن يبطش بالذى هو عدو لهما ﴾ أى لموسى وللإسرائيلى إذ لم يكن على دينهما ولأن القبط كانوا

أعداء لبنى إسرائيل على الإطلاق وقرىء يبطش بضم الطاء ﴿ قال ﴾ أى الإسرائيلى ظانا أنه عليه الصلاة والسلام يبطش به حسبما يوهمه تسميته إياه غويا ﴿ يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس ﴾ قالوا لما سمع القبطى قول الإسرائيلى علم أن موسى هو الذى قتل ذلك الفرعونى فانطلق إلى فرعون فأخبره بذلك وأمر فرعون بقتل موسى عليه السلام وقيل قاله القبطى ﴿ إن تريد ﴾ أى ما تريد ﴿ إلا أن تكون جبارا فى الأرض ﴾ وهو الذى يفعل كل ما يريده من الضرب والقتل ولا ينظر فى العواقب وقيل المتعظم الذى لا يتواضع لأمر الله تعالى ﴿ وما تريد أن تكون من المصلحين ﴾ بين الناس بالقول والفعل ﴿ وجاء رجل من أقصى المدينة ﴾ أى كائن من آخرها أو جاء من آخرها ﴿ يسعى ﴾ أى يسرع صفة لرجل أو حال منه على أن الجار والمجرور صفة له لا متعلق بجاء فإن تخصصه يلحقه بالمعارف قيل هو مؤمن آل فرعون واسمه حزقيل وقيل شمعون وقيل شمعان ﴿ قال ياموسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك ﴾ أى يتشاورون بسببك فإن كلا من المتشاورين يأمر الآخرين ويأتمر ﴿ فاخرج ﴾ أى من المدينة ﴿ إنى لك من الناصحين ﴾ اللام للبيان لما أن معمول الصلة لا يتقدمها ﴿ فخرج منها ﴾ أى من المدينة ﴿ خائفا يترقب ﴾ لحوق الطالبين ﴿ قال رب نجنى من القوم الظالمين ﴾ خلصنى منهم واحفظنى من لحوقهم ﴿ ولما توجه تلقاء مدين ﴾ أى نحو مدين وهى قرية شعيب عليه السلام سميت باسم مدين بن ابراهيم ولم تكن تحت سلطان فرعون وكان بينها وبين مصر مسيرة ثمانية أيام

﴿ قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل ﴾ توكلا على الله تعالى وثقة بحسن توفيقه وكان لا يعرف الطرق فعن له ثلاث طرائق فأخذ فى الوسطى وجاء الطلاب فشرعوا فى الأخريين وقيل خرج حافيا لا يعيش إلا بورق الشجر فما وصل حتى سقط خف قدمه وقيل جاء ملك على فرس وبيده عنزة فانطلق به إلى مدين ﴿ ولما ورد ماء مدين ﴾ أى وصل إليه وهو بئر كانوا يسقون منها ﴿ وجد عليه ﴾ أى فوق شفيرها ﴿ أمة ﴾ جماعة كثيفة ﴿ من

الناس يسقون ﴾ أى مواشيهم ﴿ ووجد من دونهم ﴾ أى فى موضع أسفل منهم ﴿ امرأتين تذودان ﴾ أى تمنعان ما معهما من الأغنام عن التقدم إلى البئر كيلا تختلط بأغنامهم مع عدم الفائدة فى التقدم ﴿ قال ﴾ عليه السلام لهما حين رآهما على ماهما عليه من التأخر والذود ﴿ ماخطبكما ﴾ ما شأنكما فيما أتيتما عليه من التأخر والذود ولم لا تباشران السقى كدأب هؤلاء ﴿ قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء ﴾ أى عادتنا أن لا نسقى حتى يصرف الرعاة مواشيهم بعد ريها عن الماء عجزا عن مساجلتهم وحذرا عن مخالطة الرجال لا أنا لانسقى اليوم إلى تلك الغاية وحذف مفعول السقى والذود والإصدار لما أن الغرض هو بيان تلك الأفعال أنفسها إذ هى التى دعت موسى عليه السلام إلى ما صنع فى حقهما من المعروف فإنه عليه الصلاة والسلام إنما رحمهما لكونهما على الذياد للعجز والعفة وكونهم على السقى غير مبالين بهما وما رحمهما لكون مذودهما غنما ومسقيهم إبلا مثلا وقرىء لا نسقى من الإسقاء ويصدر من الصدور والرعاء بضم الراء وهو اسم جمع كالرحال وأما الرعاء فجمع قياسى كصيام وقيام وقوله تعالى :

﴿ وأبونا شيخ كبير ﴾ إبلاء منهما للعذر إليه عليه السلام فى توليهما للسقى بأنفسهما كأنهما قالتا إنا امرأتان ضعيفتان مستورتان لانقدر على مساجلة الرجال ومزاحمتهم وما لنا رجل يقوم بذلك وأبونا شيخ كبير السن قد أضعفه الكبر فلا بد لنا من تأخير السقى إلى أن يقضى الناس أوطارهم من الماء ﴿ فسقى لهما ﴾ رحمة عليهما والكلام فى حذف مفعوله كما مر آنفا وروى أن الرعاة كانوا يضعون على رأس البئر حجرا لا يقله إلا سبعة رجال وقيل عشرة وقيل أربعون وقيل مائة فأقله وحده مع ما كان به من الوصب والجراحة والجوع ولعله عليه الصلاة والسلام زاحمهم فى السقى لهما فوضعوا الحجر على البئر لتعجيزه عليه الصلاة والسلام عن ذلك فإن الظاهر أنه عليه الصلاة والسلام غب ما شاهد حالهما سارع إلى السقى لهما وقد روى أنه دفعهم عن الماء إلى أن سقى لهما وقيل كانت هناك بئر أخرى عليها الصخرة المذكورة وروى

أنه عليه الصلاة والسلام سألهم دلوا من ماء فأعطوه دلوهم وقالوا استق بها وكان لا ينزعها إلا أربعون فاستقى بها وصبها فى الحوض ودعا بالبركة وروى غنمهما وأصدرهما ﴿ ثم تولى إلى الظل ﴾ الذى كان هناك .

﴿ فقال رب إنى لما أنزلت إلى ﴾ أى أى شىء أنزلته إلى ﴿ من خير ﴾ جل أو قل وحمله الأكثرون على الطعام بمعونة المقام ﴿ فقير ﴾ أى محتاج ولتضمنه معنى السؤال والطلب جىء بلام الدعامة لتقوية العمل وقيل المعنى لما أنزلت إلى من خير عظيم هو خير الدارين صرت فقيرا فى الدنيا لأنه كان فى سعة من العيش عند فرعون قاله عليه الصلاة والسلام إظهارا للتبجح والشكر على ذلك ﴿ فجاءته إحداهما ﴾ قيل هى كبراهما واسمها صفوراء أو صفراء وقيل صغراهما واسمها صفيراء أى جاءته عقيب ما رجعتا إلى أبيهما روى أنهما لما رجعتا الى أبيهما قبل الناس وأغنامهما حفل بطان قال لهما ما أعجلكما قالتا وجدنا رجلا صالحا رحمنا فسقى لنا فقال لإحداهما اذهبى فادعيه لى وقوله تعالى ﴿ تمشى ﴾ حال من فاعل جاءت وقوله تعالى ﴿ على استحياء ﴾ متعلق بمحذوف هو حال من ضمير تمشى أى جاءته تمشى كائنة على استحياء فمعناه أنها كانت على حالتى المشى والمجىء معاً لا عند المجىء فقط وتنكير استحياء للتفخيم قيل جاءته متخفرة أى شديدة الحياء وقيل قد استترت بكم درعها ﴿ قالت ﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية مجيئها إياه عليه الصلاة والسلام كأنه قيل فماذا قالت له عليه الصلاة والسلام فقيل قالت ﴿ إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ﴾ أى جزاء سقيك لنا أسندت الدعوة إلى أبيها وعللتها بالجزاء لئلا يوهم كلامها ريبة وفيه من الدلالة على كمال العقل والحياء والعفة ما لا يخفى روى أنه عليه الصلاة والسلام أجابها فانطلقا وهى أمامه فألزقت الريح ثوبها بجسدها فوصفته فقال لها امشى خلفى وانعتى لى الطريق ففعلت حتى أتيا دار شعيب عليهما السلام ﴿ فلما جاءه وقص عليه القصص ﴾ أى ما جرى عليه من الخبر المقصوص فإنه مصدر سمى به المفعول كالعلل .

﴿ قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين ﴾ الذى يلوح من ظاهر النظم الكريم أن موسى عليه السلام إنما أجاب المستدعية من غير تلعثم ليتبرك برؤية شعيب عليه السلام ويستظهر برأيه لا يأخذ بمعروفه أجرا حسبما صرحت به ألا يرى إلى ما روى أن شعيباً لما قدم إليه طعاما قال إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بطلاع الأرض ذهبا ولا نأخذ على المعروف ثمنا ولم يتناول حتى قال شعيب عليه السلام هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا فتناول بعد ذلك على سبيل التقبل لمعروف مبتدأ كيف لا وقد قص عليه قصصه وعرفه أنه من بيت النبوة من أولاد يعقوب عليه السلام ومثله حقيق بأن يضيف ويكرم لا سيما فى دار نبي من أنبياء الله تعالى عليهم الصلاة والسلام وقيل ليس بمستنكر منه عليه الصلاة والسلام أن يقبل الأجر لاضطرار الفقر والفاقة وقد روى عن عطاء بن السائب أنه عليه السلام رفع صوته بدعائه ليسمعها ولذلك قيل له ليجزيك الخ ولعله عليه السلام إنما فعله ليكون ذريعة الى استدعائه لا استيفاء الأجر .

﴿ قالت إحداهما ﴾ وهى التى استدعته إلى أبيها وهى التى زوجها من موسى عليهما السلام ﴿ يا أبت استأجره ﴾ أى لرعى الغنم والقيام بأمرها ﴿ إن خير من استأجرت القوى الأمين ﴾ تعليل جار مجرى الدليل على أنه حقيق بالاستئجار وللمبالغة فى ذلك جعل خير اسما لأن وذكر الفعل على صيغة الماضى للدلالة على أنه أمين مجرب روى أن شعيبا عليه السلام قال لها وما أعلمك بقوته وأمانته فذكرت ما شاهدت منه عليه السلام من إقلال الحجر ونزع الدلو ولو أنه صوب رأسه حتى بلغته رسالته وأمرها بالمشى خلفه ﴿ قال إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ﴾ أى تكون أجيراً لى أو تثيبنى من أجرت كذا إذا أثبته إياه فقوله تعالى ﴿ ثمانى حجج ﴾ على الأول ظرف وعلى الثانى مفعول به على تقدير مضاف أى رعية ثمانى حجج ونقل عن المبرد أنه يقال أجرت دارى وعلوكى غير ممدود وآجرت ممدودا والأول أكثر فعلى هذا يكون المفعول الثانى محذوفا والمعنى على أن تأجرنى نفسك وقوله تعالى ثمانى حجج ظرف كالوجه الأول ﴿ فإن أتممت عشرا ﴾ فى الخدمة

والعمل ﴿فمن عندك﴾ أى فهو من عندك بطريق التفضل لا من عندى بطريق الإلزام عليك وهذا من شعيب عرض لرأيه على موسى عليهما السلام واستدعاء منه للعقد لا إنشاء وتحقيق له بالفعل ﴿وما أريد أن أشق عليك﴾ بالزام إتمام العشر أو المناقشة فى مراعاة الأوقات واستيفاء الأعمال واشتقاق المشقة من الشق فإن ما يصعب عليك يشق عليك اعتقادك فى إطاقته ويوزع رأيك فى مزاولته ﴿ستجدنى إن شاء الله من الصالحين﴾ فى حسن المعاملة ولين الجانب والوفاء بالعهد ومراده عليه الصلاة والسلام بالاستثناء التبرك به وتفويض أمره إلى توفيقه تعالى لا تعليق صلاحه بمشيئته تعالى .

﴿قال ذلك بينى وبينك﴾ مبتدأ وخبر أى ذلك الذى قلته وعاهدتنى فيه وشارطتنى عليه قائم وثابت بيننا جميعا لا يخرج عنه واحد منا لا أنا عما شرطت على ولا أنت عما شرطت على إنفسك وقوله تعالى ﴿أيما الأجلين﴾ أى أكثرهما أو أقصرهما ﴿قضيت﴾ أى وفيتكه بأداء الخدمة فيه ﴿فلا عدوان على﴾ تصريح بالمراد وتقرير لأمر الخيرة أى لا عدوان على بطلب الزيادة على ما قضيته من الأجلين وتعميم انتفاء العدوان لكلا الأجلين بصدد المشارطة مع عدم تحقق العدوان فى أكثرهما رأسا للقصد إلى التسوية بينهما فى الانتفاء أى كما لا أطالب بالزيادة على العشر لا أطالب بالزيادة على الثمان أو أيما الأجلين قضيت فلا اثم على يعنى كما لا إثم على فى قضاء الأكثر لا إثم على فى قضاء الأقصر فقط وقرىء أى الأجلين ما قضيت فما مزيدة لتأكيد القضاء كما أنها فى القراءة الأولى مزيدة لتأكيد إبهام أى وشياعها وقرىء أيما بسكون الياء كقول من قال :

تنظرت نصرا والسماكين أيهما على من الغيث استهلت مواطره

﴿والله على ما نقول﴾ من الشروط الجارية بيننا ﴿وكيل﴾ شاهد وحفيظ فلا سبيل لأحد منا إلى الخروج عنه أصلا وليس ما حكى عنهما عليهما الصلاة والسلام تمام ما جرى بينهما من الكلام فى إنشاء عقد النكاح وعقد الإجارة وإيقاعهما بل هو بيان لما عزما عليه واتفقا على إيقاعه حسبما

يتوقف عليه مساق القصة إجمالا من غير تعرض لبيان مواجب العقدين فى تلك الشريعة تفصيلا روى أنهما لما أتما العقد قال شعيب لموسى عليهما السلام ادخل ذلك البيت فخذ عصا من تلك العصى وكانت عنده عصى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فأخذ عصا هبط بها آدم عليه الصلاة والسلام من الجنة ولم يزل الأنبياء يتوارثونها حتى وقعت إلى شعيب عليه السلام فمسها وكان مكفوفا فضن بها فقال خذ غيرها فما وقع فى يده إلا هى سبع مرات فعلم أن له شأنا وقيل أخذها جبريل عليه السلام بعد موت آدم عليه السلام فكانت معه حتى لقى بها موسى عليه السلام ليلا وقيل أودعها شعيبا ملك فى صورة رجل فأمر بنته أن تأتيه بعصا فأتته بها فردها سبع مرات فلم يقع فى يدها غيرها فدفعها إليه ثم ندم لأنها وديعة فتبعه فاختصما فيها ورضيا أن يحكم بينهما أول طالع فأتاهما الملك فقال ألقياها فمن رفعها فهى له فعالجها الشيخ فلم يطقها ورفعها موسى عليه السلام وعن الحسن رضى الله عنه ما كانت إلا عصا من الشجر اعترضها اعتراضا وعن الكلبى رحمه الله الشجرة التى منها نودى شجرة العوسج ومنها كانت عصاه ولما أصبح قال له شعيب صلوات الله وسلامه عليهما إذا بلغت مفرق الطريق فلا تأخذ على يمينك فإن الكلأ وإن كان بها أكثر إلا أن فيها تنينا أخشاه عليك وعلى الغنم فأخذت الغنم ذات اليمين فلم يقدر على كفها ومشى على أثرها فإذا عشب وريف لم ير مثله فنام فإذا بالتنين قد أقبل فحاربته العصا حتى قتلته وعادت إلى جنب موسى عليه السلام دامية فلما أبصرها دامية والتنين مقتولا ارتاح لذلك ولما رجع إلى شعيب عليهما السلام مس الغنم فوجدها ملأى البطون غزيرة اللبن فأخبره موسى عليه السلام بالشأن ففرح وعلم أن لموسى والعصا شأنا وقال له إنى وهبت لك من نتاج غنمى هذا العام كل أدرع ودرعاء فاوحى إليه فى المنام أن اضرب بعصاك مستقى الغنم ففعل، ثم سقى، فما أخطأت واحده إلا وضعت أدرع ودرعاء فوفى له بشرطه.

والفاء فى قوله تعالى : ﴿ فلما قضى موسى الأجل ﴾ فصيحة ، أى فعقدا العقدين وباشر موسى ما التزمه فلما أتم الأجل ﴿ وسار بأهله ﴾ نحو مصر بإذن من شعيب عليهما السلام روى أنه عليه الصلاة والسلام قضى

أبعد الأجلين ومكث عنده بعد ذلك عشر سنين ثم عزم على العود إلى مصر فاستأذنه فى ذلك فأذن له فخرج بأهله ﴿ آنس من جانب الطور ﴾ أى أبصر من الجهة التى تلى الطور ﴿ نارا قال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر ﴾ أى بخبر الطريق وقد كانوا ضلوه ﴿ أو جذوة ﴾ أى عود غليظ سواء كانت فى رأسه نار أو لا ، قال قائلهم :

باتت حواطب ليلى يلتمسن لها   جزل الجذى غير خوار ولا دعر

وقال :

وألقى على قبس من النار جذوة   شديدا عليها حرها والتهابها

ولذلك بين بقوله تعالى ﴿ من النار ﴾ وقرىء بكسر الجيم وبضمها وكلها لغات ﴿ لعلكم تصطلون ﴾ أى تستدفئون .

﴿ فلما أتاها ﴾ أى النار التى آنسها ﴿ نودى من شاطىء الوادى الأيمن ﴾ أى أتاه النداء من الشاطىء الأيمن بالنسبة إلى موسى عليه السلام ﴿ فى البقعة المباركة ﴾ متصل بالشاطىء أو صلة لنودى ﴿ من الشجرة ﴾ بدل اشتمال من شاطىء لأنها كانت نابتة على الشاطىء ﴿ أن يا موسى إنى أنا الله رب العالمين ﴾ وهذا وإن خالف لفظا لما فى طه والنمل لكنه موافق له فى المعنى المراد ﴿ وأن ألق عصاك ﴾ عطف على أن يا موسى وكلاهما مفسر لنودى والفاء فى قوله تعالى ﴿ فلما رآها تهتز ﴾ فصيحة مفصحة عن جمل قد حذفت تعويلا على دلالة الحال عليها وإشعاراً بغاية سرعة تحقق مدلولاتها أى فألقاها فصارت ثعبانا فاهتزت فلما رآها تهتز ﴿ كأنها جان ﴾ أى فى سرعة الحركة مع غاية عظم جثتها ﴿ ولى مدبرا ﴾ أى منهزما من الخوف ﴿ ولم يعقب ﴾ أى لم يرجع ﴿ يا موسى ﴾ أى قيل يا موسى ﴿ أقبل ولا تخف إنك من الآمنين ﴾ من المخاوف فإنه لا يخاف لدى المرسلون ﴿ أسلك يدك فى جيبك ﴾ أى أدخلها فيه ﴿ تخرج بيضاء من غير سوء ﴾ أى عيب .

﴿ واضمم إليك جناحك ﴾ أى يديك المبسوطتين لتتقى بهما الحية كالخائف الفزع بإدخال اليمنى تحت العضد الأيسر واليسرى تحت الأيمن أو بإدخالهما فى

الجيب فيكون تكريرا لغرض آخر هو أن يكون ذلك فى وجه العدو إظهار جراءة ومبدأ لظهور معجزة ويجوز أن يراد بالضم التجلد والثبات عند انقلاب العصا ثعبانا استعارة من حال الطائر فإنه إذا خاف نشر جناحيه وإذا أمن واطمأن ضمهما إليه ﴿من الرهب﴾ أى من أجل الرهب أى إذا عراك الخوف فافعل ذلك تجلدا وضبطا لنفسك وقرىء بضم الراء وسكون الهاء وبضمهما والكل لغات ﴿فذانك﴾ إشارة إلى العصا واليد وقرىء بتشديد النون فالمخفف مثنى ذاك والمشدد مثنى ذلك ﴿برهانان﴾ حجتان نيرتان وبرهان فعلان لقولهم أبره الرجل إذا جاء بالبرهان من قولهم بره الرجل إذا ابيض ويقال للمرأة البيضاء برهاء وبرهرهة ونظيره تسمية الحجة سلطانا من السليط وهو الزيت لإنارتها وقيل هو فعلال لقولهم برهن ومن فى قوله تعالى ﴿من ربك﴾ متعلقة بمحذوف هو صفة لبرهانان أى كائنان منه تعالى ﴿إلى فرعون وملئه﴾ واصلان ومنتهيان إليهم ﴿انهم كانوا قوما فاسقين﴾ خارجين عن حدود الظلم والعدوان فكانوا أحقاء بأن نرسلك إليهم بهاتين المعجزتين الباهرتين ﴿قال رب إنى قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون﴾ بمقابلتها ﴿وأخى هرون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردءاً﴾ أى معينا وهو فى الأصل اسم ما يعان به كالدفء وقرىء ردا بالتخفيف ﴿يصدقنى﴾ بتلخيص الحق وتقرير الحجة بتوضيحها وتزييف الشبهة ﴿إنى أخاف أن يكذبون﴾ ولسانى لايطاوعنى عند المحاجة وقيل المراد تصديق القوم لتقريره وتوضيحه لكنه أسند إليه إسناد الفعل إلى السبب وقرىء يصدقنى بالجزم على أنه جواب الأمر ﴿قال سنشد عضدك بأخيك﴾ أى سنقويك به فان قوة الشخص بشدة اليد على مزاولة الأمور ولذلك يعبر عنه باليد وشدتها بشدة العضد ﴿ونجعل لكما سلطانا﴾ أى تسلطا وغلبة وقيل حجة وليس بذاك ﴿فلا يصلون اليكما﴾ باستيلاء أو محاجة ﴿بآياتنا﴾ متعلق بمحذوف قد صرح به فى مواضع أخر أى اذهبا بآياتنا أو بنجعل أى نسلطكما بآياتنا أو بمعنى لا يصلون أى تمتنعون منهم بها وقيل هو قسم

وجوابه لا يصلون وقيل هو بيان للغالبون فى قوله تعالى ﴿ أنتما ومن اتبعكما الغالبون ﴾ بمعنى أنه صلة لما يبينه أو صلة له على أن اللام للتعريف لا بمعنى الذى ﴿ فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات ﴾ أى واضحات الدلالة على صحة رسالة موسى عليه السلام منه تعالى والمراد بها العصا واليد إذ هما اللتان أظهرهما موسى عليه السلام إذ ذاك والتعبير عنهما بصيغة الجمع قد مر سره فى سورة طه ﴿ قالوا ما هذا إلا سحر مفترى ﴾ أى سحر مختلق لم يفعل قبل هذا مثله أو سحر تعمله ثم تفتريه على الله تعالى أو سحر موصوف بالافتراء كسائر أصناف السحر ﴿ وما سمعنا بهذا ﴾ أى السحر أو ادعاء النبوة ﴿ فى آبائنا الأولين ﴾ أى واقعا فى أيامهم .

﴿ وقال موسى ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ﴾ يريد به نفسه وقرئ قال بغير واو لأنه جواب عن مقالهم ووجه العطف أن المراد حكاية القولين ليوازن السامع بينهما فيميز صحيحهما من الفاسد ﴿ ومن تكون له عاقبة الدار ﴾ أى العاقبة المحمودة فى الدار وهى الدنيا وعاقبتها الأصلية هى الجنة لأنها خلقت مجازا إلى الآخرة ومزرعة لها والمقصود بالذات منها الثواب وأما العقاب فمن نتائج أعمال العصاة وسيئات الغواة وقرئ يكون بالياء التحتانية ﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾ أى لا يفوزون بمطلوب ولا ينجون عن محذور ﴿ وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى ﴾ قاله اللعين بعد ما جمع السحرة وتصدى للمعارضة فكان من أمرهم ما كان ﴿ فأوقد لى ياهامان على الطين ﴾ أى اصنع آجرا ﴿ فاجعل لى ﴾ منه ﴿ صرحا ﴾ أى قصرا رفيعا ﴿ لعلى أطلع إلى إله موسى ﴾ كأنه توهم أنه لو كان لكان جسما فى السماء يمكن الرقى إليه ثم قال ﴿ وانى لأظنه من الكاذبين ﴾ أو أراد أن يبنى له رصدا يترصد منه أوضاع الكواكب فيرى هل فيها ما يدل على بعثة رسول وتبدل دولته وقيل المراد بنفى العلم نفى المعلوم كما فى قوله تعالى (قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض) فإن معناه بما ليس فيهن وهذا من خواص العلوم الفعلية فإنها لازمة لتحقق معلوماتها فيلزم من انتفائها انتفاء معلوماتها ولا كذلك

العلوم الانفعالية قيل أول من اتخذ الآجر فرعون ولذلك أمر باتخاذه على وجه يتضمن تعليم الصنعة مع ما فيه من تعظم ولذلك نادى هامان باسمه بيا فى وسط الكلام ﴿ واستكبر هو وجنوده فى الأرض ﴾ أرض مصر ﴿ بغير الحق ﴾ بغير استحقاق ﴿ وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون ﴾ بالبعث للجزاء وقرئ بفتح الياء وكسر الجيم من رجع رجوعا والأول من رجع رجعا وهو الانسب بالمقام .

﴿ فأخذناه وجنوده ﴾ عقيب ما بلغوا من الكفر والعتو أقصى الغايات ﴿ فنبذناهم فى اليم ﴾ قد مر تفصيله وفيه من تفخيم شأن الأخذ وتهويله واستحقار المأخوذين المنبوذين مالا يخفى كأنه تعالى أخذهم مع كثرتهم فى كف وطرحهم فى البحر ونظيره قوله تعالى (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه) ﴿ فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ﴾ وبينها للناس ليعتبروا بها ﴿ وجعلناهم ﴾ أى صيرناهم فى عهدهم ﴿ أئمة يدعون ﴾ الناس ﴿ إلى النار ﴾ إلى ما يؤدى إليها من الكفر والمعاصى أى قدوة يقتدى بهم أهل الضلال لما صرفوا اختيارهم إلى تحصيل تلك الحالة وقيل سميناهم أئمة دعاة إلى النار كما فى قوله تعالى (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا) فالأنسب حينئذ أن يكون الجعل بعدهم فيما بين الأمم وتكون الدعوة إلى نفس النار وقيل معنى الجعل منع الألطاف الصارفة عن ذلك ﴿ ويوم القيامة لا ينصرون ﴾ بدفع العذاب عنهم بوجه من الوجوه ﴿ وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ﴾ طردا وإبعادا من الرحمة ولعنا من اللاعنين حيث لا يزال يلعنهم الملائكة عليهم الصلاة والسلام والمؤمنون خلفا عن سلف ﴿ ويوم القيامة هم من المقبوحين ﴾ من المطرودين المبعدين وقبل من الموسومين بعلامة منكرة كزرقة العيون وسواد الوجه قاله ابن عباس رضى الله عنهما يقال قبحه الله وقبحه إذا جعله قبيحا وقال أبو عبيدة من المقبوحين من المهلكين ويوم القيامة إما متعلق بالمقبوحين على أن اللام للتعريف لا بمعنى الذى أو بمحذوف يفسره ذلك كأنه قيل وقبحوا يوم القيامة نحو لعملكم من القالين ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب ﴾ أى التوراة ﴿ من بعد ما أهلكنا القرون الأولى ﴾ هم أقوام نوح وهود وصالح ولوط

عليهم السلام والتعرض لبيان كون إيتائها بعد اهلاكهم للإشعار بمساس الحاجة الداعية إليه تمهيدا لما يعقبه من بيان الحاجة الداعية الى إنزال القرآن الكريم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فان اهلاك القرون الأولى من موجبات اندراس معالم الشرائع وانطماس آثارها وأحكامها المؤديين الى اختلال نظام العالم وفساد أحوال الأمم المستدعيين للتشريع الجديد بتقرير الأصول الباقية على مر الدهور وترتيب الفروع المتبدلة بتبدل العصور وتذكير أحوال الأمم الخالية الموجبة للاعتبار كأنه قيل ولقد آتينا موسى التوراة على حين حاجة الى إيتائها ﴿ بصائر للناس ﴾ أى أنوارا لقلوبهم تبصر الحقائق وتميز بين الحق والباطل حيث كانت عميا عن الفهم والإدراك بالكلية فان البصيرة نور القلب الذى به يستبصر كما أن البصر نور العين الذى به تبصر ﴿ وهدى ﴾ أى هداية الى الشرائع والاحكام التى هى سبل الله تعالى ﴿ ورحمة ﴾ حيث ينال من عمل به رحمة الله تعالى وانتصاب الكل على الحالية من الكتاب على أنه نفس البصائر والهدى والرحمة أو على حذف المضاف أى ذا بصائر الخ وقيل على العلة أى آتيناه الكتاب للبصائر والهدى والرحمة ﴿لعلهم يتذكرون﴾ ليكونوا على حال يرجى منه التذكر وقد مر تحقيق القول فى ذلك عند قوله تعالى لعلكم تتقون من سورة البقرة وقوله تعالى :

﴿ وما كنت بجانب الغربى ﴾ شروع فى بيان أن إنزال القرآن الكريم أيضا واقع فى زمان شدة مساس الحاجة إليه واقتضاء الحكمة له البتة وقد صدر بتحقيق كونه وحيا صادقا من عند الله عز وجل ببيان أن الوقوف على ما فصل من الأحوال لا يتسنى إلا بالمشاهدة أو التعلم ممن شاهدها وحيث انتفى كلاهما تبين أنه بوحى من علام الغيوب لا محالة على طريقة قوله تعالى (وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم) الآية أى وما كنت بجانب الجبل الغربى أو المكان الغربى الذى وقع فيه الميقات على حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه أو الجانب الغربى على إضافة الموصوف الى الصفة كمسجد الجامع ﴿ إذ قضينا الى موسى الأمر ﴾ أى عهدنا إليه وأحكمنا أمر نبوته بالوحى وإيتاء التوراة

﴿ وما كنت من الشاهدين ﴾ أى من جملة الشاهدين للوحى وهم السبعون المختارون للميقات حتى تشاهد ما جرى من أمر موسى فى ميقاته وكتبة التوراة له فى الألواح فتخبره للناس ﴿ ولكنا أنشأنا قرونا ﴾ أى ولكنا خلقنا بين زمانك وزمان موسى قرونا كثيرة ﴿ فتطاول عليهم العمر ﴾ وتمادى الأمد فتغيرت الشرائع والأحكام وعميت عليهم الأنباء لا سيما على آخرهم فاقتضى الحال التشريع الجديد فأوحينا إليك فحذف المستدرك اكتفاء بذكر ما يوجبه ويدل عليه وقوله تعالى ﴿ وما كنت ثاويا فى أهل مدين ﴾ نفى لاحتمال كون معرفته عليه الصلاة والسلام للقصة بالسماع ممن شاهدها أى وما كنت مقيما فى أهل مدين من شعيب والمؤمنين به وقوله تعالى ﴿ تتلو عليهم ﴾ أى تقرأ على أهل مدين بطريق التعلم منهم ﴿ آياتنا ﴾ الناطقة بالقصة إما حال من المستكن فى ثاويا أو خبر ثان لكنت ﴿ ولكنا كنا مرسلين ﴾ اياك وموحين إليك تلك الآيات ونظائرها ﴿ وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ﴾ أى وقت ندائنا موسى (إنى إنى أنا الله رب العالمين) واستنبائنا إياه وإرسالنا له إلى فرعون ﴿ ولكن رحمة من ربك ﴾ أى ولكن أرسلناك بالقرآن الناطق بما ذكر وبغيره لرحمة عظيمة كائنة منا لك وللناس وقيل علمناك وقيل عرفناك ذلك وليس بذاك كما ستعرفه والالتفات إلى اسم الرب للإشعار بعلة الرحمة وتشريفه عليه الصلاة والسلام بالإضافة وقد اكتفى عن ذكر المستدرك ههنا بذكر ما يوجبه من جهته تعالى كما اكتفى عنه فى الأول بذكر ما يوجبه من جهة الناس وصرح به فيما بينهما تنصيصا على ماهو المقصود وإشعارا بأنه المراد فيهما أيضاً ولله در شأن التنزيل وقوله تعالى ﴿ لتنذر قوما ﴾ متعلق بالفعل المعلل بالرحمة فهو ما ذكرنا من إرساله عليه الصلاة والسلام بالقرآن حتما لما أنه المعلل بالإنذار لا تعليم ما ذكر وقرىء رحمة بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف وقوله تعالى ﴿ ما أتاهم من نذير من قبلك ﴾ صفة لقوما أى لم يأتهم نذير لوقوعهم فى فترة بينك وبين عيسى وهى خمسمائة وخمسون سنة أو بينك وبين اسماعيل بناء على أن دعوة موسى وعيسى عليهما السلام كانت مختصة ببنى اسرائيل ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ أى يتعظون

بإنذارك وتغيير الترتيب الوقوعى بين قضاء الأمر والثواء فى أهل مدين والنداء للتنبيه على أن كلا من ذلك برهان مستقل على أن حكايته عليه الصلاة والسلام للقصة بطريق الوحى الإلهى ولو ذكر أولا نفى ثوائه عليه الصلاة والسلام فى أهل مدين ثم نفى حضوره عليه الصلاة والسلام عند النداء ثم نفى حضوره عند قضاء الأمر كما هو الموافق للترتيب الوقوعى لربما توهم أن الكل دليل واحد على ما ذكر كما فى قصة البقرة .

﴿ ولولا أن تصيبهم مصيبة ﴾ أى عقوبة ﴿ بما قدمت أيديهم ﴾ أى بما اقترفوا من الكفر والمعاصى ﴿ فيقولوا ﴾ عطف على تصيبهم داخل فى حيز لولا الامتناعية على أن مدار انتفاء ما يجاب به هو امتناعه لا امتناع المعطوف عليه وإنما ذكره فى حيزها للإيذان بأنه السبب الملجىء لهم الى قولهم ﴿ ربنا لولا أرسلت الينا رسولا ﴾ أى هلا أرسلت إلينا رسولا مؤيدا من عندك بالآيات ﴿ فنتبع آياتك ﴾ الظاهرة على يده وهو جواب لولا الثانية ﴿ ونكون من المؤمنين ﴾ بها وجواب لولا الأولى محذوف ثقة بدلالة الحال عليه والمعنى لولا قولهم هذا عند إصابة عقوبة جناياتهم التى قدموها ما أرسلناك لكن لما كان قولهم ذلك محققا لا محيد عنه أرسلناك قطعا لمعاذيرهم بالكلية ﴿ فلما جاءهم ﴾ أى أهل مكة ﴿ الحق من عندنا ﴾ وهو القرآن المنزل عليه عليه الصلاة والسلام ﴿ قالوا ﴾ تعنتا واقتراحا ﴿ لولا أوتى ﴾ يعنونه عليه الصلاة والسلام ﴿ مثل ما أوتى موسى ﴾ من الكتاب المنزل جملة وأما اليد والعصا فلا تعلق لهما بالمقام كسائر معجزاته عليه الصلاة والسلام وقوله تعالى ﴿ أولم يكفروا بما أوتى موسى من قبل ﴾ رد عليهم وإظهار لكون ما قالوه تعنتا محضا لا طلبا لما يرشدهم الى الحق أى ألم يكفروا من قبل هذا القول بما أوتى موسى من الكتاب كما كفروا بهذا الحق وقوله تعالى ﴿ قالوا ﴾ استئناف مسوق لتقرير كفرهم المستفاد من الإنكار السابق وبيان كيفيته وقوله تعالى ﴿ سحران ﴾ خبر لمبتدأ محذوف أى هما يعنون ما أوتى محمد وما أوتى موسى عليهما السلام سحران ﴿ تظاهرا ﴾ أى تعاونا بتصديق كل واحد منهما الآخر وذلك أنهم بعثوا رهطا منهم لى رؤساء اليهود

فى عيد لهم فسألوهم عن شأنه عليه الصلاة والسلام فقالوا إنا نجده فى التوراة بنعته وصفته فلما رجع الرهط وأخبروهم بما قالت اليهود قالوا ذلك وقوله تعالى ﴿ وقالوا إنا بكل ﴾ أى بكل واحد من الكتابين ﴿ كافرون ﴾ تصريح بكفرهم بهما وتأكيد لكفرهم المفهوم من تسميتهما سحرا وذلك لغاية عتوهم وتماديهم فى الكفر والطغيان وقرىء ساحران تظاهرا يعنون موسى ومحمدا صلى الله عليهما وسلم هذا هو الذى تستدعيه جزالة النظم الجليل فتأمل ودع عنك ما قيل وقيل. ألا ترى الى قوله تعالى ﴿ قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما ﴾ مما أوتياه من التوراة والقرآن وسميتموهما سحرين فانه نص فيما ذكر وقوله تعالى ﴿ اتبعه ﴾ جواب للأمر أى إن تأتوا به أتبعه ومثل هذا الشرط مما يأتى من يدل بوضوح حجته وسنوح محجته لأن الاتيان بما هو أهدى من الكتابين أمر بيّن الاستحالة فيوسع دائرة الكلام للتبكيت والإلحام ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أى فى أنهما سحران مختلقان وفى إيراد كلمة إن مع امتناع صدقهم نوع تهكم بهم ﴿ فإن لم يستجيبوا لك ﴾ أى فإن لم يفعلوا ما كلفتهم من الاتيان بكتاب أهدى منهما كقوله تعالى فإن لم تفعلوا وإنما عبر عنه بالاستجابة إيذاناً بأنه عليه الصلاة والسلام على كمال أمن من أمره كأن أمره عليه الصلاة والسلام لهم بالاتيان بما ذكر دعاء لهم الى أمر يريد وقوعه والاستجابة تتعدى الى الدعاء بنفسه والى الداعى باللام فيحذف الدعاء عند ذلك غالباً ولا يكاد يقال استجاب الله دعاءه ﴿ فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ﴾ الزائغة من غير أن يكون لهم متمسك ما أصلا إذ لو كان لهم ذلك لأتوا به ﴿ ومن أضل ممن اتبع هواه ﴾ استفهام انكارى للنفى أى لا أضل ممن اتبع هواه ﴿ بغير هدى من الله ﴾ أى مر أضل من كل ضال وان كان ظاهر السبك لنفى الأصل لا لنفى المساوى كما هو فى نظائره مراراً وتقييد اتباع الهوى بعدم الهدى من الله تعالى لزيادة التقريع والاشباع فى التشنيع والتضليل والا فقارنته لهدايته تعالى بينة الاستحالة ﴿ إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالانهماك فى اتباع الهوى والإعراض عن الآيات الهادية إلى الحق المبين .

﴿ ولقد وصلنا لهم القول ﴾ وقرىء بالتخفيف أى أنزلنا القرآن عليهم متواصلا بعضه اثر بعض حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة أو متتابعاً وعداً ووعيداً قصصاً وعبراً ومواعظ ونصائح ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ فيؤمنون بما فيه ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله ﴾ أى من قبل إيتاء القرآن ﴿ هم به يؤمنون ﴾ وهم مؤمنو أهل الكتاب وقيل أربعون من أهل الانجيل اثنان وثلاثون جاؤا مع جعفر من الحبشة وثمانية من الشام ﴿ وإذا يتلى ﴾ أى القرآن عليهم ﴿ قالوا آمنا به انه الحق من ربنا ﴾ أى الحق الذى كنا نعرف حقيته وهو استئناف لبيان ما أوجب إيمانهم وقوله تعالى ﴿ إنا كنا من قبله ﴾ أى من قبل نزوله ﴿ مسلمين ﴾ بيان لكون إيمانهم به أمراً متقادم العهد لما شاهدوا ذكره فى الكتب المتقدمة وأنهم على دين الاسلام قبل نزول القرآن ﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بما ذكر من النعوت ﴿ يؤتون أجرهم مرتين ﴾ مرة على إيمانهم بكتابهم ومرة على إيمانهم بالقرآن ﴿ بما صبروا ﴾ بصبرهم وثباتهم على الايمانين أو على الإيمان بالقرآن قبل النزول وبعده أو على أذى من هاجرهم من أهل دينهم ومن المشركين ﴿ ويدرؤن بالحسنة السيئة ﴾ أى يدفعون بالطاعة المعصية لقوله عليه الصلاة والسلام وأتبع السيئة الحسنة تمحها ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ فى سبيل الخير ﴿ وإذا سمعوا اللغو ﴾ من اللاغين ﴿ أعرضوا عنه ﴾ عن اللغو تكرماً كقوله تعالى (وإذا مروا باللغو مروا كراما) .

﴿ وقالوا ﴾ لهم ﴿ لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم ﴾ بطريق المتاركة والتوديع ﴿ لا نبتغى الجاهلين ﴾ لا نطلب صحبتهم ولا نريد مخالطتهم ﴿ إنك لا تهدى ﴾ هداية موصلة إلى البغية لا محالة ﴿ من أحببت ﴾ من الناس ولا تقدر على أن تدخله فى الإسلام وإن بذلت فيه غاية المجهود وجاوزت فى السعى كل حد معهود ﴿ ولكن الله يهدى من يشاء ﴾ أن يهديه فيدخله فى الإسلام ﴿ وهو أعلم بالمهتدين ﴾ بالمستعدين لذلك والجمهور على أنها نزلت فى أبى طالب فإنه لما احتضر جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له ياعم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج بها لك عند الله قال له يا ابن أخى قد علمت إنك لصادق

ولكنى أكره أن يقال خرع عند الموت ولولا أن يكون عليك وعلى بنى أبيك غضاضة بعدى لقلتها ولأقررت بها عينك عند الفراق لما أرى من شدة وجدك ونصيحتك ولكنى سوف أموت على ملة ملة الأشياخ عبد المطلب وهاشم وعبد مناف ﴿ وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا ﴾ نزلت فى الحرث ابن عثمان بن نوفل بن عبد مناف حيث أتى النبى عليه الصلاة والسلام فقال نحن نعلم أنك على الحق ولكنا نخاف إن اتبعناك وخالفنا العرب وإنما نحن أكلة رأس أن يتخطفونا من أرضنا فرد عليهم بقوله تعالى ﴿ أو لم نمكن لهم حرما آمنا ﴾ أى ألم نعصمهم ولم نجعل مكانهم حرما ذا أمن لحرمة البيت الحرام الذى تتناحر العرب حوله وهم آمنون ﴿ يجبى إليه ﴾ وقرىء تجبى أى يجمع ويحمل إليه ﴿ ثمرات كل شىء ﴾ من كل أوب والجملة صفة أخرى لحرما دافعة لما عسى يتوهم من تضررهم بانقطاع الميرة ﴿ رزقا من لدنا ﴾ فاذا كان حالهم ما ذكر وهم عبدة أصنام فكيف يخافون التخطف إذا ضموا إلى حرمة البيت حرمة التوحيد ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ أى جهلة لا يتفطنون له ولا يتفكرون ليعلموا ذلك وقيل هو متعلق بقوله تعالى من لدنا أى قليل منهم يتدبرون فيعلمون أن ذلك رزق من عند الله تعالى إذ لو علموا لما خافوا غيره وانتصاب رزقا على أنه مصدر مؤكد لمعنى تجبى أو حال من ثمرات على أنه بمعنى مرزوق لتخصصها بالإضافة ثم بين أن الأمر بالعكس وأنهم أحقاء بأن يخافوا بأس الله تعالى بقوله :

﴿ وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها ﴾ أى وكثير من أهل قرية كانت حالهم كحال هؤلاء فى الأمن وخفض العيش والدعة حتى أشروا فدمرنا عليهم وخربنا ديارهم ﴿ فتلك مساكنهم ﴾ خاوية بما ظلموا ﴿ لم تسكن من بعدهم ﴾ من بعد تدميرهم ﴿ إلا قليلا ﴾ أى إلا زمانا قليلا إذ لا يسكنها إلا المارة يوما أو بعض يوم أو لم يبق من يسكنها إلا قليلا من شؤم معاصيهم ﴿ وكنا نحن الوارثين ﴾ منهم إذ لم يخلفهم أحد يتصرف تصرفهم فى ديارهم وسائر ذات أيديهم وانتصاب معيشتها بنزع الخافض أو بجعلها ظرفا بنفسها كقولك زيد ظنى

مقيم أو باضمار زمان مضاف إليه أو بجعله مفعولا لبطرت بتضمين معنى كفرت ﴿ وما كان ربك مهلك القرى ﴾ بيان للعناية الربانية اثر بيان إهلاك القرى المذكورة أى وما صح وما استقام بل استحال فى سنته المبنية على الحكم البالغة أو ما كان فى حكمه الماضى وقضائه السابق أن يهلك القرى قبل الإنذار بل كانت عادته أن لا يهلكها ﴿ حتى يبعث فى أمها ﴾ أى فى أصلها وقصبتها التى هى أعمالها وتوابعها لكون أهلها أفطن وأنبل ﴿ رسولا يتلو عليهم آياتنا ﴾ الناطقة بالحق ويدعوهم إليه بالترغيب والترهيب وذلك لالزام الحجة وقطع المعذرة بأن يقولوا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك والالتفات إلى نون العظمة لتربية المهابة وإدخال الروعة وقوله تعالى ﴿ وما كنا مهلكى القرى ﴾ عطف على ما كان ربك وقوله تعالى ﴿ الا وأهلها ظالمون ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال أى وما كنا مهلكين لأهل القرى بعد ما بعثنا فى أمها رسولا يدعوهم إلى الحق ويرشدهم إليه فى حال من الأحوال إلا حال كونهم ظالمين بتكذيب رسولنا والكفر بآياتنا فالبعث غاية لعدم صحة الاهلاك بموجب السنة الإلهية لا لعدم وقوعه حتى يلزم تحقق الاهلاك عقيب البعث وقد مر تحقيقه فى سورة بنى اسرائيل.

﴿ وما أوتيتم من شىء ﴾ من أمور الدنيا ﴿ فمتاع الحياة الدنيا وزينتها ﴾ أى فهو شىء شأنه أن يتمتع ويتزين به أياما قلائل ﴿ وما عند الله ﴾ وهو الثواب ﴿ خير ﴾ فى نفسه من ذلك لأنه لذة خالصة عن شوائب الألم وبهجة كاملة عارية عن سمة الهم ﴿ وأبقى ﴾ لأنه أبدى ﴿ أفلا تعقلون ﴾ ألا تتفكرون فلا تعقلون هذا الأمر الواضح فتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير وقرىء بالياء على الالتفات المبنى على اقتضاء سوء صنيعهم الاعراض عن مخاطبتهم ﴿ أفمن وعدناه وعدا حسنا ﴾ أى وعدا بالجنة فإن حسن الوعد بحسن الموعود ﴿ فهو لاقيه ﴾ أى مدركه لا محالة لاستحالة الخلف فى وعده تعالى ولذلك جىء بالجملة الإسمية المفيدة لتحققه البتة وعطفت بالفاء المنبئة عن معنى السببية ﴿ كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ﴾ الذى هو مشوب بالآلام منغص بالأكدار مستتبع للتحسر على الانقطاع ومعنى الفاء الأولى ترتيب إنكار التشابه بين أهل

الدنيا وأهل الآخرة على ما قبلها من ظهور التفاوت بين متاع الحياة الدنيا وبين ما عند الله تعالى أى أبعد هذا التفاوت الظاهر يسوى بين الفريقين وقوله تعالى ﴿ ثم هو يوم القيامة من المحضرين ﴾ عطف على متعناه داخل معه فى حيز الصلة مؤكد لإنكار التشابه ومقرر له كأنه قيل كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم نحضره أو أحضرناه يوم القيامة النار أو العذاب وإيثار الجملة الاسمية للدلالة على التحقق حتما وفى جعله من جملة المحضرين من التهويل مالا يخفى وثم للتراخى فى الزمان أو فى الرتبة وقرىء ثم هو بسكون الهاء تشبيها للمنفصل بالمتصل ﴿ ويوم يناديهم ﴾ منصوب بالعطف على يوم القيامة لاختلافهما عنوانا وإن اتحدا ذاتا أو بإضمار اذكر ﴿ فيقول ﴾ تفسير للنداء ﴿ أين شركائى الذين كنتم تزعمون ﴾ أى الذين كنتم تزعمونهم شركائى فحذف المفعولان معا ثقة بدلالة الكلام عليهما .

﴿ قال ﴾ استئناف مبنى على حكاية السؤال كأنه قيل فماذا صدر عنهم حينئذ فقيل قال ﴿ الذين حق عليهم القول ﴾ وهم شركاؤهم من الشياطين أو رؤساؤهم الذين اتخذوهم أربابا من دون الله تعالى بأن أطاعوهم فى كل ما أمروهم به ونهوا عنه ومعنى حق عليهم القول أنه ثبت مقتضاه وتحقق مؤداه وهو قوله تعالى (لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) وغيره من آيات الوعيد وتخصيصهم بهذا الحكم مع شموله للإتباع أيضاً لأصالتهم فى الكفر واستحقاق العذاب حسبما يشعر به قوله تعالى(لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم) ومسارعتهم إلى الجواب مع كون السؤال للعبدة إما لتفطنهم أن السؤال عنهم لاستحضارهم وتوبيخهم بالإضلال وجزمهم بأن العبدة سيقولون هؤلاء أضلونا وإما لأن العبدة قد قالوه اعتذاراً وهؤلاء إنما قالوا ما قالوا رداً لقولهم إلا أنه لم يحك قول العبدة إيجازا لظهوره ﴿ ربنا هؤلاء الذين أغوينا ﴾ أى هم الذين أغويناهم فحذف الراجع إلى الموصول ومرادهم بالإشارة بيان أنهم يقولون ما يقولون بمحضر منهم وأنهم غير قادرين على إنكاره ورده وقوله تعالى ﴿ أغويناهم كما غوينا ﴾ هو الجواب حقيقة وماقبله تمهيد له أى ما أكرهناهم على الغى وإنما أغويناهم بطريق الوسوسة

والتسويل لا بالقسر والإلجاء فغووا باختيارهم غيا مثل غينا باختيارنا ويجوز أن يكون الذين صفة لاسم الإشارة وأغويناهم الخبر ﴿ تبرأنا إليك ﴾ ومنهم ومما اختاروه من الكفر والمعاصي هو منهم وهو تقرير لما قبله ولذلك لم يعطف عليه وكذا قوله تعالى ﴿ ما كانوا إيانا يعبدون ﴾ أي ما كانوا يعبدوننا وإنما كانوا يعبدون أهواءهم وقيل ما مصدرية متصلة بقوله تعالى تبرأنا أي تبرأنا من عبادتهم إيانا ﴿ وقيل ادعوا شركاءكم ﴾ إما تهكما بهم أو تبكيتا لهم .

﴿ فدعوهم ﴾ لفرط الحيرة ﴿ فلم يستجيبوا لهم ﴾ ضرورة عدم قدرتهم على الاستجابة والنصرة ﴿ ورأوا العذاب ﴾ قد غشيهم ﴿ لو أنهم كانوا يهتدون ﴾ لوجه من وجوه الحيل يدفعون به العذاب أو إلى الحق لما لقوا ما لقوا وقيل « لو » للتمني أي تمنوا لو أنهم كانوا مهتدين .

﴿ ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين ﴾ عطف على ما قبله سئلوا أولا عن إشراكهم وثانيا عن جوابهم للرسل الذين نهوهم عن ذلك ﴿ فعميت عليهم الأنباء يومئذ ﴾ أي صارت كالعمى عنهم لا تهتدي إليهم وأصله فعموا عن الأنباء وقد عكس للمبالغة والتنبيه على أن ما يحضر الذهن يفيض عليه ويصل إليه من خارج فإذا أخطأ لم يكن له حيلة إلى استحضارة وتعدية الفعل بعلى لتضمنه معنى الخفاء والاشتباه والمراد بالأنباء إما ما طلب منهم مما أجابوا به الرسل أو جميع الأنباء وهي داخلة فيه دخولا أوليا وإذا كانت الرسل عليهم الصلاة والسلام يفوضون العلم في ذلك المقام الهائل إلى علام الغيوب مع نزاهتهم عن غائلة المسؤل فما ظنك بأولئك الضلال من الأمم ﴿ فهم لا يتساءلون ﴾ لا يسأل بعضهم بعضا عن الجواب لفرط الدهشة أو العلم بأن الكل سواء في الجهل ﴿ فأما من تاب ﴾ من الشرك ﴿ وآمن وعمل صالحا ﴾ أي جمع بين الإيمان والعمل الصالح ﴿ فعسى أن يكون من المفلحين ﴾ أي الفائزين بالمطلوب عنده تعالى الناجين عن المهروب وعسى للتحقيق على عادة الكرام أو للترجي من قبل التائب بمعنى فليتوقع الإفلاح ﴿ وربك يخلق ما يشاء ﴾ أن يخلقه ﴿ ويختار ﴾ ما يشاء اختياره من غير إيجاب عليه ولا منع له أصلا ﴿ ما كان لهم الخيرة ﴾ أي التخير كالطيرة بمعنى التطير والمراد نفي الاختيار المؤثر عنهم

وذلك مما لا ريب فيه وقيل المراد أنه ليس لأحد من خلقه أن يختار عليه ولذلك خلا عن العاطف ويؤيده ما روى أنه نزل فى قول الوليد ابن المغيرة (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) والمعنى لا يبعث الله تعالى الرسل باختيار المرسل إليهم وقيل معناه ويختار الذى كان لهم فيه الخير والصلاح ﴿ سبحان الله ﴾ أى تنزه بذاته تنزها خاصا به من أن ينازعه أحد أو يزاحم اختياره اختيار ﴿ وتعالى عما يشركون ﴾ عن إشراكهم أو عن مشاركة ما يشركونه به ﴿ وربك يعلم ما تكن صدورهم ﴾ كعداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحقده ﴿ وما يعلنون ﴾ كالطعن فيه ﴿ وهو الله ﴾ أى المستحق للعبادة ﴿ لا إله إلا هو ﴾ لا أحد يستحقها إلا هو ﴿ له الحمد فى الأولى والآخرة ﴾ لأنه المولى للنعم كلها عاجلها وآجلها على الخلق كافة يحمده المؤمنون فى الآخرة كما حمدوه فى الدنيا بقولهم الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن الحمد لله الذى صدقنا وعده ابتهاجا بفضله والتذاذا بحمده ﴿ وله الحكم ﴾ أى القضاء النافذ فى كل شىء من غير مشاركة فيه لغيره ﴿ وإليه ترجعون ﴾ بالبعث لا إلى غيره .

﴿ قل ﴾ تقريرا لما ذكر ﴿ أرأيتم ﴾ أى أخبرونى ﴿ إن جعل الله عليكم الليل سرمدا ﴾ دائما من السرد وهو المتابعة والإطراد والميم مزيدة كما فى دلامص من الدلاص يقال درع دلاص أى ملساء لينة ﴿ إلى يوم القيامة ﴾ بإسكان الشمس تحت الأرض أو تحريكها حول الأفق الغائر ﴿ من إله غير الله ﴾ صفة لإله ﴿ يأتيكم بضياء ﴾ صفة أخرى له عليها يدور أمر التبكيت والإلزام كما فى قوله تعالى (قل من يرزقكم من السماء والأرض) وقوله تعالى (فمن يأتيكم بماء معين) ونظائرهما خلا أنه قصد بيان انتفاء الموصوف بانتفاء الصفة ولم يقل هل إله الخ لإيراد التبكيت والإلزام على زعمهم وقرىء بضئاء بهمزتين ﴿ أفلا تسمعون ﴾ هذا الكلام الحق سماع تدبر واستبصار حتى تذعنوا له وتعملوا بموجبه ﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة ﴾ بإسكانها فى وسط السماء أو بتحريكها على مدار فوق الأفق ﴿ من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه ﴾ استراحة من متاعب الأشغال ولعل تجريد الضياء عن ذكر

منافعه لكونه مقصودا بذاته ظاهر الاستتباع لما نيط به من المنافع ﴿ أفلا تبصرون ﴾ هذه المنفعة الظاهرة التى لا تخفى على من له بصر .

﴿ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ﴾ أى فى الليل ﴿ ولتبتغوا من فضله ﴾ فى النهار بأنواع المكاسب ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ ولكى تشكروا نعمته تعالى فعل ما فعل أو لكى تعرفوا نعمته تعالى وتشكروه عليها ﴿ ويوم يناديهم ﴾ منصوب باذكر ﴿ فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون ﴾ تقريع إثر تقريع للإشعار بأنه لا شىء أجلب لغضب الله عز وجل من الإشراك كما لا شىء أدخل فى مرضاته من توحيده سبحانه وقوله تعالى ﴿ ونزعنا ﴾ عطف على يناديهم وصيغة الماضى للدلالة على التحقق أو حال من فاعله بإضمار قد والالتفات إلى نون العظمة لإبراز كمال الاعتناء بشأن النزع وتهويله أى أخرجنا ﴿ من كل أمة ﴾ من الأمم ﴿ شهيداً ﴾ نبيا يشهد عليهم بما كانوا عليه كقوله تعالى (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد) ﴿ فقلنا ﴾ لكل أمة من تلك الأمم ﴿ هاتوا برهانكم ﴾ على صحة ما كنتم تدينون به ﴿ فعلموا ﴾ يومئذ ﴿ أن الحق لله ﴾ فى الإلهية لا يشاركه فيها أحد ﴿ وضل عنهم ﴾ أى غاب عنهم غيبة الضائع ﴿ ما كانوا يفترون ﴾ فى الدنيا من الباطل .

موسى وقارون

﴿ إن قارون كان من قوم موسى ﴾ كان ابن عمه يصهر بن قاهث بن لاوى ابن يعقوب عليه السلام وموسى عليه السلام ابن عمران بن قاهث وقيل كان موسى عليه السلام ابن أخيه وكان يسمى المنور لحسن صورته وقيل كان أقرأ بنى اسرائيل للتوراة ولكنه نافق كما نافق السامرى وقال إذا كانت النبوة لموسى والمذبح والقربان لهرون فمالى وروى أنه لما جاوز بهم موسى عليه السلام البحر وصارت الرسالة والحبورة والقربان لهرون وجد قارون فى نفسه وحسدهما فقال لموسى الأمر لكما ولست على شىء إلى متى أصبر قال موسى عليه السلام هذا صنيع الله تعالى قال لا أصدقك حتى تأتى بآية فأمر رؤساء بنى اسرائيل أن

يجىء كل واحد بعصاة فحزمها وألقاها فى القبة التى كان الوحى ينزل إليه فيها فكانوا يحرسون عصيهم بالليل فأصبحوا فإذا بعصا هرون تهتز ولها ورق أخضر فقال قارون ما هو بأعجب مما تصنع من السحر وذلك قوله تعالى ﴿فبغى عليهم﴾ فطلب الفضل عليهم وأن يكونوا تحت أمره أو ظلمهم قيل وذلك حين ملكه فرعون على بنى إسرائيل وقيل حسدهم وذلك ماذكر منه فى حق موسى وهرون عليهما السلام ﴿وآتيناه من الكنوز﴾ أى الأموال المدخرة ﴿ما إن مفاتحه﴾ أى مفاتح صناديقه وهو جمع مفتح بالكسر وهو ما يفتح به وقيل خزائنه وقياس واحدها المفتح بالفتح ﴿لتنوء بالعصبة أولى القوة﴾ خبر ان والجملة صلة ماوهو ثانى مفعولى آتى وناء به الحمل إذا أثقله حتى أماله والعصبة والعصابة الجماعة الكثيرة وقرىء لينوء بالياء على إعطاء المضاف حكم المضاف إليه كما مر فى قوله تعالى (إن رحمة الله قريب من المحسنين) ﴿إذ قال له قومه﴾ منصوب بتنوء وقيل ببغى ورد بأن البغى ليس مقيداً بذلك الوقت وقيل بآتيناه ورد بأن الإيتاء أيضاً غير مقيد به وقيل بمضمر فقيل هو اذكر وقيل هو أظهر الفرح ويجوز أن يكون منصوبا بما بعده من قوله تعالى قال إنما أوتيته وتكون الجملة مقررة لبغيه ﴿لا تفرح﴾ أى لا تبطر والفرح فى الدنيا مذموم مطلقا لأنه نتيجة حبها والرضا بها والذهول عن ذهابها فإن العلم بأن ما فيها من اللذة مفارقه لا محالة يوجب الترح حتما ولذلك قال تعالى (ولا تفرحوا بما آتاكم) وعلل النهى ههنا بكونه مانعا من محبته عز وعلا فقيل ﴿إن الله لا يحب الفرحين﴾ أى بزخارف الدنيا .

﴿وابتغ﴾ وقرىء واتبع ﴿فيما آتاك الله﴾ من الغنى ﴿الدار الآخرة﴾ أى ثواب الله تعالى فيها يصرفه إلى مايكون وسيلة إليه ﴿ولا تنس﴾ أى لا تترك ترك المنسى ﴿نصيبك من الدنيا﴾ وهو أن تحصل بها آخرتك وتأخذ منها ما يكفيك ﴿وأحسن﴾ أى إلى عباد الله تعالى ﴿كما أحسن الله إليك﴾ فيما أنعم به عليك وقيل أحسن بالشكر والطاعة كما أحسن الله إليك بالإنعام ﴿ولا تبغ الفساد فى الأرض﴾ نهى عما كان عليه من الظلم والبغى ﴿إن الله لا يحب

المفسدين﴾ لسوء أفعالهم ﴿قال﴾ مجيبا لناصحيه ﴿إنما أوتيته على علم عندى﴾ كأنه يريد به الرد على قولهم كما أحسن الله إليك لانبائه عن أنه تعالى أنعم عليه بتلك الأموال والذخائر من غير سبب واستحقاق من قبله أى فضلت به على الناس واستوجبت به التفوق عليهم بالمال والجاه وعلى علم فى موقع الحال وهو علم التوراة وكان أعلم بها وقيل علم الكيمياء وقيل علم التجارة والدهقنة وسائر المكاسب وقيل علم الكنوز والدفائن وعندى صفة له أو متعلق بأوتيته كقولك جاز هذا عندى أو فى ظنى ورأيى ﴿أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا﴾ توبيخ له من جهة الله تعالى على اغتراره بقوته وكثرة ماله مع علمه بذلك قراءة فى التوراة وتلقيا من موسى عليه السلام وسماعا من حفاظ التواريخ وتعجب منه فالمعنى ألم يقرأ التوراة ولم يعلم ما فعل الله تعالى بأضرابه من أهل القرون السابقة حتى لا يغتر بما اغتروا به أو رد لادعائه العلم وتعظمه به بنفى هذا العلم منه فالمعنى اعلم منه فالمعنى اعلم ما ادعاه ولم يعلم هذا حتى يقى به نفسه مصارع الهالكين.

﴿ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون﴾ سؤال استعلام بل يعذبون بها بغتة كأن قارون لما هدد بذكر إهلاك من قبله ممن كان أقوى منه وأغنى أكد ذلك بأن بين أن ذلك لم يكن مما يخص أولئك المهلكين بل الله تعالى مطلع على ذنوب كافة المجرمين يعاقبهم عليها لا محالة ﴿فخرج على قومه﴾ عطف على قال وما بينهما اعتراض وقوله تعالى ﴿فى زينته﴾ إما متعلق بخرج أو بمحذوف هو حال من فاعله أى فخرج عليهم كائنا فى زينته قيل خرج على بغلة شهباء عليه الأرجوان وعليها سرج من ذهب ومعه أربعة آلاف على زيه وقيل عليهم وعلى خيولهم الديباج الأحمر وعن يمينه ثلاثمائة غلام وعن يساره ثلاثمائة جارية بيض عليهن الحلى والديباج وقيل فى تسعين ألفا عليهن المعصفرات وهو أول يوم رئى فيه المعصفر ﴿قال الذين يريدون الحياة الدنيا﴾ من المؤمنين جريا على سنن الجبلة البشرية من الرغبة فى السعة واليسار ﴿ياليت لنا مثل ما أوتى قارون﴾ وعن قتادة أنهم تمنوه ليتقربوا به إلى الله تعالى وينفقوه فى سبل الخير وقيل كان المتمنون قوما كفارا ﴿إنه لذو حظ عظيم﴾ تعليل لتمنيهم وتأكيد له.

﴿ وقال الذين أوتوا العلم ﴾ أى بأحوال الدنيا والآخرة كما ينبغى وإنما لم يوصفوا بإرادة ثواب الآخرة تنبيها على أن العلم بأحوال النشأتين يقتضى الإعراض عن الأولى والإقبال على الثانية حتما وأن تمنى المتمنين ليس إلا لعدم علمهم بهما كما ينبغى ﴿ ويلكم ﴾ دعاء بالهلاك شاع استعماله فى الزجر عما لا يرتضى ﴿ ثواب الله ﴾ فى الآخرة ﴿ خير ﴾ مما تتمنونه ﴿ لمن آمن وعمل صالحا ﴾ فلا يليق بكم أن تتمنوه غير مكتفين بثوابه تعالى ﴿ ولا يلقاها ﴾ أى هذه الكلمة التى تكلم بها العلماء أو الثواب فإنه بمعنى المثوبة أو الجنة أو الإيمان والعمل الصالح فإنهما فى معنى السيرة والطريقة ﴿ إلا الصابرون ﴾ أى على الطاعات وعن الشهوات .

﴿ فخسفنا به وبداره الأرض ﴾ روى أنه كان يؤذى موسى عليه السلام كل وقت وهو يداريه لقرابته حتى نزلت الزكاة فصالحه عن كل ألف على واحد فحسبه فاستكثره فعمد إلى أن يفضح موسى عليه السلام بين بنى إسرائيل فجعل لبغى من بغايا بنى إسرائيل ألف دينار وقيل طشتا من ذهب مملوءة ذهبا فلما كان يوم عيد قام موسى عليه السلام خطيبا فقال من سرق قطعناه ومن زنى غير محصن جلدناه ومن زنى محصنا رجمناه فقال قارون ولو كنت قال ولو كنت قال إن بنى إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة فأحضرت فناشدها عليه السلام أن تصدق فقالت جعل لى قارون جعلا على أن أرميك بنفسى فخر موسى ساجداً لربه يبكى ويقول يا رب إن كنت رسولك فاغضب لى فأوحى إليه أن مر الأرض بما شئت فإنها مطيعة لك فقال يا بنى إسرائيل إن الله بعثنى إلى قارون كما بعثنى إلى فرعون فمن كان معه فليلزم مكانه ومن كان معى فليعتزل عنه فاعتزلوا جميعا غير رجلين ثم قال يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى الركب ثم قال خذيهم فأخذتهم إلى الأوساط ثم قال خذيهم فأخذتهم إلى الأعناق وهم يناشدونه عليه الصلاة والسلام بالله تعالى وبالرحم وهو لا يلتفت إليهم لشدة غيظه ثم قال خذيهم فانطبقت عليهم فأصبحت بنو إسرائيل يتناجون فيما بينهم إنما دعا عليه موسى عليه الصلاة والسلام ليستبد بداره وكنوزه فدعا الله تعالى حتى خسف

بداره وأمواله ﴿فما كان له من فئة﴾ جماعة مشفقة ﴿ينصرونه من دون الله﴾ بدفع العذاب عنه ﴿وما كان من المنتصرين﴾ أى الممتنعين منه بوجه من الوجوه يقال نصره من عدوه فانتصر أى منعه فامتنع ﴿وأصبح الذين تمنوا مكانه﴾ منزلته ﴿بالأمس﴾ منذ زمان قريب ﴿يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر﴾ أى يفعل كل واحد من البسط والقدر بمحض مشيئته لا لكرامة توجب البسط ولا لهوان يقتضى القبض وويكأن عند البصريين مركب من وى للتعجب وكأن للتشبيه والمعنى ما أشبه الأمر أن الله يبسط الخ وعند الكوفيين من ويك بمعنى ويلك وأن وتقديره ويك اعلم أن الله وإنما يستعمل عند التنبه على الخطأ والتندم والمعنى أنهم قد تنبهوا على خطئهم فى تمنيهم وتندموا على ذلك .

﴿لولا أن من الله علينا﴾ بعدم إعطائه إيانا ماتمنيناه وإعطائنا مثل ماأعطاه إياه وقرىء لولا من الله علينا ﴿لخسف بنا﴾ كما خسف به وقرىء لخسف بنا على البناء للمفعول وبنا هو القائم مقام الفاعل وقرىء لا نخسف بنا كقولك انقطع به وقرىء لتخسف بنا ﴿ويكأن لا يفلح الكافرون﴾ لنعمة الله تعالى أو المكذبون برسله وبما وعدوا من ثواب الآخرة ﴿تلك الدار الآخرة﴾ إشارة تعظيم وتفخيم كأنه قيل تلك التى سمعت خبرها وبلغك وصفها ﴿نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض﴾ أى غلبة وتسلطا ﴿ولا فسادا﴾ أى ظلما وعدوانا على العباد كدأب فرعون وقارون وفى تعليق الموعد بترك إرادتهما لا بترك أنفسهما مزيد تحذير منهما وعن على رضى الله عنه أن الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه فيدخل تحتها ﴿والعاقبة﴾ الحميدة ﴿للمتقين﴾ أى الذين يتقون ما لا يرضاه الله من الأفعال والأقوال ﴿من جاء بالحسنة فله﴾ بمقابلتها ﴿خير منها﴾ ذاتا ووصفا وقدرا ﴿ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات﴾ وضع فيه الموصول والظاهر موضع الضمير لتهجين حالهم بتكرير إسناد السيئة إليهم ﴿إلا ما كانوا يعملون﴾ أى إلا مثل ما كانوا يعملون فحذف المثل وأقيم مقامه ما كانوا يعملون مبالغة فى المماثلة .

﴿ إن الذى فرض عليك القرآن ﴾ أوجب عليك تلاوته وتبليغه والعمل به ﴿ لرادك إلى معاد ﴾ أى معاد تمتد إليه أعناق الهمم وترنو إليه أحداق الأمم وهو المقام المحمود الذى وعدك أن يبعثك فيه وقيل هو مكة المعظمة على أنه تعالى قد وعده وهو بمكة فى أذية وشدة من أهلها أنه يهاجر به منها ثم يعيده إليها بعز ظاهر وسلطان قاهر وقيل نزلت عليه حين بلغ الجحفة فى مهاجره وقد اشتاق إلى مولده ومولد آبائه وحرم إبراهيم عليه السلام فنزل جبريل عليه السلام فقال له أتشتاق إلى مكة قال نعم فأوحاها إليه ﴿ قل ربى أعلم من جاء بالهدى ﴾ وما يستحقه من الثواب والنصر ومن منتصب بفعل يدل عليه أعلم أى يعلم وقيل بأعلم على أنه بمعنى عالم ﴿ ومن هو فى ضلال مبين ﴾ وما استحقه من العذاب والإذلال يعنى بذلك نفسه والمشركين وهو تقرير للوعيد السابق وكذا قوله تعالى : ﴿ وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب ﴾ أى سيردك إلى معادك كما ألقى إليك الكتاب وما كنت ترجوه ﴿ إلا رحمة من ربك ﴾ ولكن ألقاه إليك رحمة منه ويجوز أن يكون استثناء محمولا على المعنى كأنه قيل وما ألقى إليك الكتاب إلا رحمة أى لأجل الترحم ﴿ فلا تكونن ظهيرا للكافرين ﴾ بمداراتهم والتحمل عنهم والإجابة إلى طلبتهم ﴿ ولا يصدنك ﴾ أى الكافرون ﴿ عن آيات الله ﴾ أى عن قراءتها والعمل بها ﴿ بعد إذ أنزلت إليك ﴾ وفرضت عليك وقرىء يصدنك من أصد المنقول من صد اللازم ﴿ وادع ﴾ الناس ﴿ إلى ربك ﴾ إلى عبادته وتوحيده ﴿ ولا تكونن من المشركين ﴾ بمساعدتهم فى الأمور ﴿ ولا تدع مع الله إلها آخر ﴾ هذا وماقبله للتهييج والإلهاب وقطع أطماع المشركين عن مساعدته عليه الصلاة والسلام لهم وإظهار أن المنهى عنه فى القبح والشرية بحيث ينهى عنه من لا يمكن صدوره عنه أصلا ﴿ لا إله إلا هو ﴾ وحده ﴿ كل شىء هالك إلا وجهه ﴾ إلا ذاته فإن ما عداه كائنا ما كان ممكن فى حد ذاته عرضة للهلاك والعدم ﴿ له الحكم ﴾ أى القضاء النافذ فى الخلق ﴿ وإليه ترجعون ﴾ عند البعث للجزاء بالحق والعدل عن النبى عليه الصلاة والسلام من قرأ طسم القصص كان له من الأجر بعدد

من صدق موسى وكذب ولم يبق ملك فى السموات والأرض إلا شهد له يوم القيامة أنه كان صادقا .

* * *

سورة العنكبوت

(مكية وهى تسع وستون آية)

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ الم ﴾ الكلام فيه كالذى مر مرارا فى نظائره من الفواتح الكريمة خلا أن ما بعده لا يحتمل أن يتعلق به تعلقا إعرابيا ﴿ أحسب الناس ﴾ الحسبان ونظائره لا يتعلق بمعانى المفردات بل بمضامين الجمل المفيدة لثبوت شىء لشىء أو انتفاء شىء عن شىء بحيث يتحصل منها مفعولاه إما بالفعل كما فى عامة المواقع وأما بنوع تصرف فيها كما فى الجمل المصدرة بأن الواقعة صلة للموصول الاسمى أو الحرفى فإن كلا منها صالحة لأن يسبك منها مفعولاه لأن قوله تعالى أحسب الناس ﴿ أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ﴾ فى قوة أن يقال أحسبوا أنفسهم متروكين بلا فتنة بمجرد أن يقولوا آمنا أو أن يقال أحسبوا تركهم غير مفتونين بقولهم آمنا حاصلا متحققا والمعنى إنكار الحسبان المذكور واستبعاده وتحقيق أنه تعالى يمتحنهم بمشاق التكاليف كالمهاجرة والمجاهدة ورفض ما تشتهيه النفس ووظائف الطاعات وفنون المصائب فى الأنفس والأموال ليتميز المخلص من المنافق والراسخ فى الدين من المتزلزل فيه ويجازيهم بحسب مراتب أعمالهم فإن مجرد الإيمان وإن كان عن خلوص لا يقتضى غير الخلاص من الخلود فى النار روى أنها نزلت فى ناس من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين جزعوا من أذية المشركين وقيل فى عمار قد عذب فى الله وقيل فى مهجع مولى عمر بن الخطاب رضى الله عنهما رماه عامر

ابن الحضرمي بسهم يوم بدر فقتله فجزع عليه أبوه وامرأته وهو أول من استشهد يومئذ من المسلمين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم سيد الشهداء مهجع وهو أول من يدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة .

﴿ ولقد فتنا الذين من قبلهم ﴾ متصل بقوله تعالى أحسب أو بقوله تعالى لا يفتنون والمعنى أن ذلك سنة قديمة مبنية على الحكم البالغة جارية فيما بين الأمم كلها فلا ينبغي أن يتوقع خلافها والمعنى أن الأمم الماضية قد أصابهم من ضروب الفتن والمحن ما هو أشد مما أصاب هؤلاء فصبروا كما يعرب عنه قوله تعالى (وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا) الآيات وعن النبي عليه الصلاة والسلام قد كان من قبلكم يؤخذ فيوضع المنشار على رأسه فيفرق فرقتين ما يصرفه ذلك عن دينه ويمشط بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب ما يصرفه ذلك عن دينه ﴿ فليعلمن الله الذين صدقوا ﴾ أي في قولهم آمنا ﴿ وليعلمن الكاذبين ﴾ في ذلك والفاء لترتيب ما بعدها على ما يفصح عنه ما قبلها من وقوع الامتحان واللام جواب القسم والالتفات إلى الإسم الجليل لإدخال الروعة وتربية المهابة وتكرير الجواب لزيادة التأكيد والتقرير أي فوالله ليتعلقن علمه بالامتحان تعلقا حاليا يتميز به الذين صدقوا في الإيمان الذي أظهروه والذين هم كاذبون فيه مستمرون على الكذب ويترتب عليه أجزيتهم من الثواب والعقاب ولذلك قيل المعنى ليميزن أو ليجازين وقرىء وليعلمن من الإعلام أي وليعرفنهم الناس أو ليسمنهم بسمة يعرفون بها يوم القيامة كبياض الوجوه وسوادها ﴿ أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ﴾ أي يفوتونا فلا نقدر على مجازاتهم بمساوي أعمالهم وهو ساد مسد مفعولي حسب لاشتماله على مسند ومسند إليه وأم منقطعة وما فيها من معنى بل للاضراب والانتقال عن التوبيخ بإنكار حسبانهم متروكين غير مفتونين إلى التوبيخ بإنكار ما هو أبطل من الحسبان الأول وهو حسبانهم أن لا يجازوا بسيئاتهم وهم وإن لم يحسبوا أنهم يفوتونه تعالى ولم يحدثوا نفوسهم بذلك لكنهم حيث أصروا على المعاصي ولم يتفكروا

فى العاقبة نزلوا منزله من طمع فى ذلك كما فى قوله تعالى (يحسب أن ماله أخلده) ﴿ ساء ما يحكمون ﴾ أى بئس الذى يحكمونه حكمهم ذلك أو بئس حكما يحكمونه حكمهم ذلك .

﴿ من كان يرجو لقاء الله ﴾ أى يتوقع ملاقاة جزائه ثوابا أو عقابا أو ملاقاة حكمه يوم القيامة وقيل يرجو لقاء الله عز وجل فى الجنة وقيل يرجو ثوابه وقيل يخاف عقابه وقيل لقاؤه تعالى عبارة عن الوصول إلى العاقبة من تلقى ملك الموت والبعث والحساب والجزاء على تمثيل تلك الحال بحال عبد قدم على سيده بعد عهد طويل وقد علم مولاه بجميع ما كان يأتى ويذر فإما أن يلقاه ببشر وكرامة لما رضى من أفعاله أو بضده لما سخطه ﴿ فإن أجل الله ﴾ الأجل عبارة عن غاية زمان ممتد عينت لأمر من الأمور وقد يطلق على كل ذلك الزمان والأول هو الأشهر فى الاستعمال أى فإن الوقت الذى عينه تعالى لذلك ﴿ لآت ﴾ لامحالة من غير صارف يلويه ولا عاطف يثنيه لأن أجزاء الزمان على التقضى والتصرم دائما فلا بد من إتيان ذلك الجزاء أيضاً البتة واتيان وقته موجب لإتيان اللقاء حتما والجواب محذوف أى فليختر من الأعمال ما يؤدى إلى حسن الثواب وليحذر ما يسوقه إلى سوء العذاب كما فى قوله تعالى (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) وفيه من الوعد والوعيد مالا يخفى وقيل فليبادر ما يحقق أمله ويصدق رجاءه أو ما يوجب القربة والزلفى ﴿ وهو السميع ﴾ لأقوال العباد ﴿ العليم ﴾ بأحوالهم من الأعمال الظاهرة والعقائد ﴿ ومن جاهد ﴾ فى طاعة الله عز وجل ﴿ فإنما يجاهد لنفسه ﴾ لعود منفعتها إليها ﴿ إن الله لغنى عن العالمين ﴾ فلا حاجة له إلى طاعتهم وإنما أمرهم بها تعريضا لهم للثواب بموجب رحمته ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ﴾ الكفر بالإيمان والمعاصى بما يتبعها من الطاعات ﴿ ولنجزينهم أحسن الذين كانوا يعملون ﴾ أى أحسن جزاء أعمالهم لاجزاء أحسن أعمالهم فقط .

﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حسنا ﴾ أى بإيتاء والديه وإيلائهما فعلا ذا حسن أو ما هو فى حد ذاته حسن لفرط حسنه كقوله تعالى (وقولوا للناس حسنا) ووصى يجرى مجرى أمر معنى وتصرفا غير أنه يستعمل فيما كان فى المأمور به نفع عائد إلى المأمور أو غيره وقيل هو بمعنى قال فالمعنى وقلنا أحسن بوالديك حسنا وقيل انتصاب حسنا بمضمر على تقدير قول مفسر للتوصية أى وقلنا أولهما أو افعل بهما حسنا وهو أوفق لما بعده وعليه يحسن الوقف على بوالديه وقرىء حسن وإحسانا ﴿ وإن جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم ﴾ أى بالهيئة عبر عن نفيها بنفى العلم بها للإيذان بأن ما لا يعلم صحته لا يجوز اتباعه وإن لم يعلم بطلانه فكيف بما علم بطلانه ﴿ فلا تطعهما ﴾ فى ذلك فإنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ولا بد من اضمار القول إن لم يضمر فيما قبل وفى تعليق النهى عن طاعتهما بمجاهدتهما فى التكليف إشعار بأن موجب النهى فيمادونها من التكليف ثابت بطريق الأولوية ﴿ إلى مرجعكم ﴾ أى مرجع من آمن منكم ومن أشرك ومن بر بوالديه ومن عق ﴿ فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾ بأن أجازى كلا منكم بعمله إن خيرا فخير وإن شرا فشر والآية نزلت فى سعد ابن أبى وقاص رضى الله تعالى عنه عند إسلامه حيث حلفت أمه حمنة بنت أبى سفيان بن أمية أن لا تنتقل من الضح إلى الظل ولا تطعم ولا تشرب حتى يرتد فلبثت ثلاثة أيام كذلك وكذا التى فى سورة لقمان وسورة الأحقاف وقيل نزلت فى عياش بن أبى ربيعة المخزومى وذلك أنه هاجر مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه حتى نزلا المدينة فخرج أبو جهل والحرث أخواه لأمه أسماء فنزلا بعياش وقالا له إن من دين محمد صلى الله عليه وسلم صلة الأرحام وبر الوالدين وقد تركت أمك لا تطعم ولا تشرب ولا تأوى بيتا حتى تراك فاخرج معنا وفتلا منه فى الذروة والغارب واستشار عمر رضى الله عنه فقال هما يخدعانك ولك على أن أقسم مالى بينى بينك فما زالا به حتى أطاعهما وعصى عمر رضى الله عنه فقال عمر رضى الله عنه أما إذا عصيتنى فخذ ناقتى فليس فى الدنيا بعير يلحقها فإن رابك منهما ريب فارجع فلما انتهوا

إلى البيداء قال أبو جهل إن ناقتى قد كلت فاحملنى معك فنزل ليوطىء لنفسه وله فأخذاه فشداه وثاقا وجلده كل واحد مائة جلدة وذهبا به إلى أمه فقالت لاتزال فى عذاب حتى ترجع عن دين محمد

﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم فى الصالحين ﴾ أى فى زمرة الراسخين فى الصلاح والكمال فى الصلاح منتهى درجات المؤمنين وغاية مأمول أنبياء الله المرسلين قال الله تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام (وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين) وقال فى حق إبراهيم عليه السلام وإنه فى الآخرة لمن الصالحين أو فى مدخل الصالحين وهو الجنة ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذى فى الله ﴾ أى فى شأنه تعالى بأن عذبهم الكفرة على الايمان ﴿ جعل فتنة الناس ﴾ أى ما يصيبه من أذيتهم ﴿ كعذاب الله ﴾ فى الشدة والهول فيرتد عن الدين مع أنه لا قدر لها عند نفحة من عذابه تعالى أصلا ﴿ ولئن جاء نصر من ربك ﴾ أى فتح وغنيمة ﴿ ليقولن ﴾ بضم اللام نظرا إلى معنى من كما أن الإفراد فيما سبق بالنظر إلى لفظها وقرىء بالفتح ﴿ إنا كنا معكم ﴾ أى مشايعين لكم فى الدين فاشركونا فى المغنم وهم ناس من ضعفة المسلمين كانوا إذا مسهم أذى من الكفار وافقوهم وكانوا يكتمونه من المسلمين فرد عليهم ذلك بقوله تعالى ﴿ أو ليس الله باعلم بما فى صدور العالمين ﴾ أى باعلم منهم بما فى صدورهم من الإخلاص والنفاق حتى يفعلون من الارتداد والاخفاء عن المسلمين وإدعاء كونهم منهم لنيل الغنيمة وهذا هو الأوفق لما سبق ولما لحق من قوله تعالى ﴿ وليعلمن الله الذين آمنوا ﴾ أى بالإخلاص ﴿ وليعلمن المنافقين ﴾ سواء كان كفرهم باذية الكفرة أولا أى ليجزينهم بما لهم من الإيمان والنفاق ﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا ﴾ بيان لحملهم للمؤمنين على الكفر بالاستمالة بعد بأن حملهم لهم عليه بالأذية والوعيد ووصفهم بالكفر ههنا دون ما سبق لما أن مساق الكلام لبيان جنايتهم وفيما سبق لبيان جناية من أضلوه واللام للتبليغ أى قالوا مخاطبين لهم ﴿ اتبعوا سبيلنا ﴾ أى اسلكوا طريقتنا التى نسلكها فى الدين عبر عن ذلك

بالاتباع الذى هو المشى خلف ماش آخر تنزيلا للمسلك منزلة السالك فيه أو اتبعونا فى طريقتنا ﴿ ولنحمل خطاياكم ﴾ أى إن كان ذلك خطيئة يؤاخذ عليها بالبعث كما تقولون وإنما أمروا أنفسهم بالحمل عاطفين له على أمرهم بالاتباع للمبالغة فى تعليق الحمل بالاتباع والوعد بتخفيف الأوزار عنهم إن كان ثمة وزر فرد عليهم بقوله تعالى ﴿وماهم بحاملين من خطاياهم من شيء﴾ وقرىء من خطيآتهم أى وماهم بحاملين شيئا من خطاياهم التى التزموا أن يحملوا كلها على أن من الأولى للتبيين والثانية مزيدة للاستغراق والجملة اعتراض أوحال ﴿ إنهم لكاذبون ﴾ حيث أخبروا فى ضمن وعدهم بالحمل بأنهم قادرون على إنجاز ما وعدوا فإن الكذب كما يتطرق إلى الكلام باعتبار منطوقه يتطرق إليه باعتبار ما يلزم مدلوله كما مر فى قوله تعالى (أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين) ﴿ وليحملن أثقالهم ﴾ بيان لما يستتبعه قولهم ذلك فى الآخرة من المضرة لأنفسهم بعد بيان عدم منفعته لمخاطبيهم أصلا والتعبير عن الخطايا بالأثقال للإيذان بغاية ثقلها وكونها فادحة واللام جواب قسم مضمر أى وبالله ليحملن أثقال أنفسهم كاملة ﴿ وأثقالا ﴾ أخر ﴿ مع أثقالهم ﴾ لما تسببوا بالاضلال والحمل على الكفر والمعاصى من غير أن ينتقص من أثقال من أضلوه شيء ما أصلا ﴿ وليسألن يوم القيامة ﴾ سؤال تقريع وتبكيت ﴿ عما كانوا يفترون ﴾ أى يختلقونه فى الدنيا من الأكاذيب والأباطيل التى من جملتها كذبهم هذا

﴿ ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ﴾ شروع فى بيان افتتان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بأذية أممهم أثر بيان افتتان المؤمنين بأذية الكفار تأكيدا للانكار على الذين يحسبون أن يتركوا بمجرد الإيمان بلا ابتلاء وحثاً لهم على الصبر فان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حيث ابتلوا بما أصابهم من جهة أممهم من فنون المكاره وصبروا عليها فلأن يصبر هؤلاء أولى وأحرى قالوا كان عمر نوح عليه السلام ألف وخمسين عاما بعث على رأس أربعين سنة ودعا قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان

ستين سنة وعن وهب أنه عاش ألفا وأربعمائة سنة ولعل ما عليه النظم الكريم للدلالة على كمال العدد فإن تسعمائة وخمسين قد يطلق على ما يقرب منه ولما في ذكر الألف من تخييل طول المدة فإن المقصود من القصة تسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم وتثبيته على ما كان عليه من مكابدة ما يناله من الكفرة وإظهار ركاكة رأي الذين يحسبون أنهم يتركون بلا ابتلاء واختلاف المميز لما في التكرير من نوع بشاعة ﴿ فأخذهم الطوفان ﴾ أي عقيب تمام المدة المذكورة والطوفان يطلق على كل ما يطوف بالشيء على كثرة وشدة من السيل والريح والظلام وقد غلب على طوفان الماء ﴿ وهم ظالمون ﴾ أي والحال أنهم مستمرون على الظلم لم يتأثروا بما سمعوا من نوح عليه السلام من الآيات ولم يرعووا عما هم عليه من الكفر والمعاصي هذه المدة المتمادية .

﴿ فأنجيناه ﴾ أي نوحا عليه السلام ﴿ وأصحاب السفينة ﴾ أي ومن ركب فيها معه من أولاده وأتباعه وكانوا ثمانين وقيل ثمانية وسبعين وقيل عشرة وقيل ثمانية نصفهم ذكور ونصفهم إناث ﴿ وجعلناها ﴾ أي السفينة أو الحادثة والقصة ﴿ آية للعالمين ﴾ يتعظون بها .

﴿ وإبراهيم ﴾ نصب بالعطف على نوحا وقيل بإضمار أذكر وقرىء بالرفع على تقدير ومن المرسلين إبراهيم ﴿ إذ قال لقومه ﴾ على الأول ظرف للإرسال أي أرسلناه حين تكامل عقله وقدر على النظر والاستدلال وترقى من رتبة الكمال إلى درجة التكميل حيث تصدى لإرشاد الخلق إلى طريق الحق وعلى الثاني بدل اشتمال من إبراهيم ﴿ اعبدوا الله ﴾ أي وحده ﴿ واتقوه ﴾ أن تشركوا به شيئاً ﴿ ذلكم ﴾ أي ما ذكر من العبادة والتقوى ﴿ خير لكم ﴾ أي مما أنتم عليه ومعنى التفضيل مع أنه لا خيرية فيه قطعا باعتبار زعمهم الباطل ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ أي الخير والشر وتميزون أحدهما من الآخر أو إن كنتم تعلمون شيئاً من الأشياء بوجه من الوجوه فإن ذلك كاف في الحكم بخيرية ما ذكر من العبادة والتقوى ﴿ إنما تعبدون من دون الله أوثانا ﴾ بيان لبطلان دينهم وشريته في نفسه بعد بيان شريته بالنسبة إلى الدين الحق أي إنما تعبدون

من دونه تعالى أوثانا هى فى نفسها تماثيل مصنوعة لكم ليس فيها وصف غير ذلك ﴿ وتخلقون إفكا ﴾ أى وتكذبون كذبا حيث تسمونها آلهة وتدعون أنها شفعاؤكم عند الله تعالى أو تعملونها وتنحتونها للافك وقرىء تخلقون بالتشديد للتكثير فى الخلق بمعنى الكذب والافتراء وتخلقون بحذف إحدى التاءين من تخلق بمعنى تكذب وتخرص وقرىء أفكا على أنه مصدر كالكذب واللعب أو نعت بمعنى خلقا ذا إفك ﴿ إن الذين تعبدون من دون الله ﴾ بيان لشرية ما يعبدونه من حيث إنه لا يكاد يجديهم نفعا ﴿لا يملكون لكم رزقا﴾ أى لا يقدرون على أن يرزقوكم شيئا من الرزق ﴿ فابتغوا عند الله الرزق ﴾ كله فإنه هو الرزاق ذو القوة المتين ﴿واعبدوه﴾ وحده ﴿واشكروا له ﴾ على نعمائه متوسلين إلى مطالبكم بعبادته مقيدين بالشكر للعتيد ومستجلبين للمزيد ﴿إليه ترجعون﴾ أى بالموت ثم بالبعث لا إلى غيره فافعلوا ما أمرتكم به وقرىء ترجعون من رجع رجوعا ﴿وأن تكذبوا﴾ أى تكذبونى فيما أخبرتكم به من أنكم إليه ترجعون بالبعث ﴿فقد كذب أمم من قبلكم ﴾ تعليل للجواب أى فلا تضروننى بتكذيبكم فإن من قبلكم من الأمم قد كذبوا من قبلى من الرسل وهم شيث وإدريس ونوح عليهم السلام فلم يضرهم تكذيبهم شيئاً وإنما ضر أنفسهم حيث تسبب لما حل بهم من العذاب فكذا تكذيبكم ﴿ وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾ أى التبليغ الذى لا يبقى معه شك وما عليه أن يصدقه قومه البتة وقد خرجت عن عهدة التبليغ بما لا مزيد عليه فلا يضرنى تكذيبكم بعد ذلك أصلا .

الرد على منكرى البعث

﴿ أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ﴾ كلام مستأنف مسوق من جهته للإنكار على تكذيبهم بالبعث مع وضوح دليله وسنوح سبيله والهمزة لإنكار عدم رؤيتهم الموجب لتقريرها والواو للعطف على مقدر أى ألم ينظروا ولم يعلموا علما جاريا مجرى الرؤية فى الجلاء والظهور كيفية خلق الله تعالى الخلق ابتداء

من مادة ومن غير مادة أى قد علموا ذلك وقرىء بصيغة الخطاب لتشديد الإنكار وتأكيده وقرىء يبدأ وقوله تعالى ﴿ ثم يعيده ﴾ عطف على أو لم يروا لا على يبدىء لعدم وقوع الرؤية عليه فهو اخبار بأنه تعالى بعد الخلق قياسا على الابداء وقد جوز العطف على يبدىء بتأويل الإعادة بإنشائه تعالى كل سنة مثل ما أنشأه فى السنة السابقة من النبات والثمار وغيرهما فإن ذلك مما يستدل به على صحة البعث ووقوعه من غير ريب ﴿ إن ذلك ﴾ أى ما ذكر من الإعادة ﴿ على الله يسير ﴾ إذ لا يفتقر فعله إلى شىء أصلا ﴿ قل سيروا فى الأرض ﴾ أمر لإبراهيم عليه السلام أن يقول لهم ذلك أى سيروا فيها ﴿ فانظروا كيف بدأ الخلق ﴾ أى كيف خلقهم ابتداء على أطوار مختلفة وطبائع متغايرة وأخلاق شتى فإن ترتيب النظر على السير فى الأرض مؤذن بتتبع أحوال أصناف الخلق القاطنين فى أقطارها ﴿ ثم الله ينشىء النشأة الآخرة ﴾ بعد النشأة الأولى التى شاهدتموها والتعبير عن الإعادة التى هى محل النزاع بالنشأة الآخرة المشعرة بكون البدء نشأة أولى للتنبيه على أنهما شأن واحد من شئون الله تعالى حقيقة واسما من حيث إن كلا منهما اختراع وإخراج من العدم إلى الوجود ولا فرق بينهما إلا بالأولية والآخرية وقرىء النشاءة بالمد وهما لغتان كالرأفة والرآفة ومحلها النصب على أنها مصدر مؤكد لينشىء بحذف الزوائد والأصل الإنشاءة أو بحذف العامل أى ينشىء فينشأون النشأة الآخرة كما فى قوله تعالى (وأنبتها نباتا حسنا والجملة معطوفة) على جملة سيروا فى الأرض داخلة معها فى حيز القول وإظهار الإسم الجليل وإيقاعه مبتدأ مع إضماره فى بدأ لإبراز مزيد الاعتناء ببيان تحقق الإعادة بالإشارة إلى علة الحكم وتكرير الإسناد وقوله تعالى ﴿ إن الله على كل شىء قدير ﴾ تعليل لما قبله بطريق التحقيق فإن من علم قدرته تعالى على جميع الأشياء التى من جملتها الإعادة لا يتصور أن يتردد فى قدرته عليها ولا فى وقوعها بعد ما أخبر به ﴿ يعذب ﴾ أى بعد النشأة الآخرة ﴿ من يشاء ﴾ أن يعذبه وهم المنكرون لها حتما ﴿ ويرحم من يشاء ﴾ أن يرحمه وهم المصدقون

بها والجملة تكملة لما قبلها وتقديم التعذيب لما أن الترهيب أنسب بالمقام من الترغيب ﴿ وإليه تقلبون ﴾ عند ذلك لا إلى غيره فيفعل بكم مايشاءمن التعذيب والرحمة ﴿ وما أنتم بمعجزين ﴾ له تعالى عن إجراء حكمه وقضائه عليكم ﴿ فى الأرض ولا فى السماء ﴾ أى بالتوارى فى الارض أو الهبوط فى مهاويها ولا بالتحصن فى السماء التى هى أفسح منها لو استطعتم الرقى فيها كما فى قوله تعالى (إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والارض فانفذوا) أو القلاع الذاهبة فيها وقيل فى السماء صفة لمحذوف معطوف على أنتم أى ولا من فى السماء ﴿ وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير ﴾ يحرسكم مما يصيبكم من بلاء يظهر من الأرض أو ينزل من السماء ويدفعه عنكم .

﴿ والذين كفروا بآيات الله ﴾ أى بدلائله التكوينية والتنزيلية الدالة على ذاته وصفاته وأفعاله فيدخل فيها النشأة الأولى الدالة على تحقق البعث والآيات الناطقة به دخولا أوليا وتخصيصها بدلائل وحدانيته تعالى لا يناسب المقام ﴿ ولقائه ﴾ الذى تنطق به تلك الآيات ﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بما ذكر من الكفر بآياته تعالى ولقائه ﴿ يئسوا من رحمتى ﴾ أى ييأسون منها يوم القيامة وصيغة الماضى للدلالة على تحققه أو يئسوا منها فى الدنيا لإنكارهم البعث والجزاء ﴿ وأولئك لهم عذاب أليم ﴾ وفى تكرير اسم الإشارة وتكرير الإسناد وتنكير العذاب ووصفه بالأليم من الدلالة على كمال فظاعة حالهم مالا يخفى أى أولئك الموصوفون بالكفر بآيات الله تعالى ولقائه وباليأس من رحمته الممتازون بذلك عن سائر الكفرة لهم بسبب تلك الأوصاف القبيحة عذاب لا يقادر قدره فى الشدة والإيلام ﴿ فما كان جواب قومه ﴾ بالنصب على أنه خبر كان واسمها قوله تعالى ﴿ إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه ﴾ وقرىء بالرفع على العكس وقد مر ما فيه فى نظائره وليس المراد أنه لم يصدر عنهم بصدد الجواب عن حجج إبراهيم عليه السلام إلا هذه المقالة الشنيعة كما هو المتبادر من ظاهر النظم الكريم بل إن ذلك هو الذى استقر عليه جوابهم بعد اللتيا والتى فى المرة الأخيرة وإلا فقد صدر عنهم من الخرافات والأباطيل

مالا يحصى ﴿ فأنجاه الله من النار ﴾ الفاء فصيحة أى فألقوه فى النار فأنجاه الله تعالى منها بأن جعلها عليه عليه الصلاة والسلام بردا وسلاما حسبما بين فى مواضع أخر وقد مر فى سورة الأنبياء بيان كيفية إلقائه عليه الصلاة والسلام فيها وانجائه تعالى إياه تفصيلا قيل لم ينتفع يومئذ بالنار فى موضع أصلا ﴿ إن فى ذلك ﴾ أى فى إنجائه منها ﴿ لآيات ﴾ بينة عجيبة هى حفظه تعالى إياه من حرها وإخمادها فى زمان يسير وإنشاء روض فى مكانها ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ وأما من عداهم فهم عن اجتلائها غافلون ومن الفوز بمغانم آثارها محرومون .

﴿ وقال ﴾ أى إبراهيم عليه السلام مخاطبا لهم ﴿ إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحيوة الدنيا ﴾ أى لتتوادو بينكم وتتواصلوا لاجتماعكم على عبادتها وائتلافكم وثانى مفعولى اتخذتم محذوف أى أوثانا آلهة ويجوز أن يكون مودة هو المفعول بتقدير المضاف أو بتأويلها بالمودودة أو بجعلها نفس المودة مبالغة أى اتخذتم أوثانا سبب المودة بينكم أو مودودة أو نفس المودة وقرىء مودة منونة منصوبة ناصبة الظرف وقرئت بالرفع والاضافة على أنها خبر مبتدأ محذوف أى هى مودودة أو نفس المودة أو سبب مودة بينكم والجملة صفة أوثانا أو خبر إن على أن ما مصدرية أو موصوله قد حذف عائدها وهو المفعول الأول وقرئت مرفوعة منونة ومضافة بفتح بينكم كما قرىء لقد تقطع بينكم على أحد الوجهين وقرىء إنما مودة بينكم والمعنى أن اتخاذكم إياها مودة بينكم ليس إلا فى الحياة وقد أجريتم أحكامه حيث فعلتم بى ما فعلتم لأجل مودتكم لها انتصارا منى كما ينبىء عنه قوله تعالى وانصروا آلهتكم ﴿ ثم يوم القيامة ﴾ تنقلب الأمور ويتبدل التواد تباغضا والتلاطف تلاعنا حيث ﴿ يكفر بعضكم ﴾ وهم العبدة ﴿ ببعض ﴾ وهم الأوثان ﴿ ويلعن بعضكم بعضا ﴾ أى يلعن كل فريق منكم ومن الأوثان حيث ينطقها الله تعالى الفريق الآخر ﴿ ومأواكم النار ﴾ أى هى منزلكم الذى تأوون إليه ولا ترجعون منه أبدا ﴿ وما لكم من

ناصرين ﴾ يخلصونكم منها كما خلصنى ربى من النار التى ألقيتمونى فيها وجمع الناصر لوقوعه فى مقابلة الجمع أى ما لأحد منكم من ناصر أصلا .

﴿ فآمن له لوط ﴾ أى صدقه فى جميع مقالاته لا فى نبوته وما دعا إليه من التوحيد فقط فانه كان منزها عن الكفر وما قيل إنه آمن له حين رأى النار لم تحرقه ينبغى أن يحمل على ما ذكرنا أو على أن يراد بالإيمان الرتبة العالية منها وهى التى لا يرتقى إليها الاهم الأفراد الكمل ولوط هو ابن أخيه عليهما السلام ﴿ وقال إنى مهاجر ﴾ أى من قومى ﴿ إلى ربى ﴾ إلى حيث أمرنى ربى ﴿ إنه هو العزيز ﴾ الغالب على أمره فيمنعنى من أعدائى ﴿ الحكيم ﴾ الذى لا يفعل فعلا إلا وفيه حكمة ومصلحة فلا يأمرنى إلا بما فيه صلاحى روى أنه هاجر من كوثى سواد الكوفة مع لوط وسارة ابنة عمه إلى حران ثم منها إلى الشأم فنزل فلسطين ونزل لوط سدوم ﴿ ووهبنا له اسحق ويعقوب ﴾ ولدا ونافلة حين أيس من عجوز عاقر ﴿ وجعلنا فى ذريته النبوة ﴾ فكثر منهم الأنبياء ﴿ والكتاب ﴾ أى جنس الكتاب المتناول للكتب الأربعة ﴿ وآتيناه أجره ﴾ بمقابلة هجرته إلينا ﴿ فى الدنيا ﴾ باعطاء الولد والذرية الطيبة واستمرار النبوة فيهم وانتماء أهل الملل إليه والثناء والصلاة عليه إلى آخر الدهر ﴿ وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾ أى الكاملين فى الصلاح ﴿ ولوطا ﴾ منصوب أما بالعطف على نوحا أو على إبراهيم والكلام فى قوله تعالى ﴿ إذ قال لقومه ﴾ كالذى مر فى قصة إبراهيم عليه السلام ﴿ إنكم لتأتون الفاحشة ﴾ أى الفعلة المتناهية فى القبح وقرئ أئنكم ﴿ ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾ استئناف مقرر لكمال قبحها فان إجماع جميع أفراد العالمين على التحاشى عنها ليس إلا لكونها مما تشمئز منه الطباع وتنفر منه النفوس .

﴿ أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل ﴾ وتتعرضون للسابلة أى بالفاحشة حيث روى أنهم كانوا كثيرا ما يفعلونها بالغرباء وقيل تقطعون سبيل النساء بالإعراض عن الحرث وإتيان ما ليس بحرث وقيل تقطعون السبيل

بالقتل وأخذ المـال ﴿ وتأتون فى ناديكم ﴾ أى تفعلون فى مجلسكم الجامع لاصحابكم ﴿ المنكر ﴾ كالجماع والضراط وحل الازار وغيرها مما لاخير فيه من الافاعيل المنكرة وعن ابن عباس رضى الله عنهما هو الحذف بالحصى والرمى بالبنادق والفرقعة ومضغ العلك والسواك بين الناس وحل الازار والسباب والفحش فى المزاح وقيل السخرية بمن مر بهم وقيل المجاهرة فى ناديهم بذلك العمل ﴿ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين ﴾ أى فما كان جوابا من جهتهم شىء من الأشياء إلا هذه الـكلمة الشنيعة أى لم يصدر عنهم فى هذه المرة من مرات مواعظ لوط عليه السلام وقد كان أو عدهم فيها بالعذاب وأما ما فى سورة الاعراف من قوله تعالى (وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم) الآية وما فى سورة النمل من قوله تعالى (فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم) الآية فهو الذى صدر عنهم بعده هذه المرة وهى المرة الأخيرة من مرات المقاولات الجارية بينهم وبينه عليه الصلاة والسلام وقد مر تحقيقه فى سورة الاعراف

﴿ قال رب انصرنى ﴾ أى بإنزال العذاب الموعود ﴿ على القوم المفسدين ﴾ بابتداع الفاحشة وسنها فيمن بعدهم والإصرار عليها واستعجال العذاب بطريق الاستهزاء وإنما وصفهم بذلك مبالغة فى استنزال العذاب عليهم ﴿ ولما جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى أى بالبشارة بالولد والنافلة ﴿ قالوا ﴾ أى لابراهيم عليه السلام فى تضاعيف الـكلام حسبما فصل فى سورة هود وسورة الحجر ﴿ إنا مهلـكو أهل هذه القرية ﴾ أى قرية سدوم والإضافة لفظية لأن المعنى على الاستقبال ﴿ إن أهلها كانوا ظالمين ﴾ تعليل للاهلاك باصرارهم على الظلم وتماديهم فى فنون الفساد وأنواع المعاصى ﴿ قال إن فيها لوطا ﴾ فـكيف تهلـكونها ﴿ قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله ﴾ أرادوا أنهم غير غافلين عن مكان لوط عليه السلام فيها بل عمن لم يتعوض له ابراهيم عليه السلام من أتباعه المؤمنين وأنهم معتنون بشأنهم أتم اعتناء حسبما ينبىء عنه تصدير الوعد بالتنجية بالقسم أى والله لننجينه وأهله ﴿ إلا امرأته كانت من الغابرين ﴾ أى الباقين فى العذاب أو القرية

﴿ولما أن جاءت رسلنا﴾ المذكورين بعد مفارقتهم لإبراهيم عليه السلام ﴿سيء بهم﴾ اعتراه المساءة بسببهم مخافة أن يتعرض لهم قومه بسوء وكلمة أن صلة لتأكيد ما بين الفعلين من الاتصال ﴿وضاق بهم ذرعا﴾ أى ضاق بشأنهم وتدبير أمرهم ذرعه أى طاقته كقولهم ضاقت يده وبإزائه رحب زرعه بكذا إذا كان مطيقا به قادرا عليه وذلك أن طويل الذراع ينال ما لاينال قصير الذراع .

﴿وقالوا﴾ ريثما شاهدوا فيه مخايل التضجر من جهتهم وعاينوا أنه قد عجز عن مدافعة قومه بعد اللتيا والتى حتى آلت به الحال الى أن قال لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد ﴿لا تخف﴾ أى من قومك علينا ﴿ولا تحزن﴾ أى على شيء وقيل بإهلاكنا إياهم ﴿إنا منجوك وأهلك﴾ مما يصيبهم من العذاب ﴿إلا امرأتك كانت من الغابرين﴾ وقرىء لننجينك ومنجوك من الإنجاء وأيا ما كان فمحل الكاف الجر على المختار ونصب أهلك بإضمار فعل أو بالعطف على محلها باعتبار الأصل ﴿إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء﴾ استئناف مسوق لبيان ما أشير اليه بوعد التنجية من نزول العذاب عليهم والرجز العذاب الذى يقلق المعذب أى يزعجه من قولهم ارتجز إذا ارتجس واضطرب وقرىء منزلون بالتشديد ﴿بما يفسقون﴾ بسبب فسقهم المستمر ﴿ولقد تركنا منها﴾ أى من القرية ﴿آية بينة﴾ هى قصتها العجيبة آثار ديارها الخربة وقيل الحجارة المطمورة فإنها كانت باقية بعدها وقيل الماء الأسود على وجه الأرض ﴿لقوم يعقلون﴾ يستعملون عقولهم فى الاستبصار والاعتبار وهو متعلق إما بتركنا أو ببينة ﴿وإلى مدين أخاهم شعيبا﴾ متعلق بمضمن معطوف على أرسلنا فى قصة نوح عليه السلام أى وأرسلنا إلى مدين شعيبا ﴿فقال ياقوم اعبدوا الله﴾ وحده ﴿وارجوا اليوم الآخر﴾ أى توقعوه وما سيقع فيه من فنون الأهوال وافعلوا اليوم من الأعمال ما تأمنون غائلته وقيل وارجوا ثوابه بطريق إقامة المسبب مقام السبب وقيل الرجاء بمعنى الخوف ﴿ولا تعثوا فى الأرض مفسدين فكذبوه فأخذتهم الرجفة﴾ أى الزلزلة الشديدة وفى سورة هود وأخذت الذين

ظلموا الصيحة أى صيحة جبريل عليه السلام فإنها الموجبة [١] للرجفة بسبب تموجها للهواء وما يجاورها من الأرض ﴿ فأصبحوا فى دارهم ﴾ أى بلدهم أو منازلهم والإفراد لأمن اللبس ﴿ جاثمين ﴾ باركين على الركب ميتين .

﴿ وعاداً وثمود ﴾ منصوبان بإضمار فعل ينبىء عنه ما قبله أى أهلكنا وقرىء ثموداً بتأويل الحى ﴿ وقد تبين لكم من مساكنهم ﴾ أى وقد ظهر لكم إهلاكنا إياهم من جهة مساكنهم بالنظر إليها عند اجتيازكم بها ذهاباً إلى الشام وإياباً منه ﴿ وزين لهم الشيطان أعمالهم ﴾ من فنون الكفر والمعاصى ﴿ فصدهم عن السبيل ﴾ السوى الموصل إلى الحق ﴿ وكانوا مستبصرين ﴾ متمكنين من النظر والاستدلال ولكنهم لم يفعلوا ذلك أو متبينين أن العذاب لاحق بهم بإخبار الرسل عليهم الصلاة والسلام لهم ولكنهم لجوا حتى لقوا ما لقوا ﴿ وقارون وفرعون وهامان ﴾ معطوف على عاداً قيل تقديم قارون لشرف نسبه ﴿ ولقد جاءهم موسى بالبينات واستكبروا فى الأرض وما كانوا سابقين ﴾ مفلتين فائتين من قولهم سبق طالبه إذا فاته ولم يدركه ولقد أدركهم أمر الله عز وجل أى إدراك فتداركوا نحو الدمار والهلاك ﴿ فكلا ﴾ تفسير لما ينبىء عنه عدم سبقهم بطريق الإبهام أى فكل واحد من المذكورين ﴿ أخذنا بذنبه ﴾ أى عاقبناه بجنايته لا بعضه دون بعض كما يشعر به تقديم المفعول ﴿ فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ﴾ تفصيلا للأخذ أى ريحاً عاصفاً فيها حصباء وقيل ملكا رماهم بها وهم قوم لوط ﴿ ومنهم من أخذته الصيحة ﴾ كمدين وثمود ﴿ ومنهم من خسفنا به الأرض ﴾ كقارون ﴿ ومنهم من أغرقنا ﴾ كقوم نوح وفرعون وقومه ﴿ وما كان الله ليظلمهم ﴾ بما فعل بهم فإن ذلك محال من جهته تعالى ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ بالاستمرار على مباشرة ما يوجب ذلك من أنواع الكفر والمعاصى ﴿ مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء ﴾ أى فيما اتخذوه معتمداً ومتكلا ﴿ كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً ﴾ فيما نسجته فى الوهن والخور بل ذلك أوهن من هذا لأن له حقيقة

---

(١) فى ١٠ : أوجبت

وانتفاعاً فى الجملة أو مثلهم بالإضافة إلى الموحد كمثله بالإضافة إلى رجل بنى بيتاً من حجر وجص والعنكبوت يقع على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث والغالب فى الاستعمال التأنيث وتاؤه كتاء طاغوت ويجمع على عناكب وعنكبوتات واما العكاب والعكب والأعكب فأسماء الجموع ﴿ وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت ﴾ حيث لا يرى شىء يدانيه فى الوهن والوهى ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ أى شيئاً من الأشياء لجزموا أن هذا مثلهم وأن دينهم أوهى من ذلك ويجوز أن يجعل بيت العنكبوت عبارة عن دينهم تحقيقاً للتمثيل فالمعنى وإن أوهن مايعتمد به فى الدين دينهم .

﴿ إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شىء ﴾ على إضمار القول أى قل للكفرة إن الله الخ ومااستفهامية منصوبة بيدعون معلقة ليعلم ومن للتبيين أو نافية ومن مزيدة وشىء مفعول يدعون أو مصدرية وشىء عبارة عن المصدر أو موصولة مفعول ليعلم ومفعول يدعون عائده المحذوف وقرىء تدعون بالتاء والكلام على الأولين تجهيل لهم وتأكيد وعلى الآخرين وعيد لهم ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ تعليل على المعنيين فإن إشراك مالا يعد شيئاً بمن هذا شأنه من فرط الغباوة وإن الجماد بالنسبة إلى القادر القاهر على كل شىء البالغ فى العلم وإتقان الفعل الغاية القاصية كالمعدوم البحت وأن من هذه صفاته قادر على مجازاتهم ﴿ وتلك الأمثال ﴾ أى هذا المثل وأمثاله ﴿ نضربها للناس ﴾ تقريباً لما بعد من أفهامهم ﴿ وما يعقلها ﴾ على ما هى عليه من الحسن واستتباع الفوائد ﴿ إلا العالمون ﴾ الراسخون فى العلم المتدبرون فى الأشياء على ماينبغى وعنه عليه الصلاة والسلام أنه تلا هذه فقال العالم من عقل عن الله تعالى وعمل بطاعته واجتنب سخطه ﴿ خلق الله السموات والأرض بالحق ﴾ أى محقاً مراعياً للحكم والمصالح على أنه حال من فاعل خلق أو ملتبسة بالحق الذى لا محيد عنه مستتبعة للمنافع الدينية والدنيوية على أنه حال من مفعوله فإنها مع اشتمالها على جميع ما يتعلق به معاشهم شواهد دالة على شؤنه تعالى المتعلقة بذاته وصفاته كما يفصح عنه قوله تعالى ﴿ إن فى ذلك لآية للمؤمنين ﴾ دالة لهم ماذكر من شؤنه

سبحانه وتخصيص المؤمنين بالذكر مع عموم الهداية والإرشاد فى خلقهما للكل لأنهم المنتفعون بذلك .

﴿ أتل ما أوحى اليك من الكتاب ﴾ تقرباً إلى الله تعالى بقراءته وتذكراً لما فى تضاعيفه من المعانى وتذكيرا للناس وحملا لهم على العمل بمافيه من الأحكام ومحاسن الآداب ومكارم الأخلاق ﴿ وأقم الصلاة ﴾ أى داوم على إقامتها وحيث كانت الصلاة منتظمة للصلوات المكتوبة المؤداة بالجماعة وكان أمره عليه الصلاة والسلام باقامتها متضمنا لأمر الأمة بها علل بقوله تعالى ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ كأنه قيل وصل بهم أن الصلاة تنهاهم عن الفحشاء والمنكر ومعنى نهيها عنهما أنها سبب للانتهاء عنهما لأنها مناجاة لله تعالى فلا بد أن تكون مع إقبال تام على طاعته وإعراض كلى عن معاصيه قال ابن مسعود وابن عباس رضى الله تعالى عنهما «فى الصلاة منتهى ومزدجر عن معاصى الله تعالى فمن لم تأمره صلاته بالمعروف ولم تنهه عن المنكر لم يزدد بصلاته من الله تعالى إلا بعداً » وقال الحسن وقتادة من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فصلاته وبال عليه وروى أنس رضى الله عنه « إن فتى من الأنصار كان يصلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم لا يدع شيئاً من الفواحش إلا ركبه فوصف له عليه الصلاة والسلام حاله فقال إن صلاته ستنهاه» فلم يلبث أن تاب وحسن حاله ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾ أى وللصلاة أكبر من سائر الطاعات وإنما عبر عنها به كما فى قوله تعالى (فاسعوا إلى ذكر الله) للإيذان بأن ما فيها من ذكر الله تعالى هو العمدة فى كونها مفضلة على الحسنات ناهية عن السيئات وقيل ولذكر الله تعالى عند الفحشاء والمنكر وذكر نهيه عنهما ووعيده عليهما أكبر فى الزجر عنهما وقيل ولذكر الله اياكم برحمته أكبر من ذكركم إياه بطاعته ﴿ والله يعلم ما تصنعون ﴾ منه ومن سائر الطاعات فيجازيكم بها أحسن المجازاة ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب ﴾ من اليهود والنصارى ﴿ إلا بالتى هى أحسن ﴾ أى بالخصلة التى هى أحسن كمقابلة الخشونة باللين والغضب بالكظم والمشاغبة بالنصح والسورة بالأناة على وجه لا يدل على الضعف ولا يؤدى إلى إعطاء

الدنية وقيل منسوخ بآية السيف ﴿إلا الذين ظلموا منهم﴾ بالافراط فى الاعتداء والعناد أو بإثبات الولد وقولهم يد الله مغلولة ونحو ذلك فانه يجب حينئذ المدافعة بما يليق بحالهم

﴿ وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا ﴾ من القرآن ﴿وأنزل إليكم﴾ أى وبالذى أنزل إليكم من التوراة والإنجيل وقد مر تحقيق كيفية الإيمان بهما فى خاتمة سورة البقرة وعن النبى عليه الصلاة والسلام «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وبكتبه ورسله فان قالوا باطلا لم تصدقوهم وإن قالوا حقا لم تكذبوهم» ﴿وإلهنا وإلهكم واحد﴾ لا شريك له فى الألوهية ﴿ ونحن له مسلمون ﴾ مطيعون خاصة وفيه تعريض بحال الفريقين حيث اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ﴿ وكذلك ﴾ تجريد للخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك إشارة إلى مصدر الفعل الذى بعده وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلة المشار إليه فى الفضل أى مثل ذلك الإنزال البديع الموافق لإنزال سائر الكتب ﴿ أنزلنا إليك الكتاب ﴾ أى القرآن الذى من جملته هذه الآية الناطقة بما ذكر من المجادلة بالحسنى ﴿ فالذين آتيناهم الكتاب ﴾ من الطائفتين ﴿ يؤمنون به ﴾ أريد بهم عبد الله بن سلام وأضرابه من أهل الكتابين خاصة كأن من عداهم لم يؤتوا الكتاب حيث لم يعملوا بما فيه أو من تقدم عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم حيث كانوا مصدقين بنزوله حسبما شاهدوا فى كتابيهما وتخصيصهم بإيتاء الكتاب للإيذان بأن من بعدهم من معاصرى رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نزع عنهم الكتاب بالنسخ فلم يؤتوه والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها فان إيمانهم به مترتب على إنزاله على الوجه المذكور ﴿ ومن هؤلاء ﴾ أى ومن العرب أو أهل مكة على الأول أو ممن فى عصره عليه الصلاة والسلام على الثانى ﴿ من يؤمن به ﴾ اى بالقرآن ﴿وما يجحد بآياتنا﴾ عبر عن الكتاب بالآيات للتنبيه على ظهور دلالتها على معانيها وعلى كونها من عند الله تعالى وأضيفت إلى نون العظمة لمزيد تفخيمها وغاية تشنيع من يجحد بها ﴿ إلا الكافرون ﴾

المتوغلون فى الكفر المصممون عليه فإن ذلك يصدهم عن التأمل فيما يؤديهم إلى معرفة حقيتها وقيل هم كعب بن الأشرف وأصحابه

﴿ وما كنت تتلو من قبله ﴾ أى ما كنت قبل إنزالنا إليك الكتاب تقدر على أن تتلو شيئاً من كتاب ﴿ ولا تخطه ﴾ أى ولا تقدر على أن تخطه ﴿ بيمينك ﴾ حسبما هو المعتاد أو ما كانت عادتك أن تتلوه ولا أن تخطه ﴿ إذاً لارتاب المبطلون ﴾ أى لو كنت ممن يقدر على التلاوة والخط أو ممن يعتادهما لارتابوا وقالوا لعله التقطه من كتب الأوائل وحيث لم تكن كذلك لم يبق فى شأنك منشأ ريب أصلا وتسميتهم مبطلين فى ارتيابهم على التقدير المفروض لكونهم مبطلين فى اتباعهم للاحتمال المذكور مع ظهور نزاهته عليه الصلاة والسلام عن ذلك ﴿ بل هو ﴾ أى القرآن ﴿ آيات بينات ﴾ واضحات ثابتة راسخة ﴿ فى صدور الذين أوتوا العلم ﴾ من غير أن يلتقط من كتاب يحفظونه بحيث لا يقدر أحد على تحريفه ﴿ وما يجحد بآياتنا ﴾ مع كونها كما ذكر ﴿ إلا الظالمون ﴾ المتجاوزون للحدود فى الشر والمكابرة والفساد ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه ﴾ مثل ناقة صالح وعصا موسى ومائدة عيسى عليهم السلام وقرىء آية ﴿ قل إنما الآيات عند الله ﴾ ينزلها حسبما يشاء من غير دخل لأحد فى ذلك قطعا ﴿ وإنما أنا نذير مبين ﴾ ليس من شأنى إلا الإنذار بما أوتيت من الآيات ﴿ أولم يكفهم ﴾ كلام مستأنف وارد من جهته تعالى ردا على اقتراحهم وبيانا لبطلانه والهمزة للإنكار والنفى والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى أقصر ولم يكفهم آية مغنية عن سائر الآيات ﴿ أنا أنزلنا عليك الكتاب ﴾ الناطق بالحق المصدق لما بين يديه من الكتب السماوية وأنت بمعزل عن مدارستها وممارستها ﴿ يتلى عليهم ﴾ فى كل زمان ومكان فلا يزال معهم آية ثابتة لا تزول ولا تضمحل كما تزول كل آية بعد كونها وتكون فى مكان دون مكان أو يتلى على اليهود بتحقيق ما فى أيديهم من نعتك ونعت دينك ﴿ إن فى ذلك ﴾ الكتاب العظيم الشأن الباقى على مر الدهور ﴿ لرحمة ﴾ أى نعمة عظيمة ﴿ وذكرى ﴾ أى تذكرة ﴿ لقوم يؤمنون ﴾

أى لقوم همهم الإيمان لا التعنت كأولئك المقترحين وقيل إن ناسا من المؤمنين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتب فيها بعض ما يقوله اليهود فقال كفى بها ضلالة قوم أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إلى ما جاء به غير نبيهم فنزلت

﴿ قل كفى بالله بينى وبينكم شهيدا ﴾ بما صدر عنى وعنكم ﴿ يعلم ما فى السموات والأرض ﴾ أى من الأمور التى من جملتها شأنى وشأنكم فهو تقرير لما قبله من كفايته تعالى شهيدا ﴿ والذين آمنوا بالباطل ﴾ وهو ما يعبد من دون الله تعالى ﴿ وكفروا بالله ﴾ مع تعاضد موجبات الإيمان به ﴿ أولئك هم الخاسرون ﴾ المغبونون فى صفقتهم حيث اشتروا الكفر بالإيمان بأن ضيعوا الفطرة الأصلية والأدلة السمعية الموجبة للإيمان والآية من قبيل المجادلة بالتى هى أحسن حيث لم يصرح بنسبة الإيمان بالباطل والكفر بالله والخسران إليهم بل ذكر على منهاج الإبهام كما فى قوله تعالى (وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين) ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ﴾ على طريقة الاستهزاء بقولهم (متى هذا الوعد) وقولهم (أمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب) ونحو ذلك ﴿ ولولا أجل مسمى ﴾ قد ضربه الله تعالى لعذابهم وبينه فى اللوح ﴿ لجاءهم العذاب ﴾ المعين لهم حسبما استعجلوا به قيل المراد بالأجل يوم القيامة لما روى أنه تعالى وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يعذب قومه بعذاب الاستئصال وأن يؤخر عذابهم إلى يوم القيامة وقيل يوم بدر وقيل وقت فنائهم بآجالهم وفيه بعد ظاهر لما أنهم ما كانوا يوعدون بفنائهم الطبيعى ولا كانوا يستعجلون به ﴿ وليأتينهم ﴾ جملة مستأنفة مبينة لما أشير إليه فى الجملة السابقة من مجىء العذاب عند محل الأجل أى وبالله ليأتينهم العذاب الذى عين لهم عند حلول الأجل ﴿ بغتة ﴾ أى فجأة ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ أى بإتيانه ولعل المراد بإتيانه كذلك أنه لا يأتيهم بطريق التعجيل عند استعجالهم والإجابة إلى مسؤلهم فإن ذلك إتيان برأيهم وشعورهم لا أنه يأتيهم وهم غارون آمنون لا يخطرونه بالبال كدأب بعض العقوبات النازلة على بعض الأمم بياتا وهم نائمون أو ضحى وهم يلعبون لما أن إتيان عذاب الآخرة وعذاب يوم بدر ليس من هذا القبيل .

﴿ يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ استئناف مسوق لغاية تجهيلهم وركاكة رأيهم وفيه دلالة على أن ما استعجلوه عذاب الآخرة أى يستعجلونك بالعذاب والحال أن محل العذاب الذى لا عذاب فوقه محيط بهم كأنه قيل يستعجلونك بالعذاب وإن العذاب لمحيط بهم وإنما جىء بالجملة الإسمية دلالة على تحقق الإحاطة واستمرارها أوتنزيلا لحال السبب منزلة حال المسبب فإن الكفر والمعاصى الموجبة لدخول جهنم محيطة بهم وقيل إن الكفر والمعاصى هى النار فى الحقيقة لكنها ظهرت فى هذه النشأة بهذه الصورة وقد مر تفصيله فى سورة الأعراف عند قوله تعالى (والوزن يومئذ الحق) ولام الكافرين إما للعهد ووضع الظاهر موضع المضمر للإشعار بعلة الحكم أو للجنس وهم داخلون فيه دخولا أوليا ﴿ يوم يغشاهم العذاب ﴾ ظرف لمضمر قد طوى ذكره إيذانا بغاية كثرته وفظاعته كأنه قيل يوم يغشاهم العذاب الذى أشير إليه بإحاطة جهنم بهم يكون من الأحوال والأهوال مالايفى به المقال وقيل ظرف للإحاطة ﴿ من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾ أى من جميع جهاتهم ﴿ ويقول ﴾ أى الله عز وجل ويعضده القراءة بنون العظمة أو بعض ملائكته بأمره ﴿ ذوقوا ما كنتم تعملون ﴾ أى جزاء ما كنتم تعملونه فى الدنيا على الاستمرار من السيئات التى من جملتها الاستعجال بالعذاب ﴿ ياعبادى الذين آمنوا ﴾ خطاب تشريف لبعض المؤمنين الذين لا يتمكنون من إقامة أمور الدين كما ينبغى لممانعة من جهة الكفرة وإرشاد لهم إلى الطريق الأسلم ﴿ إن أرضى واسعة فإياى فاعبدون ﴾ أى إذا لم يتسهل لكم العبادة فى بلد ولم يتيسر لكم إظهار دينكم فهاجروا إلى حيث يتسنى لكم ذلك وعنه عليه الصلاة والسلام من فر بدينه من أرض إلى أرض ولو كان شبرا استوجب الجنة وكان رفيق إبراهيم ومحمد عليهما السلام والفاء جواب شرط محذوف إذ المعنى إن أرضى واسعة إن لم تخلصوا العبادة لى فى أرض فأخلصوها فى غيرها ثم حذف الشرط وعوض عنه تقديم المفعول مع إفادة تقديمه معنى الاختصاص والإخلاص .

﴿ كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون ﴾ جملة مستأنفة جىء بها حثا

على المسارعة فى الامتثال بالأمر أى كل نفس من النفوس واجدة مرارة الموت وكربه فراجعة إلى حكمنا وجزائنا بحسب أعمالها فمن كانت هذه عاقبته فليس له بد من التزود والاستعداد لها وقرىء يرجعون ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم ﴾ لننزلنهم ﴿ من الجنة غرفا ﴾ أى علالى وهو مفعول ثان للتبوئة وقرىء لنثوينهم من الثواء بمعنى الإقامة فانتصاب غرفاً حينئذ إما باجرائه مجرى لننزلنهم أو بنزع الخافض أو بتشبيه الظرف الموقت بالمبهم كما فى قوله تعالى (لأقعدن لهم صراطك المستقيم) ﴿ تجرى من تحتها الأنهار ﴾ صفة لغرفا ﴿ خالدين فيها ﴾ أى فى الغرف أو فى الجنة ﴿ نعم أجر العاملين ﴾ أى الأعمال الصالحة والمخصوص بالمدح محذوف ثقة بدلالة ما قبله عليه وقرىء فنعم ﴿ الذين صبروا ﴾ إما صفة للعاملين أو نصب على المدح أى صبروا على أذية المشركين وشدائد المهاجرة وغير ذلك من المحن والمشاق ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ أى ولم يتوكلوا فيما يأتون ويذرون إلا على الله تعالى ﴿ وكأين من دابة لا تحمل رزقها ﴾ روى أن النبى عليه الصلاة والسلام لما أمر المؤمنين الذين كانوا بمكة بالمهاجرة إلى المدينة قالوا كيف نقدم بلدة ليس لنا فيها معيشة فنزلت أى وكم من دابة لا تطيق حمل رزقها لضعفها أو لا تدخره وإنما تصبح ولا معيشة عندها ﴿ الله يرزقها وإياكم ﴾ ثم انها مع ضعفها وتوكلها وإياكم مع قوتكم واجتهادكم سواء فى أنه لا يرزقها وإياكم إلا الله تعالى لأن رزق الكل بأسباب هو المسبب لها وحده فلا تخافوا الفقر بالمهاجرة ﴿ وهو السميع ﴾ المبالغ فى السمع فيسمع قولكم هذا ﴿ العليم ﴾ المبالغ فى العلم فيعلم ضمائركم ﴿ ولئن سألتهم ﴾ أى أهل مكة ﴿ من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله ﴾ إذ لا سبيل لهم إلى إنكاره ولا إلى التردد فيه ﴿ فأنى يؤفكون ﴾ إنكار واستبعاد من جهته تعالى لتركهم العمل بموجبه أى فكيف يصرفون عن الإقرار بتفرده تعالى فى الإلهية مع إقرارهم بتفرده تعالى فيما ذكر من الخلق والتسخير .

﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء ﴾ أن يبسطه له ﴿ من عباده ويقدر له ﴾ أى يقدر لمن يشاء أن يقدر له منهم كائنا من كان على أن الضمير مبهم حسب

إبهام مرجعه أو يقدر لمن يبسطه له على التعاقب ﴿ إن الله بكل شيء عليم ﴾ فيعلم من يليق ببسط الرزق فيبسطه له ومن يليق بقدره له فيقدره له أو فيعلم أن كلا من البسط والقدر فى أى وقت يوافق الحكمة والمصلحة فيفعل كلا منهما فى وقته ﴿ ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيي به الأرض من بعد موتها ليقولن الله ﴾ معترفين بأنه الموجد للممكنات بأسرها أصولها وفروعها ثم إنهم يشركون به بعض مخلوقاته الذى لا يكاد يتوهم منه القدرة على شيء ما أصلا .

﴿قل الحمد لله﴾ على أن جعل الحق بحيث لا يجترىء المبطلون على جحوده وأنه أظهر حجتك عليهم وقيل على أن عصمك من هذه الضلالات ولا يخفى بعده ﴿ بل أكثرهم لا يعقلون ﴾ أى شيئا من الأشياء فلذلك لا يعملون بمقتضى قولهم هذا فيشركون به سبحانه أخس مخلوقاته وقيل لا يعقلون ما تريد بتحميدك عند مقالهم ذلك ﴿ وما هذه الحيوة الدنيا ﴾ إشارة تحقير وازدراء للدنيا وكيف لا وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء » ﴿ إلا لهو ولعب ﴾ اى إلا كما يلهى ويلعب به الصبيان يجتمعون عليه ويبتهجون به ساعة ثم يتفرقون عنه ﴿ وإن الدار الآخرة لهى الحيوان ﴾ أى لهى دار الحياة الحقيقية لامتناع طريان الموت والفناء عليها أو هى فى ذاتها حياة للمبالغة والحيوان مصدر حي سمى به ذو الحياة وأصله حييان فقلبت الياء الثانية واوا لما فى بناء فعلان من معنى الحركة والاضطراب اللازم للحيوان ولذلك اختير على الحياة فى هذا المقام المقتضى للمبالغة ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ أى لما آثروا عليها الحياة الدنيا التى أصلها عدم الحياة ثم ما يحدث فيها من الحياة عارضة سريعة الزوال وشيكة الاضمحلال ﴿ فإذا ركبوا فى الفلك ﴾ متصل بما دل عليه شرح حالهم والركوب هو الاستعلاء على الشيء المتحرك وهو متعد بنفسه كما فى قوله تعالى (والخيل والبغال والحمير لتركبوها) واستعماله ههنا وفى أمثاله بكلمة فى للإيذان بأن المركوب فى نفسه من قبيل الأمكنة وحركته قسرية غير إرادية كما مر فى سورة هود والمعنى أنهم على ما وصفوا من الإشراك فإذا ركبوا فى البحر ولقوا شدة ﴿ دعوا الله مخلصين له الدين ﴾ أى كائنين على

صورة المخلصين لدينهم من المؤمنين حيث لا يدعون غير الله تعالى لعلمهم بأنه لا يكشف الشدائد عنهم إلا هو ﴿فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون﴾ أى فاجؤا المعاودة إلى الشرك ﴿ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا﴾ أى يفاجئون الإشراك ليكونوا كافرين بما آتيناهم من نعمة الإنجاء التى حقها أن يشكروها ﴿فسوف يعلمون﴾ أى عاقبة ذلك وغائلته حين يرون العذاب ﴿أولم يروا﴾ أى ألم ينظروا ولم يشاهدوا ﴿أنا جعلنا﴾ أى بلدهم ﴿حرما آمنا﴾ مصونا من النهب والتعدى سالما أهله من كل سوء ﴿ويتخطف الناس من حولهم﴾ أى والحال أنهم يختلسون من حولهم قتلا وسبيا إذ كانت العرب حوله فى تغاور وتناهب ﴿أفبالباطل يؤمنون﴾ أى أبعد ظهور الحق الذى لا ريب فيه بالباطل خاصة يؤمنون دون الحق ﴿وبنعمة الله يكفرون﴾ وهى المستوجبة للشكر حيث يشركون به غيره وتقديم الصلة فى الموضعين لإظهار كمال شناعة ما فعلوا ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا﴾ بأن زعم أن له شريكا أى هو أظلم من كل ظالم وإن كان سبك النظم دالا على نفى الأظلم من غير تعرض لنفى المساوى وقد مر مرارا ﴿أو كذب بالحق لما جاءه﴾ أى بالرسول أو بالقرآن وفى لما تسفيه لهم بأن لم يتوقفوا ولم يتأملوا حين جاءهم بل سارعوا إلى التكذيب آثر ذى أثير ﴿أليس فى جهنم مثوى للكافرين﴾ تقرير لثوائهم فيها كقول من قال * ألستم خير من ركب المطايا * أى ألا يستوجبون الثواء فيها وقد فعلوا ما فعلوا من الافتراء على الله تعالى والتكذيب بالحق الصريح أو إنكار واستبعاد لاجترائهم على ما ذكر من الافتراء والتكذيب مع علمهم بحال الكفرة أى ألم يعلموا أن فى جهنم مثوى للكافرين حتى اجترؤا هذه الجرأة ﴿والذين جاهدوا فينا﴾ أى فى شأننا ولوجهنا خالصا أطلق المجاهدة ليعم جهاد الأعادى الظاهرة والباطنة ﴿لنهدينهم سبلنا﴾ سبل السير إلينا والوصول إلى جنابنا أو لنزيدنهم هداية إلى سبل الخير وتوفيقا لسلوكها كقوله تعالى (والذين اهتدوا زادهم هدى) وفى الحديث من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم ﴿وإن الله لمع المحسنين﴾ معية النصر

والمعونة. عنه عليه الصلاة والسلام «من قرأ سورة العنكبوت كان له من الأجر عشر حسنات بعدد كل المؤمنين والمنافقين» .

* * *

سورة الروم

مكية إلا قوله (فسبحان الله) الآية . وهي ستون أو تسع وخمسون آية

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ الم ﴾ الكلام فيه كالذي مر في أمثاله من الفواتح الكريمة ﴿ غلبت الروم في أدنى الأرض ﴾ أي أدنى أرض العرب منهم إذ هي الأرض المعهودة عندهم وهي أطراف الشام أو في أدنى أرضهم من العرب على أن اللام عوض عن المضاف إليه قال مجاهد هي أرض الجزيرة وهي أدنى أرض الروم إلى فارس وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما الأردن وفلسطين وقرىء أداني الأرض ﴿ وهم ﴾ أي الروم ﴿ من بعد غلبهم ﴾ أي بعد مغلوبيتهم وقرىء بسكون اللام وهي لغة كالجلب والجلب ﴿ سيغلبون ﴾ أي سيغلبون فارس ﴿ في بضع سنين ﴾ روى أن فارس غزوا الروم فوافوهم بأذرعات وبصرى وقيل بالجزيرة كما مر فغلبوا عليهم وبلغ الخبر مكة ففرح المشركون وشمتوا بالمسلمين وقالوا أنتم والنصارى أهل كتاب ونحن وفارس أميون وقد ظهر اخواننا على إخوانكم فلنظهرن عليكم فقال أبو بكر رضي الله عنه لا يقرر الله أعينكم فوالله ليظهرن الروم على فارس بعد بضع سنين فقال له أبي بن خلف اللعين كذبت اجعل بيننا أجلا أناحبك عليه فناحبه على عشر قلائص من كل منهما وجعلا الأجل ثلاث سنين فأخبر به أبو بكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال البضع ما بين الثلاث إلى التسع فزايده في الخطر وماده في الأجل فجعلاها مائة قلوص إلى تسع سنين ومات أبي من جرح رسول الله صلى الله عليه وسلم وظهرت

الروم على فارس عند رأس سبع ستين وذلك يوم الحديبية وقيل كان النصر للفريقين يوم بدر فأخذ أبو بكر الخطار من ذرية أبي فجاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال تصدق به وكان ذلك قبل تحريم القمار وهذه الآيات من البينات الباهرة الشاهدة بصحة النبوة وكون القرآن من عند الله عز وجل حيث أخبرت عن الغيب الذي لا يعلمه إلا العليم الخبير وقرىء غلبت على البناء للفاعل وسيغلبون على البناء للمفعول والمعنى أن الروم غلبت على ريف الشأم وسيغلبهم المسلمون وقد غزاهم المسلمون فى السنة التاسعة من نزولها ففتحوا بعض بلادهم فإضافة الغلب حينئذ إلى الفاعل .

﴿ لله الأمر من قبل ومن بعد ﴾ أي فى أول الوقتين وفى آخرهما حين غلبوا وحين يغلبون كأنه قيل من قبل كونهم غالبين وهو وقت كونهم مغلوبين ومن بعد كونهم مغلوبين وهو وقت كونهم غالبين والمعنى أن كلا من كونهم مغلوبين أولا وغالبين آخرا ليس إلا بأمر الله تعالى وقضائه وتلك الأيام نداولها بين الناس وقرىء من قبل ومن بعد بالجر من غير تقدير مضاف إليه واقتطاعه كأنه قيل قبلا وبعدا بمعنى أولا وآخرا ﴿ ويومئذ ﴾ أي يوم إذ يغلب الروم على فارس ويحل ما وعده الله تعالى من غلبتهم ﴿ يفرح المؤمنون بنصر الله ﴾ وتغليبه من له كتاب على من لا كتاب له وغيظ من شمت بهم من كفار مكة وكون ذلك من دلائل غلبة المؤمنين على الكفار وقيل نصر الله إظهار صدق المؤمنين فيما اخبروا به المشركين من غلبة الروم على فارس وقيل نصره تعالى أنه ولى بعض الظالمين بعضا وفرق بين كلمتهم حتى تناقصوا وتفانوا وفل كل منهما شوكة الآخر وفى ذلك قوة وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه وافق ذلك يوم بدر وفيه من نصر الله العزيز للمؤمنين وفرحهم بذلك مالا يخفى والأول هو الأنسب لقوله تعالى ﴿ ينصر من يشاء ﴾ أن ينصره من عباده على عدوه ويغلبه عليه فإنه استئناف مقرر لمضمون قوله تعالى لله الأمر من قبل ومن بعد ﴿ وهو العزيز ﴾ المبالغ فى العزة والغلبة فلا يعجزه من يشاء أن ينصر عليه كائنا من كان ﴿ الرحيم ﴾ المبالغ فى الرحمة فينصر من يشاء أن ينصره أى

فريق كان والمراد بالرحمة هى الدنيوية أما على القراءة المشهورة فظاهر لما أن كلا الفريقين لا يستحق الرحمة الأخروية وأما على القراءة الأخيرة فلأن المسلمين وإن كانوا مستحقين لها لكن المراد ههنا نصرهم الذى هو من آثار الرحمة الدنيوية وتقديم وصف العزة لتقدمه فى الاعتبار ﴿ وعد الله ﴾ مصدر مؤكد لنفسه لأن ما قبله فى معنى الوعد كأنه قيل وعد الله وعدا ﴿ لا يخلف الله وعده ﴾ أى وعد كان مما يتعلق بالدنيا والآخرة لاستحالة الكذب عليه سبحانه وإظهار الاسم الجليل فى موقع الإضمار لتعليل الحكم وتفخيمه والجملة استئناف مقرر لمعنى المصدر وقد جوز أن تكون حالا منه فيكون كالمصدر الموصوف كأنه قيل وعد الله وعدا غير مخلف ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ أى ماسبق من شئونه تعالى .

﴿ يعلمون ظاهرا من الحيوة الدنيا ﴾ وهو ما يشاهدونه من زخارفها وملاذها وسائر أحوالها الموافقة لشهواتهم الملائمة لأهوائهم المستدعية لانهماكهم فيها وعكوفهم عليها لا تمتعهم بزخارفها وتنعمهم بملاذها كما قيل فإنهما ليسا مما علموه منها بل من أفعالهم المترتبة على علومهم وتنكير ظاهرا للتحقير والتخسيس دون الوحدة كما توهم أى يعلمون ظاهرا حقيرا خسيسا من الدنيا ﴿ وهم عن الآخرة ﴾ التى هى الغاية القصوى والمطلب الأسنى ﴿ هم غافلون ﴾ لا يخطرونها بالبال ولا يدركون من الدنيا ما يؤدى إلى معرفتها من أحوالها ولا يتفكرون فيها كما سيأتى والجملة معطوفة على يعلمون وإيرادها اسمية للدلالة على استمرار غفلتهم ودوامها وهم الثانية تكرير للأولى أو مبتدأ وغافلون خبره والجملة خبر للأولى وهو على الوجهين مناد على تمكن غفلتهم عن الآخرة المحققة لمقتضى الجملة المتقدمة تقريرا لجهالتهم وتشبيها لهم بالبهائم المقصور إدراكاتها من الدنيا على ظواهرها الخسيسة دون أحوالها التى هى مبادى العلم بأمور الآخرة وإشعارا بأن العلم المذكور وعدم العلم رأسا سيان ﴿ أولم يتفكروا ﴾ إنكار واستقباح لقصر نظارهم على ما ذكر من ظاهر الحياة الدنيا مع الغفلة عن الآخرة والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام وقوله تعالى ﴿ فى أنفسهم ﴾ ظرف للتفكر

وذكره مع ظهور استحالة كونه فى غيرها لتحقيق أمره وتصوير حال المتفكرين وقوله تعالى ﴿ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما﴾ الخ متعلق إما بالعلم الذى يؤدى إليه التفكر ويدل عليه أو بالقول الذى يترتب عليه كما فى قوله تعالى (ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا) أى أعلموا ظاهر الحياة الدنيا فقط أو أقصروا النظر عليه ولم يحدثوا التفكر فى قلوبهم فيعلموا أنه تعالى ما خلقهما وما بينهما من المخلوقات التى هم من جملتها ملتبسة بشىء من الأشياء .

﴿إلا﴾ ملتبسة ﴿بالحق﴾ أو يقولوا هذا القول معترفين بمضمونه إثر ما علموه والمراد بالحق هو الثابت الذى يحق أن يثبت لا محالة لابتنائه على الحكمة البالغة والغرض الصحيح الذى هو استشهاد المكلفين بذواتها وصفاتها وأحوالها المتغيرة على وجود صانعها عز وجل ووحدته وعلمه وقدرته وحكمته واختصاصه بالمعبودية وصحة أخباره التى من جملتها إحياؤهم بعد الفناء بالحياة الأبدية ومجازاتهم بحسب أعمالهم غب ما تبين المحسن من المسىء وامتازت درجات أفراد كل من الفريقين حسب امتياز طبقات علومهم واعتقاداتهم المترتبة على أنظارهم فيما نصب فى المصنوعات من الآيات والدلائل والأمارات والمخايل كما نطق به قوله تعالى (وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا) فإن العمل غير مختص بعمل الجوارح ولذلك فسره عليه الصلاة والسلام بقوله « أيكم أحسن عقلا وأورع عن محارم الله وأسرع فى طاعة الله» وقد مر تحقيقه فى أوائل سورة هود عليه السلام وقوله تعالى ﴿وأجل مسمى﴾ عطف على الحق أى وبأجل معين قدره الله تعالى لبقائها لابد لها من أن تنتهى إليه لا محالة وهو وقت قيام الساعة هذا وقد جوز أن يكون قوله تعالى فى أنفسهم صلة للتفكر على معنى أولم يتفكروا فى أنفسهم التى هى أقرب المخلوقات إليهم وهم أعلم بشئونها وأخبر بأحوالها منهم بأحوال ما عداها فيتدبروا ما أودعها الله تعالى ظاهرا وباطنا من غرائب الحكم الدالة على التدبير دون الإهمال وأنه لابد لها من انتهاء إلى وقت يجازيها

فيه الحكيم الذى دبر أمرها على الإحسان إحسانا وعلى الإساءة مثلها حتى يعلموا عند ذلك أن سائر الخلائق كذلك أمرها جار على الحكمة والتدبير وأنه لابد لها من الانتهاء إلى ذلك الوقت وأنت خبير بأن أمر معاد الإنسان ومجازاته بما عمل من الإساءة والإحسان هو المقصود بالذات والمحتاج إلى الإثبات فجعله ذريعة إلى إثبات معاد ما عداه مع كونه بمعزل من الجزاء تعكيس للأمة فتدبر وقوله تعالى ﴿ وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون ﴾ تذييل مقرر لما قبله ببيان أكثرهم غير مقتصرين على ما ذكر من الغفلة عن أحوال الآخرة والأعراض عن التفكر فيما يرشدهم إلى معرفتها من خلق السموات والأرض وما بينهما من المصنوعات بل هم منكرون جاحدون بلقاء حسابه تعالى وجزائه بالبعث .

﴿ أو لم يسيروا ﴾ توبيخ لهم بعد اتعاظهم بمشاهدة أحوال أمثالهم الدالة على عاقبتهم ومآلهم والهمزة لتقرير المنفى والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى أقعدوا فى أماكنهم ولم يسيروا ﴿ فى الأرض ﴾ وقوله تعالى ﴿ فينظروا ﴾ عطف على يسيروا داخل فى حكم التقرير والتوبيخ والمعنى أنهم قد ساروا فى أقطار الأرض وشاهدوا ﴿ كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ﴾ من الأمم المهلكة كعاد وثمود وقوله تعالى ﴿ كانوا أشد منهم قوة ﴾ الخ بيان لمبدأ أحوالهم ومآلها يعنى أنهم كانوا أقدر منهم على التمتع بالحياة الدنيا حيث كانوا أشد منهم قوة ﴿ وأثاروا الأرض ﴾ أى قلبوها للزراعة والحرث وقيل لاستنباط المياه واستخراج المعادن وغير ذلك ﴿ وعمروها ﴾ أى عمروها أولئك بفنون العمارات من الزراعة والغرس والبناء وغيرها مما يعد عمارة لها ﴿ أكثر مما عمروها ﴾ أى عمارة أكثر كما وكيفا وزمانا من عمارة هؤلاء إياها كيف لا وهم أهل واد غير ذى زرع لا تبسط لهم فى غيره وفيه تهكم بهم حيث كانوا مغترين بالدنيا مفتخرين بمتاعها مع ضعف حالهم وضيق عطنهم إذ مدار أمرها على التبسط فى البلاد والتسلط على العباد والتقلب فى أكناف الأرض بأصناف التصرفات وهم ضيفه ملجأون إلى واد لانفع فيه يخافون أن يتخطفهم الناس ﴿ وجاءتهم رسلهم

بالبينات ﴾ بالمعجزات أو الآيات الواضحات ﴿ فما كان الله ليظلمهم ﴾ أى فكذبوهم فأهلكهم فما كان الله ليهلكهم من غير جرم يستدعيه من قبلهم والتعبير عن ذلك بالظلم مع أن إهلاكه إياهم بلاجرم ليس من الظلم فى شىء على ماتقرر من قاعدة أهل السنة لإظهار كمال نزاهته تعالى عن ذلك بإبرازه فى معرض ما يستحيل صدوره عنه تعالى وقد مر فى سورة الأنفال وسورة آل عمران ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ بأن اجترؤا على اقتراف مايوجبه من المعاصى العظيمة .

﴿ ثم كان عاقبة الذين أساؤا ﴾ أى عملوا السيئات وضع الموصول موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بالإساءة والإشعار بعلة الحكم ﴿ السوأى ﴾ أى العقوبة التى هى أسوأ العقوبات وأفظعها التى هى العقوبة بالنار فإنها تأنيث الأسوأ كالحسنى تأنيث الأحسن أو مصدر كالبشرى وصف به العقوبة مبالغة كأنها نفس السوأى وهى مرفوعة على أنها اسم كان وخبرها عاقبة وقرىء على العكس وهو أدخل فى الجزالة وقوله تعالى ﴿ أن كذبوا بآيات الله ﴾ علة لما أشير إليه من تعذيبهم الدنيوى والأخروى أى لأن كذبوا أو بأن كذبوا بآيات الله المنزلة على رسله عليهم الصلاة والسلام ومعجزاته الظاهرة على أيديهم وقوله تعالى ﴿ وكانوا بها يستهزؤن ﴾ عطف على كذبوا داخل معه فى حكم العلية وإيراد الاستهزاء بصيغة المضارع للدلالة على استمراره وتجدده هذا هو اللائق بجزالة النظم الجليل وقد قيل وقيل .

﴿ الله يبدأ الخلق ﴾ أى ينشئهم ﴿ ثم يعيده ﴾ بعد الموت بالبعث ﴿ ثم إليه ترجعون ﴾ إلى موقف الحساب والجزاء والالتفات للمبالغة فى الترهيب وقرىء بالياء ﴿ ويوم تقوم الساعة ﴾ التى هى وقت إعادة الخلق ورجعهم إليه ﴿ يبلس المجرمون ﴾ أى يسكتون متحيرين لا ينبسون يقال ناظرته فأبلس إذا سكت وأيس من أن يحتج وقرىء بفتح اللام من أبلسه إذا أفحمه وأسكته ﴿ ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء ﴾ يجيرونهم من عذاب الله تعالى كما كانوا يزعمونه وصيغة الجمع لوقوعها فى مقابلة الجمع أى لم يكن لواحد

منهم شفيع أصلا ﴿ وكانوا بشركائهم كافرين ﴾ أى بالهيتهم وشركتهم لله سبحانه حيث وقفوا على كنه أمرهم وصيغة الماضى للدلالة على تحققه وقيل كانوا فى الدنيا كافرين بسببهم وليس بذاك إذ ليس فى الإخبار به فائدة يعتد بها ﴿ ويوم تقوم الساعة ﴾ أعيد لتهويله وتفظيع ما يقع فيه وقوله تعالى: ﴿ يومئذ يتفرقون ﴾ تهويل له اثر تهويل وفيه رمز إلى أن التفرق يقع فى بعض منه وضمير يتفرقون لجميع الخلق المدلول عليهم بما تقدم من بدئهم وإعادتهم ورجعهم لا المجرمون خاصة وليس المراد بتفرقهم افتراق كل فرد منهم عن الآخر بل تفرقهم إلى فريق المؤمنين والكافرين كما فى قوله تعالى (فريق فى الجنة وفريق فى السعير) وذلك بعد تمام الحساب وقوله تعالى ﴿ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون ﴾ تفصيل وبيان لأحوال ذينك الفريقين والروضة كل أرض ذات نبات وماء ورونق ونضارة وتنكيرها للتفخيم والمراد بها الجنة والحبور السرور يقال حبره إذا سره سرورا تهلل له وجهه وقيل الحبرة كل نعمة حسنة والتحبير التحسين واختلفت فيه الأقاويل لاحتماله وجوه جميع المسار فعن ابن عباس ومجاهد يكرمون وعن قتادة ينعمون وعن ابن كيسان يحلون وعن بكر بن عياش التيجان على رؤسهم وعن وكيع السماع فى الجنة وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه ذكر الجنة وما فيها من النعيم وفى آخر القوم أعرابى فقال يا رسول الله هل فى الجنة من سماع قال عليه الصلاة والسلام « يا أعرابى إن فى الجنة لنهراً حافتاه الأبكار من كل بيضاء خوصانية يتغنين بأصوات لم يسمع الخلائق بمثلها قط فذلك أفضل نعيم الجنة » قال الراوى فسألت أبا الدرداء رضى الله عنه بم يتغنين قال بالتسبيح وروى إن فى الجنة لأشجارا عليها أجراس من فضة فإذا أراد أهل الجنة السماع بعث الله تعالى ريحا من تحت العرش فتقع فى تلك الأشجار فتحرك تلك الأجراس بأصوات لو سمعها أهل الدنيا لماتوا طربا.

﴿ وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ﴾ التى من جملتها هذه الآيات الناطقة بما فصل ﴿ ولقاء الآخرة ﴾ صرح بذلك مع اندراجه فى تكذيب الآيات

للاعتناء بأمره وقوله تعالى ﴿ فأولئك ﴾ إشارة الى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة من الكفر والتكذيب بآياته تعالى وبلقاء الآخرة للايذان بكمال تميزهم بذلك عن غيرهم وانتظامهم فى سلك المشاهدات وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للاشعار ببعد منزلتهم فى الشر أى أولئك الموصوفون بما فصل من القبائح ﴿ فى العذاب محضرون ﴾ على الدوام لا يغيبون عنه أبدا ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون ﴾ أثر ما بين حال فريق المؤمنين العاملين للصالحات والكافرين المكذبين بالآيات وما لهما من الثواب والعذاب أمروا بما ينجى من الثانى ويفضى إلى الأول من تنزيه الله عز وجل عن كل ما لا يليق بشأنه سبحانه ومن حمده تعالى على نعمه العظام وتقديم الأول على الثانى لما أن التخلية متقدمة على التحلية والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها أى إذا علمتم ذلك فسبحوا الله تعالى أى نزهوه عما ذكر سبحانه أى تسبيحه اللائق به فى هذه الأوقات واحمدوه فإن الإخبار بثبوت الحمد له تعالى ووجوبه على المميزين من أهل السموات والأرض فى معنى الأمر به على أبلغ وجه وآكده وتوسيطه بين أوقات التسبيح للاعتناء بشأنه والاشعار بأن حقهما أن يجمع بينهما كل ينبىء عنه قوله تعالى (ونحن نسبح بحمدك) وقوله تعالى ﴿ فسبح بحمد ربك ﴾ وقوله صلى الله عليه وسلم من قال حين يصبح وحين يمسى سبحان الله وبحمده مائة مرة حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر وقوله عليه الصلاة والسلام من قال حين يصبح وحين يمسى سبحان الله وبحمده مائة مرة لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به إلا أحد قال مثل ما قال أو زاد عليه وقوله عليه الصلاة والسلام كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم وغير ذلك مما لا يحصى من الآيات والأحاديث وتخصيصهما بتلك الأوقات للدلالة على أن ما يحدث فيها من آيات قدرته وأحكام رحمته ونعمته شواهد ناطقة بتنزهه تعالى واستحقاقه الحمد وموجبة لتسبيحه وتحميده حتما وقوله تعالى وعشيا عطف على حين تمسون وتقديمه على حين تظهرون لمراعاة الفواصل

وتغيير الأسلوب لما أنه لا يجيء منه الفعل بمعنى الدخول فى العشى كالمساء والصباح والظهيرة ولعل السر فى ذلك أنه ليس من الأوقات التى تختلف فيها أحوال الناس وتتغير تغيرا ظاهرا مصححا لوصفهم بالخروج عما قبلها والدخول فيها كالأوقات المذكورة فإن كلا منها وقت تتغير فيه الأحوال تغيرا ظاهرا أما فى المساء والصباح فظاهر وأما فى الظهيرة فلأنها وقت يعتاد فيه التجرد عن الثياب للقيلولة كما مر فى سورة النور وقيل المراد بالتسبيح والحمد الصلاة لاشتمالها عليهما وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الآية جامعة للصلوات الخمس تمسون صلاتا المغرب والعشاء وتصبحون صلاة الفجر وعشيا صلاة العصر وتظهرون صلاة الظهر ولذلك ذهب الحسن إلى أنها مدنية إذ كان يقول إن الواجب بمكة ركعتان فى أى وقت اتفقتا وإنما فرضت الخمس بالمدينة والجمهور على أنها فرضت بمكة وهو الحق لحديث المعراج وفى آخره هن خمس صلوات كل يوم وليلة . عن النبى صلى الله عليه وسلم من سره أن يكال له بالقفيز الأوفى فليقل فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون الآية وعنه عليه الصلاة والسلام من قال حين يصبح فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون إلى قوله تعالى وكذلك تخرجون أدرك مافاته فى يومه ومن قالها حين يمسى أدرك ما فاته فى ليلته وقرىء حينا تمسون وحينا تصبحون أى تمسون فيه وتصبحون فيه ﴿ يخرج الحى من الميت ﴾ كالإنسان من النطفة والطير من البيضة .

﴿ ويخرج الميت من الحى ﴾ النطفة والبيضة من الحيوان ﴿ ويحيى الأرض ﴾ بالنبات ﴿ بعد موتها ﴾ يبسها ﴿ وكذلك ﴾ ومثل ذلك الإخراج ﴿ تخرجون ﴾ من قبوركم وقرىء تخرجون بفتح التاء وضم الراء وهذا نوع تفصيل لقوله تعالى الله يبدأ الخلق ثم يعيده ﴿ ومن آياته ﴾ الباهرة الدالة على أنكم تبعثون دلالة أوضح مما سبق فإن دلالة بدء خلقهم على إعادتهم أظهر من دلالة إخراج الحى من الميت وإخراج الميت من الحى ومن دلالة إحياء الأرض بعد موتها عليها ﴿ أن خلقكم ﴾ أى فى ضمن خلق آدم عليه السلام لما مر مرارا من أن خلقه عليه الصلاة والسلام منطو على خلق ذرياته انطواء إجماليا ﴿ من تراب ﴾

لم يشم رائحة الحياة قط ولا مناسبة بينه وبين ما أنتم عليه فى ذاتكم وصفاتكم ﴿ ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ﴾ أى فاجأتم بعد ذلك وقت كونكم بشرا تنتشرون فى الأرض وهذا مجمل ما فصل فى قوله تعالى (يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة) الآية ﴿ ومن آياته ﴾ الدالة على ما ذكر من البعث وما بعده من الجزاء ﴿ أن خلق لكم ﴾ أى لأجلكم ﴿ من أنفسكم أزواجا ﴾ فإن خلق أصل أزواجكم حواء من ضلع آدم عليه السلام متضمن لخلقهن من أنفسكم على ما عرفته من التحقيق أو من جنسكم لا من جنس آخر وهو الأوفق لقوله تعالى ﴿ لتسكنوا إليها ﴾ أى لتألفوها وتميلوا إليها وتطمئنوا بها فإن المجانسة من دواعى التضام والتعارف كما أن المخالفة من أسباب التفرق والتنافر .

﴿ وجعل بينكم ﴾ أى بين الأزواج إما على تغليب الرجال على النساء فى الخطاب أو على حذف ظرف معطوف على الظرف المذكور أى جعل بينكم وبينهن كما مر فى قوله تعالى (لا نفرق بين أحد من رسله) وقيل أو بين أفراد الجنس أى بين الرجال والنساء ويأباه قوله تعالى ﴿ مودة ورحمة ﴾ فإن المراد بهما ما كان منهما بعصمة الزواج قطعا أى جعل بينكم بالزواج الذى شرعه لكم توادا وتراحما من غير أن يكون بينكم سابقة معرفة ولا رابطة مصححة للتعاطف من قرابة أو رحم قيل المودة والرحمة من قبل الله تعالى والفرك من الشيطان وعن الحسن رحمه الله المودة كناية عن الجماع ، والرحمة عن الولد كما قال تعالى ورحمة منا ﴿ إن فى ذلك ﴾ أى فيما ذكر من خلقهم من تراب وخلق أزواجهم من أنفسهم وإلقاء المودة والرحمة بينهم وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإشعار ببعد منزلته ﴿ لآيات ﴾ عظيمة لا يكتنه كنهها كثيرة لا يقادر قدرها ﴿ لقوم يتفكرون ﴾ فى تضاعيف تلك الأفاعيل المبنية على الحكم البالغة والجملة تذييل مقرر لمضمون ما قبله مع التنبيه على أن ما ذكر ليس بآية فذة كما ينبىء عنه قوله تعالى ومن آياته بل هى مشتملة على آيات شتى .

﴿ ومن آياته ﴾ الدالة على ما ذكر من أمر البعث وما يتلوه من الجزاء ﴿ خلق السموات والأرض ﴾ إما من حيث أن القادر على خلقهما بما فيهما من المخلوقات بلا مادة مستعدة لها أظهر قدرة على إعادة ما كان حيا قبل ذلك وإما من حيث أن خلقهما وما فيهما ليس إلا لمعاش البشر ومعاده كما يفصح عنه قوله تعالى (هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا) وقوله تعالى (وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا) ﴿ واختلاف ألسنتكم ﴾ أى لغاتكم بأن علم كل صنف لغته وألهمه وضعها وأقدره عليها أو أجناس نطقكم وأشكاله فإنك لا تكاد تسمع منطقين متساويين فى الكيفية من كل وجه ﴿ وألوانكم ﴾ ببياض الجلد وسواده وتوسطه فيما بينهما أو تخطيطات الأعضاء وهيئاتها وألوانها وحلاها بحيث وقع بها التمايز بين الأشخاص حتى أن التوأمين مع توافق موادهما وأسبابهما والأمور المتلاقية لهما فى التخليق يختلفان فى شىء من ذلك لا محالة وإن كانا فى غاية التشابه وانما نظم هذا فى سلك الآيات الآفاقية من خلق السموات والأرض مع كونه من الآيات الأنفسية الحقيقية بالانتظام فى سلك ما سبق من خلق أنفسهم وأزواجهم للايذان باستقلاله والاحتراز عن توهم كونه من تتمات خلقهم ﴿ ان فى ذلك ﴾ أى فيما ذكر من خلق السموات والأرض واختلاف الألسنة والألوان ﴿ لآيات ﴾ عظيمة فى أنفسها كثيرة فى عددها ﴿ للعالمين ﴾ أى المتصفين بالعلم كما فى قوله تعالى (وما يعقلها إلا العالمون) وقرىء بفتح اللام وفيه دلالة على كمال وضوح الآيات وعدم خفائها على أحد من الخلق كافة ﴿ ومن آياته منامكم بالليل والنهار ﴾ لاستراحة القوى النفسانية وتقوى القوى الطبيعية ﴿ وابتغاؤكم من فضله ﴾ فيهما فان كلا من المنام وابتغاء الفضل يقع فى الملوين وإن كان الأغلب وقوع الأول فى الأول والثانى فى الثانى أو منامكم بالليل وابتغاؤكم بالنهار كما هو المعتاد والموافق لسائر الآيات الواردة فى ذلك خلا أنه فصل بين القرينين الأولين بالقرينين الأخيرين لأنهما زمان والزمان مع ما وقع فيه كشىء واحد مع إعانة اللف على الاتحاد (إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون)

أى شأنهم أن يسمعوا الكلام سماع تفهم واستبصار حيث يتأملون فى تضاعيف هذا البيان ويستدلون بذلك على شئونه تعالى ﴿ ومن آياته يريكم البرق ﴾ الفعل إما مقدر بأن كما فى قول من قال :

* ألا أيهذا الزاجرى أحضر الوغى * أى لن أحضر أو منزل منزلة المصدر وبه فسر المثل المشهور تسمع بالمعيدى خير من أن تراه أو هو على حاله صفة لمحذوف أى آية يريكم بها البرق كقول من قال :

وما الدهر إلا تارتان فمنهما أموت وأخرى أبتغى العيش أكدح

أى فمنهما تارة أموت فيها وأخرى أبتغى فيها أو ومن آياته شيء أو سحاب يريكم البرق ﴿ خوفا ﴾ من الصاعقة أو للمسافر ﴿ وطمعا ﴾ فى الغيث أو للمقيم ونصبهما على العلة لفعل يستلزمه المذكور فإن إراءتهم البرق مستلزمة لرؤيتهم إياه أو للمذكور نفسه على تقدير مضاف نحو إراءة خوف وطمع أو على تأويل الخوف والطمع بالإخافة والاطماع كقولك فعلته رغما للشيطان أو على الحال نحو كلمته شفاها .

﴿ وينزل من السماء ماء ﴾ وقرىء بالتخفيف ﴿ فيحيى به الأرض ﴾ بالنبات ﴿ بعد موتها ﴾ يبسها ﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ فانها من الظهور بحيث يكفى فى إدراكها مجرد العقل عند استعماله فى استنباط أسبابها وكيفية تكونها ﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ﴾ أى بإرادته تعالى لقيامهما والتعبير عنها بالأمر للدلالة على كمال القدرة والغنى عن المبادىء والأسباب وليس المراد بإقامتهما إنشاءهما لأنه قد بين حاله بقوله تعالى (ومن آياته خلق السموات والأرض) ولا إقامتهما بغير مقيم محسوس كما قيل فأن ذلك من تمام إنشائهما وإن لم يصرح به تعويلا على ما ذكر فى غير موضع من قوله تعالى (خلق السموات بغير عمد ترونها) الآية بل قيامهما واستمرارهما على ما هما عليه إلى أجلهما الذى نطق به قوله تعالى فيما قبل (ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى) وحيث كانت هذه الآية متأخرة عن سائر الآيات المعدودة متصلة بالبعث فى الوجود أخرت عنهن وجعلت متصلة به فى

الذكر أيضا فقيل ﴿ ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾ فانه كلام مسوق للاخبار بوقوع البعث ووجوده بعد انقضاء أجل قيامهما مترتب على تعداد آياته الدالة عليه غير منتظم فى سلكها كما قيل كأنه قيل ومن آياته قيام السموات والأرض على هيئاتهما بأمره تعالى إلى أجل مسمى قدره الله تعالى لقيامهما ثم إذا دعاكم أى بعد انقضاء الأجل من الأرض وأنتم فى قبوركم دعوة واحدة بأن قال أيها الموتى اخرجوا فاجأتم الخروج منها وذلك قوله تعالى (يومئذ يتبعون الداعى) ومن الأرض متعلق بدعاكم إذ يكفى فى ذلك كون المدعو فيها يقال دعوته من أسفل الوادى فطلع إلى لا بتخرجون لأن ما بعد إذا لا يعمل فيما قبلها .

﴿ وله ﴾ خاصة ﴿ من فى السموات والأرض ﴾ من الملائكة والثقلين خلقا وملكا وتصرفا ليس لغيره شركة فى ذلك بوجه من الوجوه ﴿ كل له قانتون ﴾ أى منقادون لفعله لا يمتنعون عليه فى شأن من شئونه تعالى ﴿ وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ بعد موتهم وتكريره لزيادة التقرير والتمهيد لما بعده من قوله تعالى ﴿ وهو أهون عليه ﴾ أى بالإضافة إلى قدركم والقياس على أصولكم وإلا فهما عليه سواء وقيل أهون بمعنى هين وتذكير الضمير مع رجوعه إلى الإعادة لما أنها مؤولة بأن يعيد وقيل هو راجع إلى الخلق وليس بذاك وأما ما قيل من أن الإنشاء بطريق التفضل الذى يتخير فيه الفاعل بين الفعل والترك والإعادة من قبيل الواجب الذى لا بد من فعله حتما فكان أقرب إلى الحصول من الإنشاء المتردد بين الحصول وعدمه فبمعزل من التحصيل إذ ليس المراد بأهونية الفعل أقربيته إلى الوجود باعتبار كثرة الأمور الداعية للفاعل إلى إيجاده وقوة اقتضائها لتعلق قدرته به بل أسهلية تأتيه وصدوره عنه بعد تعلق قدرته بوجوده وكونه واجبا بالغير ولا تفاوت فى ذلك بين أن يكون ذلك التعلق بطريق الإيجاب أو بطريق الاختيار ﴿ وله المثل الأعلى ﴾ أى الوصف الأعلى العجيب الشان من القدرة العامة والحكمة التامة وسائر صفات الكمال التى ليس لغيره ما يدانيها فضلا عما يساويها ومن فسره بقوله لا إله إلا الله أراد به الوصف بالوحدانية ﴿ فى السموات والأرض ﴾ متعلق بمضمون الجملة المتقدمة على معنى أنه تعالى

قد وصف به وعرف فيهما على ألسنة الخلائق وألسنة الدلائل وقيل متعلق بالأعلى وقيل بمحذوف هو حال منه أو من المثل أو من ضميره فى الأعلى ﴿ وهو العزيز ﴾ القادر الذى لا يعجز عن بدء ممكن وإعادته ﴿الحكيم﴾ الذى يجرى الأفعال على سنن الحكمة والمصلحة .

﴿ ضرب لكم مثلا ﴾ يتبين به بطلان الشرك ﴿ من أنفسكم ﴾ أى منتزعا من أحوالها التى هى أقرب الأمور إليكم وأعرفها عندكم وأظهرها دلالة على ما ذكر من بطلان الشرك لكونها بطريق الأولوية وقوله تعالى ﴿ هل لكم ﴾ الخ تصوير للمثل أى هل لكم ﴿ مما ملكت أيمانكم ﴾ من العبيد والاماء ﴿ من شركاء فيما رزقناكم ﴾ من الأموال وما يجرى مجراها مما تتصرفون فيها فمن الأولى ابتدائية والثانيه تبعيضية والثالثة مزيدة لتأكيد النفى المستفاد من الاستفهام .

فقوله تعالى ﴿فأنتم فيه سواء﴾ تحقيق لمعنى الشركة وبيان لكونهم وشركائهم متساوين فى التصرف فيما ذكر من غير مزية لهم عليها على أن هناك محذوفا معطوفا على أنتم لا أنه عام للفريقين بطريق التغليب أى هل ترضون لأنفسكم والحال أن عبيدكم أمثالكم فى البشرية وأحكامها أن يشاركوكم فيما رزقناكم وهو مستعار لكم فأنتم وهم فيه سواء شرع يتصرفون فيه كتصرفكم من غير فرق بينكم وبينهم .

﴿ تخافونهم ﴾ خبر آخر لأنتم أو حال من ضمير الفاعل فى سواء أى تهابون أن تستبدوا بالتصرف فيه بدون رأيهم ﴿ كخيفتكم أنفسكم ﴾ أى خيفة كائنة مثل خيفتكم من الأحرار المساهمين لكم فيما ذكر والمعنى نفى مضمون ما فصل من الجملة الاستفهامية أى لا ترضون بأن يشارككم فيما هو معار لكم مماليككم وهم أمثالكم فى البشرية غير مخلوقين لكم بل لله تعالى فكيف تشركون به سبحانه فى المعبودية التى هى من خصائصه الذاتية مخلوقه بل مصنوع مخلوقه حيث تصنعونه بأيديكم ثم تعبدونه

﴿ كذلك ﴾ أى مثل ذلك التفصيل الواضح ﴿ تفصل الآيات ﴾ أى نبينها ونوضحها لا تفصيلا أدنى منه فإن التمثيل تصوير للمعانى المعقولة بصورة المحسوس وإبراز لأوابد المدركات على هيئة المأنوس فيكون فى غاية الإيضاح والبيان ﴿ لقوم يعقلون ﴾ أى يستعملون عقولهم فى تدبر الأمور وتخصيصهم بالذكر مع عموم تفصيل الآيات للكل لأنهم المنتفعون بها ﴿ بل اتبع الذين ظلموا ﴾ إعراض عن مخاطبتهم ومحاولة إرشادهم إلى الحق بضرب المثل وتفصيل الآيات واستعمال المقدمات الحقة المعقولة وبيان لاستحالة تبعيتهم للحق كأنه قيل لم يعقلوا شيئاً من الآيات المفصلة بل اتبعوا ﴿ أهواءهم ﴾ الزائغة ووضع الموصول موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بأنهم فى ذلك الاتباع ظالمون واضعون للشىء فى غير موضعه أو ظالمون لأنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد ﴿ بغير علم ﴾ أى جاهلين ببطلان ما أتوا مكبين عليه لا يلويهم عنه صارف حسبما يصرف العالم إذا اتبع الباطل علمه ببطلانه ﴿ فمن يهدى من أضل الله ﴾ أى خلق فيه الضلال بصرف اختياره إلى كسبه أى لا يقدر على هدايته أحد ﴿ وما لهم ﴾ أى لمن أضله الله تعالى والجمع باعتبار المعنى ﴿ من ناصرين ﴾ يخلصونهم من الضلال ويحفظونهم من تبعاته وآفاته على معنى ليس لواحد منهم ناصر واحد على ما هو قاعدة مقابلة الجمع بالجمع ﴿ فأقم وجهك للدين ﴾ تمثيل لإقباله على الدين واستقامته وثباته عليه واهتمامه بترتيب أسبابه فإن من اهتم بشىء محسوس بالبصر عقد عليه طرفه وسدد إليه نظره وقوم له وجهه مقبلا به عليه أى فقوم وجهك له وعدله غير ملتفت يمينا وشمالا وقوله تعالى ﴿ حنيفا ﴾ حال من المأمور أو من الدين ﴿ فطرة الله ﴾ الفطرة الخلقة وانتصابها على الإغراء أى الزموا أو عليكم فطرة الله فإن الخطاب للكل كما يفصح عنه قوله تعالى منيبين والإفراد فى أقم لما أن الرسول عليه الصلاة والسلام إمام الأمة فأمره عليه السلام مستتبع لأمرهم والمراد بلزومها الجريان على موجبها وعدم الإخلال به باتباع الهوى وتسويل الشياطين وقيل على المصدر أى فطر الله فطرة وقوله تعالى ﴿ التى فطر الناس عليها ﴾ صفة لفطرة الله مؤكدة لوجوب الامتثال بالأمر فإن خلق الله الناس

على فطرته التى هى عبارة عن قبولهم للحق وتمكنهم من إدراكه أو عن ملة الإسلام من موجبات لزومها والتمسك بها قطعاً فإنهم لو خلوا وما خلقوا عليه أدى بهم إليها وما اختاروا عليها دينا آخر ومن غوى منهم فبإغواء شياطين الإنس والجن ومنه قوله عليه الصلاة والسلام حكاية عن رب العزة كل عبادى خلقت حنفاء فاجتالتهم الشياطين عن دينهم وأمروهم أن يشركوا بى غيرى. وقوله عليه الصلاة والسلام كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهودانه وينصرانه وقوله تعالى ﴿لا تبديل لخلق الله﴾ تعليل للأمر بلزوم فطرته تعالى أو لوجوب الامتثال به أى لا صحة ولا استقامة لتبديله بالإخلال بموجبه وعدم ترتيب مقتضاه عليه باتباع الهوى وقبول وسوسة الشيطان وقيل لا يقدر أحد على أن يغيره فلابد حينئذ من حمل التبديل على تبديل نفس الفطرة بإزالتها رأساً ووضع فطرة أخرى مكانها غير مصححة لقبول الحق والتمكن من إدراكه ضرورة أن التبديل بالمعنى الأول مقدور بل واقع قطعاً فالتعليل حينئذ من جهة أن سلامة الفطرة متحققة فى كل أحد فلابد من لزومها بترتيب مقتضاها عليها وعدم الإخلال به بما ذكر من اتباع الهوى وخطوات الشيطان ﴿ذلك﴾ إشارة إلى الدين المأمور بإقامة الوجه له أو إلى لزوم فطرة الله المستفاد من الإغراء أو إلى الفطرة إن فسرت بالملة والتذكير بتأويل المذكور أو باعتبار الخبر ﴿الدين القيم﴾ المستوى الذى لا عوج فيه ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ ذلك فيصدون عنه صدودا ﴿منيبين إليه﴾ حال من الضمير فى الناصب المقدر لفطرة الله أو فى أقم لعمومه للأمة حسبما أشير إليه وما بينهما اعتراض أى راجعين إليه من أناب إذا رجع مرة بعد أخرى وقوله تعالى ﴿واتقوه﴾ أى من مخالفة أمره عطف على المقدر المذكور وكذا قوله تعالى .

﴿وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين﴾ المبدلين لفطرة الله تعالى تبديلا ﴿من الذين فرقوا دينهم﴾ بدل من المشركين بإعادة الجار وتفريقهم لدينهم اختلافهم فيما يعبدونه على اختلاف أهوائهم وفائدة الإبدال التحذير عن الانتماء إلى حزب من أحزاب المشركين ببيان أن الكل على الضلال المبين

وقرىء فارقوا أى تركوا دينهم الذى أمروا به ﴿ وكانوا شيعا ﴾ أى فرقا تشايع كل منها إمامها الذى أضلها ﴿ كل حزب بما لديهم ﴾ من الدين المعوج المؤسس على الرأى الزائغ والزعم الباطل ﴿ فرحون ﴾ مسرورون ظنا منهم أنه حق وأنى له ذلك فالجملة اعتراض مقرر لمضمون ما قبله من تفريق دينهم وكونهم شيعا وقد جوز أن يكون فرحون صفة لكل على أن الخبر هو الظرف المقدم أعنى من الذين فرقوا ولا يخفى بعده ﴿ وإذا مس الناس ضر ﴾ أى شدة ﴿ دعوا ربهم منيبين إليه ﴾ راجعين إليه من دعاء غيره ﴿ ثم إذا أذاقهم منه رحمة ﴾ خلاصا من تلك الشدة ﴿ إذا فريق منهم بربهم ﴾ الذى كانوا دعوه منيبين إليه ﴿ يشركون ﴾ أى فاجأ فريق منهم الإشراك وتخصيص هذا الفعل ببعضهم لما أن بعضهم ليسوا كذلك كما فى قوله تعالى (فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد) أى مقيم على الطريق القصد أو متوسط فى الكفر لانزجاره فى الجملة ﴿ ليكفروا بما آتيناهم ﴾ اللام فيه للعاقبة وقيل للأمر التهديدى كقوله تعالى ﴿ فتمتعوا ﴾ غير أنه التفت فيه للمبالغة وقرىء وليتمتعوا ﴿ فسوف تعلمون ﴾ عاقبة تمتعكم وقرىء بالياء على أن تمتعوا ماض والالتفات إلى الغيبة فى قوله تعالى ﴿ أم أنزلنا عليهم ﴾ للإيذان بالإعراض عنهم وتعديد جناياتهم لغيرهم بطريق المباثة ﴿ سلطانا ﴾ أى حجة واضحة وقيل ذا سلطان أى ملكا معه برهان ﴿ فهو يتكلم ﴾ تكلم دلالة كما فى قوله تعالى (هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق) أو تكلم نطق ﴿ بما كانوا به يشركون ﴾ بإشراكهم به تعالى أو بالأمر الذى بسببه يشركون ﴿ وإذا أذقنا الناس رحمة ﴾ أى نعمة من صحة وسعة ﴿ فرحوا بها ﴾ بطرا وأشرا لا حمدا وشكرا .

﴿ وإن تصبهم سيئة ﴾ شدة ﴿ بما قدمت أيديهم ﴾ بشؤم معاصيهم ﴿ إذا هم يقنطون ﴾ فاجؤا القنوط من رحمته تعالى وقرىء بكسر النون ﴿ أو لم يروا ﴾ أى ألم ينظروا ولم يشاهدوا ﴿ أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ فما لهم لم يشكروا ولم يحتسبوا فى السراء والضراء كالمؤمنين ﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ فيستدلون بها على كمال القدرة والحكمة ﴿ فآت ذا القربى

حقه﴾ من الصلة والصدقة وسائر المبرات ﴿والمسكين وابن السبيل﴾ ما يستحقانه والخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام أو لمن بسط له كما تؤذن به الفاء ﴿ذلك خير للذين يريدون وجه الله﴾ ذاته أو جهته ويقصدون بمعروفهم إياه تعالى خالصا أو جهة التقرب إليه لا جهة أخرى ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ حيث حصلوا بما بسط لهم النعيم المقيم ﴿وما آتيتم من ربا﴾ زيادة خالية عن العوض عند المعاملة وقرىء أتيتم بالقصر أى غشيتموه أو رهقتموه من إعطاء ربا ﴿ليربو فى أموال الناس﴾ ليزيد ويزكوا فى أموالهم ﴿فلا يربو عند الله﴾ أى لا يبارك فيه وقرىء لتربوا أى لتزيدوا أو لتصيروا ذوى ربا ﴿وما آتيتم من زكوة تريدون وجه الله﴾ أى تبتغون به وجهه تعالى خالصا ﴿فأولئك هم المضعفون﴾ أى ذوو الأضعاف من الثواب ونظير المضعف المقوى والموسر لذى القوة واليسار أو الذين ضعفوا ثوابهم وأموالهم بالبركة وقرىء بفتح العين وفى تغيير النظم الكريم والالتفات من الجزالة ما لا يخفى ﴿الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شىء﴾ أثبت له تعالى لوازم الألوهية وخواصها ونفاها رأسا عما اتخذوه شركاء له تعالى من الأصنام وغيرها مؤكدا بالإنكار على ما دل عليه البرهان والعيان ووقع عليه الوفاق ثم استنتج منه تنزهه عن الشركاء بقوله تعالى ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ وقد جوز أن يكون الموصول صفة والخبر هل من شركائكم والرابط قوله تعالى من ذلكم لأنه بمعنى من أفعاله ومن الأولى والثانية تفيدان شيوع الحكم فى جنس الشركاء والأفعال والثالثة مزيدة لتعميم المنفى وكل منها مستقلة بالتأكيد وقرىء تشركون بصيغة الخطاب ﴿ظهر الفساد فى البر والبحر﴾ كالجدب والموتان وكثرة الحرق والغرق وإخفاق الغاصة ومحق البركات وكثرة المضار أو الضلالة والظلم وقيل المراد بالبحر قرى السواحل وقرى البحور ﴿بما كسبت أيدى الناس﴾ بشؤم معاصيهم أو بكسبهم إياها وقيل ظهر الفساد فى البر بقتل قابيل أخاه هابيل وفى البحر بأن جلندى كان يأخذ كل سفينة غصبا ﴿ليذيقهم بعض الذى عملوا﴾ أى بعض جزائه فإن تمامه فى الآخرة واللام

للعلة أو للعاقبة وقرىء لنذيقهم بالنون ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ عما كانوا عليه ﴿ قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل ﴾ ليشاهدوا آثارهم ﴿ كان أكثرهم مشركين ﴾ استئناف للدلالة على أن ما أصابهم لفشو الشرك فيما بينهم أو كان الشرك فى أكثرهم وما دونه من المعاصى فى قليل منهم ﴿ فأقم وجهك للدين القيم ﴾ أى البليغ الاستقامة ﴿ من قبل أن يأتى يوم لا مرد له ﴾ لا يقدر أحد على رده ﴿ من الله ﴾ متعلق بيأتى أو بمرد لأنه مصدر والمعنى لا يرده الله تعالى لتعلق إرادته القديمة بمجيئه ﴿ يومئذ يصدعون ﴾ أصله يتصدعون أى يتفرقون فريق فى الجنة وفريق فى السعير .

﴿ من كفر فعليه كفره ﴾ أى وبال كفره وهو النار المؤبدة ﴿ ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون ﴾ أى يسوون منزلا فى الجنة وتقديم الظرف فى الموضعين للدلالة على الاختصاص ﴿ ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله ﴾ متعلق بيصدعون وقيل بيمهدون أى يتفرقون بتفريق الله تعالى فريقين ليجزى كلا منهما بحسب أعمالهم وحيث كان جزاء المؤمنين هو المقصود بالذات أبرز ذلك فى معرض الغاية وعبر عنه بالفضل لما أن الإثابة بطريق التفضل لا الوجوب وأشير إلى جزاء الفريق الآخر بقوله تعالى ﴿ إنه لا يحب الكافرين ﴾ فإن عدم محبته تعالى كناية عن بغضه الموجب لغضبه المستتبع للعقوبة لا محالة ﴿ ومن آياته أن يرسل الرياح ﴾ أى الشمال والصبا والجنوب فإنها رياح الرحمة وأما الدبور فريح العذاب ومنه قوله عليه الصلاة والسلام اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا وقرىء الريح على إرادة الجنس ﴿ مبشرات ﴾ بالمطر ﴿ وليذيقكم من رحمته ﴾ وهى المنافع التابعة لها وقيل الخصب التابع لنزول المطر المسبب عنها أو الروح الذى هو مع هبوبها واللام متعلقة بيرسل والجملة معطوفة على مبشرات على المعنى كأنه قيل ليبشركم بها وليذيقكم أو بمحذوف يفهم من ذكر الإرسال تقديره وليذيقكم وليكون كذا وكذا يرسلها لا لأمر آخر لا تعلق له بمنافعكم ﴿ ولتجرى الفلك ﴾ بسوقها ﴿ بأمره ولتبتغوا من فضله ﴾ بتجارة البحر ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ ولتشكروا نعمة الله فيما ذكر من الغايات الجليلة

﴿ ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم ﴾ كما أرسلناك إلى قومك ﴿ فجاؤهم بالبينات ﴾ أى جاء كل رسول قومه بما يخصه من البينات كما جئت قومك ببيناتك والفاء فى قوله تعالى ﴿ فانتقمنا من الذين أجرموا ﴾ فصيحة أى فكذبوهم فانتقمنا منهم وإنما وضع موضع ضميرهم الموصول للتنبيه على مكان المحذوف والإشعار بكونه علة للانتقام وفى قوله تعالى ﴿ وكان حقا علينا نصر المؤمنين ﴾ مزيد تشريف وتكرمة للمؤمنين حيث جعلوا مستحقين على الله تعالى أن ينصرهم وإشعار بأن الانتقام من الكفرة لأجله وقد يوقف على حقاً على أنه متعلق بالانتقام ولعل توسيط الآية الكريمة بطريق الاعتراض بين ما سبق وما لحق من أحوال الرياح وأحكامها لإنذار الكفرة وتحذيرهم عن الإخلال بمواجب الشكر المطلوب بقوله تعالى لعلكم تشكرون بمقابلة النعم المعدودة المنوطة بإرسالها كيلا يحل بهم مثل ما حل بأولئك الأمم من الانتقام ﴿ الله الذى يرسل الرياح ﴾ استئناف مسوق لبيان ما أجمل فيما سبق من أحوال الرياح ﴿ فتثير سحابا فيبسطه ﴾ متصلا تارة ﴿ فى السماء ﴾ فى جوها ﴿ كيف يشاء ﴾ سائرا وواقفا مطبقا وغير مطبق من جانب دون جانب إلى غير ذلك ﴿ ويجعله كسفاً ﴾ تارة أخرى أى قطعاً وقرىء بسكون السين على أنه مخفف جمع كسفة أو مصدر وصف به ﴿ فترى الودق ﴾ المطر ﴿ يخرج من خلاله ﴾ فى التارتين .

﴿ فإذا أصاب به من يشاء من عباده ﴾ أى بلادهم وأراضيهم ﴿ إذا هم يستبشرون ﴾ فاجؤا الاستبشار بمجىء الخصب ﴿ وإن كانوا ﴾ إن مخففة من إن وضمير الشأن الذى هو اسمها محذوف أى وإن الشأن كانوا ﴿ من قبل أن ينزل عليهم ﴾ أى المطر ﴿ من قبله ﴾ تكرير للتأكيد والإيذان بطول عهدهم بالمطر واستحكام يأسهم منه وقيل الضمير للمطر أو السحاب أو الإرسال وقيل للكسف على القراءة بالسكون وليس بواضح وأقرب من ذلك أن يكون الضمير للاستبشار ومن متعلقة بينزل لتفيد سرعة تقلب قلوبهم من اليأس إلى الاستبشار بالإشارة إلى غاية تقارب زمانيهما ببيان اتصال اليأس بالتنزيل

المتصل بالاستبشار بشهادة إذا الفجائية ﴿ لمبلسين ﴾ خبر كانوا واللام فارقة أى آيسين ﴿ فانظر إلى آثار رحمة الله ﴾ المترتبة على تنزيل المطر من النبات والأشجار وأنواع الثمار والفاء للدلالة على سرعة ترتبها عليه وقرىء أثر بالتوحيد وقوله تعالى ﴿ كيف يحيي ﴾ أى الله تعالى ﴿ الأرض بعد موتها ﴾ فى حيز النصب بنزع الخافض وكيف معلق لانظر أى فانظر إلى إحيائه البديع للأرض بعد موتها وقيل على الحالية بالتأويل وأيا ما كان فالمراد بالأمر بالنظر التنبيه على عظم قدرته تعالى وسعة رحمته مع ما فيه من التمهيد لما يعقبه من أمر البعث وقرىء تحيي بالتأنيث على الإسناد إلى ضمير الرحمة ﴿ إن ذلك ﴾ العظيم الشأن الذى ذكر بعض شئونه ﴿ لمحيي الموتى ﴾ لقادر على إحيائهم فإنه إحداث لمثل ما كان فى مواد أبدانهم من القوى الحيوانية كما أن إحياء الأرض إحداث لمثل ما كان فيها من القوى النباتية أو لمحييهم البتة وقوله تعالى ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله أى مبالغ فى القدرة على جميع الأشياء التى من جملتها إحياؤهم لما أن نسبة قدرته إلى الكل سواء .

﴿ ولئن أرسلنا ريحاً فرأوه ﴾ أى الأثر المدلول عليه بالآثار فإنه اسم جنس يعم القليل والكثير ﴿ مصفرا ﴾ بعد خضرته وقد جوز أن يكون الضمير للسحاب لأنه إذا كان مصفرا لم يمطر ولا يخفى بعده واللام فى لئن موطئة للقسم دخلت على حرف الشرط والفاء فى فرأوه فصيحة واللام فى قوله تعالى ﴿ لظلوا ﴾ لام جواب القسم السادمسد الجوابين أى وبالله لئن أرسلنا ريحا حارة أو باردة فضربت زرعهم بالصفار فرأوه مصفراً ليظلن ﴿ من بعده يكفرون ﴾ من غير تلعثم وفيه من ذمهم بعد تثبيتهم وسرعة تزلزلهم بين طرفى الإفراط والتفريط ما لا يخفى حيث كان الواجب عليهم أن يتوكلوا على الله تعالى فى كل حال ويلجئوا إليه بالاستغفار إذا احتبس عنهم القطر ولا ييأسوا من روح الله تعالى ويبادروا إلى الشكر بالطاعة إذا أصابهم برحمته ولا يفرطوا فى الاستبشار وأن يصبروا على بلائه إذا اعترى زرعهم آفة ولا يكفروا بنعمائه فعكسوا الأمر وأبوا ما يجديهم وأتوا بما يرديهم ﴿ فإنك لا تسمع الموتى ﴾ لما أنهم

مثلهم لانسداد مشاعرهم عن الحق ﴿ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين﴾ تقييد الحكم بما ذكر لبيان كمال سوء حال الكفرة والتنبيه على أنهم جامعون لخصلتى السوء نبو أسماعهم عن الحق وإعراضهم عن الإصغاء إليه ولو كان فيهم إحداهما لكفاهم ذلك فكيف وقد جمعوهما فإن الأصم المقبل إلى المتكلم ربما يفطن من أوضاعه وحركاته لشيء من كلامه وإن لم يسمعه أصلا وأما إذا كان معرضا عنه فلايكاد يفهم منه شيئاوقرىء بالياء المفتوحة ورفع الصم ﴿وماأنت بهادى العمى عن ضلالتهم﴾ سموا عميا إما لفقدهم المقصود الحقيقى من الإبصار أو لعمى قلوبهم وقرىء تهدى العمى ﴿إن تسمع﴾ أى ما تسمع ﴿إلا من يؤمن بآياتنا﴾ فإن إيمانهم يدعوهم إلى التدبر فيها وتلقيها بالقبول أو إلا من يشارف الإيمان بها ويقبل عليها إقبالا لائقا ﴿فهم مسلمون﴾ منقادون لماتأمرهم به من الحق ﴿الله الذى خلقكم من ضعف﴾ مبتدأ وخبر أى ابتدأكم ضعفاء وجعل الضعف أساس أمركم كقوله تعالى (وخلق الإنسان ضعيفا) أى خلقكم من أصل ضعيف هو النطفة ﴿ثم جعل من بعد ضعف قوة﴾ وذلك عند بلوغكم الحلم أو تعلق الروح بأبدانكم ﴿ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة﴾ إذا أخذ منكم السن وقرىء بضم الضاد فى الكل وهو أقوى لقول ابن عمر رضى الله عنهما قرأتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقرأنى من ضعف وهما لغتان كالفقر والفقر والتنكير مع التكرير لأن المتقدم غير المتأخر ﴿يخلق مايشاء﴾ من الأشياء التى من جملتها ما ذكر من الضعف والقوة والشيبة ﴿وهو العليم القدير﴾ المبالغ فى العلم والقدرة فإن الترديد فيما ذكر من الأطوار المختلفة من أوضح دلائل العلم والقدرة ﴿ويوم تقوم الساعة﴾ أى القيامة سميت بها لأنها تقوم فى آخر ساعةمن ساعات الدنيا أولأنها تقع بغتة وصارت علما لها كالنجم للثريا والكوكب للزهرة ﴿يقسم المجرمون ما لبثوا﴾ أى فى القبور أو فى الدنيا والأول هو الأظهر لأن لبثهم مغيا بيوم البعث كما سيأتى وليس لبثهم فى الدنيا كذلك وقيل فيما بين فناء الدنيا والبعث وانقطاع عذابهم وفى الحديث ما بين فناء الدنيا والبعث أربعون وهو محتمل للساعات والأيام والأعوام وقيل

لا يعلم أهى أربعون سنة أو أربعون ألف سنة ﴿ غير ساعة ﴾ استقلوا مدة لبثهم نسيانا أو كذبا أو تخمينا ﴿ كذلك كانوا يؤفكون ﴾ مثل ذلك الصرف كانوا يصرفون فى الدنيا عن الحق والصدق .

﴿ وقال الذين أوتوا العلم والإيمان ﴾ فى الدنيا من الملائكة والإنس ﴿ لقد لبثتم فى كتاب الله ﴾ فى علمه أو قضائه أو ماكتبه وعينه أو فى اللوح أو القرآن وهو قوله تعالى (ومن ورائهم برزخ) ﴿ إلى يوم البعث ﴾ ردوا بذلك ما قالوه وأيدوه باليمين كأنهم من فرط حيرتهم لم يدروا أن ذلك هو البعث الموعود الذى كانوا ينكرونه وكانوا يسمعون أنه يكون بعد فناء الخلق كافة ويقدرون لذلك زمانا مديدا وإن لم يعتقدوا تحققه فرد العالمون مقالتهم ونبهوهم على أنهم لبثوا إلى غاية بعيدة كانوا يسمعونها وينكرونها ويكتوهم بالإخبار بوقوعها حيث قالوا ﴿ فهذا يوم البعث ﴾ الذى كنتم توعدون فى الدنيا ﴿ ولكنكم كنتم لا تعلمون ﴾ أنه حق فتستعجلون به استهزاء والفاء جواب شرط محذوف كما فى قول من قال :

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا ثم القفول فقد جئنا خراسانا

﴿ فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ﴾ أى عذرهم وقرىء تنفع بالتاء محافظة على ظاهر اللفظ وإن توسط بينهما فاصل ﴿ ولا هم يستعتبون ﴾ لا يدعون إلى ما يقتضى إعتابهم أى إزالة عتبهم من التوبة والطاعة كما دعوا إليه فى الدنيا من قولهم استعتبنى فلان فأعتبته أى استرضانى فأرضيته ﴿ ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل ﴾ أى وبالله لقد بينا لهم كل حال ووصفنا لهم كل صفة كأنها فى غرابتها مثل وقصصنا عليهم كل قصة عجيبة الشأن كصفة المبعوثين يوم القيامة وقصتهم وما يقولون وما يقال لهم ويفعل بهم من رد اعتذارهم ﴿ ولئن جئتهم بآية ﴾ من آيات القرآن الناطقة بأمثال ذلك ﴿ ليقولن الذين كفروا ﴾ لفرط عتوهم وعنادهم وقساوة قلوبهم مخاطبين للنبى عليه الصلاة والسلام والمؤمنين ﴿ إن أنتم إلا مبطلون ﴾ أى مزورون ﴿ كذلك ﴾ مثل ذلك الطبع الفظيع ﴿ يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون ﴾ لا يطلبون العلم

ولا يتحرون الحق بل يصرون على خرافات اعتقدوها وترهات ابتدعوها فإن الجهل المركب يمنع إدراك الحق ويوجب تكذيب المحق .

﴿ فاصبر ﴾ على ما تشاهد منهم من الأقوال الباطلة والأفعال السيئة ﴿ إن وعد الله حق ﴾ وقد وعدك بالنصرة وإظهار الدين وإعلاء كلمة الحق ولا بد من إنجازه والوفاء به لا محالة ﴿ ولا يستخفنك ﴾ لا يحملنك على الخفة والقلق ﴿ الذين لا يوقنون ﴾ بما تتلو عليهم من الآيات البينة بتكذيبهم إياها وإيذائهم لك بأباطيلهم التي من جملتها قولهم إن أنتم إلا مبطلون فإنهم شاكون ضالون ولا يستبعد منهم أمثال ذلك وقرىء بالنون المخففة وقرىء ولا يستحقنك من الاستحقاق أي لا يفتننك فيملكوك ويكونوا أحق بك من المؤمنين وأيا ما كان فظاهر النظم الكريم وإن كان نهيا للكفرة عن استخفافه عليه السلام عن التأثر من استخفافهم والافتتان بفتنتهم على طريق الكناية كما في قوله تعالى (ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا) .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الروم كان له من الأجر عشر حسنات بعدد كل ملك يسبح الله تعالى بين السماء والأرض وأدرك ما ضيع في يومه وليلته .

* * *

سورة لقمان

مكية ، وقيل (إلا الذين يقيمون الصلوة ويؤتون الزكوة) فإن وجوبهما بالمدينة ، وهو ضعيف لأنه ينافى شرعيتهما بمكة ، وقيل إلا ثلاثا من قوله (ولو أن مافى الأرض من شجرة أقلام) وهى أربع أو ثلاث وثلاثون آية

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ الم تلك آيات الكتاب ﴾ سلف بيانه فى نظائره ﴿ الحكيم ﴾ أى ذى الحكمة لاشتماله عليها أو هو وصف له بنعته تعالى أو أصله الحكيم منزله أوقائله فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه فانقلب مرفوعا فاستكن فى الصفة المشبهة وقيل الحكيم فعيل بمعنى مفعل كما قالوا أعقدت اللبن فهو عقيد أى معقد وهو قليل وقيل بمعنى فاعل ﴿ هدى ورحمة ﴾ بالنصب على الحالية من الآيات والعامل فيهما معنى الإشارة وقرئا بالرفع على أنهما خبران آخران لاسم الإشارة أو لمبتدأ محذوف ﴿ للمحسنين ﴾ أى العاملين للحسنات فإن أريد بها مشاهيرها المعهودة فى الدين فقوله تعالى ﴿ الذين يقيمون الصلوة ويؤتون الزكوة وهم بالآخرة هم يوقنون ﴾ بيان لما عملوها من الحسنات على طريقة قوله :

الألمعى الذى يظن بك الظـــن كأن قد رأى وقد سمعا

وإن أريد بها جميع الحسنات فهو تخصيص لهذه الثلاث بالذكر من بين سائر شعبها لإظهار فضلها وإنافتها على غيرها وتخصيص الوجه الأول بصورة كون الموصول صفة للمحسنين والوجه الأخير بصورة كونه مبتدأ مما لا وجه له ﴿ أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾ الفائزون بكل مطلوب والناجون من كل مهروب لحيازتهم قطرى العلم والعمل وقد مر فيه من المقال فى مطلع سورة البقرة بما لا مزيد عليه .

﴿ومن الناس﴾ محله الرفع على الابتداء باعتبار مضمونه أو بتقدير الموصوف ومن فى قوله تعالى ﴿من يشترى لهو الحديث﴾ موصولة أو موصوفة محلها الرفع على الخبرية والمعنى وبعض الناس أو وبعض من الناس الذى يشترى أو فريق يشترى على أن مناط الإفادة والمقصود بالأصالة هو اتصافهم بما فى حيز الصلة أو الصفة لا كونهم ذوات أولئك المذكورين كما مر فى قوله تعالى (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر) الآيات ولهو الحديث ما يلهى عما يعنى من المهمات كالأحاديث التى لا أصل لها والأساطير التى لا اعتداد بها والمضاحك وسائر مالا خير فيه من فضول الكلام والإضافة بمعنى من التبيينية إن أريد بالحديث المنكر وبمعنى التبعيضية إن أريد به الأعم من ذلك وقيل نزلت الآية فى النضر بن الحرث اشترى كتب الأعاجم وكان يحدث بها قريشا ويقول إن كان محمد عليه الصلاة والسلام يحدثكم بحديث عاد وثمود فأنا أحدثكم بحديث رستم واسفنديار والأكاسرة وقيل كان يشترى القيان ويحملهن على معاشرة من أراد الإسلام ومنعه عنه ﴿ليضل عن سبيل الله﴾ أى دينه الحق الموصل إليه تعالى أو عن قراءة كتابه الهادى إليه تعالى وقرىء ليضل بفتح الياء أى ليثبت ويستمر على ضلاله أو ليزداد فيه ﴿بغير علم﴾ أى بحال ما يشتريه أو بالتجارة حيث استبدل الشر البحت بالخير المحض ﴿ويتخذها﴾ بالنصب عطفا على يضل والضمير للسبيل فإنه مما يذكر ويؤنث وهو دين الإسلام أو القرآن أى ويتخذها ﴿هزوا﴾ مهزوا به وقرىء ويتخذها بالرفع عطفا على يشترى وقوله تعالى :

﴿أولئك﴾ إشارة إلى من والجمع باعتبار معناها كما أن الإفراد فى الفعلين باعتبار لفظها وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بذكر المشار إليه للإيذان ببعد منزلتهم فى الشرارة أى أولئك الموصوفون بما ذكر من الاشتراء للإضلال ﴿لهم عذاب مهين﴾ لما اتصفوا به من إهانتهم الحق بإيثار الباطل عليه وترغيب الناس فيه ﴿وإذا تتلى عليه﴾ أى على المشترى أفرد الضمير فيه وفيما بعده كالضمائر الثلاثة الأول باعتبار لفظة من بعد ما جمع فيما بينهما باعتبار معناها

﴿ آياتنا ﴾ التى هى آيات الكتاب الحكيم وهدى ورحمة للمحسنين ﴿ ولى ﴾ أعرض عنها غير معتد بها ﴿ مستكبرا ﴾ مبالغا فى التكبر ﴿ كأن لم يسمعها ﴾ حال من ضمير ولى أو من ضمير مستكبرا والأصل كأنه فحذف ضمير الشأن وخففت المثقلة أى مشبها حاله حال من لم يسمعها وهو سامع وفيه رمز إلى أن من سمعها لا يتصور منه التولية والاستكبار لما فيها من الأمور الموجبة للإقبال عليها والخضوع لها على طريقة قول من قال :

* كأنك لم تجزع على ابن طريف *

﴿ كأن فى أذنيه وقرا ﴾ حال من ضمير لم يسمعها أى مشبها حاله حال من فى أذنيه ثقل مانع من السماع ويجوز أن يكونا استئنافين وقرىء فى أذنيه بسكون الذال ﴿ فبشره بعذاب أليم ﴾ أى فأعلمه بأن العذاب المفرط فى الإيلام لاحق به لا محالة وذكر البشارة للتهكم ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ بيان لحال المؤمنين بآياته تعالى إثر بيان حال الكافرين بها أى الذين آمنوا بآياته تعالى وعملوا بموجبها ﴿ لهم ﴾ بمقابلة ما ذكر من إيمانهم وأعمالهم ﴿ جنات النعيم ﴾ أى نعيم جنات فعكس للمبالغة والجملة خبر أن والأحسن أن يجعل لهم هو الخبر لأن وجنات النعيم مرتفعا به على الفاعلية وقوله تعالى ﴿ خالدين فيها ﴾ حال من الضمير فى لهم أو من جنات النعيم لاشتماله على ضميريهما والعامل ما تعلق به اللام ﴿ وعد الله حقا ﴾ مصدران مؤكدان الأول لنفسه والثانى لغيره لأن قوله تعالى لهم جنات النعيم فى معنى وعدهم الله جنات النعيم ﴿ وهو العزيز ﴾ الذى لا يغلبه شىء ليمنعه من إنجاز وعده أو تحقيق وعيده ﴿ الحكيم ﴾ الذى لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة .

﴿ خلق السموات بغير عمد ﴾ الخ استئناف مسوق للاستشهاد بما فصل فيه على عزته تعالى التى هى كمال القدرة وحكمته التى هى كمال العلم وتمهيد قاعدة التوحيد وتقريره وإبطال أمر الإشراك وتبكيت أهله والعمد جمع عماد كأهب جمع إهاب وهو ما يعمد به أى يسند يقال عمدت الحائط إذا دعمته أى بغير دعائم على أن الجمع لتعدد السموات وقوله تعالى ﴿ ترونها ﴾ استئناف جىء به

للاستشهاد على ما ذكر من خلقه تعالى لها غير معمودة بمشاهدتهم لها كذلك أو صفة لعمد أى خلقها بغير عمد مرئية على أن التقييد للرمز إلى أنه تعالى عمدها بعمد لا ترونها هى عمد القدرة ﴿ وألقى فى الأرض رواسى ﴾ بيان لصنعه البديع فى قرار الأرض إثر بيان صنعه الحكيم فى قرار السموات والأرض أى ألقى فيها جبالا ثوابت(١) وقد مر ما فيه من الكلام فى سورة الرعد ﴿ أن تميد بكم ﴾ كراهة أن تميل بكم فإن بساطة أجزائها تقتضى تبدل أحيازها وأوضاعها لامتناع اختصاص كل منها لذاته أو لشىء من لوازمه بحيز معين ووضع مخصوص ﴿ وبث فيها من كل دابة ﴾ من كل نوع من أنواعها ﴿ وأنزلنا من السماء ماء ﴾ هو المطر ﴿ فأنبتنا فيها ﴾ بسبب ذلك الماء ﴿ من كل زوج كريم ﴾ من كل صنف كثير المنافع والالتفات إلى نون العظمة فى الفعلين لإبراز مزيد الاعتناء بأمرها ﴿ هذا ﴾ أى ما ذكر من السموات والأرض وما تعلق بهما من الأمور المعدودة ﴿ خلق الله ﴾ أى مخلوقه ﴿ فأرونى ماذا خلق الذين من دونه ﴾ مما اتخذتموهم شركاء له سبحانه فى العبادة حتى استحقوا به المعبودية وماذا نصب بخلق أو ما مرتفع بالابتداء وخبره ذا بصلته وأرونى متعلق به وقوله تعالى ﴿ بل الظالمون فى ضلال مبين ﴾ إضراب عن تبكيتهم بما ذكر إلى التسجيل عليهم بالضلال البين المستدعى للإعراض عن مخاطبتهم بالمقدمات المعقولة الحقة لاستحالة أن يفهموا منها شيئاً فيهتدوا به إلى العلم ببطلان ما هم عليه أو يتأثروا من الإلزام والتبكيت فينزجروا عنه ووضع الظاهر موضع ضميرهم للدلالة على أنهم بإشراكهم واضعون للشىء فى غير موضعه ومتعدون عن الحدود وظالمون لأنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد ﴿ ولقد آتينا لقمان الحكمة ﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان بطلان الشرك وهو لقمان بن باعوراء من أولاد آزر بن أخت أيوب عليه السلام أو خالته وعاش حتى أدرك داود عليه السلام وأخذ عنه العلم وكان يفتى قبل مبعثه وقيل كان قاضيا فى بنى إسرائيل والجمهور على أنه كان حكيما ولم يكن

---

(١) فى ١١ ثابتة .

نبياً والحكمة فى عرف العلماء استكمال النفس الإنسانية باقتباس العلوم النظرية واكتساب الملكة التامة على الأفعال الفاضلة على قدر طاقتها ومن حكمته أنه صحب داود عليه السلام شهورا وكان يسرد الدرع فلم يسأله عنها فلما أتمها لبسها وقال نعم لبوس الحرب أنت فقال الصمت حكمة وقليل فاعله فقال له داود عليه السلام بحق ما سميت حكيما وأن داود قال له يوما كيف أصبحت فقال أصبحت فى يدى غيرى فتفكر داود فيه فصعق صعقة وأنه أمره مولاه بأن يذبح شاة ويأتى بأطيب مضغتين منها فأتى باللسان والقلب ثم بعد أيام أمره بأن يأتى بأخبث مضغتين منها فأتى بهما أيضاً فسأله عن ذلك فقال هما أطيب شىء إذا طابا وأخبث شىء إذا خبثا ومعنى ﴿أن اشكر لله﴾ أى اشكر له تعالى على أن أن مفسرة فإن إيتاء الحكمة فى معنى القول وقوله تعالى ﴿ومن يشكر﴾ الخ استئناف مقرر لمضمون ما قبله موجب للامتثال بالأمر أى ومن يشكر له تعالى ﴿فإنما يشكر لنفسه﴾ لأن منفعته التى هى ارتباط العتيد واستجلاب المزيد مقصورة عليها ﴿ومن كفر فإن الله غنى﴾ عن كل شىء فلا يحتاج إلى الشكر ليتضرر بكفر من كفر ﴿حميد﴾ حقيق بالحمد وإن لم يحمده أحد أو محمود بالفعل ينطق بحمده جميع المخلوقات بلسان الحال وعدم التعرض لكونه تعالى مشكورا لما أن الحمد متضمن للشكر بل هو رأسه كما قال عليه الصلاة والسلام الحمد رأس الشكر لم يشكر الله عبد لم يحمده فإثباته له تعالى إثبات للشكر له قطعاً .

من مواعظ لقمان

﴿وإذ قال لقمان لابنه﴾ أنعم وقيل أشكم وقيل ماثان ﴿وهو يعظه يا بنى﴾ تصغير إشفاق وقرىء يا بنى بإسكان الياء وبكسرها ﴿لا تشرك بالله﴾ قيل كان ابنه كافرا فلم يزل به حتى أسلم ومن وقف على لا تشرك جعل بالله قسما ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ تعليل للنهى أو للانتهاء عن الشرك ﴿ووصينا الإنسان بوالديه﴾ الخ كلام مستأنف اعترض به على نهج الاستطراد فى أثناء وصية لقمان تأكيداً لما فيها من النهى عن الشرك وقوله تعالى ﴿حملته أمه﴾ إلى قوله فى عامين

اعتراض بين المفسر والمفسر وقوله تعالى ﴿ وهناً ﴾ حال من أمه أى ذات وهن أو مصدر مؤكد لفعل هو الحال أى تهن وهناً وقوله تعالى ﴿ على وهن ﴾ صفة للمصدر أى كائنا على وهن أى تضعف ضعفاً فوق ضعف فإنها لا تزال يتضاعف ضعفها وقرىء وهنا على وهن بالتحريك يقال وهن يهن وهنا ووهن يوهن وهنا ﴿ وفصاله فى عامين ﴾ أى فطامه فى تمام عامين وهى مدة الرضاع عند الشافعى وعند أبى حنيفة رحمهما الله تعالى هى ثلاثون شهرا وقد بين وجهه فى موضعه وقرىء وفصله ﴿ أن اشكر لى ولوالديك ﴾ تفسير لوصينا وما بينهما اعتراض مؤكد للوصية فى حقها خاصة ولذلك قال عليه الصلاة والسلام لمن قال له من أبر أمك ثم أمك ثم أمك ثم قال بعد ذلك ثم أباك ﴿ إلى المصير ﴾ تعليل لوجوب الامتثال أى إلى الرجوع لا إلى غيرى فأجازيك على ما صدر عنك من الشكر والكفر ﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به ﴾ أى بشركته له تعالى فى استحقاق العبادة ﴿ علم فلا تطعهما ﴾ فى ذلك ﴿ وصاحبهما فى الدنيا معروفا ﴾ أى صحابا معروفا يرتضيه الشرع وتقتضيه المروءة ﴿ واتبع سبيل من أناب إلى ﴾ بالتوحيد والإخلاص فى الطاعة ﴿ ثم إلى مرجعكم ﴾ أى مرجعك ومرجعهما ومرجع من أناب إلى ﴿ فأنبئكم ﴾ عند رجوعكم ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ بأن أجازى كلا منكم بما صدر عنه من الخير والشر وقوله تعالى ﴿ يابنى ﴾ الخ شروع فى حكاية بقية وصايا لقمان إثر تقرير ما فى مطلعها من النهى عن الشرك وتأكيده بالاعتراض ﴿ إنها إن تك مثقال حبة من خردل ﴾ أى إن الخصلة من الإساءة أو الإحسان إن تك مثلا فى الصغر كحبة الخردل وقرىء برفع مثقال على أن الضمير للقصة وكان تامة والتأنيث لاضافة المثقال إلى الحبة كما فى قول من قال :

* كما شرقت صدر القناة من الدم *

أو لأن المراد به الحسنة أو السيئة ﴿ فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض ﴾ أى فتكن مع كونها فى أقصى غايات الصغر والقماءة فى أخفى مكان وأحرزه كجوف الصخرة أو حيث كانت فى العالم العلوى أو السفلى

﴿ يأت بها الله ﴾ أى يحضرها ويحاسب عليها ﴿ إن الله لطيف ﴾ يصل علمه إلى كل خفى ﴿ خبير ﴾ بكنهه وبعد ما أمره بالتوحيد الذى هو أول ما يجب على الإنسان فى ضمن النهى عن الشرك ونبهه على كمال علم الله تعالى وقدرته أمره بالصلاة التى هى أكمل العبادات تكميلا له من حيث العمل بعد تكميله من حيث الاعتقاد فقال مستميلا له ﴿ يابنى أقم الصلاة ﴾ تكميلا لنفسك ﴿ وأمر بالمعروف وانه عن المنكر ﴾ تكميلا لغيرك ﴿ واصبر على ما أصابك ﴾ من الشدائد والمحن لا سيما فيما أمرت به ﴿ إن ذلك ﴾ إشارة إلى كل ما ذكر وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه لما مر مرارا من الإشعار ببعد منزلته فى الفضل ﴿ من عزم الأمور ﴾ أى مما عزمه الله تعالى وقطعه على عباده من الأمور لمزيد مزيتها مصدر أطلق على المفعول وقد جوز أن يكون بمعنى الفاعل من قوله تعالى (فإذا عزم الأمر) أى جد والجملة تعليل لوجوب الامتثال بما سبق من الأمر والنهى وإيذان بأن ما بعدها ليس بمثابته .

﴿ ولا تصعر خدك للناس ﴾ أى لا تمله ولا تولهم صفحة وجهك كما هو ديدن المتكبرين من الصعر وهو الصيد وهو داء يصيب البعير فيلوى منه عنقه وقرىء ولا تصاعر وقرىء ولا تصعر من الأفعال والكل بمعنى مثل علاه وعالاه وأعلاه ﴿ ولا تمش فى الأرض مرحا ﴾ أى فرحا مصدر وقع موقع الحال أو مصدر مؤكد لفعل هو الحال أى تمرح مرحا أو لأجل المرح والبطر ﴿ إن الله لا يحب كل مختال فخور ﴾ تعليل للنهى أو موجبه وتأخير الفخور مع كونه بمقابلة المصعر خده عن المختال وهو بمقابلة الماشى مرحا رعاية الفواصل ﴿ واقصد فى مشيك ﴾ بعد الاجتناب عن المرح فيه أى توسط بين الدبيب والإسراع وعنه عليه الصلاة والسلام سرعة المشى تذهب بهاء المؤمن وقول عائشة فى عمر رضى الله عنهما كان إذا مشى أسرع فالمراد به مافوق دبيب المتماوت وقرى بقطع الهمزة من أقصد الرامى إذا سدد سهمه نحو الرمية ﴿ واغضض من صوتك ﴾ وانقص منه واقصر ﴿ إن أنكر الأصوات ﴾ أى أوحشها ﴿ لصوت الحمير ﴾ تعليل للأمر على أبلغ وجه وآكده مبنى على تشبيه الرافعين

أصواتهم بالحمير وتمثيل أصواتهم بالنهاق وإفراط فى التحذير عن رفع الصوت والتنفير عنه وإفراد الصوت مع إضافته إلى الجمع لما أن المراد ليس بيان حال صوت كل واحد من آحاد هذا الجنس حتى يجمع بل بيان حال صوت هذا الجنس من بين أصوات سائر الأجناس .

توبيخ المشركين

وقوله تعالى ﴿ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات والأرض﴾ رجوع إلى ما سلف قبل قصة لقمان من خطاب المشركين وتوبيخ لهم على إصرارهم على ما هم عليه مع مشاهدتهم لدلائل التوحيد والمراد بالتسخير إما جعل المسخر بحيث ينفع المسخر له أعم من أن يكون منقادا له يتصرف فيه كيف يشاء ويستعمله حسبما يريد كعامة ما فى الأرض من الأشياء المسخرة للإنسان المستعملة له من الجماد والحيوان أو لا يكون كذلك بل يكون سببا لحصول مراده من غير أن يكون له دخل فى استعماله كجميع ما فى السموات من الأشياء التى نيطت بها مصالح العباد معاشا أو معادا وإما جعله منقاداً للأمر مذللا على أن معنى لكم لأجلكم فإن جميع ما فى السموات والأرض من الكائنات مسخرة لله تعالى مستتبعة لمنافع الخلق وما يستعمله الإنسان حسبما يشاء وإن كان مسخراً له بحسب الظاهر فهو فى الحقيقة مسخر لله تعالى ﴿وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة﴾ محسوسة ومعقولة معروفة لكم وغير معروفة وقد مر شرح النعمة وتفصيلها فى الفاتحة وقرىء أصبغ بالصاد وهو جار فى كل سين قارنت الغين أو الخاء أو القاف كما تقول فى سلخ صلخ وفى سقر صقر وفى سالغ صالغ وقرىء نعمة ﴿ومن الناس من يجادل فى الله﴾ فى توحيده وصفاته ﴿بغير علم﴾ مستفاد من دليل ﴿ولا هدى﴾ من جهة الرسول عليه الصلاة والسلام ﴿ولا كتاب منير﴾ أنزله الله سبحانه بل بمجرد التقليد .

﴿وإذا قيل لهم﴾ أى لمن يجادل والجمع باعتبار المعنى ﴿اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا﴾ يريدون به عبادة الأصنام ﴿أولو كان

الشيطان يدعوهم ﴾ أى آباءهم لا أنفسهم كما قيل فإن مدار إنكار الاتباع واستبعاده كون المتبوعين تابعين للشيطان لا كون أنفسهم كذلك أى أيتبعونهم ولو كان الشيطان يدعوهم فيما هم عليه من الشرك ﴿ إلى عذاب السعير ﴾ فهم متوجهون إليه حسب دعوته والجملة فى حيز النصب على الحالية وقد مر تحقيقه فى قوله تعالى (أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون) من سورة البقرة بما لا مزيد عليه ﴿ ومن يسلم وجهه إلى الله ﴾ بأن فوض إليه مجامع أموره وأقبل عليه بكليته وحيث عدى باللام قصد معنى الاختصاص وقرى بالتشديد ﴿ وهو محسن ﴾ أى فى أعماله آت بها جامعة بين الحسن الذاتى والوصفى وقد مر فى آخر سورة النحل ﴿ فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾ أى تعلق بأوثق ما يتعلق به من الأسباب وهو تمثيل لحال المتوكل المشتغل بالطاعة بحال من أراد أن يترقى إلى شاهق جبل فتمسك بأوثق عرى الحبل المتدلى منه ﴿ وإلى الله ﴾ لا إلى أحد غيره ﴿ عاقبة الأمور ﴾ فيجازيه أحسن الجزاء ﴿ ومن كفر فلا يحزنك كفره ﴾ فإنه لا يضرك فى الدنيا ولا فى الآخرة وقرىء فلا يحزنك من أحزن المنقول من حزن بكسر الزاى وليس بمستفيض ﴿ إلينا مرجعهم ﴾ لا إلى غيرنا ﴿ فننبئهم بما عملوا ﴾ فى الدنيا من الكفر والمعاصى بالعذاب والعقاب والجمع فى الضمائر الثلاثة باعتبار معنى من كما أن الإفراد فى الأول باعتبار لفظها ﴿ إن الله عليم بذات الصدور ﴾ تعليل للتنبئة المعبر بها عن التعذيب ﴿ نمتعهم قليلا ﴾ تمتيعا أو زمانا قليلا فإن ما يزول وإن كان بعد أمد طويل بالنسبة إلى ما يدوم قليل ﴿ ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ﴾ يثقل عليهم ثقل الأجرام الغلاظ أو يضم إلى الإحراق الضغط والتضييق ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾ لغاية وضوح الأمر بحيث اضطروا إلى الاعتراف به .

﴿ قل الحمد لله ﴾ على أن جعل دلائل التوحيد بحيث لا يكاد ينكرها المكابرون أيضاً ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ شيئاً من الأشياء فلذلك لا يعملون بمقتضى اعترافهم وقيل لا يعلمون أن ذلك يلزمهم ﴿ لله ما فى السموات والأرض ﴾ فلا يستحق العبادة فيهما غيره ﴿ إن الله هو الغنى ﴾ عن العالمين ﴿ الحميد ﴾ المستحق

للحمد وإن لم يحمده أحد أو المحمود بالفعل يحمده كل مخلوق بلسان الحال ﴿ ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام ﴾ أى لو أن الأشجار أقلام وتوحيد الشجرة لما أن المراد تفصيل الآحاد ﴿ والبحر يمده من بعده ﴾ أى من بعد نفاده ﴿ سبعة أبحر ﴾ أى والحال أن البحر المحيط بسعته يمده الأبحر السبعة مداً لا ينقطع أبدا وكتبت بتلك الأقلام وبذلك المداد كلمات الله ﴿ ما نفدت كلمات الله ﴾ ونفدت تلك الأقلام والمداد كما فى قوله تعالى (لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى) وقرىء يمده من الإمداد بالياء والتاء وإسناد المد إلى الأبحر السبعة دون البحر المحيط مع كونه أعظم منها وأطم لأنها هى المجاورة للجبال ومنابع المياه الجارية وإليها تنصب الأنهار العظام أولا ومنها ينصب إلى البحر المحيط ثانياً وإيثار جمع القلة فى الكلمات للإيذان بأن ما ذكر لا يفى بالقليل منها فكيف بالكثير ﴿ إن الله عزيز ﴾ لا يعجزه شىء ﴿ حكيم ﴾ لا يخرج عن علمه وحكمته أمر فلا تنفد كلماته المؤسسة عليهما ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾ أى إلا كخلقها وبعثها فى سهولة التأتى إذ لا يشغله شأن عن شأن لأن مناط وجود الكل تعلق إرادته الواجبة مع قدرته الذاتية حسبما يفصح عنه قوله تعالى (إنما أمرنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) ﴿ إن الله سميع ﴾ يسمع كل مسموع ﴿ بصير ﴾ يبصر كل مبصر لا يشغله علم بعضها عن علم بعض فكذلك الخلق والبعث .

﴿ ألم تر ﴾ قيل الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل عام لكل أحد ممن يصلح للخطاب وهو الأوفق لما سبق وما لحق أى ألم تعلم علما قويا جاريا مجرى الرؤية ﴿ أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ﴾ أى يدخل كل واحد منهما فى الآخر ويضيفه إليه فيتفاوت بذلك حاله زيادة ونقصانا ﴿ وسخر الشمس والقمر ﴾ عطف على يولج والاختلاف بينهما صيغة لما أن إيلاج أحد الملوين فى الآخر متجدد فى كل حين وأما تسخير النيرين فأمر لا تعدد فيه ولا تجدد وإنما التعدد والتجدد فى آثاره وقد أشير إلى ذلك حيث قيل ﴿ كل يجرى ﴾ أى بحسب حركته الخاصة وحركته القسرية على

المدارات اليومية المتخالفة المتعددة حسب تعدد الأيام جريا مستمرا ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ قدره الله تعالى لجريهما وهو يوم القيامة كما روى عن الحسن رحمه الله فإنه لا ينقطع جريهما إلا حينئذ والجملة على تقدير عموم الخطاب اعتراض بين المعطوفين لبيان الواقع بطريق الاستطراد وعلى تقدير اختصاصه به عليه الصلاة والسلام يجوز أن يكون حالا من الشمس والقمر فإن جريانهما إلى يوم القيامة من جملة ما فى حيز رؤيته عليه الصلاة والسلام هذا وقد جعل جريانهما عبارة عن حركتهما الخاصة بهما فى فلكهما والأجل المسمى عن منتهى دورتهما وجعل مدة الجريان للشمس سنة وللقمر شهرا فالجملة حينئذ بيان لحكم تسخيرهما وتنبيه على كيفية إيلاج أحد الملوين فى الآخر وكون ذلك بحسب اختلاف جريان الشمس على مداراتها اليومية فكلما كان جريانها متوجها إلى سمت الرأس تزداد القوس التى هى فوق الأرض كبرا فيزداد النهار طولا بانضمام بعض أجزاء الليل إليه إلى أن يبلغ المدار الذى هو أقرب المدارات إلى سمت الرأس وذلك عند بلوغها إلى رأس السرطان ثم ترجع متوجهة إلى التباعد عن سمت الرأس فلا تزال القسى التى هى فوق الأرض تزداد صغرا فيزداد النهار قصرا بانضمام بعض أجزائه إلى الليل إلى أن يبلغ المدار الذى هو أبعد المدارات اليومية عن سمت الرأس وذلك عند بلوغها برج الجدى وقوله تعالى : ﴿ وأن الله بما تعملون خبير ﴾ عطف على أن الله يولج الخ داخل معه فى حيز الرؤية على تقديرى خصوص الخطاب وعمومه فإن من شاهد مثل ذلك الصنع الرائق والتدبير الفائق لا يكاد يغفل عن كون صانعه عز وجل محيطا بجلائل أعماله ودقائقها .

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما تلى من الآيات الكريمة وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتها فى الفضل وهو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿ بأن الله هو الحق ﴾ أى بسبب بيان أنه تعالى هو الحق الهيته فقط ولأجله لكونها ناطقة بحقية التوحيد ﴿ وأن ما يدعون من دونه الباطل ﴾ أى ولأجل بيان بطلان إلهية ما يدعونه من دونه تعالى لكونها شاهدة بذلك شهادة بينة لا ريب فيها وقرىء بالتاء والتصريح بذلك مع أن الدلالة على اختصاص حقية الإلهية به تعالى

مستتبعة للدلالة على بطلان الهية ما عداه لإبراز كمال الاعتناء بأمر التوحيد وللايذان بأن الدلالة على بطلان ما ذكر ليست بطريق الاستتباع فقط بل بطريق الاستقلال أيضاً ﴿ وأن الله هو العلى الكبير ﴾ أى وبيان أنه تعالى هو المترفع عن كل شيء المتسلط عليه فإن مافى تضاعيف الآيات الكريمة مبين لإختصاص العلو والكبرياء به تعالى أى بيان هذا وقيل ذلك أى ما ذكر من سعة العلم وشمول القدرة وعجائب الصنع واختصاص العلو والكبرياء به تعالى أى بيان هذا وقيل ذلك أي ما ذكر من سعة العلم وشمول القدرة وعجائب الصنع واختصاص البارى تعالى به بسبب أنه الثابت فى ذاته الواجب من جميع جهاته أو الثابت إلهيته وأنت خبير بأن حقيته تعالى وعلوه وكبرياءه وإن كانت صالحة لمناطية ما ذكر من الأحكام المعدودة لكن بطلان إلهية الأصنام لادخل له فى المناطية قطعا فلا مساغ لنظمه فى سلك الأسباب بل هو تعكيس للأمر ضرورة أن الأحكام المذكورة هى المقتضية لبطلانها لا أن بطلانها يقتضيها ﴿ ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله ﴾ بإحسانه فى تهيئة أسبابه وهو استشهاد آخر على باهر قدرته وغاية حكمته وشمول إنعامه والباء إما متعلقة بتجرى أو بمقدر هو حال من فاعله أى ملتبسة بنعمته تعالى وقرىء الفلك بضم اللام وبنعمات الله وعين فعلات يجوز فيه الكسر والفتح والسكون ﴿ ليريكم من آياته ﴾ أى بعض دلائل وحدته وعلمه وقدرته وقوله تعالى ﴿ إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ تعليل لما قبله أى إن فيما ذكر لآيات عظيمة فى ذاتها كثيرة فى عددها لكل من يبالغ فى الصبر على المشاق فيتعب نفسه فى التفكر فى الأنفس والآفاق ويبالغ فى الشكر على نعمائه وهما صفتا المؤمن فكأنه قيل لكل مؤمن ﴿ وإذا غشيهم ﴾ أي علاهم وأحاط بهم ﴿ موج كالظلل ﴾ كما يظل من جبل أو سحاب أو غيرهما وقرىء كالظلال جمع ظلة كقلة وقلال ﴿ دعوا الله مخلصين له الدين ﴾ لزوال ما ينازع الفطرة من الهوى والتقليد بما دهاهم من الدواهى والشدائد ﴿ فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد ﴾ أى مقيم على القصد السوى الذى هو التوحيد أو متوسط فى الكفر لانزجاره

فى الجملة ﴿ وما يجحد بآياتنا الا كل ختار ﴾ غدار فإنه نقض للعهد الفطرى أو رفض لما كان فى البحر والختر أشد الغدر وأقبحه ﴿ كفور ﴾ مبالغ فى كفران نعم الله تعالى :

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده ﴾ أى لا يقضى عنه وقرىء لا يجزى من أجزأ إذا أغنى والعائد إلى الموصوف محذوف أى لا يجزى فيه ﴿ ولا مولود ﴾ عطف على والد أو هو مبتدأ خبره ﴿ هو جاز عن والده شيئاً ﴾ وتغيير النظم للدلالة على أن المولود أولى بأن لا يجزى وقطع طمع من توقع من المؤمنين أن ينفع أباه الكافر فى الآخرة ﴿ إن وعد الله ﴾ بالثواب والعقاب ﴿ حق ﴾ لا يمكن إخلافه أصلا ﴿ فلا تغرنكم الحيوة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾ أى الشيطان المبالغ فى الغرور بأن يحملكم على المعاصى بتزيينها لكم ويرجيكم التوبة والمغفرة ﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾ علم وقت قيامها لما روى أن الحرث بن عمرو أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال متى الساعة وإنى قد ألقيت حباتى فى الأرض فتى السماء تمطر وحمل امرأتى ذكر أم أنثى وما أعمل غدا وأين أموت فنزلت وعنه عليه الصلاة والسلام مفاتح الغيب خمس وتلا هذه الآية ﴿ وينزل الغيث ﴾ فى إبانه الذى قدره وإلى محله الذى عينه فى علمه وقرىء ينزل من الإنزال ، ﴿ ويعلم ما فى الأرحام ﴾ من ذكر أو أنثى تام أو ناقص ﴿ وما تدرى نفس ﴾ من النفوس ﴿ ماذا تكسب غدا ﴾ من خير أو شر وربما تعزم على شىء منهما فتفعل خلافه ﴿ وما تدرى نفس بأى أرض تموت ﴾ كما لا تدرى فى أى وقت تموت . روى أن ملك الموت مر على سليمان عليه السلام فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظر إليه فقال الرجل من هذا قال ملك الموت فقال كأنه يريدنى فمر الريح أن تحملنى وتلقينى ببلاد الهند ففعل ثم قال الملك لسليمان عليهما السلام كان دوام نظرى إليه تعجبا منه حيث كنت أمرت بأن أقبض روحه بالهند وهو عندك ونسبة العلم إلى الله تعالى والدراية إلى العبد للإيذان بأنه أن أعمل حيله وبذل فى التعرف وسعه لم يعرف ما هو لاحق به من كسبه وعاقبته

فكيف بغيره مما لم ينصب له دليل عليه وقرىء بأية أرض وشبه سيبويه تأنيثها بتأنيث كل فى كلتهن ﴿ إن الله عليم ﴾ مبالغ فى العلم فلا يعزب عن علمه شىء من الأشياء التى من جملتها ما ذكر ﴿ خبير ﴾ يعلم بواطنها كما يعلم ظواهرها . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة لقمان كان له لقمان رفيقا يوم القيامة وأعطى من الحسنات عشرا بعدد من عمل بالمعروف ونهى عن المنكر .

* * *

سورة السجدة

(مكية وهى ثلاثون آية وقيل تسع وعشرون)

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ الم ﴾ إما اسم للسورة فمحله الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أى هذا مسمى بألم والإشارة إليها قبل جريان ذكرها قد عرفت سرها وإما مسرود على نمط التعديد فلا محل له من الإعراب وقوله تعالى : ﴿ تنزيل الكتاب ﴾ على الأول خبر بعد خبر على أنه مصدر أطلق على المفعول مبالغة وعلى الثانى خبر لمبتدأ محذوف أى المؤلف من جنس ما ذكر تنزيل الكتاب وقيل خبر لألم أى المسمى تنزيل الكتاب وقد مر مرارا أن ما يجعل عنوانا للموضوع حقه أن يكون قبل ذلك معلوم الانتساب إليه وإذ لا عهد بالتسمية قبل لحقها الأخبار بها وقوله تعالى ﴿ لاريب فيه ﴾ خبر ثالث على الوجه الأول وثان على الأخيرين وقيل خبر لتنزيل الكتاب فقوله تعالى ﴿ من رب العالمين ﴾ متعلق بمضمر هو حال من الضمير المجرور أى كائنا منه تعالى لا بتنزيل لأن المصدر لا يعمل فيما بعد الخبر والأوجه حينئذ أنه الخبر ولا ريب فيه حال من الكتاب أو اعتراض والضمير فى فيه راجع إلى مضمون الجملة كأنه قيل لاريب فى ذلك أى فى كونه منزلا من رب العالمين ويؤيده قوله تعالى ﴿ أم يقولون افتراه ﴾

فإن قولهم هذا إنكار منهم لكونه من رب العالمين فلا بد أن يكون مورده حكما مقصود الإفادة لا قيدا للحكم بنفي الريب عنه وقد رد عليهم ذلك وأبطل حيث جيء بأم المنقطعة إنكارا له وتعجيبا منه لغاية ظهور بطلانه واستحالة كونه مفترى ثم أضرب عنه إلى بيان حقية ما أنكروه حيث قيل ﴿ بل هو الحق من ربك ﴾ بإضافة اسم الرب إلى ضميره عليه الصلاة والسلام بعد إضافته فيما سبق إلى العالمين تشريفا له عليه الصلاة والسلام ثم أيد ذلك ببيان غايته حيث قيل ﴿ لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون ﴾ فإن بيان غاية الشيء وحكمته لاسيما عند كونها غاية حميدة مستتبعة لمنافع جليلة في وقت شدة الحاجة إليها مما يقرر وجود الشيء ويؤكده لا محالة ولقد كانت قريش أضل الناس وأحوجهم إلى الهداية بإرسال الرسول وتنزيل الكتاب حيث لم يبعث إليهم من رسول قبله عليه الصلاة والسلام أى ما أتاهم من نذير من قبل انذارك أو من قبل زمانك والترجى معتبر من جهته عليه الصلاة والسلام أى لتنذرهم راجيا لاهتدائهم أو لرجاء اهتدائهم واعلم أن ما ذكر من التأييد إنما يتسنى على على ما ذكر من كون تنزيل الكتاب مبتدأ وأما على سائر الوجوه فلا تأييد أصلا لأن قوله تعالى من رب العالمين خبر رابع على الوجه الأول وخبر ثالث على الوجهين الأخيرين وأياما كان فكونه من رب العالمين حكم مقصود الإفادة لا قيد لحكم آخر. فتدبر .

﴿ الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش ﴾ مر بيانه فيما سلف ﴿ ما لكم من دونه من ولى ولا شفيع ﴾ أى ما لكم إذا جاوزتم رضاه تعالى أحد ينصركم ويشفع لكم ويجيركم من بأسه أى ما لكم سواه ولى ولا شفيع بل هو الذى يتولى مصالحكم وينصركم فى مواطن النصر على أن الشفيع عبارة عن الناصر مجازا فإذا خذلكم لم يبق لكم ولى ولا نصير ﴿ أفلا تتذكرون ﴾ أى ألا تسمعون هذه المواعظ فلا تتذكرن بها أو أتسمعونها فلا تتذكرون بها فالإنكار على الأول متوجه إلى عدم السماع وعدم التذكر معاً وعلى الثانى على عدم التذكر مع تحقق ما يوجبه من السماع

﴿ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ﴾ قيل يدبر أمر الدنيا بأسباب سماوية من الملائكة وغيرها نازلة آثارها وأحكامها إلى الأرض ﴿ ثم يعرج إليه ﴾ أى يثبت فى علمه موجودا بالفعل ﴿ فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ﴾ أى فى برهة من الزمان متطاولة والمراد بيان طول امتداد ما بين تدبير الحوادث وحدوثها من الزمان وقيل يدبر أمر الحوادث اليومية بإثباتها فى اللوح المحفوظ فينزل بها الملائكة ثم تعرج إليه فى زمان هو كألف سنة مما تعدون فإن ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام وقيل يقضى قضاء ألف سنة فينزل به الملك ثم يعرج بعد الألف لألف آخر وقيل يدبر أمر الدنيا جميعاً إلى قيام الساعة ثم يعرج إليه الأمر كله عند قيامها وقيل يدبر المأمور به من الطاعات منزلا من السماء إلى الأرض بالوحى ثم لا يعرج إليه خالصاً إلا فى مدة متطاولة لقلة المخلصين والأعمال الخلص وأنت خبير بأن قلة الأعمال الخالصة لا تقتضى بطء عروجها إلى السماء بل قلته وقرىء يعدون بالياء ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى الله عز وجل باعتبار اتصافه بما ذكر من خلق السموات والأرض والاستواء على العرش وانحصار الولاية والنصرة فيه وتدبير أمر الكائنات على ما ذكر من الوجه البديع وهو مبتدأ خبره ما بعده أى ذلك العظيم الشأن ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ فيدبر أمرهما حسبما تقتضيه الحكمة ﴿ العزيز ﴾ الغالب على أمره ﴿ الرحيم ﴾ على عباده وهما خبران آخران وفيه إيماء إلى أنه تعالى متفضل فى جميع ما ذكر فاعل بالإحسان ﴿ الذى أحسن كل شىء خلقه ﴾ خبر آخر أو نصب على المدح أى حسن كل مخلوق خلقه إذ ما من مخلوق خلقه إلا وهو مرتب على ما تقتضيه الحكمة وأوجبته المصلحة فجميع المخلوقات حسنة وإن تفاوتت إلى حسن وأحسن كما قال تعالى (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم) وقيل علم كيف يخلقه من قوله قيمة المرء ما يحسن أى يحسن معرفته أى تعرفه معرفة حسنة بتحقيق وإيقان وقرىء خلقه على أنه بدل اشتمال من كل شىء والضمير للمبدل منه أى حسن خلق كل شىء وقيل بدل الكل على أن الضمير لله تعالى والخلق بمعنى المخلوق أى حسن كل مخلوقاته وقيل هو مفعول ثان

لا حسن على تضمنه معنى أعطى أى أعطى كل شيء خلقه اللائق به بطريق الإحسان والتفضل وقيل هو مفعوله الأول وكل شيء مفعوله الثانى والخلق بمعنى المخلوق وضميره لله سبحانه على تضمين الإحسان معنى الإلهام والتعريف والمعنى ألهم خلقه كل شيء مما يحتاجون إليه وقال أبو البقاء عرف مخلوقاته كل شيء يحتاجون إليه فيؤول إلى معنى قوله تعالى (الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) ﴿ وبدأ خلق الإنسان ﴾ من بين جميع المخلوقات ﴿ من طين ﴾ على وجه بديع تحار العقول فى فهمه حيث برأ آدم عليه السلام على فطرة عجيبة منطوية على فطرة سائر أفراد الجنس انطواء إجمالياً مستتبعاً كل فرد منها من القوة إلى الفعل بحسب استعداداتها المتفاوتة قربا وبعدا كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿ ثم جعل نسله ﴾ إلخ أى ذريته سميت بذلك لأنها تنسل وتنفصل منه ﴿ من سلالة من ماء مهين ﴾ هو المنى الممتهن ﴿ ثم سواه ﴾ أى عدله بتكميل أعضائه فى الرحم وتصويرها على ما ينبغى ﴿ ونفخ فيه من روحه ﴾ أضافه إليه تعالى تشريفاً له وإيذاناً بأنه خلق عجيب وصنع بديع وأن له شأناً له مناسبة إلى حضرة الربوبية وأن أقصى ما تنتهى إليه العقول البشرية من معرفته هذا القدر الذى يعبر عنه تارة بالإضافة إليه تعالى وأخرى بالنسبة إلى أمره تعالى كما فى قوله تعالى (قل الروح من أمر ربى) ﴿ وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ﴾ الجعل إبداعى واللام متعلقة به والتقديم على المفعول الصريح لما مر مرات من الاهتمام المقدم والتشويق إلى المؤخر مع ما فيه من نوع طول يخل تقديمه بجزالة النظم الكريم أى خلق لمنفعتكم تلك المشاعر لتعرفوا أنها مع كونها فى أنفسها نعما جليلة لا يقادر قدرها وسائل إلى التمتع بسائر النعم الدينية والدنيوية الفائضة عليكم وتشكروها بأن تصرفوا كلا منها إلى ما خلق هو له فتدركوا بسمعكم الآيات التنزيلية الناطقة بالتوحيد والبعث وبأبصاركم الآيات التكوينية الشاهدة بهما وتستدلوا بأفئدتكم على حقيتهما وقوله تعالى ﴿ قليلا ما تشكرون ﴾ بيان لكفرهم بتلك النعم بطريق الاعتراض التذييلى على أن القلة بمعنى النفى كما ينبىء عنه ما بعده أى شكرا قليلا أو زمانا قليلا تشكرون وفى حكاية أحوال الإنسان

من مبدأ فطرته إلى نفخ الروح فيه بطريق الغيبة وحكاية أحواله بعد ذلك بطريق الخطاب المنبىء عن استعداده للفهم وصلاحيته له من الجزالة ما لا غاية وراءه ﴿ وقالوا ﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان أباطيلهم بطريق الالتفات إيذانا بأن ماذكر من عدم شكرهم بتلك النعم موجب للاعراض عنهم وتعديد جناياتهم لغيرهم بطريق المباثة ﴿ أئذا ضللنا فى الأرض ﴾ أى صرنا ترابا مخلوطا بترابها بحيث لا نتميز منه أو غبنا فيها بالدفن وقرىء ضللنا بكسر اللام من باب علم وصللنا بالصاد المهملة من صل اللحم إذا أنتن وقيل من الصلة وهى الأرض أى صرنا من جنس الصلة قيل القائل أبى ابن خلف ولرضاهم بقوله أسند القول إلى الكل والعامل فى إذا ما يدل عليه قوله تعالى ﴿ أئنا لفى خلق جديد ﴾ وهو نبعث أو يجدد خلقنا والهمزة لتذكير الإنكار السابق وتأكيده وقرىء إنا على الخبر وأيا ما كان فالمعنى على تأكيد الإنكار لا إنكار التأكيد كما هو المتبادر من تقدم الهمزة على أن فإنها مؤخرة عنها فى الاعتبار وإنما تقديمها عليها لاقتضائها الصدارة ﴿ بل هم بلقاء ربهم كافرون ﴾ إضراب وانتقال من بيان كفرهم بالبعث إلى بيان ما هو أبلغ وأشنع منه وهو كفرهم بالوصول إلى العاقبة وما يلقونه فيها من الأحوال والأهوال جميعا .

﴿ قل ﴾ بيانا للحق وردا على زعمهم الباطل ﴿ يتوفاكم ملك الموت ﴾ لا كما تزعمون أن الموت من الأحوال الطبيعية العارضة للحيوان بموجب الجبلة أى يقبض أرواحكم بحيث لا يدع فيكم شيئاً أو لا يترك منكم أحدا على أشد ما يكون من الوجوه وأفظعها من ضرب وجوهكم وأدباركم ﴿ الذى وكل بكم ﴾ أى بقبض أرواحكم وإحصاء آجالكم ﴿ ثم إلى ربكم ترجعون ﴾ بالبعث للحساب والجزاء ﴿ ولو ترى إذ المجرمون ﴾ وهم القائلون أئذا ضللنا فى الآية أو جنس المجرمين وهم من جملتهم ﴿ ناكسوا رؤسهم عند ربهم ﴾ من الحياء والخزى عند ظهور قبائحهم التى اقترفوها فى الدنيا ﴿ ربنا ﴾ أى يقولون ربنا ﴿ أبصرنا وسمعنا ﴾ أى صرنا ممن يبصر ويسمع وحصل لنا الاستعداد لإدراك الآيات المبصرة والآيات المسموعة وكنا من قبل عميا وصما لا ندرك شيئاً ﴿ فارجعنا ﴾

إلى الدنيا ﴿ نعمل﴾ عملا ﴿ صالحا ﴾ حسبما تقتضيه تلك الآيات وقوله تعالى ﴿ إنا موقنون ﴾ إدعاء منهم لصحة الأفئدة والاقتدار على فهم معانى الآيات والعمل بموجبها كما أن ما قبله ادعاء لصحة مشعرى البصر والسمع كأنهم قالوا وأيقنا وكنا من قبل لا نعقل شيئاً أصلا وإنما عدلوا إلى الجملة الإسمية المؤكدة إظهاراً لثباتهم على الإيقان وكمال رغبتهم فيه وكل ذلك للجد فى الاستدعاء طمعا فى الإجابة إلى ما سألوه من الرجعة وأنى لهم ذلك ويجوز أن يقدر لكل من الفعلين مفعول مناسب له مما يبصرونه ويسمعونه فإنهم حينئذ يشاهدون الكفر والمعاصى على صور منكرة هائلة ويخبرهم الملائكة بأن مصيرهم إلى النار لا محالة فالمعنى أبصرنا قبح أعمالنا وكنا نراها فى الدنيا حسنة وسمعنا أن مردنا إلى النار وهو الأنسب لما بعده من الوعد بالعمل الصالح هذا وقد قيل المعنى وسمعنا منك تصديق رسلك وانت خبير بأن تصديقه تعالى لهم حينئذ يكون بإظهار مدلول ما أخبروا به من الوعد والوعيد لا بالإخبار بأنهم صادقون حتى يسمعوه وقيل وسمعنا قول الرسل أى سمعناه سمع طاعة وإذعان ولا يقدر لترى مفعول إذ المعنى لو تكون منك رؤية فى ذلك الوقت أو يقدر ما ينبىء عنه صلة إذ والمضى فيها وفى لو باعتبار أن الثابت فى علم الله تعالى بمنزلة الواقع وجواب لو محذوف أى لرأيت أمراً فظيعا لا يقادر قدره والخطاب لكل أحد ممن يصلح له كائنا من كان إذ المراد بيان كمال سوء حالهم وبلوغها من الفظاعة إلى حيث لا يختص استغرابها واستفظاعها براء دون راء ممن اعتاد مشاهدة الأمور البديعة والدواهى الفظيعة بل كل من يتأتى منه الرؤية يتعجب من هولها وفظاعتها هذا ومن علل عموم الخطاب بالقصد إلى بيان أن حالهم قد بلغت من الظهور إلى حيث يمتنع خفاؤها البتة فلا تختص رؤية راء دون راء بل كل من يتأتى منه الرؤية فله مدخل فى هذا الخطاب فقد نأى عن تحقيق الحق لأن المقصود بيان كمال فظاعة حالهم كما يفصح عنه الجواب المحذوف لا بيان كمال ظهورها فإنه مسوق مساق المسلمات فتدبر ﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ﴾ مقدر بقول معطوف على ما قدر قبل قوله تعالى (ربنا أبصرنا) الخ أى ونقول

لو شئنا أى لو تعلقت مشيئتنا تعلقا فعليا بأن نعطى كل نفس من النفوس البرة والفاجرة ما تهتدى به إلى الإيمان والعمل الصالح لأعطيناها إياه فى الدنيا التى هى دار الكسب وما أخرناه إلى دار الجزاء .

﴿ ولكن حق القول منى ﴾ أى سبقت كلمتى حيث قلت لإبليس عند قوله (لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين) وهو المعنى بقوله تعالى ﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ كما يلوح به تقديم الجنة على الناس فبموجب ذلك القول لم نشأ إعطاء الهدى على العموم بل منعناه من أتباع إبليس الذين أنتم من جملتهم حيث صرفتم اختياركم إلى الغى بإغوائه ومشيئتنا لأفعال العباد منوطة باختيارهم إياها فلما لم تختاروا الهدى واخترتم الضلالة لم نشأ إعطاءه لكم وإنما أعطيناه الذين اختاروه من النفوس البرة وهم المعنيون بما سيأتى من قوله تعالى (إنما يؤمن بآياتنا) الآية فيكون مناط عدم مشيئة إعطاء الهدى فى الحقيقة سوء اختيارهم لا تحقق القول وإنما قيدنا المشيئة بما مر من التعلق الفعلى بأفعال العباد عند حدوثها لأن المشيئة الأزلية من حيث تعلقها بما سيكون من أفعالهم إجمالا متقدمة على تحقق كلمة العذاب فلا يكون عدمها منوطا بتحققها وإنما مناطه علمه تعالى أزلا بصرف اختيارهم فيما سيأتى إلى الغى وإيثارهم له على الهدى فلو أريدت هى من تلك الحيثية لاستدرك بعدمها ونيط ذلك بما ذكر من المناط على منهاج قوله تعالى (ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم) فمن توهم أن المعنى ولو شئنا لأعطينا كل نفس ماعندنا من اللطف الذى لو كان منهم اختياره لاهتدوا ولكن لم نعطهم لما علمنا منهم اختيار الكفر وإيثاره فقد اشتبه عليه الشؤن والفاء فى قوله تعالى ﴿فذوقوا ﴾ لترتيب الأمر بالذوق على ما يعرب عنه ما قبله من نفى الرجع إلى الدنيا أو على الوعيد المحكى والباء فى قوله تعالى ﴿ بما نسيتم لقاء يومكم هذا ﴾ للإيذان بأن تعذيبهم ليس لمجرد سبق الوعيد به فقط بل هو وسبق الوعيد أيضا بسبب موجب له من قبلهم كأنه قيل لا رجع لكم إلى الدنيا أوحق وعيدى فذوقوا بسبب نسيانكم لقاء هذا اليوم الهائل وترككم التفكر فيه

والاستعداد له بالكلية ﴿ إنا نسيناكم ﴾ أى تركناكم فى العذاب ترك المنسى بالمرة وقوله تعالى ﴿ وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون ﴾ تكرير للتأكيد والتشديد وتعيين المفعول المطوى للذوق والإشعار بأن سببه ليس مجرد ما ذكر من النسيان بل له أسباب أخر من فنون الكفر والمعاصى التى كانوا مستمرين عليها فى الدنيا وعدم نظم الكل فى سلك واحد للتنبيه على استقلال كل منها فى استيجاب العذاب وفى إبهام المذوق أولا وبيانه ثانيا بتكرير الأمر وتوسيط الاستئناف المنبىء عن كمال السخط بينهما من الدلالة على غاية التشديد فى الانتقام منهم ما لا يخفى وقوله تعالى ﴿ إنما يؤمن بآياتنا ﴾ استئناف مسوق لتقرير عدم استحقاقهم لإيتاء الهدى والإشعار بعدم إيمانهم لو أوتوه بتعيين من يستحقه بطريق القصر كأنه قيل إنكم لا تؤمنون بآياتنا ولا تعملون بموجبها عملا صالحا ولو رجعناكم إلى الدنيا كما تدعون حسبما ينطق به قوله تعالى (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه) وإنما يؤمن بها .

﴿ الذين إذا ذكروا بها ﴾ أى وعظوا ﴿ خروا سجدا ﴾ آثر ذى أثير من غير تردد ولا تلعثم فضلا عن التسويف إلى معاينة ما نطقت به من الوعد والوعيد أى سقطوا على وجوههم ﴿ وسبحوا بحمد ربهم ﴾ أى ونزهوه عند ذلك عن كل ما لا يليق به من الأمور التى من جملتها العجز عن البعث ملتبسين بحمده تعالى على نعمائه التى أجلها الهدايه بإيتاء الآيات والتوفيق للاهتداء بها والتعرض لعنوان الربوبية بطريق الالتفات مع الإضافة إلى ضميرهم للإشعار بعلة التسبيح والتحميد وبأنهم يفعلونهما بملاحظة وبوبيته تعالى لهم ﴿ وهم لا يستكبرون ﴾ أى والحال أنهم خاضعون له تعالى لا يستكبرون عما فعلوا من الخرور والتسبيح والتحميد ﴿ تتجافى جنوبهم ﴾ أى تنبو وتنحى ﴿ عن المضاجع ﴾ أى الفرش ومواضع المنام والجملة مستأنفة لبيان بقية محاسنهم وهم المتهجدون بالليل قال أنس رضى الله عنه نزلت فينا معاشر الأنصار كنا نصلى المغرب فلا نرجع إلى رحالنا حتى نصلى العشاء مع النبى عليه الصلاة والسلام وعن أنس أيضا رضى الله عنه أنه قال نزلت فى أناس من أصحاب النبى عليه

الصلاة والسلام كانوا يصلون من صلاة المغرب إلى صلاة العشاء وهى صلاة الأوابين وهو قول أبى حازم ومحمد بن المنكدر وهو مروى عن ابن عباس رضى الله عنهما وقال عطاءهم الذين لا ينامون حتى يصلوا العشاء الآخرة والفجر فى جماعة والمشهور أن المراد منه صلاة الليل وهو قول الحسن ومجاهد ومالك والأوزاعى وجماعة لقوله عليه الصلاة والسلام أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرم وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل وعن النبى عليه الصلاة والسلام فى تفسيرها قيام العبد من الليل وعنه عليه الصلاة والسلام إذا جمع الله الأولين والآخرين جاء مناد ينادى بصوت يسمع الخلائق كلهم سيعلم أهل الجمع اليوم من أولى بالكرم ثم يرجع فينادى ليقم الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع فيقومون وهم قليل ثم يرجع فينادى ليقم الذين كانوا يحمدون الله فى السراء والضراء فيقومون وهم قليل فيسرحون جميعا إلى الجنة ثم يحاسب سائر الناس وقوله تعالى ﴿ يدعون ربهم ﴾ حال من ضمير جنوبهم أى داعين له تعالى على الاستمرار ﴿ خوفا ﴾ من سخطه وعذابه وعدم قبول عبادته ﴿ وطمعا ﴾ فى رحمته ﴿ ومما رزقناهم ﴾ من المال ﴿ ينفقون ﴾ فى وجوه البر والحسنات .

﴿ فلا تعلم نفس ﴾ من النفوس لا ملك مقرب ولا نبى مرسل فضلا عمن عداهم ﴿ ما أخفى لهم ﴾ أى لأولئك الذين عددت نعوتهم الجليلة ﴿ من قرة أعين ﴾ مما تقر به أعينهم وعنه عليه الصلاة والسلام يقول الله عز وجل أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر بله ما اطلعتم عليه اقرؤا إن شئتم فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين وقرىء ما أخفى لهم وما نخفى لهم وما أخفيت لهم على صيغة المتكلم وما أخفى لهم على البناء للفاعل وهو الله سبحانه وقرىء قرات أعين لاختلاف أنواعها والعلم بمعنى المعرفة وما موصولة أو استفهامية علق عنها الفعل ﴿ جزاء بما كانوا يعملون ﴾ أى جزوا جزاء أو أخفى لهم للجزاء بما كانوا يعملونه فى الدنيا من الأعمال

الصالحة قيل هؤلاء القوم أخفوا أعمالهم فأخفى الله تعالى ثوابهم ﴿ أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً ﴾ أى أبعد ظهور ما بينهما من التباين البين يتوهم كون المؤمن الذى حكيت أوصافه الفاضلة كالفاسق الذى ذكرت أحواله ﴿ لا يستوون ﴾ التصريح به مع إفادة الإنكار لنفى المشابهة بالمرة على أبلغ وجه وآكده لبناء التفصيل الآتى عليه والجمع باعتبار معنى من كما أن الإفراد فيما سبق باعتبار لفظها وقوله تعالى ﴿ أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى ﴾ تفصيل لمراتب الفريقين فى الآخرة بعد ذكر أحوالهما فى الدنيا وأضيفت الجنة إلى المأوى لأنها المأوى الحقيقى وإنما الدنيا منزل مرتحل عنه لا محالة وقيل المأوى جنة من الجنات وأيا ما كان فلا يبعد أن يكون فيه رمز إلى ما ذكر من تجافيهم عن مضاجعهم التى هى مأواهم فى الدنيا ﴿ نزلا ﴾ أى ثوابا وهو فى الأصل ما يعد للنازل من الطعام والشراب وانتصابه على الحالية ﴿ بما كانوا يعملون ﴾ فى الدنيا من الأعمال الصالحة أو بأعمالهم ﴿ وأما الذين فسقوا ﴾ أى خرجوا عن الطاعة ﴿ فمأواهم ﴾ أى ملجاهم ومنزلهم ﴿ النار ﴾ مكان جنات المأوى للمؤمنين ﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ﴾ استئناف لبيان كيفية كون النار مأواهم يروى أنه يضربهم لهب النار فيرتفعون إلى طبقاتها حتى إذا قربوا من بابها وأرادوا أن يخرجوا منها يضربهم اللهب فيهوون إلى قعرها وهكذا يفعل بهم أبدا وكلمة فى للدلالة على أنهم مستقرون فيها وإنما الإعادة من بعض طبقاتها إلى بعض .

﴿ وقيل لهم ﴾ تشديدا عليهم وزيادة فى غيظهم ﴿ ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به ﴾ أى بعذاب النار ﴿ تكذبون ﴾ على الاستمرار فى الدنيا ﴿ ولنذيقنهم من العذاب الأدنى ﴾ أى عذاب الدنيا وهو ما محنوا به من السنة سبع سنين والقتل والأسر ﴿ دون العذاب الأكبر ﴾ الذى هو عذاب الآخرة ﴿ لعلهم ﴾ لعل الذين يشاهدونه وهم فى الحياة ﴿ يرجعون ﴾ يتوبون عن الكفر روى أن الوليد بن عقبة فاخر عليا رضى الله عنه يوم بدر فنزلت هذه الآيات ﴿ ومن

أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها ﴾ بيان إجمالى لحال من قابل آيات الله تعالى بالإعراض بعد بيان حال من قابلها بالسجود والتسبيح والتحميد وكلمة ثم لاستبعاد الإعراض عنها عقلا مع غاية وضوحها وإرشادها إلى سعادة الدارين. كما فى بيت الحماسة :

ولا يكشف الغماء إلا ابن حرة يرى غمرات الموت ثم يزورها

أى هو أظلم من كل ظالم وإن كان سبك التركيب على نفى الأظلم من غير تعرض لنفى المساوى وقد مر مرارا ﴿ إنا من المجرمين ﴾ أى من كل من اتصف بالإجرام وإن هانت جريمته ﴿ منتقمون ﴾ فكيف عمن هو أظلم من كل ظالم وأشد جرما من كل مجرم ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب ﴾ أى التوراة عبر عنها باسم الجنس لتحقيق المجانسة بينها وبين الفرقان والتنبيه على أن إيتاءه لرسول الله صلى الله عليه وسلم كإيتائها لموسى عليه السلام ﴿ فلا تكن فى مرية من لقائه ﴾ من لقاء الكتاب الذى هو الفرقان كقوله وإنك لتلقى القرآن والمعنى إنا آتينا موسى مثل ما آتيناك من الكتاب ولقيناه من الوحى مثل ما لقيناك من الوحى فلا تكن فى شك من أنك لقيت مثله ونظيره وقيل من لقاء موسى الكتاب أو من لقائك موسى وعنه عليه الصلاة والسلام رأيت ليلة أسرى بى موسى رجلا آدم طوالا جعدا كأنه من رجال شنوأة .

﴿ وجعلناه ﴾ أى الكتاب الذى آتيناه موسى ﴿ هدى لبنى إسرائيل ﴾ قيل لم يتعبد بما فى التوراة ولد إسمعيل ﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون ﴾ بقيتهم بما فى تضاعيف الكتاب من الحكم والأحكام إلى طريق الحق أو يهدونهم إلى ما فيه من دين الله وشرائعه ﴿ بأمرنا ﴾ إياهم بذلك أو بتوفيقنا له ﴿ لما صبروا ﴾ هى لما التى فيها معنى الجزاء نحو أحسنت إليك لما جئتنى والضمير للأئمة تقديره لما صبروا جعلناهم أئمة أو هى ظرف بمعنى الحين أى جعلناهم أئمة حين صبروا والمراد صبرهم على مشاق الطاعات ومقاسات الشدائد فى نصرة الدين أو صبرهم عن الدنيا وقرىء لما صبروا أى لصبرهم ﴿ وكانوا بآياتنا ﴾ التى فى تضاعيف الكتاب ﴿ يوقنون ﴾ لإمعانهم فيها النظر والمعنى كذلك لنجعلن الكتاب الذى

آتينا كه هدى لأمتك ولنجعلن منهم أئمة يهدون مثل تلك الهداية ﴿ إن ربك هو يفصل ﴾ أى يقضى ﴿ بينهم ﴾ قيل بين الأنبياء وأممهم وقيل بين المؤمنين والمشركين ﴿ يوم القيامة ﴾ فيميز بين المحق والمبطل ﴿ فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ من أمور الدين ﴿ أولم يهد لهم ﴾ الهمزة للإنكار والواو للعطف على منوى يقتضيه المقام فعل الهداية إما من قيل فلان يعطى فى أن المراد إيقاع نفس الفعل بلا ملاحظة المفعول وإما بمعنى التبيين والمفعول محذوف والفاعل مادل عليه قوله تعالى ﴿ كم أهلكنا ﴾ أى أغفلوا ولم يفعل الهداية لهم أو ولم يبين لهم ما آل أمرهم كثرة إهلاكنا ﴿ من قبلهم من القرون ﴾ مثل عاد وثمود وقوم لوط وقرىء نهد لهم بنون العظمة وقد جوز أن يكون الفاعل على القراءة الأولى أيضاً ضميره تعالى فيكون قوله تعالى كم أهلكنا الخ استئنافا مبيناً لكيفية هدايته تعالى ﴿ يمشون فى مساكنهم ﴾ أى يمرون فى متاجرهم على ديارهم وبلادهم ويشاهدون آثار هلاكهم والجملة حال من ضمير لهم وقرىء يمشون للتكثير ﴿ إن فى ذلك ﴾ أى فيما ذكر من كثرة إهلاكنا للأمم الخالية العاتية أو فى مساكنهم ﴿ لآيات ﴾ عظيمة فى أنفسها كثيرة فى عددها ﴿ أفلا يسمعون ﴾ هذه الآيات سماع تدبر واتعاظ ﴿ أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز ﴾ أى التى جرز نباتها أى قطع وأزيل بالمرة وقيل هو اسم موضع باليمن ﴿ فنخرج به ﴾ من تلك الأرض ﴿ زرعا تأكل منه ﴾ أى من ذلك الزرع ﴿ أنعامهم ﴾ كالتبن والقصيل والورق وبعض الحبوب المخصوصة بها وقرىء يأكل بالياء ﴿ وأنفسهم ﴾ كالحبوب التى يقتاتها الإنسان والثمار ﴿ أفلا يبصرون ﴾ اى ألا ينظرون فلا يبصرون ذلك ليستدلوا به على كمال قدرته تعالى وفضله ﴿ ويقولون ﴾ كان المسلمون يقولون إن الله سيفتح لنا على المشركين أو يفصل بيننا وبينهم كان أهل مكة إذا سمعوه يقولون بطريق الاستعجال تكذيبا واستهزاء ﴿ متى هذا الفتح ﴾ أى النصر أو الفصل بالحكومة ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ فى أن الله تعالى ينصركم أو يفصل بيننا وبينكم ﴿ قل ﴾ تبكيتاً لهم وتحقيقاً للحق ﴿ يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولاهم ينظرون ﴾ يوم الفتح يوم القيامة وهو يوم الفصل بين المؤمنين وأعدائهم

ويوم نصرهم عليهم وقيل هو يوم بدر وعن مجاهد والحسن يوم فتح مكة والعدول عن تطبيق الجواب على ظاهر سؤالهم للتنبيه على أنه ليس مما ينبغى أن يسأل عنه لكونه أمرا بيناً غنياً عن الأخبار به وكذا إيمانهم واستنظارهم يومئذ وإنما المحتاج إلى البيان عدم نفع ذلك الإيمان وعدم الإنظار كأنه قيل لا تستعجلوا فكأنى بكم قد آمنتم فلم ينفعكم واستنظرتم فلم تنظروا وهذا على الوجه الأول ظاهر وأما على الأخيرين فالموصول عبارة عن المقتولين يومئذ لا عن كافة الكفرة كما فى الوجه الأول كيف لا وقد نفع الإيمان الطلقاء يوم الفتح وناساً آمنوا يوم بدر ﴿ فأعرض عنهم ﴾ ولا تبال بتكذيبهم ﴿ وانتظر ﴾ النصرة عليهم وهلاكهم ﴿ إنهم منتظرون ﴾ قيل أى الغلبة عليكم كقوله تعالى ﴿فتربصوا إنا معكم متربصون﴾ والأظهر أن يقال إنهم منظرون هلاكهم كما فى قوله تعالى (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام) الآية ويقرب منه ما قيل وانتظر عذابنا إنهم منتظروه فإن استعجالهم المذكور وعكوفهم على ما هم عليه من الكفر والمعاصى[1] فى حكم انتظارهم العذاب المترتب عليه لا محالة وقرىء على صيغة المفعول على معنىً أنهم أحقاء بأن ينتظر هلاكهم أو فإن الملائكة ينتظرونه ، عن النبى عليه الصلاة والسلام من قرأ الم تنزيل وتبارك الذى بيده الملك أعطى من الأجر كأنما أوحى ليلة القدر وعنه عليه الصلاة والسلام من قرأ الم تنزيل فى بيته لم يدخله الشيطان ثلاثة أيام .

* * *

(١) فى ١١ والمعصية .

سورة الأحزاب

(مدنية وهى ثلاث وسبعون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

﴿ يا أيها النبى اتق الله ﴾ فى ندائه عليه الصلاة والسلام بنوان النبوة تنويه بشأنه وتنبيه على سمو مكانه والمراد بالتقوى المأمور به الثبات عليه والازدياد منه فإن له بابا واسعا وعرضا عريضا لا ينال مداه ﴿ ولا تطع الكافرين ﴾ أى المجاهرين بالكفر ﴿ والمنافقين ﴾ المضمرين له أى فيما يعود بوهن فى الدين وإعطاء دنية فيما بين المسلمين روى أن أبا سفيان بن حرب وعكرمة ابن أبى جهل وأبا الأعور السلمى قدموا عليه عليه الصلاة والسلام فى الموادعة التى كانت بينه عليه الصلاة والسلام وبينهم وقام معهم عبد الله بن أبى ومعتب ابن قشير والجد بن قيس فقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم أرفض ذكر آلهتنا وقل إنها تشفع وتنفع وندعك وربك فشق ذلك على النبي عليه الصلاة والسلام والمؤمنين وهموا بقتلهم فنزلت أى اتق الله فى نقض العهد ونبذ الموادعة ولا تساعد الكافرين من أهل مكة والمنافقين من أهل المدينة فيما طلبوا إليك ﴿ إن الله كان عليما حكيما ﴾ مبالغا فى العم والحكمة فيعلم جميع الأشياء من المصالح والمفاسد فلا يأمرك إلا بما فيه مصلحة ولا ينهاك إلا عما فيه مفسدة ولا يحكم إلا بما تقتضيه الحكمة البالغة فالجلة تعليل للامر والنهى مؤكد لوجوب الامتثال بهما ﴿ واتبع ﴾ أى فى كل ما تأتى وتذر من أمور الدين ﴿ مايوحى إليك من ربك ﴾ من الآيات التى من جملتها هذه الآية الامرة بتقوى الله الناهية عن مساعدة الكفرة والمنافقين والتعرض لعنوان الربوبية لتأكيد وجوب الإمتثال بالأمر ﴿ إن الله كان بما تعملون خبيرا ﴾ قيل الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام والجمع للتعظيم وقيل له عليه الصلاة والسلام وللمؤمنين وقيل

للغائبين بطريق الإلتفات ولا يخفى بعده(١) نعم يجوز أن يكون للكل على ضرب من التغليب وأياما كان فالجملة تعليل للأمر وتأكيد لموجبه أما على الوجهين الأولين فبطريق الترغيب والترهيب كأنه قيل إن الله خبير بما تعملونه من الإمتثال وتركه فيرتب على كل منهما جزاءه ثوابا وعقابا وأما على الوجه الأخير فبطريق الترغيب فقط كأنه قيل إن الله خبير بما يعمله كلا الفريقين فيرشدك إلى ما فيه صلاح حالك وانتظام أمرك ويطلعك على ما يعملونه من المكايد والمفاسد ويأمرك بما ينبغي لك أن تعمله فى دفعها وردها فلا بد من اتباع الوحي والعمل بمقتضاه حتما ﴿ وتوكل على الله ﴾ أى فوض جميع أمورك إليه ﴿ وكفى بالله وكيلا ﴾ حافظا موكولا إليه كل الأمور .

العلاقات الزوجية

﴿ ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ﴾ شروع فى إلقاء الوحي الذى أمر عليه الصلاة والسلام باتباعه وهذا مثل ضربه الله تعالى تمهيدا لما يعقبه من قوله تعالى .

﴿ وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم وما جعل أدعياءكم أبناءكم ﴾ وتنبيها على أن كون المظاهر منها أما وكون الداعى أبنا أى بمنزلة بمنزلة الأم والإبن فى الآثار والأحكام المعهودة فيما بينهم فى الاستحالة اجتماع قلبين فى جوف واحد وقيل هو رد لما كانت العرب تزعم من أن اللبيب الأريب له قلبان ولذلك قيل لأبى معمر أو لجميل بن أسيد الفهرى ذو القلبين أى ماجمع الله تعالى قلبين فى رجل وذكر الجوف لزيادة التقرير كما فى قوله تعالى (ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) ولا زوجية ولا أمومة فى امرأة ولا دعوة وبنوة فى شخص لكن لا بمعنى نفى الجمع بين حقيقة الزوجية والأمومة ونفى الجمع بين حقيقة الدعوة والبنوة كما فى القلب ولا بمعنى نفى الجمع بين أحكام

(١) يعنى أنه بعيد عن الفهم الصحيح .

الزوجية وأحكام الأمومة ونفى الجمع بين أحكام الدعوة وأحكام النبوة على الإطلاق ، بل بمعنى نفي الجمع بين حقيقة الزوجية وأحكام الأمومة ونفى الجمع بين حقيقة الدعوة وأحكام البنوة لإبطال ما كانوا عليه من إجراء أحكام الأمومة على المظاهر منها وإجراء أحكام البنوة على الدعي ومعنى الظهار أن يقول لزوجته أنت على كظهر أمي مأخوذ من الظهر باعتبار اللفظ كالتلبية من لبيك وتعديته بمن لتضمنه معنى التجنب لأنه كان طلاقا فى الجاهلية وهو فى الإسلام يقتضى الطلاق أو الحرمة إلى أداء الكفارة كما عدى آلى بها وهو بمعنى حلف وذكر الظهار للكناية عن البطن الذى هو عموده فإن ذكره قريب من ذكر الفرج أو للتغليظ فى التحريم فإنهم كانوا يحرمون اتيان الزوجة وظهرها إلى السماء وقرىء اللاى قرىء اللاء وقرىء تظاهرون بحذف إحدى التاءين من تتظاهرون وتظاهرون بإدغام التاء الثانية فى الظاء وتظهرون من أظهر بمعنى تظهر وتظهرون من ظهر بمعنى ظاهر كعقد بمعنى عاقد وتظهرون من ظهر ظهورا وأدعياء جمع دعي وهو الذى يدعى ولدا على الشذوذ لإختصاص أفعلاء بفعيل بمعنى فاعل كتقى وأتقياء كأنه شبه به فى اللفظ فجمع جمعه كقتلاء وأسراء .

﴿ ذلكم ﴾ إشارة إلى ما يفهم مما ذكر من الظهار والدعاء أو إلى الأخير الذى هو المقصود من مساق الكلام أى دعاءكم بقولكم هذا ابنى ﴿ قولكم بأفواهكم ﴾ فقط من غير أن يكون له مصداق وحقيقة فى الأعيان فإذن هو بمعزل من استتباع أحكام البنوة كما زعمتم ﴿ والله يقول الحق ﴾ المطابق للواقع ﴿ وهو يهدى السبيل ﴾ أى سبيل الحق لا غير فدعوا أقوالكم وخذوا بقوله عز وجل ﴿ ادعوهم لآبائهم ﴾ أى أنسبوهم إليهم وخصوهم بهم وقوله تعالى : ﴿ هو أقسط عند الله ﴾ تعليل له والضمير لمصدر ادعوا كما فى قوله تعالى . (اعدلوا هو أقرب للتقوى) وأقسط أفعل تفضيل قصد به الزيادة مطلقا من القسط بمعنى العدل أى الدعاء لآبائهم بالغ فى العدل والصدق فى حكم الله تعالى وقضائه ﴿ فإن لم تعلموا آباءهم ﴾ فتنسبوهم إليهم ﴿ فإخوانكم ﴾ فهم إخوانكم ﴿ فى الدين ومواليكم ﴾ وأولياؤكم فيه أى فادعوهم بالأخوة الدينية والمولوية ﴿ وليس عليكم جناح ﴾ أى إثم ﴿ فيما أخطأتم به ﴾ أى فيما فعلتموه من ذلك مخطئين

بالسهو أو النسيان أو سبق اللسان ﴿ ولكن ما تعمدت قلوبكم ﴾ أى ولكن الجناح فيما تعمدت قلوبكم بعد النهى أو ما تعمدت قلوبكم فيه الجناح ﴿ وكان الله غفورا رحيما ﴾ لعفوه عن المخطىء وحكم التبنى بقوله هو ابنى إذا كان عبداً لقائل العتق على كل حال ولا يثبت نسبه منه إلا إذا كان مجهول النسب وكان بحيث يولد مثله لمثل المتبنى ولم يقر قبله بنسبه من غيره .

﴿ النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ﴾ أى فى كل أمر من أمور الدين والدنيا كما يشهد به الإطلاق فيجب عليهم أن يكون عليه الصلاة والسلام أحب إليهم من أنفسهم وحكمه أنفذ عليهم من حكمها وحقه آثر لديهم من حقوقها وشفقتهم عليه أقدم من شفقتهم عليها روى أنه عليه الصلاة والسلام أراد غزوة تبوك فأمر الناس بالخروج فقال أنس نستأذن آباءنا وأمهاتنا فنزلت وقرىء وهو أب لهم أى فى الدين فإن كل نبى أب لأمته من حيث إنه أصل فيما به الحياة الأبدية ولذلك صار المؤمنون إخوة ﴿ وأزواجه أمهاتهم ﴾ أى منزلات منزلة الأمهات فى التحريم واستحقاق التعظيم وأما فيما عدا ذلك فهن كالأجنبيات ولذلك قالت عائشة رضى الله عنها لسنا أمهات النساء ﴿ وأولو الأرحام ﴾ أى ذوو القرابات ﴿ بعضهم أولى ببعض ﴾ فى التوارث وهو نسخ لما كان فى صدر الإسلام من التوارث بالهجرة والموالاة فى الدين ﴿ فى كتاب الله ﴾ فى اللوح أو فيما أنزله وهو هذه الآية أو آية المواريث أو فيما فرض الله تعالى ﴿ من المؤمنين والمهاجرين ﴾ بيان لأولى الأرحام أو صلة لأولى أى أولو الأرحام بحق القرابة أولى بالميراث من المؤمنين بحق الدين ومن المهاجرين بحق الهجرة ﴿ إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا ﴾ استثناء من أعم ما تقدر الأولوية فيه من النفع والمراد بفعل المعروف التوصية أو منقطع ﴿ كان ذلك فى الكتاب مسطورا ﴾ أى كان ما ذكر من الآيتين ثابتا فى اللوح أو القرآن وقيل فى التوراة ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ﴾ أى اذكر وقت أخذنا من النبيين كافة عهودهم بتبليغ الرسالة والدعاء إلى الدين الحق ﴿ ومنك ومن نوح وإبراهيم

وموسى وعيسى ابن مريم ﴾ وتخصيصهم بالذكر مع اندراجهم فى النبيين اندراجا بينا للإيذان بمزيد مزيتهم وفضلهم وكونهم من مشاهير أرباب الشرائع وأساطين أولى العزم من الرسل وتقديم نبينا عليهم الصلاة والسلام لإبانة خطره الجليل ﴿ وأخذنا منهم ميثاقا غليظا ﴾ أى عهدا عظيم الشأن أو مؤكدا باليمين وهذا هو الميثاق الأول بعينه وأخذه هو أخذه والعطف مبنى على تنزيل التغاير العنوانى منزلة التغاير الذاتى تفخيما لشأنه كما فى قوله تعالى (ونجيناهم من عذاب غليظ) إثر قوله تعالى (فلما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا) وقوله تعالى :

﴿ ليسأل الصادقين عن صدقهم ﴾ متعلق بمضمر مستأنف مسوق لبيان ما هو داع إلى ما ذكر من أخذ الميثاق وغاية له لا بأخذنا فإن المقصود تذكير نفس الميثاق ثم بيان الغرض منه بيانا قصديا كما ينبىء عنه تغيير الأسلوب بالإلتفات إلى الغيبة أى فعل الله ذلك ليسأل يوم القيامة الأنبياء ووضع الصادقين موضع ضميرهم للإيذان من أول الأمر بأنهم صادقون فيما سئلوا عنه وإنما السؤال لحكمة تقتضيه أى ليسأل الأنبياء الذين صدقوا عهودهم عما قالوه لقومهم أو عن تصديقهم إياهم تبكيتا لهم كما فى قوله تعالى (يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم) أو المصدقين لهم عن تصديقهم فإن مصدق الصادق صادق وتصديقه صدق وأما ما قيل من أن المعنى ليسأل المؤمنين الذين صدقوا عهدهم حين أشهدهم على أنفسهم عن صدقهم عهدهم فيأباه مقام تذكير ميثاق النبيين وقوله تعالى ﴿ وأعد للكافرين عذابا أليما ﴾ عطف على ما ذكر من المضمر لا على أخذنا كما قيل والتوجيه بأن بعثة الرسل وأخذ الميثاق منهم لإثابة المؤمنين أو بأن المعنى أن الله تعالى أكد على الأنبياء الدعوة إلى دينه لأجل إثابة المؤمنين تعسف ظاهر مع أنه مفض إلى كون بيان إعداد العذاب الأليم للكافرين غير مقصود بالذات نعم يجوز عطفه على ما دل عليه قوله تعالى ليسأل الصادقين كأنه قيل فأثاب المؤمنين وأعد للكافرين الآية .

من نعم الله على المسلمين

﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم ﴾ إن جعل النعمة مصدرا فالجار متعلق بها وإلا فهو متعلق بمحذوف هو حال منها أى كائنة عليكم ﴿ إذ جاءتكم جنود ﴾ ظرف لنفس النعمة أو لثبوتها لهم وقيل منصوب باذكروا على أنه بدل اشتمال من نعمة الله والمراد بالجنود الأحزاب وهم قريش وغطفان ويهود قريظة والنضير وكانوا زهاء إثنى عشر ألفاً فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بإقبالهم ضرب الخندق على المدينة بإشارة سلمان الفارسى ثم خرج فى ثلاثة آلاف من المسلمين فضرب معسكره والخندق بينه وبين القوم وأمر بالذرارى والنساء فرفعوا فى الآطام واشتد الخوف وظن المؤمنون كل ظن ونجم النفاق فى المنافقين حتى قال معتب بن قشير كان محمد يعدنا كنوز كسرى وقيصر ولا نقدر أن نذهب إلى الغائط ومضى على الفريقين قريب من شهر لاحرب بينهم إلا أن فوارس من قريش منهم عمرو بن عبدود وعكرمة بن أبى جهل وهبيرة بن أبى وهب ونوفل بن عبدالله وضرار بن الخطاب ومرداس أخو بنى محارب قد ركبوا خيولهم وتيمموا من الخندق مكانا مضيقا فضربوا خيولهم فاقتحموا فجالت بهم فى السبخة بين الخندق وسلع فخرج على بن أبى طالب رضى الله عنه فى نفر من المسلمين حتى أخذ عليهم الثغرة التى اقتحموا منها فأقبلت الفرسان نحوهم وكان عمرو معلما ليرى مكانه فقال له على رضى الله عنه يا عمروَ إنى أدعوك إلى الله ورسوله والإسلام قال لا حاجة لى إليه قال فإنى أدعوك إلى النزال قال يا ابن أخى والله إنى لا أحب أن أقتلك قال على لكنى والله أحب أن أقتلك فحمى عمرو عندذلك وكان غيوراً مشهورا بالشجاعة واقتحم عن فرسه فعقره أو ضرب وجهه ثم أقبل على على فتناولا وتجاولا فضربه على رضى الله عنه ضربة ذهبت فيها نفسه فلما قتله انهزمت خيله حتى اقتحمت من الخندق هاربة وقتل مع عمرو رجلان منبه بن عثمان بن عبدالدار ونوفل بن عبدالله ابن المغيرة المخزومى قتله أيضا على رضى الله عنه وقيل لم يكن بينهم إلا الترامى بالنبل والحجارة حتى أنزل الله تعالى النصر وذلك قوله تعالى :

﴿ فأرسلنا عليهم ريحا ﴾ عطف على جاءتكم مسوق لبيان النعمة إجمالا وسيأتى بقيتها فى آخر القصة ﴿ وجنودا لم تروها ﴾ وهم الملائكة عليهم السلام وكانوا ألفا بعث الله عليهم صبا باردة فى ليلة شاتية فأخصرتهم وسفت التراب فى وجوههم وأمر الملائكة فقلعت الأوتاد وقطعت الأطناب وأطفأت النيران وأكفأت القدور وماجت الخيل بعضها فى بعض وقذف فى قلوبهم الرعب وكبرت الملائكة فى جوانب عسكرهم فقال طليحة بن خويلد الأسدى أما محمد فقد بدأكم بالسحر فالنجاء النجاء فانهزموا من غير قتال ﴿ وكان الله بما تعملون ﴾ من حفر الخندق وترتيب مبادىء الحرب وقيل من التجائكم إليه ورجائكم من فضله وقرىء بالياء أى بما يعمله الكفار أى من التحزز والمحاربة أو من الكفر والمعاصى ﴿ بصيرا ﴾ ولذلك فعل ما فعل من نصركم عليهم والجملة اعتراض مقرر لما قبله ﴿ إذ جاؤكم ﴾ بدل من إذ جاءتكم ﴿ من فوقكم ﴾ من أعلى الوادى من جهة المشرق وهم بنو غطفان ومن تابعهم من أهل نجد قائدهم عيينة بن حصن وعامر بن الطفيل فى هوازن وضامتهم اليهود من قريظة والنضير ﴿ ومن أسفل منكم ﴾ أى من أسفل الوادى من قبل المغرب وهم قريش ومن شايعهم[1] من الأحابيش وبنى كنانة وأهل تهامة وقائدهم أبو سفيان وكانوا عشرة آلاف ﴿ وإذا زاغت الأبصار ﴾ عطف على ما قبله داخل معه فى حكم التذكير أى حين مالت عن سننها وانحرفت عن مستوى نظرها حيرة وشخوصا وقيل عدلت عن كل شىء فلم تلتفت إلا إلى عدوها لشدة الروع ﴿ وبلغت القلوب الحناجر ﴾ لأن الرئة تنتفخ من شدة الفزع فيرتفع القلب بارتفاعها إلى رأس الحنجرة وهى منتهى الحلقوم وقيل هو مثل فى اضطراب القلوب ووجيبها وإن لم تبلغ الحناجر حقيقة[2] والخطاب فى قوله تعالى .

﴿ وتظنون بالله الظنونا ﴾ لمن يظهر الإيمان على الإطلاق أى تظنون بالله تعالى أنواع الظنون المختلفة حيث ظن المخلصون الثبت القلوب أن الله تعالى

---

(١) فى ١١ : وشايعهم (٢) فى ١١ على الحقيقة

ينجز وعده فى إعلاء دينه كما يعرب عنه ما سيحكى عنهم من قولهم (هذا ماوعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله) الآية أو يمتحنهم فخافوا الزلل وضعف الاحتمال والضعاف القلوب والمنافقون ما حكى عنهم مما لا خير فيه والجملة معطوفة على زاغت وصيغة المضارع لاستحضار الصورة والدلالة على الاستمرار وقرىء الظنون بغير ألف وهو القياس وزيادتها لمراعاة الفواصل كما تزاد فى القوافى ﴿ هنالك ﴾ ظرف زمان أو ظرف مكان لما بعده أى فى ذلك الزمان الهائل أو المكان الدحض ﴿ ابتلى المؤمنون ﴾ أى عوملوا معاملة من يختبر فظهر المخلص من المنافق والراسخ من المتزلزل ﴿ وزلزلوا زلزالا شديدا ﴾ من الهول والفزع وقرىء بفتح الزاى ﴿ وإذ يقول المنافقون ﴾ عطف على إذ زاغت وصيغة المضارع لما مر من الدلالة على استمرار القول واستحضار صورته ﴿ والذين فى قلوبهم مرض ﴾ أى ضعف اعتقاد ﴿ ماوعدنا الله ورسوله ﴾ من إعلاء الدين والظفر ﴿ إلا غرورا ﴾ أى وعد غرور وقيل قولا باطلا والقائل معتب بن قشير وأضرابه راضون به قال يعدنا محمد بفتح كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يقدر أن يتبرز فرقا ما هذا إلا وعد غرور .

﴿ وإذ قالت طائفة منهم ﴾ هم أوس بن قيظى وأتباعه وقيل عبد الله ابن أبى وأشياعه ﴿ يا أهل يثرب ﴾ هو اسم المدينة المطهرة وقيل اسم بقعة وقعت المدينة فى ناحية منها وقد نهى النبى عليه الصلاة والسلام أن تسمى بها كراهة لها وقال هى طيبة أو طابة كأنهم ذكروها بذلك الاسم مخالفة له عليه الصلاة والسلام ونداؤهم إياهم بعنوان أهليتهم لها ترشيح لما بعده من الأمر بالرجوع إليها ﴿ لا مقام لكم ﴾ لا موضع إقامة لكم أو لا إقامة لكم ههنا يريدون المعسكر وقرىء بفتح الميم أى لا قيام أو لا موضع قيام لكم ﴿ فارجعوا ﴾ أى إلى منازلكم بالمدينة مرادهم الأمر بالفرار لكنهم عبروا عنه بالرجوع ترويجا لمقالهم وإيذانا بأنه ليس من قبيل الفرار المذموم وقيل المعنى لاقيام لكم فى دين محمد عليه الصلاة والسلام فارجعوا إلى ما كنتم عليه من الشرك أوفارجعوا عما بايعتموه عليه وأسلموه إلى أعدائه أو لا مقام لكم فى يثرب فارجعوا كفارا

ليتسق لكم المقام بها والأول هو الأنسب لما بعده فإن قوله تعالى ﴿ ويستأذن فريق منهم النبي ﴾ معطوف على قالت وصيغة المضارع لما مر من استحضار الصورة وهم بنو حارثة وبنو سلمة استأذنوه عليه الصلاة والسلام فى الرجوع ممتثلين بأمرهم وقوله تعالى ﴿ يقولون ﴾ بدل من يستأذن أو حال من فاعله أو استئناف مبنى على السؤال عن كيفية الاستئذان ﴿ إن بيوتنا عورة ﴾ أى غير حصينة معرضة للعدو والسراق فأذن لنا حتى نحصنها ثم نرجع إلى العسكر والعورة فى الأصل الخلل أطلقت على المختل مبالغة وقد جوز أن تكون تخفيف عورة من عورت الدار إذا اختلت وقد قرىء بها والأول هو الأنسب بمقام الاعتذار كما يفصح عنه تصدير مقالهم بحرف التحقيق ﴿ وما هى بعورة ﴾ والحال أنها ليست كذلك ﴿ إن يريدون ﴾ ما يريدون بالاستئذان ﴿ إلا فرارا ﴾ من القتال .

﴿ ولو دخلت عليهم ﴾ أسند الدخول إلى بيوتهم وأوقع عليهم لما أن المراد فرض دخولها مطلقا كما هو المفهوم لو لم يذكر الجار والمجرور ولا فرض الدخول عليهم مطلقا كما هو المفهوم لو أسند إلى الجار والمجرور ﴿ من أقطارها ﴾ أى من جميع جوانبها لا من بعضها دون بعض فالمعنى لو كانت بيوتهم مختلة بالكلية ودخلها كل من أراد من أهل الدعارة والفساد ﴿ ثم سئلوا ﴾ من جهة طائفة أخرى عند تلك النازلة والرجفة الهائلة ﴿ الفتنة ﴾ أى الردة والرجعة إلى الكفر مكان ما سئلوا الآن من الإيمان والطاعة ﴿ لآتوها ﴾ لأعطوها غير مبالين بما دهاهم من الداهية الدهياء والغارة الشعواء وقرىء لأتوها بالقصر أى لفعلوها وجاؤها ﴿ وما تلبثوا بها ﴾ بالفتنة أى ما ألبثوها وما أخروها ﴿ إلا يسيرا ﴾ ريثما يسع السؤال والجواب من الزمان فضلا عن التعلل باختلال البيوت مع سلامتها كما فعلوا الآن وقيل ما لبثوا بالمدينة بعد الارتداد إلا يسيرا والأول هو اللائق بالمقام هذا وأما تخصيص فرض الدخول بتلك العساكر المتحزبة فمع منافاته للعموم المستفاد من تجريد الدخول عن الفاعل ففيه ضرب من فساد الوضع لما عرفت من أن مساق النظم الكريم لبيان أنهم إذا دعوا إلى

الحق تعللوا بشيء يسير وإن دعوا إلى الباطل سارعوا إليه آثر ذى أثير من غير صارف يلويهم ولا عاطف يثنيهم ففرض الدخول عليهم من جهة العساكر المذكورة وإسناد سؤال الفتنة والدعوة إلى الكفر إلى طائفة أخرى من مع أن العساكر هم المعروفون بعداوة الدين المباشرون لقتال المؤمنين المصرون على الإعراض عن الحق المجدون فى الدعاء إلى الكفر والضلال بمعزل من التقريب .

﴿ ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار ﴾ فإن بنى حارثة عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد حين فشلوا أن لا يعودوا لمثله وقيل هم قوم غابوا عن وقعة بدر ورأوا ما أعطى الله أهل بدر من الكرامة والفضيلة فقالوا لئن أشهدنا الله قتالا لنقاتلن ﴿ وكان عهد الله مسئولا ﴾ مطلوبا مقتضى حتى يوفى به وقيل مسئولا عن الوفاء به ومجازى عليه ﴿ قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل ﴾ فإنه لابد لكل شخص من حتف أنف أو قتل سيف فى وقت معين سبق به القضاء وجرى عليه القلم ﴿ وإذن لا تمتعون إلا قليلا ﴾ أى وإن نفعكم الفرار مثلا فتمتعتم بالتأخير لم يكن ذلك التمتيع إلا تمتيعا قليلا أو زمانا قليلا ﴿ قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ﴾ أى أو يصيبكم بسوء إن أراد بكم رحمة فاختصر الكلام أو حمل الثانى على الأول لما فى العصمة من معنى المنع ﴿ ولا يجدون لهم من دون الله وليا ﴾ ينفعهم ﴿ ولا نصيرا ﴾ يدفع عنهم الضرر ﴿ قد يعلم الله المعوقين منكم ﴾ أى المثبطين للناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم المنافقون ﴿ والقائلين لإخوانهم ﴾ من منافقى المدينة ﴿ هلم إلينا ﴾ وهو صوت سمى به فعل متعد نحو احضر أو قرب ويستوى فيه الواحد والجماعة على لغة أهل الحجاز وأما بنو تميم فيقولون هلم يا رجل وهلموا يارجال أى قربوا أنفسكم إلينا وهذا يدل على أنهم عند هذا القول خارجون من المعسكر متوجهون نحو المدينة ﴿ ولا يأتون البأس ﴾ أى الحراب والقتال ﴿ إلا قليلا ﴾ أى إتيانا أو زمانا أو بأسا قليلا فإنهم يعتذرون ويثبطون ما أمكن لهم ويخرجون مع المؤمنين يوهمونهم

أنهم معهم ولا تراهم يبارزون ويقاتلون إلا شيئاً قليلا إذا اضطروا إليه كقوله تعالى (ما قاتلوا إلا قليلا) وقيل إنه من تتمة كلامهم معناه ولا يأتى أصحاب محمد حرب الأحزاب ولا يقاومونهم إلا قليلا .

﴿ أشحة عليكم ﴾ أى بخلاء عليكم بالمعاونة أو النفقة فى سبيل الله أو الظفر والغنيمة جمع شحيح ونصبه على الحالية من فاعل يأتون من المعوقين أو على الذم ﴿ فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم ﴾ فى أحداقهم ﴿ كالذى يغشى عليه من الموت ﴾ صفة لمصدر ينظرون أو حال من فاعله أو لمصدر تدور أو حال من أعينهم أى ينظرون نظراً كائنا كنظر المغشى عليه من معالجة سكرات الموت حذرا وخورا ولوذاً بك أو ينظرون كائنين كالذى الخ أو تدور أعينهم دورانا كائنا كدوران عينه أو تدور أعينهم كائنة كعينه ﴿ فإذا ذهب الخوف ﴾ وحيزت الغنائم ﴿ سلقوكم ﴾ ضربوكم ﴿ بألسنة حداد ﴾ وقالوا وفروا قسمتنا فإنا قد شاهدناكم وقاتلنا معكم وبمكاننا غلبتم عدوكم وبنا نصرتم عليه والسلق البسط بقهر باليد أو باللسان وقرىء صلقوكم ﴿ أشحة على الخير ﴾ نصب على الحالية أو الذم ويؤيده القراءة بالرفع ﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بما ذكر من صفات السوء ﴿ لم يؤمنوا ﴾ بالإخلاص ﴿ فأحبط الله أعمالهم ﴾ أى أظهر بطلانها إذ لم يثبت لهم أعمال فتبطل أو أبطل تصنعهم ونفاقهم فلم يبق مستتبعا لمنفعة دنيوية أصلا ﴿ وكان ذلك ﴾ الإحباط[1] ﴿ على الله يسيرا ﴾ هينا وتخصيص يسره بالذكر مع أن كل شىء عليه تعالى يسير لبيان أن أعمالهم حقيقة بأن يظهر حبوطها لكمال تعاضد الدواعى وعدم الصوارف بالكلية ﴿ يحسبون الأحزاب لم يذهبوا ﴾ أى هؤلاء لجبنهم يظنون أن الأحزاب لم ينهزموا ففروا إلى داخل المدينة ﴿ وإن يأت الأحزاب ﴾ كرة ثانية ﴿ يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب ﴾ تمنوا أنهم خارجون إلى البدو حاصلون بين الأعراب وقرىء بدى جمع باد كغاز وغزى ﴿ يسألون ﴾ كل قادم من جانب

(١) فى ٤٢٠ : الحبوط .

المدينة وقرىء يساءلون أى يتساءلون ومعناه يقول بعضهم لبعض ماذا سمعت ماذا بلغك أو يتساءلون الأعراب كما يقال رأيت الهلال وتراءيناه فإن صيغة التفاعل قد تجرد عن معنى كون ما أسندت إليه فاعلا من وجه ومفعولا من وجه ويكتفى بتعدد الفاعل كما فى المثال المذكور ونظائره ﴿ عن أنبائكم ﴾ عما جرى عليكم ﴿ ولو كانوا فيكم ﴾ هذه الكرة ولم يرجعوا إلى المدينة وكان قتال ﴿ ما قاتلوا إلا قليلا ﴾ رياء وخوفا من التعيير ﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ﴾ خصلة حسنة حقها أن يؤتسى بها كالثبات فى الحرب ومقاساة الشدائد أو هو فى نفسه قدوة يحق التأسى به كقولك فى البيضة عشرون منا حديدا أى هى فى نفسها هذا القدر من الحديد وقرىء بكسر الهمزة وهى لغة فيها ﴿ لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ﴾ أى ثواب الله أو لقاءه أو أيام الله واليوم الآخر خصوصا وقيل هو مثل قولك أرجو زيدا وفضله فإن اليوم الآخر من أيام الله تعالى ولمن كان صلة لحسنة أو صفة لها وقيل بدل من لكم والأكثرون على أن ضمير المخاطب لا يبدل منه ﴿ وذكر الله ﴾ أى وقرن بالرجاء ذكر الله ﴿ كثيرا ﴾ أى ذكرا كثيرا أو زمانا كثيرا فإن المثابرة على ذكره تعالى تؤدى إلى ملازمة الطاعة وبها يتحقق الإئتساء برسول الله صلى الله عليه وسلم .

﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب ﴾ بيان لما صدر عن خلص المؤمنين عند اشتباه الشؤون واختلاف الظنون بعد حكاية ماصدرعن غيرهم أى لما شاهدوهم حسبما وصفوا لهم ﴿ قالوا هذا ﴾ مشيرين إلى ما شاهدوه من حيث هو من غير أن يخطر ببالهم لفظ يدل عليه فضلا عن تذكيره وتأنيثه فإنهما من أحكام اللفظ كما مر فى قوله تعالى (فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى) وجعله إشارة إلى الخطب أو البلاء من نتائج النظر الجليل فتدبر نعم يجوز التذكير باعتبار الخبر الذى هو ﴿ ما وعدنا الله ورسوله ﴾ فإن ذلك العنوان أول مايخطر ببالهم عند المشاهدة ومرادهم بذلك ما وعدوه بقوله تعالى (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء) إلى قوله تعالى (ألا إن

نصر الله قريب) وقوله عليه الصلاة والسلام سيشتد الأمر باجتماع الأحزاب عليكم والعاقبة لكم عليهم، وقوله عليه الصلاة والسلام إن الأحزاب سائرون إليكم بعد تسع ليال أو عشر وقرىء بكسر الراء وفتح الهمزة ﴿ وصدق الله ورسوله ﴾ أى ظهر صدق خبر الله تعالى ورسوله أو صدقا فى النصرة والثواب كما صدقا فى البلاء وإظهار الاسم للتعظيم ﴿ وما زادهم ﴾ أى ما رأوه ﴿ إلا إيمانا ﴾ بالله تعالى وبمواعيده ﴿ وتسليما ﴾ لأوامره ومقاديره .

﴿ من المؤمنين ﴾ أى المؤمنين بالإخلاص مطلقا لا الذين حكيت محاسنهم خاصة ﴿ رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴾ من الثبات مع الرسول عليه الصلاة والسلام والمقاتلة لأعداء الدين وهم رجال من الصحابة رضى الله عنهم نذروا أنهم إذا لقوا حربا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثبتوا وقاتلوا حتى يستشهدوا وهم عثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد بن عمرو ابن نفيل وحمزة ومصعب بن عمير وأنس بن النضر وغيرهم رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ومعنى صدقوا أتوا بالصدق من صدقنى إذا قال لك الصدق ومحل ما عاهدوا النصب إما بطرح الخافض عنه وإيصال الفعل إليه كما فى قولهم صدقنى سن بكره أى فى سنه وإما بجعل المعاهد عليه مصدوقا على المجاز كأنهم خاطبوه خطاب من قال لكرمائه :

* نحرتنى الأعـــداء إن لم تنحرى *

وقالوا له سنق بك[1] وحيث وفوا به فقد صدقوه ولو كانوا نكثوه لكذبوه ولكان مكذوبا ﴿ فمنهم من قضى نحبه ﴾ تفصيل لحال الصادقين وتقسيم لهم إلى قسمين والنحب النذر وهو أن يلتزم الإنسان شيئاً من أعماله ويوجبه على نفسه وقضاؤه الفراغ منه والوفاء به ومحل الجار والمجرور الرفع على الابتداء على أحد الوجهين المذكورين فى قوله تعالى(ومن الناس من يقول

(١) فى ١١ : سنق به :

آمنا بالله) الآية أى فبعضهم أو فبعض منهم من خرج عن العهدة كحمزة ومصعب ابن عمير وأنس بن النضر عم أنس بن مالك وغيرهم رضوان الله تعالى عليهم أجمعين فإنهم قد قضوا نذورهم سواء كان النذر على حقيقته بأن يكون ما نذروه أفعالهم الاختيارية التى هى المقاتلة المغياة بما ليس منها ولا يدخل تحت النذر وهو الموت شهيداً أو كان مستعارا لالتزامه على ما سيآتى .

﴿ ومنهم ﴾ أى وبعضهم أو وبعض منهم ﴿ من ينتظر ﴾ أى قضاء نحبه لكونه موقتا كعثمان وطلحة وغيرهما ممن استشهد بعد ذلك رضوان الله تعالى عليهم أجمعين فانهم مستمرون على نذورهم قد قضوا بعضها وهو الثبات مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والقتال إلى حين نزول الآية الكريمة ومنتظرون لقضاء بعضها الباقى وهو القتال إلى الموت شهيداً هذا ويجوز أن يكون النحب مستعارا لالتزام الموت شهيدا إما بتنزيل التزام أسبابه التى هى أفعال اختيارية للناذر منزلة التزام نفسه وإما بتنزيل نفسه منزلة أسبابه وإيراد الالتزام عليه وهو الأنسب بمقام المدح وأيا ما كان ففى وصفهم بالانتظار المنبىء عن الرغبة فى المنتظر شهادة حقة بكمال اشتياقهم إلى الشهادة وأما ما قيل من أن النحب استعير للموت لأنه كنذر لازم فى رقبة كل حيوان فمسخ للاستعارة وذهاب برونقها وإخراج للنظم الكريم عن مقتضى المقام بالكلية ﴿ وما بدلوا ﴾ عطف على صدقوا وفاعله فاعله أى وما بدلوا عهدهم وما غيروه ﴿ تبديلا ﴾ أى تبديلا ما لا أصلا ولا وصفا بل ثبتوا عليه راغبين فيه مراعين لحقوقه على أحسن ما يكون أما الذين قضوا فظاهر وأما الباقون فيشهد به انتظارهم أصدق شهادة وتعميم عدم التبديل للفريق الأول مع ظهور حالهم للايذان بمساواة الفريق الثانى لهم فى الحكم ويجوز أن يكون ضمير بدلوا للمنتظرين خاصة بناء على أن المحتاج إلى البيان حالهم وقد روى أن طلحة رضى الله عنه ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد حتى أصيبت يده فقال عليه الصلاة والسلام أوجب طلحة الجنة وفى رواية أوجب طلحة وعنه عليه الصلاة والسلام فى رواية جابر رضى الله عنه من سره أن ينظر إلى شهيد يمشى على الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبيدالله

وفى رواية عائشة رضى الله عنها من سره أن ينظر إلى شهيد يمشى على الأرض وقد قضى نحبه فلينظر إلى طلحة وهذا يشير إلى أنه من الأولين حكما .

﴿ ليجزى الله الصادقين بصدقهم ﴾ متعلق بمضمر مستأنف مسوق بطريق الفذلكة لبيان ما هو داع إلى وقوع ماحكى من الأحوال والأقوال على التفصيل وغاية له كما مر فى قوله تعالى (ليسأل الصادقين عن صدقهم) كأنه قيل وقع جميع ما وقع ليجزى الله الصادقين بما صدر عنهم من الصدق والوفاء قولا وفعلا ﴿ ويعذب المنافقين ﴾ بما صدر عنهم من الأعمال والأقوال المحكية ﴿ إن شاء ﴾ تعذيبهم ﴿ أو يتوب عليهم ﴾ إن تابوا وقيل متعلق بما قبله من نفى التبديل المنطوق وإثباته المعرض به كأن المنافقين قصدوا بالتبديل عاقبة السوء كما قصد المخلصون بالثبات والوفاء العاقبة الحسنى وقيل تعليل لصدقوا وقيل لما يفهم من قوله تعالى (وما زادهم إلا إيمانا وتسليما) وقيل لما يستفاد من قوله تعالى (ولما رأى المؤمنون الأحزاب) كأنه قيل ابتلاهم الله تعالى برؤية ذلك الخطب ليجزى الآية فتأمل وبالله التوفيق ﴿ إن الله كان غفورا رحيما ﴾ أى لمن تاب وهو اعتراض فيه بعث إلى التوبة وقوله تعالى ﴿ ورد الله الذين كفروا ﴾ رجوع إلى حكاية بقية القصة وتفصيل تتمة النعمة المشار إليها إجمالا بقوله تعالى (فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها) معطوف إما على المضمر المقدر قبل قوله تعالى ليجزى الله كأنه قيل إثر حكاية الأمور المذكورة وقع ما وقع من الحوادث ورد الله الخ وإما على أرسلنا وقد وسط بينهما بيان كون ما نزل بهم واقعة طامة تحيرت بها العقول والإفهام وداهية تامة تحاكت منها الركب وزلت الأقدام وتفصيل ما صدر عن فريق أهل الإيمان وأهل الكفر والنفاق من الأحوال والأقوال لإظهار عظم النعمة وإبانة خطرها الجليل ببيان وصولها إليهم عند غاية احتياجهم إليها أى فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها ورددنا بذلك الذين كفروا والالتفات إلى الاسم الجليل لتربية المهابة وإدخال الروعة وقوله تعالى ﴿ بغيظهم ﴾ حال من الموصول أى ملتبسين به وكذا قوله تعالى ﴿ لم ينالوا خيرا ﴾ بتداخل أو تعاقب أى غير ظافرين بخير أو الثانية بيان للأولى أو استئناف .

﴿ وكفى الله المؤمنين القتال ﴾ بما ذكر من إرسال الريح والجنود ﴿ وكان الله قويا ﴾ على إحداث كل ما يريد ﴿ عزيزا ﴾ غالبا على كل شيء ﴿ وأنزل الذين ظاهروهم ﴾ أي عاونوا الأحزاب المردودة ﴿ من أهل الكتاب ﴾ وهم بنو قريظة ﴿ من صياصيهم ﴾ من حصونهم جمع صيصية وهي ما يتحصن به ولذلك يقال لقرن الثور والظبي وشوكة الديك ﴿ وقذف في قلوبهم الرعب ﴾ الخوف الشديد بحيث أسلموا أنفسهم للقتل وأهليهم وأولادهم للأسر حسبما ينطق به قوله تعالى ﴿ فريقا تقتلون وتأسرون فريقا ﴾ من غير أن يكون من جهتهم حراك فضلا عن المخالفة والاستعصاء روى أن جبريل عليه السلام أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم صبيحة الليلة التي انهزم فيها الأحزاب ورجع المسلمون إلى المدينة ووضعوا السلاح فقال أتنزع لأمتك والملائكة ما وضعوا السلاح إن الله يأمرك أن تسير إلى بني قريظة وأنا عامد إليهم فأذن في الناس أن لا يصلوا العصر إلا ببني قريظة فحاصروهم إحدى وعشرين أو خمسا وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار فقال لهم تنزلون على حكمي فأبوا فقال على حكم سعد بن معاذ فرضوا به فحكم سعد بقتل مقاتليهم وسبي ذراريهم ونسائهم فكبر النبي عليه الصلاة والسلام وقال لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة فقتل منهم ستمائة مقاتل وقيل من ثمانمائة إلى تسعمائة وأسر سبعمائة وقرىء تأسرون بضم السين كما قرىء الرعب بضم العين ولعل تأخير المفعول في الجملة الثانية مع أن مساق الكلام لتفصيله وتقسيمه كما في قوله تعالى (ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون) وقوله تعالى (فريقا كذبوا وفريقا يقتلون) لمراعاة الفواصل .

﴿ وأورثكم أرضهم وديارهم ﴾ أي حصونهم ﴿ وأموالهم ﴾ نقودهم وأثاثهم ومواشيهم روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل عقارهم للمهاجرين دون الأنصار فقالت الأنصار في ذلك فقال عليه الصلاة والسلام إنكم في منازلكم فقال عمر رضي الله عنه أما تخمس كما خمست يوم بدر فقال عليه الصلاة والسلام لا إنما جعلت هذه لي طعمة دون الناس قالوا رضينا بما صنع الله ورسوله ﴿ وأرضا لم تطؤوها ﴾ أي أورثكم في علمه وتقديره أرضا لم تقبضوها بعد

كفارس والروم وقيل كل أرض تفتح إلى يوم القيامة وقيل خيبر ﴿وكان الله على كل شيء قديرا﴾ فقد شاهدتم بعض مقدوراته فى إيراث الأراضى التى تسلمتموها فقيسوا عليها ما عداها ﴿يا أيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحيوة الدنيا﴾ أى السعة والتنعم فيها ﴿وزينتها﴾ وزخارفها ﴿فتعالين﴾ أى أقبلن بإرادتكن واختياركن لإحدى الخصلتين كما يقال أقبل يخاصمنى وذهب يكلمنى وقام يهددنى ﴿أمتعكن﴾ بالجزم جوابا للأمر وكذا ﴿وأسرحكن﴾ أى أعطيكن المتعة وأطلقن ﴿سراحا جميلا﴾ طلاقا من غير ضرار وقرىء بالرفع على الاستئناف روى أنهن سألنه عليه الصلاة والسلام ثياب الزينة وزيادة النفقة فنزلت فبدأ بعائشة فخيرها فاختارت الله ورسوله والدار الآخرة ثم اختارت الباقيات اختيارها فشكر لهن الله ذلك فنزل (لا يحل لك النساء من بعد) واختلف فى أن هذا التخيير هل كان تفويض الطلاق إليهن حتى يقع الطلاق بنفس الاختيار أو لا فذهب الحسن وقتادة وأكثر أهل العلم إلى أنه لم يكن تفويض الطلاق وإنما كان تخييراً لهن بين الإرادتين على أنهن إن أردن الدنيا فارقهن عليه الصلاة والسلام كما ينبىء عنه قوله تعالى (فتعالين أمتعكن وأسرحكن) وذهب آخرون إلى أنه كان تفويضا للطلاق إليهن حتى لو أنهن اخترن أنفسهن كان ذلك طلاقا وكذا اختلف[1] فى حكم التخيير فقال ابن عمر وابن مسعود وابن عباس رضى الله تعالى عنهم إذا خير رجل امرأته فاختارت زوجها لا يقع شيء أصلا ولو اختارت نفسها وقعت طلقة بائنة عندنا ورجعية عند الشافعى وهو قول عمر بن عبد العزيز وابن أبى ليلى وسفيان وروى عن زيد بن ثابت أنها إن اختارت زوجها يقع طلقة واحدة وإن اختارت نفسها يقع ثلاث طلقات وهو قول الحسن ورواية عن مالك وروى عن على رضى الله عنه أنها إن اختارت نفسها فواحدة بائنة وروى عنه أيضا أنها إن اختارت زوجها لا يقع شيء أصلا وعليه إجماع فقهاء الأمصار وقد روى عن عائشة رضى الله

(١) فى ١١ : اختلفوا .

عنها خيرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخترناه ولم يعده طلاقا وتقديم التمتيع على التسريح من باب الكرم وفيه قطع لمعاذيرهن من أول الأمر والمتعة فى المطلقة التى لم يدخل بها ولم يفرض لها صداق عند العقد واجبة عندنا وفيما عداهن مستحبة وهى درع وخمار وملحفة بحسب السعة والاقتار إلا أن يكون نصف مهرها أقل من ذلك فحينئذ يجب لها الأقل منهما ولا ينقص عن خمسة دراهم ﴿وإن كنتن تردن الله ورسوله﴾ أى تردن رسوله وذكر الله عز وجل للإيذان بجلالة محله عليه الصلاة والسلام عنده تعالى ﴿والدار الآخرة﴾ أى نعيمها الذى لا قدر عنده للدنيا وما فيها جميعا ﴿فإن الله أعد للمحسنات منكن﴾ بمقابلة إحسانهن ﴿أجرا عظيما﴾ لا يقادر قدره ولا يبلغ غايته ومن للتبيين لأن كلهن محسنات وتجريد الشرطية الأولى عن الوعيد للمبالغة فى تحقيق معنى التخيير والاحتراز عن شائبة الاكراه وهو السر فيما ذكر من تقديم التمتيع على التسريح وفى وصف السراح بالجميل .

خطاب إلى أمهات المؤمنين

﴿يا نساء النبى﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إليهن لإظهار الاعتناء بنصحهن ونداؤهن ههنا وفيما بعده بالإضافة إليه عليه الصلاة والسلام لأنها التى يدور عليها ما يرد عليهن من الأحكام ﴿من يأت منكن بفاحشة﴾ بكبيرة ﴿مبينة﴾ ظاهرة القبح من بين بمعنى تبين وقرىء بفتح الياء والمراد بها كل ما اقترفن من الكبائر وقيل هى عصيانهن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ونشوزهن وطلبهن منه ما يشق عليه أو ما يضيق به ذرعه ويغتم لأجله وقرىء تأت بالفوقانية ﴿يضاعف لها العذاب ضعفين﴾ أى يعذبن ضعفى عذاب غيرهن أى مثليه لأن الذنب منهن أقبح فإن زيادة قبحه تابعة لزيادة فضل المذنب والنعمة عليه ولذلك جعل حد الحر ضعف حد الرقيق وعوتب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بما لا يعاتب به الأمم وقرىء يضعف على البناء للمفعول ويضاعف ونضعف بنون العظمة على البناء للفاعل ونصب العذاب ﴿وكان ذلك على الله يسيرا﴾ لا يمنعه من التضعيف كونهن نساء النبى عليه الصلاة والسلام بل يدعوه إليه

لمراعاة حقه ﴿ ومن يقنت منكن ﴾ وقرىء بالتاء أى ومن يدم على الطاعة ﴿ لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين ﴾ مرة على الطاعة والتقوى وأخرى على طلبهن رضا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقناعة وحسن المعاشرة وقرىء يعمل بالياء حملا على لفظ من ويؤتها على أن فيه ضمير اسم الله تعالى ﴿ وأعتدنا لها ﴾ فى الجنة زيادة على أجرها المضاعف ﴿ رزقا كريما ﴾ مرضيا ﴿ يا نساء النبى لستن كأحد من النساء ﴾ أصل أحد وحد بمعنى الواحد ثم وضع فى النفى مستويا فيه المذكر والمؤنث والواحد والكثير والمعنى لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء فى الفضل والشرف ﴿ إن اتقيتن ﴾ مخالفة حكم الله تعالى ورضا رسوله أو إن اتصفتن بالتقوى كما هو اللائق بحالكن ﴿ فلا تخضعن بالقول ﴾ عند مخاطبة الناس أى لا تجبن بقولكن خاضعا لينا على سنن قول المريبات والمومسات ﴿ فيطمع الذى فى قلبه مرض ﴾ أى فجور وريبة وقرىء بالجزم عطفا على محل فعل النهى على أنه نهى لمريض القلب عن الطمع عقيب نهيهن عن الإطماع بالقول الخاضع كأنه قيل فلا تخضعن بالقول فلا يطمع مريض القلب ﴿ وقلن قولا معروفا ﴾ بعيدا عن الريبة والإطماع بجد وخشونة من غير تخنيث أو قولا حسنا مع كونه خشنا ﴿ وقرن فى بيوتكن ﴾ أمر من قر يقر من باب علم وأصله اقررن فحذفت الراء الأولى وألقيت فتحتها على ما قبلها كما فى قولك ظلن ، أو من قار يقار إذا اجتمع ، وقرىء بكسر القاف من وقر يقر وقارا إذ ثبت واستقر وأصله أو قرن ففعل به ما فعل بعدن من وعد أو من قر يقر حذفت احدى رأى اقررن ونقلت كسرتها إلى القاف كما تقول ظلن ﴿ ولا تبرجن ﴾ أى لا تتبخترن فى مشيكن ﴿ تبرج الجاهلية الأولى ﴾ أى تبرجا مثل تبرج النساء فى الجاهلية القديمة وهى ما بين آدم ونوح وقيل إدريس ونوح عليهما السلام وقيل الزمان الذى ولد فيه إبراهيم عليه السلام كانت المرأة تلبس درعا من اللؤلؤ فتمشى وسط الطريق تعرض نفسها على الرجال وقيل زمن داود وسليمان عليهما السلام والجاهلية الأخرى ما بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام وقيل الجاهلية الأولى الكفر والجاهلية الأخرى الفسوق فى الإسلام

ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام لأبي الدرداء إن فيك جاهلية كفر أو جاهلية إسلام قال بل جاهلية كفر ﴿ وأقمن الصلوة وآتين الزكوة ﴾ أمرن بهما لإنافتهما على غيرهما وكونهما أصل الطاعات البدنية والمالية ﴿ وأطعن الله ورسوله ﴾ أى فى كل ماتأتن وماتذرن لا سيما فيما أمرتن به ونهيتن عنه ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس ﴾ أى الذنب المدنس لعرضكم وهو تعليل لأمرهن ونهيهن على الاستئناف ولذلك عمم الحكم بتعميم الخطاب لغيرهن وصرح بالمقصود حيث قيل بطريق النداء أو المدح ﴿ أهل البيت ﴾ مرادا بهم من حواهم بيت النبوة ﴿ ويطهركم ﴾ من أوضار الأوزار والمعاصى ﴿ تطهيرا ﴾ بليغا واستعارة الرجس للمعصية والترشيح بالتطهير لمزيد التنفير عنها وهذه كما ترى آية بينة وحجة نيرة على كون نساء النبى عليه الصلاة والسلام من أهل بيته قاضية ببطلان رأى الشيعة فى تخصيصهم أهلية البيت بفاطمة وعلى وابنيهما رضوان الله عليهم وأما ماتمسكوا به من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج ذات غدوة وعليه مرط مرجل من شعر أسود وجلس فأتت فاطمة فأدخلها فيه ثم جاء على فأدخله فيه ثم جاء الحسن والحسين فأدخلهما فيه ثم قال إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت فإنما يدل على كونهم من أهل البيت لا على أن من عداهم ليسوا كذلك ولو فرضت دلالته على ذلك لما اعتد بها لكونها فى مقابلة النص.

﴿ واذكرن مايتلى فى بيوتكن ﴾ أى اذكرن للناس بطريق العظة والتذكير ما يتلى فى بيوتكن ﴿ من آيات الله والحكمة ﴾ من الكتاب الجامع بين كونه آيات الله البينة الدالة على صدق النبوة بنظمه المعجز وكونه حكمة منطوية على فنون العلوم والشرائع وهو تذكير بما أنعم عليهن حيث جعلهن أهل بيت النبوة ومهبط الوحى وما شاهدن من برحاء الوحى مما يوجب قوة الإيمان والحرص على الطاعة حثا على الانتهاء والائتمار فيما كلفنه والتعرض للتلاوة فى البيوت دون النزول فيها مع أنه الأنسب لكونها مهبط الوحى لعمومها لجميع الآيات

ووقوعها فى كل البيوت وتكررها الموجب لتمكنهن من الذكر والتذكير بخلاف النزول وعدم تعيين التالى لتعم تلاوة جبريل وتلاوة النبي عليهما الصلاة والسلام وتلاوتهن وتلاوة غيرهن تعليما وتعلما ﴿ إن الله كان لطيفا خبيرا ﴾ يعلم ويدبر ما يصلح فى الدين ولذلك فعل ما فعل من الأمر والنهى أو يعلم من يصلح للنبوة ومن يستأهل أن يكون من أهل بيته ﴿ إن المسلمين والمسلمات ﴾ أى الداخلين فى السلم المنقادين لحكم الله تعالى من الذكور والإناث ﴿ والمؤمنين والمؤمنات ﴾ المصدقين بما يجب أن يصدق به من الفريقين ﴿ والقانتين والقانتات ﴾ المداومين على الطاعات القائمين بها ﴿ والصادقين والصادقات ﴾ فى القول والعمل ﴿ والصابرين والصابرات ﴾ على الطاعات وعن المعاصى ﴿ والخاشعين والخاشعات ﴾ المتواضعين لله بقلوبهم وجوارحهم ﴿ والمتصدقين والمتصدقات ﴾ بما وجب فى مالهم ﴿ والصائمين والصائمات ﴾ الصوم المفروض ﴿ والحافظين فروجهم والحافظات ﴾ عن الحرام .

﴿ والذاكرين الله كثيرا والذاكرت ﴾ بقلوبهم وألسنتهم ﴿ أعد الله لهم ﴾ بسبب ما عملوا من الحسنات المذكورة ﴿ مغفرة ﴾ لما اقترفوا من الصغائر لأنهن مكفرات بما عملوا من الأعمال الصالحة ﴿ وأجرا عظيما ﴾ على ما صدر عنهم من الطاعات والآيات وعد لهن ولأمثالهن على الطاعة والتدرع بهذه الخصال الحميدة روى أن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ورضى عنهن قلن يارسول الله ذكر الله الرجال فى القرآن بخير فما فينا خير نذكر به إنا نخاف أن لا تقبل منا طاعة فنزلت وقيل السائلة أم سلمة وروى أنه لما نزل فى نساء النبي عليه الصلاة والسلام ما نزل قال نساء المؤمنين فما نزل فينا شيء فنزلت وعطف الإناث على الذكور لاختلاف الجنسين وهو ضرورى وأما عطف الزوجين على الزوجين فلتغاير الوصفين فلا يكون ضروريا ولذلك ترك فى قوله تعالى مسلمات مؤمنات وفائدته الدلالة على أن مدار إعداد ما أعد لهم جمعهم بين هذه النعوت الجميلة ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة ﴾ أى ما صح وما استقام لرجل ولا امرأة من المؤمنين والمؤمنات ﴿ إذا قضى الله ورسوله أمرا ﴾ أى

إذا قضى رسول الله وذكر الله تعالى لتعظيم أمره عليه الصلاة والسلام أو للإشعار بأن قضاءه عليه الصلاة والسلام قضاء الله عز وجل لأنه نزل فى زينب بنت جحش بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد بن حارثة فأبت هى وأخوها عبد الله وقيل فى أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط وهبت نفسها للنبى عليه الصلاة والسلام فزوجها من زيد فسخطت هى وأخوها وقالا إنما أردنا رسول الله فزوجنا عبده ﴿ أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾ أن يختاروا من أمرهم ما شاؤا بل يجب عليهم أن يجعلوا رأيهم تبعا لرأيه عليه الصلاة والسلام واختيارهم تلوا لاختياره وجمع الضميرين لعموم مؤمن ومؤمنة لوقوعهما فى سياق النفى وقيل الضمير الثانى للرسول عليه الصلاة والسلام والجمع للتعظيم وقرىء تكون بالتاء ﴿ ومن يعص الله ورسوله ﴾ فى أمر من الأمور ويعمل فيه برأيه ﴿ فقد ضل ﴾ طريق الحق ﴿ ضلالا مبينا ﴾ أى بين الانحراف عن سنن الصواب .

﴿ وإذ تقول ﴾ أى واذكر وقت قولك ﴿ للذى أنعم الله عليه ﴾ بتوفيقه للإسلام وتوفيقك لحسن تربيته ومراعاته ﴿ وأنعمت عليه ﴾ بالعمل بما وفقك الله له من فنون الإحسان التى من جملتها تحريره وهو زيد بن حارثة وإيراده بالعنوان المذكور لبيان منافاة حاله لما صدر عنه عليه الصلاة والسلام من إظهار خلاف ما فى ضميره إذ هو إنما يقع عند الاستحياء أو الاحتشام وكلاهما مما لا يتصور فى حق زيد ﴿ أمسك عليك زوجك ﴾ أى زينب وذلك أنه عليه الصلاة والسلام أبصرها بعد ما أنكحها إياه فوقعت فى نفسه حالة جبلية لا يكاد يسلم منها البشر فقال سبحان الله مقلب القلوب وسمعت زينب بالتسبيحة فذكرتها لزيد ففطن لذلك ووقع فى نفسه كراهة صحبتها فأتى النبى عليه الصلاة والسلام وقال أريد أن أفارق صاحبتى فقال مالك أرابك منها شىء قال لا والله ما رأيت منها إلا خيراً ولكنها لشرفها تتعظم على فقال له أمسك عليك زوجك ﴿ واتق الله ﴾ فى أمرها فلا تطلقها إضرارا وتعللا بتكبرها ﴿ وتخفى فى

نفسك ما الله مبديه ﴾ وهو نكاحها إن طلقها أو إرادة طلاقها ﴿ وتخشى الناس ﴾ تعييرهم إياك به ﴿ والله أحق أن تخشاه ﴾ إن كان فيه ما يخشى والواو للحال وليست المعاتبة على الإخفاء وحده بل على الإخفاء مخافة[1] قالة الناس، وإظهار ما ينافى إضماره فإن الأولى فى أمثال ذلك أن يصمت أو يفوض الأمر إلى ربه ﴿ فلما قضى زيد منها وطرا ﴾ بحيث لم يبق له فيها حاجة وطلقها وانقضت عدتها وقيل قضاء الوطر كناية عن الطلاق مثل لا حاجة لى فيك ﴿ زوجناكها ﴾ وقرىء زوجتكها والمراد الأمر بتزويجها منه عليه الصلاة والسلام وقيل جعلها زوجته بلا واسطة عقد ويؤيده أنها كانت تقول لسائر نساء النبى عليه الصلاة والسلام إن الله تعالى تولى نكاحى وأنتن زوجكن أولياؤكن وقيل كان زيد السفير فى خطبتها وذلك ابتلاء عظيم وشاهد عدل بقوة إيمانه ﴿ لكيلا يكون على المؤمنين حرج ﴾ ضيق ومشقة ﴿ فى أزواج أدعيائهم ﴾ أى فى حق تزوجهن ﴿ إذا قضوا منهن وطرا ﴾ فإن لهم فى رسول الله أسوة حسنة وفيه دلالة على أن حكمه عليه الصلاة والسلام وحكم الأمة سواء إلا ما خصه الدليل ﴿ وكان أمر الله ﴾ أى ما يريد تكوينه من الأمور أو مأموره الحاصل بكن ﴿ مفعولا ﴾ مكونا لا محالة اعتراض تذييلى مقرر لما قبله ﴿ ما كان على النبى من حرج ﴾ أى ما صح وما استقام فى الحكمة أن يكون له ضيق ﴿ فيما فرض الله له ﴾ أى قسم له وقدر من قولهم فرض له فى الديوان كذا ومنه فروض العساكر لأعطياتهم .

﴿ سنة الله ﴾ اسم موضوع موضع المصدر كقولهم تربا وجندلا مؤكد لما قبله من نفى الحرج أى سن الله ذلك سنة ﴿ فى الذين خلوا ﴾ مضوا ﴿ من قبل ﴾ من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حيث وسع عليهم فى باب النكاح وغيره ولقد كانت لداود عليه السلام مائة امرأة وثلثمائة سرية ولسليمان عليه السلام ثلثمائة امرأة وسبعمائة سرية وقوله تعالى : ﴿ وكان أمر

---

(١) فى ١٠ : تخوف

الله قدرا مقدورا ﴾ أى قضاء مقضيا وحكما مبتوتا اعتراض وسط بين الموصولين الجاريين مجرى الواحد للمسارعة إلى تقرير نفى الحرج وتحقيقه ﴿ الذين يبلغون رسالات الله ﴾ صفة للذين خلوا أو مدح لهم بالنصب أو بالرفع وقرىء رسالة الله ﴿ ويخشونه ﴾ فى كل ما يأتون ويذرون لا سيما فى أمر تبليغ الرسالة حيث لا يخرمون منها حرفا ولا تأخذهم فى ذلك لومة لائم ﴿ ولا يخشون أحدا إلا الله ﴾ فى وصفهم بقصرهم الخشية على الله تعالى تعريض بما صدر عنه عليه الصلاة والسلام من الاحتراز عن لائمة الخلق بعد التصريح فى قوله تعالى : (وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) ﴿ وكفى بالله حسيبا ﴾ كافيا للمخاوف فينبغى أن لا يخشى غيره أو محاسبا على الصغيرة والكبيرة فيجب أن يكون حق الخشية منه تعالى .

﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ﴾ أى على الحقيقة حيث يثبت بينه وبينه ما يثبت بين الوالد وولده من حرمة المصاهرة وغيرها ولا ينتقض عمومه بكونه عليه الصلاة والسلام أبا للطاهر والقاسم وإبراهيم لأنهم لم يبلغوا الحلم ولو بلغوا لكانوا رجالا له عليه الصلاة والسلام لا لهم ﴿ ولكن رسول الله ﴾ أى كان رسولا لله وكل رسول أبو أمته لكن لا حقيقة بل بمعنى أنه شفيق ناصح لهم وسبب لحياتهم الأبدية وما زيد إلا واحد من رجالكم الذين لا ولاد بينهم وبينه عليه الصلاة والسلام لحكمه حكمهم وليس للتبنى والادعاء حكم سوى التقريب والاختصاص ﴿ وخاتم النبيين ﴾ أى كان آخرهم الذين ختموا به وقرىء بكسر التاء أى كان خاتمهم ويؤيده قراءة ابن مسعود ولكن نبيا ختم النبيين وأياما كان فلو كان له ابن بالغ لكان نبيا ولم يكن هو عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين كما يروى أنه قال فى إبراهيم حين توفى لو عاش لكان نبيا ولا يقدح فيه نزول عيسى بعده عليهما السلام لان معنى كونه خاتم النبيين أنه لا ينبأ بعده أحد وعيسى ممن نبىء قبله وحين ينزل إنما ينزل عاملا على شريعة محمد صلى الله عليه وسلم مصليا إلى قبلته كأنه بعض أمته ﴿ وكان الله بكل شىء عليما ﴾ ومن جملته هذه الأحكام والحكم التى بينها لكم وكنتم منها فى شك مريب ﴿ يا أيها الذين

آمنوا اذكروا الله ﴾ بما هو أهله من التهليل والتحميد والتمجيد والتقديس ﴿ ذكراً كثيرا ﴾ يعم الأوقات والأحوال ﴿ وسبحوه ﴾ ونزهوه عما لا يليق به ﴿ بكرة وأصيلا ﴾ أى أول النهار وآخره على أن تخصيصهما بالذكر ليس لقصر التسبيح عليهما دون سائر الأوقات بل لإبانة فضلهما على سائر الأوقات لكونهما مشهودين كأفراد التسبيح من بين الأذكار مع اندراجه فيها لكونه العمدة فيها وقيل كلا الفعلين متوجه إليهما كقولك صم وصل يوم الجمعة وقيل المراد بالتسبيح الصلاة ﴿ هو الذى يصلى عليكم ﴾ الخ استئناف جار مجرى[1] التعليل لما قبله من الأمرين فإن صلاته تعالى عليهم مع عدم استحقاقهم لها وغناه عن العالمين مما يوجب عليهم المداومة على مايستوجبه تعالى عليهم من ذكره تعالى وتسبيحه تعالى ﴿ وملائكته ﴾ عطف على المستكن فى يصلى لمكان الفصل المغنى عن التأكيد بالمنفصل لكن لا على أن يراد بالصلاة الرحمة أولا والاستغفار ثانيا فإن استعمال اللفظ الواحد فى معنيين متغايرين مما لامساغ له بل على أن يراد بهما معنى مجازى عام يكون كلا المعنيين فردا حقيقيا له وهو الاعتناء بما فيه خيرهم وصلاح أمرهم فإن كلا من الرحمة والاستغفار فرد حقيق له أو الترحم والانعطاف المعنوى المأخوذ من الصلاة المشتملة على الانعطاف الصورى الذى هو الركوع والسجود ولا ريب فى أن استغفار الملائكة ودعاءهم للمؤمنين ترحم عليهم وأما أن ذلك سبب للرحمة لكونهم مجابى الدعوة كما قيل فاعتباره ينزع إلى الجمع بين المعنيين المتغايرين فتدبر ﴿ ليخرجكم من الظلمات إلى النور ﴾ متعلق بيصلى أى يعتنى بأموركم هو وملائكته ليخرجكم بذلك من ظلمات المعصية إلى نور الطاعة وقوله تعالى ﴿ وكان بالمؤمنين رحيما ﴾ اعتراض مقرر لمضمون ما قبله أى كان بكافة المؤمنين الذين أنتم من زمرتهم رحيما ولذلك يفعل بكم ما يفعل من الاعتناء بإصلاحكم بالذات وبالواسطة ويهديكم إلى الإيمان والطاعة أو كان بكم رحيما على أن المؤمنين مظهر وضع موضع

(١) فى ١٠ يجرى مجرى .

المضمر مدحا لهم وإشعارا بعلة الرحمة وقوله تعالى ﴿ تحيتهم يوم يلقونه سلام ﴾ بيان للأحكام الآجلة لرحمة الله تعالى بهم بعد بيان آثارها العاجلة التى هى الاعتناء بأمرهم وهدايتهم إلى الطاعة أى ما يحيون به على أنه مصدر أضيف إلى مفعوله يوم لقائه عند الموت أو عند البعث من القبور أو عند دخول الجنة تسليم عليهم من الله عز وجل تعظيما لهم أو من الملائكة بشارة لهم بالجنة أو تكرمة لهم كما فى قوله تعالى (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم) أو إخبار بالسلامة عن كل مكروه وآفة وقوله تعالى ﴿ وأعد لهم أجرا كريما ﴾ بيان لآثار رحمته الفائضة عليهم بعد دخول الجنة عقيب بيان آثار رحمته الواصلة إليهم قبل ذلك ولعل إيثار الجملة الفعلية على الاسمية المناسبة لما قبلها بأن يقال مثلا وأجرهم أجر كريم أو ولهم أجر كريم للمبالغة فى الترغيب والتشويق إلى الموعود ببيان أن الأجر الذى هو المقصد الأقصى من بين سائر آثار الرحمة موجود بالفعل مهيأ لهم مع ما فيه من مراعاة الفواصل ﴿ يأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ﴾ على من بعثت إليهم تراقب أحوالهم وتشاهد أعمالهم وتتحمل منهم الشهادة بما صدر عنهم من التصديق والتكذيب وسائر ما هم عليه من الهدى والضلال وتؤديها يوم القيامة أداء مقبولا فيما لهم وما عليهم وهو حال مقدرة ﴿ ومبشرا ونذيراً ﴾ تبشر المؤمنين بالجنة وتنذر الكافرين بالنار ﴿ وداعيا إلى الله ﴾ أى إلى الإقرار به وبوحدانيته وبسائر ما يجب الإيمان به من صفاته وأفعاله ﴿ بإذنه ﴾ أى بتيسيره أطلق عليه مجازاً لما أنه من أسبابه وقيد به الدعوة إيذانا بأنها أمر صعب المنال وخطب فى غاية الإعضال لا يتأتى إلا بإمداد من جناب قدسه كيف لا وهو صرف للوجوه عن القبل المعبودة وإدخال للأعناق فى قلادة غير معهودة ﴿ وسراجا منيراً ﴾ يستضاء به فى ظلمات الجهل والغواية ويهتدى بأنواره إلى مناهج الرشد والهداية ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ عطف على مقدر يقتضيه المقام ويستدعيه النظام كأنه قيل فراقب أحوال الناس وبشر المؤمنين منهم ﴿ بأن لهم من الله فضلا كبيراً ﴾ أى على مؤمنى سائر الأمم فى الرتبة والشرف أو زيادة على أجور أعمالهم بطريق التفضل والإحسان .

﴿ ولا تطع الكافرين والمنافقين ﴾ نهى عن مداراتهم فى أمر الدعوة واستعمال لين الجانب فى التبليغ والمسامحة فى الإنذار كنى عن ذلك بالنهى عن طاعتهم مبالغة فى الزجر والتنفير عن المنهى عنه بنظمه فى سلكها وتصويره بصورتها ومن حمل النهى عن التهييج والإلهاب فقد أبعد عن التحقيق بمراحل ﴿ ودع أذاهم ﴾ أى لا تبال بأذيتهم لك بسبب تصلبك فى الدعوة والإنذار ﴿ وتوكل على الله ﴾ فى ما تأتى وما تذر من الشئون التى من جملتها هذا الشأن فإنه تعالى يكفيكهم ﴿ وكفى بالله وكيلا ﴾ موكولا إليه الأمور فى كل الأحوال وإظهار الاسم الجليل فى موضع الإضمار لتعليل الحكم وتأكيد استقلال الاعتراض التذييلى ولما وصف عليه الصلاة والسلام بنعوت خمسة قوبل كل منها بخطاب يناسبه خلا أنه لم يذكر مقابل الشاهد صريحا وهو الأمر بالمراقبة ثقة بظهور دلالة مقابل المبشر عليه وهو الأمر بالتبشير حسبما ذكر آنفا وقوبل النذير بالنهى عن مداراة الكفار والمنافقين والمسامحة فى إنذارهم كما تحققته وقوبل الداعى إلى الله بإذنه بالأمر بالتوكل عليه من حيث أنه عبارة عن الاستمداد منه تعالى والاستعانة به وقوبل السراج المنير بالاكتفاء به تعالى فإن من أيده الله تعالى بالقوة القدسية ورشحه للنبوة وجعله برهانا نيرا يهدى الخلق من ظلمات الغى إلى نور الرشاد حقيق بأن يكتفى به عن كل ماسواه .

العلاقات الزوجية

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن ﴾ أى تجامعوهن وقرىء تماسوهن بضم التاء ﴿ فمالكم عليهن من عدة ﴾ بأيام يتربصن فيها بأنفسهن ﴿ تعتدونها ﴾ تستوفون عددها من عددت الدراهم فاعتدها وحقيقته عدها لنفسه وكذلك كلته فاكتاله والاسناد إلى الرجال للدلالة على أن العدة حق الأزواج كما أشعر به قوله تعالى فما لكم وقرىء تعتدونها على إبدال إحدى الدالين بالتاء أو على أنه من الاعتداء بمعنى تعتدون فيها والخلوة الصحيحة فى حكم المس وتخصيص المؤمنات مع عمـــوم الحكم

للكتابيات للتنبيه على أن المؤمن من شأنه أن يتخير لنطفته ولا ينكح إلا مؤمنة وفائدة ثم إزاحة ما عسى يتوهم أن تراخي الطلاق ريثما تمكن الإصابة يؤثر في العدة كما يؤثر في النسب ﴿ فمتعوهن ﴾ أي إن لم يكن مفروضا لها في العقد فإن الواجب للمفروض لها نصف المفروض دون المتعة فإنها مستحبة عندنا في رواية وفي أخرى غير مستحبة ﴿ وسرحوهن ﴾ أخرجوهن من منازلكم إذ ليس لكم عليهن عدة ﴿ سراحا جميلا ﴾ من غير ضرار ولا منع حق ولا مساغ لتفسيره بالطلاق السني لأنه إنما يتسنى في المدخول بهن .

﴿ يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن ﴾ أي مهورهن فإنها أجور الإبضاع وإيتاؤها إما إعطاؤها معجلة أو تسميتها في العقد وأيا ما كان فتقييد الإحلال له عليه الصلاة والسلام به ليس لتوقف الحل عليه ضرورة أنه يصح العقد بلا تسمية ويجب مهر المثل أو المتعة على تقديري الدخول وعدمه بل لإيثار الأفضل والأولى له عليه الصلاة والسلام كتقييد إحلال المملوكة بكونها مسبية في قوله تعالى ﴿ وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك ﴾ فإن المشتراة لا يتحقق بدء أمرها وما جرى عليها وكتقييد القرائب بكونهن مهاجرات معه في قوله تعالى ﴿ وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك ﴾ ويحتمل تقييد الحل بذلك في حقه عليه الصلاة والسلام خاصة ويعضده قول أم هانئ بنت أبي طالب خطبني رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعتذرت إليه فعذرني ثم أنزل الله هذه الآية فلم أحل له لأني لم أهاجر معه كنت من الطلقاء ﴿ وامرأة مؤمنة ﴾ بالنصب عطفا على مفعول أحللنا إذ ليس معناه إنشاء الإحلال الناجز بل إعلام مطلق الاحلال المنتظم لما سبق ولحق وقرئ بالرفع على أنه مبتدأ خبره محذوف أي أحللناها لك أيضاً ﴿ إن وهبت نفسها للنبي ﴾ أي ملكته بضعها بأي عبارة كانت بلا مهر إن اتفق ذلك كما ينبئ عنه تنكيرها لكن لا مطلقا بل عند إرادته عليه الصلاة والسلام استنكاحها كما نطق به قوله عز وجل ﴿ إن أراد النبي أن يستنكحها ﴾ أي أن يتملك بضعها كذلك أي بلا مهر فإن ذلك جار منه عليه الصلاة والسلام مجرى

القبول وحيث لم يكن هذا نصا فى كون تمليكها بلفظ الهبة لم يصلح أن يكون مناطا للخلاف فى انعقاد النكاح بلفظ الهبة إيجابا أو سلبا واختلف فى اتفاق هذا العقد فعن ابن عباس رضى الله عنهما لم يكن عنده عليه الصلاة والسلام أحد منهن بالهبة وقيل الموهوبات أربع ميمونة بنت الحرث وزينب بنت خزيمة الأنصارية وأم شريك بنت جابر وخولة بنت حكيم وإيراده عليه الصلاة والسلام فى الموضعين بعنوان النبوة بطريق الالتفات للتكرمة والإيذان بأنها المناط لثبوت الحكم فيختص به عليه الصلاة والسلام حسب اختصاصها به كما ينطق به قوله تعالى ﴿ خالصة لك ﴾ أى خلص لك إحلالها خالصة أى خلوصا فإن الفاعلة فى المصادر غير عزيز كالعافية والكاذبة أو خلص لك إحلال ما أحللنا لك من المذكورات على القيود المذكورة خالصة ومعنى قوله تعالى ﴿ من دون المؤمنين ﴾ على الأول أن الإحلال المذكور فى المادة المعهودة غير متحقق فى حقهم وإنما المتحقق هناك الإحلال بمهر المثل وعلى الثانى أن إحلال الجميع على القيود المذكورة غير متحقق فى حقهم بل المتحقق فيه إحلال البعض المعدود على الوجه المعهود وقرىء خالصة بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أى ذلك خلوص لك وخصوص أو هى أى تلك المرأة أو الهبة خالصة لك لا تتجاوز المؤمنين حيث لا تحل لهم بغير مهر ولا تصح الهبة بل يجب مهر المثل وقوله تعالى :

﴿ قد علمنا ما فرضنا عليهم ﴾ أى على المؤمنين ﴿ فى أزواجهم ﴾ أى فى حقهن اعتراض مقرر لما قبله من خلوص الإحلال المذكور لرسول الله صلى الله عليه وسلم وعدم تجاوزه للمؤمنين ببيان أنه قد فرض عليهم من شرائط العقد وحقوقه ما لم يفرض عليه عليه الصلاة والسلام تكرمة له وتوسعة عليه أى قد علمنا ما ينبغى أن يفرض عليهم فى حق أزواجهم ﴿ وما ملكت أيمانهم ﴾ وعلى أى حد وأى صفة يحق أن يفرض عليهم ففرضنا ما فرضنا على ذلك الوجه وخصصناك ببعض الخصائص ﴿ لكيلا يكون عليك حرج ﴾ أى ضيق واللام متعلقة بخالصة باعتبار ما فيها من معنى ثبوت الإحلال وحصوله له عليه الصلاة والسلام لا باعتبار اختصاصه به عليه الصلاة والسلام لأن مدار انتفاء

الحرج هو الأول لا الثانى الذى هو عبارة عن عدم ثبوته لغيره ﴿ وكان الله غفوراً ﴾ لما يعسر التحرز عنه ﴿ رحيما ﴾ ولذلك وسع الأمر فى مواقع الحرج .

﴿ ترجى من تشاء منهن ﴾ أى تؤخرها وتترك مضاجعتها ﴿ وتؤوى إليك من تشاء ﴾ وتضم اليك من تشاء منهن وتضاجعها أو تطلق من تشاء منهن وتمسك من تشاء وقرئ ترجئ بالهمزة والمعنى واحد ﴿ ومن ابتغيت ﴾ أى طلبت ﴿ ممن عزلت ﴾ طلقت بالرجعة ﴿ فلا جناح عليك ﴾ فى شىء مما ذكر وهذه قسمة جامعة لما هو الغرض لأنه أما أن يطلق أو يمسك فإذا أمسك ضاجع أو ترك وقسم أو لم يقسم وإذا طلق فإما أن يخلى المعزولة أو يبتغيها وروى أنه أرجى منهن سودة وجويرية وصفية وميمونة وأم حبيبة فكان يقسم لهن ماشاء كما شاء وكانت مما آوى إليه عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب وأرجى خمسا وآوى أربعا وروى أنه كان يسوى بينهن مع ما أطلق له وخير إلا سودة فإنها وهبت ليلتها لعائشة رضى الله عنهن وقالت لا تطلقنى حتى أحشر فى زمرة نسائك ﴿ ذلك ﴾ أى ما ذكر من تفويض الأمر إلى مشيئتك ﴿ أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن ﴾ أى أقرب إلى قرة عيونهن ورضاهن جميعا لأنه حكم كلهن فيه سواء ثم إن سويت بينهن وجدن ذلك تفضلا منك وإن رجحت بعضهن علمن أنه بحكم الله فتطمئن به نفوسهن وقرئ تقر بضم التاء ونصب أعينهن وتقر على البناء للمفعول وكلهن تأكيد لنون يرضين وقرئ بالنصب على أنه تأكيد لهن ﴿ والله يعلم ما فى قلوبكم ﴾ من الضمائر والخواطر فاجتهدوا فى إحسانها ﴿ وكان الله عليما ﴾ مبالغا فى العلم فيعلم كل ما تبدونه وتخفونه ﴿ حليما ﴾ لا يعاجل بالعقوبة فلا تغتروا بتأخيرها فإنه إمهال لا إهمال ﴿ لا يحل لك النساء ﴾ بالياء لأن تأنيث الجمع غير حقيقى ولوجود الفصل وقرىء بالتاء ﴿ من بعد ﴾ أى من بعد التسع وهو فى حقه كالأربع فى حقنا وقال إبن عباس وقتادة من بعد هؤلاء التسع اللاتى خيرتهن فاخترنك وقيل من بعد اختيارهن الله ورسوله ورضاهن بما تؤتيهن من الوصل والهجران.

﴿ ولا أن تبدل ﴾ أى تتبدل بحذف إحدى التاءين ﴿ بهن ﴾ أى بهؤلاء

التسع ﴿ من أزواج ﴾ بأن تطلق واحدة منهن وتنكح مكانها أخرى ومن مزيدة لتأكيد الاستغراق أراد الله تعالى لهن كرامة وجزاء على ما اخترن ورضين فقصر رسوله عليهن وهن التسع اللاتى توفى عليه الصلاة والسلام عنهن وهن عائشة بنت أبى بكر وحفصة بنت عمر وأم حبيبة بنت أبى سفيان وسودة بنت زمعه وأم سلمة بنت أبى أمية وصفية بنت حيى [بن أخطب] (١) الخيبرية وميمونة بنت الحرث الهلالية وزينب بنت جحش الأسدية وجويرية بنت الحرث المصطلقية وقال عكرمة المعنى لايحل لك النساء من بعد الاجناس الأربعة اللاتى أحللناهن لك بالصفة التى تقدم ذكرها من الأعرابيات والغرائب أو من الكتابيات أو من الإماء بالنكاح ويأباه قوله تعالى(ولا أن تبدل بهن) فإن معنى إحلال الأجناس المذكورة إحلال نكاحهن فلا بد أن يكون معنى التبدل بهن إحلال نكاح غيرهن بدل إحلال نكاحهن وذلك إنما يتصور بالنسخ الذى ليس من الوظائف البشرية ﴿ ولو أعجبك حسنهن ﴾ أى حسن الأزواج المستبدلة وهو حال من فاعل تبدل لا من مفعوله وهو من أزواج لتوغله فى التنكير قيل تقديره مفروضا إعجابك بهن وقد مر تحقيقه فى قوله تعالى (ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم) وقيل هى أسماء بنت عميس الخثعمية امرأة جعفر بن أبى طالب أى هى ممن أعجبه عليه الصلاة والسلام حسنهن واختلف فى أن الآية محكمة أو منسوخة قيل بقوله تعالى(ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء) وقيل بقوله تعالى إنا أحللنا لك وترتيب النزول ليس على ترتيب المصحف وقيل بالسنة وعن عائشة رضى الله عنها ما مات رسول الله عليه وسلم حتى أحل له النساء وقال أنس رضى الله عنه مات عليه الصلاة والسلام على التحريم ﴿ إلا ما ملكت يمينك ﴾ استثناء من النساء لأنه يتناول الأزواج والإماء وقيل منقطع ﴿ وكان الله على كل شىء رقيبا ﴾ حافظا مهيمنا فاحذروا مجاوزة حدوده وتخطى حلاله إلى حرامه .

---

(١) سقطت من الأصل .

حقوق أمهات المومنين

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي ﴾ شروع في بيان ما يجب مراعاته على الناس من حقوق نساء النبي عليه الصلاة والسلام إثر بيان ما يجب مراعاته عليه الصلاة والسلام من الحقوق المتعلقة بهن وقوله تعالى ﴿ إلا أن يؤذن لكم ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال أى لا تدخلوها في حال من الأحوال إلا حال كونكم مأذونا لكم وقيل من أعم الأوقات أى لا تدخلوها في وقت من الأوقات إلا وقت أن يؤذن لكم ورد عليه بأن النحاة نصوا على أن الوقوع موقع الظرف مختص بالمصدر الصريح دون المؤول لا يقال آتيك أن يصيح الديك وإنما يقال آتيك صياح الديك وقوله تعالى ﴿ إلى طعام ﴾ متعلق بيؤذن بتضمين معنى الدعاء للإشعار بأنه لا ينبغي أن يدخلوا على الطعام بغير دعوة وأن تحقق الإذن كما يشعر به قوله تعالى ﴿ غير ناظرين إناه ﴾ أى غير منتظرين وقته أو إدراكه وهو حال من فاعل لا تدخلوا على أن الاستثناء واقع على الوقت والحال معاً عند من يجوزه أو من المجرور في لكم وقرىء بالجر صفة لطعام فيكون جاريا على غير من هو له بلا إبراز الضمير ولا مساغ له عند البصريين وقرىء بالإمالة لأنه مصدر أنى الطعام أى أدرك ﴿ ولكن إذا دعيتم فادخلوا ﴾ استدراك من النهي عن الدخول بغير إذن وفيه دلالة بينة على أن المراد بالإذن إلى الطعام هو الدعوة إليه ﴿ فإذا طعمتم فانتشروا ﴾ فتفرقوا ولا تلبثوا لأنه خطاب لقوم كانوا يتحينون طعام النبي عليه الصلاة والسلام فيدخلون ويقعدون منتظرين لإدراكه مخصوصة بهم وبأمثالهم وإلا لما جاز لأحد أن يدخل بيوته عليه الصلاة والسلام بإذن لغير الطعام ولا اللبث بعد الطعام لأمر مهم ﴿ ولا مستأنسين لحديث ﴾ أى لحديث بعضكم بعضا أو لحديث أهل البيت بالتسمع له عطف على ناظرين أو مقدر بفعل أى ولا تدخلوا ولا تمكثوا مستأنسين الخ

﴿ إن ذلكم ﴾ أى الاستئناس الذي كنتم تفعلونه من قبل ﴿ كان يؤذي النبي ﴾ لتضييق المنزل عليه وعلى أهله وإيجابه للاشتغال بما لا يعنيه وصده

عن الاشتغال بما يعنيه ﴿ فيستحى منكم ﴾ أى من إخراجكم لقوله تعالى ﴿ والله لا يستحي من الحق ﴾ فإنه يستدعى أن يكون المستحى منه أمراً حقا متعلقا بهم لا أنفسهم وما ذاك إلا إخراجهم فينبغى أن لا يترك حياء ولذلك لم يتركه تعالى وأمركم بالخروج والتعبير عنه بعدم الاستحياء للمشاكلة وقرىء لا يستحى بحذف الياء الأولى وإلقاء حركتها إلى ما قبلها ﴿ وإذا سألتموهن ﴾ الضمير لنساء النبى المدلول عليهن بذكر بيوته عليه الصلاة والسلام ﴿ متاعا ﴾ أى شيئا يتمتع به من الماعون وغيره ﴿ فاسألوهن ﴾ أى المتاع ﴿ من وراء حجاب ﴾ أى ستر روى أن عمر رضى الله عنه قال يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فنزلت وقيل إنه عليه الصلاة والسلام كان يطعم ومعه بعض أصحابه فأصابت يد رجل منهم يد عائشة رضى الله عنها فكره النبى ذلك فنزلت ﴿ ذلكم ﴾ أى ماذكر من عدم الدخول بغير إذن وعدم الاستئناس للحديث عند الدخول وسؤال المتاع من وراء حجاب ﴿ أطهر لقلوبكم وقلوبهن ﴾ أى أكثر تطهيرا من الخواطر الشيطانية

﴿ وما كان لكم ﴾ أى وما صح وما استقام لكم ﴿ أن تؤذوا رسول الله أى أن تفعلوا فى حياته فعلا يكرهه ويتأذى به ﴿ ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا ﴾ أى بعد وفاته أو فراقه ﴿ إن ذلكم ﴾ إشارة إلى ما ذكر من إيذائه عليه الصلاة والسلام ونكاح أزواجه من بعده وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلته فى الشر والفساد ﴿ كان عند الله عظيما ﴾ أى أمرا عظيما وخطبا هائلا لا يقادر قدره وفيه من تعظيمه تعالى لشأن رسوله صلى الله عليه وسلم وإيجاب حرمته حيا وميتا ما لا يخفى ولذلك بالغ تعالى فى الوعيد حيث قال ﴿ إن تبدوا شيئا ﴾ مما لا خير فيه كنكاحهن على ألسنتكم ﴿ أو تخفوه ﴾ فى صدوركم ﴿ فإن الله كان بكل شىء عليما ﴾ فيجازيكم بما صدر عنكم من المعاصى البادية والخافية لامحالة وفى هذا التعميم مع البرهان على المقصود مزيد تهويل وتشديد ومبالغة فى الوعيد ﴿ لا جناح عليهن فى آبائهن ولا أبنائهن ولا إخوانهن ولا أبناء إخوانهن ولا أبناء أخواتهن ﴾ استئناف لبيان من

لا يجب الاحتجاب عنهم روى أنه لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب يا رسول الله أو نكلمهن أيضاً من وراء الحجاب فنزلت وإنما لم يذكر العم والخال لأنهما بمنزلة الوالدين ولذلك سمي العم أبا في قوله تعالى : (وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق) أو لأنه اكتفى عن ذكرهما بذكر أبناء الإخوة وأبناء الأخوات فإن مناط عدم لزوم الاحتجاب بينهن وبين الفريقين عين ما بينهن وبين العم والخال من العمومة والخؤولة لما أنهن عمات لأبناء الإخوة وخالات الأبناء الأخوات وقيل لأنه كره ترك الاحتجاب منهما مخافة أن يصفاهن لأبنائهما .

﴿ ولا نسائهن ﴾ أي نساء المؤمنات ﴿ ولا ما ملكت أيمانهن ﴾ من العبيد والإماء وقيل من الإماء خاصة وقد مر في سورة النور ﴿ واتقين الله ﴾ في كل ما تأتن وما تذرن لاسيما فيما أمرتن به ونهيتن عنه ﴿ إن الله كان على كل شيء شهيداً ﴾ لا تخفى عليه خافية ولا تتفاوت في علمه الأحوال ﴿ إن الله وملائكته ﴾ وقرىء وملائكته بالرفع عطفا على محل إن واسمها عند الكوفيين وحملا على حذف الخبر ثقة بدلالة ما بعده عليه على رأي البصريين ﴿ يصلون على النبي ﴾ قيل الصلاة من الله تعالى الرحمة ومن الملائكة الاستغفار وقال ابن عباس رضي الله عنهما أراد أن الله يرحمه والملائكة يدعون له وعنه أيضاً يصلون يبركون وقال أبو العالية صلاة الله تعالى عليه ثناؤه عليه عند الملائكة وصلاتهم دعاؤهم له فينبغي أن يراد بها في يصلون معنى مجازي عام يكون كل واحد من المعاني المذكورة فردا حقيقيا له أي يعتنون بما فيه خيره وصلاح أمره ويهتمون بإظهار شرفه وتعظيم شأنه وذلك من الله سبحانه بالرحمة ومن الملائكة بالدعاء والاستغفار .

﴿ يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه ﴾ اعتنوا أنتم أيضا بذلك فإنكم أولى به ﴿ وسلموا تسليما ﴾ قائلين اللهم صل على محمد وسلم أو نحو ذلك وقيل المراد بالتسليم انقياد أمره والآية دليل على وجوب الصلاة والسلام عليه مطلقا من غير تعرض لوجوب التكرار وعدمه وقيل يجب ذلك كلما جرى ذكره لقوله

عليه الصلاة والسلام رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل على وقوله عليه الصلاة والسلام من ذكرت عنده فلم يصل على فدخل النار فأبعده الله ويروى أنه عليه الصلاة والسلام قال وكل الله تعالى بى ملكين فلا أذكر عند مسلم فيصلى على إلا قال ذانك الملكان غفر الله لك وقال الله تعالى وملائكته جوابا لذينك الملكين آمين ولا أذكر عند مسلم فلا يصلى على إلا قال ذلك الملكان لا غفر الله لك ، وقال الله تعالى وملائكته جوابا لذينك الملكين آمين ومنهم من قال يجب فى كل مجلس مرة وإن تكرر ذكره عليه الصلاة والسلام كما قيل فى آية السجدة وتشميت العاطس وكذلك فى كل دعاء فى أوله وآخره ومنهم من قال بالوجوب فى العمر مرة وكذا قال فى إظهار الشهادتين والذى يقتضيه الاحتياط ويستدعيه معرفة علو شأنه عليه الصلاة والسلام أن يصلى عليه كلما جرى ذكره الرفيع وأما الصلاة عليه فى الصلاة بأن يقال اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد فليست بشرط فى جواز الصلاة عندنا وعن إبراهيم النخعى رحمه الله أن الصحابة كانوا يكتفون عن ذلك بما فى التشهد وهو السلام عليك أيها النبى وأما الشافعى رحمه الله فقد جعلها شرطا وأما الصلاة على غير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فتجوز تبعا وتكره استقلالا لأنه فى العرف شعار ذكر الرسل ولذلك كره أن يقال محمد عز وجل مع كونه عزيزا جليلا ﴿إن الذين يؤذون الله ورسوله﴾ أريد بالإيذاء إما فعل ما يكرهانه من الكفر والمعاصى مجازا لاستحالة حقيقة التأذى فى حقه تعالى وقيل فى إيذائه تعالى هو قول اليهود والنصارى والمشركين يد الله مغلولة وثالث ثلاثة والمسيح ابن الله والملائكة بنات الله والأصنام شركاؤه تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا وقيل قول الذين يلحدون فى آياته وفى إيذاء الرسول عليه الصلاة والسلام هو قولهم شاعر ساحر كاهن مجنون وقيل هو كسر رباعيته وشج وجهه الكريم يوم أحد وقيل طعنهم فى نكاح صفية والحق هو العموم فيهما وأما إيذاؤه عليه الصلاة والسلام خاصة بطريق الحقيقة وذكر الله عز وجل لتعظيمه والإيذان بجلالة مقداره عنده تعالى وأن إيذاءه عليه الصلاة والسلام إيذاء له سبحانه .

﴿ لعنهم الله ﴾ طردهم وأبعدهم من رحمته ﴿ فى الدنيا والآخرة ﴾ بحيث لا يكادون ينالون فيهما شيئاً منها ﴿ وأعد لهم ﴾ مع ذلك ﴿ عذابا مهينا ﴾ يصيبهم فى الآخرة خاصة ﴿ والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات ﴾ يفعلون بهم ما يتأذون به من قول أو فعل وتقييده بقوله تعالى ﴿ بغير ما اكتسبوا ﴾ أى بغير جناية يستحقون بها الأذية بعد إطلاقه فيما قبله للإيذان بأن أذى الله ورسوله لا يكون إلا غير حق وأما أذى هؤلاء فمنه ومنه ﴿ فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا ﴾ أى ظاهرا بينا قيل إنها نزلت فى منافقين كانوا يؤذون عليا رضى الله عنه ويسمعونه ما لا خير فيه وقيل فى أهل الإفك وقال الضحاك والكلبي فى زناة يتبعون النساء إذا برزن بالليل لقضاء حوائجهن . وكانوا لا يتعرضون إلا للإماء ولكن ربما كان يقع منهم التعرض للحرائر أيضاً جهلا أو تجاهلا لاتحاد الكل فى الزى واللباس والظاهر عمومه لكل ما ذكر ولما سيأتى من أراجيف المرجفين .

واجبات أمهات المؤمنين

﴿ يا أيها النبى ﴾ بعد ما بين سوء حال المؤذين زجراً لهم عن الإيذاء أمر النبى عليه الصلاة والسلام بأن يأمر بعض المتأذين منهم بما يدفع إيذاءهم فى الجملة من الستر والتميز عن مواقع الإيذاء فقيل ﴿ قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ﴾ الجلباب ثوب أوسع من الخمار ودون الرداء تلويه المرأة على رأسها وتبقى منه ما ترسله على صدرها وقيل هى الملحفة وكل ما يتستر به أى يغطين بها وجوههن وأبدانهن إذا برزن لداعية من الدواعى ومن للتبعيض لما مر من أن المعهود التلفع ببعضها وإرخاء بعضها وعن السدي تغطى إحدى عينيها وجبهتها والشق الآخر إلا العين ﴿ ذلك ﴾ أى ما ذكر من التغطى ﴿ أدنى ﴾ أقرب ﴿ أن يعرفن ﴾ ويميزن عن الإماء والقينات اللاتى هن مواقع تعرضهم وإيذائهم ﴿ فلا يؤذين ﴾ من جهة أهل الريبة بالتعرض لهن ﴿ وكان الله غفورا ﴾ لما سلف منهن من التفريط ﴿ رحيما ﴾ بعباده حيث

يراعى من مصالحهم أمثال هاتيك الجزئيات ﴿لئن لم ينته المنافقون﴾ عما هم عليه من النفاق وأحكامه الموجبة للإيذاء ﴿والذين فى قلوبهم مرض﴾ عما هم عليه من التزلزل وما يستتبعه مما لا خير فيه ﴿والمرجفون فى المدينة﴾ من الفريقين عما هم عليه من نشر أخبار السوء عن سرايا المسلمين وغير ذلك من الأراجيف الملفقة المستتبعة للأذية وأصل الإرجاف التحريك من الرجفة التى هى الزلزلة وصفت به الأخبار الكاذبة لكونها متزلزلة غير ثابتة ﴿لنغرينك بهم﴾ لنأمرنك بقتالهم وإجلائهم أو بما يضطرهم إلى الجلاء ولنحرضنك على ذلك ﴿ثم لا يجاورونك﴾ عطف على جواب القسم وثم للدلالة على أن الجلاء ومفارقة جوار الرسول عليه الصلاة والسلام أعظم ما يصيبهم ﴿فيها﴾ أى فى المدينة ﴿إلا قليلا﴾ زمانا [1] أو جوارا قليلا ريثما يتبين حالهم من الانتهاء وعدمه ﴿ملعونين﴾ نصب على الشتم أو الحال على أن الاستثناء وارد عليه أيضا على رأى من يجوزه كما مر فى قوله تعالى غير ناظرين إناه ولا سبيل إلى انتصابه عن قوله تعالى ﴿أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا﴾ لأن ما بعد كلمة الشرط لا يعمل فيما قبلها .

﴿سنة الله فى الذين خلوا من قبل﴾ أى سن الله ذلك فى الأمم الماضية سنة وهى أن يقتل الذين نافقوا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وسعوا فى توهين أمرهم بالإرجاف ونحوه أينما ثقفوا ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾ أصلا لابتنائها على أساس الحكمة التى عليها يدور فلك التشريع ﴿يسألك الناس عن الساعة﴾ أى عن وقت قيامها كان المشركون يسألونه عليه الصلاة والسلام عن ذلك استعجالا بطريق الاستهزاء واليهود امتحانا لما أن الله تعالى عمى وقتها فى التوراة وسائر الكتب ﴿قل إنما علمها عند الله﴾ لا يطلع عليه ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا وقوله تعالى ﴿وما يدريك﴾ خطاب مستقل له عليه الصلاة والسلام غير داخل تحت الأمر مسوق لبيان أنها مع كونها غير معلومة للخلق مرجوة المجىء عن

---

(١) فى ا ا : زمنا

قريب أى أى شىء يعلمك بوقت قيامها أى لا يعلمك به شىء أصلا ﴿لعل الساعة تكون قريباً﴾ أى شيئاً قريباً أو تكون الساعة فى وقت قريب وانتصابه على الظرفية ويجوز أن يكون التذكير باعتبار أن الساعة فى معنى اليوم أو الوقت وفيه تهديد للمستعجلين وتبكيت المتعنتين والإظهار فى حيز الإضمار للتهويل وزيادة التقرير وتأكيد استقلال الجملة كما أشير إليه ﴿إن الله لعن الكافرين﴾ على الإطلاق أى طردهم وأبعدهم من رحمته العاجلة والآجلة ﴿وأعد لهم﴾ مع ذلك ﴿سعيرا﴾ ناراً شديدة الاتقاد يقاسونها فى الآخرة ﴿خالدين فيها أبدا لا يجدون ولياً﴾ يحفظهم ﴿ولا نصيرا﴾ يخلصهم منها ﴿يوم تقلب وجوههم فى النار﴾ ظرف لعدم الوجدان وقيل لخالدين وقيل لنصيرا وقيل مفعول لاذكر أى يوم تصرف وجوههم فيها من جهة إلى جهة كلحم يشوى فى النار أو يطبخ فى القدر فيدور به الغليان من جهة إلى جهة أو من حال إلى حال أو يطرحون فيها مقلوبين منكوسين وقرىء تقلب بحذف إحدى التاءين من تتقلب ونقلب بإسناد الفعل إلى نون العظمة ونصب وجوههم وتقلب بإسناده إلى السعير وتخصيص الوجوه بالذكر لما أنها أكرم الأعضاء ففيه مزيد تفظيع للأمر وتهويل للخطب ويجوز أن تكون عبارة عن كل الجسد فقوله تعالى ﴿يقولون﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية حالهم الفظيعة كأنه قيل فماذا يصنعون عند ذلك فقيل يقولون متحسرين على ما فاتهم ﴿ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا﴾ فلا نبتلى بهذا العذاب أو حال من ضمير وجوههم أو من نفسها أو هو العامل فى يوم ﴿وقالوا﴾ عطف على يقولون والعدول إلى صيغة الماضى للإشعار بأن قولهم هذا ليس مستمرا كقولهم السابق بل هو ضرب اعتذار أرادوا به ضربا من التشفى بمضاعفة عذاب الذين ألقوهم فى تلك الورطة وإن علموا عدم قبوله فى حق خلاصهم منها ﴿ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا﴾ يعنون قادتهم الذين لقنوهم الكفر وقرىء ساداتنا للدلالة على الكثرة والتعبير عنهم بعنوان السيادة والكبر لتقوية الاعتذار وإلا فهم فى مقام التحقير والإهانة ﴿فأضلونا السبيلا﴾ بما زينوا لنا من الأباطيل والألف للإطلاق كما فى وأطعنا الرسولا ﴿ربنا آتهم

ضعفين من العذاب ﴾ أى مثلى العذاب الذى آتيتناه لأنهم ضلوا وأضلوا ﴿ والعنهم لعنا كبيرا ﴾ أى شديدا عظيما وقرىء كثيراً وتصدير الدعاء بالنداء مكرراً للمبالغة فى الجؤار واستدعاء الإجابة ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى ﴾ قيل نزلت فى شأن زيد وزينب وما سمع فيه من قالة الناس ﴿ فبرأه الله مما قالوا ﴾ أى فأظهر براءته عليه الصلاة والسلام مما قالوا فى حقه أى من مضمونه ومؤداه الذى هو الأمر المعيب وذلك أن قارون أغرى مومسة على قذفه عليه الصلاة والسلام بنفسها بأن دفع إليها مالا عظيما فأظهر الله تعالى نزاهته عليه الصلاة والسلام عن ذلك بأن أقرت المومسة بالمصانعة الجارية بينها وبين قارون وفعل بقارون ما فعل كما فصل فى سورة القصص وقيل اتهمه ناس بقتل هارون عند خروجه معه إلى الطور فمات هناك فحملته الملائكة ومروا به حتى رأوه غير مقتول وقيل أحياه الله تعالى فأخبرهم ببراءته وقيل قذفوه بعيب فى بدنه من برص أو أدرة لفرط تستره حياء فأطلعهم الله تعالى على براءته بأن فر الحجر بثوبه حين وضعه عليه عند اغتساله والقصة مشهورة .

﴿ وكان عند الله وجيها ﴾ ذا قربة ووجاهة وقرىء وكان عبد الله وجيها ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ﴾ أى فى كل ما تأتون وما تذرون لاسيما فى ارتكاب ما يكرهه فضلا عما يؤذى رسوله عليه الصلاة والسلام ﴿ وقولوا ﴾ فى كل شأن من الشئون ﴿ قولا سديدا ﴾ قاصدا إلى الحق من سد يسد سدادا يقال سدد السهم نحو الرمية إذا لم يعدل به عن سمتها والمراد نهيهم عما خاضوا فيه من حديث زينب الجائر عن العدل والقصد ﴿ يصلح لكم أعمالكم ﴾ يوفقكم للأعمال الصالحة أو يصلحها بالقبول والإثابة عليها ﴿ ويغفر لكم ذنوبكم ﴾ ويجعلها مكفرة باستقامتكم فى القول والعمل ﴿ ومن يطع الله ورسوله ﴾ فى الأوامر والنواهى التى من جملتها هذه التكليفات ﴿ فقد فاز ﴾ فى الدارين ﴿ فوزا عظيما ﴾ لا يقادر قدره ولا يبلغ غايته .

﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ﴾ لما بين عظم شأن طاعة الله ورسوله ببيان مآل الخارجين عنها

من العذاب الأليم ومنال المراعين لها من الفوز العظيم عقب ذلك ببيان عظم شأن ما يوجبها من التكاليف الشرعية وصعوبة أمرها بطريق التمثيل مع الإيذان بأن ما صدر عنهم من الطاعة وتركها صدر عنهم بعد القبول والالتزام وعبر عنها بالأمانة تنبيها على أنها حقوق مرعية أودعها الله تعالى المكلفين وائتمنهم عليها وأوجب عليهم تلقيها بحسن الطاعة والانقياد وأمرهم بمراعاتها والمحافظة عليها وأدائها من غير إخلال بشيء من حقوقها وعبر عن اعتبارها بالنسبة إلى استعداد ما ذكر من السموات وغيرها بالعرض عليهن لإظهار مزيد الاعتناء بأمرها والرغبة فى قبولهن لها وعن عدم استعدادهن لقبولها بالإباء والإشفاق منها لتهويل أمرها وتربية فخامتها وعن قبولها بالحمل لتحقيق معنى الصعوبة المعتبرة فيها بجعلها من قبيل الأجسام الثقيلة التى يستعمل فيها القوى الجسمانية التى أشدها وأعظمها ما فيهن من القوة والشدة والمعنى أن تلك الأمانة فى عظم الشأن بحيث لو كلفت هاتيك الأجرام العظام التى هى مثل فى القوة والشدة مراعاتها وكانت ذات شعور وإدراك لأبين قبولها وأشفقن منها ولكن صرف الكلام عن سننه بتصوير المفروض بصورة المحقق روما لزيادة تحقيق المعنى المقصود بالتمثيل وتوضيحه ﴿ وحملها الإنسان ﴾ أى عند عرضها عليه إما باعتبارها بالإضافة إلى استعداده أو بتكليفه إياها يوم الميثاق أى تكلفها والتزمها مع ما فيه من ضعف البنية ورخاوة القوة وهو إما عبارة عن قبوله لها بموجب استعداده الفطرى أو عن اعترافه بقوله بلى وقوله تعالى ﴿ إنه كان ظلوما جهولا ﴾ اعتراض [وسط][1] بين الحمل وغايته للإيذان من أول الأمر بعدم وفائه بما عهده وتحمله أى أنه كان مفرطا فى الظلم مبالغا فى الجهل أى بحسب غالب أفراده الذين لم يعملوا بموجب فطرتهم السليمة أو اعترافهم السابق دون من عداهم من الذين لم يبدلوا فطرة الله تبديلا وإلى الفريق الأول أشير بقوله عز وجل ﴿ ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ﴾ أى حملها الإنسان

(١) سقطت من ط

ليعذب الله بعض أفراده الذين لم يراعوها ولم يقابلوها بالطاعة على أن اللام للعاقبة فإن التعذيب وإن لم يكن غرضا له من الحمل لكن لما ترتب عليه بالنسبة إلى بعض أفراده ترتب الأغراض على الأفعال المعللة بها أبرز فى معرض الغرض أى كان عاقبة حمل الإنسان لها أن يعذب الله تعالى هؤلاء من أفراده لخيانتهم الأمانة وخروجهم عن الطاعة بالكلية وإلى الفريق الثانى أشير بقوله تعالى : ﴿ ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات ﴾ أى كان عاقبة حمله لها أن يتوب الله تعالى على هؤلاء من أفراده أى يقبل توبتهم لعدم خلعهم ربقة الطاعة عن رقابهم بالمرة وتلافيهم لما فرط منهم من فرطات فلما يخلو عنها الإنسان بحكم جبلته وتداركهم لها بالتوبة والإنابة والالتفات إلى الاسم الجليل أولا لتهويل الخطب وتربية المهابة والإظهار فى موقع الإضمار ثانيا لإبراز مزيد الاعتناء بأمر المؤمنين توفية لكل من مقامى الوعيد والوعد حقه والله تعالى أعلم وجعل الأمانة التى [من] [1] شأنها أن تكون من جهته تعالى عبارة عن الطاعة التى هى من أفعال المكلفين التابعة للتكليف بمعزل من التقريب وحمل الكلام على تقرير الوعد الكريم الذى ينبىء عنه قوله تعالى (ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما) بجعل تعظيم شأن الطاعة ذريعة إلى ذلك بأن من قام بحقوق مثل هذا الأمر العظيم الشأن وراعاها فهو جدير بأن يفوز بخير الدارين يأباه وصفه بالظلم والجهل أولا وتعليل الحمل بتعذيب فريق والتوبة على فريق ثانيا وقيل المراد بالأمانة مطلق الانقياد الشامل الطبيعى والاختيارى وبعرضها استدعاؤها الذى يعم طلب الفعل من المختار وإرادة صدوره من غيره وبحملها الخيانة فيها والامتناع عن ادائها فيكون الإباء امتناعا عن الخيانة وإتيانا بالمراد فالمعنى أن هذه الأجرام مع عظمها وقوتها أبين الخيانة لأمانتها وأتين بما أمرناهن به كقوله تعالى أتينا طائعين وخانها الإنسان حيث لم يأت بما أمرناه به إنه كان ظلوما جهولا وقيل إنه تعالى لما خلق هذه الأجرام خلق فيها فهما وقال

---

(١) سقطت من الأصل

لها إنى فرضت فريضة وخلقت جنة لمن أطاعنى فيها ونارا لمن عصانى فقلن نحن مسخرات لما خلقتنا لا نحتمل فريضة ولا نبغى ثوابا ولا عقابا ولما خلق آدم عليه السلام عرض عليه مثل ذلك فحمله وكان ظلوما لنفسه بتحمله ما يشق عليها جهولا بوخامة عاقبته وقيل المراد بالأمانة العقل أو التكليف وبعرضها عليهن اعتبارها بالإضافة إلى استعدادهن وبإبائهن الإباء الطبيعى الذى هو عدم اللياقة والاستعداد لها وبحمل الانسان قابليته واستعداده لها وكونه ظلوما جهولا لما غلب عليه من القوة الغضبية والشهوية هذا قريب من التحقيق فتأمل والله الموفق وقرىء ويتوب الله على الاستئناف ﴿ وكان الله غفوراً رحيما ﴾ مبالغا فى المغفرة والرحمة حيث تاب عليهم وغفر لهم فرطاتهم وأثاب بالفوز على طاعاتهم ، قال عليه الصلاة والسلام من قرأ سورة الأحزاب وعلمها أهله وما ملكت يمينه أعطى الأمان من عذاب القبر ، والله أعلم .

* * *

سورة سبأ

مكية ، وقيل إلا (ويرى الذين أوتوا العلم) الآية
وهى خمس وأربعون آية

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ أى له تعالى خلقا وملكا وتصرفا بالإيجاد والإعدام والإحياء والإماتة جميع ما وجد فيهما داخلا فى حقيقتهما أو خارجا عنهما متمكنا فيهما فكأنه قيل له جميع المخلوقات كما مر فى آية الكرسى ووصفه تعالى بذلك لتقرير ما أفاده تعليق الحمد المعرف بلام الحقيقة بالاسم الجليل من اختصاص جميع أفراده به تعالى على ما بين فى فاتحة الكتاب ببيان تفرده تعالى واستقلاله بما يوجب ذلك وكون كل ماسواه من الموجودات التى من جملتها الإنسان تحت ملكوته تعالى ليس لها فى حد ذاتها استحقاق الوجود فضلا عما عداه من صفاتها بل كل ذلك نعم فائضة عليها من جهته عز وجل فما هذا شأنه فهو بمعزل من استحقاق الحمد الذى مداره الجميل الصادر عن القادر باختيار فظهر اختصاص جميع أفراده به تعالى وقوله تعالى :

﴿ وله الحمد فى الآخرة ﴾ بيان لاختصاص الحمد الأخروى به تعالى إثر بيان اختصاص الدنيوى به على أن الجار متعلق إما بنفس الحمد أو بما تعلق به الخبر من الاستقرار وإطلاقه عن ذكر ما يشعر بالمحمود عليه ليس للاكتفاء بذكر كونه فى الآخرة عن التعيين كما اكتفى فيما سبق بذكر كون المحمود عليه فى الدنيا عن ذكر كون الحمد أيضا فيها بل ليعم النعم الأخروية كما فى قوله تعالى (الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة) وقوله تعالى (الذى أحلنا دار المقامة من فضله) الآية وما يكون ذريعة إلى نيلها من

النعم الدنيوية كما فى قوله تعالى (الحمد لله الذى هدانا لهذا) أى لما جزاؤه هذا من الإيمان والعمل الصالح والفرق بين الحمدين مع كون نعمتى الدنيا والآخرة بطريق التفضل أن الأول على نهج العبادة والثانى على وجه التلذذ(١) والاغتباط وقد ورد فى الخبر أنهم يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس ﴿ وهو الحكيم ﴾ الذى أحكم أمور الدنيا ودبرها حسبما تقتضيه الحكمة ﴿ الخبير ﴾ ببواطن الأشياء ومكنوناتها وقوله تعالى ﴿ يعلم مايلج فى الأرض ﴾ الخ تفصيل لبعض ما يحيط به علمه من الأمور التى نيطت بها مصالحهم الدنيوية والدينية أى يعلم ما يدخل فيها من الغيث والكنوز والدفائن والأموات ونحوها ﴿ وما يخرج منها ﴾ كالحيوان والنبات وماء العيون ونحوها ﴿ وما ينزل من السماء ﴾ كالملائكة والكتب والمقادير ونحوها وقرىء وما ننزل بالتشديد ونون العظمة ﴿ وما يعرج فيها ﴾ كالملائكة وأعمال العباد والأبخرة والأدخنة ﴿ وهو الرحيم ﴾ للحامدين على ما ذكر من نعمه ﴿ الغفور ﴾ للمفرطين فى ذلك بلطفه وكرمه .

إنكار البعث

﴿ وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة ﴾ أرادوا بضمير المتكلم جنس البشر قاطبة لا أنفسهم أو معاصريهم فقط كما أرادوا بنفى إتيانها نفى وجودها بالكلية لا عدم حضورها مع تحققها فى نفس الأمر وإنما عبروا عنه بذلك لأنهم كانوا يوعدون بإتيانها ولأن وجود الأمور الزمانية المستقبلة لا سيما أجزاء الزمان لا يكون إلا بالإتيان والحضور وقيل هو استبطاء لإتيانها الموعود بطريق الهزء والسخرية كقولهم متى هذا الوعد ﴿ قل بلى ﴾ رد لكلامهم وإثبات لما نفوه على معنى ليس الأمر إلا إتيانها وقوله تعالى ﴿ وربى لتأتينكم ﴾ تأكيد له على أتم الوجوه وأكملها وقرىء ليأتينكم على تأويل الساعة باليوم أو الوقت

(١) فى ١٥ اللذة

وقوله تعالى ﴿ عالم الغيب ﴾ الخ إمداد للتأكيد وتسديد له إثر تسديد وكسر لسورة نكيرهم واستبعادهم فإن تعقيب القسم بجلائل نعوت المقسم به على الإطلاق يؤذن بفخامة شأن المقسم عليه وقوة ثباته وصحته لما أن ذلك فى حكم الاستشهاد على الأمر ولا ريب فى أن المستشهد به كلما كان أجل وأعلا كانت الشهادة آكد وأقوى والمستشهد عليه أحق بالثبوت وأولى لاسيما إذا خص بالذكر من النعوت ماله تعلق خاص بالمقسم عليه كما نحن فيه فإن وصفه بعلم الغيب الذى أشهر أفراده وأدخلها فى الخفاء هو المقسم عليه تنبيه لهم على علة الحكم وكونه مما لا يحوم حوله شائبة ريب ما وفائدة الأمر بهذه المرتبة من اليمين أن لا يبقى للمعاندين عذر ما أصلا فإنهم كانوا يعرفون أمانته ونزاهته عن وصمة الكذب فضلا عن اليمين الفاجرة وإنما لم يصدقوه مكابرة وقرىء علام الغيب وعالم الغيب وعالم الغيوب بالرفع على المدح ﴿ لا يعزب عنه ﴾ أى لا يبعد وقرىء بكسر الزاى ﴿ مثقال ذرة ﴾ مقدار أصغر نملة ﴿ فى السموات ولا فى الأرض ﴾ أى كائنة فيهما ﴿ ولا أصغر من ذلك ﴾ أى من مثقال ذرة ﴿ ولا أكبر ﴾ أى منه ورفعهما على الابتداء والخبر قوله تعالى ﴿ إلا فى كتاب مبين ﴾ هو اللوح المحفوظ والجملة مؤكدة لنفى العزوب وقرىء ولا أصغر ولا أكبر بفتح الراء على نفى الجنس ولا يجوز أن يعطف المرفوع على مثقال ولا المفتوح على ذرة بأنه فتح فى خبر الجر لامتناع الصرف لما أن الاستثناء يمنعه إلا أن يجعل الضمير فى عنه للغيب ويجعل المثبت فى اللوح خارجا عنه لبروزه للمطالعين له فيكون المعنى لا ينفصل عن الغيب شىء إلى مسطورا فى اللوح .

﴿ ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ علة لقوله تعالى لتأتينكم وبيان لما يقتضى إتيانها ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى الموصول من حيث اتصافه بما فى حيز الصلة وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتهم فى الفضل والشرف أى أولئك الموصوفون بالصفات الجليلة ﴿ لهم ﴾ بسبب ذلك ﴿ مغفرة ﴾ لما فرط منهم من بعض فرطات قلما يخلو عنها البشر ﴿ ورزق كريم ﴾ لا تعب فيه ولا من عليه ﴿ والذين سعوا فى آياتنا ﴾ بالقدح فيها وصد الناس عن التصديق بها

﴿ معاجزين ﴾ أى مسابقين كى يفوتونا وقرىء معجزين أى مثبطين عن الإيمان من أراده ﴿ أولئك لهم عذاب ﴾ الكلام فيه كالذى مر آنفا ومن فى قوله تعالى ﴿ من رجز ﴾ للبيان قال قتادة رضى الله عنه الرجز سوء العذاب وقوله تعالى ﴿ أليم ﴾ بالرفع صفة عذاب أى أولئك الساعون لهم عذاب من جنس سوء العذاب شديد الإيلام وقرىء أليم بالجر صفة لرجز ﴿ ويرى الذين أوتوا العلم ﴾ أى يعلم أولو العلم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن شايعهم من علماء الأمة أومن آمن من علماء أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وكعب وأضرابهما رضى الله عنهم ﴿ الذى أنزل إليك من ربك ﴾ أى القرآن ﴿ هو الحق ﴾ بالنصب على أنه مفعول ثان ليرى والمفعول الأول هو الموصول الثانى وهو ضمير الفصل وقرىء بالرفع على الابتداء والخبر والجلة هو المفعول الثانى ليرى وقوله تعالى ويرى الخ مستأنف مسوق للاستشهاد بأولى العلم على الجهلة الساعين فى الآيات وقيل منصوب عطفا على يجزى أى وليعلم أولوا العلم عند مجىء الساعة معاينة أنه الحق حسبما علموه الآن برهانا ويحتجوا به على المكذبين وقد جوز أن يراد بأولى العلم من لم يؤمن من الأحبار أى ليعلموا يومئذ أنه هو الحق فيزدادوا حسرة وغما ﴿ ويهدى ﴾ عطف على الحق عطف الفعل على الاسم لأنه فى تأويله كما فى قوله تعالى (صافات ويقبضن) أى وقابضات كأنه قيل ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك الحق وهاديا ﴿ إلى صراط العزيز الحميد ﴾ الذى هو التوحيد والتدرع بلباس التقوى وقيل مستأنف وقيل حال من الذى أنزل على إضمار مبتدأ أى وهو يهدى كما فى قول من قال نجوت وأرهنهم مالكا .

﴿ وقال الذين كفروا ﴾ هم كفار قريش قالوا مخاطبا بعضهم لبعض ﴿ هل ندلكم على رجل ﴾ يعنون به النبى عليه الصلاة والسلام وإنما قصدوا بالتنكير الطنز والسخرية قاتلهم الله تعالى ﴿ ينبئكم ﴾ أى يحدثكم بعجب عجاب وقرىء ينبيكم من الإنباء ﴿ إذا مزقتم كل ممزق ﴾ أى إذا متم ومزقت أجسادكم كل تمزيق وفرقت كل تفريق بحيث صرتم ترابا ورفاتا ﴿ إنكم لفى خلق جديد ﴾ أى

مستقرون فيه عدل إليه عن الجملة الفعلية الدالة على الحدوث مثل تبعثون أو تخلقون خلقاً جديداً للإشباع فى الاستبعاد والتعجيب وكذلك تقديم الظرف والعامل فيه ما دل عليه المذكور لا نفسه لما أن ما بعد إن لا يعمل فيما قبلها وجديد فعيل بمعنى فاعل من جد فهو جديد وقل فهو قليل وقيل بمعنى مفعول من جد النساج الثوب إذا قطعه ثم شاع ﴿ أفترى على الله كذبا ﴾ فيما قاله ﴿ أم به جنة ﴾ أى جنون يوهمه ذلك ويلقيه على لسانه والاستدلال بهذا الترديد على أن بين الصدق والكذب واسطة هو مالا يكون من الإخبار عن بصيرة بين الفساد لظهور كون الافتراء أخص من الكذب ﴿ بل الذين لا يؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد ﴾ جواب من جهة الله تعالى عن ترديدهم الوارد على طريقة الاستفهام بالإضراب عن شقيه وإبطالهما وإثبات قسم ثالث كاشف عن حقيقة الحال ناع عليهم سوء حالهم وابتلاءهم بما قالوا فى حقه عليه الصلاة والسلام كأنه قيل ليس الأمر كما زعموا بل هم فى كمال اختلال العقل وغاية الضلال عن الفهم والإدراك الذى هو الجنون حقيقة وفيما يؤدى إليه ذلك من العذاب ولذلك يقولون ما يقولون وتقديم العذاب على ما يوجبه ويستتبعه للمسارعة إلى بيان مايسوؤهم ويفت فى أعضادهم والإشعار بغاية سرعة ترتبه عليه كأنه يسابقه فيسبقه ووصف الضلال بالبعد الذى هو وصف الضال للمبالغة ووضع الموصول موضع ضميرهم للتنبيه بما فى حيز الصلة على أن علة ما ارتكبوه واجترؤا عليه من الشناعة الفظيعة كفرهم بالآخرة وما فيها من فنون العقاب ولولاه لما فعلوا ذلك خوفا من غائلته وقوله تعالى :

﴿ أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض ﴾ استئناف مسوق لتهويل ما اجترؤا عليه من تكذيب آيات الله تعالى واستعظام ما قالوا فى حقه عليه الصلاة والسلام وأنه من العظائم الموجبة لنزول أشد العقاب وحلول أفظع العذاب من غير ريث وتأخير والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام وقوله تعالى ﴿ إن نشأ ﴾ الخ بيان لما ينبىء عنه ذكر إحاطتهما بهم من المحذور المتوقع من جهتهما وفيه تنبيه على أنه لم يبق من أسباب وقوعه إلا تعلق المشيئة به أى

فعلوا ما فعلوا من المنكر الهائل المستتبع للعقوبة فلم ينظروا إلى ما أحاط بهم من جميع جوانبهم بحيث لا مفر لهم عنه ولا محيص إن نشأ جريا على موجب جناياتهم ﴿ نخسف بهم الأرض ﴾ كما خسفناها بقارون ﴿ أو نسقط عليهم كسفا ﴾ أى قطعاً ﴿ من السماء ﴾ كما أسقطناها على أصحاب الأيكة لاستيجابهم ذلك بما ارتكبوه من الجرائم وقيل هو تذكير بما يعاينونه مما يدل على كمال قدرته وما يحتمل فيه إزاحة لاستحالتهم البعث حتى جعلوه افتراء وهزؤا وتهديداً عليها والمعنى أعموا فلم ينظروا إلى ما أحاط بجوانبهم من السماء والأرض ولم يتفكروا أهم أشد خلقا أم هى وإن نشأن نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا لتكذيبهم بالآيات بعد ظهور البينات فتأمل وكن على الحق المبين وقرىء يخسف ويسقط بالياء لقوله تعالى أفترى على الله وكسفا بسكون السين ﴿ إن فى ذلك ﴾ أى فيما ذكر من السماء والأرض من حيث إحاطتهما بالناظر من جميع الجوانب أو فيما تلى من الوحى الناطق بما ذكر ﴿ لآية ﴾ واضحة ﴿ لكل عبد منيب ﴾ شأنه الإنابة إلى ربه فإنه إذا تأمل فيهما أو فى الوحى المذكور ينزجر عن تعاطى القبائح وينيب إليه تعالى وفيه حث بليغ على التوبة والإنابة وقد أكد ذلك بقوله تعالى :

فضل الله على داود

﴿ ولقد آتينا داود منا فضلا ﴾ أى آتيناه لحسن إنابته وصحة توبته فضلا على سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أى نوعا من الفضل وهو ما ذكر بعد فإنه معجزة خاصة به عليه الصلاة والسلام أو على سائر الناس فيندرج فيه النبوة والكتاب والملك والصوت الحسن فتنكيره للتفخيم ومنا لتأكيد فخامته الذاتية بفخامته الإضافية كما فى قوله تعالى وآتيناه من لدنا علما وتقديمه على المفعول الصريح للاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر فإن ما حقه التقديم إذا أخر تبقى النفس مترقبة له فإذا وردها يتمكن عندها فضل تمكن ﴿ ياجبال أوبى معه ﴾ من التأويب أى رجعى معه التسبيح أو النوحة على الذنب وذلك إما بأن يخلق

الله تعالى فيها صوتا مثل صوته كما خلق الكلام فى الشجرة أو بأن يتمثل له ذلك
وقرىء أوبى من الأوب أى ارجعى معه فى التسبيح كلما رجع فيه وكان كلما
سبح عليه الصلاة والسلام يسمع من الجبال ما يسمع من المسبح معجزة له عليه
الصلاة والسلام وقيل كان ينوح على ذنبه بترجيع وتحزين وكانت الجبال تسعده
على نوحه بأصدائها والطير بأصواتها وهو بدل من آتينا بإضمار قلنا أو من فضلا
بإضمار قولنا ﴿ والطير ﴾ بالنصب عطفاً على فضلا بمعنى وسخرنا له الطير لأن
إيتاءها إياه عليه الصلاة والسلام تسخيرها له فلا حاجة إلى إضماره كما نقل عن
الكسائى ولا إلى تقدير مضاف أى تسبيح الطير كما نقل عنه فى رواية وقيل
عطفا على محل الجبال وفيه من التكلف لفظا ومعنى ما لا يخفى وقرىء بالرفع
عطفا على لفظها تشبيها للحركة البنائية العارضة بالحركة الإعرابية وقد جوز
انتصابه على أنه مفعول معه والأول هو الوجه وفى تنزيل الجبال والطير منزلة
العقلاء المطيعين لأمره تعالى المذعنين لحكمه المشعر بأنه ما من حيوان وجماد
وصامت وناطق إلا وهو منقاد لمشيئته غير ممتنع على إرادته من الفخامة المعربة
عن غاية عظمة شأنه تعالى وكمال كبرياء سلطانه ما لا يخفى على أولى الألباب .

﴿ وألنا له الحديد ﴾ أى جعلناه لينا فى نفسه كالشمع يصرفه فى يده كيف
يشاء من غير إحماء بنار ولا ضرب بمطرقة أو جعلناه بالنسبة إلى قوته التى
آتيناها إياه لينا كالشمع بالنسبة إلى سائر القوى البشرية ﴿ أن اعمل ﴾ أمرناه أن
اعمل على أن «أن» مصدرية حذف عنها الباء وفى حملها على المفسرة تكلف لا يخفى
﴿ سابغات ﴾ واسعات وقرىء صابغات وهى الدروع الواسعة الضافية وهو
عليه الصلاة والسلام أول من اتخذها وكانت قبل صفائح قالوا كان عليه الصلاة
والسلام حين ملك على بنى إسرائيل يخرج متنكرا فيسأل الناس ما تقولون
فى داود فيثنون عليه فقيض الله تعالى له ملكا فى صورة آدمى فسأله على عادته
فقال نعم الرجل لولا خصلة فيه فريع داود فسأله عنها فقال لولا أنه يطعم عياله
من بيت المال فعند ذلك سأل ربه أن يسبب له ما يستغنى به عن بيت المال فعلمه
تعالى صنعة الدروع وقيل كان يبيع الدرع بأربعة آلاف فينفق منها على نفسه

وعياله ويتصدق على الفقراء ﴿ وقدر فى السرد ﴾ السرد نسج الدروع أى اقتصد فى نسجها بحيث تتناسب حلقها وقيل قدر فى مساميرها فلا تعملها دقاقا ولا غلاظا ورد بأن دروعه عليه الصلاة والسلام لم تكن مسمرة كما ينبىء عنه إلانة الحديد وقيل معنى قدر فى السرد لا تصرف جميع أوقاتك إليه بل مقدار ما يحصل به القوت وأما الباقى فاصرفه إلى العبادة وهو الأنسب بقوله تعالى ﴿ واعملوا صالحا ﴾ عمم الخطاب حسب عموم التكليف له عليه الصلاة والسلام ولأهله ﴿ إنى بما تعملون بصير ﴾ تعليل للأمر أو لوجوب الامتثال به ﴿ ولسليمان الريح ﴾ أى وسخرنا له الريح وقرىء برفع الريح أى ولسليمان الريح مسخرة وقرىء الرياح ﴿ غدوها شهر ورواحها شهر ﴾ أى جريها بالغداة مسيرة شهر وجريها بالعشى كذلك والجملة إما مستأنفة أو حال من الريح وقرىء غدوتها وروحتها وعن الحسن رحمه الله كان يغدو أى من دمشق فيقيل باصطخر ثم يروح فيكون رواحه بكابل وقيل كان يتغذى بالرى ويتعشى بسمرقند ويحكى أن بعضهم رأى مكتوبا فى منزل بناحية دجلة كتبه بعض أصحاب سليمان عليه السلام نحن نزلناه وما بنيناه ومبنيا وجدناه غدونا من اصطخر فقلناه ونحن رائحون منه فبايتون بالشأم إن شاء الله تعالى .

﴿ وأسلنا له عين القطر ﴾ أى النحاس المذاب أساله من معدنه كما ألان الحديد لداود عليهما السلام فنبع منه نبوع الماء من الينبوع ولذلك سمى عينا وكان ذلك باليمن وقيل كان يسيل فى الشهر ثلاثة أيام وقوله تعالى ﴿ ومن الجن من يعمل بين يديه ﴾ إما جملة من مبتدإ وخبر أو من يعمل عطف على الريح ومن الجن حال متقدمة ﴿ بإذن ربه ﴾ بأمره تعالى كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿ ومن يزغ منهم عن أمرنا ﴾ أى ومن يعدل منهم عما أمرناه به من طاعة سليمان وقرىء يزغ على البناء للمفعول من أزاغه ﴿ نذقه من عذاب السعير ﴾ أى عذاب النار فى الآخرة روى عن السدى رحمه الله كان معه ملك بيده سوط من نار كل من استعصى عليه ضربه من حيث لا يراه الجنى ﴿ يعملون له ما يشاء ﴾ تفصيل لما ذكر من عملهم وقوله تعالى ﴿ من محاريب ﴾ الخ بيان لما يشاء

أى من قصور حصينة ومساكن شريفة سميت بذلك لأنها يذب عنها ويحارب عليها وقيل هى المساجد ﴿ وتماثيل ﴾ وصور الملائكة والأنبياء عليهم الصلاة والسلام على ما اعتادوه فإنها كانت تعمل حينئذ فى المساجد ليراها الناس ويعبدوا مثل عباداتهم وحرمة التصاوير شرع جديد وروى أنهم عملوا أسدين فى أسفل كرسيه ونسرين فوقه فإذا أراد أن يصعد بسط الأسدان ذراعيهما وإذا قعد أظله النسران بأجنحتهما ﴿ وجفان ﴾ جمع جفنة وهى الصحفة ﴿ كالجواب ﴾ كالحياض الكبار جمع جابية من الجباية لاجتماع الماء فيها وهى من الصفات الغالبة كالدابة وقرىء بإثبات الياء قيل كان يقعد على الجفنة ألف رجل .

﴿ وقدور راسيات ﴾ ثابتات على الأثافى لا تنزل عنها لعظمها ﴿ اعملوا آل داود شكرا ﴾ حكاية لما قيل لهم وشكرا نصب على أنه مفعول له أو مصدر لاعملوا لأن العمل للمنعم شكر له أو لفعله المحذوف أى اشكروا شكرا أو حال أى شاكرين أو مفعول به أى اعملوا شكرا ﴿ وقليل من عبادى الشكور ﴾ أى المتوفر على أداء الشكر بقلبه ولسانه وجوارحه أكثر أوقاته ومع ذلك لا يوفى حقه لأن التوفيق للشكر نعمة تستدعى شكرا آخر لا إلى نهاية ولذلك قيل الشكور من يرى عجزه عن الشكر وروى أنه عليه الصلاة والسلام جزأ ساعات الليل والنهار على أهله فلم تكن تأتى ساعة من الساعات إلا وإنسان من آل داود قائم يصلى ﴿ فلما قضينا عليه الموت ﴾ أى على سليمان عليه السلام ﴿ ما دلهم ﴾ أى الجن أو آله ﴿ على موته إلا دابة الأرض ﴾ أى الأرضة أضيفت إلى فعلها وقرىء بفتح الراء وهو تأثر الخشبة من فعلها يقال أرضت الأرضة الخشبة أرضا فأرضت أرضا مثل أكلت القوارح أسنانه أكلا فأكلت أكلا ﴿ تأكل منسأته ﴾ أى عصاه من نسأت البعير إذا طردته لأنها يطرد بها ما يطرد وقرىء منساته بألف ساكنة بدلا من الهمزة وبهمزة ساكنة وبإخراجها بين بين عند الوقف ومنساءته على مفعالة كميضاءة فى ميضأة ومن سأته من أى

طرف عصاه من سأة القوس وفيه لغتان كما فى قحة بالكسر والفتح وقرىء أكلت منساته .

﴿ فلما خر تبينت الجن ﴾ من تبينت الشيء إذا علمته بعد التباسه عليك أى علمت الجن علما بينا بعد التباس الأمر عليهم ﴿ أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين ﴾ أى أنهم لو كانوا يعلمون الغيب كما يزعمون لعلموا موته عليه الصلاة والسلام حينما وقع فلم يلبثوا بعده حولا فى تسخيره إلى أن خر أو من تبين الشيء إذا ظهر وتجلى أى ظهرت الجن وأن مع ما فى حيزها بدل اشتمال من الجن أى ظهر أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب الخ وقرىء تبينت الجن على البناء للمفعول على أن المتبين فى الحقيقة هو أن مع ما فى حيزها لأنه بدل وقرىء تبينت الإنس والضمير فى كانوا للجن فى قوله تعالى (ومن الجن من يعمل) وفى قراءة ابن مسعود رضى الله عنه تبينت الإنس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب روى أن داود عليه السلام أسس بنيان بيت المقدس فى موضع فسطاط موسى فتوفى قبل تمامه فوصى به إلى سليمان عليهما السلام فاستعمل فيه الجن والشياطين فباشروه حتى إذا حان أجله وعلم به سأل ربه أن يعمى عليهم موته حتى يفرغوا منه ولتبطل دعواهم علم الغيب فدعاهم فبنوا عليه صرحا من قوارير ليس له باب فقام يصلى متكئا على عصاه فقبض روحه وهو متكىء عليها فبقى كذلك وهم فيما أمروا به من الأعمال حتى أكلت الأرضة عصاه فخر ميتا وكانت الشياطين تجتمع حول محرابه أينما صلى عليه الصلاة والسلام فلم يكن ينظر إليه شيطان فى صلاته إلا احترق فمر به يوما شيطان فنظر فإذا سليمان عليه السلام قد خر ميتا ففتحوا عنه فاذا عصاه قد أكلتها الأرضة فأرادوا أن يعرفوا وقت موته فوضعوا الأرضة على العصا فأكلت منها فى يوم وليلة مقدارا فحسبوا على ذلك فوجدوه قد مات منذ سنة وكان عمره ثلاثا وخمسين سنة ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة وبقى فى ملكه أربعين سنة وابتدأ بناء بيت المقدس لاربع مضين من ملكه .

أحوال سبأ

﴿ لقد كان لسبأ ﴾ بيان لإخبار بعض الكافرين بنعم الله تعالى إثر بيان أحوال الشاكرين لها أى لأولاد سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان وقرىء بمنع الصرف على أنه اسم القبيلة وقرىء بقلب الهمزة ألفا ولعله إخراج لها بين بين ﴿ فى مسكنهم ﴾ وقرىء بكسر الكاف كالمسجد وقرىء بلفظ الجمع أى مواضع سكناهم وهى باليمن يقال لها مارب بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث ليال ﴿ آية ﴾ دالة بملاحظة أحوالها السابقة واللاحقة على وجود الصانع المختار القادر على كل ما يشاء من الأمور البديعة المجازى للمحسن والمسىء معاضدة للبرهان السابق كما فى قصتى داود وسليمان عليهما السلام ﴿ جنتان ﴾ بدل من آية أو خبر لمبتدأ محذوف أى هى جنتان وفيه معنى المدح ويؤيده قراءة النصب على المدح والمراد بهما جماعتان من البساتين ﴿ عن يمين وشمال ﴾ جماعة عن يمين بلدهم وجماعة عن شماله كل واحدة من تينك الجماعتين فى تقاربهما وتضامها كأنهما جنة واحدة أو بستانا كل رجل منهم عن يمين مسكنه وعن شماله ﴿ كلوا من رزق ربكم واشكروا له ﴾ حكاية لما قيل لهم على لسان نبيهم تكميلا للنعمة وتذكيرا لحقوقها أو لما نطق به لسان الحال أو بيان لكونهم أحقاء بأن يقال لهم ذلك ﴿ بلدة طيبة ورب غفور ﴾ استئناف مبين لما يوجب الشكر المأمور به أى بلدتكم بلدة طيبة وربكم الذى رزقكم ما فيها من الطيبات وطلب منكم الشكر رب غفور لفرطات من يشكره وقرىء الكل بالنصب على المدح قيل كان أطيب البلاد هواء وأخصبها وكانت المرأة تخرج وعلى رأسها المكتل فتعمل بيديها وتسير فيما بين الأشجار فيمتلىء المكتل مما يتساقط فيه من الثمار ولم يكن فيه من مؤذيات الهوام شىء ﴿ فأعرضوا ﴾ عن الشكر بعد إبانة الآيات الداعية لهم إليه قيل أرسل الله إليهم ثلاثة عشر نبيا فدعوهم إلى الله تعالى وذكروهم بنعمه وأنذروهم عقابه فكذبوهم .

﴿ فأرسلنا عليهم سيل العرم ﴾ أى سيل الأمر العرم أى الصعب من عرم الرجل فهو عارم وعرم إذا شرس خلقه وصعب أو المطر الشديد وقيل العرم

جمع عرمة وهى الحجارة المركومة وقيل هو السكر الذى يحبس الماء وقيل هو اسم للبناء الذى يجعل سدا وقيل هو البناء الرصين الذى بنته الملكة بلقيس بين الجبلين بالصخر والقار وحقنت به ماء العيون والأمطار وتركت فيه خروقا على ما يحتاجون إليه فى سقيهم وقيل العرم الجرذ الذى نقب عليهم ذلك السد وهو الفأر الأعمى الذى يقال له الخلد سلطه الله تعالى على سدهم فنقبه فغرق بلادهم وقيل[1] العرم اسم الوادى وقرىء العرم بسكون الراء قالوا كان ذلك فى الفترة التى كانت بين عيسى والنبى عليهما الصلاة والسلام ﴿ وبدلناهم بجنتيهم ﴾ أى أذهبنا جنتيهم وآتيناهم بدلهما ﴿ جنتين ذواتى أكل خمط ﴾ أى ثمر بشع فإن الخمط كل نبت أخذ طعما من مرارة حتى لا يمكن أكله وقيل هو الحامض والمر من كل شىء وقيل هو ثمرة شجرة يقال لها فسوة الضبع على صورة الخشخاش لا ينتفع بها وقيل هو الأراك أو كل شجر ذى شوك والتقدير أكل أكل خمط فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه وقرىء أكل خمط بالإضافة بتخفيف أكل ﴿ وأثل وشىء من سدر قليل ﴾ معطوفان على أكل لا على خمط فإن الأثل هو الطرفاء وقيل شجر يشبهه أعظم منه ولا ثمر له وقرىء وأثلا وشيئاً عطفا على جنتين قيل وصف السدر بالقلة لما أن جناه وهو النبق مما يطيب أكله ولذلك يغرس فى البساتين والصحيح أن السدر صنفان صنف يؤكل من ثمره وينتفع بورقه لغسل اليد وصنف له ثمرة عفصة لا تؤكل أصلا ولا ينتفع بورقه وهو الضال والمراد ههنا هو الثانى حتما وقال قتادة كان شجرهم خير الشجر فصيره الله تعالى من شر الشجر بأعمالهم وتسمية البدل جنتين للمشاكلة والتهكم .

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى مصدر قوله تعالى ﴿ جزيناهم ﴾ أو إلى ما ذكر من التبديل وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد رتبته فى الفظاعة ومحله على الأول النصب على أنه مصدر مؤكد للفعل المذكور وعلى الثانى النصب على أنه مفعول

---

(١) فى ١٠ : قالوا .

نان له أى ذلك الجزاء الفظيع جزيناهم لاجزاء آخر أو ذلك التبديل جزيناهم لا غيره ﴿ بما كفروا ﴾ بسبب كفرانهم النعمة حيث نزعناها منهم ووضعنا مكانها ضدها أو بسبب كفرهم بالرسل ﴿ وهل نجازى إلا الكفور ﴾ أى وما نجازى هذا الجزاء إلا المبالغ فى الكفران أو الكفر وقرىء يجازى على البناء للفاعل وهو الله عز وجل وهل يجازى على البناء للمفعول ورفع الكفور وهل يجزى على البناء للمفعول أيضاً وهذا بيان ما أوتوا من النعم الحاضرة فى مساكنهم وما فعلوا بها من الكفران وما فعل بهم من الجزاء وقوله تعالى ﴿ وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها ﴾ حكاية لما أوتوا من النعم البادية فى مسايرهم ومتاجرهم وما فعلوا بها من الكفران وما حاق بهم بسبب ذلك تكملة لقصتهم وبيانا لعاقبتهم وإنما لم يذكر الكل معا لما فى التثنية والتكرير من زيادة تنبيه وتذكير وهو عطف على كان لسبأ لا على ما بعده من الجمل الناطقة بأفعالهم أو بأجزيتها أى وجعلنا مع ما آتيناهم فى مساكنهم من فنون النعم بينهم أى بين بلادهم وبين القرى الشامية التى باركنا فيها للعالمين ﴿ قرى ظاهرة ﴾ متواصلة يرى بعضها من بعض لتقاربها فهى ظاهرة لأعين أهلها أو راكبة متن الطريق ظاهرة للسابلة غير بعيدة عن مسالكهم حتى تخفى عليهم ﴿ وقدرنا فيها السير ﴾ أى جعلناها فى نسبة بعضها إلى بعض على مقدار معين يليق بحال أبناء السبيل قيل كان الغادى من قرية يقيل فى أخرى والرائح منها يبيت فى أخرى إلى أن يبلغ[1] الشام كل ذلك كان تكميلا لما أوتوا من أنواع النعماء وتوفيرا لها فى الحضر والسفر ﴿ سيروا فيها ﴾ على إرادة القول أى وقلنا لهم سيروا فى تلك القرى ﴿ ليالى وأياما ﴾ أى متى شئتم من الليالى والأيام ﴿ آمنين ﴾ من كل ما تكرهونه لا يختلف الأمن فيها باختلاف الأوقات أو سيروا فيها آمنين وإن تطاولت مدة سفركم وامتدت ليالى وأياما كثيرة أو سيروا فيها ليالى أعماركم وأيامها لا تلقون فيها إلا الأمن لكن لا على الحقيقة بل على تنزيل

(١) فى ١٠ : يبلغوا .

تمكينهم من السير المذكور وتسوية مباديه وأسبابه على الوجه المذكور منزلة أمرهم بذلك .

﴿ فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا ﴾ وقرىء يا ربنا بطروا النعمة وسئموا أطيب العيش وملوا العافية فطلبوا الكد والتعب كما طلب بنو اسرائيل الثوم والبصل مكان المن والسلوى وقالوا لو كان جنى جناتنا أبعد لكان أجدر أن نشتهيه وسألوا أن يجعل الله تعالى بينهم وبين الشأم مفاوز وقفارا ليركبوا فيها الرواحل ويتزودوا الأزواد ويتطاولوا فيها على الفقراء فعجل الله تعالى لهم الإجابة بتخريب تلك القرى المتوسطة وجعلها بلقعا لا يسمع فيها داع ولا مجيب وقرىء بعد وربنا بعد بين أسفارنا وبعد بين أسفارنا على النداء وإسناد الفعل إلى بين ورفعه به كما يقال سير فرسخان وبوعد بين أسفارنا وقرىء ربنا باعد بين أسفارنا وبين سفرنا وبعد برفع ربنا على الابتداء والمعنى على خلاف الأول وهو استبعاد مسايرهم مع قصرها أودنوها وسهولة سلوكها لفرط تنعمهم وغاية ترفههم وعدم اعتدادهم بنعم الله تعالى كأنهم يتشاجون على الله تعالى ويتحازنون عليه ﴿ وظلموا أنفسهم ﴾ حيث عرضوها للسخط والعذاب حين بطروا النعمة أو غمطوها .

﴿ فجعلناهم أحاديث ﴾ أى جعلناهم بحيث يتحدث الناس بهم متعجبين من أحوالهم ومعتبرين بعاقبتهم ومآلهم ﴿ ومزقناهم كل ممزق ﴾ أى فرقناهم كل تفريق على أن الممزق مصدر أو كل مطرح ومكان تفريق على أنه اسم مكان وفى عبارة التمزيق الخاص بتفريق المتصل وخرقه من تهويل الأمر والدلالة على شدة التأثير والإيلام ما لا يخفى أى مزقناهم تمزيقا لا غاية وراءه بحيث يضرب به الأمثال فى كل فرقة ليس بعدها وصال حتى لحق غسان بالشأم وأنمار بيثرب وجذام بتهامة والأزد بعمان وأصل قصتهم على ما رواه الكلبى عن أبى صالح أن عمرو بن عامر من أولاد سبأ وبينهما اثنا عشر أبا وهو الذى يقال له مزيقيا ابن ماء السماء أخبرته طريفة الكاهنة بخراب سد مأرب وتفريق سيل العرم الجنتين وعن أبى زيد الأنصارى أن عمرا رأى جرزا يحفر السد فعلم أنه

لا بقاء له بعد وقيل إنه كان كاهنا وقد علمه بكهانته فباع أملاكه وسار بقومه وهم ألوف من بلد إلى بلد حتى انتهى إلى مكة المعظمة وأهلها جرهم وكانوا قهروا الناس وحازوا ولاية البيت على بنى إسمعيل عليه السلام وغيرهم فأرسل إليهم ثعلبة بن عمرو بن عامر يسألهم المقام معهم إلى أن يرجع إليه رواده الذين أرسلهم إلى أصقاع البلاد يطلبون له موضعا يسعه ومن معه من قومه فأبوا فاقتتلوا ثلاثة أيام فانهزمت جرهم ولم يفلت منهم إلا الشريد وأقام ثعلبة بمكة وما حولها فى قومه وعساكره حولا فأصابتهم الحمى فاضطروا إلى الخروج وقد رجع إليه رواده فافترقوا فرقتين فرقة توجهت نحو عمان وهم الأزد وكندة وحمير ومن يتلوهم وسار ثعلبة نحو الشأم فنزل الأوس والخزرج ابنا حارثة ابن ثعلبة بالمدينة وهم الأنصار ومضت غسان فنزلوا بالشأم وانخزعت خزاعة بمكة فأقام بها ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر وهو لحى فولى أمر مكة وحجابة البيت ثم جاءهم أولاد اسمعيل عليه السلام فسألوهم السكنى معهم وحولهم فأذنوا لهم فى ذلك وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن فروة بن مسيك الغطيفى سأل النبى عليه الصلاة والسلام [1] عن سبأ فقال عليه الصلاة والسلام هو رجل كان له عشرة أولاد ستة منهم سكنوا اليمن وهم مذحج وكندة والأزد والأشعريون وحمير وأنمار منهم بجيلة وخثعم وأربعة منهم سكنوا الشأم وهم لخم وجذام وعاملة وغسان لما هلكت أموالهم وخربت بلادهم تفرقوا أيدى سبأ شذر مذر فنزلت طوائف منهم بالحجاز فنهم خزاعة نزلوا بظاهر مكة ونزلت الأوس والخزرج بيثرب فكانوا أول من سكنها ثم نزل عندهم ثلاث قبائل من اليهود بنو قينقاع وبنو قريظة والنضير فخالفوا الأوس والخزرج وأقاموا عندهم ونزلت طوائف أخر منهم بالشأم وهم الذين تنصروا فيما بعد وهم غسان وعاملة ولخم وجذام وتنوخ وتغلب وغيرهم وسبأ تجمع هذه القبائل كلها والجمهور على أن جميع العرب قسمان قحطانية وعدنانية والقحطانية شعبان

---

(١) فى ١٠ : صلى الله عليه وسلم .

سبأ وحضرموت والعدنانية شعبان ربيعة ومضر وأما قضاعة فمختلف فيها فبعضهم ينسبونها إلى قحطان وبعضهم إلى عدنان والله تعالى أعلم .

﴿ إن فى ذلك ﴾ أى فيما ذكر من قصتهم ﴿ لآيات ﴾ عظيمة ﴿ لكل صبار شكور ﴾ أى شأنه الصبر عن الشهوات ودواعى الهوى وعلى مشاق الطاعات والشكر على النعم وتخصيص هؤلاء بذلك لأنهم المنتفعون بها ﴿ ولقد صدق عليهم إبليس ظنه ﴾ أى حقق عليهم ظنه أو وجده صادقا وقرىء بالتخفيف أى صدق فى ظنه أو صدق بظن ظنه ويجوز تعدية الفعل إليه بنفسه لأنه نوع من القول وقرىء بالتخفيف أى صدق فى ظنه أو صدق بظن ظنه ويجوز تعدية الفعل إليه بنفسه لأنه نوع من القول وقرىء بنصب إبليس ورفع الظن مع التشديد بمعنى وجده ظنه صادقا ومع التخفيف بمعنى قال له الصدق حين خيل له إغواءهم وبرفعهما والتخفيف على الإبدال وذلك إما ظنه بسبأ حين رأى انهما كهم فى الشهوات أو ببنى آدم حين شاهد آدم عليه السلام قد أصغى إلى وسوسته قال إن ذريته أضعف منه عزما وقيل ظن ذلك عند إخبار الله تعالى الملائكة أنه يجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء وقال لأضلنهم ولأغوينهم ﴿ فاتبعوه ﴾ أى أهل سبأ أو الناس ﴿ إلا فريقا من المؤمنين ﴾ إلا فريقاهم المؤمنون لم يتبعوه على أن من بيانية وتقليلهم بالإضافة إلى الكفار أو إلا فريقا من فرق المؤمنين لم يتبعوه وهم المخلصون ﴿ وما كان له عليهم من سلطان ﴾ أى تسلط واستيلاء بالوسوسة والاستغواء وقوله تعالى ﴿ إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك ﴾ استثناء مفرغ من أعم العلل ومن موصولة أى وما كان تسلطه عليهم إلا ليتعلق علمنا بمن يؤمن بالآخرة متميزا ممن هو فى شك منها تعلقا حاليا يترتب عليه الجزاء أو إلا ليتميز المؤمن من الشاك أو إلا ليؤمن من قدر إيمانه ويشك من قدر ضلاله والمراد من حصول العلم حصول متعلقه مبالغة ﴿ وربك على كل شيء حفيظ ﴾ أى محافظ عليه فإن فعيلا ومفاعلا صيغتان متآخيتان .

﴿ قل ﴾ أى للمشركين إظهاراً لبطلان ما هم عليه وتبكيتا لهم ﴿ ادعوا الذين زعمتم ﴾ أى زعمتموهم آلهة وهما مفعولا زعم ثم حذف الأول تخفيفاً

لطول الموصول بصلته والثانى لقيام صفته أعنى قوله تعالى ﴿ من دون الله ﴾ مقامه ولا سبيل إلى جعله مفعولا ثانيا لأنه لا يلتئم مع الضمير كلاما وكذا لا يملكون لأنهم لا يزعمونه والمعنى ادعوهم فيما يهمكم من جلب نفع أو دفع ضر لعلهم يستجيبون لكم إن صح دعواكم ثم أجاب عنهم إشعارا بتعين الجواب وأنه لا يقبل المكابرة فقال ﴿ لا يملكون مثقال ذرة ﴾ من خير وشر ونفع وضر ﴿ فى السموات ولا فى الأرض ﴾ أى فى أمر ما من الأمور وذكرهما للتعميم عرفا أو لأن آلهتهم بعضها سماوية كالملائكة والكواكب وبعضها أرضية كالأصنام أو لأن الأسباب القريبة للخير والشر سماوية وأرضية والجملة استئناف لبيان حالهم ﴿ وما لهم ﴾ أى لآلهتهم ﴿ وفيهما من شرك ﴾ أى شركة لا خلقا ولا ملكا ولا تصرفا ﴿ وماله ﴾ أى لله تعالى ﴿ منهم ﴾ من آلهتهم ﴿ من ظهير ﴾ يعينه فى تدبير أمرهما ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده ﴾ أى لا توجد رأسا كما فى قوله :

* ولا ترى الضب بها ينجحر *

لقوله تعالى (من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه) وإنما علق النفى بنفعها لا بوقوعها تصريحا بنفى ما هو غرضهم من وقوعها وقوله تعالى ﴿ إلا لمن أذن له ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال أى لا تقع الشفاعة فى حال من الأحوال إلا كائنة لمن أذن له فى الشفاعة من النبيين والملائكة ونحوهم من المستأهلين لمقام الشفاعة فتبين حرمان الكفرة منها بالكلية أما من جهة أصنامهم فلظهور انتفاء الإذن لها ضرورة استحالة الإذن فى الشفاعة لجماد لا يعقل ولا ينطق وأما من جهة من يعبدونه من الملائكة فلأن إذنهم مقصور على الشفاعة للمستحقين لها لقوله تعالى (لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا) ومن البين أن الشفاعة للكفرة بمعزل من الصواب أو لا تنفع الشفاعة من الشفعاء المستأهلين لها فى حال من الأحوال إلا كائنة لمن أذن له أى لأجله وفى شأنه من المستحقين للشفاعة وأما من عداهم من غير المستحقين لها فلا

تنفعهم أصلا وإن فرض وقوعها وصدورها عن الشفعاء إذ لم يؤذن لهم فى شفاعتهم بل فى شفاعة غيرهم فعلى هذا يثبت حرمانهم من شفاعة هؤلاء بعبارة النص ومن شفاعة الأصنام بدلالته إذ حيث حرموها من جهة القادرين على شفاعة بعض المحتاجين إليها فلأن يحرموها من جهة العجزة عنها أولى وقرىء أذن له مبنيا للمفعول .

﴿حتى إذا فزع عن قلوبهم﴾ أى قلوب الشفعاء والمشفوع لهم من المؤمنين وأما الكفرة فهم من موقف الاستشفاع بمعزل وعن التفزيع عن قلوبهم بألف منزل[1] والتفزيع إزالة الفزع ثم ترك ذكر الفزع وأسند الفعل إلى الجار والمجرور وحتى غاية لما ينبىء عنه ما قبلها من الإشعار بوقوع الإذن لمن أذن له فإنه مسبوق بالاستئذان المستدعى للترقب والانتظار للجواب كأنه سئل كيف يؤذن لهم فقيل يتربصون فى موقف الاستئذان والاستدعاء ويتوقفون على وجل وفزع مليا حتى إذا أزيل الفزع عن قلوبهم بعد اللتيا والتى وظهرت لهم تباشير الإجابة .

﴿ قالوا ﴾ أى المشفوع لهم إذ هم المحتاجون إلى الإذن والمهتمون بأمره ﴿ ماذا قال ربكم ﴾ أى فى شأن الإذن ﴿ قالوا ﴾ أى الشفعاء لأنهم المباشرون للاستئذان بالذات المتوسطون بينهم وبينه عز وجل بالشفاعة ﴿ الحق ﴾ أى قال ربنا القول الحق وهو الإذن فى الشفاعة للمستحقين لها وقرىء الحق مرفوعا أى ما قاله الحق ﴿ وهو العلى الكبير ﴾ من تمام كلام الشفعاء قالوه اعترافا بغاية عظمة جناب العزة عز وجل وقصور شأن كل من سواه أى هو المتفرد بالعلو والكبرياء ليس لأحد من أشراف الخلائق أن يتكلم إلا بإذنه وقرىء فزع مخففا بمعنى فزع وقرىء فزع على البناء للفاعل وهو الله وحده وقرىء فرغ بالراء المهملة والغين المعجمة أى نفى الوجل عنها وأفنى من فرغ الزاد إذا لم يبق منه شىء وهو من الإسناد المجازى لأن الفراغ وهو الخلو حال ظرفه عند نفاده

(١) فى ١ بألف معزل

فأسند إليه على عكس قولهم جرى النهر وعن الحسن تخفيف الراء وأصله فرغ الوجل عنها أى انتفى عنها وفنى ثم حذف الفاعل وأسند إلى الجار والمجرور وبه يعرف حال التفريغ وقرىء ارتفع عن قلوبهم بمعنى انكشف عنها ﴿ قل من يرزقكم من السموات والأرض ﴾ أمر عليه الصلاة والسلام بتبكيت المشركين بحملهم على الإقرار بأن آلهتهم لا يملكون مثقال ذرة فيهما وأن الرازق هو الله تعالى فإنهم لا ينكرونه كما ينطق به قوله تعالى (قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله) وحيث كانوا يتلعثمون أحيانا فى الجواب مخافة الإلزام قيل له عليه الصلاة والسلام ﴿ قل الله ﴾ إذ لا جواب سواه عندهم أيضاً .

﴿ وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين ﴾ أى وإن أحد الفريقين من الذين يوحدون المتوحد بالرزق والقدرة الذاتية ويخصونه بالعبادة والذين يشركون به فى العبادة الجماد النازل فى أدنى المراتب الإمكانية لعلى أحد الأمرين من الهدى والضلال المبين وهذا بعد ماسبق من التقرير البليغ الناطق بتعيين من هو على الهدى ومن هو فى الضلال أبلغ من التصريح بذلك لجريانه على سنن الإنصاف المسكت للخصم الألد وقرىء وأنا أو إياكم إما على هدى أو فى ضلال مبين واختلاف الجارين للإيذان بأن الهادى كمن استعلى منارا ينظر الأشياء ويتطلع عليها والضال كأنه منغمس فى ظلام لا يرى شيئاً أو محبوس فى مطمورة لا يستطيع الخروج منها ﴿ قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون ﴾ وهذا أبلغ فى الإنصاف وأبعد من الجدل والاعتساف حيث أسند فيه الإجرام وإن أريد به الزلة وترك الأولى إلى أنفسهم ومطلق العمل إلى المخاطبين مع أن أعمالهم أكبر الكبائر ﴿ قل يجمع بيننا ربنا ﴾ يوم القيامة عند الحشر والحساب ﴿ ثم يفتح بيننا بالحق ﴾ أى يحكم بيننا ويفصل بعد ظهور حال كل منا ومنكم بأن يدخل المحقين الجنة والمبطلين النار ﴿ وهو الفتاح ﴾ الحاكم الفيصل فى القضايا المتعلقة ﴿ العليم ﴾ بما ينبغى أن يقضى به ﴿ قل أرونى الذين ألحقتم ﴾ أى ألحقتموهم ﴿ به شركاء ﴾

أريد بأمرهم بإراءة الأصنام مع كونها بمرأى منه عليه الصلاة والسلام إظهار خطئهم العظيم وإطلاعهم على بطلان رأيهم أى أرونيها لأنظر بأى صفة ألحقتموها بالله الذى ليس كمثله شىء فى استحقاق العبادة وفيه مزيد تبكيت لهم بعد إلزام الحجة عليهم ﴿ كلا ﴾ ردع لهم عن المشاركة بعد إبطال المقايسة .

﴿ بل هو الله العزيز الحكيم ﴾ أى الموصوف بالغلبة القاهرة والحكمة الباهرة فأين شركاؤكم التى هى أخس الأشياء وأذلها من هذه الرتبة العالية والضمير إما لله عز وعلا أو للشأن كما فى قل هو الله أحد ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس ﴾ أى إلا إرسالة عامة [1] لهم فإنها إذا عمتهم فقد كفتهم أن يخرج منها أحد منهم أو إلا جامعا لهم فى الإبلاغ فهى حال من الكاف والتاء للمبالغة ولا سبيل إلى جعلها حالا من الناس لاستحالة تقدم الحال على صاحبها المجرور ﴿ بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ ذلك فيحملهم جهلهم على ما هم عليه من الغى والضلال ﴿ ويقولون ﴾ من فرط جهلهم وغاية غيهم ﴿ متى هذا الوعد ﴾ بطريق الاستهزاء يعنون به المبشر به والمنذر عنه أو الموعود بقوله تعالى (يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا) ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ مخاطبين لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين به ﴿ قل لكم ميعاد يوم ﴾ أى وعد يوم أو زمان وعد والإضافة للتبيين وقرىء ميعاد يوم منونين على البدل ويوما بإضمار أعنى للتعظيم ﴿ لا تستأخرون عنه ﴾ عند مفاجأته ﴿ ساعة ولا تستقدمون ﴾ صفة لميعاد وفى هذا الجواب من المبالغة فى التهديد ما لا يخفى حيث جعل الاستئخار فى الاستحالة كالاستقدام الممتنع عقلا وقد مر بيانه مراراً ويجوز أن يكون نفى الاستئخار والاستقدام غير مقيد بالمفاجأة فيكون وصف الميعاد بذلك لتحقيقه وتقريره ﴿ وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه ﴾ أى من الكتب القديمة الدالة على البعث وقيل إن كفار مكة سألوا أهل الكتاب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروهم أنهم يجدون نعته فى كتبهم فغضبوا فقالوا ذلك وقيل الذى

---

(١) فى ١٠ : إلا إرسالها عاما .

بين يديه القيامة ﴿ ولو ترى إذ الظالمون ﴾ المنكرون للبعث ﴿ موقوفون عند ربهم ﴾ أى فى موقف المحاسبة ﴿ يرجع بعضهم إلى بعض القول ﴾ أى يتحاورون ويتراجعون القول ﴿ يقول الذين استضعفوا ﴾ بدل من يرجع الخ أى يقول الاتباع ﴿ للذين استكبروا ﴾ فى الدنيا واستتبعوهم فى الغى والضلال ﴿ لولا أنتم ﴾ أى لولا إضلالكم وصدكم لنا عن الإيمان ﴿ لكنا مؤمنين ﴾ باتباع الرسول عليه الصلاة والسلام ﴿ قال الذين استكبروا للذين استضعفوا ﴾ استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا قال الذين استكبروا فى الجواب فقيل قالوا ﴿ أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين ﴾ منكرين لكونهم هم الصادين لهم عن الإيمان مثبتين أنهم هم الصادون بأنفسهم بسبب كونهم راسخين فى الإجرام ﴿ وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا ﴾ إضرابا على إضرابهم وإبطالا له ﴿ بل مكر الليل والنهار ﴾ أى بل صدنا مكركم بنا بالليل والنهار فحذف المضاف إليه وأقيم مقامه الظرف اتساعا أو جعل ليلهم ونهارهم ماكرين على الإسناد المجازى وقرىء بل مكر الليل والنهار بالتنوين ونصب الظرفين أى بل صدنا مكركم فى الليل والنهار على أن التنوين عوض عن المضاف إليه أو مكر عظيم على أنه للتفخيم وقرىء بل مكر الليل والنهار بالرفع والنصب أن تكرون الإغواء مكرا دائبا لاتفترون عنه فالرفع على الفاعلية أى بل صدنا مكركم الإغواء فى الليل والنهار على ما سبق من الاتساع فى الظرف بإقامته مقام المضاف إليه والنصب على المصدرية أى بل تكرون الإغواء مكر الليل والنهار أى مكرا دائما وقوله تعالى ﴿ إذ تأمروننا ﴾ ظرف للمكر أى بل مكركم الدائم وقت أمركم لنا ﴿ أن نكفر بالله ونجعل له أندادا ﴾ على أن المراد بمكرهم إما نفس أمرهم بما ذكر كما فى قوله تعالى (ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا) فإن الجعلين المذكورين نعمة من الله تعالى وأى نعمة وإما أمور أخر مقارنة لأمرهم داعية إلى الامتثال به من الترغيب والترهيب وغير ذلك ﴿ وأسروا الندامة لما رأوا العذاب ﴾ أى أضمر الفريقان الندامة على ما فعلا من الضلال والإضلال وأخفاها كل منهما عن الآخر مخافة التعيير أو أظهروها

فإنه من الأضداد وهو المناسب لحالهم ﴿وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا﴾ أى فى أعناقهم والإظهار فى موضع الإضمار للتنويه بذمهم والتنبيه على موجب أغلالهم ﴿هل يجزون إلا ما كانوا يعملون﴾ أى لا يجزون إلا جزاء ما كانوا يعملون أو إلا بما كانوا يعملونه على نزع الجار ﴿وما أرسلنا فى قرية﴾ من القرى ﴿من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون﴾ تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم مما منى به من قومه من التكذيب والكفر بما جاء به والمنافسة بكثرة الأموال والأولاد والمفاخرة بحظوظ الدنيا وزخارفها والتكبر بذلك على المؤمنين والاستهانة بهم من أجله وقولهم (أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا) بأنه لم يرسل قط إلى أهل قرية من نذير إلا قال مترفوهم مثل ما قال مترفوا أهل مكة فى حقه عليه الصلاة والسلام وكادوا به نحو ما كادوا به عليه الصلاة والسلام وقاسوا أمور الآخرة الموهومة والمفروضة عندهم على أمور الدنيا وزعموا أنهم لو لم يكرموا على الله تعالى لما رزقهم طيبات الدنيا ولولا أن المؤمنين هانوا عليه تعالى لما حرمهموها وعلى ذلك الرأى الركيك بنوا أحكامهم.

﴿وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين﴾ إما بناء على انتفاء العذاب الأخروى رأسا أو على اعتقاد أنه تعالى أكرمهم فى الدنيا فلا يهينهم فى الآخرة على تقدير وقوعها ﴿قل﴾ ردا عليهم وحسما لمادة طمعهم الفارغ وتحقيقا للحق الذى عليه يدور أمر التكوين ﴿إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء﴾ أن يبسطه له ﴿ويقدر﴾ على من يشاء أن يقدره عليه من غير أن يكون لأحد الفريقين داع إلى ما فعل به من البسط والقدر فربما يوسع على العاصى ويضيق على المطيع وربما يعكس الأمر وربما يوسع عليهما معا وقد يضيق عليهما وقد يوسع على شخص تارة ويضيق عليه أخرى يفعل كلا من ذلك حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم البالغة فلا يقاس على ذلك أمر الثواب والعذاب اللذين مناطهما الطاعة وعدمها وقرىء ويقدر بالتشديد ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ ذلك فيزعمون أن مدار البسط هو الشرف والكرامة ومدار القدر هو الهوان ولا يدرون أن الأول كثيرا ما يكون بطريق الاستدراج

والثانى بطريق الابتلاء ورفع الدرجات ﴿ وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى ﴾ كلام مستأنف من جهته عز وعلا خوطب به الناس بطريق التلوين والالتفات مبالغة فى تحقيق الحق وتقرير ما سبق أى وما جماعة أموالكم وأولادكم بالجماعة التى تقربكم عندنا قربة فإن الجمع المكسر عقلاؤه وغير عقلائه سواء فى حكم التأنيث أو بالخصلة التى تقربكم وقرىء بالذى أى بالشىء الذى .

﴿ إلا من آمن وعمل صالحا ﴾ استثناء من مفعول تقربكم أى وما الأموال والأولاد تقرب أحدا إلا المؤمن الصالح الذى أنفق أمواله فى سبيل الله تعالى وعلم أولاده الخير ورباهم على الصلاح ورشحهم للطاعة وقيل من أموالكم وأولادكم على حذف المضاف أى إلا أموال من الخ ﴿ فأولئك ﴾ إشارة إلى من والجمع باعتبار معناها كما أن الإفراد فى الفعلين باعتبار لفظها وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإيذان بعلو رتبتهم وبعد منزلتهم فى الفضل أى فأولئك المنعوتون بالإيمان والعمل الصالح ﴿ لهم جزاء الضعف ﴾ أى ثابت لهم ذلك على أن الجار والمجرور خبر لما بعده والجملة خبر لأولئك وفيه تأكيد لتكرر الإسناد أو يثبت لهم ذلك على أن الجار والمجرور خبر لأولئك ومابعده مرتفع على الفاعلية وإضافة الجزاء إلى الضعف من إضافة المصدر إلى المفعول أصله فأولئك لهم أن يجازوا الضعف ثم جزاء الضعف ثم جزاء الضعف ومعناه أن تضاعف لهم حسناتهم الواحدة عشراً فما فوقها وقرىء جزاء الضعف على فأولئك لهم الضعف جزاء وجزاء الضعف على أن يجازوا الضعف وجزاء الضعف بالرفع على أن الضعف بدل من جزاء ﴿ بما عملوا ﴾ من الصالحات ﴿ وهم فى الغرفات ﴾ أى غرفات الجنة ﴿ آمنون ﴾ من جميع المكاره وقرىء بفتح الراء وسكونها وقرىء فى الغرفة على إرادة الجنس ﴿ والذين يسعون فى آياتنا ﴾ بالرد والطعن فيها ﴿ معاجزين ﴾ سابقين لأنبيائنا أو زاعمين أنهم يفوتوننا ﴿ أولئك فى العذاب محضرون ﴾ لا يجديهم ما عولوا عليه نفعا .

﴿ قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ﴾ أى يوسعه عليه تارة

﴿ ويقدر له ﴾ أى يضيقه عليه تارة أخرى فلا تخشوا الفقر وأنفقوا فى سبيل الله وتعرضوا لنفحاته تعالى ﴿وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه﴾ عوضا إما عاجلا وإما آجلا ﴿ وهو خير الرازقين ﴾ فإن غيره واسطة فى إيصال رزقه لاحقيقة لرازقيته ﴿ويوم يحشرهم جميعا﴾ أى المستكبرين والمستضعفين وما كانوا يعبدون من دون الله ويوم ظرف لمضمر متأخر سيأتى تقديره أو مفعول لمضمر مقدم نحو اذكر ﴿ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون﴾ تقريعا للمشركين وتبكيتا لهم على نهج قوله تعالى (أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى) الخ وإقناطا لهم عما علقوا به أطماعهم الفارغة من شفاعتهم وتخصيص الملائكة لأنهم أشرف شركائهم والصالحون للخطاب منهم ولأن عبادتهم مبدأ الشرك فبظهور قصورهم عن رتبة المعبودية وتنزههم عن عبادتهم يظهر حال سائر شركائهم بطريق الأولوية وقرىء الفعلان بالنون ﴿قالوا﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية سؤال الملائكة حينئذ فقيل يقولون متنزهين عن ذلك ﴿ سبحانك أنت ولينا من دونهم ﴾ والعدول إلى صيغة الماضى للدلالة على التحقق أى أنت الذى نواليه من دونهم لا موالاة بيننا وبينهم كأنهم بينوا بذلك براءتهم من الرضا بعبادتهم ثم أضربوا عن ذلك ونفوا أنهم عبدوهم حقيقة بقولهم ﴿ بل كانوا يعبدون الجن ﴾ أى الشياطين حيث أطاعوهم فى عبادة غير الله سبحانه وتعالى وقيل كانوا يتمثلون لهم ويخيلون لهم أنهم الملائكة فيعبدونهم وقيل يدخلون أجواف الأصنام إذا عبدت فيعبدون بعبادتها ﴿ أكثرهم بهم مؤمنون ﴾ الضمير الأول للإنس أو للمشركين والأكثر بمعنى الكل والثانى للجن .

﴿فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا﴾ من جملة ما يقال للملائكة عند جوابهم بالتنزه والتبرؤ عما نسب إليهم الكفرة يخاطبون بذلك على رءوس الأشهاد إظهاراً لعجزهم وقصورهم عند عبدتهم وتنصيصا على ما يوجب خيبة رجائهم بالكلية والفاء ليست لترتيب ما بعدها من الحكم على جواب الملائكة فإنه محقق أجابوا بذلك أم لا بل لترتيب الإخبار به عليه ونسبة عدم النفع والضر إلى البعض المبهم للمبالغة فيما هو المقصود الذى هو بيان عدم نفع الملائكة

للعبدة بنظمه فى سلك عدم نفع العبدة لهم كأن نفع الملائكة لعبدتهم فى الاستحالة والانتفاء كنفع العبدة لهم والتعرض لعدم الضر مع أنه لا بحث عنه أصلا إما لتعميم العجز أو لحمل عدم النفع على تقدير العبادة وعدم الضر على تقدير تركها أو لأن المراد دفع الضر على حذف المضاف وتقييد هذا الحكم بذلك اليوم مع ثبوته على الاطلاق لانعقاد رجائهم على تحقق النفع يومئذ وقوله عز وجل ﴿ ونقول للذين ظلموا ﴾ عطف على نقول للملائكة لا على لا يملك كما قيل فإنه مما يقال يوم القيامة خطابا للملائكة مترتبا على جوابهم المحكى وهذا حكاية لرسول الله صلى الله عليه وسلم لما سيقال للعبدة يومئذ إثر حكاية ما سيقال للملائكة أى يوم نحشرهم جميعا ثم نقول للملائكة كذا وكذا ويقولون كذا وكذا ونقول للمشركين ﴿ ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون ﴾ يكون من الأهوال والأحوال ما لا يحيط به نطاق المقال وقوله تعالى :

﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ﴾ بيان لبعض آخر من كفرانهم أى إذا تتلى عليهم بلسان الرسول عليه الصلاة والسلام آياتنا الناطقة بحقية التوحيد وبطلان الشرك ﴿ قالوا ما هذا ﴾ يعنون رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم ﴾ فيستتبعكم بما يستدعيه من غير أن يكون هناك دين إلهى وإضافة الآباء إلى المخاطبين لا إلى أنفسهم لتحريك عرق[1] العصبية منهم مبالغة فى تقريرهم على الشرك وتنفيرهم عن التوحيد ﴿ وقالوا ما هذا ﴾ يعنون القرآن الكريم ﴿ إلا إفك ﴾ أى كلام مصروف عن وجهه لا مصداق له فى الواقع ﴿ مفترى ﴾ بإسناده إلى الله تعالى ﴿ وقال الذين كفروا للحق ﴾ أى لأمر النبوة أو الإسلام أو القرآن على أن العطف لاختلاف العنوان بأن يراد بالأول معناه وبالثانى نظامه المعجز ﴿ لما جاءهم ﴾ من غير تدبر ولا تأمل فيه ﴿ إن هذا إلا سحر مبين ﴾ ظاهر سحريته وفى تكرير الفعل والتصريح بذكر الكفرة وما فى اللامين من الإشارة إلى القائلين والمقول فيه وما فى لما من

---

(١) فى ١٠ : عروق العصبية .

المسارعة إلى البت بهذا القول الباطل إنكار عظيم له وتعجيب بليغ منه ﴿ وما آتيناهم من كتب يدرسونها ﴾ فيها دليل على صحة الإشراك كما فى قوله تعالى (أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون) وقوله تعالى (أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون) وقرىء يدرسونها ويدرسونها بتشديد الدال يفتعلون من الدرس .

﴿ وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير ﴾ يدعوهم إليه وينذرهم بالعقاب إن لم يشركوا وقد بان من قبل أن لاوجه له بوجه من الوجوه فمن أين ذهبوا هذا المذهب الزائغ وهـــذا غاية تجهيل لهم وتسفيه لرأيهم ثم هددهم بقوله تعالى ﴿ وكذب الذين من قبلهم ﴾ من الأمم المتقدمة والقرون الخالية كما كذبوا . ﴿ وما بلغوا معشار ما آتيناهم ﴾ أى ما بلغ هؤلاء عشر ما آتينا أولئك من القوة وطول العمر وكثرة المال أو ما بلغ أولئك عشر ما آتينا هؤلاء من البينات والهدى ﴿ فكذبوا رسلى ﴾ عطف على كذب الذين الخ بطريق التفصيل والتفسير كقوله تعالى (كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا) الخ ﴿ فكيف كان نكير ﴾ أى إنكارى لهم بالتدمير فليحذر هؤلاء من مثل ذلك ﴿ قل إنما أعظكم بواحدة ﴾ أى ما أرشدكم وأنصح لكم إلا بخصلة واحدة هى ما دل عليه قوله تعالى : ﴿ أن تقوموا لله ﴾ على أنه بدل منها أو بيان لها أو خبر مبتدأ محذوف أى هى أن تقوموا من مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم أو تنتصبوا للأمر خالصا لوجه الله تعالى معرضا عن المماراة والتقليد ﴿ مثنى وفرادى ﴾ أى متفرقين اثنين اثنين وواحدا واحدا فإن الازدحام يشوش الأفهام ويخلط الأفكار بالأوهام وفى تقديم مثنى إيذان بأنه أوثق وأقرب إلى الاطمئنان ﴿ ثم تتفكروا ﴾ فى أمره عليه الصلاة والسلام وما جاء به لتعلموا حقيقته وحقيته وقوله تعالى : ﴿ ما بصاحبكم من جنة ﴾ استئناف مسوق من جهته تعالى للتنبيه على طريقة النظر والتأمل بأن مثل هذا الأمر العظيم الذى تحته ملك الدنيا والآخرة لا يتصدى لادعائه إلا مجنون لايبالى بافتضاحه عنده مطالبته

بالبرهان وظهور عجزه أو مؤيد من عند الله مرشح للنبوة واثق بحجته وبرهانه وإذ قد علمتم أنه عليه الصلاة والسلام أرجح العالمين عقلا وأصدقهم قولا وأنزههم نفسا وأفضلهم علما وأحسنهم عملا وأجمعهم للكمالات البشرية وجب أن تصدقوه فى دعواه فكيف وقد انضم إلى ذلك معجزات تخر لها صم الجبال ويجوز أن يتعلق بما قبله على معنى ثم تتفكروا فتعلموا ما بصاحبكم من جنة وقد جوز أن تكون ما استفهامية على معنى ثم تتفكروا أى شىء به من آثار الجنون .

﴿ إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد ﴾ هو عذاب الآخرة فإنه عليه الصلاة والسلام مبعوث فى نسم الساعة ﴿ قل ما سألتكم من أجر ﴾ أى أى شىء سألتكم من أجر على الرسالة[1] ﴿ فهو لكم ﴾ والمراد نفى السؤال رأسا كقول من قال لمن لم يعطه شيئا إن أعطيتنى شيئا فخذه وقيل ما موصولة أريد بها ما سألهم بقوله تعالى (ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا) وقوله تعالى (لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى) واتخاذ السبيل إليه تعالى منفعتهم الكبرى وقرباه عليه الصلاة والسلام قرباهم ﴿ إن أجرى إلا على الله وهو على كل شىء شهيد ﴾ مطلع يعلم صدقى وخلوص نيتى وقرىء إن أجرى بسكون الياء ﴿ قل إن ربى يقذف بالحق ﴾ أى يلقيه وينزله على من يجتبيه من عباده أو يرمى به الباطل فيدمغه أو يرمى به فى أقطار الآفاق فيكون وعدا بإظهار الإسلام وإعلاء كلمة الحق ﴿ علام الغيوب ﴾ صفة محمولة على محل إن واسمها أو بدل من المستكن فى يقذف أو خبر ثان لأن أو خبر مبتدأ محذوف وقرىء بالنصب صفة لربى أومقدرا بأعنى وقرىء بكسر الغين وبالفتح كصبور مبالغة غائب ﴿ قل جاء الحق ﴾ أى الإسلام والتوحيد ﴿ وما يبدىء الباطل وما يعيد ﴾ أى زهق الشرك بحيث لم يبق أثره أصلا مأخوذ من هلاك الحى فإنه إذا هلك لم يبق له إبداء ولا إعادة فجعل مثلا فى الهلاك بالمرة ومنه قول عبيد :

---

(١) فى ١٠ : على الهداية .

أقفر من أهله عبيـــد فليس يبدى ولا يعيد

وقيل الباطل إبليس أو الصنم والمعنى لا ينشىء خلقا ولا يعيد أولا يبدىء خيرا لأهله ولا يعيد وقيل ما استفهامية منصوبة بما بعدها ﴿ قل إن ضللت ﴾ عن الطريق الحق ﴿ فإنما أضل على نفسى ﴾ فإن وبال ضلالى عليها لأنه بسببها إذ هى الجاهلة بالذات والأمارة بالسوء وبهذا الاعتبار قوبل الشرطية بقوله تعالى ﴿ وإن اهتديت فبما يوحى إلى ربى ﴾ لأن الاهتداء بهدايته وتوفيقه وقرىء ربى بفتح الياء ﴿ إنه سميع قريب ﴾ يعلم قول كل من المهتدى والضال وفعله وإن بالغ فى إخفائهما .

﴿ ولو ترى إذ فزعوا ﴾ عند الموت أو البعث أو يوم بدر وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن ثمانين ألفا يغزون الكعبة ليخربوها فإذا دخلوا البيداء خسف بهم وجواب لو محذوف أى لرأيت أمرا هائلا ﴿ فلا فوت ﴾ فلا يفوتون الله عز وجل بهرب أو تحصن ﴿ وأخذوا من مكان قريب ﴾ من ظهر الأرض أو من الموقف إلى النار أو من صحراء بدر إلى قليبها أو من تحت أقدامهم إذا خسف بهم والجملة معطوفة على فزعوا وقيل على لافوت على معنى إذ فزعوا فلم يفوتوا وأخذوا ويؤيده أنه قرىء وأخذ بالعطف على محله أى فلا فوت هنا وهناك أخذ ﴿ وقالوا آمنا به ﴾ أى بمحمد عليه الصلاة والسلام وقد مر ذكره فى قوله تعالى ما بصاحبكم ﴿ وأنى لهم التناوش ﴾ التناوش التناول السهل أى ومن أين لهم أن يتناولوا الإيمان تناولا سهلا ﴿ من مكان بعيد ﴾ فإنه فى حيز التكليف وهم منه بمعزل بعيد وهو تمثيل حالهم فى الاستخلاص بالإيمان بعد ما فات عنهم وبعد بحال من يريد أن يتناول الشىء من غلوة تناوله من ذراع فى الاستحالة وقرىء بالهمز على قلب الواو لضمها وهو من نأشت الشىء إذا طلبته وعن أبى عمرو التناؤش بالهمز التناول من من بعد من قولهم نأشت إذا أبطأت وتأخرت ومنه قول من قال :

تمنى نئيشا أن يكون أطاعنى وقدحدثت بعد الأمور أمور

﴿ وقد كفروا به ﴾ أى بمحمد صلى الله عليه وسلم أو بالعذاب الشديد

الذى أنذرهم إياه ﴿ من قبل ﴾ أى من قبل ذلك فى أوان التكليف ﴿ ويقذفون بالغيب ﴾ ويرجمون بالظن ويتكلمون بما لم يظهر لهم فى حق الرسول عليه الصلاة والسلام من المطاعن أو فى العذاب المذكور من بت القول بنفيه ﴿ من مكان بعيد ﴾ من جهة بعيدة من حاله عليه الصلاة والسلام حيث ينسبونه صلى الله عليه وسلم إلى الشعر والسحر والكذب وأن أبعد شىء مما جاء به الشعر والسحر وأبعد شىء من عادته المعروفة فيما بين الدانى والقاصى الكذب ولعله تمثيل لحالهم فى ذلك بحال من يرمى شيئا لا يراه من مكان بعيد لا مجال للوهم فى لحوقه وقرىء ويقذفون على أن الشيطان يلقى إليهم ويلقنهم ذلك وهو معطوف على قد كفروا به على حكاية الحال الماضية أو على قالوا فيكون تمثيلا لحالهم بحال القاذف فى تحصيل ماضيعوه من الإيمان فى الدنيا ﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون ﴾ مع نفع الإيمان والنجاة من النار وقرىء بإشمام الضم للحاء ﴿ كما فعل بأشياعهم من قبل ﴾ أى بأشباههم من كفرة الأمم الدارجة ﴿ أنهم كانوا فى شك مريب ﴾ أى موقع فى الريبة أو ذى ريبة والأول منقول ممن يصح أن يكون مريبا من الأعيان إلى المعنى والثانى من صاحب الشك إلى الشك كما يقال شعر شاعر والله أعلم. عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قرأ سورة سبأ لم يبق رسول ولا نبى إلا كان له يوم القيامة رفيقا ومصافحا»

* * *

سورة الملائكة

مكية ، وهى خمس وأربعون آية

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ الحمد لله فاطر السموات والأرض ﴾ مبدعهما من غير مثال يحتذيه ولا قانون ينتحيه من الفطر وهو الشق وقيل الشق طولا كأنه شق العدم بإخراجهما منه وإضافته محضة لأنه بمعنى الماضى فهو نعت للاسم الجليل ومن جعلها غير محضة جعله بدلا منه وهو قليل فى المشتق ﴿ جاعل الملائكة ﴾ الكلام فى إضافته وكونه نعتا أو بدلا كما قبله وقوله تعالى ﴿ رسلا ﴾ منصوب به على الوجه الثانى من الإضافة بالاتفاق وأما على الوجه الأول فكذلك عند الكسائى وأما عند البصريين فبمضمر يدل هو عليه لأن اسم الفاعل إذا كان بمعنى الماضى لا يعمل عندهم إلا معرفا باللام وقال أبو سعيد السيرافى اسم الفاعل المتعدى إلى اثنين يعمل فى الثانى لإن بإضافته إلى الأول تعذرت إضافته إلى الثانى فتعين نصبه له وعلل بعضهم ذلك بأنه بالإضافة أشبه المعرف باللام فعمل عمله وقرىء جاعل بالرفع على المدح وقرىء (الذى فطر السموات والأرض وجعل الملائكة) أى جاعلهم وسائط بينه تعالى وبين أنبيائه والصالحين من عباده يبلغون إليهم رسالاته بالوحى والإلهام والرؤيا الصادقة أو بينه تعالى وبين خلقه أيضا حيث يوصلون إليهم آثار قدرته وصنعه هذا على تقدير كون الجعل تصييريا أما على تقدير كونه إبداعيا فرسلا نصب على الحالية وقرىء رسلا بسكون السين ﴿ أولى أجنحة ﴾ صفة لرسلا وأولو اسم جمع لذو كما أن أولاء اسم جمع لذا ونظيرهما فى الأسماء المتمكنة المخاض والخلفة وقوله تعالى :

﴿ مثنى وثلاث ورباع ﴾ صفات لأجنحة أى ذوى أجنحة متعددة متفاوتة

فى العدد حسب تفاوت مالهم من المراتب ينزلون بها ويعرجون أو يسرعون بها والمعنى أن من الملائكة خلقا لكل واحد منهم جناحان وخلقا لكل واحد منهم ثلاثة وخلقا آخر لكل منهم أربعة أجنحة ويروى أن صنفا من الملائكة لهم ستة أجنحة بجناحين منها يلفون أجسادهم وبآخرين منها يطيرون فيما أمروا به من جهته تعالى وجناحان منها مرخيان على وجوههم حياء من الله عز وجل وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى جبريل عليه السلام ليلة المعراج وله ستمائة جناح وروى أنه سأله عليهما السلام أن يتراآى له فى صورته فقال إنك لن تطيق ذلك قال إنى أحب أن تفعل فخرج عليه الصلاة والسلام فى ليلة مقمرة فأتاه جبريل عليهما السلام فى صورته فغشى عليه عليه الصلاة والسلام ثم أفاق وجبريل مسنده وإحدى يديه على صدره والأخرى بين كتفيه فقال سبحان الله ما كنت أرى أن شيئاً من الخلق هكذا فقال جبريل عليه السلام فكيف لو رأيت إسرافيل له اثنا عشر جناحا جناح منها بالمشرق وجناح منها بالمغرب وإن العرش على كاهله وإنه ليتضاءل الأحايين لعظمة الله عز وجل حتى يعود مثل الوصع وهو العصفور الصغير .

﴿ يزيد فى الخلق ما يشاء ﴾ استئناف مقرر لما قبله من تفاوت أحوال الملائكة فى عدد الأجنحة ومؤذن بأن ذلك من أحكام مشيئته تعالى لا لأمر راجع إلى ذواتهم ببيان حكم كلى ناطق بأنه تعالى يزيد فى أى خلق كان كل ما يشاء أن يزيده بموجب مشيئته ومقتضى حكمته من الأمور التى لا يحيط بها الوصف وما روى النبى عليه الصلاة والسلام من تخصيص بعض المعانى بالذكر من الوجه الحسن والصوت الحسن والشعر الحسن فبيان لبعض المواد المعهودة بطريق التمثيل لا بطريق الحصر فيها وقوله تعالى ﴿ إن الله على كل شىء قدير ﴾ تعليل بطريق التحقيق للحكم المذكور فإن شمول قدرته تعالى لجميع الأشياء مما يوجب قدرته تعالى على أن يزيد كل ما يشاؤه إيجابا بينا ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة ﴾ عبر عن إرسالها بالفتح إيذانا بأنها أنفس الخزائن التى يتنافس فيها المتنافسون

وأعزها منالا وتنكيرها للإشاعة والإبهام أى أى شىء يفتح الله من خزائن رحمته أية رحمة كانت من نعمة وصحة وأمن وعلم وحكمة إلى غير ذلك مالايحاط به ﴿ فلا ممسك لها ﴾ أى لا أحد يقدر على إمساكها ﴿ وما يمسك ﴾ أى أى شىء يمسك ﴿ فلا مرسل له ﴾ أى لا أحد يقدر على إرساله واختلاف الضميرين لما أن مرجع الأول مفسر بالرحمة ومرجع الثانى مطلق يتناولها وغيرها كائنا ما كان وفيه إشعار بأن رحمته سبقت غضبه ﴿ من بعده ﴾ أى من بعد إمساكه ﴿ وهو العزيز ﴾ الغالب على كل ما يشاء من الأمور التى من جملتها الفتح والإمساك ﴿ الحكيم ﴾ الذى يفعل كل ما يفعل حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة والجملة تذييل مقرر لما قبلها ومعرب عن كون كل من الفتح والإمساك بموجب الحكمة التى عليها يدور أمر التكوين وبعد ما بين سبحانه أنه الموجد للملك والملكوت والمتصرف فيهما بالقبض والبسط من غير أن يكون لأحد فى ذلك دخل ما بوجه من الوجوه أمر الناس قاطبة أو أهل مكة خاصة بشكر نعمه فقال :

تذكير بالنعم

﴿ يأيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم ﴾ أى إنعامه عليكم إن جعلت النعمة مصدرا أو كائنة عليكم إن جعلت اسما أى راعوها واحفظوها بمعرفة حقها والاعتراف بها وتخصيص العبادة والطاعة بموليها ولما كانت نعم الله تعالى مع تشعب فنونها منحصرة فى نعمة الإيجاد ونعمة الإبقاء نفى أن يكون فى الوجود شىء غيره تعالى يصدر عنه إحدى النعمتين بطريق الاستفهام الإنكارى المنادى باستحالة أن يجاب عنه بنعم فقال ﴿ هل من خالق غير الله ﴾ أى هل خالق مغاير له تعالى موجود على أن خالق مبتدأ محذوف الخبر زيدت عليه كلمة من لتأكيد العموم وغيرالله نعت له باعتبار محله كما أنه نعت له فى قراءة الجر باعتبار لفظه وقرىء بالنصب على الاستثناء وقوله تعالى ﴿ يرزقكم من السماء والأرض ﴾ أى بالمطر والنبات كلام مبتدأ على التقادير لامحل له من الإعراب

داخل فى حيز النفى و الإنكار ولا مساغ لما قيل من أنه صفة أخرى لخالق مرفوعة المحل أو مجرورته لأن معناه نفى وجود خالق موصوف بوصفى المغايرة والرازقية معا من غير تعرض لنفى وجود ما اتصف بالمغايرة فقط ولا لما قيل من أنه الخبر للمبتدأ ولا لما قيل من أنه مفسر لمضمر ارتفع به قوله تعالى من خالق على الفاعلية أى هل يرزقكم من خالق الخ لما أن معناهما نفى رازقية خالق مغاير له تعالى من غير تعرض لنفى وجوده رأسا مع أنه المراد حتما ألا يرى إلى قوله تعالى ﴿ لا إله إلا هو ﴾ فإنه استئناف مسوق لتقرير النفى المستفاد منه قصدا وجار مجرى الجواب عما يوهمه الاستفهام صورة فحيث كان هذا ناطقا بنفى الوجود تعين أن يكون ذلك أيضاً كذلك قطعاً والفاء فى قوله تعالى ﴿ فأنى تؤفكون ﴾ لترتيب إنكار عدولهم عن التوحيد إلى الإشراك على ما قبلها كأنه قيل وإذا تبين تفرده تعالى بالألوهية والخالقية والرازقية فمن أى وجه تصرفون عن التوحيد إلى الشرك وقوله تعالى :

﴿ وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين خطابى الناس مسارعة إلى تسليته عليه الصلاة والسلام بعموم البلية أولا والإشارة إلى الوعد والوعيد ثانيا أى وإن استمروا على أن يكذبوك فيما بلغت إليهم من الحق المبين بعد ما أقمت عليهم الحجة وألقمتهم الحجر فتأس بأولئك الرسل فى المصابرة على ما أصابهم من قبل قومهم فوضع موضعه ما ذكر اكتفاء بذكر السبب عن ذكر المسبب وتنكير الرسل للتفخيم الموجب لمزيد التسلية والتوجه إلى المصابرة أى رسل أولو شأن خطير وذوو عدد كثير ﴿ وإلى الله ترجع الأمور ﴾ لا إلى غيره فيجازى كلا منك ومنهم بما أنتم عليه من الأحوال التى من جملتها صبرك وتكذيبهم وفى الاقتصار على ذكر اختصاص المرجع بالله تعالى مع إبهام الجزاء ثوابا وعقابا من المبالغة فى الوعد والوعيد ما لا يخفى وقرىء ترجع بفتح التاء من الرجوع والأول أدخل فى التهويل ﴿ يأيها الناس ﴾ رجوع إلى خطابهم وتكرير النداء لتأكيد العظة والتذكير ﴿ إن وعد الله ﴾ المشار إليه برجع الأمور إليه تعالى

من البعث والجزاء ﴿ حق ﴾ ثابت لا محالة من غير خلف ﴿ فلا تغرنكم الحيوة الدنيا ﴾ بأن يذهلكم التمتع بمتاعها ويلهيكم التلهى بزخارفها عن تدارك ما يهمكم يوم حلول الميعاد والمراد نهيهم عن الاغترار بها وإن توجه النهى صورة إليها كما فى قوله تعالى (لا يجرمنكم شقاقى) ﴿ ولا يغرنكم بالله ﴾ وعفوه وكرمه تعالى ﴿ الغرور ﴾ أى المبالغ فى الغرور وهو الشيطان بأن يمنيكم المغفرة مع الإصرار على المعاصى قائلا اعملوا ما شئتم إن الله غفور يغفر الذنوب جميعاً فإن ذلك وإن أمكن لكن تعاطى الذنوب بهذا التوقع من قبيل تناول السم تعويلا على دفع الطبيعة وتكرير فعل النهى للمبالغة فيه ولاختلاف الغرورين فى الكيفية وقرىء الغرور بالضم على أنه مصدر أو جمع غار كقعود جمع قاعد .

﴿ إن الشيطان لكم عدو ﴾ عداوة قديمة لا تكاد تزول وتقديم لكم للاهتمام به ﴿ فاتخذوه عدوا ﴾ بمخالفتكم له فى عقائدكم وأفعالكم وكونكم على حذر منه فى مجامع أحوالكم وقوله تعالى ﴿ إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ تقرير لعداوته وتحذير من طاعته بالتنبيه على أن غرضه فى دعوة شيعته إلى اتباع الهوى والركون إلى ملاذ الدنيا ليس تحصيل مطالبهم ومنافعهم الدنيوية كما هو مقصد المتحابين فى الدنيا عند سعى بعضهم فى حاجة بعض بل هو توريطهم وإلقاؤهم فى العذاب المخلد من حيث لا يحتسبون ﴿ الذين كفروا لهم ﴾ بسبب كفرهم وإجابتهم لدعوة الشيطان واتباعهم لخطواته ﴿ عذاب شديد ﴾ لا يقادر قدره مديد لا يبلغ مداه ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم ﴾ بسبب ما ذكر من الإيمان والعمل الصالح الذى من جملته عداوة الشيطان ﴿ مغفرة ﴾ عظيمة ﴿ وأجر كبير ﴾ لا غاية لهما ﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا ﴾ إما تقرير لما سبق من التباين البين بين عاقبتى الفريقين ببيان تباين حاليهما المؤديين إلى تينك العاقبتين والفاء لإنكار ترتيب ما بعدها على ما قبلها أى أبعد كون حاليهما كما ذكر يكون من زين له الكفر من جهة الشيطان فانهمك فيه كمن استقبحه واجتنبه واختار الإيمان والعمل الصالح حتى لا تكون

عاقبتهما كما ذكر فحذف ما حذف لدلالة ما سبق عليه وقوله تعالى ﴿ فإن الله يضل ﴾ الخ تقرير له وتحقيق للحق ببيان أن الكل بمشيئته تعالى أى فإنه تعالى يضل ﴿ من يشاء ﴾ أن يضله لاستحسانه واستحبابه الضلال وصرف اختياره إليه فيرده أسفل سافلين ﴿ ويهدى من يشاء ﴾ أن يهديه بصرف اختياره إلى الهدى فيرفعه إلى أعلى عليين وإما تمهيد لما يعقبه من نهيه عليه الصلاة والسلام عن التحسر والتحزن عليهم لعدم إسلامهم ببيان أنهم ليسوا بأهل لذلك بل لأن يضرب عنهم صفحا ولا يبالى بهم قطعاً أى أبعد كون حالهم كما ذكر تتحسر عليهم فحذف لما دل عليه قوله تعالى ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ دلالة بينة وإما تمهيد لصرفه عليه الصلاة والسلام عما كان عليه من الحرص الشديد على إسلامهم والمبالغة فى دعوتهم إليه ببيان استحالة تحويلهم عن الكفر لكونه فى غاية الحسن عندهم أى أبعد ماذكر من زين له الكفر من قبل الشيطان فرآه حسنا فانهمك فيه يقبل الهداية حتى تطمع فى إسلامه وتتعب نفسك فى دعوته فحذف ما حذف لدلالة ما مر من قوله تعالى فإن الله يضل من يشاء الخ على أنه من شاء الله تعالى أن يضله فمن يهدى من أضل الله وما لهم من ناصرين وقرىء فلا تذهب نفسك وقوله تعالى حسرات إما مفعول له أى فلا تهلك نفسك للحسرات والجمع للدلالة على تضاعف اغتمامه عليه الصلاة والسلام على أحوالهم أو على كثرة قبائح أعمالهم الموجبة للتأسف والتحسر وعليهم صلة تذهب كما يقال هلك عليه حبا ومات عليه حزنا أو هو بيان للمتحسر عليه. ولا يجوز أن يتعلق بحسرات لأن المصدر لا تتقدم عليه صلته وإما حال كان كلها صارت حسرات وقوله تعالى :

﴿ إن الله عليم بما يصنعون ﴾ أى من القبائح تعليل لما قبله على الوجوه الثلاثة مع ما فيه من الوعيد . عن ابن عباس رضى الله عنهما أنها نزلت فى أبى جهل ومشركى مكة ﴿ والله الذى أرسل الرياح ﴾ مبتدأ وخبر وقرىء الريح وصيغة المضارع فى قوله تعالى ﴿ فتثير سحابا ﴾ لحكاية الحال الماضية استحضارا لتلك الصورة البديعة الدالة على كمال القدرة والحكمة ولأن المراد بيان أحداثها

لتلك الخاصية ولذلك أسند اليها أو للدلالة على استمرار الإثارة ﴿ فسقناه إلى بلد ميت ﴾ وقرىء بالتخفيف ﴿ فأحيينا به الأرض ﴾ أى بالمطر النازل منه المدلول عليه بالسحاب فإن بينهما تلازما فى الذهن كما فى الخارج أو بالسحاب فإنه سبب السبب ﴿ بعد موتها ﴾ أى يبسها وإيراد الفعلين على صيغة الماضى للدلالة على التحقيق وإسنادها إلى نون العظمة المنبىء عن اختصاصهما به تعالى لما فيهما من مزيد الصنع ولتكميل المماثلة بين إحياء الأرض وبين البعث الذى شبه به بقوله تعالى ﴿ كذلك النشور ﴾ فى كمال الاختصاص بالقدرة الربانية والكاف فى حيز الرفع على الخبرية أى مثل ذلك الإحياء الذى تشاهدونه إحياء الأموات فى صحة المقدورية وسهولة التأتى من غير تفاوت بينهما أصلا سوى الألف فى الأول دون الثانى وقيل فى كيفية الإحياء يرسل الله تعالى من تحت العرش ماء فينبت منه أجساد الخلق ﴿ من كان يريد العزة ﴾ هم المشركون الذين كانوا يتعززون بعبادة الأصنام كقوله تعالى (واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا) والذين كانوا يتعززون بهم من الذين آمنوا بألسنتهم كما فى قوله تعالى (الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة) والجمع بين كان ويريد للدلالة على دوام الإرادة واستمرارها .

﴿ فلله العزة جميعا ﴾ أى له تعالى وحده لا لغيره عزة الدنيا وعزة الآخرة أى فليطلبها منه لا من غيره فاستغنى عن ذكره بذكر دليله إيذانا بأن اختصاص العزة تعالى موجب لتخصيص طلبها به تعالى وقوله تعالى ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ بيان لما يطلب به العزة وهو التوحيد والعمل الصالح وصعودهما اليه مجاز عن قبوله تعالى إياهما أو صعود الكتبة بصحيفتهما وتقديم الجار والمجرور عبارة عن كمال الاعتداد به كقوله تعالى (وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات) أى إليه يصل الكلم الطيب الذى به يطلب العزة لا إلى الملائكة الموكلين بأعمال العباد فقط وهو يعز صاحبه ويعطى طلبته بالذات والمستكن فى يرفعه للكلم فان مدار قبول العمل هو التوحيد ويؤيده القراءة بنصب العمل أو للعمل فإنه يحقق الإيمان ويقويه ولا ينال الدرجات

العالية إلا به وقرىء يصعد من الإصعاد على البناء للمفعول والمصعد هو الله سبحانه أو المتكلم به أو الملك وقيل الكلم الطيب يتناول الذكر والدعاء والاستغفار وقراءة القرآن وعنه عليه الصلاة والسلام أنه سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر إذا قالها العبد عرج بها الملك إلى السماء فحيا بها وجه الرحمن فإذا لم يكن عمل صالح لم تقبل وعن ابن مسعود رضى الله عنه ما من عبد مسلم يقول خمس كلمات سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر وتبارك الله إلا أخذهن ملك فجعلهن تحت جناحه ثم صعد بهن فما يمر بهن على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن حتى يحيي بهن وجه رب العالمين ومصداقه قوله عز وجل ﴿اليه يصعد الكلم الطيب﴾ الخ .

﴿ والذين يمكرون السيئات﴾ بيان لحـــال الكلم الخبيث والعمل السيء وأهلهما بعد بيان حال الكلم الطيب والعمل الصالح وانتصاب السيئات على أنها صفة للمصدر المحذوف أى يمكرون المكرات السيئات وهى مكرات قريش بالنبي عليه الصلاة والسلام فى دار الندوة وتداورهم الرأى فى إحدى الثلاث التى هى الإثبات والقتل والإخراج ﴿لهم﴾ بسبب مكراتهم ﴿عذاب شديد﴾ لا يقادر قدره ولا يؤبه عنده لمـا يمكرون ﴿ ومكر أولئك ﴾ وضع اسم الإشارة موضع ضميرهم للإيذان بكمال تميزهم بما هم فيه من الشر والفساد عن سائر المفسدين واشتهارهم بذلك وما فيه من معنى البعد للتنبيه على ترامى أمرهم فى الطغيان وبعد منزلتهم فى العدوان أى ومكر أولئك المفسدين الذين أرادوا أن يمكروا به عليه الصلاة والسلام ﴿هو يبور ﴾ أى هو يهلك ويفسد خاصة لا من مكروا به ولقد أبارهم الله تعالى بعد إبارة مكراتهم حيث أخرجهم من مكة وقتلهم وأثبتهم فى قليب بدر فجمع عليهم مكراتهم الثلاث التى اكتفوا فى حقه عليه الصلاة والسلام بواحدة منهن ﴿ والله خلقكم من تراب﴾ دليل آخر على صحة البعث والنشور أى خلقكم ابتداء منه فى ضمن خلق آدم عليه السلام خلقا إجماليا كما مر تحقيقه مرارا ﴿ ثم من نطفة ﴾ أى ثم خلقكم منها خلقا تفصيليا .

﴿ ثم جعلكم أزواجا ﴾ أى أصنافا أو ذكرانا وإناثا وعن قتادة جعل بعضكم زوجا لبعض ﴿ وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ﴾ إلا ملتبسة بعلمه تابعة لمشيئته ﴿ وما يعمر من معمر ﴾ أى من أحد وإنما سمى معمرا باعتبار مصيره أى وما يمد فى عمر أحد ﴿ ولا ينقص من عمره ﴾ أى من عمر أحد على طريقة قولهم لا يثيب الله عبداً ولا يعاقبه إلا بحق[1] لكن لا على معنى لا ينقص عمره بعد كونه زائدا بل على معنى لا يجعل من الابتداء ناقصا وقيل الزيادة والنقص فى عمر واحد باعتبار أسباب مختلفة أثبتت فى اللوح مثل أن يكتب فيه إن حج فلان فعمره ستون وإلا فأربعون وإليه أشار عليه الصلاة والسلام بقوله «الصدقة والصلة تعمران الديار وتزيدان فى الأعمار» وقيل المراد بالنقص ما يمر من عمره وينقص[2] فانه يكتب فى الصحيفة عمره كذا وكذا سنة ثم يكتب تحت ذلك ذهب يوم ذهب يومان وهكذا حتى يأتى على آخره وقرىء ولا ينقص على البناء للفاعل ومن عمره بسكون الميم ﴿ إلا فى كتاب ﴾ عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه اللوح وقيل علم الله عز وجل وقيل صحيفة كل إنسان ﴿ إن ذلك ﴾ أى ما ذكر من الخلق وما بعده مع كونه محارا للعقول والأفهام ﴿ على الله يسير ﴾ لاستغنائه عن الأسباب فكذلك البعث ﴿ وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ﴾ مثل ضرب للمؤمن والكافر والفرات الذى يكسر العطش والسائغ الذى يسهل انحداره لعذوبته والأجاج الذى يحرق بملوحته وقرىء سيغ كسيد وسيغ بالتخفيف وملح ككتف وقوله تعالى ﴿ ومن كل ﴾ أى من كل واحد منهما ﴿ تأكلون لحما طريا وتستخرجون ﴾ أى من المالح خاصة ﴿ حلية تلبسونها ﴾ إما استطراد فى صفة البحرين وما فيهما من النعم والمنافع وإما تكملة للتمثيل والمعنى كما أنهما وإن اشتركا فى بعض الفوائد لا يتساويان من حيث أنهما متفاوتان فيما هو المقصود

---

(١) فى كلة الا بالحق .

(٢) فى ١١ وينقضى

بالذات من الماء لما خالط أحدهما ما أفسده وغيره عن كمال فطرته لا يساوى الكافر المؤمن وإن شاركه فى بعض الصفات كالشجاعة والسخاوة ونحوهما لتباينهما فيما هو الخاصية العظمى لبقاء أحدهما على فطرته الأصلية وحيازته لكماله اللائق دون الآخر أو تفضيل للأجاج على الكافر من حيث أنه يشارك العذب فى منافع كثيرة والكافر خلو من المنافع بالكلية على طريقة قوله تعالى (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله) والمراد بالحلية اللؤلؤ والمرجان.

﴿ وترى الفلك فيه ﴾ أى فى كل منهما وإفراد ضمير الخطاب مع جمعه فيما سبق وما لحق لأن الخطاب لكل أحد تتأتى منه الرؤية دون المنتفعين بالبحرين فقط ﴿ مواخر ﴾ شواق للماء بجريها مقبلة ومدبرة بريح واحدة ﴿ لتبتغوا من فضله ﴾ من فضل الله تعالى بالنقلة فيها واللام متعلقة بمواخر وقد جوز تعلقها بما يدل عليه الأفعال المذكورة أى فعل ذلك لتبتغوا من فضله ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ أى ولتشكروا على ذلك وحرف الترجى للإيذان بكونه مرضيا عند الله تعالى ﴿ يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ﴾ بزيادة أحدهما ونقص الآخر بإضافة بعض أجزاء كل منهما إلى الآخر ﴿ وسخر الشمس والقمر ﴾ عطف على يولج واختلافهما صيغة لما أن إيلاج أحد الملوين فى الآخرة متجدد حينا فحينا وأما تسخير النيرين فأمر لا تعدد فيه وإنما المتعدد والمتجدد آثاره وقد أشير إليه بقوله تعالى ﴿ كل يجرى ﴾ أى بحسب حركته الخاصة وحركته القسرية على المدارات اليومية المتعددة حسب تعدد أيام السنة جريانا مستمرا ﴿ لأجل مسمى ﴾ قدره الله تعالى لجريانهما وهو يوم القيامة كما روى عن الحسن رحمه الله وقيل جريانهما عبارة عن حركتيهما الخاصتين بهما فى فلكيهما والأجل المسمى هو منتهى دورتيهما ومدة الجريان للشمس سنة وللقمر شهر وقد مر تفصيله فى سورة لقمان ﴿ ذلكم ﴾ إشارة إلى فاعل الأفاعيل المذكورة وما فيه من معنى البعد للإيذان بغاية العظمة وهو مبتدأ وما بعده أخبار

مترادفة أى ذلكم العظيم الشأن الذى أبدع هذه الصنائع البديعة ﴿ الله ربكم له الملك ﴾ وفيه من الدلالة على أن إبداعه تعالى لتلك البدائع مما يوجب ثبوت تلك الأخبار له ما لا يخفى ويجوز أن يكون الأخير كلاما مبتدأ فى مقابلة قوله تعالى :

﴿ والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ﴾ للدلالة على تفرده تعالى بالألوهية والربوبية وقرىء يدعون بالياء التحتانية والقطمير لفافة النواة وهو مثل فى القلة والحقارة ﴿ إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ﴾ استئناف مقرر لمضمون ماقبله كاشف عن جلية حال ما يدعونه بأنه جماد ليس من شأنه السماع ﴿ ولو سمعوا ﴾ على الفرض والتقدير ﴿ ما استجابوا لكم ﴾ لعجزهم عن الأفعال بالمرة لا لما قيل من أنهم متبرؤن منكم ومما تدعون لهم فإن ذلك مما لا يتصور منهم فى الدنيا ﴿ ويوم القيامة يكفرون بشرككم ﴾ أى يجحدون بإشراككم لهم وعبادتكم إياهم بقولهم ماكنتم إيانا تعبدون ﴿ ولا ينبئك مثل خبير ﴾ أى لا يخبرك بالأمر مخبر مثل خبير أخبرك به وهو الحق سبحانه فإنه الخبير بكنه الأمور دون سائر المخبرين والمراد تحقيق ما أخبر به من حال آلهتهم ونفى ما يدعون لهم من الإلهية ﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله ﴾ فى أنفسكم وفيما يعن لكم من أمر مهم أو خطب ملم وتعريف الفقراء للمبالغة فى فقرهم كأنهم لكثرة افتقارهم وشدة احتياجهم هم الفقراء فحسب وأن افتقار سائر الخلائق بالنسبة إلى فقرهم بمنزلة العدم ولذلك قال تعالى (وخلق الإنسان ضعيفا) ﴿ والله هو الغنى الحميد ﴾ أى المستغنى على الإطلاق المنعم على سائر الموجودات المستوجب للحمد ﴿ إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ﴾ ليسوا على صفتكم بل مستمرون على الطاعة أو بعالم آخر غير ما تعرفونه ﴿ وما ذلك ﴾ أى ما ذكر من الإذهاب بهم والإتيان بآخرين ﴿ على الله بعزيز ﴾ بمتعذر ولا متعسر .

﴿ ولا تزر وازرة ﴾ أى لا تحمل نفس آثمة ﴿ وزر أخرى ﴾ إثم نفس أخرى بل إنما تحمل كل منهما وزرها وأما ما فى قوله تعالى (وليحملن أثقالهم) وأثقالا مع أثقالهم من حمل المضلين أثقالا غير أثقالهم فهو حمل أثقال إضلالهم مع

أثقال ضلالهم وكلاهما أوزارهم ليس فيهامن أوزار غيرهم شيء ﴿ وإن تدع مثقلة ﴾ أى نفس أثقلها الأوزار ﴿ إلى حملها ﴾ لحمل بعض أوزارها ﴿ لا يحمل منه شيء ﴾ لم تجب بحمل شيء منه ﴿ ولو كان ﴾ أى المدعو المفهوم من الدعوة ﴿ ذا قربى ﴾ ذا قرابة من الداعي وقرىء ذو قربى وهذا نفى للحمل اختيارا والأول نفى له إجبارا ﴿ إنما تنذر ﴾ استئناف مسوق لبيان من يتعظ بما ذكر أى إنما تنذر بهذه الإنذارات ﴿ الذين يخشون ربهم بالغيب ﴾ أى يخشونه تعالى غائبين عن عذابه أو عن الناس فى خلواتهم أو يخشون عذابه وهو غائب عنهم ﴿ وأقاموا الصلوة ﴾ أى راعوها كما ينبغى وجعلوها منارا منصوبا وعلما مرفوعا أى إنما ينفع إنذارك وتحذيرك هؤلاء من قومك دون من عداهم من أهل التمرد والعناد ﴿ ومن تزكى ﴾ أن تطهر من أوضار الأوزار والمعاصى بالتأثر من هذه الإنذارات ﴿ فإنما يتزكى لنفسه ﴾ لاقتصار نفعه عليها كما أن من تدنس بها لا يتدنس إلا عليها وقرىء من ازكى فإنما يزكى وهو اعتراض مقرر لخشيتهم وإقامتهم الصلاة لأنها من معظم مبادى التزكى ﴿ وإلى الله المصير ﴾ لا إلى أحد غيره استقلالا أو اشتراكا فيجازيهم على تزكيهم أحسن الجزاء .

﴿ وما يستوى الأعمى والبصير ﴾ أى الكافر والمؤمن ﴿ ولا الظلمات ولا النور ﴾ أى ولا الباطل ولا الحق وجمع الظلمات مع أفراد النور لتعدد فنون الباطل واتحاد الحق ﴿ ولا الظل ولا الحرور ﴾ أى ولا الثواب ولا العقاب وإدخال لا على المتقابلين لتذكير نفى الاستواء وتوسيطها بينهما للتأكيد والحرور فعول من الحر غلب على السموم وقيل السموم مايهب نهارا والحرور ما يهب ليلا ﴿ وما يستوى الأحياء ولا الأموات ﴾ تمثيل آخر للمؤمنين والكافرين أبلغ من الأول ولذلك كرر الفعل وأوثر صيغة الجمع فى الطرفين تحقيقا للتباين بين أفراد الفريقين وقيل تمثيل للعلماء والجهلة ﴿ إن الله يسمع من يشاء ﴾ أن يسمعه ويوفقه لفهم آياته والاتعاظ بعظاته ﴿ وما أنت بمسمع من فى القبور ﴾ ترشيح لتمثيل المصرين على الكفر بالأموات وإشباع فى إقناطه عليه الصلاة والسلام من إيمانهم ﴿ إن أنت إلا نذير ﴾ ما عليك إلا الإنذار

وأما الأسماع البتة فليس من وظائفك ولا حيلة لك إليه فى المطبوع على قلوبهم ﴿ إنا أرسلناك بالحق ﴾ أى محقين أو محقا أنت أو إرسالا مصحوبا بالحق[1] ويجوز أن يتعلق بقوله ﴿ بشيرا ونذيرا ﴾ أى بشيرا بالوعد الحق ونذيرا بالوعيد الحق ﴿ وإن من أمة ﴾ أى ما من أمة من الأمم الدارجة فى الأزمنة الماضية .

﴿ إلا خلا ﴾ أى مضى ﴿ فيها نذير ﴾ من نبى أو عالم ينذرهم والاكتفاء بذكره للعلم بأن النذارة قرينة البشارة لاسيما وقد اقترنا آنفا ولأن الإنذار هو الأنسب بالمقام ﴿ وإن يكذبوك ﴾ أى تموا على تكذيبك فلا تبال بهم وبتكذيبهم ﴿ فقد كذب الذين من قبلهم ﴾ من الأمم العاتية ﴿ جاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ أى المعجزات الظاهرة الدالة على نبوتهم ﴿ وبالزبر ﴾ كصحف إبراهيم ﴿ وبالكتاب المنير ﴾ كالتوراة والإنجيل والزبور على إرادة التفصيل دون الجمع ويجوز أن يراد بهما واحد والعطف لتغاير العنوانين ﴿ ثم أخذت الذين كفروا ﴾ وضع الموصول موضع ضميرهم لذمهم بما فى حيز الصلة والإشعار بعلة الأخذ ﴿ فكيف كان نكير ﴾ أى إنكارى بالعقوبة وفيه مزيد تشديد وتهويل لها ﴿ ألم تر ﴾ استئناف مسوق لتقرير ما قبله من اختلاف أحوال الناس ببيان أن الاختلاف والتفاوت أمر مطرد فى جميع المخلوقات من النبات والجماد والحيوان والرؤية قلبية أى ألم تعلم ﴿ أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ﴾ بذلك الماء والالتفات لإظهار كمال الاعتناء بالفعل لما فيه من الصنع البديع المنبىء عن كمال القدرة والحكمة ﴿ ثمرات مختلفا ألوانها ﴾ أى أجناسها أو أصنافها على أن كلا منها ذو أصناف مختلفة أو هيئاتها وأشكالها أو ألوانها من الصفرة والخضرة والحمرة وغيرها وهو الأوفق لما فى قوله تعالى ﴿ ومن الجبال جدد ﴾ أى ذو جدد أى خطط وطرائق ويقال جدة الحمار للخطة السوداء على

(١) فى ١١ : مصاحبا للحق .

ظهره وقرىء جدد بالضم جمع جديدة بمعنى الجدة وجدد بفتحتين وهو الطريق الواضح ﴿ بيض وحمر مختلف ألوانها ﴾ بالشدة والضعف ﴿وغرابيب سود﴾ عطف على بيض أو على جدد كأنه قيل ومن الجبال مخطط ذو جدد ومنها ماهو على لون واحد غرابيب وهو تأكيد لمضمر يفسره ما بعده فإن الغربيب تأكيد للأسود كالفاقع للأصفر والقانى للأحمر ومن حق التأكيد أن يتبع المؤكد ونظيره فى الصفة قول النابغة :

* والمؤمن العائذات الطير يمسحها *

وفى مثله مزيد تأكيد لما فيه من التكرار باعتبار الإضمار والإظهار .

﴿ ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه ﴾ أى ومنهم بعض مختلف ألوانه أو وبعضهم مختلف ألوانه على ما مر فى قوله تعالى (ومن الناس من يقول آمنا بالله) وإيراد الجملتين اسميتين مع مشاركتهما لما قبلهما من الجملة الفعلية فى الاستشهاد بمضمونهما على تباين الناس فى الأحوال الباطنة لما أن اختلاف الجبال والناس والدواب والأنعام فيما ذكر من الألوان أمر مستمر فعبر عنه بما يدل على الاستمرار وأما إخراج الثمرات المختلفة فحيث كان أمرا حادثا عبر عنه بما يدل على الحدوث ثم لما كان فيه نوع خفاء علق به الرؤية بطريق الاستفهام التقريرى المنبىء عن الحمل عليها والترغيب فيها بخلاف أحوال الجبال والناس وغيرهما فإنها مشاهدة غنية عن التأمل فلذلك جردت عن التعليق بالرؤية فتدبر وقوله تعالى ﴿ وكذلك ﴾ مصدر تشبيهى لقوله تعالى مختلف أى صفة لمصدره المؤكد تقديره مختلف اختلافا كائنا كذلك أى كاختلاف الثمار والجبال وقرىء ألوانا وقرىء والدواب بالتخفيف مبالغة فى الهرب من التقاء الساكنين وقوله تعالى ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ تكملة لقوله تعالى (إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب) بتعيين من يخشاه عز وجل من الناس بعد بيان اختلاف طبقاتهم وتباين مراتبهم أما فى الأوصاف المعنوية فبطريق التمثيل وأما فى الأوصاف الصورية فبطريق التصريح توفية لكل واحدة منهما حقها اللائق بها

من البيان أى إنما يخشاه تعالى بالغيب العالمون به عز وجل وبما يليق به من صفاته الجليلة وأفعاله الجميلة لما أن مدار الخشية معرفة المخشى والعلم بشئونه فمن كان أعلم به تعالى كان أخشى منه عز وجل كما قال عليه الصلاة والسلام أنا أخشاكم لله وأتقاكم له ولذلك عقب بذكر أفعاله الدالة على كمال قدرته وحيث كان الكفرة بمعزل من هذه المعرفة امتنع إنذارهم بالكلية وتقديم المفعول لأن المقصود حصر الفاعلية ولو أخر انعكس الأمر وقرىء برفع الاسم الجليل ونصب العلماء على أن الخشية مستعارة للتعظيم فإن المعظم يكون مهيبا ﴿ إن الله عزيز غفور ﴾ تعليل لوجوب الخشية لدلالته على أنه معاقب للمصر على طغيانه غفور للتائب عن عصيانه .

من فضائل القرآن

﴿ إن الذين يتلون كتاب الله ﴾ أى يداومون على قراءته أو متابعة ما فيه حتى صارت سمة لهم وعنوانا والمراد بكتاب الله تعالى القرآن وقيل جنس كتب الله فيكون ثناء على المصدقين من الأمم بعد اقتصاص حال المكذبين منهم وليس بذاك فإن صيغة المضارع منادية باستمرار مشروعية تلاوته والعمل بما فيه واستتباعهما لما سيأتى من توفية الأجور وزيادة الفضل وجعلها على حكاية الحال الماضية مع كونه تعسفا ظاهرا مما لاسبيل إليه كيف لا والمقصود الترغيب فى دين الإسلام والعمل بالقرآن الناسخ لما بين يديه[1] من الكتب فالتعرض لبيان حقيتها قبل انتساخها والإشباع فى ذكر استتباعها لما ذكر من الفوائد العظيمة مما يورث الرغبة فى تلاوتها والإقبال على العمل بها وتخصيص التلاوة بما لم ينسخ منها باطل قطعا لما أن الباقى مشروعا ليس إلا حكمها لكن لا من حيث أنه حكمها بل من حيث أنه حكم القرآن وأما تلاوتها فبمعزل من المشروعية واستتباع الأجر بالمرة فتدبر ﴿ وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ﴾ كيفما اتفق من غير قصد إليهما وقيل السر فى المسنونة والعلانية فى المفروضة ﴿ يرجون

(١) فى ١١ لما سبقه من الكتب .

تجارة﴾ تحصيل ثواب بالطاعة وهو خبر إن وقوله تعالى﴿ لن تبور ﴾ أى لن تكسد ولن تهلك بالخسران أصلا صفة لتجارة جيء بها للدلالة على أنها ليست كسائر التجارات الدائرة بين الربح والخسران لأنه اشتراء باق بفان والإخبار برجائهم من أكرم الأكرمين عدة قطعية بحصول مرجوهم وقوله تعالى: ﴿ليوفيهم أجورهم﴾ متعلق بلن تبور على معنى أنه ينتفى عنها الكساد وتنفق عند الله تعالى ليوفيهم أجور أعمالهم ﴿ويزيدهم من فضله﴾ على ذلك من خزائن رحمته ما يشاء وقيل بمضمر دل عليه ما عد من أفعالهم المرضية أى فعلوا ذلك ليوفيهم إلخ وقيل بيرجون على أن اللام للعاقبة ﴿إنه غفور شكور﴾ تعليل لما قبله من التوفية والزيادة أى غفور لفرطاتهم شكور لطاعاتهم أى مجازيهم عليها وقيل هو خبر إن الذين ويرجون حال من واو أنفقوا.

﴿والذى أوحينا إليك من الكتاب ﴾وهو القرآن ومن للتبيين أو الجنس ومن للتبعيض وقيل اللوح ومن للابتداء ﴿هو الحق مصدقا لما بين يديه ﴾ أى أحقه مصدقا لما تقدمه من الكتب السماوية حال مؤكدة لأن حقيته تستلزم موافقته إياه فى العقائد وأصول الأحكام ﴿ إن الله بعباده لخبير بصير ﴾ محيط ببواطن أمورهم وظواهرها فلو كان فى أحوالك ما ينافى النبوة لم يوح إليك مثل هذا الحق المعجز الذى هو عيار على سائر الكتب وتقديم الخبير للتنبيه على أن العمدة هى الأمور الروحانية ﴿ثم أورثنا الكتاب﴾ أى قضينا بتوريثه منك أو نورثه والتعبير عنه بالماضى لتقرره وتحققه وقيل أورثناه من الأمم السالفة أى أخرناه عنهم وأعطيناه ﴿الذين اصطفينا من عبادنا﴾ وهم علماء الأمة من الصحابة ومن بعدهم ممن يسير سيرتهم أو الأمة بأسرهم فان الله تعالى اصطفاهم على سائر الأمم وجعلهم أمة وسطا ليكونوا شهداء على الناس واختصهم بكرامة الانتماء إلى أفضل رسله عليهم الصلاة والسلام وليس من ضرورة وراثة الكتاب مراعاته حق رعايته لقوله تعالى (فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب) الآية ﴿فمنهم ظالم لنفسه﴾ بالتقصير فى العمل به وهو المرجأ لأمر الله ﴿ ومنهم مقتصد ﴾يعمل به فى أغلب الأوقات ولا يخلو من خلط السيء ﴿ ومنهم سابق

بالخيرات بإذن الله﴾ قيل هم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار وقيل هم المداومون على إقامة مواجبه علما وعملا وتعليما وفى قوله تعالى بإذن الله أى بتسيره وتوفيقه تنبيه على عزة منال هذه الرتبة وصعوبة مأخذها وقيل الظالم الجاهل والمقتصد المتعلم والسابق العالم وقيل الظالم المجرم والمقتصد الذى خلط الصالح بالسيء والسابق الذى ترجحت حسناته بحيث صارت سيئاته مكفرة وهو معنى قوله عليه الصلاة والسلام وأما الذين سبقوا فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب وأما المقتصد فأولئك يحاسبون حسابا يسيرا وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك يحبسون فى طول المحشر ثم يتلقاهم الله برحمته ، وقد روى أن عمر رضى الله عنه قال وهو على المنبر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سابقنا سابق ومقتصدنا ناج وظالمنا مغفور له .

﴿ذلك﴾ إشارة الى السبق بالخيرات وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإشعار بعلو رتبته وبعد منزلته فى الشرف ﴿هو الفضل الكبير﴾ من الله عز وجل لا ينال إلا بتوفيقه تعالى ﴿جنات عدن﴾ إما بدل من الفضل الكبير بتنزيل السبب منزلة المسبب أو مبتدأ خبره ﴿يدخلونها﴾ وعلى الأول هو مستأنف وجمع الضمير لأن المراد بالسابق الجنس وتخصيص حال السابقين ومآلهم بالذكر والسكوت عن الفريقين الآخرين وإن لم يدل على حرمانهما من دخول الجنة مطلقا لكن فيه تحذيرا لهما من التقصير وتحريضا على السعى فى إدراك شأو السابقين وقرىء جنات عدن وجنة عدن على النصب بفعل يفسره الظاهر وقرىء يدخلونها على البناء للمفعول ﴿يحلون فيها﴾ خبر ثان أو حال مقدرة وقرىء يحلون من حليت المرأة فهى حالية ﴿من أساور﴾ هى جمع أسورة جمع سوار ﴿من ذهب﴾ من الأولى تبعيضية والثانية بيانية أى يحلون بعض أساور من ذهب كأنه أفضل من سائر أفرادها ﴿ولؤلؤا﴾ بالنصب عطفا على محل من أساور وقرىء بالجر عطفا على ذهب أى من ذهب مرصع باللؤلؤ أو من ذهب فى صفاء اللؤلؤ ﴿ولباسهم فيها حرير﴾ وتغيير الأسلوب قد مر سره فى سورة الحج .

﴿ وقالوا ﴾ أى يقولون وصيغة الماضى للدلالة على التحقق ﴿ الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ﴾ وهو ما أهمهم من خوف سوء العاقبة وعن ابن عباس رضى الله عنهما حزن الأعراض والآفات وعنه حزن الموت وعن الضحاك حزن وسوسة إبليس وقيل هم المعاش وقيل حزن زوال النعم والظاهر أنه الجنس المنتظم لجميع أحزان الدين والدنيا وقرىء الحزن وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة فى قبورهم ولا فى محشرهم ولا فى مسيرهم وكأنى بأهل لا إله إلا الله يخرجون من قبورهم ينفضون التراب عن وجوههم ويقولون الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ﴿ إن ربنا لغفور ﴾ أى للمذنبين ﴿ شكور ﴾ للمطيعين ﴿ الذى أحلنا دار المقامة ﴾ أى دار الإقامة التى لا انتقال عنها أبداً ﴿ من فضله ﴾ من إنعامه وتفضله من غير أن يوجبه شىء من قبلنا ﴿ لا يمسنا فيها نصب ﴾ تعب ﴿ ولا يمسنا فيها لغوب ﴾ كلال والفرق بينهما أن النصب نفس المشقة والكلفة واللغوب مايحدث منه من الفتور والتصريح بنفى الثانى مع استلزام نفى الأول له وتكرير الفعل المنفى للمبالغة فى بيان انتفاء كل منهما ﴿ والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم ﴾ لا يحكم عليهم بموت ثان ﴿ فيموتوا ﴾ ويستريحوا ونصبه بإضمار أن وقرىء فيموتون عطفا على يقضى كقوله تعالى (ولا يؤذن لهم فيعتذرون) ﴿ ولا يخفف عنهم من عذابها ﴾ بل كلما خبت زيد إسعارها ﴿ كذلك ﴾ أى مثل ذلك الجزاء الفظيع ﴿ نجزى كل كفور ﴾ مبالغ فى الكفر أو الكفران لا جزاء أخف وأدنى منه وقرىء يجزى على البناء للمفعول وإسناده إلى الكل وقرىء يجازى .

﴿ وهم يصطرخون فيها ﴾ يستغيثون والاصطراخ افتعال من الصراخ استعمل فى الاستغاثة لجهد المستغيث صوته ﴿ ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل ﴾ بإضمار القول وتقييد العمل الصالح بالوصف المذكور للتحسر على ما عملوه من غير الصالح والاعتراف به والإشعار بأن استخراجهم لتلافيه وأنهم كانوا يحسبونه صالحا والآن تبين خلافه وقوله تعالى ﴿ أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر ﴾ جواب من جهته تعالى وتوبيخ لهم والهمزة للإنكار

والنفى والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام وما نكرة موصوفة أى ألم نمهلكم أو ألم نؤخركم ولم نعمركم عمرا يتذكر فيه من تذكر أى يتمكن فيه المتذكر من التذكر والتفكر قيل هو أربعون سنة وعن ابن عباس رضى الله عنهما ستون سنة وروى ذلك عن على رضى الله عنه وهو العمر الذى أعذر الله فيه إلى ابن آدم قال عليه الصلاة والسلام أعذر الله إلى امرىء أخر أجله حتى بلغ ستين سنة وقوله تعالى ﴿ وجاءكم النذير ﴾ عطف على الجملة الاستفهامية لأنها فى معنى قد عمرناكم كما فى قوله تعالى (ألم نشرح لك صدرك ووضعنا) الخ لأنه فى معنى قد شرحنا الخ والمراد بالنذير رسول الله صلى الله عليه وسلم أو ما معه من القرآن وقيل العقل وقيل الشيب وقيل موت الأقارب والاقتصار على ذكر النذير لأنه الذى يقتضيه المقام والفاء فى قوله تعالى ﴿ فذوقوا ﴾ لترتيب الأمر بالذوق على ما قبلها من التعمير ومجىء النذير وفى قوله تعالى ﴿ فما للظالمين من نصير ﴾ للتعليل .

﴿ إن الله عالم غيب السموات والأرض ﴾ بالإضافة وقرىء بالتنوين ونصب غيب على المفعولية أى لايخفى عليه خافية فيهما فلا تخفى عليه أحوالهم ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ قيل إنه تعليل لما قبله لأنه إذا علم مضمرات الصدور وهى أخفى ما يكون كان أعلم بغيرها ﴿ هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض ﴾ يقال للمستخلف خليفة وخليف والأول يجمع خلائف والثانى خلفاء والمعنى أنه تعالى جعلكم خلفاءه فى أرضه وألقى إليكم مقاليد التصرف فيها وسلطكم على ما فيها وأباح لكم منافعها أو جعلكم خلفاء ممن قبلكم من الأمم وأورثكم ما بأيديهم من متاع الدنيا لتشكروه بالتوحيد والطاعة ﴿ فمن كفر ﴾ منكم مثل هذه النعمة السنية وغمطها ﴿ فعليه كفره ﴾ أى وبال كفره لا يتعداه إلى غيره وقوله تعالى ﴿ ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا ﴾ بيان لوبال الكفر وغائلته وهو مقت الله تعالى إياهم أى بغضه الشديد الذى ليس وراءه خزى وصغار وخسار الآخرة الذى ما بعده شر وخسار والتكرير لزيادة التقرير

والتنبيه على أن اقتضاء الكفر لكل واحد من الأمرين الهائلين القبيحين بطريق الاستقلال والأصالة .

﴿ قل ﴾ تبكيتا لهم ﴿ أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله ﴾ أى آلهتكم والإضافة إليهم لأنهم جعلوهم شركاء لله تعالى من غير أن يكون له أصل ما أصلا وقيل جعلوهم شركاء لأنفسهم فيما يملكونه ويأباه سباق النظم الكريم وسياقه ﴿ أرونى ماذا خلقوا من الأرض ﴾ بدل اشتمال من أرأيتم كأنه قيل أخبرونى عن شركائكم أرونى أى جزء خلقوا من الأرض ﴿ أم لهم شرك فى السموات ﴾ أى أم لهم شركة مع الله سبحانه فى خلق السموات ليستحقوا بذلك شركة فى الألوهية ذاتية ﴿ أم آتيناهم كتابا ﴾ ينطق بأنا اتخذناهم شركاء ﴿ فهم على بينة منه ﴾ أى حجة ظاهرة من ذلك الكتاب بأن لهم شركة جعلية ويجوز أن يكون ضمير آتيناهم للمشركين كما فى قوله تعالى (أم أنزلنا عليهم سلطانا) الخ وقرىء على بينات وفيه إيماء إلى أن الشرك أمر خطير لابد فى إثباته من تعاضد الدلائل ﴿ بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضا إلا غرورا ﴾ لما نفى أنواع الحجج فى ذلك أضرب عنه بذكر ما حملهم عليه وهو تغرير الأسلاف للأخلاف وإضلال الرؤساء للأتباع بأنهم شفعاء عند الله يشفعون لهم بالتقريب إليه ﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ﴾ استئناف مسوق لبيان غاية قبح الشرك وهو له أن يمسكهما كراهة زوالهما أو يمنعهما أن تزولا لأن الإمساك منع ﴿ ولئن زالتا إن أمسكهما ﴾ أى ما أمسكهما ﴿ من أحد من بعده ﴾ من بعد إمساكه تعالى أو من بعد الزوال والجملة سادة مسد الجوابين ومن الأولى مزيدة لتأكيد العموم والثانية للابتداء ﴿ إنه كان حليما غفورا ﴾ غير معاجل بالعقوبة التى تستوجبها جناياتهم حيث أمسكهما وكانتا جديرتين بأن تهدا هدا حسبما قال تعالى (تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض) وقرىء ولو زالتا .

﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى

الأمم ﴾ بلغ قريشا قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم فقالوا لعن الله اليهود والنصارى أتتهم الرسل فكذبوهم فوالله لئن أتانا رسول لنكونن أهدى من إحدى الأمم اليهود والنصارى وغيرهم أو من الأمة التى يقال لها إحدى الأمم تفصيلا لها على غيرها فى الهدى والاستقامة ﴿ فلما جاءهم نذير ﴾ وأى نذير أشرف الرسل عليهم الصلاة والسلام ﴿ ما زادهم ﴾ أى النذير أو مجيئه ﴿ إلا نفورا ﴾ تباعدا عن الحق ﴿ استكبارا فى الأرض ﴾ بدل من نفورا أو مفعول له ﴿ ومكر السيء ﴾ أصله وأن مكروا السيء أى المكر السيء ثم ومكرا السيء ثم ومكر السيء وقرىء بسكون الهمزة فى الوصل ولعله اختلاس ظن سكوتا أو وقفة خفيفة وقرىء مكرا سيئا ﴿ ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله فهل ينظرون ﴾ أى ما ينتظرون ﴿ إلا سنة الأولين ﴾ أى سنة الله فيهم بتعذيب مكذبيهم ﴿ فلن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ بأن يضع موضع العذاب غير العذاب ﴿ ولن تجد لسنة الله تحويلا ﴾ بأن ينقله من المكذبين إلى غيرهم والفاء لتعليل ما يفيده الحكم بانتظارهم العذاب من مجيئه ونفى وجدان التبديل والتحويل عبارة عن نفى وجودهما بالطريق البرهانى وتخصيص كل منهما بنفى مستقل لتأكيد انتفائهما .

﴿ أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ﴾ استشهاد على ما قبله من جريان سنته تعالى على تعذيب المكذبين بما يشاهدونه فى مسايرهم إلى الشام واليمن والعراق من آثار دمار الأمم الماضية العاتية والهمزة للإنكار والنفى والواو للعطف على مقدر يليق بالمقام أى أقعدوا فى مساكنهم ولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم .

﴿ وكانوا أشد منهم قوة ﴾ وأطول أعمارا فما نفعهم طول المدى وما أغنى عنهم شدة القوى ومحل الجملة النصب على الحالية وقوله تعالى ﴿ وما كان الله ليعجزه من شيء ﴾ أى ليسبقه ويفوته ﴿ فى السموات ولا فى الأرض ﴾ اعتراض مقرر لما يفهم مما قبله من استئصال الأمم السالفة وقوله تعالى ﴿ إنه

كان عليما قديرا ﴾ أى مبالغا فى العلم والقدرة ولذلك علم بجميع أعمالهم السيئة فعاقبهم بموجبها تعليل لذلك ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس ﴾ جميعا ﴿ بما كسبوا ﴾ من السيئات كما فعل بأولئك ﴿ ما ترك على ظهرها ﴾ أى على ظهر الأرض ﴿ من دابة ﴾ من نسمة تدب عليها من بنى آدم وقيل ومن غيرهم أيضاً من شؤم معاصيهم وهو المروى عن ابن مسعود وأنس رضى الله عنهما ويعضد الأول قوله تعالى ﴿ ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى ﴾ وهو يوم القيامة ﴿ فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا ﴾ فيجازيهم عند ذلك بأعمالهم إن خيرا فخير وإن شرا فشر . عن النبى عليه الصلاة والسلام من قرأ سورة الملائكة دعته ثمانية أبواب الجنة أن ادخل من أى باب شئت، والله تعالى أعلم .

* * *

سورة يس

مكية، وعنه عليه الصلاة والسلام «تدعى المعمة تعم صاحبها خير الدارين ، والدافعة والقاضية تدفع عنه كل سوء ، وتقضى له كل حاجة » وآيها ثلاث وثمانون

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ يس ﴾ إما مسرود على نمط التعديد فلا حظ له من الإعراب أو اسم للسورة كما نص عليه الخليل وسيبويه وعليه الأكثر فمحله الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أو النصب على أنه مفعول لفعل مضمر وعليهما مدار قراءة يس بالرفع والنصب أى هذه يس أو اقرأ يس ولامساغ للنصب بإضمار فعل القسم لأن ما بعده مقسم به وقد أبوا الجمع بين قسمين على شيء واحد قبل انقضاء الأول ولا مجال للعطف لاختلافهما إعرابا وقيل هو مجرور بإضمار باء القسم مفتوح لكونه غير منصرف كما سلف فى فاتحة سورة البقرة من أن ما كانت من هذه الفواتح مفردة مثل صاد وقاف ونون أو كانت موازنة لمفرد نحو طس ويس وحم الموازنة لقابيل وهابيل يتأتى فيها الإعراب اللفظى ذكره سيبويه فى باب أسماء السور من كتابه وقيل هما حركتا بناء كما فى حيث وأين حسبما يشهد بذلك قراءة يس بالكسر كجير وقيل الفتح والكسر تحريك للجد فى الهرب من التقاء الساكنين وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن معناه يا إنسان فى لغة طيء قالوا المراد به رسول الله صلى الله عليه وسلم ولعل أصله يا أنيسين فاقتصر على شطره كما قيل من الله فى أيمن الله ﴿ والقرآن ﴾ بالجر على أنه مقسم به ابتداء وقد جوز أن يكون عطفاً على يس على تقدير كونه مجرورا بإضمار باء القسم ﴿ الحكيم ﴾ أى المتضمن للحكمة أو الناطق بها بطريق الاستعارة أو المتصف بها على الإسناد المجازى وقد جوز أن يكون الأصل

الحكيم قائله لحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه فبانقلابه مرفوعا بعد الجر استكن فى الصفة المشبهة كما مر فى صدر سورة لقمان ﴿ إنك لمن المرسلين ﴾ جواب للقسم والجملة لرد إنكار الكفرة بقولهم فى حقه عليه الصلاة والسلام لست مرسلا وهذه الشهادة منه عز وجل من جملة ما أشير إليه بقوله تعالى فى جوابهم (قل كفى بالله شهيداً بينى وبينكم) وفى تخصيص القرآن بالإقسام به أولا بوصفه بالحكيم ثانيا تنويه بشأنه وتنبيه على أنه كما يشهد برسالته عليه الصلاة والسلام من حيث نظمه المعجز المنطوى على بدائع الحكم يشهد بها من هذه الحيثية أيضاً لما أن الإقسام بالشىء استشهاد به على تحقق مضمون الجملة القسمية وتقوية لثبوته فيكون شاهدا به ودليلا عليه قطعا وقوله تعالى ﴿ على صراط مستقيم ﴾ خبر آخر لأن أو حال من المستكن فى الجار والمجرور على أنه عبارة عن الشريعة الشريفة بكمالها لا عن التوحيد فقط وفائدته بيان أن شريعته عليه الصلاة والسلام أقوى الشرائع وأعدلها كما يعرب عنه التنكير التفخيمى والوصف إثر بيان أنه عليه الصلاة والسلام من جملة المرسلين بالشرائع .

﴿ تنزيل العزيز الرحيم ﴾ نصب على المدح وقرىء بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف وبالجر على أنه بدل من القرآن وأياما كان فهو مصدر بمعنى المفعول عبر به عن القرآن بيانا لكمال عراقته فى كونه منزلا من عند الله عز وجل كأنه نفس التنزيل وإظهار لفخامته الإضافية بعد بيان فخامته الذاتية بوصفه بالحكمة وفى تخصيص الاسمين الكريمين المعربين عن الغلبة التامة والرأفة العامة حث على الإيمان به ترهيبا وترغيبا وإشعار بأن تنزيله ناشىء عن غاية الرحمة حسبما نطق به قوله تعالى (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) وقيل النصب على أنه مصدر مؤكد لفعله المضمر أى نزل تنزيل العزيز الرحيم على أنه استئناف مسوق لبيان ما ذكر من فخامة شأن القرآن وعلى كل تقدير ففيه فضل تأكيد لمضمون الجملة القسمية ﴿ لتنذر ﴾ متعلق بتنزيل على الوجوه الأول وبعامله المضمر على الوجه الأخير أى لتنذر به كما فى صدر الأعراف وقيل هو متعلق بما يدل عليه لمن المرسلين أى إنك مرسل لتنذر ﴿ قوما ما أنذر آباؤهم ﴾ أى لم ينذر آباؤهم

الأقربون لتطاول مدة الفترة على أن ما نافية فتكون صفة مبينة لغاية احتياجهم إلى الإنذار أو الذي أنذره أو شيئاً أنذره آباؤهم الأبعدون على أنها موصولة أو موصوفة فيكون مفعولا ثانيا لتنذر أو إنذار آبائهم الأقدمين على أنها مصدرية فيكون نعتا لمصدر مؤكد أى لتنذر إنذارا كائنا مثل إنذارهم ﴿فهم غافلون﴾ على الوجه الأول متعلق بنفى الإنذار مترتب عليه والضمير للفريقين أى لم تنذر آباؤهم فهم جميعا لأجله غافلون وعلى الوجوه الباقية متعلق بقوله تعالى لتنذر أو بما يفيده إنك لمن المرسلين وارد لتعليل إنذاره عليه السلام أو إرساله بغفلتهم المحوجة إليهما على أن الضمير للقوم خاصة فالمعنى فهم غافلون عنه أى عما أنذر آباؤهم الأقدمون لامتداد المدة واللام فى قوله تعالى :

﴿ لقد حق القول على أكثرهم ﴾ جواب القسم أى والله لقد ثبت وتحقق عليهم البتة لكن لا بطريق الجبر من غير أن يكون من قبلهم ما يقتضيه بل بسبب إصرارهم الاختيارى على الكفر والإنكار وعدم تأثرهم من التذكير والإنذار وغلوهم فى العتو والطغيان وتماديهم فى اتباع خطوات الشيطان بحيث لا يلويهم صارف ولا يثنيهم عاطف كيف لا والمراد بما حق من القول قوله تعالى لإبليس عند قوله لأغوينهم أجمعين (لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين) وهو المعنى بقوله تعالى (لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) كما يلوح به تقديم الجنة على الناس فإنه كما ترى قد أوقع فيه الحكم بإدخال جهنم على من تبع إبليس وذلك تعليل له بتبعيته قطعا وثبوت القول على هؤلاء الذين عبر عنهم بأكثرهم إنما هو لكونهم من جملة أولئك المصرين على تبعية إبليس أبدا وإذ قد تبين أن مناط ثبوت القول وتحققه عليهم إصرارهم على الكفر إلى الموت ظهر أن قوله تعالى ﴿ فهم لا يؤمنون ﴾ متفرع فى الحقيقة على ذلك لا على ثبوت القول وقوله تعالى :

﴿ إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا ﴾ تقرير لتصميمهم على الكفر وعدم

ارعوائهم عنه بتمثيل حالهم بحال الذين غلت أعناقهم ﴿ فهى إلى الأذقان ﴾ أى فالأغلال منتهية إلى أذقانهم فلا تدعهم يلتفتون إلى الحق ولا يعطفون أعناقهم نحوه ولا يطأطئون رؤسهم له ﴿ فهم مقمحون ﴾ رافعون رؤسهم غاضون أبصارهم[1] بحيث لا يكادون يرون الحق أو ينظرون إلى جهته ﴿ وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾ إما تتمة للتمثيل وتكميل له أى تكميل أى وجعلنا مع ما ذكر من أمامهم سدا عظيما ومن ورائهم سدا كذلك فغطينا بهما أبصارهم فهم بسبب ذلك لا يقدرون على إبصار شيء ما أصلا وإما تمثيل مستقل فإن ما ذكر من جعلهم محصورين بين سدين هائلين قد غطيا أبصارهم بحيث لا يبصرون شيئاً قطعا كاف فى الكشف عن كمال فظاعة حالهم وكونهم محبوسين فى مطمورة الغى والجهالات محرومين عن النظر فى الأدلة والآيات وقرىء سدا بالضم وهى لغة فيه وقيل ما كان من عمل الناس فهو بالفتح وما كان من خلق الله فبالضم وقرىء فأعشيناهم من العشا وقيل الآيتان فى بنى مخزوم وذلك أن أبا جهل حلف لئن رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى ليرضخن رأسه فأتاه وهو عليه الصلاة والسلام يصلى ومعه حجر ليدمغه فلما رفع يده انثنت يده إلى عنقه ولزق الحجر بيده حتى فكوه عنها بجهد فرجع إلى قومه فأخبرهم بذلك فقال مخزومى آخر أنا أقتله بهذا الحجر فذهب فأعمى الله تعالى بصره .

﴿ وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم ﴾ بيان لشأنهم بطريق التصريح إثر بيانه بطريق التمثيل أى مستو عندهم إنذارك إياهم وعدمه حسبما مر تحقيقه فى سورة البقرة وقوله تعالى ﴿ لا يؤمنون ﴾ استئناف مؤكد لما قبله مبين لما فيه من إجمال ما فيه الاستواء أو حال مؤكدة له أو بدل منه ولما بين كون الإنذار عندهم كعدمه عقب ببيان من يتأثر منه فقيل ﴿ إنما تنذر ﴾ أى إنذارا مستتبعا للأثر ﴿ من اتبع الذكر ﴾ أى القرآن بالتأمل فيه أو الوعظ ولم يصر على اتباع خطوات الشيطان ﴿ وخشى الرحمن بالغيب ﴾ أى خاف عقابه وهو

(١) فى ١١ : رافعون الرؤس غاضون الأبصار .

غائب عنه على أنه حال من الفاعل أو المفعول أو خافه فى سريرته ولم يغتر برحمته فإنه منتقم قهار كما أنه رحيم غفار كما نطق به قوله تعالى (نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم وأن عذابى هو العذاب الأليم) ﴿ فبشرة بمغفرة ﴾ عظيمة ﴿ وأجر كريم ﴾ لايقادر قدره والفاء لترتيب البشارة أو الأمر بها على ماقبلها من اتباع الذكر والخشية ﴿ فبشره بمغفرة ﴾ عظيمة ﴿ وأجر كريم ﴾ لايقادر قدره والفاء لترتيب البشارة أو الأمر بها على ما قبلها من اتباع الذكر والخشية ﴿ إنا نحن نحي الموتى ﴾ بيان لشأن عظيم ينطوى على الإنذار والتبشير انطواء إجماليا أى نبعثهم بعد مماتهم وعن الحسن إحياؤهم إخراجهم من الشرك إلى الإيمان فهو حينئذ عدة كريمة بتحقيق المبشر به ﴿ ونكتب ما قدموا ﴾ أى ما أسلفوا من الأعمال الصالحة وغيرها ﴿ وآثارهم ﴾ التى أبقوها من الحسنات كعلم علموه أو كتاب ألفوه أو حبيس وقفوه أو بناء بنوه من المساجد والرباطات والقناطر وغير ذلك من وجوه البر ومن السيئات كتأسيس قوانين الظلم والعدوان وترتيب مبادى الشر والفساد فيما بين العباد وغير ذلك من فنون الشرور التى أحدثوها وسنوها لمن بعدهم من المفسدين وقيل هى آثار المشائين إلى المساجد ولعل المراد أنها من جملة الآثار وقرىء ويكتب على البناء للمفعول ورفع آثارهم .

﴿ وكل شىء ﴾ من الأشياء كائنا ما كان ﴿ أحصيناه فى إمام مبين ﴾ أصل عظيم الشأن مظهر لجميع الأشياء مما كان وماسيكون وهو اللوح المحفوظ وقرىء كل شىء بالرفع ﴿ واضرب لهم مثلا أصحاب القرية ﴾ ضرب المثل يستعمل تارة فى تطبيق حالة غريبة بحالة أخرى مثلها كما فى قوله تعالى (ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط) وأخرى فى ذكر حالة غريبة وبيانها للناس من غير قصد إلى تطبيقها بنظيرة لها كما فى قوله تعالى (وضربنا لكم الأمثال) على أحد الوجهين أى بينا لكم أحوالا بديعة هى فى الغرابة كالأمثال فالمعنى على الأول اجعل أصحاب القرية مثلا لهؤلاء فى الغلو فى الكفر والإصرار على تكذيب الرسل أى طبق حالهم بحالهم على أن مثلا مفعول ثان لاضرب

وأصحاب القرية مفعوله الأول أخر عنه ليتصل به ما هو شرحه وبيانه وعلى الثانى اذكر وبين لهم قصة هى فى الغرابة كالمثل وقوله تعالى أصحاب القرية بدل منه بتقدير المضاف أو بيان له والقرية أنطاكية ﴿ إذ جاءها المرسلون ﴾ بدل اشتمال من أصحاب القرية وهم رسل عيسى عليه السلام إلى أهلها ونسبة إرسالهم إليه تعالى فى قوله :

﴿ إذ أرسلنا إليهم اثنين ﴾ بناء على أنه كان بأمره تعالى لتكميل التمثيل وتتميم التسلية وهما يحيى وبولس وقيل غيرهما ﴿ فكذبوهما ﴾ أى فأتياهم فدعواهم إلى الحق فكذبوهما فى الرسالة ﴿ فعززنا ﴾ أى قوينا يقال عزز المطر الأرض إذا لبدها وقرىء بالتخفيف من عزه إذا غلبه وقهره وحذف المفعول لدلالة ما قبله عليه ولأن المقصد ذكر المعزز به ﴿ بثالث ﴾ هو شمعون ﴿ فقالوا ﴾ أى جميعا ﴿ إنا إليكم مرسلون ﴾ مؤكدين كلامهم لسبق الإنكار لما أن تكذيبهما تكذيب للثالث لإتحاد كلمتهم وذلك أنهم كانوا عبدة أصنام فأرسل إليهم عيسى عليه السلام اثنين فلما قربا من المدينة رأيا شيخا يرعى غنيمات له وهو حبيب النجار صاحب يس فسألهما فأخبراه قال أمعكما آية فقالا نشفى المريض ونبرىء الأكمه والأبرص وكان له ولد مريض منذ سنتين فمسحاه فقام فآمن حبيب وفشا الخبر وشفى على أيديهما خلق وبلغ حديثهما إلى الملك وقال لهما ألنا إله سوى آلهتنا قالا نعم من أوجدك وآلهتك فقال حتى أنظر فى أمركما فتبعهما الناس وقيل ضربوهما وقيل حبسا ثم بعث عيسى عليه السلام شمعون فدخل متنكرا وعاشر حاشية الملك حتى استأنسوا به ورفعوا خبره إلى الملك فأنس به فقال له يوما بلغنى أنك حبست رجلين فهل سمعت ما يقولانه قال لا حال الغضب بينى وبين ذلك فدعاهما فقال شمعون من أرسلكما قالا الله الذى خلق كل شىء وليس له شريك فقال صفاه وأوجزا قالا يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد قال وما آيتكما قالا ما يتمنى الملك فدعا بغلام مطموس العينين فدعوا الله تعالى حتى انشق له بصر فأخذا بندقتين فوضعاهما فى حدقتيه فصارتا مقلتين ينظر بهما فقال له شمعون أرأيت لو سألت إلهك حتى يصنع مثل هذا فيكون

لك وله الشرف قال ليس لى عنك سر إن إلهنا لا يبصر ولا يسمع ولا يضر ولا ينفع وكان شمعون يدخل معهم على الصنم فيصلى ويتضرع وهم يحسبون أنه منهم ثم قال إن قدر إلهكما على إحياء ميت آمنا به فدعوا بغلام مات من سبعة أيام فقام وقال إنى أدخلت فى سبعة أودية من النار وإنى أحذركم ما أنتم فيه فآمنوا وقال فتحت أبواب السماء فرأيت شابا حسن الوجه يشفع لهؤلاء الثلاثة قال الملك من هم قال شمعون وهذان فتعجب الملك فلما رأى شمعون أن قوله قد أثر فيه نصحه فآمن وآمن قوم ومن لم يؤمن صاح عليهم جبريل عليه السلام فهلكوا هكذا قالوا ولكن لا يساعده سياق النظم الكريم حيث اقتصر فيه على حكاية تماديهم فى العناد واللجاج وركوبهم متن المكابرة فى الحجاج ولم يذكر فيه ممن يؤمن أحد سوى حبيب ولو أن الملك وقوما من حواشيه آمنوا لكان الظاهر أن يظاهروا الرسل ويساعدوهم قبلوا فى ذلك أو قتلوا كدأب النجار الشهيد ولكان لهم فيه ذكر ما يوجه من الوجوه اللهم إلا أن يكون إيمان الملك بطريق الخفية[1] على خوف من عتاة ملئه فيعتزل عنهم معتذرا بعذر من الأعذار .

﴿ قالوا ﴾ أى أهل أنطاكية الذين لم يؤمنوا مخاطبين للثلاثة ﴿ ما أنتم إلا بشر مثلنا ﴾ من غير مزية لكم علينا موجبة لاختصاصكم بما تدعونه ورفع بشر لانتقاض النفى المقتضى لإعمال ما بإلا ﴿ وما أنزل الرحمن من شىء ﴾ مما تدعونه من الوحى والرسالة ﴿ إن أنتم إلا تكذبون ﴾ فى دعوى رسالته ﴿ قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون ﴾ استشهدوا بعلم الله تعالى وهو يجرى مجرى القسم مع ما فيه من تحذيرهم معارضة علم الله تعالى وزادوا اللام المؤكدة لما شاهدوا منهم من شدة الإنكار ﴿ وما علينا ﴾ أى من جهة ربنا ﴿ إلا البلاغ المبين ﴾ أى إلا تبليغ رسالته تبليغاً ظاهرا بيناً بالآيات الشاهدة بالصحة وقد

(١) فى ١١ بطريق الخفاء

خرجنا عن عهدته فلا مؤاخذة لنا بعد ذلك من جهة ربنا أو ما علينا شيء نطالب به من جهتكم إلا تبليغ الرسالة على الوجه المذكور وقد فعلناه فأى شيء تطلبون منا حتى تصدقونا بذلك ﴿ قالوا ﴾ لما ضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل[1] ﴿ إنا تطيرنا بكم ﴾ تشاءمنا بكم جريا على ديدن الجهلة حيث كانوا يتيمنون بكل ما يوافق شهواتهم وإن كان مستجلبا لكل شر ووبال ويتشاءمون بما لا يوافقها وإن كان مستتبعاً لسعادة الدارين أو بناء على أن الدعوة لا تخلو عن الوعيد بما يكرهونه من إصابة ضر متعلق بأنفسهم وأهليهم وأموالهم إن لم يؤمنوا فكانوا ينفرون عنه وقد روى أنه حبس عنهم القطر فقالوه ﴿ لئن لم تنتهوا ﴾ أى عن مقالتكم هذه ﴿ لنرجمنكم ﴾ بالحجارة ﴿ وليمسنكم منا عذاب أليم ﴾ لا يقادر قدره ﴿ قالوا طائركم ﴾ أى سبب شؤمكم ﴿ معكم ﴾ لا من قبلنا وهو سوء عقيدتكم وقبح أعمالكم وقرىء طيركم ﴿ أئن ذكرتم ﴾ أى وعظتم بما فيه سعادتكم وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة ماقبله عليه أى تطيرتم وتوعدتم بالرجم والتعذيب وقرىء بألف بين الهمزتين وبفتح أن بمعنى أتطيرتم لأن ذكرتم وأن ذكرتم وإن ذكرتم بخير استفهام وأين ذكرتم بمعنى طائركم معكم حيث جرى ذكركم وهو أبلغ ﴿ بل أنتم قوم مسرفون ﴾ إضراب عما تقتضيه الشرطية من كون التذكير سبباً للشؤم أو مصححا للتوعد أى ليس الأمر كذلك بل أنتم قوم عادتكم الإسراف فى العصيان فلذلك أتاكم الشؤم أو فى الظلم والعدوان ولذلك توعدتم وتشاءمتم بمن يجب إكرامه والتبرك به ﴿ وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى ﴾ هو حبيب النجار وكان ينحت أصنامهم وهو ممن آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم وبينهما ستمائة سنة كما آمن به تبع الأكبر وورقة بن نوفل وغيرهما ولم يؤمن بنبى غيره عليه الصلاة والسلام أحد قبل مبعثه وقيل كان فى غار يعبد الله تعالى فلما بلغه خبر الرسل عليهم الصلاة والسلام أظهر دينه .

---

(١) فى ١١ : وأعيت بهم السبل

﴿ قال ﴾ استئناف وقع جواباً عن سؤال نشأ من حكاية مجيئه ساعياً كأنه قيل فماذا قال عند مجيئه فقيل قال ﴿ يا قوم اتبعوا المرسلين ﴾ تعرض لعنوان رسالتهم حثاً لهم على اتباعهم كما أن خطابهم بياقوم لتأليف قلوبهم واستمالتها نحو قبول نصيحته وقوله تعالى ﴿ اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون ﴾ تكرير للتأكيد وللتوسل به إلى وصفهم بما يرغبهم فى اتباعهم من التنزه عن الغرض الدنيوى والاهتداء إلى خير الدنيا والدين ﴿ وما لى لا أعبد الذى فطرنى ﴾ تلطف فى الارشاد بإيراده فى معرض المناصحة لنفسه وإمحاض النصح حيث أراهم أنه اختار لهم ما يختار لنفسه والمراد تقريعهم على ترك عبادة خالقهم إلى عبادة غيره كما ينبىء عنه قوله ﴿ وإليه ترجعون ﴾ مبالغة فى التهديد ثم عاد إلى المساق الأول فقال ﴿ أأتخذ من دونه آلهة ﴾ إنكار ونفى لاتخاذ الآلهة على الاطلاق وقوله ﴿ إن يردن الرحمن بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئاً ﴾ أى لا تنفعنى شيئا من النفع ﴿ ولا ينقذون ﴾ من ذلك الضر بالنصرة والمظاهرة استئناف سيق لتعليل النفى المذكور وجعله صفة لآلهة كما ذهب إليه بعضهم ربما يوهم أن هناك آلهة ليست كذلك وقرىء إن يردن بفتح الياء على معنى إن يوردنى ضرا أى يجعلنى موردا للضر ﴿ إنى إذاً ﴾ أى إذا اتخذت من دونه آلهة ﴿ لفى ضلال مبين ﴾ فإن إشراك ما ليس من شأنه النفع ولا دفع الضر بالخالق المقتدر الذى لا قادر غيره ولا خير إلا خيره ضلال بين لا يخفى على أحد ممن له تمييز فى الجملة ﴿ إنى آمنت بربكم ﴾ خطاب منه للرسل بطريق التلوين قيل لما نصح قومه بما ذكر هموا برجمه فأسرع نحو الرسل قبل أن يقتلوه فقال ذلك وإنما أكده لإظهار صدوره عنه بكمال الرغبة والنشاط وأضاف الرب إلى ضميرهم روما لزيادة التقرير وإظهارا للاختصاص والاقتداء بهم كأنه قال بربكم الذى أرسلكم أو الذى تدعوننا إلى الايمان به ﴿ فاسمعون ﴾ أى اسمعوا إيمانى وأشهدوا لى به عند الله تعالى وقيل الخطاب للكفرة شافههم بذلك إظهارا للتصلب فى الدين وعدم المبالاة بالقتل وإضافة الرب إلى ضميرهم لتحقيق الحق والتنبيه على بطلان ما هم عليه من اتخاذ الأصنام أربابا وقيل للناس جميعا ﴿ قيل ادخلوا الجنة ﴾ قيل له ذلك لما قتلوه إكراماله

بدخولها حينئذ كسائر الشهداء وقيل لما هموا بقتله رفعه الله تعالى إلى الجنة قاله الحسن وعن قتادة أدخله الله الجنة وهو فيها حي يرزق وقيل معناه البشرى بدخول الجنة وأنه من أهلها وإنما لم يقل له لأن الغرض بيان المقول لا المقول له لظهوره وللمبالغة فى المسارعة إلى بيانه والجملة استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من حكاية حاله ومقاله كأنه قيل كيف كان لقاء ربه بعد ذلك التصلب فى دينه والتسخي(١) بروحه لوجهه تعالى فقيل قيل ادخلوا الجنة وكذلك قوله تعالى ﴿ قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لى ربى وجعلني من المكرمين ﴾ فإنه جواب عن سؤال نشأ من حكاية حاله كأنه قيل فماذا قال عند نيله تلك الكرامة السنية فقيل قال الخ وإنما تمنى علم قومه بحاله ليحملهم ذلك عن اكتساب مثله بالتوبة عن الكفر والدخول فى الإيمان والطاعة جريا على سنن الأولياء فى كظم الغيظ والترحم على الأعداء او ليعلموا أنهم كانوا على خطأ عظيم فى أمره وأنه كان على الحق وأن عداوتهم لم تكسبه إلا سعادة وقرىء من المكرمين وما موصولة أو مصدرية والباء صلة يعلمون أو استفهامية وردت على الأصل والباء متعلقة بغفر أى بأى شيء غفر لى ربى يريد به تفخيم شأن المهاجرة عن ملتهم والمصابرة على أذيتهم ﴿ وما أنزلنا على قومه من بعده ﴾ من بعد قتله أو رفعه ﴿ من جند من السماء ﴾ لإهلاكهم والانتقام منهم كما فعلناه يوم بدر والخندق بل كفينا أمرهم بصيحة ملك وفيه استحقار لهم ولإهلاكهم وإيماء إلى تفخيم شأن الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ وما كنا منزلين ﴾ وما صح فى حكمتنا أن ننزل لإهلاك قومه جندا من السماء لما أنا قدرنا لكل شيء سببا حيث أهلكنا بعض من أهلكنا من الأمم بالحاصب وبعضهم بالصيحة وبعضهم بالخسف وبعضهم بالإغراق وجعلنا إنزال الجند من خصائصك فى الانتصار من قومك وقيل ما موصولة معطوفة على جند أى وما كنا منزلين على من قبلهم من حجارة وريح وأمطار شديدة وغيرها ﴿ إن كانت ﴾ أى ما كانت الأخذة أو العقوبة ﴿ إلا صيحة

(١) فى ١١ ق والسخاء بروحه .

وواحدة ﴾ صاح بها جبريل عليه السلام وقرىء إلا صيحة بالرفع على أن كان تامة وقرىء إلا زقية واحدة من زقا الطائر إذا صاح ﴿ فإذا هم خامدون ﴾ ميتون شبهوا بالنار الخامدة رمزا إلا أن الحى كالنار الساطعة فى الحركة والالتهاب والميت كالرماد كما قال لبيد :

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يحور رمادا بعد إذ هو ساطع

﴿ يا حسرة على العباد ﴾ تعالى فهذه من الأحوال التى حقها أن تحضرى فيها وهى ما دل عليه قوله تعالى ﴿ ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون ﴾ فإن المستهزئين بالناصحين الذين نيطت بنصائحهم سعادة الدارين أحقاء بأن يتحسروا ويتحسر عليهم المتحسر المتحسرون أو قد تلهف على حالهم الملائكة والمؤمنون من الثقلين وقد جوز أن يكون تحسرا عليهم من جهة الله تعالى بطريق الاستعارة لتعظيم ما جنوه على أنفسهم ويؤيده قراءة يا حسرتا لأن المعنى يا حسرتى ونصبها لطولها بما تعلق بها من الجار وقيل بإضمار فعلها والمنادى محذوف وقرىء يا حسرة العباد بالإضافة إلى الفاعل أو المفعول ويا حسرة على العباد بإجراء الوصل مجرى الوقف .

﴿ ألم يروا ﴾ أى ألم يعلموا وهو معلق عن العمل فى قوله تعالى ﴿ كم أهلكنا قبلهم من القرون ﴾ لأن كم لا يعمل فيها ما قبلها وإن كانت خبرية لأن أصلها الاستفهام خلا أن معناه نافذ فى الجملة كما نفذ فى قولك ألم تر أن زيدا لمنطلق وإن لم يعمل فى لفظه ﴿ أنهم إليهم لا يرجعون ﴾ بدل من كم أهلكنا على المعنى أى ألم يروا كثرة إهلاكنا من قبلهم من المذكورين آنفا ومن غيرهم كونهم غير راجعين إليهم وقرىء بالكسر على الاستئناف وقرىء ألم يروا من أهلكنا والبدل حينئذ بدل اشتمال ﴿ وإن كل لما جميع لدينا محضرون ﴾ بيان لرجوع الكل إلى المحشر بعد بيان عدم الرجوع إلى الدنيا وأن نافية وتنوين كل عوض عن المضاف إليه ولما بمعنى إلا وجميع فعيل بمعنى مفعول ولدينا ظرف له أو لما بعده والمعنى ما كلهم إلا مجموعون لدينا محضرون للحساب والجزاء وقيل محضرون

معذبون فكل (ذلك)[1] عبارة عن الكفرة وقرىء لما بالتخفيف على أن إن مخففة من الثقيلة واللام فارقة وما مزيدة للتأكيد والمعنى أن كلهم مجموعون الخ .

﴿ وآية لهم الأرض الميتة ﴾ بالتخفيف وقرىء بالتشديد وقوله تعالى آية خبر مقدم للاهتمام به وتنكيرها للتفخيم ولهم إما متعلقة بها لأنها بمعنى العلامة أو بمضمر هو صفة لها والأرض مبتدأ والميتة صفتها وقوله تعالى ﴿ أحييناها ﴾ استئناف مبين لكيفية كونها آية وقيل آية مبتدأ ولهم خبر والأرض الميتة مبتدأ موصوف وأحييناها خبره والجملة مفسرة لآية وقيل الأرض مبتدأ وأحييناها خبره والجملة خبر لآية وقيل الخبر لها هو الأرض وأحييناها صفتها لأن المراد بها الجنس لا المعينة والأول هو الأولى لأن مصب الفائدة هو كون الأرض آية لهم لا كون الآية هي الارض ﴿ وأخرجنا منها حبا ﴾ جنس الحب ﴿ فمنه يأكلون ﴾ تقديم الصلة للدلالة على أن الحب معظم ما يؤكل ويعاش به .

﴿ وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب ﴾ أى من أنواع النخل والعنب ولذلك جمعادون الحب فإن الدال على الجنس مشعر بالاختلاف ولا كذلك الدال على الأنواع وذكر النخيل دون التمور ليطابق الحب والأعناب لاختصاص شجرها بمزيد النفع وآثار الصنع ﴿ وفجرنا فيها ﴾ وقرىء بالتخفيف والفجر والتفجير كالفتح والتفتيح لفظا ومعنى ﴿ من العيون ﴾ أى بعضا من العيون فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه أو العيون ومن مزيدة على رأى الأخفش .

﴿ ليأكلوا من ثمره ﴾ متعلق بجعلنا وتأخيره عن تفجير العيون لأنه من مبادىء الأثمار أى وجعلنا فيها جنات من نخيل ورتبنا مبادى أثمارها ليأكلوا من ثمر ما ذكر من الجنات والنخيل بإجراء الضمير مجرى اسم الإشارة وقيل الضمير لله تعالى بطريق الالتفات إلى الغيبة والإضافة لأن الثمر بخلقه تعالى وقرىء بضمتين وهي لغة فيه أو جمع ثمار وبضمة وسكون ﴿ وما عملته أيديهم ﴾

(١) سقطت من الاصل

عطف على ثمره وهو ما يتخذ منه من العصير والدبس ونحوهما وقيل ما نافية والمعنى أن التمر بخلق الله تعالى لا بفعلهم ومحل الجملة النصب على الحالية ويؤكد الأول قراءة عملت بلا هاء فإن حذف العائد من الصلة أحسن من الحذف من غيرها ﴿ أفلا يشكرون ﴾ أنكار واستقباح لعدم شكرهم للنعم المعدودة والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى أيرون هذه النعم أو أيتنعمون بها فلا يشكرونها ﴿ سبحان الذى خلق الأزواج كلها ﴾ استئناف مسوق لتنزيهه تعالى عما فعلوه من ترك شكره على آلائه المذكورة واستعظام ما ذكر فى حيز الصلة من بدائع آثار قدرته وأسرار حكمته وروائع نعمائه الموجبة للشكر وتخصيص العبادة به والتعجيب من إخلالهم بذلك والحالة هذه وسبحان علم للتسبيح الذى هو التبعيد عن السوء اعتقاداً وقولا أى اعتقاد البعد عنه والحكم به من سبح فى الأرض والماء إذا أبعد فيهما وأمعن ومنه فرس سبوح أى واسع الجرى وانتصابه على المصدرية ولا يكاد يذكر ناصبه أى أسبح سبحانه أى أنزهه عما لا يليق به عقدا وعملا تنزيها خاصا به حقيقا بشأنه وفيه مبالغة من جهة الاشتقاق من السبح ومن جهة النقل إلى التفعيل ومن جهة العدول عن المصدر الدال على الجنس إلى الاسم الموضوع له خاصة لاسيما العلم المشير إلى الحقيقة الحاضرة فى الذهن ومن جهة إقامته مقام المصدر مع الفعل وقيل هو مصدر كغفران أريد به التنزه التام والتباعد الكلى عن السوء ففيه مبالغة من جهه إسناد التنزه إلى الذات المقدسة فالمعنى تنزه بذاته عن كل مالا يليق به تنزها خاصا[1] به فالجملة على هذا إخبار من الله تعالى بتنزهه وبراءته عن كل مالا يليق به مما فعلوه وما تركوه وعلى الأول حكم منه عز وجل بذلك وتلقين للمؤمنين أن يفعلوه ويعتقدوا مضمونه ولا يخلوا به ولا يغفلوا عنه والمراد بالأزواج الأصناف والأنواع ﴿ مما تنبت الأرض ﴾ بيان لها والمراد به كل ما ينبت فيها من الأشياء المذكورة وغيرها ﴿ ومن أنفسهم ﴾ أى خلق الأزواج من

---

(١) فى ١١ . تنزيها خاصا

أنفسهم أى الذكر والأنثى ﴿ ومما لا يعلمون ﴾ أى والأزواج مما لم يطلعهم الله تعالى على خصوصياته لعدم قدرتهم على الاحاطة بها ولما لم يتعلق بذلك شيء من مصالحهم الدينية والدنيوية وإنما أطلعهم على ذلك بطريق الإجمال على منهاج قوله تعالى (ويخلق مالا تعلمون) لما نيط به وقوفهم على عظم قدرته وسعه ملكه وسلطانه .

﴿ وآية لهم الليل ﴾ جملة من خبر مقدم ومبتدأ مؤخر كما مر وقوله تعالى ﴿ نسلخ منه النهار ﴾ جملة مبينة لكيفية كونه آية أى نزيله ونكشفه عن مكانه مستعار من السلخ وهو إزالة ما بين الحيوان وجلده من الاتصال والأغلب فى الاستعمال تعليقه بالجلد يقال سلخت الإهاب من الشاة وقد يعكس ومنه الشاة المسلوخة ﴿ فإذا هم مظلمون ﴾ أى داخلون فى الظلام مفاجأة وفيه رمز إلى أن الأصل هو الظلام والنور عارض ﴿ والشمس تجرى لمستقر لها ﴾ لحد معين ينتهى إليه دورها فشبه بمستقر المسافر إذ قطع مسيره أو لكبد السماء فإن حركتها فيه توجد أبطأ بحيث يظن أن لها هناك وقفة قال :

* والشمس حيرى لها بالجو تدويم *

أولا استقرار لها على نهج مخصوص أو لمنتهى مقدر لكل يوم من المشارق والمغارب فإن لها فى دورها ثلثمائة وستين مشرقا ومغربا تطلع كل يوم من مطلع وتغرب من مغرب ثم لاتعود إليهما إلى العام القابل أو لمنقطع جريها عند خراب العالم وقرىء إلى مستقر لها وقرىء لامستقر لها أى لاسكون لها فإنها متحركة دائما وقرىء لامستقر لها على أن لا بمعنى ليس .

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى جريها وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإيذان بعلو رتبته وبعد منزلته أى ذلك الجرى البديع المنطوى على الحكم الرائعة التى تحار فى فهمها العقول والأفهام ﴿ تقدير العزيز ﴾ الغالب بقدرته على كل مقدور ﴿ العليم ﴾ المحيط علمه بكل معلوم .

﴿ والقمر قدرناه ﴾ بالنصب باضمار فعل يفسره الظاهر وقرىء بالرفع على الابتداء أي قدرنا له ﴿ منازل ﴾ وقيل قدرنا مسيره منازل وقيل قدرناه ذا

منازل وهى ثمانية وعشرون الشرطان البطين الثريا الدبران الهقعة الهنعة الذراع النثرة الطرف الجبهة الزبرة الصرفة العوا السماك الغفر الزبانى الأكليل القلب الشولة النعائم البلدة سعد الذابح سعد بلع سعد السعود سعد الأخبية فرغ الدلو المقدم فرغ الدلو المؤخر الرشا وهو بطن الحوت ينزل كل ليلة فى واحد منها لا يتخطاها ولا يتقاصر عنها فإذا كان فى آخر منازله وهو الذى يكون قبيل الاجتماع دق واستقوس ﴿ حتى عاد كالعرجون ﴾ كالشمراخ المعوج فعلون من الانعراج وهو الاعوجاج وقرئ كالعرجون وهما لغتان كالبزيون والبزيون ﴿ القديم ﴾ العتيق وقيل وهو مامر عليه حول فصاعدا ﴿ لا الشمس ينبغى لها ﴾ أى يصح ويتسهل ﴿ أن تدرك القمر ﴾ فى سرعة السير فإن ذلك يخل بتكون النبات وتعيش الحيوان أو فى الآثار والمنافع أو فى المكان بأن تنزل فى منزله أو فى سلطانه فتطمس نوره وإيلاء حرف النفى الشمس للدلالة على أنها مسخرة لا يتيسر لها إلا ما قدر لها ﴿ ولا الليل سابق النهار ﴾ أى يسبقه فيفوته ولكن يعاقبه وقيل المراد بهما آيتاهما النيران وبالسبق سبق القمر إلى سلطان الشمس فيكون عكسا للأول وإيراد السبق كان الإدراك لأنه الملائم لسرعة سيره ﴿ وكل ﴾ أى وكلهم على أن التنوين عوض عن المضاف إليه الذى هو الضمير العائد إلى الشمس والقمر والجمع باعتبار التكاثر العارض لهما بتكاثر مطالعهما فإن اختلاف الأحوال يوجب تعدداً ما فى الذات أو إلى الكواكب فإن ذكرهما مشعر بها ﴿ فى فلك يسبحون ﴾ يسيرون بانبساط وسهولة .

﴿ وآية لهم أنا حملنا ذريتهم ﴾ أولادهم الذين يبعثونهم إلى تجاراتهم أوصبيانهم ونساءهم الذين يستصحبونهم فإن الذرية تطلق عليهن لاسيما مع الاختلاط وتخصيصهم بالذكر لما أن استقرارهم فى السفن أشق واستمساكهم فيها أبدع ﴿ فى الفلك المشحون ﴾ أى المملوء وقيل هو فلك نوح عليه السلام وحمل ذرياتهم فيها حمل آبائهم الأقدمين وفى أصلابهم هؤلاء وذرياتهم وتخصيص أعقابهم بالذكر دونهم لأنه أبلغ فى الامتنان وأدخل فى التعجيب الذى عليه يدور كونه آية ﴿ وخلقنا لهم من مثله ﴾ مما يماثل الفلك ﴿ مايركبون ﴾ من

الابل فإنها سفائن البر أو عما يماثل ذلك الفلك من السفن والزوارق وجعلها مخلوقة لله تعالى مع كونهامن مصنوعات العباد ليس لمجرد كون صنعهم بأقدار الله تعالى والهامه بل لمزيد اختصاص أصلها بقدرته تعالى وحكمته حسبما يعرب عنه قوله عز وجل واصنع الفلك بأعيننا ووحينا والتعبير عن ملابستهم بهذه السفن بالركوب لأنها باختيارهم كما أن التعبير عن ملابسة ذريتهم بفلك نوح عليه السلام بالحمل لكونها بغير شعور منهم واختيار ﴿ وإن نشأ نغرقهم ﴾ الخ من تمام الآية فإنهم معترفون بمضمونه كما ينطق به قوله تعالى (وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين) وقرئ نغرقهم بالتشديد وفى تعليق الاغراق بمحض المشيئة إشعار بأنه قد تكامل ما يوجب إهلاكهم من معاصيهم ولم يبق إلا تعلق مشيئته تعالى به أى إن نشأ نغرقهم فى اليم مع ما حملناهم فيه من الفلك فحديث خلق الإبل حينئذ كلام جيء به فى خلال الآية بطريق الاستطراد لكمال التماثل بين الإبل والفلك فكأنها نوع منه أو مع ما يركبون من السفن والزوارق ﴿ فلا صريخ لهم ﴾ أى فلا مغيث لهم يحرسهم من الغرق ويدفعه عنهم قبل وقوعه وقيل فلا استغاثة لهم من قولهم أتاهم الصريخ ﴿ ولاهم ينقذون ﴾ أى ينجون منه بعد وقوعه وقوله تعالى ﴿ إلا رحمة منا ومتاعا ﴾ استثناء مفرغ من أعم العلل الشاملة للباعث المتقدم والغاية المتأخرة أى لا يغاثون ولا ينقذون لشيء من الأشياء إلا لرحمة عظيمة من قبلنا داعية إلى الاغاثة والانقاذ وتمتيع بالحياة مترتب عليهما ويجوز أن يراد بالرحمة ما يقارن التمتيع من الرحمة الدنيوية فيكون كلاهما غاية للاغاثة والانقاذ أى لنوع من الرحمة وتمتع ﴿ إلى حين ﴾ أى إلى زمان قدر فيه آجالهم كما قيل :

ولم أسلم لكى أبقى ولكى سلمت من الحمام إلى الحمام

﴿ وإذا قيل لهم اتقوا ﴾ بيان لإعراضهم عن الآيات التنزيلية بعد بيان إعراضهم عن الآيات الآفاقية التى كانوا يشاهدونها وعدم تأملهم فيها أى إذا قيل لهم بطريق الإنذار بما نزل من الآيات أو بغيره اتقوا ﴿ ما بين أيديكم وما خلفكم ﴾ من الآفات والنوازل فإنها محيطة بكم أو مايصيبكم من المكاره من حيث تحتسبون

ومن حيث لاتحتسبون أو من الوقائع النازلة على الأمم الخالية قبلكم والعذاب المعد لكم فى الآخرة أو من نوازل السماء ونوائب الأرض أو من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة أو ما تقدم من الذنوب وما تأخر ﴿لعلكم ترحمون﴾ إما حال من واو واتقوا أو غاية له أى راجين أن ترحموا أو كى ترحموا فتنجوا من ذلك لما عرفتم أن مناط النجاة ليس إلا رحمة الله تعالى وجواب إذا محذوف ثقة بانفهامه من قوله تعالى ﴿ وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين ﴾ انفهاما بينا أما إذا كان الإنذار بالآية الكريمة فبعبارة النص وأما إذا كان بغيرها فبدلالته لأنهم حين أعرضوا عن آيات ربهم فلأن يعرضوا عن غيرها بطريق الأولوية كأنه قيل وإذا قيل لهم اتقوا العذاب أعرضوا حسبما اعتادوه وما نافية وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار التجددى [1] ومن الأولى مزيدة لتأكيد العموم والثانية تبعيضية واقعة مع مجرورها صفة لآية وإضافة الآيات إلى اسم الرب المضاف إلى ضميرهم لتفخيم شأنها المستتبع لتهويل ما اجترءوا عليه فى حقها والمراد بها أما الآيات التنزيلية فإتيانها نزولها والمعنى ما ينزل إليهم آية من الآيات القرآنية التى من جملتها هذه الآيات الناطقة بما فصل من بدائع صنع الله تعالى وسوابغ آلائه الموجبة للإقبال عليها والإيمان بها إلا كانوا عنها معرضين على وجه التكذيب والاستهزاء وأما ما يعمها وغيرها من الآيات التكوينية الشاملة للمعجزات وغيرها من تعاجيب المصنوعات التى من جملتها الآيات الثلاث المعدودة آنفا فالمراد بإتيانها مايعم نزول الوحى وظهور تلك الأمور لهم والمعنى ما يظهر لهم آية من الآيات التى من جملتها ما ذكر من شئونه الشاهدة بوحدانيته تعالى وتفرده بالألوهية إلا كانوا عنها معرضين تاركين للنظر الصحيح فيها المؤدى إلى الإيمان به تعالى وإيثاره على أن يقال إلا أعرضوا عنها كما وقع مثله فى قوله تعالى : (وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر) للدلالة على استمرارهم على الإعراض حسب استمرار إتيان

---

(١) فى ١١ : المتجدد .

الآيات وعن متعلقة بمعرضين قدمت عليه مراعاة للفواصل والجملة فى حيز النصب على أنها حال من مفعول تأتى أو من فاعله المتخصص بالوصف لاشتمالها على ضمير كل منهما والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال أى ما تأتيهم من آية من آيات ربهم فى حال من أحوالهم إلا حال إعراضهم عنها أو ما تأتيهم آية منها فى حال من أحوالها إلا حال إعراضهم عنها ﴿ وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله ﴾ أى أعطاكم بطريق التفضل والإنعام من أنواع الأموال عبر عنها بذلك تحقيقا للحق وترغيبا فى الإنفاق على منهاج قوله تعالى (وأحسن كما أحسن الله إليك) وتنبيها على عظم جنايتهم فى ترك الامتثال بالأمر وكذلك من التبعيضية أى إذا قيل لهم بطريق النصيحة أنفقوا بعض ما أعطاكم الله تعالى من فضله على المحتاجين فإن ذلك مما يرد البلاء ويدفع المكاره ﴿ قال الذين كفروا ﴾ بالصانع عز وجل وهم زنادقة كانوا بمكة ﴿ للذين آمنوا ﴾ تهكما بهم وبما كانوا عليه من تعليق الأمور بمشيئة الله تعالى ﴿ أنطعم ﴾ حسبما تعظوننا به ﴿ من لو يشاء الله أطعمه ﴾ أى على زعمكم وعن ابن عباس رضى الله عنهما كان بمكة زنادقة إذا أمروا بالصدقة على المساكين قالوا لا والله أيفقره الله ونطعمه نحن وقيل قاله مشركوا قريش حين استطعمهم فقراء المؤمنين من أموالهم التى زعموا أنهم جعلوها لله تعالى من الحرث والأنعام يوهمون أنه تعالى لما لم يشأ إطعامهم وهو قادر عليه فنحن أحق بذلك وماهو إلا لفرط جهالتهم فإن الله تعالى يطعم عباده بأسباب من جملتها حث الأغنياء على إطعام الفقراء وتوفيقهم لذلك ﴿ إن أنتم إلا فى ضلال مبين ﴾ حيث تأمروننا بما يخالف مشيئة الله تعالى وقد جوز أن يكون جوابا لهم من جهته تعالى أو حكاية لجواب المؤمنين لهم ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ أى فيما تعدوننا به من قيام الساعة مخاطبين لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين لما أنهم أيضاً كانوا يتلون عليهم آيات الوعيد بقيامها ومعنى القرب فى هذا إما بطريق الاستهزاء وإما باعتبار قرب العهد بالوعد .

﴿ ما ينظرون ﴾ جواب من جهته تعالى أى ما ينتظرون ﴿ إلا صيحة

واحدة ﴾ هى النفخة الأولى ﴿ تأخذهم ﴾ مفاجأة ﴿ وهم يخصمون ﴾ أى يتخاصمون فى متاجرهم ومعاملاتهم لا يخطر ببالهم شىء من مخايلها كقوله تعالى (فأخذتهم الصاعقة بغتة وهم لا يشعرون) فلا يغتروا بعدم ظهور علائمها ولا يزعموا أنها لا تأتيهم وأصل يخصمون يختصمون فسكنت التاء وأدغمت فى الصاد ثم كسرت الخاء لالتقاء الساكنين وقرىء بكسر الياء للاتباع وبفتح الخاء على القاء حركة التاء عليه وقرىء على الاختلاس وبالإسكان على تجويز الجمع بين الساكنين إذا كان الثانى مدغما وإن لم يكن الأول حرف مد وقرىء يخصمون من خصمه إذا جادله ﴿ فلا يستطيعون توصية ﴾ فى شىء من أمورهم إن كانوا فيما بين أهليهم ﴿ ولا إلى أهلهم يرجعون ﴾ إن كانوا فى خارج أبوابهم بل تبغتهم الصيحة فيموتون حيثما كانوا ﴿ ونفخ فى الصور ﴾ هى النفخة الثانية بينها وبين الأولى أربعون سنة أى ينفخ فيه وصيغة الماضى للدلالة على تحقق الوقوع ﴿ فإذا هم من الأجداث ﴾ أى القبور جمع جدث وقرىء بالفاء ﴿ إلى ربهم ﴾ مالك أمرهم على الإطلاق ﴿ ينسلون ﴾ يسرعون بطريق الإجبار دون الاختيار لقوله تعالى لدينا محضرون وقرىء بضم السين .

﴿ قالوا ﴾ أى فى ابتداء بعثهم من القبور ﴿ يا ويلنا ﴾ احضر فهذا أوانك وقرىء يا ويلتنا ﴿ من بعثنا من مرقدنا ﴾ وقرىء من أهبنا من هب من نومه إذا انتبه وقرىء من هبنا بمعنى أهبنا وقيل أصله هب بنا فحذف الجار وأوصل الفعل إلى الضمير قيل فيه ترشيح ورمز وإشعار بأنهم لاختلاط عقولهم يظنون أنهم كانوا نياما ،وعن مجاهد أن للكفار هجعة يجدون فيها طعم النوم فإذا صيح بأهل القبور يقولون ذلك وعن ابن عباس وأبى ابن كعب وقتادة رحمهم الله تعالى أن الله تعالى يرفع عنهم العذاب بين النفختين فيرقدون فإذا بعثوا بالنفخة الثانية وشاهدوا من أهوال القيامة ما شاهدوا دعوا بالويل وقالوا ذلك وقيل إذا عاينوا جهنم وما فيها من أنواع العذاب يصير عذاب القبر فى جنبها مثل النوم فيقولون ذلك ، وقرىء (من بعثنا) ومن هبنا بمن الجارة والمصدر والمرقد إما مصدر أى من رقادنا أو اسم مكان أريد به الجنس فينتظم مراقد الكل ﴿ هذا

ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴾ جملة من مبتدأ وخبر وما موصولة محذوفة العائد أو مصدرية وهو جواب من قبل الملائكة أو المؤمنين عدل به عن سنن سؤالهم تذكيرا لكفرهم وتقريعا لهم عليه وتنبيها على أن الذى يهمهم هو السؤال عن نفس البعث ماذا هو دون [السؤال عن] (١) الباعث كأنهم قالوا بعثكم الرحمن الذى وعدكم ذلك فى كتبه وأرسل إليكم الرسل فصدقوكم فيه وليس الأمر كما تتوهمونه حتى تسألوا عن الباعث وقيل هو من كلام الكافرين حيث يتذكرون ماسمعوه من الرسل عليهم الصلاة والسلام فيجيبون به أنفسهم أو بعضهم بعضاً وقيل هذا صفة لمرقدنا وما وعد الخ خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره محذوف أى ما وعد الرحمن وصدق المرسلون حق ﴿ إن كانت ﴾ أى ما كانت النفخة التى حكيت آنفاً ﴿ إلا صيحة واحدة ﴾ حصلت من نفخ إسرافيل عليه السلام فى الصور ﴿ فإذا هم جميع ﴾ أى مجموع ﴿ لدينا محضرون ﴾ من غير لبث ما طرفة عين وفيــــه من تهوين أمر البعث والحشر والإيذان باستغنائهما عن الأسباب ما لا يخفى .

﴿ فاليوم لا تظلم نفس ﴾ من النفوس برة كانت أو فاجرة ﴿ شيئا ﴾ من الظلم ﴿ ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ أى الإجزاء ما كنتم تعملونه فى الدنيا على الاستمرار من الكفر والمعاصى على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه للتنبيه على قوة التلازم والارتباط بينهما كأنهما شىء واحد أو إلا بما كنتم تعملونه أى بمقابلته أو بسببه وتعميم الخطاب للمؤمنين يرده أنه تعالى يوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله أضعافا مضاعفة وهذه حكاية لما سيقال لهم حين يرون العذاب المعد لهم تحقيقا للحق وتقريعا لهم وقوله تعالى ﴿ إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون ﴾ من جملة ما سيقال لهم يومئذ زيادة لحسرتهم وندامتهم فإن الإخبار بحسن حال أعدائهم إثر بيان سوء حالهم مما يزيدهم مساءة على مساءة وفى هذه الحكاية مزجرة لهؤلاء الكفرة.

---

(١) ما بين الحاصرتين سقطت من الأصل .

عما هم عليه ومدعاة إلى الاقتداء بسيرة المؤمنين والشغل هو الشأن الذى يصد المرء ويشغله عما سواه من شئونه لكونه أهم عنده من الكل إما لا يجابه كال المسرة والبهجة أو كال المساءة والغم والمراد ههنا هو الأول وما فيه من التنكير والإبهام للإيذان بارتفاعه عن رتبة البيان والمراد به ما هم فيه من فنون الملاذ التى تلهيهم عما عداها بالكلية وإما أن المراد به افتضاض الأبكار أو السماع وضرب الأوتار أو التزاور أو ضيافة الله تعالى أو شغلهم عما فيه أهل النار على الاطلاق أو شغلهم عن أهاليهم فى النار لا يهمهم أمرهم ولا يبالون بهم كيلا يدخل عليهم تنغيص فى نعيمهم كما روى كل واحد منها عن واحد من أكابر السلف فليس مرادهم بذلك حصر شغلهم فيما ذكروه فقط بل بيان أنه من جملة اشتغالهم وتخصيص كل منهم كلا من تلك الأمور بالذكر محمول على اقتضاء مقام البيان إياه وهو مع جاره خبر لأن وفاكهون خبرا آخر لها أى أنهم مستقرون فى شغل وأى شغل فى شغل عظيم الشأن متنعمون بنعيم مقيم فائزون بملك كبير والتعبير عن حالهم هذه بالجملة الاسمية قبل تحققها بتنزيل المرتقب المتوقع منزلة الواقع للإيذان بغاية سرعة تحققها ووقوعها ولزيادة مساءة المخاطبين بذلك قرىء فى شغل بسكون العين وفى شغل بفتحتين وبفتحة وسكون والكل لغات وقرىء فكهون للمبالغة وفكهون بضم الكاف وهى لغة كنطس وفاكهين وفكهين على الحال من المستكن فى الظرف وقوله تعالى:

﴿هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون﴾ استئناف مسوق لبيان كيفية شغلهم وتفكههم وتكميلهما بما يزيدهم بهجة وسرورا من شركة أزواجهم لهم فيما هم فيه من الشغل والفكاهة على أن مبدأ وأزواجهم عطف عليه ومتكئون خبر والجاران صلتان له قدمتا عليه لمراعاة الفواصل أو هو والجاران بما تعلقا به من الاستقرار أخبار مترتبة وقيل الخبر هو الظرف الأول والثانى مستأنف على أنه متعلق بمتكئون وهو خبر لمبتدأ محذوف وقيل على أنه خبر مقدم ومتكئون مبتدأ مؤخر وقرىء متكئين بلا همزة نصبا على الحال من المستكن فى الظرفين أو أحدهما وقيل هم تأكيد للمستكن فى خبر أن ومتكئون

خبر آخر لها وعلى الأرائك متعلق به وكذا فى ظلال أو هذا بمضمر هو حال من المعطوفين والظلال جمع ظل كشعاب جمع شعب أو جمع ظلة كقباب جمع قبة ويؤيده فى ظلل والأرائك جمع أريكة وهى السرير المزين بالثياب والستور قال ثعلب لا تكون أريكة حتى تكون عليها حجلة وقوله تعالى

﴿ لهم فيها فاكهة ﴾ الخ بيان لما يتمتعون به فى الجنة من المآكل والمشارب وما يتلذذون به من الملاذ الجسمانية والروحانية بعد بيان ما لهم فيها من مجالس الأنس ومحافل القدس تكميلا لبيان كيفية ما هم فيه من الشغل والبهجة أى لهم فيها فاكهة كثيرة من كل نوع من أنواع الفواكه وما فى قوله تعالى ﴿ ولهم ما يدعون ﴾ موصولة أو موصوفة عبر بها عن مدعو عظيم الشأن معين أو مبهم إيذانا بأنه الحقيق بالدعاء دون ما عداهم ثم صرح به روما لزيادة التقرير بالتحقيق بعد التشويق كما ستعرفه أو هى باقية على عمومها قصد بها التعميم بعد تخصيص بعض المواد المعتادة بالذكر وأياما كان فهو مبدأ ولهم خبره والجملة معطوفة على الجملة السابقة وعدم الاكتفاء بعطف ما يدعون على فاكهة لئلا يتوهم كون ما عبارة عن توابع الفاكهة وتتماتها والمعنى ولهم ما يدعون به لأنفسهم من مدعو عظيم الشأن أو كل ما يدعون به كائنا ما كان من أسباب البهجة وموجبات السرور وأياما كان ففيه دلالة على أنهم فى أقصى غاية البهجة والغبطة ويدعون يفتعلون من الدعاء كما أشير إليه مثل اشتوى واجتمل إذا شوى وجمل لنفسه وقيل بمعنى يتداعون كالارتماء بمعنى الترامى وقيل بمعنى يتمنون من قولهم ادع على ما شئت بمعنى تمنه على وقال الزجاج هو من الدعاء أى ما يدعو به أهل الجنة يأتيهم فيكون الافتعال بمعنى الفعل كالاحتمال بمعنى الحمل والارتحال بمعنى الرحلة ويعضده القراءة بالتخفيف كما ذكره الكواشى وقوله تعالى :

﴿ سلام ﴾ على التقدير الأول بدل من ما يدعون أو خبر لمبتدأ محذوف وقوله تعالى ﴿ قولا ﴾ مصدر مؤكد لفعل هو صفة لسلام وما بعده من الجار متعلق بمضمر هو صفة له كأنه قيل ولهم سلام أو ما يدعون سلام يقال لهم

قولا كائنا ﴿من﴾ جهة ﴿رب رحيم﴾ أى يسلم عليهم من جهته تعالى بواسطة الملك أو بدونها مبالغة فى تعظيمهم قال ابن عباس رضى الله عنهما والملائكة يدخلون عليهم بالتحية من رب العالمين وأما على التقدير الثانى فقد قيل إنه خبر لما يدعون ولهم لبيان الجهة كما يقال لزيد الشرف متوفر على أن الشرف مبتدأ ومتوفر خبره والجار والمجرور لبيان من له ذلك أى ما يدعون سالم لهم خالص لا شوب فيه وقولا حينئذ مصدر مؤكد لمضمون الجملة أى عدة من رب رحيم والأوجه أن ينتصب على الاختصاص وقيل هو مبتدأ محذوف الخبر أى لهم سلام أى تسليم قولا من رب رحيم أو سلامة من الآفات فيكون قولا مصدرا مؤكدا لمضمون الجملة كما سبق وقيل تقديره سلام عليهم فيكون حكاية لما سيقال لهم من جهته تعالى يومئذ وقيل خبره الفعل المقدر ناصبا لقولا وقيل خبره من رب رحيم وقرىء سلاما بالنصب على الحالية أى لهم مرادهم سالما خالصا وقرىء سلم وهو بمعنى السلام فى المعنيين .

﴿وامتازوا اليوم﴾ عطف إما على الجملة السابقة المسوقة لبيان أحوال أهل الجنة لا على أن المقصود عطف فعل الأمر بخصوصه حتى يتحمل له مشاكل يصح عطفه عليه بل على أنه عطف قصة سوء حال هؤلاء وكيفية عقابهم على قصة حسن حال أولئك ووصف ثوابهم كما مر فى قوله تعالى (وبشر الذين آمنوا) الآية وكأن تغيير السبك لتخييل كمال التباين بين الفريقين وحاليهما وإما على مضمر تنساق إليه حكاية حال أهل الجنة كأنه قيل إثر بيان كونهم فى شغل عظيم الشأن وفوزهم بنعيم مقيم يقصر عنه البيان فليقروا بذلك عينا وامتازوا عنهم ﴿أيها المجرمون﴾ إلى مصيركم وعن قتادة اعتزلوا عن كل خير وعن الضحاك لكل كافر بيت من النار يكون فيه لا يرى ولا يرى وأما ما قيل من أن المضمر فليمتازوا فبمعزل من السداد لما أن المحكى عنهم ليس مصيرهم إلى ما ذكر من الحال المرضية حتى يتسنى ترتيب الأمر المذكور عليه بل إنما هو استقرارهم عليها بالفعل وكون ذلك بطريق تنزيل المترقب منزلة الواقع لا يجدى نفعا لأن مناط الإضمار إنسياق الإفهام إليه وانصباب نظم الكلام عليه فبعد

ما نزلت تلك الحالة منزلة الواقع بالفعل لما اقتضاه المقام من النكتة البارعة والحكمة الرائعة حسبما مر بيانه وأسقط كونها مترقبة عن درجة الاعتبار بالكلية يكون التصدى لإضمار شيء يتعلق به إخراجا للنظم الكريم عن الجزالة بالمرة.

﴿ ألم أعهد إليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان ﴾ من جملة ما يقال لهم بطريق التقريع والإلزام والتبكيت بين الأمر بالامتياز وبين الأمر بدخول جهنم بقوله تعالى (اصلوها اليوم) الخ والعهد [هو] [1] الوصية والتقدم بأمر فيه خير ومنفعة والمراد ههنا ما كلفهم الله تعالى على ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام من الأوامر والنواهى التى من جملتها قوله تعالى (يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة) الآية وقوله تعالى (ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين) وغيرهما من الآيات الكريمة الواردة فى هذا المعنى وقيل هو الميثاق المأخوذ عليهم حين أخرجوا من ظهور بنى آدم وأشهدوا على أنفسهم وقيل هو ما نصب لهم من الحجج العقلية والسمعية الآمرة بعبادته تعالى الزاجرة عن عبادة غيره والمراد بعبادة الشيطان طاعته فيما يوسوس به إليهم ويزينه لهم عبر عنها بالعبادة لزيادة التحذير والتنفير عنها ولوقوعها فى مقابلة عبادته عز وجل وقرىء إعهد بكسر الهمزة وأعهد بكسر الهاء وأحهد بالحاء مكان العين وأحد بالإدغام وهى لغة بنى تميم ﴿ إنه لكم عدو مبين ﴾ أى ظاهر العداوة وهو تعليل لوجوب الانتهاء عن المنهى عنه وقيل تعليل للنهى .

﴿ وأن اعبدونى ﴾ عطف على أن لا تعبدوا على أن أن فيهما مفسرة للعهد الذى فيه معنى القول بالنهى والأمر أو مصدرية حذف عنها الجار أى ألم أعهد إليكم فى ترك عبادة الشيطان وفى عبادتى وتقديم النهى على الأمر لما أن حق التخلية كما فى كلمة التوحيد وليتصل به قوله تعالى ﴿ هذا صراط مستقيم ﴾ فإنه إشارة إلى عبادته تعالى التى هى عبارة عن التوحيد والإسلام وهو المشار إليه بقوله تعالى (هذا صراط على مستقيم) والمقصود بقوله تعالى (لأقعدن لهم صراطك المستقيم)

---

(١) سقطت من : ط .

والتنكير للتفخيم واللام فى قوله تعالى ﴿ ولقد أضل منكم جبلا كثيرا ﴾ جواب قسم محذوف والجملة استئناف مسوق لتشديد التوبيخ وتأكيد التقريع ببيان أن جناياتهم ليست بنقض العهد فقط بل به وبعدم الاتعاظ بما شاهدوا من العقوبات النازلة على الأمم الخالية بسبب طاعتهم للشيطان فالخطاب لمتأخريهم الذين من جملتهم كفار مكة خصوا بزيادة التوبيخ والتقريع لتضاعف جناياتهم والجبل بكسر الجيم والباء وتشديد اللام الخلق وقرىء بضمتين وتشديد وبضمتين وتخفيف وبضمة وسكون وبكسرتين وتخفيف وبكسرة وسكون والكل لغات وقرىء جبلا جمع جبلة كفطر وخلق فى جمع فطرة وخلقة وقرىء جيلا بالياء وهو الصنف من الناس أى وبالله لقد أضل منكم خلقا كثيرا أو صنفا كثيرا عن ذلك الصراط المستقيم الذى أمرتكم بالثبات عليه فأصابهم لأجل ذلك ما أصابهم من العقوبات الهائلة التى ملأ الآفاق أخبارها وبقى مدى الدهر آثارها والفاء فى قوله تعالى ﴿ أفلم تكونوا تعقلون ﴾ للعطف على مقدر يقتضيه المقام اى أكنتم تشاهدون آثار عقوباتهم فلم تكونوا تعقلون أنها لضلالهم أوفلم تكونوا تعقلون شيئا أصلا حتى ترتدعوا عما كانوا عليه كيلا يحيق بكم العقاب وقوله تعالى :

﴿ هذه جهنم التى كنتم توعدون ﴾ استئناف يخاطبون به بعد تمام التوبيخ والتقريع والإلزام والتبكيت عند إشرافهم على شفير جهنم أى كنتم توعدونها على ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام بمقابلة عبادة الشيطان مثل قوله تعالى (لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين) وقوله تعالى (اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا) وقوله تعالى (قال اخرج منها مذؤما مدحورا لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين) وغير ذلك مما لا يحصى وقوله تعالى ﴿ اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون ﴾ أمر تنكيل وإهانة كقوله تعالى (ذق أنك أنت العزيز) الخ أى ادخلوها من فوق وقاسوا فنون عذابها اليوم بكفركم المستمر فى الدنيا وقوله تعالى ﴿ اليوم نختم على أفواههم ﴾ أى نختما بمنعها عن الكلام التفات إلى الغيبة للإيذان بأن ذكر أحوالهم القبيحة استدعى أن يعرض

عنهم ويحكى أحوالهم الفظيعة لغيرهم مع ما فيه من الإيماء إلى أن ذلك من مقتضيات الختم لأن الخطاب لتلقى الجواب وقد انقطع بالكلية وقرىء تختم ﴿ وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ﴾ يروى أنهم يجحدون ويخاصمون فيشهد عليهم جيرانهم وأهاليهم وعشائرهم فيحلفون ما كانوا مشركين فحينئذ يختم على أفواههم وتكلم أيديهم وأرجلهم وفى الحديث يقول العبد يوم القيامة إنى لا أجيز على شاهدا إلا من نفسى فيختم على فيه ويقال لأركانه انطقى فتنطق بأعماله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول بعدا لكن وسحقا فعنكن كنت أناضل وقيل تكليم الأركان وشهادتها على أفعالها وظهور آثار المعاصى عليها وقرىء وتتكلم أيديهم وقرىء ولتكلمنا أيديهم وتشهد بلام كى والنصب على معنى ولذلك نختم على أفواههم وقرىء ولتكلمنا أيديهم ولتشهد بلام الأمر والجزم ﴿ ولو نشاء لطمسنا على أعينهم ﴾ الطمس تعفية شق العين حتى تعود ممسوحة ومفعول المشيئة محذوف على القاعدة المستمرة التى هى وقوعها شرطا وكون مفعولها مضمون الجزاء أى لو نشاء أن نطمس على أعينهم لفعلناه وإيثار صيغة الاستقبال وإن كان المعنى على المضى لإفادة أن عدم الطمس على أعينهم لاستمرار عدم المشيئة فإن المضارع المنفى الواقع موقع الماضى ليس بنص فى إفادة انتفاء استمرار انتفائه بحسب المقام كما مر فى قوله تعالى (ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير) ﴿ فاستبقوا الصراط ﴾ أى فأرادوا أن يستبقوا إلى الطريق الذى اعتادوا سلوكه على أن انتصابه بنزع الجار أو هو بتضمين الاستباق معنى الابتدار أو بالظرفية ﴿ فأنى يبصرون ﴾ الطريق وجهة السلوك ﴿ ولو نشاء لمسخناهم ﴾ بتغيير صورهم وإبطال قواهم ﴿ على مكانتهم ﴾ أى مكانهم إلا أن المكانة أخص كالمقامة والمقام وقرىء على مكاناتهم أى لمسخناهم مسخا يجمدهم مكانهم لا يقدرون أن يبرحوه بإقبال ولا إدبار ولا رجوع وذلك قوله تعالى ﴿ فما استطاعوا مضيا ولا يرجعون ﴾ أى ولا رجوعا فوضع موضعه الفعل لمراعاة الفاصلة عن ابن عباس رضى الله عنهما قردة وخنازير وقيل حجارة وعن قتادة لأقعدناهم على أرجلهم وأزمناهم وقرىء مضيا بكسر الميم وفتحها وليس

مساق الشرطيتين لمجرد بيان قدرته تعالى على ما ذكر من عقوبة الطمس والمسخ بل لبيان أنهم بما هم عليه من الكفر ونقض العهد وعدم الاتعاظ بما شاهدوا من آثار دمار أمثالهم أحقاء بأن يفعل بهم فى الدنيا تلك العقوبة كما فعل بهم فى الآخرة عقوبة الحتم وأن المانع من ذلك ليس إلا عدم تعلق المشيئة الإلهية كأنه قيل لو نشاء عقوبتهم بما ذكر من الطمس والمسخ جريا على موجب جناياتهم المستدعية لها لفعلناها ولكنا لم نشأها جريا على سنن الرحمة والحكمة الداعيتين إلى إمهالهم ﴿ ومن نعمره ﴾ أى نطل عمره ﴿ ننكسه فى الخلق ﴾ أى نقلبه فيه ونخلقه على عكس ما خلقناه أولا فلا يزال يتزايد ضعفه وتتناقص قوته وتنتقص بنيته ويتغير شكله وصورته حتى يعود إلى حالة شبيهة بحال الصبى فى ضعف الجسد وقلة العقل والخلو عن الفهم والإدراك وقرىء ننكسه من الثلاثى المجرد وننكسه من الإنكاس ﴿ أفلا يعقلون ﴾ أى أيرون ذلك فلا يعقلون أن من قدر على ذلك يقدر على ما ذكر من الطمس والمسخ وأن عدم إيقاعهما لعدم تعلق مشيئته تعالى بهما وقرىء تعقلون بالتاء لجرى الخطاب قبله

﴿ وما علمناه الشعر ﴾ رد وإبطال لما كانوا يقولونه فى حقه عليه الصلاة والسلام من أنه شاعر وما يقوله شعر أى ما علمناه الشعر بتعليم القرآن على أن القرآن ليس بشعر فإن الشعر كلام متكلف موضوع ومقال مزخرف مصنوع منسوج على منوال الوزن والقافية مبنى على خيالات وأوهام واهية فأين ذلك من التنزيل الجليل الخطر المنزه عن مماثلة كلام البشر المشحون بفنون الحكم والأحكام الباهرة الموصلة إلى سعادة الدنيا والآخرة ومن أين اشتبه عليهم الشؤن واختلط بهم الظنون قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴿ وما ينبغى له ﴾ وما يصح له الشعر ولا يتأتى له لو طلبه أى جعلناه بحيث لو أراد قرض الشعر لم يتأت له كما جعلناه أميا لا يهتدى للخط لتكون الحجة أثبت والشبهة أدحض وأما قوله عليه الصلاة والسلام أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب وقوله عليه الصلاة والسلام هل أنت إلا أصبع دميت وفى سبيل الله ما لقيت فمن قبيل الاتفاقات الواردة من غير قصد إليها وعزم على ترتيبها وقيل الضمير فى له للقرآن أى وما ينبغى للقرآن

أن يكون شعرا ﴿ إن هو ﴾ أى ما للقرآن ﴿ إلا ذكر ﴾ أى عظة من الله عز وجل وإرشاد للثقلين كما قال تعالى (إن هو إلا ذكر للعالمين) ﴿ وقرآن مبين ﴾ أى كتاب سماوى بين كونه كذلك أو فارق بين الحق والباطل يقرأ فى المحاريب ويتلى فى المعابد وينال بتلاوته والعمل بما فيه فوز الدارين فكم بينه وبين ماقالوا ﴿ لينذر ﴾ أى القرآن أو الرسول عليه الصلاة والسلام ويؤيده القراءة بالتاء وقرىء لينذر من نذر به أى علمه ولينذر مبنيا للمفعول من الإنذار ﴿ من كان حيا ﴾ أى عاقلا متأملا فإن الغافل بمنزلة الميت أو مؤمنا فى علم الله تعالى فإن الحياة الأبدية بالإيمان وتخصيص الإنذار به لأنه المنتفع به ﴿ ويحق القول ﴾ أى تجب كلمة العذاب ﴿ على الكافرين ﴾ المصرين على الكفر وفى إيرادهم بمقابلة من كان حيا إشعار بأنهم لخلوهم عن آثار الحياة وأحكامها التى هى المعرفة أموات فى الحقيقة .

﴿ أولم يروا ﴾ الهمزة للإنكار والتعجيب والواو للعطف على جملة منفية مقدرة مستتبعة للمعطوف أى ألم يتفكروا أو ألم يلاحظوا ولم يعلموا علما يقينيا متاخما للمعاينة ﴿ أنا خلقنا لهم ﴾ أى لأجلهم وانتفاعهم ﴿ مما عملت أيدينا ﴾ أى مما تولينا إحداثه بالذات وذكر الأيدى وإسناد العمل إليها استعارة تفيد مبالغة فى الاختصاص والتفرد بالأحداث والاعتناء به ﴿ أنعاما ﴾ مفعول خلقنا وتأخيره عن الجارين المتعلقين به مع أن حقه التقدم عليهما لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر فإن ما حقه التقديم إذا أخر تبقى النفس مترقبة له فيتمكن عند وروده عليها فضل تمكن لاسيما عند كون المقدم منبئا عن كون المؤخر أمرا نافعا خطيرا كما فى النظم الكريم فإن الجار الأول المعرب عن كون المؤخر من منافعهم والثانى المفصح عن كونه من الأمور الخطيرة يزيدان النفس شوقا إليه ورغبة فيه ولأن فى تأخيره جمعا بينه وبين أحكامه المتفرعة عليه بقوله تعالى ﴿ فهم لها مالكون ﴾ الآيات الثلاث أى تملكناها إياهم وإيثار الجملة الاسمية على ذلك للدلالة على استقرار مالكيتهم لها واستمرارها واللام متعلقة بمالكون مقوية لعمله أى فهم مالكون لها بتمليكنا

إياها لهم متصرفون فيها بالاستقلال مختصون بالانتفاع بها لا يزاحمهم فى ذلك غيرهم أو قادرون على ضبطها متمكنون من التصرف فيها بأقدارنا وتمكيننا وتسخيرنا إياها لهم كما فى قول من قال :

أصبحت لا أحمل السلاح ولا أملك رأس البعير إن نفرا

والأول هو الأظهر ليكون قوله تعالى ﴿وذللناها لهم﴾ تأسيسا لنعمة على حيالها لا تتمة لما قبلها أى صيرناها منقادة لهم بحيث لا تستعصى عليهم فى شىء مما يريدون بها حتى الذبح حسبما ينطق به قوله تعالى ﴿ فمنها ركوبهم ﴾ الخ فإن الفاء فيه لتفريع أحكام التذليل عليه وتفصيلها أى فبعض منها ركوبهم أى مركوبهم أى معظم منافعها الركوب وعدم التعرض للحمل لكونه من تتمات الركوب وقرىء ركوبتهم وهى بمعناه كالحلوب والحلوبة وقيل الركوبة اسم جمع وقرىء ركوبهم أى ذو ركوبهم ﴿ ومنها يأكلون ﴾ أى وبعض منها يأكلون لحمه ﴿ولهم فيها﴾ أى فى الأنعام بكلا قسميها ﴿ منافع ﴾ أخر غير الركوب والأكل كالجلود والأصواف والأوبار وغيرها وكالحراثة بالثيران ﴿ ومشارب ﴾ من اللبن جمع مشرب وهذا مجمل ما فصل فى سورة النحل ﴿ أفلا يشكرون ﴾ أى أيشاهدون هذه النعم أو أيتنعمون بها فلا يشكرون المنعم بها .

﴿ واتخذوا من دون الله ﴾ أى متجاوزين الله تعالى الذى شاهدوا تفرده بتلك القدرة الباهرة وتفضله عليهم بهاتيك النعم المتظاهرة ﴿ آلهة ﴾ من الأصنام وأشركوها به تعالى فى العبادة ﴿ لعلهم ينصرون ﴾ رجاء أن ينصروا من جهتهم فيما حزبهم من الأمور أو يشفعوا لهم فى الآخرة وقوله تعالى ﴿ لا يستطيعون نصرهم ﴾ الخ استئناف سيق لبيان بطلان رأيهم وخيبة رجائهم وانعكاس تدبيرهم أى لا تقدر آلهتهم على نصرهم ﴿وهم﴾ أى المشركون ﴿لهم﴾ أى لآلهتهم ﴿ جند محضرون ﴾ يشيعونهم عند مساقهم إلى النار وقيل معدون فى الدنيا لحفظهم وخدمتهم والذب عنهم ولا يساعده مساق النظم الكريم فإن الفاء فى قوله تعالى ﴿ فلا يحزنك قولهم ﴾ لترتيب النهى على ما قبله فلا بد أن يكون عبارة عن خسرانهم وحرمانهم عما علقوا به أطماعهم الفارغة وانعكاس

الأمر عليهم بترتب الشر على ما رتبوه لرجاء الخير فإن ذلك مما يهون الخطب ويورث السلوة وأما كونهم معدين لخدمتهم وحفظهم فبمعزل من ذلك والنهى وإن كان بحسب الظاهر متوجها إلى قولهم لكنه فى الحقيقة متوجه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ونهى له عليه السلام عن التأثر منه بطريق الكناية على أبلغ وجه وآكده فإن النهى عن أسباب الشىء ومبادئه المؤدية إليه نهى عنه بالطريق البرهانى وإبطال للسببية وقد يوجه النهى إلى المسبب ويراد النهى عن السبب كما فى قوله لا أرينك ههنا يريد به نهى مخاطبه عن الحضور لديه والمراد بقولهم ما ينبىء عنه ما ذكر من اتخاذهم الأصنام آلهة فإن ذلك مما لا يخلو عن التفوه بقولهم هؤلاء آلهتنا وأنهم شركاء لله سبحانه فى المعبودية وغير ذلك مما يورث الحزن وقرىء يحزنك بضم الياء وكسر الزاى من أحزن المنقول من حزن اللازم وقوله تعالى :

﴿ إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ تعليل صريح للنهى بطريق الاستئناف بعد تعليله بطريق الإشعار فإن العلم بما ذكر مستلزم للمجازاة قطعا أى إنا نجازيهم بجميع جناياتهم الخافية والبادية التى لا يعزب عن علمنا شىء منها وفيه فضل تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتقديم السر على العلن إما للمبالغة فى بيان شمول علمه تعالى لجميع المعلومات كأن علمه تعالى بما يسرونه أقدم منه بما يعلنونه مع استوائهما فى الحقيقة فإن علمه تعالى بمعلوماته ليس بطريق حصول صورها بل وجود كل شىء فى نفسه علم بالنسبة إليه تعالى وفى هذا المعنى لايختلف الحال بين الأشياء البارزة والكامنة وإما لأن مرتبة السر متقدمة على مرتبة العلن إذ ما من شىء يعلن إلا وهو أو مباديه مضمر فى القلب قبل ذلك فتعلق علمه تعالى بحالته الأولى متقدم على تعلقه بحالته الثانية حقيقة .

﴿ أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة ﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان بطلان إنكارهم البعث بعد ما شاهدوا فى أنفسهم أوضح دلائله وأعدل شواهده كما أن ماسبق مسوق لبيان بطلان إشراكهم بالله تعالى بعد ماعاينوا فيما بأيديهم مما يوجب التوحيد والإسلام وأما ماقيل من أنه تسلية ثانية لرسول الله صلى الله

عليه وسلم بتهوين مايقولونه بالنسبة إلى إنكارهم الحشر فكلا والهمزة للإنكار والتعجيب والواو للعطف على جملة مقدرة هي مستتبعة للمعطوف كما مر في الجملة الإنكارية السابقة أي ألم يتفكر الإنسان ولم يعلم علما يقينيا أنا خلقناه من نطفة الخ أو هي عين الجملة السابقة أعيدت تأكيدا للنكير السابق وتمهيدا لإنكار ما هو أحق منه بالإنكار والتعجيب لما أن المنكر هناك عدم علمهم بما يتعلق بخلق أسباب معايشهم وههنا عدم علمهم بما يتعلق بخلق أنفسهم ولا ريب في أن علم الإنسان بأحوال نفسه أهم وإحاطته بها أسهل وأكمل فالإنكار والتعجيب من الإخلال بذلك أدخل كأنه قيل ألم يعلموا خلقه تعالى لأسباب معايشهم ولم يعلموا خلقه تعالى لأنفسهم أيضاً مع كون العلم بذلك في غاية الظهور ونهاية الأهمية على معنى أن المنكر الأول بعيد قبيح والثاني أبعد وأقبح ويجوز أن تكون الواو لعطف الجملة الإنكارية الثانية على الأولى على أنها متقدمة في الاعتبار وأن تقدم الهمزة عليها لاقتضائها الصدارة في الكلام كما هو رأي الجمهور وإيراد الإنسان مورد الضمير لأن مدار الإنكار متعلق بأحواله من حيث هو إنسان كما في قوله تعالى (أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً) وقوله تعالى :

﴿ فإذا هو خصيم مبين ﴾ أي شديد الخصومة والجدال بالباطل عطف على الجملة المنفية داخل في حيز الإنكار والتعجيب كأنه قيل أولم ير أنا خلقناه من أخس الأشياء وأمهنها ففاجأ خصومتنا في أمر يشهد بصحته وتحققه مبدأ فطرته شهادة بينة وإيراد الجملة الاسمية للدلالة على استقراره في الخصومة واستمراره عليها روى أن جماعة من كفار قريش منهم أبي بن خلف الجمحي وأبو جهل والعاص بن وائل والوليد بن المغيرة تكلموا في ذلك فقال لهم أبي بن خلف الاترون إلى مايقول محمد إن الله يبعث الأموات ثم قال واللات والعزى لأصيرن إليه ولأخصمنه وأخذ عظما باليا فجعل يفته بيده ويقول يا محمد أترى الله يحيي هذا بعد ما رم [1] قال صلى الله عليه وسلم نعم ويبعثك ويدخلك جهنم فنزلت

(١) في ١١ : بعد ما أرم . ومثله في سيرة ابن هشام .

وقيل معنى قوله تعالى (فإذا هو خصيم مبين) فإذا هو بعد ما كان ماء مهينا رجل مميز منطيق قادر على الخصام مبين معرب عما فى نفسه فصيح فهو حينئذ معطوف على خلقنا غير داخل تحت الإنكار والتعجيب بل هو من متممات شواهد صحة البعث فقوله تعالى ﴿ وضرب لنا مثلا ﴾ معطوف حينئذ على الجملة المنفية داخل فى حيز الإنكار والتقبيح وأما على التقدير الأول فهو عطف على الجملة الفجائية والمعنى ففاجأ خصومتنا وضرب لنا مثلا أى أورد فى شأننا قصة عجيبة فى نفس الأمر هى فى الغرابة والبعد عن العقول كالمثل وهى إنكار إحيائنا العظام أو قصة عجيبة فى زعمه واستبعدها وعدها من قبيل المثل وأنكرها أشد الإنكار وهى إحياؤنا إياها وجعل لنا مثلا ونظيرا من الخلق وقاس قدرتنا على قدرتهم ونفى الكل على العموم وقوله تعالى ﴿ ونسى خلقه ﴾ أى خلقنا إياه على الوجه المذكور الدال على بطلان ما ضربه إما عطف على ضرب داخل فى حيز الإنكار والتعجيب أو حال من فاعله بإضمار قد أو بدونه وقوله تعالى :

﴿ قال ﴾ استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من حكاية ضرب به المثل كأنه قيل أى مثل ضرب أو ماذا قال فقيل قال ﴿ من يحيى العظام ﴾ منكرا له أشد النكير مؤكدا له بقوله تعالى ﴿ وهى رميم ﴾ أى بالية أشد البلى بعيدة من الحياة غاية البعد فالمثل على الأول هو إنكار إحيائه تعالى للعظام فإنه أمر عجيب فى نفس الأمر حقيق لغرابته وبعده من العقول بأن يعد مثلا ضرورة جزم العقول ببطلان الإنكار ووقوع المنكر لكونه كالإنشاء بل أهون منه فى قياس العقل وعلى الثانى هو إحياؤه تعالى لها فإنه أمر عجيب فى زعمه قد استبعده وعده من قبيل المثل وأنكره أشد الإنكار مع أنه فى نفس الأمر أقرب شىء من الوقوع لما سبق من كونه مثل الإنشاء أو أهون منه وأما على الثالث فلا فرق بين أن يكون المثل هو الإنكار أو المنكر وعدم تأنيث الرميم مع وقوعه خبرا للمؤنث لأنه اسم لما بلى من العظام غير صفة كالرفات وقد تمسك بظاهر الآية الكريمة من أثبت للعظم حياة وبنى عليه الحكم بنجاسة عظم الميتة وأما أصحابنا فلا يقولون بحياته كالشعر ويقولون المراد بإحياء العظام ردها إلى ما كانت عليه

من الغضاضة والرطوبة فى بدن حى حساس ﴿ قل ﴾ تبكيتا له بتذكير ما نسيه من فطرته الدالة على حقيقة الحال وإرشاده إلى طريقة الاستشهاد بها ﴿ يحييها الذى أنشأها أول مرة ﴾ فإن قدرته كما هى لاستحالة التغير فيها والمادة على حالها ﴿وهو بكل خلق عليم ﴾ مبالغ فى العلم بتفاصيل كيفيات الخلق والإيجاد إنشاء وإعادة محيط بجميع الأجزاء المتفتتة المتبددة لكل شخص من الأشخاص أصولها وفروعها وأوضاع بعضها من بعض من الاتصال والانفصال والاجتماع والافتراق فيعيد كلا من ذلك على النمط السابق مع القوى التى كانت قبل والجملة إما اعتراض تذييلى مقرر لمضمون الجواب أو معطوفة على الصلة والعدول إلى الجملة الاسمية للتنبيه على أن علمه تعالى بما ذكر أمر مستمر ليس كإنشائه للمنشآت. وقوله تعالى :

﴿ الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا ﴾ بدل من الموصول الأول وعدم الاكتفاء بعطف صلته على صلته للتأكيد ولتفاوتهما فى كيفية الدلالة أى خلق لأجلكم ومنفعتكم منه نارا على أن الجعل إبداعى والجاران متعلقان به قدما على مفعوله الصريح مع تأخرهما عنه رتبة لما مر من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر ووصف الشجر بالأخضر نظراً إلى اللفظ وقد قرىء الخضراء نظراً إلى المعنى وهو المرخ والعفار يقطع الرجل منهما عصيتين مثل السواكين وهما خضراوان يقطر منهما الماء فيسحق المرخ وهو ذكر على العفار وهو أنثى فتنقدح النار باذن الله تعالى وذلك قوله تعالى ﴿ فاذا أنتم منه توقدون ﴾ فمن قدر على إحداث النار من الشجر الأخضر مع ما فيه من المائية المضادة لها بكيفيته كان أقدر على إعادة الغضاضة إلى ما كان غضا فطرأ عليه اليبوسة والبلى وقوله تعالى ﴿ أوليس الذى خلق السموات والأرض ﴾ الخ استئناف مسوق من جهته عز وجل لتحقيق مضمون الجواب الذى أمر عليه الصلاة والسلام بأن يخاطبهم بذلك ويلزمهم الحجة والهمزة للإنكار والنفى والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى أليس الذى أنشأها أول مرة وليس الذى جعل لهم من الشجر الأخضر نارا وليس الذى خلق السموات والأرض مع كبر جرمهما

وعظم شأنهما ﴿ بقادر على أن يخلق مثلهم ﴾ فى الصغر والقماءة بالنسبة إليهما فإن بديهة العقل قاضية بأن من قدر على خلقهما فهو على خلق الأناسى أقدر كما قال تعالى (لخلق السموات والأرض أكبر من الناس) وقرىء يقدر وقوله تعالى ﴿ بلى ﴾ جواب من جهته تعالى وتصريح بما أفاده الاستفهام الإنكارى من تقرير ما بعد النفى وإيذان بتعين الجواب نطقوا به أو تلعثموا فيه مخافة الإلزام وقوله تعالى ﴿ وهو الخلاق العليم ﴾ عطف على ما يفيده الإيجاب أى بلى هو قادر على ذلك وهو المبالغ فى الخلق والعلم كيفا وكما ﴿ إنما أمره ﴾ أى شأنه ﴿ إذا أراد شيئاً ﴾ من الأشياء ﴿ أن يقول له كن ﴾ أى أن يعلق به قدرته ﴿ فيكون ﴾ فيحدث من غير توقف على شىء آخر أصلا وهذا تمثيل لتأثير قدرته تعالى فيما أراده بأمر الآمر المطاع المأمور المطيع فى سرعة حصول المأمور به من غير توقف على شىء ما وقرىء فيكون بالنصب عطفا على يقول ﴿ فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء ﴾ تنزيه له عز وعلا عما وصفوه تعالى به وتعجيب مما قالوا فى شأنه تعالى وقد مر تحقيق معنى سبحان والفاء للإشارة إلى أن ما فصل من شؤنه تعالى موجبة لتنزهه وتنزيهه أكمل إيجاب كما أن وصفه تعالى بالمالكية الكلية المطلقة للإشعار بأنها مقتضية لذلك أتم اقتضاء والملكوت مبالغة فى الملك كالرحموت والرهبوت وقرىء ملكة كل شىء ومملكة كل شىء وملك كل شىء ﴿ وإليه ترجعون ﴾ لا إلى غيره وقرىء ترجعون بفتح التاء من الرجوع وفيه من الوعد والوعيد ما لا يخفى . عن ابن عباس رضى الله عنهما كنت لا أعلم ما روى فى فضائل يس وقراءتها كيف خصت بذلك فإذا أنه لهذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن لكل شىء قلبا وإن قلب القرآن يس من قرأها يريد بها وجه الله تعالى غفر الله له وأعطى من الأجر كأنما قرأ القرآن اثنتين وعشرين مرة وأيما مسلم قرىء عنده إذا نزل به ملك الموت سورة يس نزل بكل حرف منها عشرة أملاك يقومون بين يديه صفوفا يصلون عليه ويستغفرون له ويشهدون غسله ويتبعون جنازته ويصلون عليه ويشهدون دفنه وأيما مسلم قرأ يس وهو فى سكرات الموت لم يقبض ملك الموت روحه حتى يجيئه رضوان

خازن الجنة بشربة من شراب الجنة فيشربها وهو على فراشه فيقبض ملك الموت روحه وهو ريان ويمكث فى قبره وهو ريان ولا يحتاج إلى حوض من حياض الأنبياء حتى يدخل الجنة وهو ريان . وقال صلى الله تعالى عليه وسلم إن فى القرآن سورة تشفع لقارئها وتستغفر لمستمعها ألا وهى سورة يس .

* **

سورة الصافات

مكية ، وآيها مائة وإحدى أو اثنتان وثمانون آية

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿والصافات صفا﴾ إقسام من الله عز وجل بطوائف الملائكة الفاعلات للصفوف على أن المراد إيقاع نفس الفعل من غير قصد إلى المفعول أوالصافات أنفسها أى الناظمات أنفسها أى الناظمات لها فى سلك الصفوف بقيامها فى مقاماتها المعلومة حسبما ينطق به قوله تعالى (وما منا إلا له مقام معلوم) وعلى هذين المعنيين مدار قوله تعالى (وإنا لنحن الصافون) وقيل الصافات أقدامها فى الصلاة وقيل أجنحتها فى الهواء ﴿ فالزاجرات زجرا ﴾ أى الفاعلات للزجر أو الزاجرات لما نيط بها زجره من الأجرام العلوية والسفلية وغيرها على وجه يليق بالمزجور ومن جملة ذلك زجر العباد عن المعاصى وزجر الشياطين عن الوسوسة والإغواء وعن استراق السمع كما سيأتى وصفا وزجرا مصدران مؤكدان لما قبلهما أى صفا بديعا وزجرا بليغا وأما ذكرا فى قوله تعالى : ﴿ فالتاليات ذكرا ﴾ فمفعول التاليات ذكرا عظيم الشأن من آيات الله تعالى وكتبه المنزلة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وغيرها من التسبيح والتقديس والتحميد والتمجيد وقيل هو أيضاً مصدر مؤكد لما قبله فإن التلاوة من باب الذكر ثم إن هذه الصفات إن أجريت على الكل فعطفها بالفاء للدلالة على

ترتبها فى الفضل إما بكون الفضل للصف ثم للزجر ثم للتلاوة أو على العكس وإن أجريت كل واحدة منهن على طوائف معينة فهو للدلالة على ترتب الموصوفات فى مراتب الفضل بمعنى أن طوائف الصافات ذوات فضل والزاجرات أفضل والتاليات أبهر فضلا أو على العكس وقيل المراد بالمذكورات نفوس العلماء العمال الصافات أنفسها فى صفوف الجماعات وأقدامها فى الصلوات الزاجرات بالمواعظ والنصائح التاليات آيات الله تعالى الدارسات شرائعه وأحكامه وقيل طوائف الغزاة الصافات أنفسهم فى مواطن الحروب كأنهم بنيان مرصوص أو طوائف قوادهم الصافات لهم فيها الزاجرات الخيل للجهاد سوقا والعدو فى المعارك طرداً لتاليات آيات الله تعالى وذكره وتسبيحه فى تضاعيف ذلك والكلام فى العطف ودلالته على ترتب الصفات فى الفضل أو ترتب موصوفاتها فيه كالذى سلف وأما الدلالة على الترتب فى الوجود كما فى قوله :

يالهف زبابة للحرث الـــصابح فالغانم فالآيب

فغير ظاهرة فى شىء من الطوائف المذكورة فإنه لو سلم تقدم الصف على الزجر فى الملائكة والغزاة فتأخر التلاوة عن الزجر غير ظاهر وقيل الصافات الطير من قوله تعالى والطير صافات والزاجرات كل ما يزجر عن المعاصى والتاليات كل من يتلو كتاب الله تعالى وقيل الزاجرات القوارع القرآنية وقرىء بادغام التاء فى الصاد والزاى والذال .

﴿إن إلهكم لواحد﴾ جواب للقسم والجملة تحقيق للحق الذى هو التوحيد بما هو المألوف فى كلامهم من التأكيد القسمى وتمهيد لما يعقبه من البرهان الناطق به أعنى قوله تعالى ﴿رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق﴾ فإن وجودها وانتظامها على هذا النمط البديع من أوضح دلائل وجود الصانع وعلمه وقدرته وأعدل شواهد وحدته كما مر فى قوله تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) ورب خبر ثان لأن أو خبر لمبتدأ محذوف اى مالك السموات والأرض وما بينهما من الموجودات ومربيها ومبلغها الى كمالاتها والمراد بالمشارق

مشارق الشمس وإعادة الرب فيها لغاية ظهور آثار الربوبية فيها وتجددها كل يوم فإنها ثلثمائة وستون مشرقا تشرق كل يوم من مشرق منها وبحسبها تختلف المغارب وتغرب كل يوم فى مغرب منها وأما قوله تعالى (رب المشرقين ورب المغربين) فهما مشرقا الصيف والشتاء ومغرباهما ﴿إنا زينا السماء الدنيا﴾ أى القربى منكم ﴿بزينة﴾ عجيبة بديعة ﴿الكواكب﴾ بالجر بدل من زينة على أن المراد بها الاسم أى ما يزان به لا المصدر فإن الكواكب بأنفسها وأوضاع بعضها من بعض زينة وأى زينة وقرىء بالإضافة على أنها بيانية لما أن الزينة مبهمة صادقة على كل ما يزان به فتقع الكواكب بيانا لها ويجوز أن يراد بزينة الكواكب ما زينت هى به وهو ضوؤها وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما بزينة الكواكب بضوء الكواكب هذا وإما على تقدير كون الزينة مصدرا فالمعنى على تقدير إضافتها الى الفاعل بأن زانت الكواكب إياها وأصله بزينة الكواكب وعلى تقدير إضافتها الى المفعول بأن زان الله الكواكب وحسنها وأصله بزينة الكواكب والمراد هو التزيين فى رأى[1] العين فإن جميع الكواكب من الثوابت والسيارات تبدو للناظرين كأنها جواهر متلالئة فى سطح سماء الدنيا بصور بديعة وأشكال رائعة ولا يقدح فى ذلك ارتكاز الثوابت فى الفلك الثامن وما عدا القمر فى الستة المتوسطة إن ثبت ذلك .

﴿وحفظا﴾ منصوب إما بعطفه على زينة باعتبار المعنى كأنه قيل انا خلقنا الكواكب زينة للسماء وحفظا ﴿من كل شيطان مارد﴾ أى خارج عن الطاعة برمى الشهب واما باضمار فعله وإما بتقدير فعل مؤخر معلل به كأنه قيل وحفظا من كل شيطان مارد زيناها بالكواكب كقوله تعالى (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين) وقوله تعالى ﴿لا يسمعون الى الملأ الأعلى﴾ كلام مبتدأ مسوق لبيان حالهم بعد بيان حفظ السماء عنهم مع التنبيه على كيفية الحفظ وما يعتريهم فى أثناء ذلك من العذاب ولا سبيل الى جعله صفة لكل

(١) فى ١١ : مرأى العين .

شيطان ولا جوابا عن سؤال مقدر لعدم استقامة المعنى ولاعلة للحفظ على أن يكون الأصل لئلا يسمعوا لحذفت اللام كما حذفت من قولك جئتك أن تكرمنى فبقى أن لا يسمعوا ثم يحذف أن ويهدر عملها كما فى قول من قال :

* ألا أيهذا الزاجرى أحضر الوغى *

لما أن كل واحد من ذينك الحذفين غير منكر بانفراده فأما اجتماعهما فمن أنكر المنكرات التى يجب تنزيه ساحة التنزيل الجليل عن أمثالها وأصل يسمعون يتسمعون والملأ الأعلى الملائكة وعن ابن عباس رضى الله عنهما هم الكتبة وعنه أشراف الملائكة عليهم الصلاة والسلام أى لايتطلبون السماع والإصغاء إليهم وقرىء يسمعون بالتخفيف ﴿ ويقذفون ﴾ يرمون ﴿ من كل جانب ﴾من جميع جوانب السماء إذا قصدوا الصعود اليها ﴿دحورا ﴾علة للقذف أى للدحور وهو الطرد أو حال بمعنى مدحورين أو مصدر مؤكد له لأنهما من واد واحد وقرىء دحورا بفتح الدال أى قذفا دحورا مبالغا فى الطرد وقد جوز أن يكون مصدرا كالقبول والولوع ﴿ولهم عذاب واصب﴾ أى ولهم فى الآخرة غير ما فى الدنيا من عذاب الرجم بالشهب عذاب شديد دائم غير منقطع كقوله تعالى (وأعتدنا لهم عذاب السعير) ﴿إلا من خطف الخطفة﴾ استثناء من واو يسمعون ومن بدل منه والخطف الاختلاس والمراد اختلاس كلام الملائكة مسارقه كما يعرب عنه تعريف الخطفة وقرىء بكسر الخاء والطاء المشددة وبفتح الخاء وكسر الطاء وتشديدها وأصلهما اختطف ﴿فأتبعه شهاب﴾ أى تبعه ولحقه وقرىء فاتبعه والشهاب ما يرى منقضا من السماء ﴿ثاقب﴾ مضىء فى الغاية كأنه يثقب الجو بضوئه يرجم به الشياطين إذا صعدوا لاستراق السمع فيقتلهم أو يحرقهم أو يخبلهم قالوا وإنما يعود من يسلم منهم حيا طمعا فى السلامة ونيل المراد كراكب السفينة ﴿فاستفتهم﴾ فاستخبر مشركى مكة ﴿أهم أشد خلقا﴾ أى أقوى خلقة وأمتن بنية أو أصعب خلقا وأشق إيجادا ﴿أم من خلقنا﴾ من الملائكة والسماء والأرض وما بينهما والمشارق والكواكب والشهب الثواقب ومن

لتغليب العقلاء على غيرهم ويدل عليه إطلاقه ومجيئه بعد ذلك لاسيما قراءة من قرأ أم من عددنا وقوله تعالى :

﴿إنا خلقناهم من طين لازب﴾ فإنه الفارق بينهم وبينها لا بينهم وبين من قبلهم من الأمم كعاد وثمود ولأن المراد إثبات المعاد ورد استحالتهم والأمر فيه بالإضافة اليهم وإلى من قبلهم سواء وقرىء لازم ولاتب ﴿بل عجبت﴾ أى من قدرة الله تعالى على هذه الخلائق العظيمة وإنكارهم للبعث ﴿ويسخرون﴾ من تعجبك وتقريرك للبعث وقرىء بضم التاء على معنى أنه بلغ كمال قدرتى وكثرة مخلوقاتى إلى حيث عجبت منها وهؤلاء لجهلهم يسخرون منها أو عجبت من أن ينكروا البعث عن هذه أفاعيله[1] ويسخروا ممن يجوزه والعجب من الله تعالى إما على الفرض والتخييل أو على معنى الاستعظام اللازم له فإنه روعة تعترى الإنسان عند استعظام الشيء وقيل إنه مقدر بالقول أى قل يا محمد بل عجبت ﴿وإذا ذكروا﴾ أى ودأبهم المستمر أنهم إذا وعظوا بشيء من المواعظ ﴿لا يذكرون﴾ لا يتعظون وإذا ذكر لهم ما يدل على صحة البعث لا ينتفعون به لغاية بلادتهم وقصور فكرهم ﴿وإذا رأوا آية﴾ أى معجزة تدل على صدق القائل به ﴿يستسخرون﴾ يبالغون فى السخرية ويقولون إنه سحر أو يستدعى بعضهم من بعض أن يسخر منها ﴿وقالوا إن هذا﴾ أى ما يرونه من الآيات الباهرة ﴿إلا سحر مبين﴾ ظاهر سحريته ﴿أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما﴾ أى كان بعض أجزائنا ترابا وبعضها عظاما وتقديم التراب لأنه منقلب من الأجزاء البادية والعامل فى إذا ما دل عليه مبعوثون فى قوله تعالى :

﴿أئنا لمبعوثون﴾ أى أنبعث لا نفسه لأن دونه خطوبا لو تفرد واحد منها لكفى فى المنع وتقديم الظرف لتقوية الإنكار للبعث بتوجيهه إلى حالة

---

(١) فى ١٢ : أفعاله .

منافية له غاية المنافاة وكذا تكرير الهمزة فى أئنا للمبالغة والتشديد فى ذلك وكذا تحلية الجملة بأن واللام لتأكيد الإنكار لا لإنكار التأكيد كما يوهمه ظاهر النظم الكريم فإن تقديم الهمزة لاقتضائها الصدارة كما فى مثل قوله تعالى ﴿أفلا تعقلون﴾ على رأى الجمهور فإن المعنى عندهم تعقيب الإنكار لا إنكار التعقيب كما هو المشهور وقرىء بطرح الهمزة الأولى وبطرح الثانية فقط ﴿أوآباؤنا الأولون﴾ رفع على الابتداء وخبره محذوف عند سيبويه اى وآباؤنا الأولون أيضاً مبعوثون وقيل عطف على محل إن واسمها وقيل على الضمير فى مبعوثون للفصل بهمزة الإنكار الجارية مجرى حرف النفى فى قوله تعالى ﴿ما أشركنا ولا آباؤنا﴾ وأياً ما كان فمرادهم زيادة الاستبعاد بناء على أنهم أقدم فبعثهم أبعد على زعمهم وقرىء أوآباؤنا .

﴿قل﴾ تبكيتا لهم ﴿نعم﴾ والخطاب فى قوله تعالى ﴿وأنتم داخرون﴾ لهم ولآبائهم بطريق التغليب والجملة حال من فاعل ما دل عليه نعم أى كلكم مبعوثون والحال أنكم صاغرون أذلاء وقرىء نعم بكسر العين وهى لغة فيه ﴿فإنما هى زجرة واحدة﴾ هى إما ضمير مبهم يفسره خبره أو ضمير البعثة والجملة جواب شرط مضمر أو تعليل لنهى مقدر أى إذا كان كذلك فإنما هى الخ أو لا تستصعبوه فإنما هى الخ والزجرة الصيحة من زجر الراعى غنمه إذا صاح عليها وهى النفخة الثانية ﴿فإذا هم﴾ قائمون من مراقدهم أحياء ﴿ينظرون﴾ يبصرون كما كانوا أو ينتظرون ما يفعل بهم ﴿وقالوا﴾ أى المبعوثون وصيغة الماضى للدلالة على التحقق والتقرر ﴿يا ويلنا﴾ أى هلا كنا احضر فهذا أوان حضورك وقوله تعالى ﴿هذا يوم الدين﴾ تعليل لدعائهم الويل بطريق الاستئناف أى اليوم الذى نجازى فيه بأعمالنا وإنما علموا ذلك لأنهم كانوا يسمعون فى الدنيا أنهم يبعثون ويحاسبون ويجزون بأعمالهم فلما شاهدوا البعث أيقنوا بما بعده أيضاً وقوله تعالى ﴿هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون﴾ كلام الملائكة جوابا لهم بطريق التوبيخ والتقريع وقيل هو أيضا من كلام بعضهم لبعض والفصل القضاء أو الفرق بين فرق الهدى والضلال وقوله تعالى

﴿ احشروا الذين ظلموا ﴾ خطاب من الله عز وجل للملائكة أو من بعضهم لبعض بحشر الظلمة من مقامهم إلى الموقف وقيل من الموقف إلى الجحيم ﴿ وأزواجهم ﴾ أى أشباههم ونظراءهم من العصاة عابد الصنم مع عبدته وعابد الكوكب مع عبدته كقوله تعالى (وكنتم أزواجا ثلاثة) وقيل قرناءهم من الشياطين وقيل نساءهم اللاتى على دينهم .

﴿ وما كانوا يعبدون من دون الله ﴾ من الأصنام ونحوها زيادة فى تحسيرهم وتخجيلهم قيل هو عام مخصوص بقوله تعالى (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى) الآية الكريمة وأنت خبير بأن الموصول عبارة عن المشركين خاصة جيء به لتعليل الحكم بما فى حيز صلته فلا عموم ولا تخصيص ﴿ فاهدوهم إلى صراط الجحيم ﴾ أى عرفوهم طريقها ووجهوهم إليها وفيه تهكم بهم ﴿ وقفوهم ﴾ احبسوهم فى الموقف كأن الملائكة سارعوا إلى ما أمروا به من حشرهم إلى الجحيم فأمروا بذلك وعلل بقوله تعالى ﴿ إنهم مسئولون ﴾ إيذانا من أول الأمر بأن ذلك ليس للعفو عنهم ولا ليستريحوا بتأخير العذاب فى الجملة بل ليسألوا لكن لا عن عقائدهم وأعمالهم كما قيل فإن ذلك قد وقع قبل الأمر بهم إلى الجحيم بل عما ينطق به قوله تعالى ﴿ ما لكم لا تناصرون ﴾ بطريق التوبيخ والتقريع والتهكم أى لا ينصر بعضكم بعضا كما كنتم تزعمون فى الدنيا وتأخير هذا السؤال إلى ذلك الوقت لأنه وقت تنجز[1] العذاب وشدة الحاجة إلى النصرة وحالة انقطاع الرجاء عنها بالكلية فالتوبيخ والتقريع حينئذ أشد وقعا وتأثيرا قرىء لا تتناصرون ولا تناصرون بالإدغام ﴿ بل هم اليوم مستسلمون ﴾ منقادون خاضعون لظهور عجزهم وانسداد باب الحل عليهم أو أسلم بعضهم بعضا وخذله عن عجز فكلهم غير منتصر .

﴿ وأقبل ﴾ حينئذ ﴿ بعضهم على بعض ﴾ هم الأتباع والرؤساء أو الكفرة والقرناء ﴿ يتساءلون ﴾ يسأل بعضهم بعضا سؤال توبيخ بطريق الخصومة

(١) فى ١١ : تنجيز العذاب .

والجدال ﴿ قالوا ﴾ استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من حكاية تساؤلهم كأنه قيل كيف تساءلون فقيل قالوا أى الأتباع للرؤساء أو الكل للقرناء ﴿ إنكم كنتم تأتوننا ﴾ فى الدنيا ﴿ عن اليمين ﴾ عن أقوى الوجوه وأمتنها أو عن الدين أو عن الخير كأنكم تنفعوننا نفع السانح فتبعناكم فهلكنا مستعار من يمين الإنسان الذى هو أشرف الجانبين وأقواهما وأنفعهما ولذلك سمى يمينا ويتيمن بالسانح أو عن القوة والقسر فتقسروننا على الغى وهو الأوفق للجواب أو عن الحلف حيث كانوا يحلفون أنهم على الحق .

﴿ قالوا ﴾ استئناف كما سبق أى قال الرؤساء أو القرناء ﴿ بل لم تكونوا مؤمنين ﴾ أى لم نمنعكم من الإيمان بل لم تؤمنوا باختياركم وأعرضتم عنه مع تمكنكم منه وآثرتم الكفر عليه ﴿ وما كان لنا عليكم من سلطان ﴾ من قهر وتسلط نسلبكم به اختياركم ﴿ بل كنتم قوما طاغين ﴾ مختارين للطغيان مصرين عليه ﴿ فحق علينا ﴾ أى لزمنا وثبت علينا ﴿ قول ربنا ﴾ وهو قوله تعالى (لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين) ﴿ إنا لذائقون ﴾ أى العذاب الذى ورد به الوعيد ﴿ فأغويناكم ﴾ فدعوناكم إلى الغى دعوة غير ملجئة فاستجبتم لنا باختياركم واستحبابكم الغى على الرشد ﴿ إنا كنا غاوين ﴾ فلا عتب علينا فى تعرضنا لإغوائكم بتلك المرتبة من الدعوة لتكونوا أمثالنا فى الغواية ﴿ فإنهم ﴾ أى الأتباع والمتبوعين ﴿ يومئذ فى العذاب مشتركون ﴾ حسبما كانوا مشتركين فى الغواية ﴿ إنا كذلك ﴾ أى مثل ذلك الفعل البديع الذى تقتضيه الحكمة التشريعية ﴿ نفعل بالمجرمين ﴾ المتناهين فى الإجرام وهم المشركون كما يعرب عنه التعليل بقوله تعالى ﴿ إنهم كانوا إذا قيل لهم ﴾ بطريق الدعوة والتلقين ﴿ لا إله إلا الله يستكبرون ﴾ عن القبول ﴿ ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون بل جاء بالحق وصدق المرسلين ﴾ رد عليهم وتكذيب لهم ببيان أن ما جاء به من التوحيد هو الحق الذى قام به البرهان وأجمع عليه كافة الرسل عليهم الصلاة والسلام فأين الشعر والجنون من ساحته الرفيعة ﴿ إنكم ﴾ بما فعلتم من الإشراك وتكذيب الرسول عليه الصلاة

والسلام والاستكبار ﴿ لذائقوا العذاب الأليم ﴾ والالتفات لإظهار كمال الغضب عليهم وقرىء بنصب العذاب على تقدير النون كقوله ولا ذاكر الله إلا قليلا وقرىء لذائقون العذاب على الأصل ﴿ وما تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ أى الإجزاء ما كنتم تعملونه من السيئات أو إلا بما كنتم تعملونه منها .

﴿ إلا عباد الله المخلصين ﴾ استثناء منقطع من ضمير ذائقوا وما بينهما اعتراض جىء به مسارعة إلى تحقيق الحق ببيان أن ذوقهم العذاب ليس إلا من جهتهم لامن جهة غيرهم أصلا وجعله استثناء من ضمير تجزون على معنى أن الكفرة لايجزون إلا بقدر أعمالهم دون عباد الله المخلصين فإنهم يجزون أضعافا مضاعفة مما لاوجه له أصلا لاسيما جعله استثناء متصلا بتعميم الخطاب فى تجزون لجميع المكلفين فإنه ليس فى حيز الاحتمال فالمعنى إنكم لذائقون العذاب الأليم لكن عباد الله المخلصين الموحدين ليسوا كذلك وقوله تعالى ﴿ أولئك ﴾ إشارة إليهم للإيذان بأنهم ممتازون بما اتصفوا به من الإخلاص فى عبادة الله تعالى عن عداهم امتيازاً بالغاً منتظمون بسببه فى سلك الأمور المشاهدة وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإشعار بعلو طبقتهم وبعد منزلتهم فى الفضل وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿ لهم ﴾ إما خبر له وقوله تعالى ﴿ رزق ﴾ مرتفع على الفاعلية بما فيه من الاستقرار أو مبتدأ ولهم خبر مقدم والجملة خبر لأولئك والجملة الكبرى استئناف مبين لما أفاده الاستثناء إجمالا بيانا تفصيليا وقيل هى خبر للاستثناء المنقطع على أنه متأول بالمبتدأ[1] وقوله تعالى ﴿ معلوم ﴾ أى معلوم الخصائص من حسن المنظر ولذة الطعم وطيب الرائحة ونحوها من نعوت الكمال وقيل معلوم الوقت كقوله تعالى (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا) وقوله تعالى ﴿ فواكه ﴾ إما بدل من رزق أو خبر مبتدأ مضمر أى ذلك الرزق فواكه وتخصيصها بالذكر لأن أرزاق أهل

---

(١) فى ١٠ : مؤول بالمبتدأ .

الجنة كلها فوا كه أي ما يؤكل لمجرد التلذذ دون الاقتيات لأنهم مستغنون عن القوت لكون خلقتهم محكمة محفوظة من التحلل المحوج إلى البدل وقيل لأن الفوا كه من أتباع سائر الأطعمة فذكرها مغن عن ذكرها ﴿ وهم مكرمون ﴾ عند الله عز وجل لا يلحقهم هوان وذلك أعظم المثوبات وأليقها بأولى الهمم وقيل مكرمون فى نيله حيث يصل إليهم بغير تعب وسؤال كما هو شأن أرزاق الدنيا وقرىء مكرمون بالتشديد ﴿ فى جنات النعيم ﴾ أى فى جنات ليس فيها إلا النعيم وهو ظرف أو حال من المستكن فى مكرمون أو خبر ثان لأولئك وقوله تعالى ﴿ على سرر ﴾ محتمل للحالية والخبرية فقوله تعالى ﴿ متقابلين ﴾ حال من المستكن فيه أو فى مكرمون وقوله تعالى ﴿ يطاف عليهم ﴾ إما استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية تكامن مجالس أنسهم أو حال من الضمير فى متقابلين أو فى أحد الجارين وقد جوز كونه صفة لمكرمون ﴿ بكأس ﴾ بإناء فيه خمر أو بخمر فإن الكأس تطلق عن نفس الخمر كما فى قول من قال :

وكأس شربت على لذة وأخرى تدوايت منها بها

﴿ من معين ﴾ متعلق بمضمر هو صفة لكأس أى كائنة من شراب معين أو من نهر معين وهو الجارى على وجه الأرض الظاهر للعيون أو الخارج من العيون من عان الماء إذا نبع وصف به الخمر وهو الماء لأنها تجرى فى الجنة فى أنهار كما يجرى الماء قال تعالى وأنهار من خمر ﴿ بيضاء لذة للشاربين ﴾ صفتان أيضا لكأس ووصفها بلذة إما للمبالغة كأنها نفس اللذة أو لأنها تأنيث اللذ بمعنى اللذيذ ووزنه فعل قال :

ولذ كطعم الصرخدى تركته بأرض العدا من خيفة الحدثان

يريد النوم ﴿ لا فيها غول ﴾ أى غائلة كما فى خمور الدنيا من غاله إذا أفسده وأهلكه ومنه الغول ﴿ ولاهم عنها ينزفون ﴾ يسكرون من نزف الشارب فهو نزيف ومنزوف إذا ذهب عقله ويقال للمطعون نزف فات إذا جرح دمه كله أفرد هذا بالنفى مع اندراجه فيما قبله من نفى الغول عنها لما أنه من معظم مفاسد

الخمر كأنه جنس برأسه والمعنى لا فيها نوع من أنواع الفساد من مغص أو صداع أو خمار أو عربدة أو لغو أو تأثيم ولا هم يسكرون وقرىء ينزفون بكسر الزاى من أنزف الشارب إذا نفد عقله أو شرابه وقرىء ينزفون بضم الزاى من نزف ينزف بضم الزاى فيهما ﴿ وعندهم قاصرات الطرف ﴾ قصرن أبصارهن على أزواجهن لا يمددن طرفا إلى غيرهم ﴿عين﴾ نجل العيون جمع عيناء والنجل سعة العين ﴿ كأنهن بيض مكنون ﴾ شبهن ببيض النعام المصون من الغبار ونحوه فى الصفاء والبياض المخلوط بأدنى صفرة فإن ذلك أحسن ألوان الأبدان ﴿ فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴾ معطوف على يطاف أى يشربون فيتحادثون على الشراب كما هو عادة الشراب قال :

وما بقيت من اللذات إلا أحاديث الكرام على المدام

فيقبل بعضهم على بعض يتساءلون عن الفضائل والمعارف وعما جرى لهم وعليهم فى الدنيا فالتعبير عنه بصيغة الماضى للتأكيد والدلالة على تحقق الوقوع حتما ﴿قال قائل منهم﴾ فى تضاعيف محاوراتهم ﴿إنى كان لى﴾ فى الدنيا ﴿قرين﴾ مصاحب ﴿يقول﴾ لى على طريقة التوبيخ بما كنت عليه من الإيمان والتصديق بالبعث ﴿ أئنك لمن المصدقين ﴾ أى بالبعث وقرىء بتشديد الصاد من التصدق والأول هو الأوفق لقوله تعالى ﴿ أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون ﴾ أى لمبعوثون ومجزيون من الدين بمعنى الجزاء أو لمسوسون يقال دانه أى ساسه ومنه الحديث «العاقل من دان نفسه» وقيل كان رجل تصدق بماله لوجه الله تعالى فاحتاج فاستجدى بعض إخوانه فقال أين مالك قال تصدقت به ليعوضنى الله تعالى فى الآخرة خيرا منه فقال أئنك لمن المصدقين بيوم الدين أو المتصدقين لطلب الثواب والله لا أعطيك شيئا فيكون التعرض لذكر موتهم وكونهم ترابا وعظاما حينئذ لتأكيد إنكار الجزاء المبنى على إنكار البعث ﴿قال﴾ أى ذلك القائل بعد ما حكى لجلسائه مقالة قرينه فى الدنيا ﴿ هل أنتم مطلعون ﴾ أى الى أهل النار لأريكم ذلك القرين يريد بذلك بيان صدقه فيما حكاه وقيل القائل هو الله تعالى أو بعض الملائكة يقول لهم هل تحبون أن تطلعوا على أهل النار

لأريكم ذلك القرين فتعلموا أين منزلتكم من منزلتهم قيل إن فى الجنة كوى ينظر منها أهلها الى أهل النار ﴿فاطلع﴾ أى عليهم ﴿ فرآه ﴾ أى قرينه ﴿ فى سواء الجحيم ﴾ أى فى وسطها وقرىء فاطلع على لفظ المضارع المنصوب وقرىء مطلعون فأطلع وفأطلع بالتخفيف على لفظ الماضى والمضارع المنصوب يقال طلع علينا فلان وأطلع وبمعنى واحد والمعنى هل أنتم مطلعون إلى القرين فأطلع أنا أيضاً أو عوض عليهم الإطلاع فقبلوا ما عرضه فاطلع هو بعد ذلك وإن جعل الاطلاع متعديا فالمعنى أنه لما شرط فى إطلاعه إطلاعهم كما هو ديدن الجلساء فكأنهم مطلعوه وقيل الخطاب على هذا للملائكة وقرىء مطلعون بكسر النون أراده مطلعون إياى فوضع المتصل موضع المنفصل كقوله هم الفاعلون الخير والآمرونه أو شبه اسم الفاعل بالمضارع لما بينهما من التآخى.

﴿قال﴾ أى القائل مخاطباً لقرينه ﴿تالله إن كدت لتردين ﴾ أى لتهلكنى بالإغواء وقرىء لتغوين والتاء فيه معنى التعجب وإن هى المخففة من أن وضمير الشأن الذى هو اسمها محذوف واللام فارقة أى تالله أن الشأن كدت لتردين ﴿ولولا نعمة ربى﴾ بالهداية والعصمة ﴿لكنت من المحضرين﴾ أى من الذين أحضروا العذاب كما أحضرته أنت وأضرابك وقوله تعالى ﴿ أفما نحن بميتين﴾ رجوع إلى محاورة جلسائه بعد إتمام الكلام مع قرينه تبجحا وابتهاجا بما أتاح الله عز وجل لهم من الفضل العظيم والنعيم المقيم والهمزة للتقدير وفيها معنى التعجب والفاء للعطف على مقدر يقتضيه نظم الكلام أى أنحن مخلدون منعمون فما نحن بميتين أى بمن شأنه الموت وقرىء بمائتين ﴿ إلا موتتنا الأولى ﴾ التى كانت فى الدنيا وهى متناولة لما فى القبر بعد الإحياء للسؤال قاله تصديقا لقوله تعالى (لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى) وقيل إن أهل الجنة أول مادخلوا الجنة لا يعلمون أنهم لا يموتون فإذا جىء بالموت على صورة كبش أملح فذبح ونودى يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت يعلمونه فيقولون ذلك تحدثا بنعمة الله تعالى واغتباطا بها ﴿وما نحن بمعذبين﴾ كالكفار فإن النجاة من العذاب أيضاً نعمة جليلة مستوجبة للتحدث بها ﴿إن هذا﴾ أى

الأمر العظيم الذى نحن فيه ﴿ لهو الفوز العظيم ﴾ وقيل هو من قول الله عز وجل تقريراً لقولهم وتصديقا له وقرىء لهو الرزق العظيم وهو ما رزقوه من السعادة العظمى ﴿ لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾ أى لنيل هذا المرام الجليل يجب أن يعمل العاملون لا للحظوظ الدنيوية السريعة الانصرام المشوبة بفنون الآلام وهذا أيضا يحتمل أن يكون من كلام رب العزة ﴿ أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم ﴾ أصل النزل الفضل والريع فاستعير للحاصل من الشىء فانتصابه على التمييز أى أذلك الرزق المعلوم الذى حاصله اللذة والسرور خير نزلا أم شجرة الزقوم التى حاصلها الألم والغم ويقال النزل لما يقام ويهيأ من الطعام الحاضر للنازل فانتصابه على الحالية والمعنى أن الرزق المعلوم نزل أهل الجنة وأهل النار نزلهم شجرة الزقوم فأيهما خير فى كونه نزلا والزقوم اسم شجرة صغيرة الورق دفرة مرة كريهة الرائحة تكون فى تهامة سميت به الشجرة الموصوفة ﴿ إنا جعلناها فتنة للظالمين ﴾ محنة وعذابا لهم فى الآخرة وابتلاء فى الدنيا فإنهم لما سمعوا أنها فى النار قالوا كيف يمكن ذلك والنار تحرق الشجر ولم يعلموا أن من قدر على خلق حيوان يعيش فى النار ويتلذذ بها أقدر على خلق الشجر فى النار وحفظه من الاحتراق[1].

﴿ إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم ﴾ منبتها فى قعر جهنم وأغصانها ترتفع إلى دركاتها وقرىء نابتة فى أصل الجحيم ﴿ طلعها ﴾ أى حملها الذى يخرج منها مستعار فى طلع النخلة لمشاركته له من الشكل والطلوع من الشجر قالوا أول التمر طلع ثم خلال ثم بلح ثم رطب ثم تمر ﴿ كأنه رؤوس الشياطين ﴾ فى تناهى القبح والهول وهو تشبيه بالمخيل كتشبيه الفائق فى الحسن بالملك وقيل الشياطين الحيات الهائلة القبيحة المنظر لها أعراف وقيل إن شجرا يقال له الأستن خشنا منتنا مرا منكر الصورة يسمى ثمره رؤس الشياطين ﴿ فإنهم لآكلون منها ﴾ أى من الشجرة أو من طلعها فالتأنيث مكتسب من المضاف إليه ﴿ فمالئون منها

(٢) فى ط : الإحراق

البطون ﴾ لغلبة الجوع أو للقسر على أكلها وإن كرهوها ليكون ذلك بابا من العذاب .

﴿ ثم إن لهم عليها ﴾ على الشجرة التى ملأوا منها بطونهم بعد ما شبعوا منها وغلبهم العطش وطال استسقاؤهم كما ينبىء عنه كلمة ثم ويجوز أن تكون لما فى شرابهم من مزيد الكراهة والبشاعة ﴿ لشوبا من حميم ﴾ لشرابا من غساق أو صديد مشوبا بماء حميم يقطع أمعاءهم وقرىء بالضم وهو اسم لما يشاب به والأول مصدر سمى به ﴿ ثم إن مرجعهم ﴾ أى مصيرهم وقد قرىء كذلك ﴿ لإلى الجحيم ﴾ لإلى دركاتها أو إلى نفسها فإن الزقوم والحميم نزل يقدم إليهم قبل دخولها وقيل الحميم خارج عنها لقوله تعالى (هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن) يذهب بهم عن مقارهم ومنازلهم فى الجحيم إلى شجرة الزقوم فيأكلون منها إلى أن يمتلئوا ثم يسقون من الحميم ثم يردون إلى الجحيم ويؤيده أنه قرىء ثم إن منقلبهم ﴿ إنهم ألفوا آباءهم ضالين ﴾ تعليل لاستحقاقهم ما ذكر من فنون العذاب بتقليد الآباء فى الدين من غير أن يكون لهم ولا لآبائهم شىء يتمسك به أصلا أى وجدوهم ضالين فى نفس الأمر ليس لهم ما يصلح شبهة فضلا عن صلاحية الدليل ﴿ فهم على آثارهم يهرعون ﴾ من غير أن يتدبروا أنهم على الحق أولا مع ظهور كونهم على الباطل بأدنى تأمل والإهراع الإسراع الشديد كأنهم يزعجون ويحثون حثا على الإسراع على آثارهم وقيل هو إسراع فيه شبه رعدة .

﴿ ولقد ضل قبلهم ﴾ أى قبل قومك قريش ﴿ أكثر الأولين ﴾ من الأمم السالفة وهو جواب قسم محذوف وكذا قوله تعالى ﴿ ولقد أرسلنا فيهم منذرين ﴾ أى أنبياء أولى عدد كثير وذوى شأن خطير بينوا لهم بطلان ماهم عليه وأنذروهم عاقبته الوخيمة وتكرير القسم لإبراز كمال الاعتناء بتحقيق مضمون كل من الجملتين ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ﴾ من الهول والفظاعة لما لم يلتفتوا إلى الإنذار ولم يرفعوا له رأسا والخطاب إما لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد ممن يتمكن من مشاهدة آثارهم وحيث كان المعنى أنهم أهلكوا إهلاكا

فظيعا استثنى منهم المخلصون بقوله تعالى ﴿ إلا عباد الله المخلصين ﴾ أى الذين أخلصهم الله تعالى بتوفيقهم للإيمان والعمل بموجب الإنذار وقرىء المخلصين بكسر اللام أى الذين أخلصوا دينهم لله تعالى ﴿ ولقد نادانا نوح ﴾ نوع تفصيل لما أجمل فيما قبل ببيان أحوال بعض المرسلين وحسن عاقبتهم متضمن لبيان سوء عاقبة بعض المنذرين حسبما أشير إليه بقوله تعالى (فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) كقوم نوح وآل فرعون وقوم لوط وقوم إلياس ولبيان حسن عاقبة بعضهم الذين أخلصهم الله تعالى ووفقهم للإيمان كما أشار إليه الاستثناء كقوم يونس عليه السلام ووجه تقديم قصة نوح على سائر القصص غنى عن البيان واللام جواب قسم محذوف وكذا ما فى قوله تعالى ﴿ فلنعم المجيبون ﴾ أى وبالله لقد دعانا نوح حين يئس من إيمان قومه بعد مادعاهم إليه أحقابا ودهورا فلم يزدهم دعاؤه إلا فرارا ونفورا فأجبناه أحسن الإجابة فوالله لنعم المجيبون نحن لحذف ما حذف ثقة بدلالة ما ذكر عليه والجمع دليل العظمة والكبرياء .

﴿ ونجيناه وأهله من الكرب العظيم ﴾ أى من الغرق وقيل من أذية قومه ﴿ وجعلنا ذريته هم الباقين ﴾ فحسب حيث أهلكنا الكفرة بموجب دعائه (رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا) وقد روى أنه مات كل من كان معه فى السفينة غير أبنائه وأزواجهم أو هم الذين بقوا متناسلين إلى يوم القيامة قال قتادة الناس كلهم من ذرية نوح عليه السلام وكان له ثلاثة أولاد سام وحام ويافث فسام أبو العرب وفارس والروم وحام أبو السودان من المشرق إلى المغرب ويافث أبو الترك ويأجوج ومأجوج ﴿ وتركنا عليه فى الآخرين ﴾ من الأمم ﴿ سلام على نوح ﴾ أى هذا الكلام بعينه وهو وارد على الحكاية كقولك قرأت سورة أنزلناها والمعنى يسلمون عليه تسليما ويدعون له على الدوام أمة بعد أمة وقيل ثمة قول مقدر أى فقلنا وقيل ضمن تركنا معنى قلنا وقوله تعالى ﴿ فى العالمين ﴾ متعلق بالجار والمجرور ومعناه الدعاء بثبات هذه التحية واستمرارها أبدا فى العالمين من الملائكة والثقلين جميعا وقوله تعالى ﴿ إنا كذلك نجزى المحسنين ﴾ تعليل لما فعل به عليه الصلاة والسلام من التكرمة السنية من

إجابة دعائه أحسن إجابة وإبقاء ذريته وتبقية ذكره الجميل وتسليم العالمين عليه إلى آخر الدهر بكونه من زمرة المعروفين بالإحسان الراسخين فيه وأن ذلك من قبيل مجازاة الإحسان بالإحسان وذلك إشارة إلى ما ذكر من الكرامات السنية التي وقعت جزاء له عليه الصلاة والسلام وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإيذان بعلو رتبته وبعد منزلته في الفضل والشرف والكاف متعلقة بما بعدها أي مثل ذلك الجزاء الكامل نجزي الكاملين في الإحسان لا جزاء أدنى منه وقوله تعالى ﴿ إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ تعليل لكونه من المحسنين بخلوص عبوديته وكمال إيمانه وفيه من الدلالة على جلالة قدرهما ما لا يخفى ﴿ ثم أغرقنا الآخرين ﴾ أي المغايرين لنوح وأهله وهم كفار قومه أجمعين ﴿ وإن من شيعته ﴾ أي ممن شايعه في أصول الدين ﴿ لإبراهيم ﴾ وإن اختلفت فروع شرائعهما ويجوز أن يكون بين شريعتيهما اتفاق كلي أو أكثر وعن ابن عباس رضي الله عنهما من أهل دينه وعلى سنته أو ممن شايعه على التصلب في دين الله ومصابرة المكذبين وما كان بينهما إلا نبيان (هما) [1] هود وصالح عليهم (الصلاة)[2] والسلام وكان بين نوح وإبراهيم ألفان وستمائة وأربعون سنة ﴿ إذ جاء ربه ﴾ منصوب باذكر أو متعلق بما في الشيعة من معنى المشايعة ﴿ بقلب سليم ﴾ أي من آفات القلوب أو من العلائق الشاغلة عن التبتل إلى الله عز وجل ومعنى المجيء به ربه إخلاصه له كأنه جاء به متحفا إياه بطريق التمثيل ﴿ إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون ﴾ بدل من الأولى أو ظرف لجاء أو لسليم أي أي شيء تعبدونه ﴿ أئفكا آلهة دون الله تريدون ﴾ أي أتريدون آلهة من دون الله إفكا أي للإفك فقدم المفعول على الفعل للعناية ثم المفعول له على المفعول به لأن الأهم مكافحتهم بأنهم على إفك وباطل في شركهم ويجوز أن يكون إفكا مفعولا به بمعنى أتريدون إفكا ثم يفسر الإفك بقوله آلهة من دون الله دلالة على أنها إفك في نفسها للمبالغة أو يراد بها عبادتها بحذف المضاف ويجوز أن

---

(١) سقطت من الأصل . (٢) سقطت من الأصل .

يكون حالا بمعنى آفكين ﴿فما ظنكم برب العالمين﴾ أى بمن هو حقيق بالعبادة لكونه ربا للعالمين حتى تركتم عبادته خاصة وأشركتم به أخس مخلوقاته أو فما ظنكم به أى شيء هو من الأشياء حتى جعلتم الأصنام له أنداداً أو فما ظنكم به ماذا يفعل بكم وكيف يعاقبكم بعد مافعلتم من الإشراك به ﴿فنظر نظرة فى النجوم﴾ قيل كانت له عليه الصلاة والسلام حمى لها نوبة معينة فى بعض ساعات الليل فنظر ليعرف هل هى تلك الساعة فإذا هى قد حضرت ﴿فقال إنى سقيم﴾ وكان صادقا فى ذلك بجعله عذرا فى تخلفه عن عيدهم وقيل أراد إنى سقيم القلب لكفركم وقيل نظر فى علمها أو فى كتبها أو فى أحكامها ولا منع من ذلك حيث كان قصده عليه الصلاة والسلام إيهامهم حين أرادوا أن يخرجوا به عليه الصلاة والسلام إلى معيدهم ليتركوه فإن القوم كانوا نجامين فأوهمهم أنه قد استدل بأمارة فى علم النجوم على أنه سقيم أى مشارف للسقم وهو الطاعون وكان أغلب الأسقام عليهم وكانوا يخافون العدوى ليتفرقوا عنه فهربوا منه إلى معيدهم وتركوه فى بيت الأصنام وذلك قوله تعالى ﴿فتولوا عنه مدبرين﴾ أى هاربين مخافة العدوى ﴿فراغ إلى آلهتهم﴾ أى ذهب إليها فى خفية وأصله الميل بحيلة ﴿فقال﴾ للأصنام استهزاء ﴿ألا تأكلون﴾ أى من الطعام الذى كانوا يصنعونه عندها لتبرك عليه ﴿مالكم لا تنطقون﴾ أى بجوابى ﴿فراغ عليهم﴾ فمال مستعلياً عليهم وقوله تعالى ﴿ضربا باليمين﴾ مصدر مؤكد لراغ عليهم فإنه بمعنى ضربهم أو لفعل مضمر هو حال من فاعله أى فراغ عليهم يضربهم ضربا أو هو الحال منه على أنه مصدر بمعنى الفاعل أى فراغ عليهم ضاربا باليمين أى ضربا شديداً قوياً وذلك لأن اليمين أقوى الجارحتين وأشدهما وقوة الآلة تقتضى قوة الفعل وشدته وقيل بالقوة والمتانة كما فى قوله :

إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين

أى بالقوة وعلى ذلك مدار تسمية الحلف باليمين لأنه يقوى الكلام ويؤكده وقيل بسبب الحلف وهو قوله تعالى (وتالله لأكيدن أصنامكم) .

﴿ فأقبلوا إليه ﴾ أى المأمورون بإحضاره عليه الصلاة والسلام بعد مارجعوا من عيدهم إلى بيت الأصنام فوجدوها مكسورة فسألوا عن الفاعل فظنوا أنه عليه الصلاة والسلام فعله فقيل فأتوا به ﴿ يزفون ﴾ حال من واو أقبلوا أى يسرعون من زفيف النعام وقرىء يزفون من أزف إذا دخل فى الزفيف أو من أزفه أى حمله على الزفيف أى يزف بعضهم بعضا ويزفون على البناء للمفعول أى يحملون على الزفيف ويزفون من وزف يزف إذا أسرع ويزفون من زفاه إذا حداه كأن بعضهم يزفو بعضا لتسارعهم إليه عليه الصلاة والسلام ﴿ قال ﴾ أى بعد ما أتوا به عليه الصلاة والسلام وجرى بينه صلى الله عليه وسلم وبينهم من المحاورات ما نطق به قوله تعالى (قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم) إلى قوله تعالى (لقد علمت ما هؤلاء ينطقون) ﴿ أتعبدون ما تنحتون ﴾ ما تنحتونه من الأصنام وقوله تعالى :

﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ حال من فاعل تعبدون مؤكدة للإنكار والتوبيخ أى والحال أنه تعالى خلقكم وخلق ما تعملونه فإن جواهر أصنامهم ومادتها بخلقه تعالى وشكلها وإن كان بفعلهم لكنه بإقداره تعالى إياهم عليه وخلقه ما يتوقف عليه فعلهم من الدواعى والعدد والأسباب وما تعملون إما عبارة عن الأصنام فوضعه موضع ضمير ماتنحتون للإيذان بأن مخلوقيتها لله عز وجل ليس من حيث نحتهم لها فقط بل من حيث سائر أعمالهم أيضاً من التصوير والتحلية والتزيين ونحوها وإما على عمومه فينتظم الأصنام انتظاما أوليا مع ما فيه من تحقيق الحق ببيان أن جميع ما يعملونه كائنا ما كان مخلوق له سبحانه وقيل ما مصدرية أى عملكم على أنه بمعنى المفعول وقيل بمعناه فإن فعلهم إذا كان بخلق الله تعالى كان مفعولهم المتوقف على فعلهم أولى بذلك ﴿ قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم ﴾ أى فى النار الشديدة الاتقاد من الجحمة وهى شدة التأجج واللام عوض من المضاف إليه أى جحيم ذلك البنيان وقد ذكر كيفية بنائهم له فى سورة الأنبياء ﴿ فأرادوا به كيدا ﴾ فإنه عليه الصلاة والسلام لما قهرهم بالحجة وألقمهم الحجر قصدوا ما قصدوا لئلا يظهر للعامة عجزهم

﴿ فجعلناهم الأسفلين ﴾ الأذلين بإبطال كيدهم وجعله برهانا نيرا علو على شأنه عليه الصلاة والسلام بجعل النار عليه بردا وسلاما ﴿ وقال إنى ذاهب إلى ربى ﴾ أى مهاجر إلى حيث أمرنى ربى كما قال إنى مهاجر إلى ربى وهو الشام أو إلى حيث أتجرد فيه لعبادته تعالى ﴿ سيهدين ﴾ أى إلى ما فيه صلاح دينى أو إلى مقصدى وبت القول بذلك لسبق الوعد أو لفرط توكله أو للبناء على عادته تعالى معه ولم يكن كذلك حال موسى عليه السلام حيث قال (عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل) ولذلك أتى بصيغة التوقع .

﴿ رب هب لى من الصالحين ﴾ أى بعض الصالحين يعيننى على الدعوة والطاعة ويؤنسنى فى الغربة يعنى الولد لأن لفظ الهبة على الإطلاق خاص به وإن كان قد ورد مقيدا بالأخوة فى قوله تعالى (ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبيا) ولقوله تعالى ﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾ فإنه صريح فى أن المبشر به عين ما استوهبه عليه الصلاة والسلام ولقد جمع فيه بشارات ثلاث بشارة أنه غلام وأنه يبلغ أوان الحلم وأنه يكون حليما وأى حلم يعادل حلمه عليه الصلاة والسلام حين عرض عليه أبوه الذبح فقال (يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين) وقيل ما نعت الله الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بأقل مما نعتهم بالحلم لعزة وجوده غير إبراهيم وابنه فإنه تعالى نعتهما به وحالها المحكية بعد أعدل بينه بذلك .

قصة الذبيح

والفاء فى قوله تعالى ﴿ فلما بلغ معه السعى ﴾ فصيحة معربة عن مقدر قد حذف تعويلا على شهادة الحال وإيذانا بعدم الحاجة إلى التصريح به لاستحالة التخلف والتأخر بعد البشارة كما مر فى قوله تعالى (فلما رأينه أكبرنه) وفى قوله تعالى(فلما رآه مستقرا عنده) أى فوهبناه له فنشأ فلما بلغ رتبة أن يسعى معه فى أشغاله وحوائجه ومعه متعلق بمحذوف ينبىء عنه السعى لا بنفسه لأن صلة المصدر لا تتقدمه ولا بيلغ لأن بلوغهما لم يكن معا كأنه لما ذكر السعى قيل مع من فقيل معه وتخصيصه لأن الأب أكمل فى الرفق والاستصلاح فلا يستسعيه

قيل أوانه أو لأنه استوهبه لذلك وكان له يومئذ ثلاث عشر سنة .

﴿ قال ﴾ أى إبراهيم عليه السلام ﴿ يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك ﴾ أى أرى هذه الصورة بعينها أو ما هذه عبارته وتأويله وقيل إنه رأى ليلة التروية كأن قائلا يقول له إن الله يأمرك بذبح ابنك هذا فلما أصبح روى فى ذلك من الصباح إلى الرواح أمن الله هذا الحلم أم من الشيطان فمن ثمة سمى يوم التروية فلما أمسى رأى مثل ذلك فعرف أنه من الله تعالى فمن ثمة سمى يوم عرفة ثم رأى مثله فى الليلة الثالثة فهم بنحره فسمى اليوم يوم النحر وقيل إن الملائكة حين بشرته بغلام حليم قال إذن هو ذبيح الله فلما ولد وبلغ حد السعى معه قيل له أوف بنذرك. والأظهر الأشهر أن المخاطب إسمعيل عليه السلام إذ هو الذى وهب أثر المهاجرة ولأن البشارة باسحق بعده معطوف على البشارة بهذا الغلام ولقوله عليه الصلاة والسلام أنا ابن الذبيحين فأحدهما جده إسمعيل عليه السلام والآخر أبوه عبد الله فإن عبد المطلب نذر أن يذبح ولدا أن سهل الله تعالى له حفر بئر زمزم أو بلغ بنوه عشرة فلما حصل ذلك وخرج السهم على عبد الله فداه بمائة من الإبل ولذلك سنت الدية مائة ولأن ذلك كان بمكة وكان قرنا الكبش معلقين بالكعبة حتى احترقا فى أيام ابن الزبير ولم يكن اسحق ثمة ولأن بشارة إسحق كانت مقرونة بولادة يعقوب منه فلا يناسبه الأمر بذبحه مراهقا وما روى أنه عليه الصلاة والسلام سئل أى النسب أشرف فقال يوسف صديق الله ابن يعقوب إسرائيل الله ابن اسحق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله فالصحيح أنه عليه الصلاة والسلام قال يوسف بن إسحق بن إبراهيم والزوائد من الراوى وما روى من أن يعقوب كتب إلى يوسف مثل ذلك لم يثبت وقرىء إنى بفتح الياء فيهما .

﴿ فانظر ماذا ترى ﴾ من الرأى وإنما شاوره فيه وهو أمر محتوم ليعلم ما عنده فيما نزل من بلاء الله تعالى فيثبت قدمه إن جزع ويأمن عليه إن سلم وليوطن نفسه عليه فيهون ويكتسب المثوبة عليه بالانقياد له قبل نزوله وقرىء ماذا ترى بضم التاء وكسر الراء وبفتحها مبنيا للمفعول ﴿ قال يا أبت افعل

ما تؤمر ﴾ أى تؤمر به فحذف الجار أولا على القاعدة المطردة ثم حذف العائد إلى الموصول بعد انقلابه منصوبا بايصاله الى الفعل أوحذفا دفعة أو افعل أمرك على إضافة المصدر إلى المفعول وتسمية المأمور به أمرا وقرىء ما تؤمر به وصيغة المضارع للدلالة على أن الأمر متعلق به متوجه إليه مستمر إلى حين الامتثال به .

﴿ ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ﴾ على الذبح أو على قضاء الله تعالى ﴿فلما أسلما﴾ أى استسلما لأمر الله تعالى وانقادا وخضعا له يقال سلم لأمر الله وأسلم واستسلم بمعنى واحد وقرىء سلما أى جميعا وأصلها من قولك سلم هذا لفلان إذا خلص له ومعناه سلم من أن ينازع فيه وقولهم سلم لأمر الله وأسلم له منقولان منه ومعناهما أخلص نفسه لله وجعلها سالمة له وكذلك معنى استسلم استخلص نفسه له تعالى وعن قتادة رضى الله عنه فى أسلما أسلم ابراهيم ابنه واسماعيل نفسه ﴿وتله للجبين﴾ صرعه على شقه فوقع جبينه على الأرض[1] وهو أحد جانبى الجبهة وقيل كبه على وجهه باشارته كيلا يرى منه ما يورث رقة تحول بينه وبين أمر الله تعالى وكان ذلك عند الصخرة من منى وقيل فى الموضع المشرف على مسجد منى وقيل فى المنحر الذى ينحر اليوم فيه ﴿وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ﴾ بالعزم على الاتيان بالمأمور به وترتيب مقدماته وقد روى أنه أمر السكين بقوته على حلقه مرارا فلم يقطع ثم وضع السكين على قفاه فانقلب السكين فعند ذلك وقع النداء وجواب لما محذوف إيذانا بعدم وفاء التعبير بتفاصيله كأنه قيل كان ما كان مما لا يحيط به نطاق البيان من استبشارهما وشكرهما لله تعالى على ما أنعم به عليهما من دفع البلاء بعد حلوله والتوفيق لما لم يوفق أحد لمثله وإظهار فضلهما بذلك على العالمين مع إحراز الثواب العظيم إلى غير ذلك ﴿إنا كذلك نجزى المحسنين﴾ تعليل لتفريج

(١) فى ١١ : فوقع على جبينه .

تلك الكربة عنهما بإحسانهما واحتج به من جوز النسخ قبل وقوع المأمور به فإنه عليه الصلاة والسلام كان مأمورا بالذبح لقوله تعالى (افعل ما تؤمر) ولم يحصل ﴿إن هذا لهو البلاء المبين﴾ الذى يتميز فيه المخلص عن غيره أو المحنة البينة الصعوبة إذ لا شىء أصعب منها ﴿ وفديناه بذبح ﴾ بما يذبح بدله فيتم به الفعل ﴿عظيم﴾ أى عظيم الجثة سمين أو عظيم القدر لأنه يفدى به الله نبيا ابن نبى من نسله سيد المرسلين قيل كان ذلك كبشا من الجنة عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه الكبش الذى قربه هابيل فتقبل منه وكان يرعى فى الجنة حتى فدى به إسماعيل عليه السلام وقيل فدى بوعل أهبط عليه من ثبير وروى أنه هرب من إبراهيم عليه السلام عند الجمرة فرماه بسبع حصيات حتى أخذه فبقى سنة فى الرمى وروى أنه رمى الشيطان حين تعرض له بالوسوسة عند ذبح ولده وروى أنه لما ذبحه قال جبريل عليه السلام الله أكبر الله أكبر فقال الذبيح لا إله إلا الله والله أكبر فقال إبراهيم الله أكبر ولله الحمد فبقى سنة والفادى فى الحقيقة هو إبراهيم وإنما قيل وفديناه لأنه تعالى هو المعطى له والآمر به على التجوز فى الفداء أو الإسناد ﴿وتركنا عليه فى الآخرين سلام على ابراهيم﴾ قد سلف بيانه فى خاتمة قصة نوح عليه السلام ﴿ كذلك نجزى المحسنين ﴾ ذلك إشارة إلى إبقاء ذكره الجميل فيما بين الأمم لا إلى ما أشير إليه فيما سبق فلا تكرار وعدم تصدير الجملة بإنا للاكتفاء بما مر آنفا ﴿ إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ الراسخين فى الإيمان على وجه الإيقان والاطمئنان .

سلالة إبراهيم

﴿ وبشرناه بإسحق نبيا من الصالحين ﴾ أى مقضيا بنبوته مقدرا كونه من الصالحين وبهذا الاعتبار وقعا حالين ولا حاجة إلى وجود المبشر به وقت البشارة فإن وجود ذى الحال ليس بشرط وإنما الشرط مقارنة تعلق الفعل به لاعتبار معنى الحال فلا حاجة إلى تقدير مضاف يجعل عاملا فيهما مثل وبشرناه بوجود إسحق بأن يوجد إسحق نبيا من الصالحين ومع ذلك لا يصير نظير قوله تعالى (فادخلوها خالدين) فإن الداخلين كانوا مقدرين خلودهم وقت الدخول

واسحق عليه السلام لم يكن مقدرا نبوة نفسه وصلاحها حين ما يوجد ومن فسر الغلام باسحق جعل المقصود من البشارة نبوته عليه الصلاة والسلام وفى ذكر الصلاح بعد تعظيم لشأنه وإيماء الى أنه الغاية لها لتضمنها معنى الكمال والتكميل بالفعل على الإطلاق .

﴿ وباركنا عليه ﴾ على ابراهيم فى أولاده ﴿ وعلى اسحق ﴾ بأن أخرجنا من صلبه أنبياء بنى إسرائيل وغيرهم كايوب وشعيب عليهم السلام أو أفضنا عليهما بركات الدين والدنيا وقرىء وبركنا ﴿ ومن ذريتهما محسن ﴾ فى عمله أو لنفسه بالإيمان والطاعة ﴿ وظالم لنفسه ﴾ بالكفر والمعاصى ﴿ مبين ﴾ ظاهر ظلمه وفيه تنبيه على أن النسب لا تأثير له فى الهداية والضلال وأن الظلم فى أعقابهما لا يعود عليهما بنقيصة ولا عيب ﴿ ولقد مننا على موسى وهرون ﴾ أى أنعمنا عليهما بالنبوة وغيرها من النعم الدينية والدنيوية ﴿ ونجيناهما وقومهما ﴾ وهم بنو إسرائيل ﴿ من الكرب العظيم ﴾ هو ملكة آل فرعون وتسلطهم عليهم بألوان الغشم والعذاب كما فى قوله تعالى (وإذ أنجيناكم من آل فرعون) وقيل هو الغرق وهو بعيد لأنه لم يكن عليهم كربا ومشقة .

﴿ ونصرناهم ﴾ أى إياهما وقومهما على عدوهم ﴿ فكانوا ﴾ بسبب ذلك ﴿ هم الغالبين ﴾ عليهم غلبة لا غاية وراءها بعد أن كان قومهما فى أسرهم وقسرهم مقهورين تحت أيديهم العادية يسومونهم سوء العذاب وهذه التنجية وإن كانت بحسب الوجود مقارنة لما ذكر من النصر والغلبة لكنها لما كانت بحسب المفهوم عبارة عن التخليص من المكروه بدىء بها ثم بالنصر الذى يتحقق مدلوله بمحض تنجية المنصور من عدوه من غير تغليبه عليه ثم بالغلبة لتوفية مقام الامتنان حقه بإظهار أن كل مرتبة من هذه المراتب الثلاث نعمة جليلة على حيالها ﴿ وآتيناهما ﴾ بعد ذلك ﴿ الكتاب المستبين ﴾ أى البليغ فى البيان والتفصيل وهو التوراة ﴿ وهديناهما ﴾ بذلك ﴿ الصراط المستقيم ﴾ الموصل إلى الحق والصواب بما فيه من تفاصيل الشرائع وتفاريع الأحكام ﴿ وتركنا عليهما فى الآخرين سلام على موسى وهرون ﴾ أى أبقينا فيما بين الأمم الآخرين

هـذا الذكر الجميل والثناء الجزيل ﴿ إنا كذلك ﴾ الجزاء الكامل ﴿ نجزى المحسنين ﴾ الذين هما من جملتهم لاجزاء قاصرا عنه ﴿ إنهما من عبادنا المؤمنين ﴾ سبق بيانه ﴿ وإن إلياس لمن المرسلين ﴾ هو إلياس بن ياسين من سبط هرون أخي موسى عليهم السلام بعث بعده وقيل إدريس لأنه قرىء مكانه إدريس وإدراس وقرىء إبليس وقرىء إلياس بحذف الهمزة ﴿ إذ قال لقومه ألا تتقون ﴾ أى عذاب الله تعالى .

﴿ أتدعون بعلا ﴾ أتعبدونه وتطلبون الخير منه وهو اسم صنم كان لأهل بك من الشأم وهو البلد المعروف اليوم ببعلبك قيل كان من ذهب طوله عشرون ذراعا وله أربعة أوجه فتنوا به وعظموه حتى أخدموه أربعمائة سادن وجعلوهم أنبياء فكان الشيطان يدخل جوفه ويتكلم بشريعة الضلالة والسدنة يحفظونها ويعلمونها الناس وقيل البعل الرب بلغة اليمن أى أتعبدون بعض البعول ﴿ وتذرون أحسن الخالقين ﴾ أى وتتركون عبادته وقد أشير إلى المقتضى للإنكار المعنى بالهمزة ثم صرح به بقوله تعالى ﴿ الله ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ بالنصب على البدلية من أحسن الخالقين وقرىء بالرفع على الابتداء والتعرض لذكر ربوبيته تعالى لآبائهم لتأكيد إنكار تركهم عبادته تعالى والإشعار ببطلان آراء آبائهم أيضا ﴿ فكذبوه فإنهم ﴾ بسبب تكذيبهم ذلك ﴿ لمحضرون ﴾ أى العذاب والاطلاق للاكتفاء بالقرائن على أن الإحضار المطلق مخصوص بالشر عرفا ﴿ إلا عباد الله المخلصين ﴾ استثناء من ضمير محضرون ﴿ وتركنا عليه فى الآخرين سلام على الياسين ﴾ هو لغة فى الياس كسيناء فى سينين وقيل هو جمع له أريد به هو وأتباعه كالمهلبين والخبيبين وفيه أن العلم إذا جمع يجب تعريفه كالمنابين وقرىء بإضافة آل إلى ياسين لأنهما فى المصحف مفصولان فيكون ياسين أبا الياس ﴿ إنا كذلك نجزى المحسنين إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ مر تفسيره ﴿ وإن لوطا لمن المرسلين إذ نجيناه ﴾ أى اذكر وقت تنجيتنا إياه ﴿ وأهله أجمعين إلا عجوزا فى الغابرين ﴾ أى الباقين فى العذاب أو الماضين الهالكين .

﴿ثم دمرنا الآخرين﴾ فإن فى ذلك شواهد على جلية أمره وكونه من جملة المرسلين ﴿وإنكم﴾ يا أهل مكة ﴿لتمرون عليهم﴾ على منازلهم فى متاجركم إلى الشأم وتشاهدون آثار هلاكهم فإن سدوم فى طريق الشأم ﴿مصبحين﴾ داخلين فى الصباح ﴿وبالليل﴾ أى ومساء أهم نهارا وليلا ولعلها وقعت بقرب منزل يمر بها المرتحل عنه صباحا والقاصد له مساء ﴿أفلا تعقلون﴾ أتشاهدون ذلك فلا تعقلون حتى تعتبروا به وتخافوا أن يصيبكم مثل ما أصابهم ﴿وإن يونس لمن المرسلين﴾ وقرىء بكسر النون ﴿إذ أبق﴾ أى هرب وأصله الهرب من السيد لكن لما كان هربه من قومه بغير إذن ربه حسن إطلاقه عليه ﴿إلى الفلك المشحون﴾ أى المملوء ﴿فساهم﴾ فقارع أهله ﴿فكان من المدحضين﴾ فصار من المغلوبين بالقرعة وأصله المزلق عن مقام الظفر روى أنه عليه الصلاة والسلام لما وعد قومه بالعذاب خرج من بينهم قبل أن يأمره الله تعالى به فركب السفينة فوقفت فقال فيها عبد آبق فاقترعوا فخرجت القرعة عليه فقال أنا الآبق ورمى بنفسه[1] فى الماء ﴿فالتقمه الحوت﴾ فابتلعه من اللقمة ﴿وهو مليم﴾ داخل فى الملامة أو آت بما يلام عليه أو مليم نفسه وقرىء مليم بالفتح مبنيا من ليم كشيب فى مشوب ﴿فلولا أنه كان من المسبحين﴾ الذاكرين الله كثيرا بالتسبيح مدة عمره أو فى بطن الحوت وهو قوله (لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين) وقيل من المصلين فإنه عليه الصلاة والسلام كان كثير الصلاة فى الرخاء ﴿للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون﴾ حيا وقيل ميتا وفيه حث على إكثار الذكر وتعظيم لشأنه ومن أقبل عليه فى السراء أخذ بيده عند الضراء ﴿فنبذناه بالعراء﴾ بأن حملنا الحوت على لفظه بالمكان الخالى عما يغطيه من شجر او نبت روى أن الحوت سار مع السفينة رافعا رأسه يتنفس فيه يونس عليه السلام ويسبح ولم يفارقهم حتى انتهوا إلى البر فلفظه سالما لم يتغير منه شىء فأسلموا وروى أن الحوت قذفه بساحل قرية من الموصل واختلف فى مقدار لبثه

---

(١) فى ١١: ورمى نفسه .

فقيل أربعون يوما وقيل عشرون وقيل سبعة وقيل ثلاثة وقيل لم يلبث إلا قليلا ثم أخرج من بطنه بعيد الوقت الذى التقم فيه روى عطاء أنه حين ابتلعه أوحى الله تعالى إلى الحوت إنى جعلت بطنك له سجنا ولم أجعله لك طعاما ﴿ وهو سقيم ﴾ مما ناله قيل صار بدنه كبدن الطفل حين يولد ﴿ وأنبتنا عليه ﴾ أى فوقه مظلة عليه ﴿ شجرة من يقطين ﴾ وهو كل ما ينبسط على الأرض ولا يقوم على ساق كشجر البطيخ والقثاء والحنظل وهو يفعيل من قطن بالمكان إذا أقام به والأكثرون على أنه الدباء غطته بأوراقها عن الذباب فإنه لا يقع عليه ويدل عليه أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنك تحب القرع قال أجل هى شجرة أخى يونس وقيل هى التين وقيل الموز تغطى بورقه واستظل بأغصانه وأفطر على ثماره وقيل كان يستظل بالشجرة وكانت وعلة تختلف إليه فيشرب من لبنها.

﴿ وأرسلناه إلى مائة ألف ﴾ هم قومه الذين هرب منهم وهم أهل نينوى والمراد به إرساله السابق أخبر أولا بأنه من المرسلين على الاطلاق ثم أخبر بأنه قد أرسل إلى أمة جمة وكأن توسيط تذكير وقت هربه إلى الفلك وما بعده بينهما لتذكير سببه وهو ماجرى بينه عليه الصلاة والسلام وبين قومه من إنذاره إياهم عذاب الله تعالى وتعيينه لوقت حلوله وتعللهم وتعليقهم لإيمانهم بظهور أماراته كما مر تفصيله فى سورة يونس ليعلم أن إيمانهم الذى سيحكى بعد لم يكن عقيب الإرسال كما هو المتبادر من ترتيب الإيمان عليه بالفاء بعد اللتيا والتى وقيل هو إرسال آخر إليهم وقيل إلى غيرهم وليس بظاهر ﴿ أو يزيدون ﴾ أى فى مرأى الناظر فإنه إذا نظر إليهم قال إنهم مائة ألف أو يزيدون والمراد هو الوصف بالكثرة وقرىء بالواو ﴿ فآمنوا ﴾ أى بعد ما شاهدوا علائم حلول العذاب إيمانا خالصا ﴿ فمتعناهم ﴾ أى بالحياة الدنيا ﴿ إلى حين ﴾ قدره الله سبحانه لهم قيل ولعل عدم ختم هذه القصة وقصة لوط بما ختم به سائر القصص للتفرقة بينهما وبين أرباب الشرائع وأولى العزم من الرسل أو اكتفاء بالتسليم الشامل لكل الرسل المذكورين فى آخر السورة .

أكاذيب قريش

﴿ فاستفتهم ﴾ أمر الله عز وجل فى صدر السورة الكريمة رسوله صلى الله عليه وسلم بتبكيت قريش وإبطال مذهبهم فى إنكار البعث بطريق الاستفتاء وساق البراهين القاطعة الناطقة بتحققه لا محالة وبين وقوعه وما سيلقونه عند ذلك من فنون العذاب واستثنى منهم عباده المخلصين وفصل ما لهم من النعيم المقيم ثم ذكر أنه قد ضل من قبلهم أكثر الأولين وأنه تعالى أرسل إليهم منذرين على وجه الإجمال ثم أورد قصص كل واحد منهم على وجه التفصيل مبينا فى كل قصة منها أنهم من عباده تعالى واصفا لهم تارة بالإخلاص وأخرى بالإيمان ثم أمره عليه الصلاة والسلام ههنا بتبكيتهم بطريق الاستفتاء عن وجه أمر منكر خارج عن العقول بالكلية وهى القسمة الباطلة اللازمة لما كانوا عليه من الاعتقاد الزائغ حيث كانوا يقولون كبعض أجناس العرب جهينة وبنى سلمة وخزاعة وبنى مليح : الملائكة بنات الله والفاء لترتيب الأمر على ما سبق من كون أولئك الرسل الذين هم أعلام الخلق عليهم الصلاة والسلام عباده تعالى فإن ذلك مما يؤكد التبكيت ويظهر بطلان مذهبهم الفاسد ثم تبكيتهم بما يتضمنه كفرهم المذكور من الاستهانة بالملائكة بجعلهم إناثا ثم أبطل أصل كفرهم المنطوى على هذين الكفرين وهو نسبة الولد إليه سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيراً ولم ينظمه فى سلك التبكيت لمشاركتهم النصارى فى ذلك أى فاستخبرهم ﴿ ألربك البنات ﴾ اللاتى هن أوضع الجنسين ﴿ ولهم البنون ﴾ الذين هم أرفعهما فإن ذلك مما لا يقول به من له أدنى شىء من العقل وقوله تعالى ﴿ أم خلقنا الملائكة إناثا ﴾ إضراب وانتقال من التبكيت بالاستفتاء السابق إلى التبكيت بهذا كما أشير إليه أى بل أخلقنا الملائكة الذين هم من أشرف الخلائق وأبعدهم من صفات الأجسام ورذائل الطبائع إناثا والأنوثة من أخس صفات الحيوان وقوله تعالى ﴿ وهم شاهدون ﴾ استهزاء بهم وتجهيل لهم كقوله تعالى (أشهدوا خلقهم) وقوله تعالى (ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم) فإن أمثال هذه الأمور لا تعلم إلا بالمشاهدة إذ لا سبيل إلى معرفتها بطريق العقل

وانتفاء النقل بما لا ريب فيه فلابد أن يكون القائل بأنوثتهم شاهداً عند خلقهم والجملة إما حال من فاعل خلقنا أي بل أخلقناهم إناثا والحال أنهم حاضرون حينئذ أو عطف على خلقنا أي بل أهم شاهدون وقوله تعالى :

﴿ ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله ﴾ استئناف من جهته غير داخل تحت الأمر بالاستفتاء مسوق لإبطال أصل مذهبهم الفاسد ببيان أن مبناه ليس إلا الإفك الصريح والافتراء القبيح من غير أن يكون لهم دليل أو شبهة قطعا ﴿ وإنهم لكاذبون ﴾ في قولهم ذلك كذبا بينا لا ريب فيه وقرىء ولد الله على أنه خبر مبتدأ محذوف أي الملائكة ولده تعالى عن ذلك علوا كبيرا فان الولد فعل بمعنى مفعول يستوى فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث ﴿ أصطفى البنات على البنين ﴾ إثبات لإفكهم وتقرير لكذبهم فيما قالوا ببيان استلزامه لأمر بين الاستحالة هو اصطفاؤه تعالى البنات على البنين والاصطفاء أخذ صفوة الشيء لنفسه وقرىء بكسر الهمزة على حذف حرف الاستفهام ثقة بدلالة القرائن عليه وجعله بدلا من ولد الله ضعيف وتقدير القول أي لكاذبون في قولهم اصطفى الخ تعسف بعيد ﴿ ما لكم كيف تحكمون ﴾ بهذا الحكم الذي يقضي ببطلانه بديهة العقل ﴿ أفلا تذكرون ﴾ بحذف إحدى التاءين من تتذكرون وقرىء تذكرون من ذكر والفاء للعطف على مقدر أي ألا تلاحظون ذلك فلا تتذكرون بطلانه فانه مركوز في عقل كل ذكي وغبي

﴿ أم لكم سلطان مبين ﴾ إضراب وانتقال من توبيخهم وتبكيتهم بما ذكر إلى تبكيتهم بتكليفهم مالا يدخل تحت الوجود أصلا أي بل ألكم حجة واضحة نزلت عليكم من السماء بأن الملائكة بناته تعالى ضرورة أن الحكم بذلك لا بد له من سند حسي أو عقلي وحيث انتفى كلاهما فلابد من سند نقلي ﴿ فأتوا بكتابكم ﴾ الناطق بصحة دعواكم ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ فيها وفي هذه الآيات من الإنباء عن السخط العظيم والإنكار الفظيع لأقاويلهم والاستبعاد الشديد لأباطيلهم وتسفيه أحلامهم وتركيك عقولهم وأفهامهم مع استهزاء بهم وتعجيب من جهلهم ما لا يخفى على من تأمل فيها وقوله تعالى :

﴿ وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ﴾ التفات إلى الغيبة للايذان بانقطاعهم عن الجواب وسقوطهم عن درجة الخطاب واقتضاء حالهم أن يعرض عنهم وتحكى جناياتهم لآخرين والمراد بالجنة الملائكة قالوا الجنس واحد ولكن من خبث من الجن ومرد وكان شرا كله فهو شيطان ومن طهر منهم ونسك وكان خيراً كله فهو ملك وإنما عبر عنهم بذلك الاسم وضعاً منهم وتقصيراً بهم مع عظم شأنهم فيما بين الخلق أن يبلغوا منزلة المناسبة التى أضافوها إليهم فجعلهم هذا عبارة عن قولهم الملائكة بنات الله وإنما أعيد ذكره تمهيدا لما يعقبه من قوله تعالى ﴿ ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون ﴾ أى وبالله لقد علمت الجنة التى عظموها بأن جعلوا بينها وبينه تعالى نسبا وهم الملائكة أن الكفرة لمحضرون النار معذبون بها لكذبهم وافترائهم فى قولهم ذلك والمراد به المبالغة فى التكذيب ببيان أن الذين يدعى هؤلاء لهم تلك النسبة ويعلمون أنهم أعلم منهم بحقيقة الحال يكذبونهم فى ذلك ويحكون بأنهم معذبون لأجله حكما مؤكداً وقيل إن قوما من الزنادقة يقولون الله تعالى وإبليس أخوان فالله هو الخير الكريم وإبليس هو الشر اللئيم وهو المراد بقوله تعالى (وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا) قال الإمام الرازى وهذا القول عندى أقرب الأقاويل وهو مذهب المجوس القائلين بيزدان واهرمن وقال مجاهد قالت قريش الملائكة بنات الله فقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه فمن أمهاتهم تبكيتا لهم فقالوا سروات الجن وقيل معنى جعلوا بينه وبين الجنة نسبا جعلوا بينهما مناسبة حيث أشركوا به تعالى الجن فى استحقاق العبادة فعلى هذه الأقاويل يجوز أن يكون الضمير فى إنهم لمحضرون للجنة فالمعنى لقد علمت الشياطين أن الله تعالى يحضرهم النار ويعذبهم بها ولو كانوا مناسبين له تعالى أو شركاء فى استحقاق العبادة لما عذبهم والوجه هو الأول فان قوله ﴿ سبحان الله عما يصفون ﴾ حكاية لتنزيه الملائكة إياه تعالى عما وصفه المشركون به بعد تكذيبهم لهم فى ذلك بتقدير قول معطوف على علمت وقوله تعالى ﴿ إلا عباد الله المخلصين ﴾ شهادة منهم ببراءة المخلصين من أن يصفوه تعالى بذلك متضمنة لتبرئهم منه بحكم اندراجهم فى زمرة

المخلصين على أبلغ وجه وآكده على أنه استثناء منقطع من واو يصفون كأنه قيل ولقد علمت الملائكة أن المشركين لمعذبون لقولهم ذلك وقالوا سبحان الله عما يصفونه به لكن عباد الله الذين نحن من جملتهم برآء من ذلك الوصف وقوله تعالى ﴿ فإنكم وما تعبدون ما أنتم عليه بفاتنين ﴾ تعليل وتحقيق لبراءة المخلصين مما ذكر ببيان عجزهم عن إغوائهم وإضلالهم والإلتفات إلى الخطاب لإظهار كمال الاعتناء بتحقيق مضمون الكلام وما تعبدون عبارة عن الشياطين الذين أغووهم وفيه إيذان بتبرئهم عنهم وعن عبادتهم كقولهم بل كانوا يعبدون الجن وما نافية وأنتم خطاب لهم ولمعبوديهم تغليبا وعلى متعلقة بفاتنين يقال فتن فلان على فلان امرأته أى أفسدها عليه والمعنى فإنكم ومعبوديكم أيها المشركون لستم بفاتنين عليه تعالى بإفساد عباده وإضلالهم.

﴿ إلا من هو صال الجحيم ﴾ منهم أى داخلها لعلمه تعالى بأنه يصير على الكفر بسوء بسوء اختياره ويصير من أهل النار لا محالة وأما المخلصون منهم فأنتم بمعزل من إفسادهم وإضلالهم فهم لاجرم براء من أن يفتتنوا بكم ويسلكوا مسلككم فى وصفه تعالى بما وصفتموه به وقرىء صال بضم اللام على أنه جمع محمول على معنى من قد سقط واوه لإلتقاء الساكنين وقوله تعالى: ﴿ وما منا إلا له مقام معلوم ﴾ تبيين لجلية أمرهم وتعيين لحيزهم فى موقف العبودية بعد ما ذكر من تكذيب الكفرة فيما قالوا وتنزيه الله تعالى عن ذلك وتبرئة المخلصين عنه وإظهار لقصور شأنهم وقماءتهم أى وما منا أحد إلا له مقام معلوم فى العبادة والانتهاء إلى أمر الله تعالى مقصور عليه لا يتجاوزه ولا يستطيع أن يزل عنه خضوعا لعظمته وخشوعا لهيبته وتواضعا لجلاله كما روى فمنهم راكع لا يقيم صلبه وساجد لا يرفع رأسه قال ابن عباس رضى الله عنهما ما فى السموات موضع شبر إلا وعليه ملك يصلى أو يسبح وروى أنه عليه الصلاة والسلام قال أطت السماء وحق لها أن تئط والذى نفسى بيده ما فيها موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك واضع جبهته ساجد لله تعالى وقال السدى إلا له مقام معلوم فى القربة والمشاهدة ﴿ وإنا لنحن الصافون ﴾ فى

مواقف الطاعة ومواطن الخدمة ﴿ وإنا لنحن المسبحون ﴾ المقدسون لله سبحانه عن كل مالا يليق بجناب كبريائه وتحلية كلامهم بفنون التأكيد لإبراز أن صدوره عنهم بكمال الرغبة والنشاط هذا هو الذى تقتضيه جزالة التنزيل وقد ذكر فى تفسير الآيات الكريمة وإعرابها وجوه أخر فتأمل والله الموفق .

﴿ وإن كانوا ليقولون ﴾ إن هى المخففة من الثقيلة وضمير الشأن محذوف واللام هى الفارقة أى إن الشأن كانت قريش تقول ﴿ لو أن عندنا ذكرا من الأولين ﴾ أى كتابا من كتب الأولين من التوراة والإنجيل ﴿ لكنا عباد الله المخلصين ﴾ أى لأخلصنا العبادة لله تعالى ولما خالفنا كما خالفوا وهذا (كقولهم) لئن جاءنا نذير لنكونن أهدى من إحدى الأمم والفاء فى قوله تعالى ﴿ فكفروا به ﴾ فصيحة كما فى قوله تعالى (فقلنا اضرب بعصاك البحر فانفلق) أى فجاءهم ذكر وأى ذكر سيد الأذكار وكتاب مهيمن على سائر الكتب والأسفار فكفروا به ﴿ فسوف يعلمون ﴾ أى عاقبة كفرهم وغائلته ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ﴾ استئناف مقرر للوعيد وتصديره بالقسم لغاية الاعتناء بتحقيق مضمونه أى وبالله لقد سبق وعدنا لهم بالنصرة والغلبة وهو قوله تعالى ﴿ إنهم لهم المنصورون وإن جندنا ﴾ وهم أتباع المرسلين ﴿ لهم الغالبون ﴾ على أعدائهم فى الدنيا والآخرة ولا يقدح فى ذلك انهزامهم فى بعض المشاهد فإن قاعدة أمرهم وأساسه الظفر والنصرة وإن وقع فى تضاعيف ذلك شوب من الابتلاء والمحنة والحكم للغالب وعن ابن عباس رضى الله عنهما إن لم ينصروا فى الدنيا نصروا فى الآخرة وقرىء على عبادنا بتضمين سبقت معنى حققت وتسميتها كلمة مع أنها كلمات لانتظامها فى معنى واحد وقرىء كلماتنا .

﴿ فتول عنهم ﴾ فأعرض عنهم واصبر ﴿ حتى حين ﴾ إلى مدة يسيرة وهى مدة الكف عن القتال وقيل يوم بدر وقيل يوم الفتح ﴿ وأبصرهم ﴾ على أسوأ حال وأفظع نكال حل بهم من القتل والأسر والمراد بالأمر بإبصارهم الإيذان بغاية قربه كأنه بين يديه ﴿ فسوف يبصرون ﴾ ما يقع حينئذ من

الأمور وسوف للوعيد دون التبعيد ﴿أفبعذابنا يستعجلون﴾ روى أنه لما نزل فسوف يبصرون قالوا متى هذا فنزل ﴿ فإذا نزل بساحتهم ﴾ أى فإذا نزل العذاب الموعود بفنائهم كأنه جيش قد هجمهم فأناخ بفنائهم بغتة فشن عليهم الغارة وقطع دابرهم بالمرة وقيل المراد نزول رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح وقرىء نزل بساحتهم على إسناده إلى الجار والمجرور وقرىء نزل مبنيا للمفعول من التنزيل أى نزل العذاب ﴿ فساء صباح المنذرين ﴾ فبئس صباح المنذرين صباحهم واللام للجنس والصباح مستعار من صباح الجيش المبيت لوقت نزول العذاب ولما كثرت منهم الغارة فى الصباح سموها صباحا وإن وقعت ليلا روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أتى خيبر وكانوا خارجين إلى مزارعهم ومعهم المساحى قالوا محمد والخميس ورجعوا إلى حصنهم فقال عليه الصلاة والسلام الله أكبر خربت خيبر أنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين ﴿ وتول عنهم حتى حين وأبصر فسوف يبصرون ﴾ تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم إثر تسلية وتأكيد لوقوع الميعاد غب تأكيد مع مافى إطلاق الفعلين عن المفعول من الإيذان بأن ما يبصره عليه الصلاة والسلام حينئذ من فنون المسار وما يبصرونه من أنواع المضار لايحيط به الوصف والبيان وقيل أريد بالأول عذاب الدنيا وبالثانى عذاب الآخرة ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون ﴾ تنزيه لله سبحانه عن كل ما يصفه المشركون به مما لا يليق بجناب كبريائه وجبروته مما ذكر فى السورة الكريمة وما لم يذكر من الأمور التى من جملتها ترك إنجاز الموعود على موجب كلمته السابقة لاسيما فى حق رسول الله صلى الله عليه وسلم كما ينبىء عنه التعرض لعنوان الربوبية المعربة عن التربية والتكميل والمالكية الكلية مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام أولا وإلى العزة ثانيا كأنه قيل سبحان من هو مربيك ومكملك ومالك العزة والغلبة على الإطلاق عما يصفه المشركون به من الأشياء التى منها ترك نصرتك عليهم كما يدل عليه استعجالهم بالعذاب وقوله تعالى :

﴿ وسلام على المرسلين ﴾ تشريف لهم عليهم السلام بعد تنزيهه تعالى عما ذكر وتنويه بشأنهم وإيذان بأنهم سالمون عن كل المكاره فائزون بجميع المآرب. وقوله تعالى ﴿ والحمد لله رب العالمين ﴾ إشارة إلى وصفه عز وجل بصفاته الكريمة الثبوتية بعد التنبيه على اتصافه تعالى بجميع صفاته السلبية وإيذان باستتباعها للأفعال الجميلة التى من جملتها إفاضته عليهم من فنون الكرامات السنية والكمالات الدينية والدنيوية وإسباغه عليهم وعلى من تبعهم من صنوف النعماء الظاهرة والباطنة الموجبة لحمده تعالى وإشعار بأن ما وعده عليه الصلاة والسلام من النصرة والغلبة قد تحققت والمراد تنبيه المؤمنين على كيفية تسبيحه تعالى وتحميده والتسليم على رسله الذين هم وسايط بينهم وبينه عز وعلا فى فيضان الكمالات الدينية والدنيوية عليهم ولعل توسيط التسليم على المرسلين بين تسبيحه تعالى وتحميده لختم السورة الكريمة بحمده تعالى مع ما فيه من الإشعار بأن توفيقه تعالى للتسليم عليهم من جملة نعمه الموجبة للحمد . عن على رضى الله عنه من أحب أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليكن آخر كلامه إذا قام من مجلسه سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ والصافات أعطى من الأجر عشر حسنات بعدد كل جنى وشيطان وتباعدت عنه مردة الشياطين وبرىء من الشرك وشهد له حافظاه يوم القيامة أنه كان مؤمنا بالمرسلين .

* * *

سورة ص

مكية ، وآيها ست ، أو ثمان وثمانون آية

(بسم الله الرحمن الرحيم)

﴿ ص ﴾ بالسكون على الوقف وقرىء بالكسر والفتح لالتقاء الساكنين ويجوز أن يكون الفتح بإضمار حرف القسم فى موضع الجر كقولهم الله لأفعلن بالجر وأن يكون ذلك نصبا بإضمار اذكر أو اقرأ لا فتحا كما مر فى فاتحة سورة البقرة وامتناع الصرف للتعريف والتأنيث لأنها علم للسورة وقد صرفها من قرأ صاد بالتنوين على أنه اسم الكتاب أو التنزيل وقيل هو فى قراءة الكسر أمر من المصاداة وهى المعارضة والمقابلة ومنها الصدى الذى ينعكس من الأجسام الصلبة بمقابلة الصوت ومعناه عارض القرآن بعملك فاعمل بأوامره وانته عن نواهيه وتخلق بأخلاقه ثم إن جعل اسما للحرف مسرودا على منهاج التحدى أو الرمز إلى كلام مثل صدق الله أو صدق محمد كما نقل عن أكابر السلف أو اسما للسورة خبرا لمبتدأ محذوف أو نصبا على إضمار اذكر أو اقرأ أو أمرا من المصاداة فالواو فى قوله تعالى : ﴿ والقرآن ذى الذكر ﴾ للقسم وإن جعل مقسما به فهى للعطف عليه فإن أريد بالقرآن كله فالمغايرة بينهما حقيقية وإن أريد عين السورة فهى اعتبارية كما فى قولك مررت بالرجل الكريم وبالنسمة المباركة وأياما كان ففى التكرير مزيد تأكيد لمضمون الجملة المقسم عليها والذكر الشرف والنباهة كما فى قوله تعالى (وإنه لذكر لك ولقومك) أو الذكرى والموعظة أو ذكر ما يحتاج إليه فى أمر الدين من الشرائع والأحكام وغيرها من أقاصيص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأخبار الأمم الدارجة والوعد والوعيد وجواب القسم على الوجه الأول والرابع والخامس محذوف هو ما ينبىء عنه التحدى والأمر والأقسام به من كون المتحدى به معجزا

وكون المأمور به واجبا وكون المقسم به حقيقا بالإعظام أى أقسم بالقرآن أو بصاد وبه إنه لمعجز أو لواجب العمل به أو لحقيق بالإعظام وأما على الوجهين الباقيين فهو الكلام المرموز إليه ونفس الجملة المذكورة قبل القسم فإن التسمية تنويه بشأن المسمى وتنبيه على عظم خطره أى إنه لصادق والقرآن ذى الذكر أو هذه السورة عظيمة الشأن والقرآن الخ على طريقة قولهم هذا حاتم والله ولما كان كل واحد من هذه الأجوبة منبئا عن انتفاء الريب عن مضمونه بالكلية أبناء بينا كان قوله تعالى :

﴿ بل الذين كفروا فى عزة وشقاق ﴾ اضرابا عن ذلك كأنه قيل لاريب فيه قطعا وليس عدم اذعان الكفرة له لشائبة ريب ما فيه بل هم فى استكبار وحمية شديدة وشقاق بعيد لله تعالى ولرسوله ولذلك لايذعنون له وقيل الجواب ما دل عليه الجملة الإضرابية أى ما كفر به من كفر لخلل وجده فيه بل الذين كفروا الخ وقرىء فى غرة أى فى غفلة عما يجب عليهم التنبه له من مبادىء الإيمان ودواعيه .

وعيد الكفار

﴿ كم أهلكنا من قبلهم من قرن ﴾ وعيد لهم على كفرهم واستكبارهم ببيان ما أصاب من قبلهم من المستكبرين وكم مفعول أهلكنا ومن قرن تمييز والمعنى وقرنا كثيرا أهلكنا من القرون الخالية ﴿ فنادوا ﴾ عند نزول بأسنا وحلول نقمتنا استغاثة وتوبة لينجوا من ذلك وقوله تعالى : ﴿ ولات حين مناص ﴾ حال من ضمير نادوا واستغاثوا طلبا للنجاة والحال أن ليس الحين حين مناص أى فوت ونجاة من ناصه أى فاته لا من ناص بمعنى تأخر . ولا هى المشبهة بليس زيدت عليها تاء التأنيث للتأكيد كما زيدت على رب وثم وخصت بنفى الأحيان ولم يبرز إلا أحد معموليها والأكثر حذف اسمها وقيل هى النافية للجنس زيدت عليها التاء وخصت بنفى الأحيان وحين مناص منصوب على أنه اسمها أى ولا حين مناص وقرىء بالرفع فهو على الأول اسمها والخبر

محذوف أى وليس حين مناص حاصلا لهم وعلى الثانى مبتدأ محذوف الخبر أى ولا أرى حين مناص كائن لهم وقرىء بالكسر كما فى قوله :

طلبوا صلحنا ولات أوان فأجبنا أن لات حين بقاء

أما لأن لات تجر الأحيان كما أن لولا تجر الضمائر فى نحو قوله :

لولاك هذا العام لم أحجج

أو لأن أوان شبه بإذ فى قوله :

نهيتك عن طلابك أم عمرو بعافية وأنت إذ صحيح

فى أنه زمان قطع منه المضاف إليه وعوض التنوين لأن أصله أوان صلح ثم حمل عليه حين مناص تنزيلا لقطع المضاف إليه من مناص إذ أصله حين مناصهم منزلة قطعه من حين لما بين المضافين من الإتحاد ثم بنى الحين لإضافته إلى غير متمكن وقرىء لات بالكسر كجير ويقف الكوفيون عليها بالهاء كالأسماء والبصريون بالتاء كالأفعال وما قيل من أن التاء مزيدة على حين لإتصالها به فى الإمام مما لا وجه له فإن خط المصحف خارج عن القياس ﴿ وعجبوا أن جاءهم منذر منهم ﴾ حكاية لأباطيلهم المتفرعة على ما حكى من استكبارهم وشقاقهم أى عجبوا من أن جاءهم رسول من جنسهم بل أدون منهم فى الرياسة الدنيوية والمال على معنى أنهم عدوا ذلك أمرا عجيبا خارجا عن احتمال الوقوع وأنكروه أشد الإنكار لا أنهم اعتقدوا وقوعه وتعجبوا منه ﴿ وقال الكافرون ﴾ وضع فيه الظاهر موضع الضمير غضبا عليهم وإيذانا بأنه لا يتجاسر على مثل ما يقولونه إلا المتوغلون فى الكفر والفسوق ﴿ هذا ساحر ﴾ فيما يظهره من الخوارق ﴿ كذاب ﴾ فيما يسنده إلى الله تعالى من الإرسال والإنزال ﴿ أجعل الآلهة إلها واحدا ﴾ بأن نفى الألوهية عنهم وقصرها على واحد ﴿ إن هذا لشىء عجاب ﴾ بليغ فى العجب وذلك لأنه خلاف ما ألفوا عليه آباءهم الذين أجمعوا على ألوهيتهم وواظبوا على عبادتهم كابرا عن كابر فإن مدار كل ما يأتون وما يذرون من أمور دينهم هو التقليد والاعتياد فيعدون ما يخالف ما اعتادوه عجيبا بل محالا وأما جعل مدار تعجبهم

عدم وفاء علم الواحد وقدرته بالأشياء الكثيرة فلا وجه له لما أنهم لا يدعون أن لآلهتهم علما وقدرة ومدخلا فى حدوث شىء من الأشياء حتى يلزم من نفى ألوهيتهم بقاء الآثار بلا مؤثر وقرىء عجاب بالتشديد وهو أبلغ ككرام وكرام روى أنه لما أسلم عمر رضى الله عنه شق ذلك على قريش فاجتمع خمسة وعشرون من صناديدهم فأتوا أبا طالب فقالوا أنت شيخنا وكبيرنا وقد علمت مافعل هؤلاء السفهاء وقد جئناك لتقضى بيننا وبين ابن أخيك فاستحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال يا ابن أخى هؤلاء قومك يسألونك السؤال فلا تمل كل الميل على قومك فقال صلى الله عليه وسلم ماذا تسألوننى قالوا ارفضنا وارفض ذكر آلهتنا وندعك وإلهك فقال صلى الله عليه وسلم أرأيتم إن أعطيتكم ما سألتم أمعطى أنتم كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم قالوا نعم وعشرا فقال قولوا لا إله إلا الله فقاموا وقالوا ذلك .

﴿ وانطلق الملأ منهم ﴾ أى وانطلق الأشراف من قريش عن مجلس أبى طالب بعد ما بكتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجواب العتيد وشاهدوا تصلبه عليه الصلاة والسلام فى الدين وعزيمته على أن يظهره على الدين كله ويئسوا مما كانوا يرجونه بتوسط أبى طالب من المصالحة على الوجه المذكور ﴿أن امشوا﴾ أى قائلين بعضهم لبعض على وجه النصيحة امشوا ﴿واصبروا على آلهتكم ﴾ أى واثبتوا على عبادتها متحملين لما تسمعونه فى حقها من القدح وأن هى المفسرة لأن الانطلاق عن مجلس التقاول لا يخلو عن القول وقيل المراد بالانطلاق الاندفاع فى القول وامشوا من مشت المرأة إذا كثرت ولادتها ومنه الماشية للتفاؤل أى اجتمعوا واكثروا وقرىء امشوا بغير ان على إضمار القول وقرىء يمشون أن اصبروا ﴿ إن هذا لشىء يراد ﴾ تعليل للأمر بالصبر أو لوجوب الامتثال به أى هذا الذى شاهدناه من محمد صلى الله عليه وسلم من أمر التوحيد ونفى آلهتنا وإبطال أمرها لشىء يراد أى من جهته عليه الصلاة والسلام إمضاؤه وتنفيذه لامحالة من غير صارف يلويه ولا عاطف

يثنيه لاقول يقال من طرف اللسان أو أمر يرجى فيه المسامحة بشفاعة أو امتنان فاقطعوا أطماعكم عن استنزاله من رأيه بوساطة أبى طالب وشفاعته وحسبكم أى لا تمنعوا من عبادة آلهتكم بالكلية فاصبروا عليها وتحملوا ماتسمعونه فى حقها من القدح وسوء القالة وقيل إن هذا الأمر لشىء يريده الله تعالى ويحكم بامضائه وما أراد الله كونه فلا مرد له ولا ينفع فيه إلا الصبر وقيل إن هذا الأمر لشىء من نوائب الدهر يراد بنا فلا انفكاك لنا منه وقيل إن دينكم لشىء يراد أى يطلب ليؤخذ منكم وتغلبوا عليه وقيل إن هذا الذى يدعيه من التوحيد أو يقصده من الرياسة والترفع على العرب والعجم لشىء يتمنى ويريده كل أحد فتأمل فى هذه الأقاويل واختر منها ما يساعده النظم الجليل ﴿ ماسمعنا بهذا ﴾ الذى يقوله ﴿ فى الملة الآخرة ﴾ أى الملة النصرانية التى هى آخر الملل فإنهم مثلثة أو فى الملة التى أدركنا عليها آباءنا ويجوز أن يكون الجار والمجرور حالا من هذا أى ما سمعنا بهذا من أهل الكتاب ولا الكهان كائنا فى الملة المترقبة ولقد كذبوا فى ذلك أقبح كذب فإن حديث البعثة والتوحيد كان أشهر الأمور قبل الظهور ﴿ إن هذا ﴾ أى ما هذا ﴿ إلا اختلاق ﴾ أى كذب اختلقه .

﴿ أأنزل عليه الذكر ﴾ أى القرآن ﴿ من بيننا ﴾ ونحن رؤساء الناس وأشرافهم كقولهم لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ومرادهم إنكار كونه ذكراً منزلا من عند الله عز وجل كقولهم (لو كان خيرا ما سبقونا إليه) وأمثال هذه المقالات الباطلة دليل على أن مناط تكذيبهم ليس إلا الحسد وقصر النظر على الحطام الدنيوى ﴿ بل هم فى شك من ذكرى ﴾ أى من القرآن أو الوحى لميلهم إلى التقليد وإعراضهم عن النظر فى الأدلة المؤدية إلى العلم بحقيته وليس فى عقيدتهم ما يبتون به فهم مذبذبون بين الأوهام ينسبونه تارة إلى السحر وأخرى إلى الاختلاق ﴿ بل لما يذوقوا عذاب ﴾ أى بل لم يذوقوا بعد عذابى فإذا ذاقوه تبين لهم حقيقة الحال وفى لما دلالة على أن ذوقهم على شرف الوقوع والمعنى أنهم لا يصدقون به حتى يمسهم العذاب وقيل لم يذوقوا عذابى الموعود فى القرآن ولذلك شكوا فيه ﴿ أم عندهم خزائن رحمة ربك

العزيز الوهاب ﴾ بل أعندهم خزائن رحمته تعالى يتصرفون فيها حسبما يشاءون حتى يصيبوا بها من شاؤا ويصرفوها عمن شاؤا ويتحكموا فيها بمقتضى آرائهم فيتخيروا للنبوة بعض صناديدهم والمعنى أن النبوة عطية من الله عز وجل يتفضل بها على من يشاء من عباده المصطفين لا مانع له فإنه العزيز أى الغالب الذى لا يغالب الوهاب الذى له أن يهب كل ما يشاء لكل من يشاء وفى إضافة اسم الرب المنبىء عن التربية والتبليغ إلى الكمال إلى ضميره عليه الصلاة والسلام من تشريفه واللطف به ما لا يخفى وقوله تعالى ﴿ أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما ﴾ ترشيح لما سبق أى بل ألهم ملك هذه العوالم العلوية والسفلية حتى يتكلموا فى الأمور الربانية ويتحكموا فى التدابير الإلهية التى يستأثر بها رب العزة والكبرياء وقوله تعالى .

﴿ فليرتقوا فى الأسباب ﴾ جواب شرط محذوف أى إن كان لهم ما ذكر من الملك فليصعدوا فى المعارج والمناهج التى يتوصل بها إلى العرش حتى يستووا عليه ويدبروا أمر العالم وينزلوا الوحى إلى من يختارون ويستصوبون وفيه من التهكم بهم ما لا غاية وراءه والسبب فى الأصل هو الوصلة وقيل المراد بالأسباب السموات لأنها أسباب الحوادث السفلية وقيل أبوابها ﴿ جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب ﴾ أى هم جند ما من الكفار المتحزبين على الرسل مهزوم مكسور عما قريب فلا تبال بما يقولون ولا تكترث بما يهذون وما مزيدة للتقليل والتحقير نحو قولك أكلت شيأ ما وقيل للتعظيم على الهزء وهنالك إشارة إلى حيث وضعوا فيه أنفسهم من الانتداب لمثل ذلك القول العظيم وقوله تعالى .

من أحوال الكفار

﴿ كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد ﴾ الخ استئناف مقرر لمضمون ما قبله ببيان أحوال العتاة الطغاة الذين هؤلاء جند ما من جنودهم مما فعلوا من التكذيب وفعل بهم من العقاب وذو الأوتاد معناه ذو الملك

الثابت أصله من ثبات البيت المطنب بأوتاده فاستعير لثبات الملك ورسوخ السلطنة واستقامة الأمر قال الأسود بن يعفر :

ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة   في ظل ملك ثابت الأوتاد

أو ذو الجموع الكثيرة سموا بذلك لأن بعضهم يشد بعضاً كالوتد يشد البناء وقيل نصب أربع سوار وكان يمد يدى المعذب ورجليه إليها ويضرب عليها أوتاداً ويتركه حتى يموت وقيل كان يمده بين أربعة أوتاد فى الأرض ويرسل عليه العقارب والحيات وقيل كانت له أوتاد وحبال يلعب بها بين يديه ﴿ وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة ﴾ أصحاب الغيضة من قوم شعيب عليه السلام وقوله تعالى ﴿ أولئك الأحزاب ﴾ إما بدل من الطوائف المذكورة كما أن ذلك الكتاب بدل من ألم على أحد الوجوه وفيه فضل تأكيد وتنبيه على أنهم الذين جعل الجند المهزوم منهم وقوله تعالى ﴿ إن كل إلا كذب الرسل ﴾ استئناف جىء به تقريرا لتكذيبهم وبيانا لكيفيته وتمهيدا لما يعقبه أى ما كل أحد من آحاد أولئك الأحزاب أو ما كل حزب منهم إلا كذب الرسل لأن تكذيب واحد منهم تكذيب لهم جميعاً لاتفاق الكل على الحق وقيل ما كل حزب إلا كذب رسوله على نهج مقابلة الجمع بالجمع وأيا ما كان فالاستثناء مفرغ من أعم العام فى خبر المبتدأ أى ما كل أحد منهم محكوما عليه بحكم إلا محكوم عليه بأنه كذب الرسل وقيل ما كل واحد منهم مخبرا عنه بخبر إلا مخبر عنه بأنه كذب الرسل وفى إسناد التكذيب إلى الطوائف المذكورة على وجه الإبهام أولا والإيذان بأن كلا منهم حزب على حياله تحزب على رسوله ثانياً وتبيين كيفية تكذيبهم بالجملة الاستثنائية ثالثاً فنون من المبالغة مسجلة عليهم باستحقاق أشد العذاب وأفظعه ولذلك رتب عليه قوله تعالى ﴿ فحق عقاب ﴾ أى ثبت ووقع على كل منهم عقابى الذى كانت توجبه جناياتهم من أصناف العقوبات المفصلة فى مواقعها وإما مبتدأ وقوله تعالى (إن كل إلا كذب الرسل) خبره بحذف العائد أى إن كل منهم الخ والجملة استئناف مقرر لما قبله مؤكد لمضمونه مع ما فيه من بيان كيفية تكذيبهم والتنبيه على أنهم الذين جعل الجند المهزوم منهم كما ذكر وقيل هو مبتدأ و خبره والمعنى

أن الأحزاب الذين جعل الجند المهزوم منهم هم هم وأنهم الذين وجد منهم التكذيب فتدبر وأما ما قيل من أنه خبر والمبتدأ قوله تعالى (وعاد) الخ أو قوله (وقوم لوط) الخ فمما يجب تنزيه ساحة التنزيل عن أمثاله .

﴿ وما ينظر هؤلاء ﴾ شروع فى بيان عقاب كفار مكة إثر بيان عقاب أضرابهم من الأحزاب الذين أخبر فيما سبق بأنهم جند حقير منهم مهزوم عن قريب فإن ذلك مما يوجب انتظار السامع وترقبة إلى بيانه قطعاً وفى الإشارة إليهم بهؤلاء تحقير لشأنهم وتهوين لأمرهم وأما جعله إشارة إلى الأحزاب باعتبار حضورهم بحسب الذكر أو حضورهم فى علم الله عز وجل فليس فى حيز الاحتمال أصلا كيف لا والانتظار سواء كان حقيقة أو استهزاء إنما يتصور فى حق من لم يترتب على أعماله نتائجها بعد وبعد ما بين عقاب الأحزاب واستئصالهم بالمرة لم يبق مما أريد بيانه من عقوباتهم أمر منتظر وإنما الذين فى مرصد الانتظار كفار مكة حيث ارتكبوا من عظائم الجرائم وكبائر الجرائر الموجبة لأشد العقوبات مثل ما ارتكب الأحزاب أو أشد منه ولما يلاقوا بعد شيئاً من غوائلها أى وما ينتظر هؤلاء الكفرة الذين هم أمثال أولئك الطوائف المهلكة فى الكفر والتكذيب ﴿ إلا صيحة واحدة ﴾ هى النفخة الثانية لا بمعنى أن عقابهم نفسها بما فيها من الشدة والهول فإنها داهية يعم هولها جميع الأمم برها وفاجرها بل بمعنى أنه ليس بينهم وبين حلول ما أعد لهم من العقاب الفظيع إلاهى حيث أخرت عقوبتهم إلى الآخرة لما أن تعذيبهم بالاستئصال حسبما يستحقونه والنبى عليه الصلاة والسلام بين أظهرهم خارج عن السنة الإلهية المبنية على الحكم الباهرة كما نطق به قوله تعالى (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) وأما ما قيل من أنها النفخة الأولى فمما لا وجه له أصلا لما أنه لا يشاهد هولها ولا يصعق بها إلا من كان حياً عند وقوعها وليس عقابهم الموعود واقعا عقيبها ولا العذاب المطلق مؤخراً إليها بل يحل بهم من حين موتهم ﴿ ما لها من فواق ﴾ أى من توقف مقدار فواق وهو ما بين الحلبتين وقرىء بضم الفاء وهما لغتان وقوله تعالى ﴿ وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب ﴾ حكاية لما قالوه عند سماعهم

بتأخير عقابهم إلى الآخرة أى قالوا بطريق الاستهزاء والسخرية عجل لنا قطنا من العذاب الذى توعدنا به ولا تؤخره إلى يوم الحساب الذى مبدؤه الصيحة المذكورة والقط القطعة من الشىء من قطه إذا قطعه ويقال لصحيفة الجائزة قط لأنها قطعة من القرطاس وقد فسر بها أى عجل لنا صحيفة أعمالنا لننظر فيها وقيل ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم وعد الله تعالى المؤمنين الجنة فقالوا على سبيل الهزء به عجل لنا نصيبنا منها وتصدير دعائهم بالنداء المذكور للإمعان فى الاستهزاء كأنهم يدعون ذلك بكمال الرغبة والابتهال .

﴿ اصبر على ما يقولون ﴾ من أمثال هذه المقالات الباطلة ﴿ واذكر ﴾ لهم ﴿ عبدنا داود ﴾ أى قصته تهويلا لأمر المعصية فى أعينهم وتنبيها لهم على كمال قبح ما اجترؤا عليه من المعاصى فإنه عليه الصلاة والسلام مع علو شأنه واختصاصه بعظائم النعم والكرامات لما ألم بصغيرة نزل عن منزلته ووبخته الملائكة بالتمثيل والتعريض حتى تفطن فاستغفر ربه وأناب ووجد منه ما يحكى من بكائه الدائب وغمه الواصب وندمه الدائم فما الظن بهؤلاء الكفرة الأذلين من كل ذليل المرتكبين لأكبر الكبائر المصرين على أعظم المعاصى أو تذكر قصته عليه الصلاة والسلام وصن نفسك أن تزل فيما كلفت من مصابرتهم وتحمل أذيتهم كيلا يلقاك ما لقيه من المعاتبة ﴿ ذا الأيد ﴾ أى ذا القوة يقال فلان أيد وذو أيد وآد بمعنى وإياد كل شىء ما يتقوى به ﴿ انه أواب ﴾ رجاع إلى مرضاة الله تعالى وهو تعليل لكونه ذا الأيد ودليل على أن المراد به القوة فى الدين فإنه عليه الصلاة والسلام كان يصوم يوماً ويفطر يوماً ويقوم نصف الليل ﴿ إنا سخرنا الجبال معه ﴾ استئناف سيق لتعليل قوته فى الدين وأوابيته إلى مرضاته تعالى ومن متعلقة بالتسخير وإيثارها على اللام لما أشير إليه فى سورة الأنبياء من أن تسخير الجبال له عليه الصلاة والسلام لم يكن بطريق تفويض التصرف الكلى فيها إليه عليه الصلاة والسلام كتسخير الريح وغيرها لسليمان عليه السلام بل بطريق التبعية له عليه الصلاة والسلام والاقتداء به فى عبادة الله تعالى وقيل متعلقة بما بعدها وهو أقرب بالنسبة إلى

إلى ما فى سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ﴿ يسبحن ﴾ أى يقدسن الله عز وجل بصوت يتمثل له أو بخلق الله تعالى فيها الكلام أو بلسان الحال وقيل يسرن معه من السباحة وهو حال من الجبال وضع موضع مسبحات للدلالة على تجدد التسبيح حالا بعد حال أو استئناف مبين لكيفية التسخير ﴿ بالعشى والإشراق ﴾ أى وقت الإشراق وهو حين تشرق الشمس أى تضىء ويصفو شعاعها وهو وقت الضحى وأما شروقها فطلوعها يقال شرقت الشمس ولما تشرق وعن أم هانىء رضى الله عنها أنه عليه الصلاة والسلام صلى صلاة الضحى وقال هذه الإشراق وعن ابن عباس رضى الله عنهما ما عرفت صـــلاة الضحى إلا بهذه الآية .

﴿ والطير ﴾ عطف على الجبال ﴿ محشورة ﴾ حال من الطير والعامل سخرنا أى وسخرنا الطير حال كونها محشورة عن ابن عباس رضى الله عنهما كان إذا سبح جاوبته الجبال بالتسبيح واجتمعت إليه الطير فسبحت وذلك حشرها وقرىء والطير محشورة بالرفع على الابتداء والخبرية ﴿ كل له أواب ﴾ استئناف مقرر لمضمون ما قبله مصرح بما فهم منه إجمالا من تسبيح الطير أى كل واحد من الجبال والطير لأجل تسبيحه رجاع إلى التسبيح ووضع الأواب موضع المسبح إما لأنها كانت ترجع التسبيح والمرجع رجاع لأنه يرجع إلى فعله رجوعا بعد رجوع وإما لأن الأواب هو التواب الكثير الرجوع إلى الله تعالى ومن دأبه إكثار الذكر وإدامة التسبيح والتقديس وقيل الضمير لله عز وجل أى كل من داود والجبال والطير لله أواب أى مسبح مرجع للتسبيح ﴿ وشددنا ملكه ﴾ قويناه بالهيبة والنصرة وكثرة الجنود وقرىء بالتشديد للمبالغة قيل كان يبيت حول محرابه أربعون ألف مستلئم وقيل ادعى رجل على آخر بقرة وعجز عن إقامة البينة فأوحى الله تعالى إليه فى المنام أن اقتل المدعى عليه فتأخر فأعيد الوحى فى اليقظة فأعلمه الرجل فقال إن الله تعالى لم يأخذنى بهذا الذنب ولكن بأنى قتلت أبا هذا غيلة فقال الناس إن أذنب أحد ذنبا أظهره الله تعالى عليه فقتله فهابوه وعظمت هيبته فى القلوب ﴿ وآتيناه

الحكمة ﴾ النبوة وكمال العلم وإتقان العمل وقيل الزبور وعلم الشرائع وقيل كل كلام وافق الحق فهو حكمة ﴿ وفصل الخطاب ﴾ أى فصل الخام بتمييز الحق عن الباطل أو الكلام الملخص الذى ينبه المخاطب على المرام من غير التباس لما قد روعى فيه مظان الفصل والوصل والعطف والاستئناف والإظهار والإضمار والحذف والتكرار وإنما سمى به أما بعد لأنه يفصل المقصود عما سبق تمهيداً له كالحمد والصلاة وقيل هو الخطاب الفصل الذى ليس فيه إيجاز مخل ولا إطناب ممل كما جاء فى نعت كلام النبوة فصل لا نزر ولا هذر ﴿ وهل أتاك نبأ الخصم ﴾ استفهام معناه التعجيب والتشويق إلى استماع ما فى حيزه لإيذانه بأنه من الأنباء البديعة التى حقها أن تشيع فيما بين كل حاضر وباد والخصم فى الأصل مصدر ولذلك يطلق على الواحد وما فوقه كالضيف ومعنى خصمان فريقان.

﴿ إذ تسوروا المحراب ﴾ إذ تصعدوا سوره ونزلوا إليه والسور الحائط المرتفع ونظيره تسنمه إذا علا سنامه وتذرّاه إذا علا ذروته وإذ متعلقة بمحذوف أى نبأ تحاكم الخصم إذ تسوروا أو بالنبأ على أن المراد به الواقع فى عهد داود عليه السلام وأن إسناد الاتيان إليه على حذف مضاف أى قصة نبأ الخصم أو بالخصم لما فيه من معنى الخصومة لا بأتى لأن إتيانه الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن حينئذ وقوله تعالى ﴿ إذ دخلوا على داود ﴾ بدل مما قبله أو ظرف لتسوروا ﴿ ففزع منهم ﴾ روى أنه تعالى بعث إليه ملكين فى صورة إنسانين قيل هما جبريل وميكائيل عليهما السلام فطلبا أن يدخلا عليه فوجداه فى يوم عبادته فمنعهما الحرس فتسوروا عليه المحراب بمن معهما من الملائكة فلم يشعر إلا وهما بين يديه جالسان ففزع منهم لأنهم نزلوا عليه من فوق على خلاف العادة والحرس حوله فى غير يوم الحكومة والقضاء قال ابن عباس رضى الله عنهما إن داود عليه السلام جزأ زمانه أربعة أجزاء يوما للعبادة ويوما للقضاء ويوما للاشتغال بخاصة نفسه ويوما للوعظ والتذكير ﴿ قالوا ﴾ استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من حكاية فزعه عليه الصلاة والسلام كأنه قيل فماذا قالت الملائكة عندما شاهدوا فزعه فقيل قالوا إزالة لفزعه ﴿ لا تخف

خصمان ﴾ أى نحن فوجان متخاصمان على تسمية مصاحب الخصم خصما ﴿ بغى بعضنا على بعض ﴾ هو على الفرض وقصد التعريض فلا كذب فيه ﴿ فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط ﴾ أى لا تجر فى الحكومة وقرىء ولا تشطط أى لا تبعد عن الحق وقرىء ولا تشطط[1] ولا تشاطط وكلها من معنى الشطط وهو مجاوزة الحد وتخطى الحق ﴿ واهدنا إلى سواء الصراط ﴾ إلى وسط طريق الحق بزجر الباغى عما سلكه من طريق الجور وإرشاده إلى منهاج العدل .

﴿ إن هذا أخى ﴾ استئناف لبيان ما فيه الخصومة أى أخى فى الدين أو فى الصحبة والتعرض لذلك تمهيد لبيان كمال قبح ما فعل به صاحبه ﴿ له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة ﴾ هى الأنثى من الضأن وقد يكنى بها عن المرأة والكناية والتعريض أبلغ فى المقصود وقرىء تسع وتسعون بفتح التاء ونعجة بكسر النون وقرىء ولى نعجة بسكون الياء ﴿ فقال أكفلنيها ﴾ أى ملكنيها وحقيقته اجعلنى أكفلها كما أكفل ما تحت يدى وقيل أجعلها كفلى أى نصيبى ﴿ وعزنى فى الخطاب ﴾ أى غلبنى فى مخاطبته إياى محاجة بأن جاء بحجاج لم أقدر على رده فى مغالبته إياى أو فى الخطبة يقال خطبت المرأة وخطبها هو فخاطبنى خطابا أى غالبنى فى الخطبة فغلبنى حيث زوجها دونى وقرىء وعازنى أى غالبنى وعزنى بتخفيف الزاى طلبا للخفة وهو تخفيف غريب كأنه قيس على ظلت ومست ﴿ قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ﴾ جواب قسم محذوف قصد به عليه الصلاة والسلام المبالغة فى إنكار فعل صاحبه وتهجين طمعه فى نعجة من ليس له غيرها مع أن له قطيعا منها ولعله عليه الصلاة والسلام قال ذلك بعد اعتراف صاحبه بما ادعاه عليه أو بناه على تقدير صدق المدعى والسؤال مصدر مضاف إلى مفعوله وتعديته إلى مفعول آخر بإلى لتضمنه معنى الإضافة والضم ﴿ وإن كثيراً من الخلطاء ﴾ أى الشركاء الذين خلطوا أموالهم ﴿ ليبغى ﴾ ليتعدى وقرىء بفتح الياء على تقدير النون الخفيفة وحذفها وبحذف الياء اكتفاء بالكسرة ﴿ بعضهم على بعض ﴾ غير مراع لحق الصحبة والشركة .

---

(١) فى ١٢ : ولا تشطط .

﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ منهم فإنهم يتحامون عن البغى والعدوان ﴿ وقليل ما هم ﴾ أى وهم قليل وما مزيدة للإبهام والتعجب من قلتهم والجملة اعتراض ﴿ وظن داود أنما فتناه ﴾ الظن مستعار للعلم الاستدلالى لما بينهما من المشابهة الظاهرة أى علم بما جرى فى مجلس الحكومة وقيل لما قضى بينهما نظر أحدهما إلى صاحبه فضحك ثم صعدا إلى السماء حيال وجهه فعلم عليه الصلاة والسلام أنه تعالى ابتلاه وليس المعنى على تخصيص الفتنة به عليه الصلاة والسلام دون غيره بتوجيه القصر المستفاد من كلمة أنما إلى المفعول بالقياس إلى مفعول آخر كما هو الاستعمال الشائع الوارد على توجيه القصر إلى متعلقات الفعل وقيوده باعتبار النفى فيه والإثبات فيها كما فى مثل قولك إنما ضربت زيدا وإنما ضربته تأديباً بل على تخصيص حاله عليه الصلاة والسلام بالفتنة بتوجيه القصر إلى نفس الفعل بالقياس إلى ما يغايره من الأفعال لكن لا باعتبار النفى والإثبات معاً فى خصوصية الفعل فإنه غير ممكن قطعاً بل باعتبار النفى فيما فيه من معنى مطلق الفعل واعتبار الإثبات فيما يقارنه من المعنى المخصوص فإن كل فعل من الأفعال المخصوصة ينحل عند التحقيق إلى معنى مطلق هو مدلول لفظ الفعل وإلى معنى مخصوص يقارنه ويقيده وهو أثره فى الحقيقة فإن معنى نصر مثلا فعل النصر يرشدك إلى ذلك قولهم معنى فلان يعطى ويمنع يفعل الإعطاء والمنع فمورد القصر فى الحقيقة ما يتعلق بالفعل باعتبار النفى فيه والإثبات فيما يتعلق به فالمعنى وعلم داود عليه السلام أنما فعلنا به الفتنة لا غير قيل ابتليناه بامرأة أوريا وقيل امتحناه بتلك الحكومة هل يتنبه بها لما قصد منها وإيثار طريق التمثيل لأنه أبلغ فى التوبيخ فإن التأمل فيه إذا أداه إلى الشعور بما هو الغرض كان أوقع فى نفسه وأعظم تأثيرا فى قلبه وأدعى إلى التنبه للخطأ مع ما فيه من مراعاة حرمته عليه الصلاة والسلام بترك المجاهرة والإشعار بأنه أمر يستحيى من التصريح به وتصويره بصورة التحاكم لإلجائه عليه الصلاة والسلام إلى التصريح بنسبة نفسه إلى الظلم وتنبيهه عليه الصلاة والسلام على أن أوريا بصدد الخصام .

﴿ فاستغفر ربه ﴾ إثر ما علم أن ما صدر عنه ذنب ﴿ وخر راكعاً ﴾ أى

ساجدا على تسمية الوجود ركوعا لأنه مبدؤه أوخر للسجود راكعا أى مصليا كأنه أحرم بركعتى الاستغفار ﴿ وأناب ﴾ أى رجع إلى الله تعالى بالتوبة . وأصل القصة أن داود عليه السلام رأى امرأة رجل يقال له أوريا فمال قلبه إليها فسأله أن يطلقها فاستحيى أن يرده ففعل فتزوجها وهى أم سليمان عليه السلام وكان ذلك جائزا فى شريعته[1] معتادا فيما بين أمته غير مخل بالمروءة حيث كان يسأل بعضهم بعضا أن ينزل له عن امرأته فيتزوجها إذا أعجبته وقد كان الأنصار فى صدر الإسلام يواسون المهاجرين بمثل ذلك من غير نكير خلا أنه عليه الصلاة والسلام لعظم منزلته وارتفاع مرتبته وعلو شأنه نبه بالتمثيل على أنه لم يكن ينبغى له أن يتعاطى ما يتعاطاه آحاد أمته ويسأل رجلا ليس له إلا امرأة واحدة أن ينزل عنها فيتزوجها مع كثرة نسائه بل كان يجب عليه أن يغالب هواه ويقهر نفسه ويصبر على ما امتحن به وقيل لم يكن أوريا تزوجها بل كان خطبها ثم خطبها داود عليه السلام فآثر عليه السلام أهلها فكان ذنبه عليه الصلاة والسلام أن خطب على خطبة أخيه المسلم هذا وأما ما يذكر من أنه عليه الصلاة والسلام دخل ذات يوم محرابه وأغلق بابه وجعل يصلى ويقرأ الزبور فبينما هو كذلك إذ جاءه الشيطان فى صورة حمامة من ذهب فمد يده ليأخذها لابن صغير له فطارت فامتد إليها فطارت فوقعت فى كوة فتبعها فأبصر امرأة جميلة قد نقضت شعرها فغطى بدنها وهى امرأة أوريا وهو من غزاة البلقاء فكتب إلى أيوب بن صوريا وهو صاحب بعث البلقاء أن أبعث أوريا وقدمه على التابوت وكان من يتقدم على التابوت لا يحل له أن يرجع حتى يفتح الله على يديه أو يستشهد ففتح الله تعالى على يده وسلم فأمر برده مرة أخرى وثالثة حتى قتل وأتاه خبر قتله فلم يحزن كما كان يحزن على الشهداء وتزوج امرأته فإفك مبتدع مكروه ومكر مخترع بئسما مكروه تمجه الأسماع وتنفر عنه الطباع ويل لمن ابتدعه وأشاعه وتبا لمن

---

(١) بل إن ذلك من خصائص النبى محمد صلى الله عليه وسلم ولكنه لم يلجأ إليه انظر لخصائص النبى لابن الملقن .

اخترعه وأذاعه ولذلك قال على رضى الله عنه من حدث بحديث داود عليه السلام على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين وذلك حد الفرية على الأنبياء صلوات الله تعالى وسلامه عليهم هذا وقد قيل إن قوما قصدوا أن يقتلوه عليه الصلاة والسلام فتسوروا المحراب ودخلوا عليه فوجدوا عنده أقواما فتصنعوا بهذا التحاكم فعلم عليه الصلاة والسلام غرضهم فهم بأن ينتقم منهم فظن أن ذلك ابتلاء له من الله عز وجل فاستغفر ربه مما هم به وأناب ﴿ فغفرنا له ذلك ﴾ أى ما استغفر منه وروى أنه عليه الصلاة والسلام بقى ساجدا أربعين يوما وليلة لا يرفع رأسه إلا لصلاة مكتوبة أو لما لا بد منه ولا يرقأ دمعه حتى نبت منه العشب إلى رأسه ولم يشرب ماء إلا ثلثاه دمع وجهد نفسه راغبا إلى الله تعالى فى العفو عنه حتى كاد يهلك واشتغل بذلك عن الملك حتى وثب ابن له يقال له إيشا على ملكه ودعا إلى نفسه فاجتمع إليه أهل الزيغ من بنى إسرائيل فلما غفر له حاربه فهزمه ﴿ وإن له عندنا لزلفى ﴾ لقربة وكرامة بعد المغفرة ﴿ وحسن مآب ﴾ حسن مرجع فى الجنة ﴿ ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض ﴾ إما حكاية لما خوطب به عليه الصلاة والسلام مبينة لزلفاه عنده عز وجل وإما مقول قول مقدر هو معطوف على غفرنا أو حال من فاعله أى وقلنا له أو قائلين له ياداود الخ أى استخلفناك على الملك فيها والحكم فيما بين أهلها أو جعلناك خليفة ممن كان قبلك من الأنبياء القائمين بالحق وفيه دليل بين على أن حاله عليه الصلاة والسلام بعد التوبة كما كانت قبلها لم تتغير قط .

﴿ فاحكم بين الناس بالحق ﴾ بحكم الله تعالى فإن الخلافة بكلا معنييه مقتضية له حتما ﴿ ولا تتبع الهوى ﴾ أى هوى النفس فى الحكومات وغيرها من أمور الدين والدنيا ﴿ فيضلك عن سبيل الله ﴾ بالنصب على أنه جواب النهى وقيل هو مجزوم بالعطف على النهى مفتوح لالتقاء الساكنين أى فيكون الهوى أو اتباعه سببا لضلالك عن دلائله التى نصبها على الحق تكوينا وتشريعا وقوله تعالى ﴿ إن الذين يضلون عن سبيل الله ﴾ تعليل لما قبله ببيان غائلته وإظهار سبيل الله فى موقع الإضمار لزيادة التقرير والإيذان بكمال شناعة الضلال عنه

﴿ لهم عذاب شديد ﴾ جملة من خبر ومبتدأ وقعت خبرا لأن أو الظرف خبرا لأن وعذاب مرتفع على الفاعلية بما فيه من معنى الاستقرار ﴿ بما نسوا ﴾ بسبب نسيانهم وقوله تعالى ﴿ يوم الحساب ﴾ إما مفعول لنسوا فيكون تعليلا صريحا لثبوت العذاب الشديد لهم بنسيان يوم الحساب بعد الإشعار بعلية ما يستتبعه ويستلزمه أعنى الضلال عن سبيل الله تعالى فإنه مستلزم لنسيان يوم الحساب بالمرة بل هذا فرد من أفراده أو ظرف لقوله تعالى لهم أى لهم عذاب شديد يوم القيامة بسبب نسيانهم الذى هو عبارة عن ضلالهم ومن ضرورته أن يكون مفعوله سبيل الله فيكون التعليل المصرح به حينئذ عين التعليل المشعر به بالذات غيره بالعنوان ومن لم يتنبه لهذا السر السرى قال بسبب نسيانهم وهو ضلالهم عن السبيل فإن تذكره يقتضى ملازمة الحق ومخالفة الهوى فتدبر ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ﴾ كلام مستأنف مقرر لما قبله من أمر البعث والحساب والجزاء أى وما خلقناهما وما بينهما من المخلوقات على هذا النظام البديع الذى تحار فى فهمه العقول خلقا باطلا أى خالياً عن الغاية الجليلة والحكمة الباهرة بل منطويا على الحق المبين والحكم البالغة حيث خلقنا من بين ما خلقنا نفوسا أودعناها العقل والتمييز بين الحق والباطل والنافع والضار ومكناها من التصرفات العلمية والعملية فى استجلاب منافعها واستدفاع مضارها ونصبنا للحق دلائل آفاقية وأنفسية ومنحناها القدرة على الاستشهاد بها ثم لم نقتصر على ذلك المقدار من الألطاف بل أرسلنا إليها رسلا وأنزلنا عليها كتبا بينا فيها كل دقيق وجليل وأزحنا عللها بالكلية وعرضناها بالتكليف للمنافع العظيمة وأعددنا لها عاقبة وجزاء على حسب أعمالها ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما نفى من خلق ما ذكر باطلا ﴿ ظن الذين كفروا ﴾ أى مظنونهم فإن جحودهم بأمر البعث والجزاء الذى عليه يدور فلك تكوين العالم قول منهم ببطلان خلق ما ذكر وخلوه عن الحكمة سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا ﴿ فويل للذين كفروا ﴾ مبتدأ وخبر والفاء لإفادة ترتب ثبوت الويل لهم على ظنهم الباطل كما أن وضع الموصول موضع ضميرهم للإشعار بما فى حيز الصلة

بعلية كفرهم له ولا تنافى بينهما لأن ظنهم من باب كفرهم ومن فى قوله تعالى ﴿من النار﴾ تعليلية كما فى قوله تعالى (فويل لهم مما كتبت أيديهم) ونظائره مفيدة لعلية النار لثبوت الويل لهم صريحا بعد الإشعار بعلية ما يؤدى إليها من ظنهم وكفرهم أى فويل لهم بسبب النار المترتبة على ظنهم وكفرهم .

﴿أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض﴾ أم منقطعة وما فيها من بل للاضراب الانتقالى عن تقرير أمر البعث والحساب والجزاء بما مر من نفى خلق العالم خاليا عن الحكم والمصالح إلى تقريره وتحقيقه بما فى الهمزة من إنكار التسوية بين الفريقين ونفيها على أبلغ وجه وآكده أى بل انجعل المؤمنين المصلحين كالكفرة المفسدين فى أقطار الأرض كما يقتضيه عدم البعث وما يترتب عليه من الجزاء لاستواء الفريقين فى التمتع بالحياة الدنيا بل الكفرة أوفر حظا منها من المؤمنين لكن ذلك الجعل محال فتعين البعث والجزاء حتما لرفع الأولين إلى أعلى عليين ورد الآخرين إلى أسفل سافلين وقوله تعالى ﴿أم نجعل المتقين كالفجار﴾ اضراب وانتقال عن إثبات ما ذكر بلزوم المحال الذى هو التسوية بين الفريقين المذكورين على الإطلاق إلى إثباته بلزوم ما هو أظهر منه استحالة وهو التسوية بين أتقياء المؤمنين وأشقياء الكفرة وحمل الفجار على فجرة المؤمنين مما لا يساعده المقام ويجوز أن يراد بهذين الفريقين عين الأولين ويكون التكرير باعتبار وصفين آخرين هما أدخل فى إنكار التسوية من الوصفين الأولين وقيل قال كفار قريش للمؤمنين إنا نعطى فى الآخرة من الخير ما تعطون فنزلت ﴿كتاب﴾ خبر مبتدأ محذوف هو عبارة عن القرآن أو السورة وقوله تعالى ﴿أنزلناه إليك﴾ صفته وقوله تعالى ﴿مبارك﴾ خبر ثان للمبتدأ أو صفة لكتاب عند من يجوز تأخير الوصف الصريح عن غير الصريح وقرىء مباركا على أنه حال من مفعول أنزلنا ومعنى المبارك الكثير المنافع الدينية والدنيوية وقوله تعالى ﴿ليدبروا آياته﴾ متعلق بأنزلناه أى أنزلناه ليتفكروا فى آياته التى من جملتها هذه الآيات المعربة عن أسرار التكوين والتشريع فيعرفوا ما يدبر ظاهرها من المعانى الفائقة والتأويلات

اللائقة وقرىء ليتدبروا على الأصل ولتدبروا على الخطاب أى أنت وعلماء أمتك بحذف إحدى التاءين ﴿ وليتذكر أولو الألباب ﴾ أى وليتعظ به ذوو العقول السليمة أو ليستحضروا ما هو كالمركوز فى عقولهم من فرط تمكنهم من معرفته لما نصب عليه من الدلائل فان الكتب الإلهية مبينة لما لا يعرف إلا بالشرع ومرشدة إلى مالا سبيل للعقل إليه ﴿ ووهبنا لداود سليمان نعم العبد ﴾ وقرىء نعم العبد أى سليمان كما ينبىء عنه تأخيره عن داود مع كونه مفعولا صريحا لوهبنا ولأن قوله تعالى ﴿ إنه أواب ﴾ أى رجاع إلى الله تعالى بالتوبة أو الى التسبيح مرجع له تعليل للمدح وهو من حاله لما أن الضمير المجرور فى قوله تعالى ﴿ إذ عرض عليه ﴾ راجع إليه عليه الصلاة والسلام قطعا وإذ منصوب باذكر أى اذكر ما صدر عنه إذ عرض عليه ﴿ بالعشى ﴾ هو من الظهر الى آخر النهار ﴿ الصافنات ﴾ فإنه يشهد بأنه أواب وقيل لنعم وتأخير الصافنات عن الظرفين لما مر مرارا من التشويق الى المؤخر والصافن من الخيل الذى يقوم على طرف سنبك يد أو رجل وهو من الصفات المحمودة فى الخيل لا يكاد يتفق إلا فى العراب الخلص وقيل هو الذى يجمع يديه ويسويهما وأما الذى يقف على سنبكه فهو المتخيم ﴿ الجياد ﴾ جمع جواد وجود وهو الذى يسرع فى جريه وقيل الذى يجود عند الركض وقيل وصفت بالصفون والجودة لبيان جمعها بين الوصفين المحمودين واقفة وجارية أى إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة فى مواقفها وإذا جرت كانت سراعا خفافا فى جريها وقيل هو جمع جيد روى أنه عليه الصلاة والسلام غزا أهل دمشق ونصيبين وأصاب ألف فرس وقيل أصابها أبوه من العمالقة فورثها منه وقيل خرجت من البحر لها أجنحة فقعد يوما بعد ما صلى الظهر على كرسيه فاستعرضها فلم تزل تعرض عليه حتى غربت الشمس وغفل عن العصر أو عن ورد كان له من الذكر وقتئذ وتهيبوه فلم يعلموه فاغتم لما فاته فاستردها فعقرها تقربا بالله تعالى وبقى مائة فما فى أيدى الناس من الجياد فمن نسلها وقيل لما عقرها أبدله الله خيرا منها وهى الريح تجرى بأمره .

﴿فقال إنى أحببت حب الخير على ذكر ربى﴾ قاله عليه الصلاة والسلام عند غروب الشمس اعترافا بما صدر عنه من الاشتغال بها عن الصلاة وندما عليه وتمهيدا لما يعقبه من الأمر بردها وعقرها والتعقيب باعتبار أواخر العرض المستمر دون ابتدائه والتأكيد للدلالة على أن اعترافه وندمه عن صميم القلب لا لتحقيق مضمون الخبر وأصل أحببت أن يعدى بعلى لأنه بمعنى آثر لكن لما أنيب مناب أنبت عدى تعديته وحب الخير مفعوله كأنه قيل أنبت حب الخير عن ذكر ربى ووضعته موضعه والخير المال الكثير والمراد به الخيل التى شغلته عليه الصلاة والسلام ويحتمل أنه سماها خيراً لتعلق الخير بها قال عليه الصلاة والسلام الخير معقود بنواصى الخيل إلى يوم القيامة وقرىء أنى ﴿حتى توارت بالحجاب﴾ متعلق بقوله أحببت باعتبار استمرار المحبة ودوامها حسب استمرار العرض أى أنبت حب الخير عن ذكر ربى واستمر ذلك حتى توارت أى غربت الشمس تشبيها لغروبها فى مغربها بتوارى المخبأة بحجابها وإضمارها من غير ذكر لدلالة العشى عليها وقيل الضمير للصافنات أى توارت بحجاب الليل أى بظلامه ﴿ردوها على﴾ من تمام مقالة سليمان عليه السلام ومرمى غرضه من تقديم ما قدمه ومن لم يتنبه له مع ظهوره توهم أنه متصل بمضمر هو جواب لمضمر آخر كأن سائلا قال فماذا قال سليمان عليه السلام فقيل قال ردوها فتأمل والفاء فى قوله تعالى ﴿فطفق مسحا﴾ فصيحة مفصحة عن جملة قد حذفت ثقة بدلالة الحال عليها وإيذانا بغاية سرعة الامتثال بالأمر أى فردوها عليه فأخذ يمسح السيف مسحا ﴿بالسوق والأعناق﴾ أى بسوقها وأعناقها يقطعها من قولهم مسح علاوته أى ضرب عنقه عنه وقيل جعل يمسح بيده أعناقها وسوقها حباً لها وإعجابا بها وليس بذاك وقرىء بالسؤق على همز الواو لضمتها كما فى أدؤر وقرىء بالسؤوق تنزيلا لضمة السين منزلة ضمة الواو وقرىء بالساق اكتفاء بالواحد عن الجمع لأمن الالباس .

فتنة سليمان

﴿ ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب ﴾ أظهر ما قيل فى فتنته عليه الصلاة والسلام ما روى مرفوعا أنه قال لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تأتى كل واحدة بفارس يجاهد فى سبيل الله تعالى ولم يقل إن شاء الله تعالى فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل والذى نفسى بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا فى سبيل الله فرسانا أجمعون وقيل ولد له ابن فاجتمعت الشياطين على قتله فعلم ذلك فكان يغذوه فى السحاب فما شعر به إلى أن ألقى على كرسيه ميتا فتنبه لخطئه حيث لم يتوكل على الله عز وعلا وقيل إنه غزا صيدون من الجزائر فقتل ملكها وأصاب بنتا له تسمى جرادة من أحسن الناس فاصطفاها لنفسه وأسلمت وأحبها وكان لا يرقأ دمعها جزعا على أبيها فأمر الشياطين فمثلوا لها صورته وكانت تغدو إليها وتروح مع ولائدها يسجدن لها كعادتهن فى ملكه فأخبره آصف بذلك فكسر الصورة وعاقب المرأة ثم خرج وحده الى فلاة وفرش له الرماد فجلس عليه تائبا إلى الله تعالى باكيا متضرعا وكانت له أم ولد يقال لها أمينة إذا دخل للطهارة أو لإصابة امرأة يعطيها خاتمه وكان ملكه فيه فأعطاها يوما فتمثل لها بصورته شيطان اسمه صخر وأخذ الخاتم فتختم به وجلس على كرسيه فاجتمع عليه الخلق ونفذ حكمه فى كل شىء إلا فى نسائه وغير سليمان عن هيئته فأتى أمينة لطلب الخاتم فأنكرته وطردته فعرف أن الخطيئة قد أدركته فكان يدور على البيوت يتكفف وإذا قال أنا سليمان حثوا عليه التراب وسبوه ثم عمد الى السماكين ينقل لهم السمك فيعطونه كل يوم سمكتين فمكث على ذلك أربعين صباحا عدد ما عبد الوثن فى بيته فأنكر آصف وعظماء بنى اسرائيل حكم الشيطان ثم طار اللعين وقذف الخاتم فى البحر فابتلعته سمكة فوقعت فى يد سليمان فبقر بطنها فإذا هو بالخاتم فتختم به وخر ساجدا وعاد إليه ملكه وجاب صخرة لصخر فجعله فيها وسد عليه بأخرى ثم أوثقهما

بالحديد والرصاص وقذفه فى البحر وعلى هذا فالجسد عبارة عن صخر سمى به وهو جسم لا روح فيه لأنه تمثل بما لم يكن كذلك والخطيئة تغافله عليه الصلاة عن حال أهله لأن اتخاذ التماثيل لم يكن محظورا حينئذ وسجود الصورة بغير علم منه لا يضره (١) .

﴿ قال ﴾ بدل من أناب وتفسيره له ﴿ رب اغفر لى ﴾ أى ما صدر عنى من الزلة ﴿ وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى ﴾ لا يتسهل له ولا يكون ليكون معجزة لى مناسبة لحالى فإنه عليه الصلاة والسلام لما نشأ فى بيت الملك والنبوة وورثهما معا استدعى من ربه معجزة جامعة لحكمهما أو لا ينبغى لأحد أن يسلبه منى بعد هذه السلبة أو لا يصح لأحد من بعدى لعظمته كقولك لفلان ما ليس لأحد من الفضل والمال على إرادة وصف الملك بالعظمة لا أن لا يعطى أحد مثله فيكون منافسة وقيل كان ملكا عظيما فخاف أن يعطى مثله أحد فلا يحافظ على حدود الله تعالى وتقديم الاستغفار على الاستيهاب لمزيد اهتمامه بأمر الدين جريا على سنن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والصالحين وكون ذلك أدخل فى الإجابة وقرىء لى بفتح الياء ﴿ إنك أنت الوهاب ﴾ تعليل للدعاء بالمغفرة والهبة معا لا بالأخيرة فقط فإن المغفرة أيضا من أحكام وصف الوهابية فقط .

﴿ فسخرنا له الريح ﴾ أى فذللناها لطاعته إجابة لدعوته فعاد أمره عليه الصلاة والسلام إلى ما كان عليه قبل الفتنة وقرىء الرياح ﴿ تجرى بأمره ﴾ بيان لتسخيرها له ﴿ رخاء ﴾ أى لينة من الرخاوة طيبة لا تزعزع وقيل طيعة لا تمتنع عليه كالمأمور المنقاد ﴿ حيث أصاب ﴾ أى حيث قصد وأراد حكى الأصمعى عن العرب أصاب الصواب فأخطأ الجواب ﴿ والشياطين ﴾ عطف على الريح ﴿ كل بناء وغواص ﴾ بدل من الشياطين ﴿ وآخرين مقرنين فى الأصفاد ﴾ عطف على كل بناء داخل فى حكم البدل كأنه عليه الصلاة والسلام

---

(١) لا يخفى ما فى هذه الأقوال من خرافة وبطلان .

فصل الشياطين إلى عملة استعملهم فى الأعمال الشاقة من البناء والغوص ونحو ذلك وإلى مردة قرن بعضهم مع بعض فى السلاسل لكفهم عن الشر والفساد ولعل أجسامهم شفافة فلا ترى صلبة فيمكن تقييدها ويقدرون على الأعمال الصعبة وقد جوز أن يكون الإقران فى الأصفاد عبارة عن كفهم عن الشرور بطريق التمثيل والصفد القيد وسمى به العطاء لأنه يرتبط بالمنعم عليه وفرقوا بين فعليهما فقالوا صفده قيده وأصفده أعطاه على عكس وعد وأوعد وقوله تعالى ﴿ هذا ﴾ الخ إما حكاية لما خوطب به سليمان عليه السلام مبينة لعظم شأن ما أوتى من الملك وأنه مفوض إليه تفويضا كليا وإما مقول لقول مقدر هو معطوف على سخرنا أو حال من فاعله كما مر فى خاتمة قصة داود عليه السلام أى وقلنا له أو قائلين له هذا الأمر الذى أعطيناكه من الملك العظيم والبسطة والتسلط على مالم يسلط عليه غيرك ﴿ عطاؤنا ﴾ الخاص بك ﴿ فامنن أو أمسك ﴾ فأعط من شئت وامنع من شئت ﴿ بغير حساب ﴾ حال من المستكن فى الأمر أى غير محاسب على منه وإمساكه لتفويض التصرف فيه إليك على الإطلاق أو من العطاء أى هذا عطاؤنا ملتبسا بغير حساب لغاية كثرته أو صلة له وما بينهما اعتراض على التقديرين وقيل الإشارة إلى تسخير الشياطين والمراد بالمن والإمساك الإطلاق والتقييد ﴿ وإن له عندنا لزلفى ﴾ فى الآخرة مع ما له من الملك العظيم فى الدنيا ﴿ وحسن مآب ﴾ هو الجنة قيل فتن سليمان عليه السلام بعد ما ملك عشرين سنة وملك بعد الفتنة عشرين سنة وذكر الفقيه أبو حنيفة أحمد بن داود الدينورى فى تاريخه أن سليمان عليه السلام ورث ملك أبيه فى عصر كيخسرو بن سياوش وسار من الشام إلى العراق فبلغ خبره كيخسرو فهرب إلى خراسان فلم يلبث حتى هلك ثم سار سليمان عليه السلام إلى مرو ثم إلى بلاد الترك فوغل فيها ثم جاز بلاد الصين ثم عطف إلى أن وافى بلاد فارس فنزلها أياما ثم عاد إلى الشام ثم أمر ببناء بيت المقدس فلما فرغ منه سار إلى تهامه ثم إلى صنعاء وكان من حديثه مع صاحبتها ما ذكره الله تعالى وغزا بلاد المغرب الأندلس وطنجة وغيرهما والله تعالى أعلم .

ذكر الأنبياء والعبرة فى حياتهم

﴿ واذكر عبدنا أيوب ﴾ عطف عد اذكر عبدنا داود وعدم تصدير قصة سليمان بهذا العنوان لكمال الاتصال بينه وبين داود عليهما السلام وأيوب هو ابن عيص بن اسحق عليه السلام ﴿إذ نادى ربه﴾ بدل اشتمال من عبدنا وأيوب عطف بيان له ﴿ أنى ﴾ بأنى ﴿ مسنى الشيطان ﴾ بفتح ياء مسنى وقرىء بإسكانها وإسقاطها ﴿ بنصب ﴾ أى تعب وقرىء بفتح النون وبفتحتين وبضمتين للتثقيل ﴿ وعذاب ﴾ أى ألم ووصب يريد مرضه وما كان يقاسيه من فنون الشدائد وهو المراد بالضر فى قوله إنى مسنى الضر وهو حكاية لكلامه الذى ناداه به بعبارته وإلا لقيل إنه مسه الخ والإسناد إلى الشيطان إما لأنه تعالى مسه بذلك لما فعل بوسوسته كما قيل إنه أعجب بكثرة ماله أو استغاثه مظلوم فلم يغثه أو كانت مواشيه فى ناحية ملك كافر فداهنه ولم يغزه أو لامتحان صبره فيكون اعترافا بالذنب أو مراعاة للأدب أو لأنه وسوس إلى أتباعه حتى رفضوه وأخرجوه من ديارهم أو لأن المراد بالنصب والعذاب ما كان يوسوس به إليه فى مرضه من تعظيم ما نزل به من البلاء والقنوط من الرحمة ويغريه على على الكراهة والجزع فالتجأ إلى الله تعالى فى أن يكفيه ذلك بكشف البلاء أو بالتوفيق لدفعه ورده بالصبر الجميل وليس هذا تمام دعائه عليه الصلاة والسلام بل من جملته قوله (وأنت أرحم الراحمين) فاكتفى ههنا عن ذكره بما فى سورة الأنبياء كما ترك هناك ذكر الشيطان ثقة بما ذكر ههنا وقوله تعالى ﴿ اركض برجلك ﴾ الخ إما حكاية لما قيل له أو مقول لقول مقدر معطوف على نادى أى فقلنا له اركض برجلك أى اضرب بها الأرض وكذا قوله تعالى ﴿ هذا مغتسل بارد وشراب ﴾ فإنه أيضا إما حكاية لما قيل له بعد امتثاله بالأمر ونبوع الماء أو مقول لقول مقدر معطوف على مقدر ينساق إليه الكلام كأنه قيل فضرבها فنبعت عين فقلنا له هذا مغتسل تغتسل به وتشرب منه فيبرأ ظاهرك وباطنك وقيل نبعت عينان حارة للاغتسال وباردة للشرب ويأباه ظاهر النظم

الكريم وقوله تعالى ﴿ ووهبنا له أهله ﴾ معطوف على مقدر مترتب على مقدر آخر يقتضيه القول المقدر آنفا كأنه قيل فاغتسل وشرب فكشفنا بذلك ما به من ضر كما فى سورة الأنبياء ووهبنا له أيضا أهله إما بإحيائهم بعد هلاكهم وهو المروى عن الحسن أو بجمعهم بعد تفرقهم كما قيل ﴿ ومثلهم معهم ﴾ عطف على أهله فكان له من الأولاد ضعف ما كان له قبل ﴿ رحمة منا ﴾ أى لرحمة عظيمة عليه من قبلنا ﴿ وذكرى لأولى الألباب ﴾ ولتذكيرهم بذلك ليصبروا على الشدائد كما صبر ويلجأوا إلى الله عز وجل فيما يحيق بهم كما لجأ ليفعل بهم ما فعل به من حسن العاقبة ﴿ وخذ بيدك ضغثا ﴾ معطوف على اركض أو على وهبنا بتقدير قلنا أى وقلنا خذ بيدك الخ والأول أقرب لفظا وهذا أنسب معنى فإن الحاجة إلى هذا الأمر لا تمس إلا بعد الصحة فإن امرأته رحمة بنت افرايم بن يوسف وقيل ليا بنت يعقوب وقيل ماصر بنت ميشا بن يوسف عليه السلام ذهبت لحاجة فأبطأت فحلف إن برىء ليضربنها مائة ضربة فأمره الله تعالى بأخذ الضغث والضغث الحزمة الصغيرة من الحشيش ونحوه وعن ابن عباس رضى الله عنهما قبضة من الشجر وقال ﴿ فاضرب به ﴾ أى بذلك الضغث ﴿ ولا تحنث ﴾ فى يمينك فإن البر يتحقق به ولقد شرع الله سبحانه هذه الرخصة رحمة عليه وعليها لحسن خدمتها إياه ورضاه عنها وهى باقية ويجب أن يصيب المضروب كل واحد من المائة إما بأطرافها قائمة أو بأعراضها مبسوطة على هيئة الضرب ﴿ إنا وجدناه صابرا ﴾ فيما أصابه فى النفس والأهل والمال وليس فى شكواه إلى الله تعالى إخلال بذلك فإنه لا يسمى جزعا كتمنى العافية وطلب الشفاء على أنه قال ذلك خيفة الفتنة فى الدين حيث كان الشيطان يوسوس إلى قومه بأنه لو كان نبيا لما ابتلى بمثل ما ابتلى به وإرادة القوة على الطاعة فقد بلغ أمره إلى أن لم يبق منه إلا القلب واللسان ويروى أنه عليه الصلاة والسلام قال فى مناجاته إلهى قد علمت أنه لم يخالف لسانى قلبى ولم يتبع قلبى بصرى ولم يهبنى ما ملكت يمينى ولم آكل إلا ومعى يتيم ولم أبت شبعان ولا كاسيا ومعى جائع أو عريان فكشف الله تعالى عنه ﴿ نعم العبد ﴾ أى أيوب ﴿ إنه أواب ﴾ تعليل لمدحه أى رجاع إلى الله تعالى :

﴿ واذكر عبادنا إبراهيم وإسحق ويعقوب ﴾ عطف بيان لعبادنا وقرىء عبدنا إما على أن إبراهيم وحده لمزيد شرفه عطف بيان وقيل بدل وقيل نصب بإضمار أعنى والباقيان عطف على عبدنا وإما على أن عبدنا اسم جنس وضع موضع الجمع ﴿أولى الأيدى والأبصار﴾ أولى القوة فى الطاعة والبصيرة فى الدين أو أولى الأعمال الجليلة والعلوم الشريفة فعبر بالأيدى عن الأعمال لأن أكثرها تباشر بها وبالأبصار عن المعارف لأنها أقوى مباديها وفيه تعريض بالجهلة البطالين أنهم كالزمنى والعماة وتوبيخ على تركهم المجاهدة والتأمل مع تمكنهم منهما وقرىء أولى الأيد بطرح الياء والاكتفاء بالكسر وقرىء أولى الأيادى على جمع الجمع ﴿إنا أخلصناهم بخالصة﴾ تعليل لما وصفوا به من شرف العبودية وعلو الرتبة فى العلم والعمل أى جعلناهم خالصين لنا بخصلة خالصة عظيمة الشأن كما ينبىء عنه التنكير التفخيمى وقوله تعالى ﴿ذكرى الدار﴾ بيان للخالصة بعد إبهامها للتفخيم أى تذكر للدار الآخرة دائما فإن خلوصهم فى الطاعة بسبب تذكرهم لها وذلك لأن مطمح أنظارهم ومطرح أفكارهم فى كل ما يأتون وما يذرون جوار الله عز وجل والفوز بلقائه ولا يتسنى ذلك إلا فى الآخرة وقيل أخلصناهم بتوفيقهم لها واللطف بهم فى اختيارها ويعضد الأول قراءة من قرأ بخالصتهم وإطلاق الدار للإشعار بأنها الدار فى الحقيقة وإنما الدنيا معبر وقرىء بإضافة خالصة إلى ذكرى أى بما خلص من ذكرى الدار على معنى أنهم لا يشوبون ذكراها بهم آخر أصلا أو تذكيرهم الآخرة وترغيبهم فيها وتزهيدهم فى الدنيا كما هو شأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وقيل ذكرى الدار الثناء الجميل فى الدنيا ولسان الصدق الذى ليس لغيرهم .

﴿ وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار ﴾ لمن المختارين من أمثالهم المصطفين عليهم فى الخير والأخيار جمع خير كشر وأشرار وقيل جمع خير أو خير مخفف منه كأموات فى جمع ميت وميت ﴿واذكر إسماعيل﴾ فصل ذكره عن ذكر أبيه وأخيه للإشعار بعراقته فى الصبر الذى هو المقصود بالتذكير ﴿واليسع﴾ هو ابن أخطوب بن العجوز استخلفه الياس على بنى إسرائيل ثم استنبىء واللام

فيه حرف تعريف دخل على يسع كما فى قول من قال * رأيت الوليد بن اليزيد مباركا * وقرىء والليسع كأن أصله ليسع فيعل من اللسع دخل عليه حرف التعريف وقيل هو على القراءتين علم أعجمى دخل عليه اللام وقيل هو يوشع ﴿وذا الكفل﴾ هو ابن عم يسع أو بشر بن أيوب واختلف فى نبوته ولقبه فقيل فر إليه مائة نبى من بنى إسرائيل من القتل فآواهم وكفلهم وقيل كفل بعمل رجل صالح كان يصلى كل يوم مائة صلاة ﴿وكل﴾ أى وكلهم ﴿من الأخيار﴾ المشهورين بالخيرية ﴿هذا﴾ إشارة إلى ما تقدم من الآيات الناطقة بمحاسنهم ﴿ذكر﴾ أى شرف لهم وذكر جميل يذكرون به أبدا أو نوع من الذكر الذى هو القرآن وباب منه مشتمل على أنباء الأنبياء عليهم السلام وعن ابن عباس رضى الله عنهما هذا ذكر من مضى من الأنبياء وقوله تعالى ﴿وإن للمتقين لحسن مآب﴾ شروع فى بيان أجرهم الجزيل فى الآجل بعد بيان ذكرهم الجميل فى العاجل وهو باب آخر من أبواب التنزيل والمراد بالمتقين إما الجنس وهم داخلون فى الحكم دخولا أوليا وإما نفس المذكورين عبر عنهم بذلك مدحا لهم بالتقوى التى هى الغاية القاصية من الكمال ﴿جنات عدن﴾ عطف بيان لحسن مآب عند من يجوز تخالفهما تعريفا وتنكيرا فإن عدناً معرفة لقوله تعالى (جنات عدن التى وعد الرحمن عباده) أو بدل منه أو نصب على المدح وقوله تعالى ﴿مفتحة لهم الأبواب﴾ حال من جنات عدن والعامل فيها ما فى للمتقين من معنى الفعل والأبواب مرتفعة باسم المفعول والرابط بين الحال وصاحبها إما ضمير مقدر كما هو رأى البصريين أى الأبواب منها أو الألف واللام القائمة مقامه كما هو رأى الكوفيين إذ الأصل أبوابها وقرئتا مرفوعتين على الابتداء والخبر أو على أنهما خبران لمحذوف أى هى جنات عدن هى مفتحة .

﴿متكئين فيها﴾ حال من ضمير لهم والعامل فيها مفتحة وقوله تعالى ﴿يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب﴾ استئناف لبيان حالهم فيها وقيل هو أيضا حال مما ذكر أو من ضمير متكئين والاقتصار على دعاء الفاكهة للإيذان بأن مطاعمهم لمحض التفكه والتلذذ دون التغذى فإنه لتحصيل بدل المتحلل

ولا تحلل ثمة ﴿ وعندهم قاصرات الطرف ﴾ أى على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم ﴿أتراب﴾ لدات لهم فإن التحاب بين الأقران أرسخ أو بعضهن لبعض لا عجوز فيهن ولا صبية واشتقاقه من التراب فإنه يمسهم فى وقت واحد ﴿ هذا ما توعدون ليوم الحساب ﴾ أى لأجله فإن الحساب علة للوصول إلى الجزاء وقرىء بالياء ليوافق ما قبـــله والالتفات أليق بمقام الامتنان والتكريم ﴿إن هذا﴾ أى ما ذكر من أنواع النعم والكرامات ﴿ لرزقنا ﴾ أعطيناكموه ﴿ماله من نفاد﴾ انقطاع أبدا ﴿هذا﴾ أى الأمر هذا أو هذا كما ذكر أو هذا ذكر وقوله تعالى ﴿ وإن للطاغين لشر مآب ﴾ شروع فى بيان أضداد الفريق السابق ﴿جهنم﴾ إعرابه كما سلف ﴿ يصلونها ﴾ أى يدخلونها حال من جهنم ﴿فبئس المهاد﴾ وهو المهد والمفرش مستعار من فراش النائم والمخصوص بالذم محذوف وهو جهنم لقوله تعالى (لهم من جهنم مهاد) ﴿هذا فليذوقوه﴾ أى ليذوقوا هذا فليذوقوه كقوله تعالى (وإياى فارهبون) أو العذاب هذا فليذوقوه أو هذا مبتدأ خبره ﴿حميم وغساق﴾ وما بينهما اعتراض وهو على الأولين خبر مبتدأ محذوف أى هو حميم والغساق ما يغسق من صديد أهل النار من غسقت العين إذا سال دمعها وقيل الحميم يحرق بحره والغساق يحرق ببرده وقيل لو قطرت منه قطرة فى المشرق لنتنت[1] أهل المغرب ولو قطرت قطرة فى المغرب لنتنت[1] أهل المشرق وقيل الغساق عذاب لا يعلمه إلا الله تعالى وقرىء بتخفيف السين ﴿وآخر من شكله﴾ أى ومذوق آخر أو عذاب آخر من مثل هذا المذوق أو العذاب فى الشدة والفظاعة وقرىء وأخر أى ومذوقات أخر أو أنواع عذاب أخر وتوحيد ضمير شكله بتأويل ما ذكر أو الشراب الشامل للحميم والغساق أو هو راجع إلى الغساق ﴿ أزواج ﴾ أى أجناس وهو خبر لآخر لأنه يجوز أن يكون ضروبا أو صفة له أو للثلاثة أو مرتفع بالجار والخبر محذوف مثل لهم .

---

(١) فى ١١ : لأنتنت أهل المشرق . . والمغرب .

﴿ هذا فوج مقتحم معكم ﴾ حكاية ما يقال من جهة الخزنة لرؤساء الطاغين إذا دخلوا النار واقتحمها معهم فوج كانوا يتبعونهم فى الكفر والضلالة والاقتحام الدخول فى الشىء بشدة قال الراغب الاقتحام توسط شدة مخيفة وقوله تعالى ﴿ لا مرحبا بهم ﴾ من إتمام كلام الخزنة بطريق الدعاء على الفوج أو صفة للفوج أو حال منه أى مقول أو مقولا فى حقهم لا مرحبا بهم أى لا أتوا مرحبا أو لا رحبت بهم الدار مرحبا ﴿ إنهم صالوا النار ﴾ تعليل من جهة الخزنة لاستحقاقهم الدعاء عليهم أو وصفهم بما ذكر وقيل لا مرحبا بهم إلى هنا كلام الرؤساء فى حق أتباعهم عند خطاب الخزنة لهم باقتحام الفوج معهم تضجرا من مقارنتهم وتنفرا من مصاحبتهم وقيل كل ذلك كلام الرؤساء بعضهم مع بعض فى حق الأتباع ﴿ قالوا ﴾ أى الأتباع عند سماعهم ما قيل فى حقهم ووجه خطابهم للرؤساء فى قولهم ﴿ بل أنتم لا مرحبا بكم ﴾ الخ على الوجهين الأخيرين ظاهر وأما على الوجه الأول فلعلهم إنما خاطبوهم مع أن الظاهر أن يقولوا بطريق الاعتذار إلى الخزنة بل هم لا مرحبا بهم الخ قصدا منهم إلى إظهار صدقهم بالمخاطبة مع الرؤساء والتحاكم إلى الخزنة طمعا فى قضائهم بتخفيف عذابهم أو تضعيف عذاب خصمائهم أى بل أنتم أحق بما قيل لنا أو قلتم وقوله تعالى ﴿ أنتم قدمتموه لنا ﴾ تعليل لأحقيتهم بذلك أى أنتم قدمتم العذاب أو الصلى لنا وأوقعتمونا فيه بتقديم ما يؤدى إليه من العقائد الزائغة والأعمال السيئة وتزيينها فى أعيننا وإغرائنا عليها لا أنا باشرناها من تلقاء أنفسنا ﴿ فبئس القرار ﴾ أى فبئس المقر جهنم قصدوا بذمها تغليظ جناية الرؤساء عليهم ﴿ قالوا ﴾ أى الأتباع أيضاً وتوسيطه بين كلاميهم لما بينهما من التباين البين ذاتا وخطابا أى قالوا معرضين عن خصومتهم متضرعين إلى الله تعالى ﴿ ربنا من قدم لنا هذا فزده عذابا ضعفا فى النار ﴾ كقولهم (ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار) أى عذابا مضاعفا أى ذا ضعف وذلك بأن يزيد عليه مثله ويكون ضعفين كقوله (ربنا آتهم ضعفين من العذاب) وقيل المراد بالضعف الحيات والأفاعى ﴿ وقالوا ﴾ أى الطاغون ﴿ ما لنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار ﴾

يعنون فقراء المسلمين الذين كانوا يسترذلونهم ويسخرون منهم ﴿أتخذناهم سخريا﴾ بهمزة استفهام سقطت لأجلها همزة الوصل والجملة استئناف لا محل لها من الإعراب قالوه إنكارا على أنفسهم وتأنيباً لها فى الاستسخار منهم ﴿أم زاغت عنهم الأبصار﴾ متصل باتخذناهم على أن أم متصلة والمعنى أى الأمرين فعلنا بهم الاستسخار منهم أم الازدراء بهم وتحقيرهم وإن أبصارنا كانت تزيغ عنهم وتقتحمهم على معنى إنكار كل واحد من الفعلين على أنفسهم توبيخا لها أو على أنها منقطعة والمعنى أتخذناهم سخريا بل أزاغت عنهم أبصارنا كقولك أزيد عندك أم عندك عمرو على معنى توبيخ أنفسهم على الاستسخار ثم الإضراب والانتقال منه إلى التوبيخ على الازدراء والتحقير وقرىء اتخذناهم بغير همزة على أنه صفة أخرى لرجالا فقوله تعالى أم زاغت متصل بقوله ما لنا لا نرى والمعنى ما لنا لا نراهم فى النار أليسوا فيها فلذلك لا نراهم أم زاغت عنهم أبصارنا وهم فيها وقد جوز أن تكون الهمزة مقدرة على هذه القراءة وقرىء سُخريا بضم السين ﴿إن ذلك﴾ أى الذى حكى من أحوالهم ﴿لحق﴾ لا بد من وقوعه البتة وقوله تعالى ﴿تخاصم أهل النار﴾ خبر مبتدأ محذوف والجملة بيان لذلك وفى الإبهام أولا والتبيين ثانيا مزيد تقرير له وقيل بدل من محل ذلك وقيل بدل من حق أو عطف بيان له وقرىء بالنصب على أنه بدل من ذلك وما قيل من أنه صفة له فقد قيل عليه أن اسم الإشارة لا يوصف إلا بالمعرف باللام يقال بهذا الرجل ولا يقال بهذا غلام الرجل .

وظيفة الرسول

﴿قل﴾ أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول للمشركين ﴿إنما أنا منذر﴾ من جهته تعالى أنذركم عذابه ﴿وما من إله﴾ فى الوجود ﴿إلا الله الواحد﴾ الذى لا يقبل الشركة والكثرة أصلا ﴿القهار﴾ لكل شىء سواه ﴿رب السموات والأرض وما بينهما﴾ من المخلوقات فكيف يتوهم أن يكون له شريك منها ﴿العزيز﴾ الذى لا يغلب فى أمر من أموره ﴿الغفار﴾ المبالغ

فى المغفرة يغفر ما يشاء لمن يشاء وفى هذه النعوت من تقرير التوحيد والوعد للموحدين والوعيد للمشركين ما لا يخفى وتثنية ما يشعر بالوعيد من وصفى القهر والعزة وتقديمهما على وصف المغفرة لتوفية مقام الإنذار حقه ﴿ قل ﴾ تكرير الأمر للإيذان بأن المقول أمر جليل له شأن خطير لا بد من الاعتناء به أمرا وائتمارا ﴿ هو ﴾ أى ما أنبأتكم به من أنى منذر من جهته تعالى وأنه تعالى واحد لا شريك له وأنه متصف بما ذكر من الصفات الجليلة والأظهر أنه القرآن وما ذكر داخل فيه دخولا أوليا كما يشهد به آخر السورة الكريمة وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة ﴿ نبأ عظيم ﴾ وارد من جهته تعالى وقوله تعالى ﴿ أنتم عنه معرضون ﴾ استئناف ناع عليهم سوء صنيعهم به ببيان أنهم لا يقدرون قدره الجليل حيث يعرضون عنه مع عظمته وكونه موجبا للإقبال الكلى عليه وتلقيه بحسن القبول وقيل صفة أخرى لنبأ وقوله تعالى ﴿ ما كان لى من علم بالملأ الأعلى ﴾ الخ استئناف مسوق لتحقيق أنه نبأ عظيم وارد من جهته تعالى بذكر نبأ من أنبائه على التفصيل من غير سابقة معرفة به ولا مباشرة سبب من أسبابها المعتادة فإن ذلك حجة بينة دالة على أن ذلك بطريق الوحى من عند الله تعالى وأن سائر أنبيائه أيضاً كذلك والملأ الأعلى هم الملائكة وآدم عليهم السلام وإبليس عليه اللعنة وقوله تعالى ﴿ إذ يختصمون ﴾ متعلق بمحذوف يقتضيه المقام إذ المراد نفى علمه عليه الصلاة والسلام بحالهم لا بذواتهم والتقدير ما كان لى فيما سبق علم ما بوجه من الوجوه بحال الملأ الأعلى وقت اختصامهم وتقدير الكلام كما اختاره الجمهور تحجير للواسع فإن علمه عليه الصلاة والسلام غير مقصور على ماجرى بينهم من الأقوال فقط بل عام لها وللأفعال أيضاً من سجود الملائكة واستكبار إبليس وكفره حسبما ينطق به الوحى فلا بد من اعتبار العموم فى نفيه أيضاً لا محالة وقوله تعالى :

﴿ إن يوحى إلى إلا أنما أنا نذير مبين ﴾ اعتراض وسط بين إجمالى اختصامهم وتفصيله تقريراً لثبوت علمه عليه الصلاة والسلام وتعيينا لسببه إلا أن بيان انتفائه فيما سبق لما كان منبئاً عن ثبوته الآن ومن البين عدم ملابسته

عليه الصلاة والسلام بشيء من مباديه المعهودة تعين أنه ليس إلا بطريق الوحى حتما فجعل ذلك أمرا مسلم الثبوت غنيا عن الإخبار به قصدا وجعل مصب الفائدة والمقصود إخبار ما هو داع إلى الوحى ومصحح له تحقيقا لقوله تعالى (إنما أنا منذر) فى ضمن تحقيق علمه عليه الصلاة والسلام بقصة الملأ الأعلى فالقائم مقام الفاعل ليوحى إما ضمير عائد إلى الحال المقدر أو ما يعمه وغيره فالمعنى ما يوحى إلى حال الملأ الأعلى أو ما يوحى إلى ما يوحى من الأمور الغيبية التى من جملتها حالهم إلا لأنما أنا نذير مبين من جهته تعالى فإن كونه عليه الصلاة والسلام كذلك من دواعى الوحى إليه ومن موجباته حتما وأما أن القائم مقام الفاعل هو الجار والمجرور أو هو أنما أنا نذير مبين بلا تقدير الجار وأن المعنى ما يوحى إلى إلا للإنذار أو ما يوحى إلى إلا أن أنذر وأبلغ ولا أفرط فى ذلك كما قيل فمع ما فيه من الاضطرار إلى التكلف فى توجيه قصر الوحى على كونه للإنذار فى الأول وقصره على الإنذار فى الثانى فلا يساعده سباق النظم الكريم وسياقه كيف لا والاعتراض حينئذ يكون أجنبيا مما توسط بينهما من إجمال الاختصام وتفصيله فتأمل والله المرشد وقرىء إنما بالكسر على الحكاية وقوله تعالى :

﴿ إذ قال ربك للملائكة ﴾ شروع فى تفصيل ما أجمل من الاختصام الذى هو ما جرى بينهم من التقاول وحيث كان تكليمه تعالى إياهم بواسطة الملك صح إسناد الاختصام إلى الملائكة وإذ بدل من إذ الأولى وليس من ضرورة البدلية دخولها على نفس الاختصام بل يكفى اشتمال ما فى حيزها عليه فإن القصة ناطقة بذلك تفصيلا والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام لتشريفه والإيذان بأن وحى هذا النبأ إليه تربية وتأييد له عليه الصلاة والسلام والكاف وارد باعتبار حال الآمر لكونه أدل على كونه وحيا منزلا من عنده تعالى كما فى قوله تعالى قل (ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم) الخ دون حال المأمور وإلا لقيل ربى لأنه داخل فى حيز الأمر ﴿ إنى خالق ﴾ أى فيما سيأتى وفيه ما ليس فى صيغة المضارع من الدلالة على

أنه تعالى فاعل له البتة من غير صارف يلويه[١] ولا عاطف يثنيه ﴿ بشراً ﴾ قيل أى جسماً كثيفاً يلاقى ويباشر وقيل خلقا بادى البشرة بلا صوف ولا شعر ولعل ما جرى عند وقوع المحكى ليس هذا الاسم الذى لم يخلق مسماه حينئذ فضلا عن تسميته به بل عبارة كاشفة عن حاله وإنما عبر عنه بهذا الاسم عند الحكاية ﴿ من طين ﴾ لم يتعرض لأوصافه من التغير والاسوداد والمسنونية اكتفاء بما ذكر فى مواقع أخر ﴿ فإذا سويته ﴾ أى صورته بالصورة الإنسانية والخلقة البشرية أو سويت أجزاء بدنه بتعديل طبائعه ﴿ ونفخت فيه من روحى ﴾ النفخ إجراء الريح إلى تجويف جسم صالح لإمساكها والامتلاء بها وليس ثمة نفخ ولا منفوخ وإنما هو تمثيل لإفاضة ما به الحياة بالفعل على المادة القابلة لها أى فإذا كملت استعداده وأفضت عليه ما يحيى به من الروح التى هى من أمرى ﴿ فقعوا له ﴾ أمر من وقع وفيه دليل على أن المأمور به ليس مجرد الانحناء كما قيل أى اسقطوا له ﴿ ساجدين ﴾ تحية له وتكريما .

﴿ فسجد الملائكة ﴾ أى فخلقه فسواه فنفخ فيه الروح فسجد له الملائكة ﴿ كلهم ﴾ بحيث لم يبق منهم أحد إلا سجد ﴿ أجمعون ﴾ أى بطريق المعية بحيث لم يتأخر فى ذلك أحد منهم عن أحد ولا اختصاص لإفادة هذا المعنى بالحالية بل يفيده التأكيد أيضا وقيل أكد بتأكيدين مبالغة فى التعميم هذا وأما أن سجودهم هذا هل ترتب على ما حكى من الأمر التعليقى كما تقتضيه هذه الآية الكريمة والتى فى سورة الحجر فإن ظاهرهما يستدعى ترتبه عليه من غير أن يتوسط بينهما شىء غير ما يفصح عنه الفاء الفصيحة من الخلق والتسوية ونفخ الروح أو على الأمر التنجيزى كما يقتضيه ما فى سورة البقرة وما فى سورة الأعراف وما فى سورة بنى إسرائيل وما فى سورة الكهف وما فى سورة طه من الآيات الكريمة فقد مر تحقيقه بتوفيق الله عز وجل فى سورة البقرة وسورة الأعراف ﴿ إلا إبليس ﴾ استثناء متصل لما أنه كان جنيا مفردا مغمورا بألوف

(١) فى ١١ : يصرفه .

من الملائكة موصوفا بصفاتهم فغلبوا عليه ثم استثنى استثناء واحد منهم أو لأن من الملائكة جنسا يتوالدون وهو منهم أو منقطع وقوله تعالى ﴿ استكبر ﴾ على الأول استئناف مبين لكيفية ترك السجود المفهوم من الاستثناء فإن تركه يحتمل أن يكون للتأمل والتروى وبه يتحقق أنه للإباء والاستكبار وعلى الثانى يجوز اتصاله بماقبله أى لكن إبليس استكبر ﴿ وكان من الكافرين ﴾ أى وصار منهم بمخالفته للأمر واستكباره عن الطاعة أو كان منهم فى علم الله تعالى عز وجل ﴿ قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى ﴾ أى خلقته بالذات من غير توسط أب وأم والتثنية لإبراز كمال الاعتناء بخلقه عليه الصلاة والسلام المستدعى لإجلاله وإعظامه قصدا إلى تأكيد الإنكار وتشديد التوبيخ ﴿ أستكبرت ﴾ بهمزة الإنكار وطرح همزة الوصل أى أتكبرت من غير استحقاق ﴿ أم كنت من العالين ﴾ المستحقين للتفوق وقيل أستكبرت الآن أم لم تزل منذ كنت من المستكبرين وقرىء بحذف همزة الاستفهام ثقة بدلالة أم عليها وقوله تعالى ﴿ قال أنا خير منه ﴾ ادعاء منه لشيء مستلزم لمنعه من السجود على زعمه وإشعار بأنه لا يليق أن يسجد الفاضل للمفضول كما يعرب عنه قوله (لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون) وقوله تعالى :

﴿ خلقتنى من نار وخلقته من طين ﴾ تعليل لما ادعاه من فضله عليه عليه الصلاة والسلام ولقد أخطأ اللعين حيث خص الفضل بما من جهة المادة والعنصر وزل عنه ما من جهة الفاعل كما أنبأ عنه قوله تعالى (لما خلقت بيدى) وما من جهة الصورة كما نبه عليه قوله تعالى (ونفخت فيه من روحى) وما من جهة الغاية وهو ملاك الأمر ولذلك أمر الملائكة بسجوده عليهم السلام حين ظهر لهم أنه أعلم منهم بما يدور عليه من أمر الخلافة فى الأرض وأن له خواص ليست لغيره ﴿ قال فاخرج منها ﴾ الفاء لترتيب الأمر على ما ظهر من اللعين من المخالفة للأمر الجليل وتعليلها بالأباطيل أى فاخرج من الجنة أو من زمرة الملائكة وهو المراد بالأمر بالهبوط لا الهبوط من السماء كما قيل فإن وسوسته لآدم عليه

السلام كانت بعد هذا الطرد وقد بين كيفية وسوسته فى سورة البقرة وقيل اخرج من الخلقة التى كنت فيها وانسلخ منها فإنه كان يفتخر بخلقته فغير الله خلقته فاسود بعد ما كان أبيض وقبح بعد ما كان حسنا وأظلم بعد ما كان نورانيا وقوله تعالى ﴿ فإنك رجيم ﴾ تعليل للأمر بالخروج أى مطرود من كل خير وكرامة فإن من يطرد يرجم بالحجارة أو شيطان يرجم بالشهب ﴿ وأن عليك لعنتى ﴾ أى إبعادى عن الرحمة وتقييدها بالإضافة مع إطلاقها فى قوله تعالى (وأن عليك اللعنة) لما أن لعنة اللاعنين من الملائكة والثقلين أيضا من جهته تعالى وأنهم يدعون عليه بلعنة الله تعالى وإبعاده من الرحمة ﴿ إلى يوم الدين ﴾ أى يوم الجزاء والعقوبة وفيه إيذان بأن اللعنة مع كمال فظاعتها ليست جزاء لجنايته بل هى أنموذج لما سيلقاه مستمرا إلى ذلك اليوم لكن لا على أنها تنقطع يومئذ كما يوهمه ظاهر التوقيت بل على أنه سيلقى يومئذ من ألوان العذاب وأفانين العقاب ما ينسى عنده اللعنة وتصير كالزائل ألا يرى إلى قوله تعالى (فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين) وقوله تعالى (ويلعن بعضهم بعضا) .

﴿ قال رب فأنظرنى ﴾ أى أمهلنى وأخرنى ، والفاء متعلقة بمحذوف ينسحب عليه الكلام أى إذ جعلتنى رجيما فأمهلنى ولا تمتنى ﴿ إلى يوم يبعثون ﴾ أى آدم وذريته للجزاء بعد فنائهم وأراد بذلك أن يجد فسحة لإغوائهم ويأخذ منهم ثأره وينجو من الموت بالكلية إذ لا موت بعد يوم البعث .

﴿ قال فإنك من المنظرين ﴾ وورود الجواب بالجملة الاسمية مع التعرض لشمول ما سأله لآخرين على وجه يشعر بكون السائل تبعا لهم فى ذلك دليل واضح على أنه إخبار بالإنظار المقدر لهم أزلا لا إنشاء لإنظار خاص به وقد وقع إجابة لدعائه وأن استنظاره كان طلبا لتأخير الموت إذ به يتحقق كونه منهم لا لتأخير العقوبة كما قيل فإن ذلك معلوم من إضافة اليوم إلى الدين أى إنك من جملة الذين أخرت آجالهم أزلا حسبما تقتضيه حكمة التكوين ﴿ إلى يوم الوقت المعلوم ﴾ الذى قدره الله وعينه لفناء الخلائق وهو وقت النفخة الأولى لا إلى وقت البعث الذى هو المسئول فالفاء ليست لربط نفس الإنظار بالاستنظار بل لربط الإخبار المذكور به كما فى قول من قال :

* فإن ترحم فأنت لذاك أهل *

فإنه لا إمكان لجعل الفاء فيه لربط ماله تعالى من الأهلية القديمة للرحمة الحادثة بل هى لربط الإخبار بتلك الأهلية للرحمة بوقوعها ، هذا وقد ترك التوقيت فى سورة الأعراف كما ترك النداء والفاء فى الاستنظار والانظار تعويلا على ما ذكر ههنا وفى سورة الحجر وإن خطر ببالك أن كل وجه من وجوه النظم الكريم لا بد أن يكون له مقام يقتضيه مغاير لمقام غيره وأن ما حكى من اللعين إنما صدر عنه مرة وكذا جوابه لم يقع إلا دفعة فمقام الاستنظار والإنظار إن اقتضى أحد الوجوه المحكية فذلك الوجه هو المطابق لمقتضى الحال والبالغ إلى رتبة البلاغة ودرجة الإعجاز وأما ما عداه من الوجوه فهو بمعزل من بلوغ طبقة البلاغة فضلا عن العروج إلى معارج الإعجاز فقد سلف تحقيقه فى سورة الأعراف بفضل الله تعالى وتوفيقه ﴿ قال فبعزتك ﴾ الباء للقسم والفاء لترتيب مضمون الجملة على الإنظار ولا ينافيه قوله تعالى فبما أغويتنى وقوله رب بما أغويتنى فإن إغواءه تعالى إياه أثر من آثار قدرته تعالى وعزته وحكم من أحكام قهره وسلطنته فمآل الإقسام بهما واحد ولعل اللعين أقسم بهما جميعاً فحكى تارة قسمه بأحدهما وأخرى بالآخر أى فأقسم بعزتك ﴿ لأغوينهم أجمعين ﴾ أى ذرية آدم بتزيين المعاصى لهم .

﴿ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ وهم الذين أخلصهم الله تعالى لطاعته وعصمهم من الغواية وقرىء المخلصين على صيغة الفاعل أى الذين أخلصوا قلوبهم وأعمالهم لله تعالى ﴿ قال ﴾ أى الله عز وجل ﴿ فالحق والحق أقول ﴾ برفع الأول على أنه مبتدأ محذوف الخبر أو خبر محذوف المبتدأ ونصب الثانى على أنه مفعول لما بعده قدم عليه للقصر أى لا أقول إلا الحق والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها أى فالحق قسمى ﴿ لأملأن جهنم ﴾ على أن الحق إما اسمه تعالى أو نقيض الباطل عظمه الله تعالى بإقسامه به أو فأنا الحق أو فقولى الحق وقوله تعالى (لأملأن جهنم) الخ حينئذ جواب لقسم محذوف أى والله

لأملأن الخ وقوله تعالى : (والحق أقول) على كل تقدير اعتراض مقرر على الوجهين الأولين لمضمون الجملة القسمية وعلى الوجه الثالث لمضمون الجملة المتقدمة أعنى فقولى الحق وقرئا منصوبين على أن الأول مقسم به كقولك الله لأفعلن وجوابه لأملأن وما بينهما اعتراض وقرئا مجرورين على أن الأول مقسم به قد أضمر حرف قسمه كقولك الله لأفعلن والحق أقول على حكاية لفظ المقسم به على تقدير كونه نقيض الباطل ومعناه التأكيد والتشديد وقرىء بجر الأول على إضمار حرف القسم ونصب الثانى على المفعولية ﴿ منك ﴾ أى من جنسك من الشياطين ﴿ وممن تبعك ﴾ فى الغواية والضلال ﴿ منهم ﴾ من ذرية آدم ﴿ أجمعين ﴾ تأكيد للكاف وما عطف عليه أى لأملأنها من المتبوعين والأتباع أجمعين كقوله تعالى (لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين) وهذا القول هو المراد بقوله تعالى (ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) وحيث كان مناط الحكم ههنا اتباع الشيطان اتضح أن مدار عدم المشيئة فى قوله تعالى (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها) اتباع الكفرة للشيطان بسوء اختيارهم لا تحقق القول فليس فى ذلك شائبة الجبر فتدبر ﴿ قل ما أسألكم عليه ﴾ على القرآن أو على تبليغ ما يوحى إلى ﴿ من أجر ﴾ دنيوى ﴿ وما أنا من المتكلفين ﴾ أى المتصنعين بما ليسوا من أهله حتى أنتحل النبوة وأتقول القرآن ﴿ إن هو ﴾ أى ما هو ﴿ إلا ذكر ﴾ من الله عز وجل ﴿ للعالمين ﴾ أى للثقلين كافة ﴿ ولتعلمن نبأه ﴾ أى ما أنبأ به من الوعد والوعيد وغيرهما أو صحة خبره وأنه الحق والصدق ﴿ بعد حين ﴾ بعد الموت أو يوم القيامة أو عند ظهور الإسلام وفشوه وقيل من بقى علم ذلك إذا ظهر أمره وعلا ومن مات علمه بعد الموت وفيه من التهديد مالا يخفى .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة ص كان له بوزن كل جبل سخره الله لداود عشر حسنات وعصم أن يصر على ذنب صغير أو كبير

وقال أبو أمامة عصمه الله تعالى من كل ذنب صغير أو كبير[1] والله أعلم .

* * *

سورة الزمر

مكية إلا قوله (قل يا عبادى) الآية
وآيها خمس وسبعون أو اثنتان وسبعون

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ تنزيل الكتاب ﴾ خبر لمبتدأ محذوف هو اسم إشارة أشير به إلى السورة تنزيلا لها منزلة الحاضر المشار إليه لكونها على شرف الذكر والحضور كما مر مرارا وقد قيل هو ضمير عائد إلى الذكر فى قوله تعالى (إن هو إلا ذكر للعالمين) وقوله تعالى ﴿ من الله العزيز الحكيم ﴾ صلة للتنزيل أو خبر ثان أو حال من التنزيل عاملها معنى الإشارة أو من الكتاب الذى هو مفعول معنى عاملها المضاف وقيل هو خبر لتنزيل الكتاب والوجه الأول أو فى بمقتضى المقام الذى هو بيان أن السورة أو القرآن تنزيل الكتاب من الله تعالى لا بيان أن تنزيل الكتاب منه تعالى لا من غيره كما يفيده الوجه الأخير وقرىء تنزيل الكتاب بالنصب على إضمار فعل نحو اقرأ أو الزم والتعرض لوصفى العزة والحكمة للإيذان بظهور أثريهما فى الكتاب بجريان أحكامه ونفاذ أوامره ونواهيه من غير مدافع ولا ممانع وبابتناء جميع ما فيه على أساس الحكم الباهرة وقوله تعالى ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ﴾ شروع فى بيان شأن المنزل إليه وما يجب عليه إثر بيان شأن المنزل وكونه

(١) فيه إسماعيل بن عياش وقد تكلم فيه

من عند الله تعالى والمراد بالكتاب هو القرآن وإظهاره على تقدير كونه هو المراد بالأول أيضاً لتعظيمه ومزيد الاعتناء بشأنه والباء إما متعلقة بالإنزال أى بسبب الحق وإثباته وإظهاره أو بداعية الحق واقتضائه للإنزال وإما بمحذوف هو حال من نون العظمة أو من الكتاب أى أنزلناه إليك محقين فى ذلك أو أنزلناه ملتبسا بالحق والصواب أى كل مافيه حق لاريب فيه موجب للعمل به حتما والفاء فى قوله تعالى : ﴿ فاعبد الله مخلصا له الدين ﴾ لترتيب الأمر بالعبادة على إنزال الكتاب إليه عليه الصلاة والسلام بالحق أى فاعبده تعالى محضا له الدين من شوائب الشرك والرياء حسبما بين فى تضاعيف ما أنزل إليك وقرىء برفع الدين على أنه مبتدأ خبره الظرف المقدم عليه لتأكيد الاختصاص المستفاد من اللام والجملة استئناف وقع تعليلا للأمر بإخلاص العبادة وقوله تعالى : ﴿ ألا لله الدين الخالص ﴾ استئناف مقرر لما قبله من الأمر بإخلاص الدين له تعالى ، ووجوب الامتثال به وعلى القراءة الأخيرة مؤكد لاختصاص الدين به تعالى أى ألا هو الذى يجب أن يخص بإخلاص الطاعة له لأنه المتفرد بصفات الألوهية التى من جملتها الاطلاع على السرائر والضمائر وقوله تعالى:

﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ﴾ تحقيق لحقية ما ذكر من إخلاص الدين الذى هو عبارة عن التوحيد ببيان بطلان الشرك الذي هو عبارة عن ترك إخلاصه والموصول عبارة عن المشركين ومحله الرفع على الابتداء خبره ماسيأتى من الجملة المصدرة بأن والأولياء عن الملائكة وعيسى عليهم السلام والأصنام وقوله تعالى ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ حال بتقدير القول من واو اتخذوا مبنية لكيفية إشراكهم وعدم خلوص دينهم والاستثناء مفرغ من أعم العلل وزلفى مصدر مؤكد على غير لفظ المصدر ملاق له فى المعنى أى والذين لم يخلصوا العبادة لله تعالى بل شابوها بعبادة غيره قائلين مانعبدهم لشىء من الأشياء إلا ليقربونا إلى الله تعالى تقريبا ﴿ إن الله يحكم بينهم ﴾ أى وبين خصمائهم الذين هم المخلصون للدين وقد حذف لدلالة الحال عليه كما فى قوله تعالى (لا نفرق

بين أحد من رسله) على أحد الوجهين أى بين أحد منهم وبين غيره وعليه قول النابغة :

فما كان بين الخير لو جاء سالما أبو حجر إلا ليال قلائل

أى بين الخير وبينى وقيل ضمير بينهم للفريقين جميعا ﴿ فيما هم فيه يختلفون ﴾ من الدين الذى اختلفوا فيه بالتوحيد والإشراك وادعى كل فريق منهم صحة ما انتحله وحكمه تعالى فى ذلك إدخال الموحدين الجنة والمشركين النار فالضمير للفريقين هذا هو الذى يستدعيه مساق النظم الكريم وأما تجويز أن يكون الموصول عبارة عن المعبودين على حذف العائد إليه وإضمار المشركين من غير ذكر تعويلا على دلالة المساق عليهم ويكون التقدير والذين اتخذهم المشركون أولياء قائلين ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله إن الله يحكم بينهم أى بين العبدة والمعبودين فيما هم فيه يختلفون حيث يرجو العبدة شفاعتهم وهم يلعنونهم فبعد الإغضاء عما فيه من التعسفات بمعزل من السداد كيف لا وليس فيما ذكر من طلب الشفاعة واللعن مادة يختلف فيها الفريقان اختلافا محوجا إلى الحكم والفصل وإنما ذاك ما بين فريقى الموحدين والمشركين فى الدنيا من الاختلاف فى الدين الباقى إلى يوم القيامة وقرىء قالوا ما نعبدهم فهو بدل من الصلة لا خبر للموصول كما قيل إذ ليس فى الإخبار بذلك مزيد مزية وقرىء ما نعبدكم إلا لتقربونا حكاية لما خاطبوا به آلهتهم وقرىء نعبدهم اتباعا للباء ﴿ إن الله لا يهدى ﴾ أى لا يوفق للاهتداء إلى الحق الذى هو طريق النجاة عن المكروه والفوز بالمطلوب .

﴿ من هو كاذب كفار ﴾ أى راسخ فى الكذب مبالغ فى الكفر كما يعرب عنه قراءة كذاب وكذوب فإنهما فاقدان للبصيرة غير قابلين للاهتداء لتغييرهما الفطرة الأصلية بالتمرن فى الضلالة والتمادى فى الغى والجملة تعليل لما ذكر من حكمه تعالى ﴿ لو أراد الله أن يتخذ ولدا ﴾ الخ استئناف مسوق لتحقيق الحق وإبطال القول بأن الملائكة بنات الله وعيسى ابنه تعالى عن ذلك علوا كبيرا ببيان استحالة اتخاذ الولد فى حقه تعالى على الإطلاق ليندرج فيه استحالة ما قيل اندراجا أوليا أى لو أراد الله أن يتخذ ولدا ﴿ لاصطفى ﴾ أى لاتخذ

﴿مما يخلق﴾ أى من جملة ما يخلقه أو من جنس ما يخلقه ﴿ما يشاء﴾ أن يتخذه إذ لا موجود سواه الا وهو مخلوق له تعالى لامتناع تعدد الواجب ووجوب استناد جميع ما عداه إليه ومن البين أن اتخاذ الولد منوط بالمماثلة بين المتخذ والمتخذ وأن المخلوق لا يماثل خالقه حتى يمكن اتخاذه ولدا فما فرضناه اتخاذ ولد لم يكن اتخاذ ولد بل اصطفاء عبد وإليه أشير حيث وضع الاصطفاء موضع الاتخاذ الذى تقتضيه الشرطية تنبيها على استحالة مقدمها لاستلزام فرض وقوعه بل فرض إرادة وقوعه انتفاءه أى لو أراد الله تعالى أن يتخذ ولدا لفعل شيئاً ليس هو من اتخاذ الولد فى شىء أصلا بل إنما هو اصطفاء عبد ولا ريب فى أن ما يستلزم فرض وقوعه انتفاءه فهو ممتنع قطعا فكأنه قيل لو أراد الله أن يتخذ ولدا لامتنع ولم يصح لكن لا على أن الامتناع منوط بتحقق الإرادة بل على أنه متحقق عند عدمها بطريق الأولوية على منوال لو لم يخف الله لم يعصه وقوله تعالى ﴿سبحانه﴾ تقرير لما ذكر من استحالة اتخاذ الولد فى حقه تعالى وتأكيد له ببيان تنزهه تعالى عنه أى تنزه بالذات عن ذلك تنزهه الخاص به على أن السبحان مصدر من سبح إذا بعد أو أسبحه تسبيحا لائقا به على أنه علم للتسبيح مقول على ألسنة العباد أو سبحوه تسبيحا حقيقا بشأنه وقوله تعالى ﴿هو الله الواحد القهار﴾ استئناف مبين لتنزهه تعالى بحسب الصفات إثر بيان تنزهه تعالى عنه بحسب الذات فإن صفة الألوهية المستتبعة لسائر صفات الكمال النافية لسمات النقصان والوحدة الذاتية الموجبة لامتناع المماثلة والمشاركة بينه تعالى وبين غيره على الإطلاق مما يقضى بتنزهه تعالى عما قالوا قضاء متقنا وكذا وصف القهارية لما أن اتخاذ الولد شأن من يكون تحت ملكوت الغير عرضة للفناء ليقوم ولده مقامه عند فنائه ومن هو مستحيل الفناء قهار لكل الكائنات كيف يتصور أن يتخذ من الأشياء الفانية ما يقوم مقامه وقوله تعالى :

﴿خلق السموات والأرض بالحق﴾ تفصيل لبعض أفعاله تعالى الدالة على تفرده بما ذكر من الصفات الجليلة أى خلقهما وما بينهما من الموجودات ملتبسة بالحق والصواب مشتملة على الحكم والمصالح وقوله تعالى ﴿يكور الليل

على النهار ويكور النهار على الليل ﴾ بيان لكيفية تصرفه تعالى فيهما بعد بيان خلقهما فإن حدوث الليل والنهار فى الأرض منوط بتحريك السموات أى يغشى كل واحد منهما الآخر كأنه يلفه عليه لف اللباس على اللابس أو يغيبه به كما يغيب الملفوف باللفافة أو يجعله كارا عليه كرورا متتابعا تتابع أكوار العمامة وصيغة المضارع للدلالة على التجدد ﴿ وسخر الشمس والقمر ﴾ جعلهما منقادين لأمره تعالى وقوله تعالى ﴿ كل يجرى لأجل مسمى ﴾ بيان لكيفية تسخيرهما أى كل منهما يجرى لمنتهى دورته أومنقطع حركته وقد مر تفصيله غير مرة ﴿ ألا هو العزيز ﴾ الغالب القادر على كل شىء من الأشياء التى من جملتها عقاب العصاة ﴿ الغفار ﴾ المبالغ فى المغفرة ولذلك لا يعاجل بالعقوبة وسلب ما فى هذه الصنائع البديعة من آثار الرحمة وتصدير الجملة بحرف التنبيه لإظهار كال الاعتناء بمضمونها ﴿ خلقكم من نفس واحدة ﴾ بيان لبعض آخر من أفعاله الدالة على ما ذكر وترك عطفه على خلق السموات للإيذان باستقلاله فى الدلالة ولتعلقه بالعالم السفلى والبداءة بخلق الانسان لعراقته فى الدلالة لما فيه من تعاجيب آثار القدرة وأسرار الحكمة وأصالته فى المعرفة فإن الإنسان بحال نفسه أعرف والمراد بالنفس نفس آدم عليه السلام وقوله :

﴿ ثم جعل منها زوجها ﴾ عطف على محذوف هو صفة لنفس أى من نفس خلقها ثم جعل منها زوجها أو على معنى واحدة أى من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها فشفعها أو على خلقكم لتفاوت ما بينهما فى الدلالة فإنهما وإن كانتا آيتين دالتين على ما ذكر لكن الأولى لاستمرارها صارت معتادة وأما الثانية فحيث لم تكن معتادة خارجة عن قياس الأولى كما يشعر به التعبير عنها بالجعل دون الخلق كانت أدخل فى كونها آية وأجلب للتعجب من السامع فعطفت على الأولى بثم دلالة على مباينتها لها فضلا ومزية وتراخيها عنها فيما يرجع الى زيادة كونها آية فهو من التراخى فى الحال والمنزلة وقيل أخرج ذرية آدم من ظهره كالذر ثم خلق منه حواء ففيه ثلاث آيات مترتبة خلق آدم عليه السلام بلا أب وأم وخلق حواء من قصيراه ثم تشعيب الخلق الفائت للحصر منهما وقوله تعالى

﴿وأنزل لكم﴾ بيان لبعض آخر من أفعاله الدالة على ما ذكر أى قضى أوقسم لكم فإن قضاياه وقسمه توصف بالنزول من السماء حيث تكتب فى اللوح المحفوظ أو أحدث لكم بأسباب نازلة من السماء كالأمطار وأشعة الكواكب ﴿من الأنعام ثمانية أزواج﴾ ذكرا وأنثى هى الإبل والبقر والضأن والمعز وقيل خلقها فى الجنة ثم أنزلها وتقديم الظرفين على المفعول الصريح لما مر مرارا من الاعتناء بما قدم والتشويق الى ما أخر فإن كون الإنزال لمنافعهم وكونه من الجهة العالية من الأمور المهمة المشوقة إلى ما أنزل لامحالة وقوله تعالى﴿يخلقكم فى بطون أمهاتكم﴾ استئناف مسوق لبيان كيفية خلقهم وأطواره المختلفة الدالة على القدرة الباهرة وصيغة المضارع للدلالة على التدرج والتجدد وقوله تعالى ﴿خلقا من بعد خلق﴾ مصدر مؤكد أى يخلكم فيها خلقا كائنا من بعد خلق أى خلقا مدرجا حيوانا سويا من بعد عظام مكسوة لحما من بعد عظام عارية من بعد مضغ مخلقة من بعد مضغ غير مخلقة من بعد علقة من بعد نطفة ﴿فى ظلمات ثلاث﴾ متعلق بيخلقكم وهى ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة أوظلمة الصلب والبطن والرحم .

﴿ذلكم﴾ إشارة إليه تعالى باعتبار أفعاله المذكورة وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلته تعالى فى العظمة والكبرياء ومحله الرفع على الابتداء أى ذلكم العظيم الشأن الذى عددت أفعاله ﴿الله﴾ وقوله تعالى ﴿ربكم﴾ خبر آخر أى مربيكم فيما ذكر من الأطوار وفيما بعدها وما لكم المستحق لتخصيص العبادة به ﴿له الملك﴾ على الإطلاق فى الدنيا والآخرة ليس لغيره شركة فى ذلك بوجه من الوجوه والجملة خبر آخر وكذا قوله تعالى ﴿لا إله إلا هو﴾ والفاء فى قوله تعالى ﴿فأنى تصرفون﴾ لترتيب ما بعدها على ما ذكر من شئونه تعالى أى فكيف تصرفون عن عبادته تعالى مع وفور موجباتها ودواعيها وانتفاء الصارف عنها بالكلية إلى عبادة غيره من غير داع إليها مع كثرة الصوارف عنها ﴿إن تكفروا﴾ به تعالى بعد مشاهدة ما ذكر من فنون نعمائه ومعرفة شئونه العظيمة الموجبة للإيمان والشكر .

﴿ فإن الله غنى عنكم ﴾ أى فاعلموا أنه تعالى غنى عن إيمانكم وشكركم غير متأثر من انتفائهما ﴿ ولا يرضى لعباده الكفر ﴾ أى عدم رضاه بكفر عباده لأجل منفعتهم ودفع مضرتهم رحمة عليهم لا لتضرره تعالى به ﴿ وإن تشكروا يرضه لكم ﴾ أى يرض الشكر لأجلكم ومنفعتكم لأنه سبب لفوزكم بسعادة الدارين لا لانتفاعه تعالى به وإنما قيل لعباده لا لكم لتعميم الحكم وتعليله بكونهم عباده تعالى وقرىء بإسكان الهاء ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ بيان لعدم سراية كفر الكافر إلى غيره أصلا أى لا تحمل نفس حاملة للوزر حمل نفس أخرى ﴿ ثم إلى ربكم مرجعكم ﴾ بالبعث بعد الموت ﴿ فينبئكم ﴾ عند ذلك ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ أى كنتم تعملونه فى الدنيا من أعمال الكفر والإيمان أى يجازيكم بذلك ثوابا وعقابا ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ أى بمضمرات القلوب فكيف بالأعمال الظاهرة وهو تعليل للتنبيه ﴿ وإذا مس الإنسان ضر ﴾ من مرض وغيره ﴿ دعا ربه منيبا إليه ﴾ راجعا إليه مما كان يدعوه فى حالة الرخاء لعلمه بأنه بمعزل من القدرة على كشف ضره وهذا وصف للجنس بحال بعض أفراده كقوله تعالى (إن الإنسان لظلوم كفار) ﴿ ثم إذا خوله نعمة منه ﴾ أى أعطاه نعمة عظيمة من لدنه[1] تعالى من التخول وهو التعهد أى جعله خائل مال من قولهم فلان خائل مال إذا كان متعهدا له حسن القيام به أو من الخول وهو الافتخار أى جعله يخول أى يختال ويفتخر ﴿ نسى ما كان يدعو إليه ﴾ أى نسى الضر الذى كان يدعو الله تعالى فيما سبق إلى كشفه ﴿ من قبل ﴾ أى من قبل التخويل أو نسى ربه الذى كان يدعوه ويتضرع إليه إما بناء على أن ما بمعنى من كما فى قوله تعالى (وما خلق الذكر والأنثى) وقوله تعالى (ولا أنتم عابدون ما أعبد) وإما إيذانا بأن نسيانه بلغ إلى حيث لا يعرف مدعوه ما هو فضلا عن أن يعرفه من هو كما مر فى قوله تعالى (عما أرضعت) ﴿ وجعل لله أندادا ﴾ شركاء فى العبادة ﴿ ليضل ﴾ الناس بذلك ﴿ عن سبيله ﴾ الذى هو التوحيد

---

(١) فى الأصل : من جنابه .

وقرىء ليضل بفتح الياء أى يزداد ضلالا أو يثبت عليه وإلا فأصل الضلال غير متأخر عن الجعل المذكور واللام لام العاقبة كما فى قوله تعالى (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا) خلا أن هذا أقرب إلى الحقيقة لأن الجاعل ههنا قاصد بجعله المذكور حقيقة الإضلال والضلال وإن لم يعرف لجهله أنهما إضلال وضلال وأما آل فرعون فهم غير قاصدين بالتقاطهم العداوة أصلا ﴿ قل ﴾ تهديدا لذلك الضال المضل وبيانا لحاله ومآله ﴿ تمتع بكفرك قليلا ﴾ أى تمتعا قليلا أو زمانا قليلا ﴿ إنك من أصحاب النار ﴾ أى ملازميها والمعذبين فيها على الدوام وهو تعليل لقلة التمتع وفيه من الإقناط من النجاة ما لا يخفى كأنه قيل إذ قد أبيت قبول ما أمرت به من الإيمان والطاعة فمن حقك أن تؤمر بتركه لتذوق عقوبته.

﴿ أمن هو قانت آناء الليل ﴾ الخ من تمام الكلام المأمور به وأم إما متصلة قد حذف معادلها ثقة بدلالة مساق الكلام عليه كأنه قيل له تأكيدا للتهديد وتهكما به أأنت احسن حالا ومآلا أمن هو قائم بمواجب الطاعات ودائم على أداء وظائف العبادات فى ساعات الليل حالتى السراء والضراء لا عند مساس الضر فقط كدأبك حال كونه ﴿ ساجدا وقائما ﴾ أى جامعا بين الوصفين المحمودين وتقديم السجود على القيام لكونه أدخل فى معنى العبادة وقرىء كلاهما بالرفع على أنه خبر بعد خبر ﴿ يحذر الآخرة ﴾ حال أخرى على الترادف أو التداخل أو استئناف وقع جوابا عما نشأ من حكاية حاله من القنوت والسجود والقيام كأنه قيل ما باله يفعل ذلك فقيل يحذر عذاب الآخرة ﴿ ويرجو رحمة ربه ﴾ فينجو بذلك مما يحذره ويفوز بما يرجوه كما ينبىء عنه التعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التبليغ إلى الكمال مع الإضافة إلى ضمير الراجى لا أنه يحذر ضر الدنيا ويرجو خيرها فقط وأما منقطعة وما فيها من الإضراب للانتقال من التهديد إلى التبكيت بتكليف الجواب الملجىء إلى الاعتراف بما بينهما من التباين البين كأنه قيل بل أمن هو قانت الخ أفضل أمن هو كافر مثلك كما هو المعنى على قراءة التخفيف ﴿ قل ﴾ بيانا للحق وتنبيها على شرف العلم والعمل ﴿ هل يستوى الذين يعلمون ﴾ حقائق الأحوال فيعملون بموجب علمهم كالقانت المذكور

﴿ والذين لا يعلمون ﴾ أى ما ذكر أو شيئا فيعملون بمقتضى جهلهم وضلالهم كدأبك والاستفهام للتنبيه على أن كون الأولين فى أعلى معارج الخير وكون الآخرين فى أقصى مدارج الشر من الظهور بحيث لا يكاد يخفى على أحد من منصف ومكابر وقيل هو وارد على سبيل التشبيه أى كما لا يستوى العالمون والجاهلون لا يستوى القانتون والعاصون وقوله تعالى ﴿ إنما يتذكر أولو الألباب ﴾ كلام مستقل غير داخل فى الكلام المأمور به وارد من جهته تعالى بعد الأمر بما ذكر من القوارع الزاجرة عن الكفر والمعاصى لبيان عدم تأثيرها فى قلوب الكفرة لاختلال عقولهم كما فى قول من قال :

عوجوا لنعمى دمنة الدار ماذا تحيون من نؤى وأحجار

أى إنما يتعظ بهذه البيانات الواضحه أصحاب العقول الخالصة عن شوائب الخلل وهؤلاء بمعزل من ذلك وقرىء إنما يذكر بالإدغام ﴿ قل ياعبادى الذين آمنوا اتقوا ربكم ﴾ أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتذكير المؤمنين وحملهم على التقوى والطاعة إثر تخصيص التذكر بأولى الألباب إيذانا بأنهم هم كما سيصرح به أى قل لهم قولى هذا بعينهو فيه تشريف لهم بإضافتهم إلى ضمير الجلالة ومزيد اعتناء بشأن المأمور به فإن نقل عين أمر الله أدخل فى إيجاب الامتثال به وقوله تعالى ﴿ للذين أحسنوا ﴾ تعليل للأمر أو لوجوب الامتثال به وإيراد الإحسان فى حيز الصلة دون التقوى للإيذان بأنه من باب الإحسان وأنهما متلازمان وكذا الصبر كما مر فى قوله تعالى : (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) وفى قوله تعالى (إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين) وقوله تعالى : ﴿ فى هذه الدنيا ﴾ متعلق بأحسنوا أى عملوا الأعمال الحسنة فى هذه الدنيا على وجه الإخلاص وهو الذى عبر عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سئل عن الإحسان بقوله عليه السلام أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ﴿ حسنة ﴾ أى حسنة عظيمة لا يكتنه كنهها وهى الجنة وقيل هو متعلق بحسنة على أنه بيان لمكانها أو حال من ضميرها فى الظرف فالمراد بها حينئذ الصحة والعافية ﴿ وأرض الله واسعة ﴾

فمن تعسر عليه التوفر على التقوى والإحسان فى وطنه فليهاجر إلى حيث يتمكن فيه من ذلك كما هو سنة الأنبياء والصالحين فإنه لاعذر له فى التفريط أصلا وقوله تعالى ﴿إنما يوفى الصابرون﴾ الخ ترغيب فى التقوى المأمور بها وإيثار الصابرين على المتقين للإيذان بأنهم حائزون لفضيلة الصبر كحيازتهم لفضيلة الإحسان لما أشير إليه من استلزام التقوى لهما مع ما فيه من زيادة حث على المصابرة والمجاهدة فى تحمل مشاق المهاجرة ومتاعبها أى إنما يوفى الذين صبروا على دينهم وحافظوا على حدوده ولم يفرطوا فى مراعاة حقوقه لما اعتراهم فى ذلك من فنون الآلام والبلايا التى من جملتها مهاجرة الأهل ومفارقة الأوطان ﴿أجرهم﴾ بمقابلة ما كابدوا من الصبر ﴿بغير حساب﴾ أى بحيث لا يحصى ولا يحصر عن ابن عباس رضى الله عنهما لا يهتدى إليه حساب الحساب ولا يعرف وفى الحديث أنه تنصب الموازين يوم القيامة لأهل الصلاة والصدقة والحج فيؤتون بها أجورهم ولا تنصب لأهل البلاء بل يصب عليهم الأجر صبا حتى يتمنى أهل العافية فى الدنيا أن أجسادهم تقرض بالمقاريض مما يذهب به أهل البلاء من الفضل .

﴿قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين﴾ أى من كل ما ينافيه من الشرك والرياء وغير ذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ببيان ما أمر به نفسه من الإخلاص فى عبادة الله الذى هو عبارة عما أمر به المؤمنون من التقوى مبالغة فى حثهم على الإتيان بما كلفوه وتمهيدا لما يعقبه مما خوطب به المشركون ﴿وأمرت لأن أكون أول المسلمين﴾ أى وأمرت بذلك لأجل أن أكون مقدمهم فى الدنيا والآخرة لأن إحراز قصب السبق فى الدين بالإخلاص فيه والعطف لمغايرة الثانى الأول بتقييده بالعلة والإشعار بأن العبادة المذكورة كما تقتضى الأمر بها لذاتها تقتضيه لما يلزمها من السبق فى الدين ويجوز أن تجعل اللام مزيدة [1] كما فى أردت لأن أقوم بدليل قوله تعالى (أمرت أن أكون أول

(١) فى ١١ : زائدة .

من أسلم) فالمعنى وأمرت أن أكون أول من أسلم من أهل زمانى أو من قومى أو أكون أول من دعا غيره إلى ما دعا إليه نفسه ﴿ قل إنى أخاف إن عصيت ربى ﴾ بترك الإخلاص والميل إلى ما أنتم عليه من الشرك ﴿عذاب يوم عظيم﴾ هو يوم القيامة وصف بالعظمة لعظمة ما فيه من الدواهى والأهوال ﴿ قل الله أعبد ﴾ لا غيره لا استقلالا ولا اشتراكا ﴿ مخلصا له دينى ﴾ من كل شوب أمر عليه الصلاة والسلام أولا ببيان كونه مأمورا بعبادة الله تعالى وخلاص الدين له ثم بالإخبار بخوفه من العذاب على تقدير العصيان ثم بالإخبار بامتثاله بالأمر على أبلغ وجه وآكده إظهارا لتصلبه فى الدين وحسما لأطماعهم الفارغة وتمهيدا لتهديدهم بقوله تعالى ﴿ فاعبدوا ما شئتم ﴾ أن تعبدوه ﴿ من دونه ﴾ تعالى وفيه من الدلالة على شدة الغضب عليهم ما لا يخفى كأنهم لما لم ينتهوا عما نهوا عنه أمروا به كى يحل بهم العقاب .

﴿ قل إن الخاسرين ﴾ أى الكاملين فى الخسران الذى هو عبارة عن إضاعة ما يهمه وإتلاف ما لا بد منه ﴿ الذين خسروا أنفسهم وأهليهم ﴾ باختيارهم الكفر لها أى أضاعوهما وأتلفوهما ﴿ يوم القيامة ﴾ حين يدخلون النار حيث عرضوهما للعذاب السرمدى وأوقعوهما فى هلكة لا هلكة وراءها وقيل خسروا أهليهم لأنهم إن كانوا من أهل النار فقد خسروهم كما خسروا أنفسهم وإن كانوا من أهل الجنة فقد ذهبوا عنهم ذهابا لا إياب بعده وفيه أن المحذور ذهاب ما لو آب[1] لانتفع به الخاسر وذلك غير متصور فى الشق الأخير وقيل خسروهم لأنهم لم يدخلوا مدخل الذين لهم أهل فى الجنة وخسروا أهليهم الذين كانوا يتمتعون بهم لو آمنوا وأياً ما كان فليس المراد مجرد تعريف الكاملين فى الخسران بما ذكر بل بيان أنهم هم إما بجعل الموصول عبارة عنهم أو عما هم مندرجون فيه اندراجا أوليا وما فى قوله تعالى ﴿ ألا ذلك هو الخسران المبين ﴾ من استئناف الجملة وتصديرها بحرف التنبيه والإشارة بذلك إلى بعد منزلة

(١) فى «١» ما لو عاد

المشار إليه فى الشر وتوسيط ضمير الفصل وتعريف الخسران ووصفه بالمبين من الدلالة على كمال هوله وفظاعته وأنه لا خسران وراءه ما لا يخفى وقوله تعالى ﴿ لهم من فوقهم ظلل من النار ﴾ الخ نوع بيان لخسرانهم بعد تهويله بطريق الإبهام على أن لهم خبر لظلل ومن فوقهم متعلق بمحذوف قيل هو حال من ظلل والأظهر أنه حال من الضمير فى الظرف المقدم ومن النار صفه لظلل أى لهم كائنة من فوقهم ظلل كثيرة متراكبة بعضها فوق بعض كائنة من النار ﴿ ومن تحتهم ﴾ أيضا ﴿ ظلل ﴾ أى أطباق كثيرة بعضها تحت بعض ظلل لآخرين بل لهم أيضا عند ترديهم فى دركاتها .

﴿ ذلك ﴾ العذاب الفظيع هو الذى ﴿ يخوف الله به عباده ﴾ ويحذرهم إياه بآيات الوعيد ليجتنبوا ما يوقعهم فيه ﴿ يا عباد فاتقون ﴾ ولا تتعرضوا لما يوجب سخطى وهذه عظة من الله تعالى بالغة منطوية على غاية اللطف والرحمة وقرىء يا عبادى ﴿ والذين اجتنبوا الطاغوت ﴾ أى البالغ أقصى غاية الطغيان فعلوت منه بتقديم اللام على العين بنى للمبالغة فى المصدر كالرحموت والعظموت ثم وصف به للمبالغة فى النعت والمراد به هو الشيطان ﴿ أن يعبدوها ﴾ بدل الاشتمال منه فإن عبادة غير الله تعالى عبادة للشيطان إذ هو الآمر بها والمزين لها ﴿ وأنابوا إلى الله ﴾ وأقبلوا إليه معرضين عما سواه إقبالا كليا .

﴿ لهم البشرى ﴾ بالثواب على ألسنة الرسل أو الملائكة عند حضور الموت وحين يحشرون وبعد ذلك ﴿ فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴾ هم الموصوفون بالاجتناب والإنابة بأعيانهم لكن وضع موضع ضميرهم الظاهر تشريفا لهم بالإضافة ودلالة على أن مدار اتصافهم بالوصفين الجليلين كونهم نقادا فى الدين يميزون الحق من الباطل ويؤثرون الأفضل فالأفضل ﴿ أولئك ﴾ إشارة إليهم باعتبار اتصافهم بما ذكر من النعوت الجليلة وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو رتبتهم وبعد منزلتهم فى الفضل ومحله الرفع على الابتداء خبره ما بعده من الموصول أى أولئك المنعوتون بالمحاسن الجميلة ﴿ الذين هداهم الله ﴾ للدين الحق ﴿ وأولئك هم أولوا الألباب ﴾ أى هم أصحاب

العقول السليمة عن معارضة الوهم ومنازعة الهوى المستحقون للهداية لا غيرهم وفيه دلالة على أن الهداية تحصل بفعل الله تعالى وقبول النفس لها ﴿ أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من فى النار ﴾ بيان لأحوال أضداد المذكورين على طريقة الإجمال وتسجيل عليهم بحرمان الهداية وهم عبدة الطاغوت ومتبعوا خطواتها كما يلوح به التعبير عنهم بمن حق عليه كلمة العذاب فإن المراد بها قوله تعالى لإبليس (لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين) وقوله تعالى (لمن تبعك منهم لأملان جهنم منكم أجمعين) وأصل الكلام أمن حق عليه كلمة العذاب فأنت تنقذه على أنها شرطية دخل عليها الهمزة لإنكار مضمونها ثم الفاء لعطفها على جملة مستتبعة لها مقدرة بعد الهمزة ليتعلق الإنكار والنفى بمضمونيهما معا أى أأنت مالك امر الناس فمن حق عليه كلمة العذاب فأنت تنقذه ثم كررت الهمزة فى الجزاء لتأكيد الإنكار وتذكيره لما طال الكلام ثم وضع موضع الضمير من فى النار لمزيد تشديد الإنكار والاستبعاد والتنبيه على أن المحكوم عليه بالعذاب بمنزلة الواقع فى النار وأن اجتهاده عليه الصلاة والسلام فى دعائهم إلى الإيمان سعى فى إنقاذهم من النار ويجوز أن يكون الجزاء محذوفا وقوله تعالى أفأنت الخ جملة مستقلة مسوقة لتقرير مضمون الجملة السابقة وتعيين ما حذف منها وتشديد الإنكار بتنزيل من استحق العذاب منزلة من دخل النار وتصوير الاجتهاد فى دعائه إلى الإيمان بصورة الإنقاذ من النار كأنه قيل أولا أفمن حق عليه العذاب فأنت تخلصه منه ثم شدد النكير فقيل أفأنت تنقذ من فى النار وفيه تلويح بأنه تعالى هو الذى يقدر على الإنقاذ لاغيره وحيث كان المراد بمن فى النار الذين قيل فى حقهم (لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل) استدرك منهم بقوله تعالى:

﴿ لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف ﴾ وهم الذين خوطبوا بقوله تعالى ياعباد فاتقون ووصفوا بما عدد من الصفات الفاضلة وهم المخاطبون أيضاً فيما سبق بقوله تعالى (يا عبادى الذين آمنوا اتقوا ربكم) الآية وبين أن لهم درجات عالية فى جنات النعيم بمقابلة ما للكفرة من دركات سافلة فى الجحيم أى لهم علالى بعضها فوق بعض ﴿ مبنية ﴾ بناء المنازل المبنية المؤسسة على الأرض فى

الرصانة والإحكام ﴿ تجرى من تحتها ﴾ من تحت تلك الغرف ﴿ الأنهار ﴾ من غير تفاوت بين العلو والسفل ﴿ وعد الله ﴾ مصدر مؤكد لقوله تعالى لهم غرف الخ فإنه وعد وأى وعد ﴿ لا يخلف الله الميعاد ﴾ لاستحالته عليه سبحانه .

مثـــل الدنيا

﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ﴾ استئناف وارد إما لتمثيل الحياة الدنيا فى سرعة الزوال وقرب الاضمحلال بما ذكر من أحوال الزرع ترغيبا عن زخارفها وزينتها وتحذيرا من الاغترار بزهرتها كما فى نظائر قوله تعالى (إنما مثل الحياة الدنيا) الآية أو للاستشهاد على تحقق الموعود من الأنهار الجارية من تحت الغرف بما يشاهد من إنزال الماء من السماء وما يترتب عليه من آثار قدرته تعالى وأحكام حكمته ورحمته والمراد بالماء المطر وقيل كل ماء فى الأرض فهو من السماء ينزل منها إلى الصخرة ثم يقسمه الله تعالى بين البقاع ﴿ فسلكه ﴾ فأدخله ونظمه ﴿ ينابيع فى الأرض ﴾ أى عيونا ومجارى كالعروق فى الأجساد وقيل مياها نابعة فيها فإن الينبوع يطلق على المنبع والنابع فنصبها على الحال وعلى الأول بنزع الجار أى فى ينابيع ﴿ ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه ﴾ أصنافه من بر وشعير وغيرهما أو كيفياته من الألوان والطعوم وغيرهما وكلمة ثم للتراخى فى الرتبة أو الزمان وصيغة المضارع لاستحضار الصورة ﴿ ثم يهيج ﴾ أى يتم جفافه ويشرف على أن يثور من منابته ﴿ فتراه مصفرا ﴾ من بعد خضرته ونضرته وقرىء مصفارا ﴿ ثم يجعله حطاما ﴾ فتاتا متكسرة كأن لم يغن بالأمس ولكون هذه الحالة من الآثار القوية علقت بجعل الله تعالى كالإخراج ﴿ إن فى ذلك ﴾ إشارة إلى ما ذكر تفصيلا وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلته فى الغرابة والدلالة على ما قصد بيانه ﴿ لذكرى ﴾ لتذكيرا عظيما ﴿ لأولى الألباب ﴾ لأصحاب العقول الخالصة عن شوائب الخلل وتنبيها لهم على حقيقة الحال يتذكرون بذلك أن حال الحياة الدنيا فى سرعة التقضى والانصرام كما يشاهدونه من حال الحطام كل عام فلا يغترون ببهجتها ولا يفتتنون

بغتتها أو يجزمون بأن من قدر على إنزال الماء من السماء وإجرائه فى ينابيع الأرض قادر على إجراء الأنهار من تحت الغرف هذا وأما ما قيل إن فى ذلك لتذكيرا وتنبيها على أنه لابد من صانع حكيم وأنه كائن عن تقدير وتدبير لا عن تعطيل وإهمال فبمعزل من تفسير الآية الكريمة وإنما يليق ذلك بما لو ذكر ما ذكر من الآثار الجليلة والأفعال الجميلة من غير إسناد لها إلى مؤثر ما فحيث ذكرت مسندة إلى الله عز وجل تعين أن يكون متعلق التذكير والتنبيه شؤنه تعالى أو شئون آثاره حسبما بين لا وجوده تعالى وقوله تعالى :

﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام ﴾ الخ استئناف جار مجرى التعليل لما قبله من تخصيص الذكرى بأولى الألباب وشرح الصدر للإسلام عبارة عن تكميل الاستعداد له فإنه محل للقلب الذى هو منبع للروح التى تتعلق بها النفس القابلة للإسلام فانشراحه مستدع لاتساع القلب واستضاءته بنوره فإنه روى أنه عليه الصلاة والسلام قال: إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح فقيل فما علامة ذلك قال عليه الصلاة والسلام الإنابة إلى دار الخلود والتجافى عن دار الغرور والتأهب للموت قبل نزوله والكلام فى الهمزة والفاء كالذى مر فى قوله تعالى (أفمن حق عليه كلمة العذاب) وخبر من محذوف لدلالة ما بعده عليه والتقدير أكل الناس سواء فمن شرح الله صدره أى خلقه متسع الصدر مستعدا للإسلام فبقى على الفطرة الأصلية ولم يتغير بالعوارض المكتسبة القادحة فيها ﴿ فهو ﴾ بموجب ذلك مستقر ﴿ على نور ﴾ عظيم ﴿ من ربه ﴾ وهو اللطف الإلهى الفائض عليه عند مشاهدة الآيات التكوينية والتنزيلية والتوفيق للاهتداء بها إلى الحق كمن قسا قلبه وحرج صدره بسبب تبديل فطرة الله بسوء اختياره واستولى عليه ظلمات الغى والضلالة فأعرض عن تلك الآيات بالكلية حتى لا يتذكر بها ولا يغتنمها ﴿ فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله ﴾ أى من أجل ذكره الذى حقه أن تنشرح له الصدور وتطمئن به القلوب أى إذا ذكر الله تعالى عندهم أو آياته اشمأزوا من أجله وازدادت قلوبهم قساوة كقوله تعالى فزادتهم رجسا وقرىء عن ذكر الله أى عن قبوله ﴿ أولئك ﴾ البعداء

الموصوفون بما ذكر من قساوة القلوب ﴿ فى ضلال ﴾ بعد عن الحق ﴿ مبين ﴾ ظاهر كونه ضلالا لكل أحد قيل نزلت الآية فى حمزة وعلى رضى الله عنهما وأبى لهب وولده وقيل فى عمار بن ياسر رضى الله عنه وأبى جهل وذويه .

﴿ الله نزل أحسن الحديث ﴾ هو القرآن الكريم روى أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ملوا ملة فقالوا له عليه الصلاة والسلام حدثنا حديثا وعن ابن مسعود وابن عباس رضى الله عنهم قالوا لو حدثتنا فنزلت والمعنى أن فيه مندوحة عن سائر الأحاديث وفى إيقاع الاسم الجليل مبتدأ و بناء نزل عليه من تفخيم أحسن الحديث ورفع محله والاستشهاد على حسنه وتأكيد استناده إليه تعالى وأنه من عنده لا يمكن صدوره عن غيره والتنبيه على أنه وحى معجز ما لا يخفى ﴿ كتابا ﴾ بدل من أحسن الحديث أو حال منه سواء اكتسب من المضاف إليه تعريفا أولا فإن مساغ مجىء الحال من النكرة المضافة اتفاقى ووقوعه حالا مع كونه اسما لا صفة إما لاتصافه بقوله تعالى ﴿ متشابها ﴾ أو لكونه فى قوة مكتوبا ومعنى كونه متشابها تشابه معانيه فى الصحة والأحكام والابتناء على الحق والصدق واستتباع منافع الخلق فى المعاد والمعاش وتناسب ألفاظه فى الفصاحة وتجاوب نظمه فى الإعجاز ﴿ مثانى ﴾ صفة أخرى لكتابا أو حال أخرى منه وهو جمع مثنى بمعنى مردود ومكرر لما ثنى من قصصه وأنبائه وأحكامه وأوامره ونواهيه ووعده ووعيده ومواعظه وقيل لأنه يثنى فى التلاوة وقيل هو جمع مثنى مفعل من التثنية بمعنى التكرير والإعادة كما فى قوله تعالى (فارجع البصر كرتين) أى كرة بعد كرة ووقوعه صفة لكتابا باعتبار تفاصيله كما يقال القرآن سور وآيات ويجوز أن ينتصب على التمييز من متشابها كما يقال رأيت رجلا حسنا شمائله أى شمائله والمعنى متشابهة مثانيه ﴿ تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ﴾ قيل صفة لكتابا أو حال منه لتخصصه بالصفة وإلا ظهر أنه استئناف مسوق لبيان آثاره الظاهرة فى سامعيه بعد بيان أوصافه فى نفسه ولتقرير كونه أحسن الحديث والاقشعرار التقبض يقال اقشعر الجلد إذا تقبض

تقبضا شديداً وتركيبه من القشع وهو الأديم اليابس قد ضم إليه الراء ليكون رباعيا ودالا على معنى زائد يقال اقشعر جلده وقف شعره إذا عرض له خوف شديد من منكر هائل دهمه بغتة والمراد إما بيان إفراط خشيتهم بطريق التمثيل والتصوير أو بيان حصول تلك الحالة وعروضها لهم بطريق التحقيق والمعنى أنهم إذا سمعوا القرآن وقوارع آيات وعيده أصابتهم هيبة وخشية تقشعر منها جلودهم وإذا ذكروا رحمة الله تعالى تبدلت خشيتهم رجاء ورهبتهم رغبة وذلك قوله تعالى ﴿ ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾ أى ساكنة مطمئنة إلى ذكر رحمته تعالى وإنما لم يصرح بها إيذانا بأنها أول ما يخطر بالبال عند ذكره تعالى ﴿ ذلك ﴾ أى الكتاب الذى شرح أحواله ﴿ هدى الله يهدى به من يشاء ﴾ أن يهديه بصرف مقدوره إلى الاهتداء بتأمله فيما فى تضاعيفه من شواهد الحقية [1] ودلائل كونه من عند الله تعالى ﴿ ومن يضلل الله ﴾ أى يخلق فيه الضلالة بصرف قدرته إلى مباديها وإعراضه عما يرشده إلى الحق بالكلية وعدم تأثره بوعيده ووعده أصلا أو ومن يخذل ﴿ فماله من هاد ﴾ يخلصه من ورطة الضلال وقيل ذلك الذى ذكر من الخشية والرجاء أثر هداه تعالى يهدى بذلك الأثر من يشاء من عباده ومن يضلل أى ومن لم يؤثر فيه لطفه لقسوة قلبه وإصراره على فجوره فماله من هاد من مؤثر فيه بشىء قط ﴿ أفمن يتقى بوجهه ﴾ الخ استئناف جار مجرى التعليق لما قبله من تباين حالى المهتدى والضال والكلام فى الهمزة والفاء وحذف الخبر كالذى مر فى نظيريه والتقدير أكل الناس سواء فمن شأنه أنه يقى نفسه بوجهه الذى هو أشرف أعضائه ﴿ سوء العذاب ﴾ أى العذاب السىء الشديد ﴿ يوم القيامة ﴾ لكون يده التى بها كان يتقى المكاره والمخاوف مغلولة إلى عنقه كمن هو آمن لا يعتريه مكروه ولا يحتاج إلى الاتقاء بوجه من الوجوه وقيل نزلت فى أبى جهل .

﴿ وقيل للظالمين ﴾ عطف على يتقى أى ويقال لهم من جهة خزنة النار وصيغة الماضى للدلالة على التحقق والتقرر وقيل هو حال من ضمير يتقى

---

(١) فى ١١ : من شواهد الحق .

بإضمار قد ووضع المظهر فى مقام المضمر للتسجيل عليهم بالظلم والإشعار بعلة الأمر فى قوله تعالى ﴿ ذوقوا ما كنتم تكسبون ﴾ أى وبال ما كنتم تكسبونه فى الدنيا على الدوام من الكفر والمعاصى ﴿ كذب الذين من قبلهم ﴾ استئناف مسوق لبيان ما أصاب بعض الكفرة من العذاب الدنيوى إثر بيان ما يصيب الكل من العذاب الأخروى أى كذب الذين من قبلهم من الأمم السالفة ﴿ فأتاهم العذاب ﴾ المقدر لكل أمة منهم ﴿ من حيث لا يشعرون ﴾ من الجهة التى لا يحتسبون ولا يخطر ببالهم إتيان الشر منها ﴿ فأذاقهم الله الخزى ﴾ أى الذل والصغار ﴿ فى الحيوة الدنيا ﴾ كالمسخ والخسف والقتل والسبى والإجلاء ونحو ذلك من فنون النكال ﴿ ولعذاب الآخرة ﴾ المعد لهم ﴿ أكبر ﴾ لشدته وسرمديته ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ أى لو كان من شأنهم أن يعلموا شيئا لعلموا ذلك واعتبروا به ﴿ ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل ﴾ يحتاج إليه الناظر فى أمور دينه ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ كى يتذكروا به ويتعظوا ﴿ قرآنا عربيا ﴾ حال مؤكدة من هذا على أن مدار التأكيد هو الوصف كقولك جاءنى زيد رجلا صالحا أو مدح له ﴿ غير ذى عوج ﴾ لا اختلاف فيه بوجه من الوجوه فهو أبلغ من المستقيم وأخص بالمعانى وقيل المراد بالعوج الشك ﴿ لعلهم يتقون ﴾ علة أخرى مترتبة على الأولى ﴿ ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ﴾ الإيراد لمثل من الأمثال القرآنية بعد بيان أن الحكمة فى ضربها هو التذكر والاتعاظ بها وتحصيل التقوى والمراد بضرب المثل ههنا تطبيق حالة عجيبة بأخرى مثلها وجعلها مثلها كما مر فى سورة يس ومثلا مفعول ثان لضرب ورجلا مفعوله الأول أخر عن الثانى للتشويق إليه وليتصل به ما هو من تتمته التى هى العمدة فى التمثيل وفيه ليس بصلة لشركاء كما قيل بل هو خبر له وبيان أنه فى الأصل كذلك مما لا حاجة إليه والجملة فى حيز النصب على أنه وصف لرجلا أو الوصف هو الجار والمجرور وشركاء مرتفع به على الفاعلية لاعتماده على الموصوف فالمعنى جعل الله تعالى مثلا للمشرك[1] حسبما يقود إليه

---

(١) فى ١١ مثلا المشرك .

مذهبه من ادعاء كل من معبوديه عبوديته عبدا يتشارك فيه جماعة يتجاذبونه ويتعاورونه فى مهماتهم المتباينة فى تحيره وتوزع قلبه ﴿ ورجلا ﴾ أى وجعل للموحد مثلا رجلا ﴿ سلما ﴾ أى خالصا ﴿ لرجل ﴾ فرد ليس لغيره عليه سبيل أصلا وقرىء سلما بفتح السين وكسرها مع سكون اللام والكل مصادر من سلم له كذا أى خلص نعت بها مبالغة أو حذف منها ذو وقرىء سالما وسالم أى وهناك رجل سالم وتخصيص الرجل لأنه أفطن لما يجرى عليه من الضر والنفع ﴿ هل يستويان مثلا ﴾ إنكار واستبعاد لاستوائهما ونفى له على أبلغ وجه وآكده وإيذان بأن ذلك من الجلاء والظهور بحيث لا يقدر أحد أن يتفوه باستوائهما أو يتلعثم فى الحكم بتباينهما ضرورة أن أحدهما فى أعلى عليين والآخر فى أسفل سافلين وهو السر فى إبهام الفاضل والمفضول وانتصاب مثلا على التمييز أى هل يستوى حالاهما وصفتاهما والاقتصار فى التمييز على الواحد لبيان الجنس وقرىء مثلين كقوله تعالى (أكثر أموالا وأولادا) للإشعار باختلاف النوع أو لأن المراد هل يستويان فى الوصفين على أن الضمير للمثلين لأن التقدير مثل رجل فيه الخ ومثل رجل الخ وقوله تعالى ﴿ الحمد لله ﴾ تقرير لما قبله من نفى الاستواء بطريق الاعتراض وتنبيه للموحدين على أن ما لهم من المزية بتوفيق الله تعالى وأنها نعمة جليلة موجبة عليهم أن يداوموا على حمده وعبادته أو على أن بيانه تعالى بضرب المثل أن لهم المثل الأعلى وللمشركين مثل السوء صنع جميل ولطف تام منه عز وجل مستوجب لحمده وعبادته وقوله تعالى :

﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ إضراب وانتقال من بيان عدم الاستواء على الوجه المذكور إلى بيان أن أكثر الناس وهم المشركون لا يعلمون ذلك مع كمال ظهوره فيبقون فى ورطة الشرك والضلال وقوله تعالى ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ تمهيد لما يعقبه من الاختصام يوم القيامة وقرىء مائت ومائتون وقيل كانوا يتربصون برسول الله صلى الله عليه وسلم موته أى إنكم جميعا بصدد الموت ﴿ ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم ﴾ أى مالك أموركم

﴿ تختصمون ﴾ فتحتج أنت عليهم بأنك بلغتهم ما أرسلت به من الأحكام والمواعظ التى من جملتها ما فى تضاعيف هذه الآيات واجتهدت فى الدعوة إلى الحق حق الاجتهاد وهم قد لجوا فى المكابرة والعناد وقيل المراد به الاختصام العام الجارى فى الدنيا بين الأنام والأول هو الأظهر الأنسب بقوله تعالى : ﴿ فمن أظلم ممن كذب على الله ﴾ فإنه إلى آخره مسوق لبيان حال كل من طرفى الاختصام الجارى فى شأن الكفر والإيمان لا غير أى أظلم من كل ظالم من افترى على الله سبحانه وتعالى بأن أضاف إليه الشريك والولد ﴿ وكذب بالصدق ﴾ أى بالأمر الذى هو عين الحق ونفس الصدق وهو ما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم ﴿ إذ جاءه ﴾ أى فى أول مجيئه من غير تدبر فيه ولا تأمل ﴿ أليس فى جهنم مثوى للكافرين ﴾ أى لهؤلاء الذين افتروا على الله سبحانه وسارعوا إلى التكذيب بالصدق من أول الأمر والجمع باعتبار معنى من كما أن الإفراد فى الضمائر السابقة باعتبار لفظها أو لجنس الكفرة وهم داخلون فى الحكم أوليا .

﴿ والذى جاء بالصدق وصدق به ﴾ الموصول عبارة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن تبعه كما أن المراد فى قوله تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون) هو عليه الصلاة والسلام وقومه وقيل عن الجنس المتناول للرسل والمؤمنين بهم ويؤيده قراءة ابن مسعود رضى الله عنه (والذين جاءوا بالصدق وصدقوا به) وقيل هو صفة لموصوف محذوف هو الفوج أو الفريق ﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بما ذكر من المجىء بالصدق والتصديق به ﴿ هم المتقون ﴾ المنعوتون بالتقوى التى هى أجل الرغائب وقرىء وصَدَق به بالتخفيف أى صدق به الناس فأداه إليهم كما نزل عليه من غير تغيير وقيل وصار صادقا به أى بسببه لأن ما جاء به من القرآن معجزة دالة على صدقه عليه الصلاة والسلام وقرىء صدق به على البناء للمفعول ﴿ لهم ما يشاءون عند ربهم ﴾ بيان لما لهم فى الآخرة من حسن المآب بعد بيان ما لهم فى الدنيا من محاسن الأعمال أى لهم كل ما يشاءونه من جلب المنافع ودفع المضار فى الآخرة لا فى الجنة فقط لما

أن بعض ما يشاؤنه من تكفير السيئات والأمن من الفزع الأكبر وسائر أهوال القيامة إنما يقع قبل دخول الجنة ﴿ذلك﴾ الذى ذكر من حصول كل مايشاؤنه ﴿جزاء المحسنين﴾ أى الذين أحسنوا أعمالهم وقد مر تفسير الإحسان غير مرة وقوله تعالى ﴿ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا﴾ الخ متعلق بقوله تعالى لهم ما يشاؤن لكن لا باعتبار منطوقه ضرورة أن التفكير المذكور لا يتصور كونه غاية لثبوت ما يشاؤن لهم فى الآخرة كيف لا وهو بعض ما سيثبت لهم فيها بل باعتبار فحواه فإنه حيث لم يكن إخبارا بما ثبت لهم فيما مضى بل بما سيثبت لهم فيما سيأتى كان فى معنى الوعد به كما مر فى قوله تعالى وعد الله فإنه مصدر مؤكد لما قبله من قوله تعالى (لهم غرف من فوقها غرف) فإنه فى معنى وعدهم الله غرفا فانتصب به وعد الله كأنه قيل وعدهم الله جميع ما يشاءونه[1] من زوال المضار وحصول المسار ليكفر عنهم بموجب ذلك الوعد أسوأ الذى عملوا دفعا لمضارهم .

﴿ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون﴾ إعطاء لمنافعهم وإظهار الاسم الجليل فى موقع الإضمار لإبراز كمال الاعتناء بمضمون الكلام وإضافة الأسوأ والأحسن إلى ما بعدهما ليست من قبيل إضافة المفضل إلى المفضل عليه بل من إضافة الشىء إلى بعضه للقصد إلى التحقيق والتوضيح من غير اعتبار تفضيله عليه وإنما المعتبر فيهما مطلق الفضل والزيادة لا على المضاف إليه المعين بخصوصه كما فى قولهم الناقص والأشج أعدلا بنى مروان خلا أن الزيادة المعتبرة فيهما ليست بطريق الحقيقة بل هى فى الأول بالنظر إلى ما يليق بحالهم من استعظام سيئاتهم وإن قلت واستصغار حسناتهم وإن جلت والثانى بالنظر إلى لطف أكرم الأكرمين من استكثار الحسنة اليسيرة ومقابلتها بالمثوبات الكثيرة وحمل الزياد على الحقيقة وإن أمكن فى الأول بناء على أن تخصيص الأسوأ بالذكر لبيان تكفير مادونه بطريق الأولوية ضرورة استلزام تكفير

---

(1) فى ا : يشاءون .

الأسوأ لتكفير السيء لكن لما لم يكن ذلك فى الأحسن كان الأحسن نظامهما فى سلك واحد من الاعتبار والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل فى صلة الموصول الثانى دون الأول للإيذان باستمرارهم على الأعمال الصالحة بخلاف السيئة .

﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾ إنكار ونفى لعدم كفايته تعالى على أبلغ وجه وآكده كأن الكفاية من التحقق والظهور بحيث لا يقدر أحد على أن يتفوه بعدمها أو يتلعثم فى الجواب بوجودها والمراد بالعبد إما رسول الله صلى الله عليه وسلم أو الجنس المنتظم له عليه السلام انتظاما أوليا ويؤيده قراءة من قرأ عباده وفسر بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام وكذا قراءة من قرأ بكافى عباده على صيغة المغالبة إما من الكفاية لإفادة المبالغة فيها وإما من المكافأة بمعنى المجازاة وهذه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما قالت له قريش إنا نخاف أن تخبلك آلهتنا ويصيبك مضرتها لعيبك إياها وفى رواية قالوا لتكفن عن شتم آلهتنا أو ليصيبنك منهم خبل أو جنون كما قال قوم هود (إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء) وذلك قوله تعالى ﴿ ويخوفونك بالذين من دونه ﴾ أى الأوثان التى اتخذوها آلهة من دونه تعالى والجملة استئناف وقيل حال ﴿ ومن يضلل الله ﴾ حتى غفل عن كفايته تعالى وعصمته له عليه الصلاة والسلام وخوفه بما لا ينفع ولا يضر أصلا ﴿ فما له من هاد ﴾ يهديه إلى خير ما ﴿ ومن يهد الله فما له من مضل ﴾ يصرفه عن مقصده أو يصيبه بسوء يخل بسلوكه إذ لا راد لفعله ولا معارض لإرادته كما ينطق به قوله تعالى ﴿ أليس الله بعزيز ﴾ غالب لا يغالب منيع لا يمانع ولا ينازع ﴿ ذى انتقام ﴾ ينتقم من أعدائه لأوليائه وإظهار الاسم الجليل فى موقع الإضمار لتحقيق مضمون الكلام وتربية المهابة ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾ لوضوح الدليل وسنوح السبيل .

﴿ قل ﴾ تبكيتا لهم ﴿ أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره ﴾ أى بعد ما تحققتم أن خالق العالم العلوى والسفلى

هو الله عز وجل فأخبرونى أن آلهتكم إن أرادنى الله بضر هل يكشفن عنى ذلك الضر ﴿ أو أرادنى برحمة ﴾ أى أو أرادنى بنفع ﴿ هل هن ممسكات رحمته ﴾ فيمنعنها عنى وقرىء كاشفات ضره وممسكات رحمته بالتنوين فيهما ونصب ضره ورحمته وتعليق إرادة الضر والرحمة بنفسه عليه الصلاة والسلام للرد فى نحورهم حيث كانوا خوفوه معرة الأوثان ولما فيه من الايذان بامحاض النصيحة ﴿ قل حسبى الله ﴾ أى فى جميع أمورى من إصابة الخير ودفع الشر روى أنه عليه الصلاة والسلام لما سألهم سكتوا فنزل ذلك ﴿ عليه يتوكل المتوكلون ﴾ لا على غيره أصلا لعلمهم بأن كل ما سواه تحت ملكوته تعالى ﴿ قل ياقوم اعملوا على مكانتكم ﴾ على حالتكم التى أنتم عليها من العداوة التى تمكنتم فيها فإن المكانة تستعار من العين للمعنى كما تستعار هنا وحيث للزمان مع كونهما للمكان وقرىء على مكاناتكم ﴿ إنى عامل ﴾ أى على مكانتى لحذف للاختصار والمبالغة فى الوعيد والإشعار بأن حاله لا تزال تزداد قوة بنصر الله عز وجل وتأييده ولذلك توعدهم بكونه منصورا عليهم فى الدارين بقوله تعالى :

﴿ فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ﴾ فإن خزى أعدائه دليل غلبته عليه الصلاة والسلام وقد عذبهم الله تعالى وأخزاهم يوم بدر ﴿ ويحل عليهم عذاب مقيم ﴾ أى دائم هو عذاب النار ﴿ إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس ﴾ لأجلهم فإنه مناط مصالحهم فى المعاش والمعاد ﴿ بالحق ﴾ حال من فاعل أنزلنا أو من مفعوله ﴿ فمن اهتدى ﴾ بأن عمل بما فيه ﴿ فلنفسه ﴾ أى إنما نفع به نفسه ﴿ ومن ضل ﴾ بأن لم يعمل بموجبه ﴿ فإنما يضل عليها ﴾ لما أن وبال ضلاله مقصور عليها .

﴿ وما أنت عليهم بوكيل ﴾ لتجبرهم على الهدى وما وظيفتك إلا البلاغ وقد بلغت أى بلاغ ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها ﴾ أى يقبضها من الأبدان بأن يقطع تعلقها عنها وتصرفها فيها إما ظاهرا وباطنا كما عند الموت أو ظاهرا فقط كما عند النوم ﴿ فيمسك التى قضى عليها الموت ﴾ ولا يردها إلى البدن وقرىء قضى على البناء للمفعول ورفع الموت ﴿ ويرسل

الأخرى ﴾ أى النائمة إلى بدنها عند التيقظ ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ هو الوقت المضروب لموته وهو غاية لجنس الإرسال الواقع بعد الإمساك لا لفرد منه فان ذلك مما لا امتداد فيه ولا كمية وما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن فى ابن آدم نفسا وروحا بينهما مثل شعاع الشمس فالنفس هى التى بها العقل والتمييز والروح هى التى بها النفس والتحرك فتتوفيان عند الموت وتتوفى النفس وحدها عند النوم قريب مما ذكر ﴿ إن فى ذلك ﴾ أى فيما ذكر من التوفى على الوجهين والإمساك فى أحدهما والإرسال فى الآخر ﴿ لآيات ﴾ عجيبة دالة على كمال قدرته تعالى وحكمته وشمول رحمته ﴿ لقوم يتفكرون ﴾ فى كيفية تعلقها بالأبدان وتوفيها عنها تارة بالكلية كما عند الموت وإمساكها باقية لا تفنى بفنائها وما يعتريها من السعادة والشقاوة وأخرى عن ظواهرها فقط كما عند النوم وإرسالها حينا بعد حين إلى انقضاء آجالها ﴿ أم اتخذوا ﴾ أى بل اتخذ قريش ﴿ من دون الله ﴾ من دون إذنه تعالى ﴿ شفعاء ﴾ تشفع لهم عنده تعالى .

﴿ قل أولو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون ﴾ الهمزة لإنكار الواقع واستقباحه والتوبيخ عليه أى قل أتتخذونهم شفعاء ولو كانوا لا يملكون شيئا من الأشياء ولا يعقلونه فضلا عن أن يملكوا الشفاعة عند الله تعالى أو هى لإنكار الوقوع ونفيه على أن المراد بيان أن ما فعلوا ليس من اتخاذ الشفعاء فى شىء لأنه فرع كون الأوثان شفعاء وذلك أظهر المحالات فالمقدر حينئذ غير ما قدر أولا وعلى أى تقدير كان فالواو للعطف على شرطية قد حذفت لدلالة المذكورة عليها أى أيشفعون لو كانوا يملكون شيئا ولو كانوا لا يملكون الخ وجواب لو محذوف لدلالة المذكور عليه وقد مر تحقيقه مرارا ﴿ قل ﴾ بعد تبكيتهم وتجهيلهم بما ذكر تحقيقا للحق ﴿ لله الشفاعة جميعا ﴾ أى هو مالكها لا يستطيع أحد شفاعة ما إلا أن يكون المشفوع له مرتضى والشفيع مأذونا له وكلاهما مفقود ههنا وقوله تعالى ﴿ له ملك السموات والأرض ﴾ تقرير له وتأكيد أى له ملكهما وما فيهما من المخلوقات لا يملك أحد أن يتكلم فى أمر من أموره بدون إذنه ورضاه ﴿ ثم إليه ترجعون ﴾ يوم القيامة لا إلى أحد سواه

لا استقلالا ولا اشتراكا فيفعل يومئذ ما يريد ﴿ وإذا ذكر الله وحده ﴾ دون آلهتهم ﴿ اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ أى انقبضت ونفرت كما فى قوله تعالى (وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا) ﴿ وإذا ذكر الذين من دونه ﴾ فرادى أومع ذكر الله تعالى ﴿ إذا هم يستبشرون ﴾ لفرط افتتانهم بها ونسيانهم حق الله تعالى ولقد بولغ فى بيان حاليهم القبيحتين حيث بين الغاية فيهما فإن الاستبشار هو أن يمتلىء القلب سرورا حتى ينبسط له بشرة الوجه والاشمئزاز أن يمتلىء غيظا وغما ينقبض منه أديم الوجه والعامل فى إذا الأولى اشمأزت وفى الثانية ما هو العامل فى إذا المفاجأة تقديره وقت ذكر الذين من دونه فاجأوا وقت الاستبشار .

﴿ قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة ﴾ أى التجىء إليه تعالى بالدعاء لما تحيرت فى أمر الدعوة وضجرت من شدة شكيمتهم فى المكابرة والعناد فإنه القادر على الأشياء بجملتها والعالم بالأحوال برمتها ﴿ أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ أى حكما يسلمه كل مكابر معاند ويخضع له كل عات مارد وهو العذاب الدنيوى أو الأخروى وقوله تعالى ﴿ ولو أن للذين ظلموا ما فى الأرض جميعا ﴾ الخ كلام مستأنف مسوق لبيان آثار الحكم الذى استدعاه النبى صلى الله عليه وسلم وغاية شدته وفظاعته أى لو أن لهم جميع ما فى الدنيا من الأموال والذخائر ﴿ ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة ﴾ أى لجعلوا كل ذلك فدية لأنفسهم من العذاب الشديد وهيهات ولات حين مناص وهذا كما ترى وعيد شديد وإقناط كلى لهم من الخلاص ﴿ وبدا لهم من الله ما كانوا يحتسبون ﴾ أى ظهر لهم من فنون العقوبات ما لم يكن فى حسابهم وهذه غاية من الوعيد لا غاية وراءها ونظيره فى الوعد قوله تعالى (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين) ﴿ وبدا لهم سيئات ما كسبوا ﴾ سيئات أعمالهم أو كسبهم حين تعرض عليهم صحائفهم ﴿ وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ أي أحاط بهم جزاؤه ﴿ فإذا مس الإنسان ضر دعانا ﴾ إخبار عن الجنس بما يفعله غالب أفراده والفاء لترتيب ما بعدها من المناقضة والتعكيس على ما مر من

حالتيهم القبيحتين وما بينهما اعتراض مؤكد للإنكار عليهم أى أنهم يشمئزون عن ذكر الله تعالى وحده ويستبشرون بذكر الآلهة فإذا مسهم ضر دعوا من اشمأزوا عن ذكره دون من استبشروا بذكره ﴿ ثم إذا خولناه نعمة منا ﴾ أعطيناه إياها تفضلا فإن التخويل مختص به لا يطلق على ما أعطى جزاء ﴿قال إنما أوتيته على علم ﴾ أى على علم منى بوجوه كسبه أو بأنى سأعطاه لما لى من الاستحقاق أو على علم من الله تعالى بى وباستحقاقى والهاء لما أن جعلت موصولة وإلا فلنعمة والتذكير لما أن المراد شىء من النعمة ﴿ بل هى فتنة ﴾ أى محنة وابتلاء له أيشكر أم يكفر وهو رد لما قاله وتغيير السبك للمبالغة فيه والإيذان بأن ذلك ليس من باب الإيتاء المنبىء عن الكرامة وإنما هو أمر مباين له بالكلية وتأنيث الضمير باعتبار لفظ النعمة أو باعتبار الخبر وقرىء بالتذكير .

﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ أن الأمر كذلك وفيه دلالة على أن المراد بالإنسان هو الجنس ﴿قد قالها الذين من قبلهم ﴾ الهاء لقوله إنما أوتيته على علم لأنها كلمة أو جملة وقرىء بالتذكير والموصول عبارة عن قارون وقومه حيث قال إنما أوتيته على علم عندى وهم راضون به ﴿فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾ من متاع الدنيا ويجمعون منه ﴿ فأصابهم سيئات ما كسبوا ﴾ جزاء سيئات أعمالهم أو أجزية ما كسبوا وتسميتها سيئات لأنها فى مقابلة سيئاتهم وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴿ والذين ظلموا من هؤلاء ﴾ المشركين ومن للبيان أو للتبعيض أى أفرطوا فى الظلم والعتو ﴿ سيصيبهم سيئات ما كسبوا ﴾ من الكفر والمعاصى كما أصاب أولئك والسين للتأكيد وقد أصابهم أى إصابة حيث قحطوا سبع سنين وقتل صناديدهم يوم بدر ﴿ وما هم بمعجزين ﴾ أى فائتين ﴿ أو لم يعلموا ﴾ أى أقالوا ذلك ولم يعلموا أو أغفلوا ولم يعلموا ﴿ أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ﴾ أن يبسطه له ﴿ ويقدر ﴾ لمن يشاء أن يقدره له من غير أن يكون لأحد مدخل ما فى ذلك حيث حبس عنهم الرزق سبعا ثم بسطه لهم سبعا ﴿ إن فى ذلك ﴾ الذى ذكر ﴿ لآيات ﴾ دالة على أن الحوادث كافة من الله عز وجل ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ إذ هم المستدلون بها على مدلولاتها ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على

أنفسهم ﴾ أى أفرطوا فى الجناية عليها بالإسراف فى المعاصى وإضافة العباد تخصصه بالمؤمنين على ما عرف القرآن الكريم .

﴿ لا تقنطوا من رحمة الله ﴾ أى لا تيأسوا من مغفرته أولا ولا تفضله ثانيا ﴿ إن الله يغفر الذنوب جميعا ﴾ عفوا لمن يشاء ولو بعد حين بتعذيب فى الجملة بغيره حسبما يشاء وتقييده بالتوبة خلاف الظاهر كيف لا وقوله تعالى (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) ظاهر فى الإطلاق فيما عدا الشرك ومما يدل عليه التعليل بقوله تعالى ﴿ إنه هو الغفور الرحيم ﴾ على المبالغة وإفادة الحصر والوعد بالرحمة بعد المغفرة وتقديم ما يستدعى عموم المغفرة مما فى عبادى من الدلالة على الذلة والاختصاص المقتضيين للترحم وتخصيص ضرر الإسراف بأنفسهم والنهى عن القنوط مطلقا عن الرحمة فضلا عن المغفرة وإطلاقها وتعليله بأن الله يغفر الذنوب ووضع الاسم الجليل موضع الضمير لدلالته على أنه المستغنى والمنعم على الإطلاق والتأكيد بالجميع وماروى من أسباب النزول الدالة على ورود الآية فيمن تاب لا يقتضى اختصاص الحكم بهم ووجوب حمل المطلق على المقيد فى كلام واحد مثل أكرم الكاملين غير مسلم فكيف فيما هو بمنزلة كلام واحد ولا يخل بذلك الأمر بالتوبة والإخلاص فى قوله تعالى :

﴿ وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون ﴾ إذ ليس المدعى أن الآية تدل على حصول المغفرة لكل أحد من غير توبة وسبق تعذيب لتغنى عن الأمر بهما وتنافى الوعيد بالعذاب ﴿ واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم ﴾ أى القرآن أو المأمور به دون المنهى عنه أو العزائم دون الرخص أو الناسخ دون المنسوخ ولعله ما هو أنجى وأسلم كالإنابة والمواظبة على الطاعة ﴿ من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون ﴾ بمجيئه لتتداركوا وتتأهبوا له ﴿ أن تقول نفس ﴾ أى كراهة أن تقول والتنكير للتكثير كما فى قوله تعالى (علمت نفس ما أحضرت) فإنه مسلك ربما يسلك عند إرادة التكثير والتعميم وقد مر تحقيقه فى مطلع سورة الحجر ﴿ يا حسرتا ﴾ بالألف بدلا من

ياء الإضافة وقرىء ياحسرتاه بهاء السكت وقفا وقرىء ياحسرتاى بالجمع بين العوضين وقرىء ياحسرتى على الأصل أى احضرى فهذا أوان حضورك ﴿ على ما فرطت ﴾ أى على تفريطى وتقصيرى ﴿ فى جنب الله ﴾ أى جانبه وفى حقه وطاعته وعليه قول من قال :

أما تتقين الله فى جنب وامق   له كبد حرى وعين ترقرق

وهو كناية فيها مبالغة وقيل فى ذات الله على تقدير مضاف كالطاعة وقيل فى قربه من قوله تعالى (والصاحب بالجنب) وقرىء فى ذكر الله ﴿ وإن كنت لمن الساخرين ﴾ أى المستهزئين بدين الله تعالى وأهله ومحل الجملة النصب على الحال أى فرطت وأنا ساخر .

﴿ أو تقول لو أن الله هدانى ﴾ بالإرشاد إلى الحق ﴿ لكنت من المتقين ﴾ الشرك والمعاصى ﴿ أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرة ﴾ رجعة إلى الدنيا ﴿ فأكون من المحسنين ﴾ فى العقيدة والعمل وأو للدلالة على أنها لا تخلو عن هذه الأقوال تحسرا وتحيرا وتعللا بما لا طائل تحته وقوله تعالى ﴿ بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين ﴾ رد من الله تعالى عليه لما تضمنه قوله لو أن الله هدانى من معنى النفى وفصله عنه لما أن تقديمه يفرق القرائن وتأخير المردود يخل بالترتيب الوجودى لأنه يتحسر بالتفريط ثم يتعلل بفقد الهداية ثم يتمنى الرجعة وهو لا يمنع تأثير قدرة الله تعالى فى فعل العبد ولا ما فيه من إسناد الفعل إليه كما عرفت وتذكير الخطاب باعتبار المعنى وقرىء بالتأنيث ﴿ ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله ﴾ بأن وصفوه بما لا يليق بشأنه كاتخاذ الولد ﴿ وجوههم مسودة ﴾ بما ينالهم من الشدة أو بما يتخيل عليها من ظلمة الجهل والجملة حال قد اكتفى فيها بالضمير عن الواو على أن الرؤية بصرية أو مفعول ثان لها على أنها عرفانية ﴿ أليس فى جهنم مثوى ﴾ أى مقام ﴿ للمتكبرين ﴾ عن الإيمان والطاعة وهو تقرير لما قبله من رؤيتهم كذلك ﴿ وينجى الله الذين اتقوا ﴾ الشرك والمعاصى أى من جهنم وقرىء ينجى من الإنجاء ﴿ بمفازتهم ﴾ مصدر ميمى إما من فاز بالمطلوب أى ظفر به والباء متعلقة بمحذوف

هو حال من الموصول مفيدة لمقارنة تنجيتهم[1] من العذاب لنيل الثواب أى ينجيهم الله تعالى من مثوى المتكبرين ملتبسين بفوزهم بمطلوبهم الذى هو الجنة وقوله تعالى :

﴿ لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون ﴾ إما حال أخرى من الموصول أومن ضمير مفازتهم مفيدة لكون نجاتهم أو فوزهم بالجنة غير مسبوقة بمساس العذاب والحزن وإما من فاز منه أى نجا منه والباء للملابسة وقوله تعالى لا يمسهم إلى آخره تفسير وبيان لمفازتهم أى ينجيهم الله تعالى ملتبسين بنجاتهم الخاصة بهم أى بنفى السوء والحزن عنهم أو للسببية إما على حذف المضاف أى ينجيهم بسبب مفازتهم التى هى تقواهم كما يشعر به إيراده فى حيز الصلة وإما على إطلاق المفازة على سببها الذى هو التقوى وليس المراد نفى دوام المساس والحزن بل دوام نفيهما كما مر مرارا ﴿ الله خالق كل شىء ﴾ من خير وشر وإيمان وكفر لكن لا بالجبر بل بمباشرة الكاسب لأسبابها ﴿ وهو على كل شىء وكيل ﴾ يتولى التصرف فيه كيفما يشاء ﴿ له مقاليد السموات والأرض ﴾ لا يملك أمرها ولا يتمكن من التصرف فيها غيره وهو عبارة عن قدرته تعالى وحفظه لها وفيها مزيد دلالة على الاستقلال والاستبداد لأن الخزائن لا يدخلها ولا يتصرف فيها إلا من بيده مفاتيحها وهو جمع مقليد أو مقلاد من قلدته إذا ألزمته وقيل جمع إقليد معرب كليد على الشذوذ كالمذاكير وعن عثمان رضى الله عنه أنه سأل النبى صلى الله عليه وسلم عن المقاليد فقال عليه الصلاة والسلام تفسيرها لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله وبحمده وأستغفر الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم هو الأول والآخر والظاهر والباطن بيده الخير يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير والمعنى على هذا أن لله هذه الكلمات يوحد بها ويمجد وهى مفاتيح خير السموات والأرض من تكلم بها أصابه ﴿ والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون ﴾ متصل بما قبله والمعنى أن الله تعالى خالق لجميع الأشياء

---

(١) فى : ١١ إنجائهم .

ومتصرف فيها كيفما يشاء بالإحياء والإماتة بيده مقاليد العالم العلوى والسفلى والذين كفروا بآياته التكوينية المنصوبة فى الآفاق والأنفس والتنزيلية التى من جملتها هاتيك الآيات الناطقة بذلك هم الخاسرون خسرانا لاخسار وراءه هذا وقيل هو متصل بقوله تعالى وينجى الله وما بينهما اعتراض فتدبر ﴿ قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون ﴾ أى أبعد مشاهدة هذه الآيات غير الله أعبد وتأمرونى اعتراض للدلالة على أنهم أمروه به عقيب ذلك وقالوا استلم بعض آلهتنا نؤمن بإلهك لفرط غباوتهم ويجوز أن ينتصب غير بما يدل عليه تأمرونى أعبد لأنه بمعنى تعبدوننى وتقولون لى اعبد على أن أصله تأمروننى أن أعبد فحذف أن ورفع ما بعدها كما فى قوله :

ألا أيهذا الزاجرى أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى

ويؤيده قراءة أعبد بالنصب وقرىء تأمروننى بإظهار النونين على الأصل وبحذف الثانية ﴿ ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك ﴾ أى من الرسل عليهم السلام ﴿ لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ﴾ كلام وارد على طريقة الفرض لتهييج الرسل وإقناط الكفرة والإيذان بغاية شناعة الإشراك وقبحه وكونه بحيث ينهى عنه من لا يكاد يمكن أن يباشره فكيف بمن عداه وإفراد الخطاب باعتبار كل واحد واللام الأولى موطئة للقسم والأخريان للجواب وإطلاق الإحباط يحتمل أن يكون من خصائصهم عند الإشراك منهم لأن الإشراك منهم أشد وأقبح وأن يكون مقيداً بالموت كما صرح به فى قوله تعالى (ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم) وعطف الخسران عليه من عطف المسبب على السبب ..

﴿ بل الله فاعبد ﴾ رد لما أمروه به ولولا دلالة التقديم على القصر لم يكن كذلك ﴿ وكن من الشاكرين ﴾ إنعامه عليك وفيه إشارة إلى ما يوجب الاختصاص ويقتضيه ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ ما قدروا عظمته تعالى فى أنفسهم حق عظمته حيث جعلوا له شريكا ووصفوه بما لا يليق بشئونه الجليلة وقرىء بالتشديد ﴿ والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات

مطويات بيمينه﴾ تنبيه على غاية عظمته وكمال قدرته وحقارة الأفعال العظام التى تتحير فيها الأوهام بالنسبة إلى قدرته تعالى ودلالة على أن تخريب العالم أهون شىء عليه على طريقة التمثيل والتخييل من غير اعتبار القبضة واليمين[1] حقيقة ولا مجازا كقولهم شابت لمة الليل والقبضة المرة من القبض أطلقت بمعنى القبضة وهى المقدار المقبوض بالكف تسمية بالمصدر أو بتقدير ذات قبضة وقرىء بالنصب على الظرف تشبيها للموقت بالمبهم وتأكيد الأرض بالجميع لأن المراد بها الأرضون السبع أو جميع أبعاضها البادية والغائرة وقرى مطويات على أنها حال والسموات معطوفة على الأرض منظومة فى حكمها ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ ما أبعد وما أعلى من هذه قدرته وعظمته عن إشراكهم أو عما يشركونه من الشركاء ﴿ ونفخ فى الصور ﴾ هى النفخة الأولى ﴿ فصعق من فى السموات ومن فى الأرض ﴾ أى خروا أمواتا أو مغشيا عليهم ﴿ إلا من شاء الله ﴾ قيل هم جبريل وميكائيل وإسرافيل فإنهم لا يموتون بعد وقيل حملة العرش ﴿ ثم نفخ فيه أخرى ﴾ نفخة أخرى هى النفخة الثانية وأخرى يحتمل النصب والرفع ﴿ فإذا هم قيام ﴾ قائمون من قبورهم أو متوقفون وقرىء بالنصب على أن الخبر ﴿ ينظرون ﴾ وهو حال من ضميره والمعنى يقلبون أبصارهم فى الجوانب كالمبهوتين أو ينتظرون ما يفعل بهم. ﴿ وأشرقت الأرض بنور ربها ﴾ بما أقام فيها من العدل استعير له النور لأنه يزين البقاع ويظهر الحقوق كما يسمى الظلم ظلمة وفى الحديث الظلم ظلمات يوم القيامة ولذلك أضيف الإسم الجليل إلى ضمير الأرض أو بنور خلقه فيها بلا توسط أجسام مضيئة ولذلك أضيف إلى الاسم الجليل ﴿ ووضع الكتاب ﴾ الحساب والجزاء من وضع المحاسب كتاب المحاسبة بين يديه أو صحائف الأعمال فى أيدى العمال واكتفى باسم الجنس عن الجمع وقيل اللوح المحفوظ يقابل به الصحائف ﴿ وجىء بالنبيين والشهداء ﴾ للأمم وعليهم من الملائكة والمؤمنين وقيل

---

(١) سقطت من الأصل.

المستشهدون ﴿ وقضى بينهم ﴾ بين العباد ﴿ بالحق وهم لا يظلمون ﴾ بنقص ثواب أو زيادة عقاب على ما جرى به الوعد .

﴿ ووفيت كل نفس ما عملت ﴾ أى جزاءه ﴿ وهو أعلم بما يفعلون ﴾ فلا يفوته شيء من أفعالهم وقوله تعالى ﴿وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا﴾ الخ تفصيل للتوفية وبيان لكيفيتها أى سيقوا إليها بالعنف والإهانة أفواجا متفرقة بعضها فى اثر بعض مترتبة حسب ترتب طبقاتهم فى الضلالة والشرارة والزمر جمع زمرة واشتقاقها من الزمر وهو الصوت إذ الجماعة لا تخلو عنه ﴿ حتى إذا جاؤها فتحت أبوابها ﴾ ليدخلوها وحتى هى التى تحكى بعدها الجملة وقرىء بالتشديد ﴿وقال لهم خزنتها﴾ تقريعا وتوبيخا ﴿ ألم يأتكم رسل منكم ﴾ من جنسكم وقرىء نذر منكم ﴿ يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا﴾ أى وقتكم هذا وهو وقت دخولهم النار وفيه دليل على أنه لا تكليف قبل الشرع من حيث أنهم عللوا توبيخهم بإتيان الرسل وتبليغ الكتب﴿قالوا بلى﴾ قد أتونا وأنذرونا ﴿ ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ﴾ حيث قال الله تعالى لإبليس (لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين) وقد كنا ممن تبعه وكذبنا الرسل وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا تكذبون ﴿ قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها﴾ أى مقدرا خلودكم فيها وإبهام القائل لتهويل المقول ﴿فبئس مثوى المتكبرين﴾ اللام للجنس والمخصوص بالذم محذوف ثقة بذكره آنفا أى فبئس مثواهم جهنم ولا يقدح ما فيه من الإشعار بأن كون مثواهم جهنم لتكبرهم عن الحق فى أن دخولهم النار لسبق كلمة العذاب عليهم فإنها إنما حقت عليهم بناء على تكبرهم وكفرهم وقد مر تحقيقه فى سورة الم السجدة .

﴿ وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة ﴾ مساق إعزاز وتشريف للإسراع بهم إلى دار الكرامة وقيل سيق مراكبهم إذ لا يذهب بهم إلا راكبين ﴿زمرا﴾ متفاوتين حسب تفاوت مراتبهم فى الفضل وعلو الطبقة ﴿ حتى إذا جاؤها وفتحت أبوابها﴾وقرىء بالتشديد وجواب إذا محذوف للإيذان بأن لهم حينئذ من فنون الكرامات ما لا يحدق به نطاق العبارات كأنه قيل حتى إذا جاؤها

وقد فتحت أبوابها ﴿وقال لهم خزنتها سلام عليكم﴾ من جميع المكاره والآلام ﴿طبتم﴾ طهرتم من دنس المعاصى أو طبتم نفسا بما أتيح لكم من النعيم ﴿فادخلوها خالدين﴾ كان ما كان مما يقصر عنه البيان ﴿وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده﴾ بالبعث والثواب ﴿وأورثنا الأرض﴾ يريدون المكان الذى استقروا فيه على الاستعارة وإيراثها تمليكها مخلفة عليهم من أعمالهم أو تمكينهم من التصرف فيها تمكين الوارث فيما يرثه ﴿نتبوأ من الجنة حيث نشاء﴾ أى يتبوأ كل واحد منا فى أى مكان أراده من جنته الواسعة على أن فيها مقامات معنوية لا يتمانع واردها ﴿فنعم أجر العاملين﴾ الجنة ﴿وترى الملائكة حافين﴾ محدقين ﴿من حول العرش﴾ أى حوله ومن مزيدة أو لابتداء الحفوف ﴿يسبحون بحمد ربهم﴾ أى ينزهونه تعالى عما لا يليق به ملتبسين بحمده والجملة حال ثانية أو مقيدة للأولى والمعنى ذاكرين له تعالى بوصف جلاله وإكرامه تلذذا به وفيه إشعار بأن أقصى درجات العليين وأعلى لذائذهم هو الاستغراق فى شؤنه عز وجل ﴿وقضى بينهم بالحق﴾ أى بين الخلق بإدخال بعضهم النار وبعضهم الجنة أو بين الملائكة بإقامتهم فى منازلهم على حسب تفاضلهم ﴿وقيل الحمد لله رب العالمين﴾ أى على ما قضى بيننا بالحق وأنزل كلا منا منزلته التى هى حقه والقائلون هم المؤمنون ممن قضى بينهم أو الملائكة وطى ذكرهم لتعيينهم وتعظيمهم . عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الزمر لم يقطع الله تعالى رجاءه يوم القيامة وأعطاه ثواب الخائفين وعن عائشة رضى الله عنها أنه عليه الصلاة والسلام كان يقرأ كل ليلة بنى إسرائيل والزمر .

تم الجزء الرابع من تفسير العلامة أبى السعود
ويليه الجزء الخامس وأوله سورة المؤمن

فهرس موضوعى

للجزء الرابع من تفسير

أبو السعود بن محمد العمادى الحنفى

فهرس موضوعى

ص — الموضوع

٣ سورة الحج

٦ الرد على منكرى البعث
١١ الراسخون فى الكفر والمذبذبون فيه
١٦ الله يفصل بين الناس فى الآخرة
٢٠ إبراهيم وتشريع الحج
٣٠ تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم
٣٤ إلقاء الشيطان فى أمنيات الرسل

٤٨ سورة المؤمنون

من دلائل الإيمان
٥١ خلق الإنسان
٥٧ إهمال الأمم السابقة للاعتبار
٧٦ توبيخ الكفار

٨٩ سورة النور

٩٠ أحكام الزنا
٩٤ حكم قذف الزوجات
٩٦ قصة الإفك
١٠٧ أحكام اجتماعية
١١٢ من أحكام النكاح
١١٧ من طرائق معرفة الله
١٢٨ إشعار بمنزلة النبى صلى الله عليه وسلم
١٣٤ أحوال غير المهديين

١٥٤ سورة الفرقان

ص	الموضوع
١٦٨	من أباطيل الكفار
١٩٣	سمات المخلصين من عباد الله
٢٠٠	سورة الشعراء
	تسلية النبي صلى الله عليه وسلم
٢٠٤	إعراض الكفار عن الأنبياء
٢٢٩	إبطال مزاعمهم عن القرآن
٢٤٢	سورة النمل
٢٤٣	من أحوال الكفار
٢٥٤	سليمان وبلقيس
٢٩١	سورة القصص
	عناصر كفر فرعون
٣١٨	موسى وقارون
٣٢٤	سورة العنكبوت
٣٣١	الرد على منكرى البعث
٣٤٨	سورة الروم
٣٧٢	سورة لقمان
٣٧٦	من مواعظ لقمان
٣٧٩	توبيخ المشركين
٣٨٥	سورة السجدة
٣٩٨	سورة الأحزاب
٣٩٩	العلاقات الزوجية
٤١٥	خطاب إلى أمهات المؤمنين
٤٢٤	العلاقة بين الأزواج
٤٣٣	واجبات أمهات المؤمنين
٤٤٠	سورة سبأ

ص الموضوع

٤٤١ إنكار البعث
٤٤٥ فضل الله على داود
٤٥٠ أحوال سبأ
٤٦٩ سورة الملائكة
٤٧١ تذكير بالنعم
٤٨٣ من فضائل القرآن
٤٩١ سورة يس
٥٢٥ سورة الصافات
٥٤٣ قصة الذبيح
٥٤٦ سلالة إبراهيم
٥٥١ أكاذيب قريش
٥٥٨ سورة ص
٥٥٩ وعيد الكفار
٥٦٣ من أحوال الكفار
٥٧٧ فتنة سليمان
٥٨٠ ذكر الأنبياء والعبرة فى حياتهم
٥٨٦ وظيفة الرسول
٥٩٤ سورة الزمر
٦٠٧ مثل الدنيا

تم بحمد الله وتوفيقه


مطبعة السعادة
ميدان احمد ماهر – شارع الجنداوى رقم ١٢

